

کتابخانہ مصنفہ کا عالی حرا آباد دکن

نمبر درجہ ۱۲۳۳۳۱ ۲۲۲۲۲۲

تاریخ درجہ ۱۲۳۳۳۱ ۲۲۲۲۲۲
نام کتاب النوار توفیق الجلیل فی اخبار مصر و تحقیق فی
فن کتاب
نمبر کتاب فن مذکور ۲۲۲۲۲۲

$$\begin{array}{r}
 \text{XXXXXX} \\
 222.4 \\
 \hline
 22 \\
 2290
 \end{array}$$

٢
مودة ما كتب في فضل الاسلام وصار العلماء الاعلام المتحلي
بجلي القبط القدوسي حضرة حاتم الشرفين السيد العروسي

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي جعل شمس الاخبار ضياء وقران نوراً وسير سبل الاخبار
في مناكب الامصار لتكون لمن خلفهم لساناً شكوراً وذكر امتشوراً
والصلاة والسلام على من نص الكتاب العزيز بأنه الذي سابق في ميدان
المنابر سبق وقص الله جل ثناؤه على جنابه الامين أنباء ما قد سبق سيدنا
محمد الذي لا تزال مآثره الباهرة تجلي ومفاخره السائرة على تعاقب العصور
تلي وعلى آله الذين فتحوا الامصار والقرى وصحبه الذين رووا عنه ما أرووا
به نظام الورى وبعد فقد سرحت في روضة هذا الكتاب نظري وأجريت
في حومة معانيه جباد فكرى فوجدته أجمل كآب في القنون التاريخية ألف
وأجمع لشوارذ القوائد الاثرية من كل مصنف صنف قد أطلعت البلافة
من طروسه المسطورة زهوراً ورياضاً وأطلقت من معانيه الغرائب
والفاظه المزرية بعقود الترائب بحور صافية وحباضا روى المقاصد
السكرية فروى ظمأاً أربابها وحوى القوائد العجمية فأحياناً قوس
أصحابها تخبر من الآثار الدهرية أقربها وأنجبها ومن الاحاديث
التاريخية أصحها وأرجحها وما زال ينزل بسراجها الوهاج غياها التعارض
فيها حتى أزاح براقع الساقض عن أوجه معانيها أربى كلامه على
زهر الجميلة ورفى على درج المعالي الى المعاني الجميلة راقب براعته فرقت
من الخطابة أرفع منبر ورفق بمبارته فاسترقت كل كلام محرز فلعمرى
انه لكتاب كريم ورفيم جمع من أنباء أبناء الدهور كل نبأ عظيم أراياياته
كيف يكون صورا البيان وكيف تتعلم عقود المعاني من فرائد اللؤلؤ والمرجان
بلفظ وجيز مفيد قريب يصيب الغرض البعيد يقضي بإسماعه الى السجود
ويجري في قلبه جريان الماء في العود ومعنى تتعشقه الحور والحسان
وتتماسد عليه الآذان والاذهان فغرام على الادباء أن يأتوا بعمل هذا الصرح
الحلال والسر الذي طالما كتته الايام والليال وقد طالما وقعتنا
الاسفار التاريخية في ظلمات من الاوهام بعضها فوق بعض فأوقفنا

تصويراته الشاقبة على صريح الحق الذي عليه بالنواجز بعض
 اذا قالت حذام فصدقوها * فان القول ما قالت حذام
 ولا غرو فناظم عقود دوره وناظر فرائد فوائده فقره نادرة النوادر الاديبة
 الارباب الذي من أجله قيل كم ترك الاول والاخر ناشر اعلام العلوم ومحل
 ترائب الآداب بقلائد المنثور والمنظوم فشكر الله لذلك الصنع الجميل
 وأثابه عليه الثواب الجزيل بجاد خاتم الرسل الكرام صلى الله عليه وعلى
 آله وصحبه ما تعاقبت الليالي والايام آمين
 مصطفي العروسي خادم العلم
 والفقراء بالجامع الازهر

صورة ما كتبه خاتمة المحققين وقدة المدققين مربي
 الطالبين الاستاذ الشيخ الدمهوري

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

الحمد لله الذي ألهم بتوفيقه ذوى العقول سلوك سبيل الاعمال الصالحة وأنعم
 على أولى الفضل بتميز النقول الراجحة لتحصيل الآمال الناجحة فكانت نجوم
 نواقب أفكارهم على طبق ارادته سائرة وشعوس مناقب آثارهم على سمت
 هدايته مشرقة نائرة فانطبع أنوار ما ترهم في صحائف مرآة الزمان
 وانبعث أشعة مفاخرهم في طروس الزمن الحالى وان دخلت في خبر كان قص
 جل شأنه في كتابه القويم آثارا لا خيار ونص عز برهانه في كلامه القديم صحيح
 الاخبار والصلوة والسلام على محي دولة الاسلام ومنقذ مهج أصفياه
 من الجهالة والاثام وعلى آله الذين خلدوا بالتاريخ أعوامهم وأبدوا
 بذكر الوقائع الماضية أيامهم وعلى أصحابه الذين امتازوا بالذكرا الجليل
 وقام على مكارم أخلاقهم أكمل برهان وأجل دليل * أما بعد فالانسان بطبعه
 يتشوق لسماع أخبار الامم الخالية ويتشوق للامع بذكر من تقدم حديث
 عهده من الاقوام الماضية ويرغب خصوصاً في الوقوف على أحوال وطنه
 الذي به ربي وبجسوة مهده جي ليكون على بصيرة من تقدمات وطنه
 المألوف وليعلم سابقة هم سلفه فيما مر على بلاده من مئات السنين والالوف
 ويتحقق من أحرز الفضيلة وانتهز الوسيلة في مساعدة الاوطان واعانة

العمران وهذا هو موضوع فن التاريخ الكافل بهذه المزايا الجليلة والحامل
على تحصيل القوائد الجزيلة اذ لا ريب في ان يدبر الزمان ومراعاتها
وروح جثمانها وبه حياتها لا يجرم أن ينتهج جميعا باجادة به عناية الدولة
الحدوية الاسماعيلية من المناهج وينتجج بما سمعت به وسائل التقدمات
الوطنية من المباحج ونجيب داعي السرور بالقول ونشرح الصدور
بالقول الشارح تصديقا للفقول

قد افادت مقدماته نتيجة الثناء على العزيز بكل لسان وأعادت كلمات
محاسنه الى مصرنا سلبيات عموم الازمان جزئيات عديدة كانت قبله من
المهمات وأشكال جديدة صحت مقاصدها الصحة المقدمات ختمها تسهيل
المعارف ونيسر العوارف بتاريخ مصر الذي جدت في هذا العصر
ولعمري انه تاريخ فاضل تزدحم خواطر الفضلاء عليه ومؤلف كامل تمثل
المؤلفات بين يديه تنفجر انهار الاجادة من غياض براعته وتعتطر أزهار
الافادة من رياض فصاحته يشرف الاسماع مافيه من لطائف وآداب
ويروق الابصار ما انطوى عليه من ذكر المسببات التاريخية والاسباب فانا
لم نقف الى الآن على تاريخ تجلي بهذا الاسلوب الغريب وتجلي بجملة
التسهيل والتقريب فبيان منطق السديع أفصح عن تصريف الافعال
وجمع جمع تصحيح ما تفرق من أسماء الابطال والرجال قلته در مؤلف كلماته
الجوامع الا وهو الامير النبل رفاة رافع

لا عيب فيها وهو شاهد حسن * الانبرجها بكل مكان

جلت وان قلت صنائع لفظها * ولكم لنا طقت بسحريان

نجميل صنعكم وأجل صنائعنا * وبديع فضلكم وأدق معاني

فكم فيه من خبر صحيح نشر ومن مأثور راجح سطر وذكر مهاذنات
ومسالمات ومحاورات ومكالمات ووقائع حرب وكفاح ومواقع سمر وصفاح
واغارة بعض الممالك على بعض وتعاقب دول على بقاع متسعة من الارض
وكم فيه من استطرادات فائقة ومناسبات لائقة وأحسن مافيه النزاهة
عن خرافات الحكويين واجماء النباهة لرذلة قولات المستهوين ولا غرو
في ذلك ولا بدع في سلوكه أحسن المسالك ممن له كال الاطلاع في أنواع

الفتون ولا يأخذ بالتقليد ولا يبادئ الظنون فهذا المؤلف معروف في
 القديم والحديث لأنه لم يزل قائماً على ساق الجد بعزم حديث فكتم نشر في
 عصرنا عصرنا ناكيفه الجليله الوافيه كاتعريبات الشافيه لمريد الجغرافيه
 وكأب قلاند المفاخر في غريب عوائد الاوائل والاواخر ورحله الباريزيه
 السائرة مسرى الكواكب في الافاق فلاغروان قام على فوقان تاريخه
 الاجماع والاتفاق فهو نور صباح ساطع أوضو مصباح لامع يشرق
 في أرجاء الوطن فاسأل الله سبحانه وتعالى أن يمن على مصرنا بتوفيق ولين
 النعم لمثل هذه الكالات التي بها جال هذا الزمن وصلى الله وسلم على سيدنا
 محمد خاتم الرسل وسيد الكل وعلى آله وأصحابه ومن تأدب بأدابه
 الفقير اليه تعالى محمد الدمنهوري خادم
 العلم الشريف بالازهر المنيف

صورة ما كتبه على السند والالتناء أستاذ الاساتذة

وعمد الجهابذة الشيخ ابراهيم السقاء

الحمد لله مبدع أمم العالم ومبدئ همم بني آدم وجاعل أحوالهم قصصاً تلي على
 عتر الدهور يعتبر بالمتقدم منها من تأخر في العصور أنبأ بعضها تفصيلاً
 وبعضها اجمالاً في كتابه الذي أنزل على سيد أنبيائه وأحبابه والصلاة
 والسلام على رسوله الصادق في أنبائه وأخباره وعلى آله وأصحابه وأنصاره
 وأصهاره والتابعين وتابعيهم طبقة بعد طبقة بالانقياد والاستسلام دائماً
 وأبداً وسرمداً مادامت دار السلام منعماً بها أهل الاسلام أما بعد فقد
 رأيت جزأماً ألقه وجهه السيد الهمام الفاضل الامام الحبيب النسيب
 الاديب الارب سعادة رفاعة بك أيده وسدده وأحسن مسعاه وأمعه
 في التاريخ المتحرى فيه الصحيح من الالباء المحتر من كتب الاذكياء الالباء
 المظنوب بهم أن لا يفتوا الا باطيل ولا يفتقروا المشكوكات والاضاليل
 فوجدته في معناه مبدعاً وفي مبناه رفيعاً جامعاً للمحاسن التاريخية جميعاً
 حقه أن يكتب بماء العيون وتشر به قلوب أهل الشجون وتلقاه بالقبول
 أرباب الهم المحبون للاطلاع على أحوال الامم كأنهم معهم حاضرون
 ولا قوالهم سامعون ولا فعالهم مشاهدون ويرون ما حل بهم من جزاء تلك

الأحوال فمأوجب الخلل اجتنابه وفعلوا ما أوجب الاستقامة من الخلال
وقد أشار مؤلفه إلى أن ذلك مطلوب الحضرة الخديوية ومرغوب الذات
العزيزية وهذا مما يدل على راقته الكلية وسعيه في تمدن رعاياه وكمال
العمارية بل على تمام رجته بسائر البرية لا تشار ذلك بعد تمام طبعه في
الاقطار والبلاد وعموم نفعه من يطلع عليه فيمن العباد وفقه الله للمراحم
التي هي شأن حضرة على الدوام وجعل مساعيه كلها على أكمل وجوه
الكمال والتمام

كتبه إبراهيم السقا خادم العلم
الشريف بالازهر

صورة ما كتبته فخر أمراء الدولة المصرية سعادة رئيس
المجلس الخصوصي وناظر الداخلية

الحمد لله وحده فن التاريخ فن جليل المقدار كثير الفوائد من مزاياه
توسيع عقل من يطالع كتبه وذهنه حاضر وعينه يقظي فعلياً أن تتخذ
مرآة للوقائع الماضية ليرى ناصوراً أفعال الأقدمين على وجه الصحة وتستفيد
منها ما ينفعهم في أفعالهم بعين الاعتبار ولا ينبغي أن تتخذ لها واهجاً وتسلياً
كمما لو عين بالحكايات المخترعة الملققة التي أكثرها خرافات بل هي
في الحقيقة للعقل آفات ولا تفيد مطالعها الا فساد المزاج وتعوده على
تصديق المستحيلات فلذا يجب علينا أن لا نتلق ما نقلته كتب التواريخ
قضايا مسلمة بل نبعث فيها ونضعها في موازين العقول أو بالأقل نتبع آثار
من يجتوئها فنأخذ ما قوي دلائله واتضح حججه وبراهينه والحق
الذي لا ينبغي العدول عنه في هذا الفن ترك الميل والتعصب لقوم دون آخرين
والتحري في النقل والرجوع إلى حكم العقل فؤلف هذا الكتاب راعي
هذه المزايا حق رعايتها على نسق جيد لم يسبق إليه في لساننا فلابد عنا إلا
استحسن صنيعه فإنه كتاب ينفع أبناء وطننا كما أن له مؤلفات أخر نفعنا الله
واستحسنها الخاصة والعامة ولمثل سعيه فليعمل العاملون وعلى نهج
اجتهاده فليسع العاملون فخير الناس من تقع أخوانه بثمرات اكتسابه علماً
أو غيره ففسأل الله تعالى أن يكثر في وطننا ذوى المعارف والغيرة ومصل

الله على رسولنا محمد وآله وصحبه أجمعين

محمد شريف

صورة ما كتبه شهيم أمراء العسكرية سعادة

شاهين باشا ناظر ديوان الجهادية

من المعلوم أن الاطلاع على أحوال الأمم الماضية وحوادث العصور الخالية فيه للانسان فوائد عظيمة ومزايا جسيمة ولذا كان علم التاريخ فضله لا ينكر بل هو أشهر من أن يذكر ولقد شغفت بمطالعة الكتب التاريخية سيما تاريخ مصر المحروسة المحمية حيث انها هي الوطن المحبوب والمقام المرغوب فلم أجده تلك الكتب مشحونة بالاجبا يا باه الطبع وبقرمه السمع من أباطيل خرافة وأقاويل سخافة فكنت أتمنى ان أرى في توارخ مصر كتابا جامعافعا حتى اطلعت على هذا الكتاب المسمى بتوفيق الجليل في تاريخ مصر وتوثيق بني اسمعيل فوجدته مع خلقه من أحاديث الخرافات جع فأوعى وأحاط بأحوالها وأحوال ملوكها أصلا وفرعا فسررت وشكرت مؤلفه على هذا المسمى وقلت الشيء من معدنه لا يستغرب فان مؤلفه له في نشر العلوم بمصر آثار جليلة وشواهد جليلة كيف لا وهو متقن الايمان ومنتهى البيان كوكب العلم الساطع سعادة رفاعة بيك رافع واني ليسرني أن يكون في مصرنا من أبناء عصرنا كثير من أمثاله أهل القطن يبذلون همهم فيما تعود منفعة على الوطن ليكون القطر المصري مزينا بأنواع العلوم على الدوام متقدما في زيادة التمدن وكمال الانظام في ظل ملكه الذي ساسه وعزيره الذي شيد أساسه لازال رفيع المقام هو وأنجاه الكرام

(ناظر الجهادية شاهين)

صورة ما كتبه الامير الجليل طراز الدولة المصرية المعلم سعادة

خيرى بك مهردار جناب الخديو الاكرم

أحمدك يا من أبدعت الخلائق واني لمعترف بالعجز عن أداء الحمد اللائق خلقت آدم ومنه انشروا نوح البشر وبعثت من ذريته أنبياء كل منهم هدى

واندرو بشر وجعلت من الناس ملوكا رؤسا ففهم من ساس بالعدل ومنهم من جاور آسا فالملوك ما بين مدوح ومطعون ممن يتبعون سيرهم ويطلعون وهم مجزيون بأعمالهم عند الملك الجليل ومذكورون بأفعالهم على السنة الناس جيلا بعد جيل وأصل وأسلم على سيدنا محمد الامين المبعوث رحمة للعالمين المصدق في كل ما أتاه والهادي الى أقوم السبل من تحير وتاه من اتصل تاريخه بنسبه بالنبي الجليل اسمعيل وقص عليه ربه أحسن القصص في محكم التنزيل ففي آياته عبرة للموقنين وفي معجزاته قناعة للمتفطنين وعلى آله وأصحابه الاخبار الناقلين لناصباح الاخبار وكان كل من تولى أمر هذه الامة منهم عدلا خيرا فانقاذت لهم الامم وأعطاهم الله ملكا كبيرا وبعد فان الدنيا كلها عبر يعتبر فيها من تأخر بأحوال من تقدم وغبر ولا مريية في أنه تتزايد العقول بما يصل اليها من الاخبار والنقول فان آثارا لاسلاف دائرة بين أمرين بلا خلاف اما حسن بحبه الاتباع أو قبيح بحجب عنه الارتداع فالحسن يتلقى والقبيح يطرح ويلقى فيصول محاسنهم اليها تكون لنا عقلا مستفاد من غير مشقة علينا وعلينا صرف الافكار في غيرها الى أن نحمد الفكرة في سيرها غير أن طريق وصولها متشعبة في أبواب كتب التواريخ وفصولها وقليل منها ما كشف عن وجه القصد الاقتناع وأفاد ليدي الاطلاع الاقتناع والاكثر في العصف على الوجه المردوم كتب تواريخ الفرس والروم لان جل قصد مؤلفيها مدح سلاطينهم ودولتهم وقدح مخالفها فلا تراهم يتكلمون بقوله الالاسناد الغلبة والصولة تلك الدولة مع سب الخالف والمعادي وتسفيهه في المقاصد والمبادئ فغشاء التعصب على أعينهم حاجب عن رؤية الحق وأداء الواجب الا واحدا أو اثنين منهم من المتأخرين سلكو انهمج المتبصرين من المؤرخين وأما التواريخ العربية وان كان من مؤلفيها من ابتلى بالعله العصبية فقيمهم رجال غفول لا تعادل عن الحق ولا تحول يروون الاخبار كما وصلت اليهم ويلفون الوقائع على الوجه الذي ثبت لديهم بيد ان الاحوال التي قبل الاسلام في الزمن الغير المعهود أكثرها منقول من كتب اليهود لانكاد تخلو عن الخلافات وفيها كثير من الاحاديث الخرافيات نقلها المؤرخون

بالاعتماد من غير محرقى صحتها ولا اتق د فقيير صحتها من فاسدها أصعب
 من خوط القتاد فذلك اعتنت الاقوام الاورباوية بالاستكشافات الدقيقة
 وتببع الآثار القديمة والخطوط العتيقة فاستدلوا منها على أمور تاريخية
 تفيد الظنون الراجحة لانهم بنوها على تأسيسات متينة وبراهين واضحة
 وقد طامنا نطلعنا من عناية من تعلموا اللغات الاجنبية أن ينقلوا الى اللغة
 العربية ما وصل اليه هؤلاء الاقوام وما أتى اليه معهم في تلك الاعوام
 حتى شرع من ساعد الجند والاهتمام الامير العالم الفاضل الهمام من تولى
 بالقضائل وهو يافع الامير الاملى رفاعة رافع فشرع فى تأليف هذا الكتاب
 فى فن التاريخ المستطاب وهو وان كان لتاريخ مصر موقفا ومجوعولا فقد
 سرت من أخبار أجناس الناس أبحاثا ونقولا لان مصر أم الدنيا أمتها قد بما
 كثير من الامم وبذلو فى اعلام مقدارها وتعمير اقطارها ما استطاعوه من
 الهمم والميات وارتد الملوك وفيها تنافست واتخذت ما كاتوا وسورها أنتست
 وكل من أولادها وفحام دار حول جواهرها والمورد العذب كثير الزحام
 فتاريخ مصر تاريخ لدنيا بالاجمال لاشتماله على خلاصة أخبارها أى
 اشتمال وقد قسم الامير الموما اليه هذا الكتاب على حسب ما اشتمل عليه
 الى جزأين جزء مختص عن حكم مصر قبل الاسلام من الملوك الاقدمين وجزء
 مشتمل على من تولوا أمرها بعد بعثة خاتم الانبياء والمرسلين فالقسم الاول
 جمعه وترجمه من كتب معلومة كثيرة من التواريخ الافرنجية لى هى بالنقطة
 معروفة شهيرة والقسم الثانى مواده كتب التواريخ العربية مع
 الاستعانة حسبما يقتضيه الحال بالكتب الاجنبية فقد جاء مجموعا جامعاً
 والخاصة والعامة مفيداً نافعاً ولا غرولان مؤلفه متفنن متقن وفى اللغتين
 مجيد ومحسن أثنى آفته فيما فات فى تصنيف مؤلفات استحسنها أرباب
 الفطن وانتفع بها أهل الوطن وله الملكة الرخصة فى التأليف والباع
 الامد والرتبة الشاخصة فى كل العلوم حتى وصل الى أجداد الامد وحينما
 كان الموما اليه على مدرسة اللسن ناظرا كان روض المعارف بها ناعا
 باضرا نبغ فيها بريتة رجال أفلمروا وأضحوا من أهل الفلاح والكمال
 اتقوا العلوم الادبية وأحسنوا اللسة الاجنبية وترجوا لنا كتبنا

عبيدة جعلتها نافعة مفيدة فليتها دامت واستمرت الى هذا الزمان ليظهر
منها رجال في العلوم فرسان لكن الدهر المسمى محال قبل هذا العصر مع
ما فيها من المعارف الحسان وفي أمل الكل إعادة مثلها بعصر القاهرة مع
إضافة لسانى التركى والفارسى الى ما كان فيها من اللسانى والعلوم الباهرة
وليس ذلك بعزى على العزيز الذى جهز المدارس العلمية أى تجهيز وأعاد
ما اندرس من المعارف بجزيل المتن والعوارف وذاب الكرم المعلوم
تنشيط مؤلفى الكتب فى العلوم لان الطف الانصاف تلطيف المصنفين
وأشرف الارصاف تأليف قلوب المؤلفين ومن جملة محاسن عصره
ومقتضى ما مضى أمره تأليف هذا الكتاب الذى أعجب فى فن التاريخ وأولى
الالباب اذ لم يسبق بمثله بالدار الاسلاميه فى هذا الباب وهو الذى اقترح
هذا الاسلوب العجيب على الامير الموما اليه فلباه بطلب فطن ولسان عجيب
فصار أبهى أعجز اقتلع فيه المعنى المقصود وامتزج فعلى المؤرخين
أن يقتدوا به لان المؤلف قدوة وينسجوا على منواله المرغوب ويحذوا فى
هذا الفن حذوة وصلى الله على خاتم الانبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه
أجمعين

(أحمد خيرى)

صورة ما كتبه التلى بحلى المعارف العصرية
حضرة مديروان الاشغال والمدارس المصرية

الحمد لله الذى أقام تاريخ الامم الماضيه شاهدا عدلا على وحدانيته وجعل
قصر أهل القرون الخالية قولاصلا فى الدلالة على تمام قدومه والصلاة
والسلام على سيدنا محمد المجتبى من خيار أحياء العرب وعلى آله وأصحابه
العريقين فى النسب فتح الله بينهم سائر المدن والامصار فحقت سيرة
خلافهم فى سائر الاعصار ثم العطاء بدوام العز والاقبال لمعيد فخار مصر
يتجديده فيها من المعارف والعوارف كل أمر ذى بال وهل يحتاج الى دليل
تأسيس قواعد الحمد من عهدنا جميل

ومن الكفيل له بمصر ما أثر * فضل العزيز منزعه عن حصره
لكن لا بسعنا أن نضرب صفعا عن مدح ما برز فى ميدان البراعة وحاز قصب

السبق في مضمار البراعة من تاريخ مصر الصادر عن أمر العزيز الذي تجزئه مؤلفه في أسرع وقت وجهزه بأحسن تجهيز وامتاز بالسبق به كمال التميز ولا عجب في ذلك فإنه أحد الأخذين من العلوم العربية والفنون الادبية يحفظ وأقر وكلمة من مآثر فكيف وله دائماً في نفع الوطن الهمة الاولى واليد الطولى ولهذا كان كتابه في تاريخ مصر يدعي الاسلوب غير بعيد عن المرغوب تترجم عن لغو المؤرخين اذا أتى من سبب الاخبار بنبايعين

فان فن التاريخ على كثرة مؤلفاته العديدة ومصنفاته القديمة والجديدة قل أن تخلو كتيبه من حكايات مبتدعة وتقولات محترة وأمور وهمية لاتستقل بالمفهومية تولع بها أرباب الهجائب وتقلها عنهم من تطلع لذكر الغرائب بدون عرضها على محك الاختبار فدخلت من المبتدا بلامطابقة في مستند الاخبار وأما ما في هذا الكتاب المستطاب فهو من الحقائق الموزونة بميزان الصواب وما يذكروا الأولو الالباب لاسيما وانه قريب المأخذ في هذا الفن ونافع كل النفع لاهل الوطن وهو من أعظم المآثر التي يصالح الانيمة على الخديو الاكرم في الاول والاخر خلد الله عليه وعلى أنجاله الكرام بجزيل الفضل والانعام بجاه بدر التمام من هو للربل ختام

على مبارك مدير ديوان

المدارس المصرية

والاشغال العمومية

صورة ما كتبه بدر العلماء وكوكب الادباء السارى

حضرة العذرة الشيخ عبد الهادي نجبا الاياري

ما جعلت بلايل الالسننة في حدائق الاندية بأطرب من حمد الحميد الحميد ولا سطعت بوارق الانيمة في مشارق الاودية بأوجب من شكر المبدئي المعبد فله الحمد على أن وفق من أراد من الاخبار للتوفيق بين تعارض الاشتمال والاخبار جدا الاتزال أنوار كائنه بحاسن الاخلاص يانعة وأنوار معلمه في آفاق القبول ما هبت الصبا والقبول ساطعة والصلاة والسلام على من جاء بفضل المطلق على جميع العالم صحيح النبأ وصرح الخبر وضاء من كواكب جبين وجوده الوضاح ما فيه رحمة وبشرى للبشر سيدنا

محمد الذي ما طلعت الشمس على أجل من طلعت ولا أرخ المؤرخون أوفى
 من مناهج سفته ولا أنسنى من مباهج سرته وعلى آله الذين جاؤا وأودية
 الفضائل حتى آوا منها بأسمى المطالب وجاؤا في الأزمنة الأخيرة فباؤا
 ما تر الحامد باسمي المواهب أما بعد فقد طالت المشوقنا شوق العليل إلى
 الشفاء وأهل مصر إلى يوم الوفاء بل تشوق المعسر إلى الأيسار والأعشى
 إلى الأبصار إلى كتاب كريم ينطق بالحق عن حقيقة مصرنا وتاريخ حكيمة
 يعرب لنا أفعال ملوكها الماضية ويعرف مستدات أخبارها إلى عصرنا
 ان لم نر من حام حول هذا المحي فأروى فيه القوادس الظما ولا من رام هذا
 المرام فأعمل فيه صحيح الأفهام وأهمل سقيم الاوهام بل ما بين مؤتم
 بمعول القدوة ومهم باراد ما ليس بها الصحة قوة حتى بزغت شمس هذا
 الكتاب وبرزت مخدرات خرائده من الحجاب فلما أجلت في ميادين سطور
 طروسة طرف طرق ظفرت منه بما يرى من العلال آثار بحية وبشقي ووحدة
 كتابا يلعب بالعقول تحريرا وتنقيحا ويعت بالكوكب الدرية تحريرا
 ونصحا يحق لكل من وقف عليه من ذرى الأفهام أن كلم أمراء الانام
 أمراء لكلام ويقول لكل من تشبأ بال معارضة أدبه قف وتأدب
 ولكل ناظر فيه وفي نظرائه من التواريخ انظر راعب وأنى يقاوم المكثمين
 كل فن من يجمع جمع القلة أو كيف تعارض الافعال الصحيحة بالمصلحة وانى
 لا قسم بغصون أقلام مؤلفه المثرة بالهدى الموضحة من الحق طرائق قددا
 انه لكتاب لا يعرف سبعة المطوق وأنه ليعقد بسره اللسنة التي لمعارسته
 تشوق وان فصول ثمره لتعالى عن النثرة وعقد نظم ليصب القلق في
 قولها زهرة راقب براعته فرقت من الخطابة أرفع منبر ورق عباره
 فاسترقت كل كلام محتر فهو تاريخ تؤرخ به صحف المفاخر وتؤرخ به غير
 غيره سير الاوائل والاواخر بضي سيج بطوره لعين مطالعه سرياً ويضوع
 مرج براعته لقارئ عبارته أربا فلوا كهل الاعشى بذلك التورار تداليه
 طرفه أوقاخ الروص ذلك الارح ضاع مع الرياح عرفه وما دراك انه
 ينحش الارواح الهامدة ويلين الافئدة والقرائع الجامدة الا وان ألقاطه
 لدرر بحور تبتها الخرائد لها فلا تنحور كل لفظ منها بل كل حرف جاء ليعنى

وكل فصل ووصل هو امر ائس البلاغة معنى كيف لا وولفه الامير الذي امر
 امر فضله فغنت وجوه الفضلاء لوجهه ووهت ثوى الباحثين عن الاتيان
 في القول والفعل بشبهه تتجبرعون المعارف من بين أصابعه الكريمة وتتجتر
 فنون العوارف مهترة الماكب في مناكب طروسه النظمية ولقد فاحت نوافح
 الادب في هذه الاعصر فكان أول ناشق ولاحت لوائح العلوم الرياضية
 في هذه الامصار فكان أول عاشق حتى أصبح كل أديب راويا لحديثه المسلسل
 راويا من عذب رحيق أدبه السلسل فما من أحد من أدباء هذا الزمن
 الا واليه ينتهي سند حديثه الحسن فهو المجدد في هذا العصر لشرة الادب
 بالاجاع والمنشيء مصائب الانشاء ودواوين البراعة بلا نزاع وان له فضلا
 وافرا بالحكمة وفصل الخطاب وجوه فكر منسرح سريع السباحة في بحور
 الآداب وقد أحسن اذجاء بهذا المؤلف المؤلف بين قلوب الاخبار المعترف
 لسكرات الآثار في غواير الاعصار ودوائر الامصار فشنى به على القلوب
 ووفى بكل ما هو لذوى الرواية والروية مطلوب فليصه الاديب سميعة في
 الدباجر وعمدته في تحرير سير الاوائل والاواخر وبعض بالتواجد عليه
 ارباب النهى فان عليه في فنونه المعول واليه الانتها والصلاة والسلام على
 خير الانام ومسك الختام

قاله بضمه ورقه بقلمه عبد الهادي

نجيب الابارى عنى الله عنه

صورة ما كتبه الامير الناجب ذو الذهن الثاقب حضرة

على بك جلال وكيل المحافظة سابقا

الحمد لله والصلاة على نبيه ان أحسن ما يستصحب به ويستعمل في معرفة
 أسرار الحكم الخفية الالهية التي هي سبب لانتظام العالم واصلاحه بالحالة
 المشهودة البهية ويستنتج من أحكامه ما هو معين على التأديب والتدبر
 وموقف ومنبه أصحاب العقول السليمة والتفكر وهو علم التاريخ الذي يعرف به
 أحوال السلف ويحصل منه نفع عظيم لمن يتعظ من الخلف فهو في الحقيقة
 علم نافع عظيم ومرب ومؤدب ومهذب حكيم الأئمة لم يعلم جيد حقيقة
 موضوعه في الممالك الشرقية الا ان مارس كتبه وقابلها بالمؤلفات الاجنبية

حيثاً كثر مؤلفي العرب والعجم جعلوا تصانيفهم التي من هذا القبيل كأنهم
 صكبت أدبية مشحونة بفصح العبارات وبجائبات الحكايات بما ليس إلى
 استعدادهم إذ في أكثر الأحوال لا يستدل على أسباب الواقعة ومآلاتها
 منها حتى يتأقن الإنسان السلوك في العمل على أمثالهما والتجنب عنها بما أن
 ذلك هو القصد المرغوب من التاريخ الصحيح المعنى الرابع الأسلوب فلما لم
 يوجد إلى الآن لمصر تاريخ تقيس واضح مشتمل على هذه الأوصاف فليست
 الاحتياج إليه لا بناء الديار المصرية وغيرهم ممن يرغب في هذا الفن من
 المعاصرين والاختلاف وأداء الخدمة المقبولة للإنسانية والمحبة للوطن
 العائنة عليه بالمزية شرع في انجاز هذا المقصود من ظل عرفانه على
 أبواب الكمال بمدود حضرة رفاعة بك أفندي الشهير المستغنى على الأطباء
 والأطراف بالتعبير فحسبه أنه يستدل على عظم شأنه بآثاره النفيسة العديدة
 مما يظهر به حقيقة قدره ومجربته المعروفة لذي الألباب السديدة
 فالواجب علينا أن نشكر حسن صنيعه كل حين وأن نتودى ما علينا من
 فرائض الحمد على ذلك للواهب المنان حيث منحه بمولاه النافعة في هذا
 العصر الباهر وفناج أفكاره الباهرة كما هو ظاهر فلا زال موفقاً للخدمة
 وطنه بمثل هذه الهمة يجام من ختمت به الرسالة وتمت به على أمته النعمة

على جلال

فهرسة الجزء الاول من كتاب أنوار توفيق الجليل
في أخبار مصر وتوفيق بن اسمعيل

صحيحة

- ٢ خطبة الكتاب
- ٤ معروض الانتخاف ومفروض الاستعطاف لولى عهد مصر الوثيق
حضرة محمد باشا توفيق
- ٧ تنبيه ووجه يحتاج اليه التنبه في تقسيم التاريخ الى أثرى وبشرى
- ٨ تمهيد لتاريخ مصر وتوطيد لاغنى عنه الطالب المستفيد
- ١١ تقسيم تاريخ مصر الى أقسام وضعية بناء على أدوارها الطبيعية
- ١٢ أقدمية مصر في التقدم والتقدم
- ١٤ ترتيب مملكة مصر في القديم وسياستها وأخلاقها وعوائدها
- ١٦ كيفية الحدود والعقوبات عند المصريين
- ١٨ كيفية تقدم الفنون والمعارف
- ١٩ المقالة الاولى في تخطيط ديار مصر وفيها عدة أبواب
- ١٩ الباب الاول في تحديد مصر وطبيعة أرضها
- ٢٠ الباب الثاني في بيان النيل المبارك
- ٢٢ الباب الثالث في منافع النيل في مزراع مصر
- ٢٤ الباب الرابع في شلال مدخل النيل الى مصر
- ٢٥ الباب الخامس في استكشافات منبع النيل لاسيما رسالية عزيز مصر
الجليل
- ٢٦ صورة ما قاله بطليموس مع بعض ملحوظات
- ٢٧ نتيجة رسالية سليم بك قبودان ودرود بك لسفر البحر الابيض
- ٣٠ الباب السادس في زيادة النيل وذكر المقاييس
- ٣١ الباب السابع في فضل النيل ومزاياه
- ٣٣ الباب الثامن في بحيرات مصر
- ٣٣ بحيرة مريوط
- ٣٤ بحيرة المهدية

صيفة

- ٣٥ بحيرة اذكو
 ٣٥ بحيرة البرلس
 ٣٥ بحيرة المنزلة
 ٣٦ بحيرة أبو بلع
 ٣٦ البحيرة المسماة سبعة برداويل
 ٣٦ بركة التماسح
 ٣٧ بحيرات التطرون
 ٣٧ بحيرة القارون
 ٣٨ الباب التاسع في ترع مصر وخطابها
 ٣٩ بحر مويس
 ٣٩ البحر الصغير أي بحر المنزلة
 ٤٠ بحر شين الكوم ويسمى بحر القرينين
 ٤٠ البحر الصعدي
 ٤٠ الحمودية
 ٤١ ترعة الجعفرية
 ٤١ ترعة البوهية
 ٤١ ترعة البحيرة
 ٤١ بحر يوسف
 ٤٢ ترعة السوهاجه
 ٤٢ الباب العاشر في نباتات مصر وحيواناتها ومعادنها
 ٤٦ الباب الحادي عشر فيما شوهد من الآثار القديمة بمصر
 ٤٩ تنبيه يتعلق بالاتيكة
 ٥٠ الباب الثاني عشر في ولاية مصر قديما وحديثا وتقسيمها الى حالتين
 حالة ولاية مصر قبل الفتوح بالاسلام وحكمها بأهلها وأبوابها وحالة
 ولاية مصر بعد الفتوح بالاسلام
 ٥٠ ولاية مصر قبل الفتوح بالاسلام

مصحفة

- ٥٢ المقالة الثانية في طبقات ملوك مصر وفيما عدا أبواب
 ٥٣ الباب الأول في الطبقة الأولى وتسمى العليا
 ٥٥ تنبيه في أول ملوك مصر بعد الطوفان وأنه مينا المسمى مصريم
 ٥٦ الباب الثاني في الطبقة الثانية وتسمى الطبقة الوسطى
 ٦٢ الباب الثالث في الطبقة الأخيرة
 ٦٢ تنبيه يتعلق بمبدأ هذه الطبقة
 ٦٣ الفصل الأول في ملوك الدولة الثامنة عشرة
 ٦٤ جدول ملوك الدولة الثامنة عشرة
 ٦٥ الملك أمونوفيس الأول
 ٦٥ الملك طوطميس الأول وتسمى طوطوميسيس وهو ابن أمونوفيس
 الأول
 ٦٥ الملك طوطوميس الثاني
 ٦٦ الملكة أمنسه ويقال إن اسمها هاتازو
 ٦٧ الملك طوطميس الثالث
 ٦٨ الملك أمونوفيس الثاني
 ٦٩ الملك طوطوميس الرابع ابن أمونوفيس الثاني
 ٦٩ الملك أمونوفيس الثالث
 ٧٠ الملك هوروس بن أمونوفيس الثالث وبنته المسماة طماهوموت
 ٧١ الفصل الثاني في ملوك الدولة التاسعة عشرة
 ٧٢ الملك وميسس الأول ابن هوروس
 ٧٢ الملك منفطة الأول المعروف عند اليونان باسم سيطوس الأول
 ٧٤ الملك رمسيس الثاني المشهور عند اليونان باسم سينوستريس
 ٨٦ الملك منفطة الثاني وبيان أنه هو فرعون الذي أغرقه الله في بحر القلزم
 ٨٧ الملكة طوصير بنت الملك منفطة الثاني
 ٩١ الملك منفطة الثالث ابن الملك منفطة الثاني
 ٩٢ الملك رهاميري

٩٢	الفصل الثالث في ملوك الدولة المكملية العشرين
٩٣	الملك رمسيس الثالث
٩٤	الملك رمسيس الرابع
٩٥	الملك رمسيس الخامس
٩٥	الملك رمسيس السادس
٩٦	الملك رمسيس السابع
٩٦	الملك رمسيس الثامن
١٠٠	الفصل الرابع عشر في ملوك الدولة الحادية والعشرين وفيه ذكر مدينة تنيس وجنانها وان في جناتها نزلت آية واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لهما جنتين الآتية
١٠٢	الفصل الخامس في ملوك الدولة الثانية والعشرين
١٠٣	الملك شيشاق وهو شيشونق الاول
١٠٣	الملك أوسرخون الاول
١٠٤	الملك شيشونق الثاني
١٠٥	الفصل السادس في ملوك الدولة الثالثة والعشرين
١٠٨	الفصل السابع في ملوك الدولة الرابعة والعشرين
١٠٨	الملك بوخوريس
١٠٩	الفصل الثامن في ملوك الدولة الخامسة والعشرين
١٠٩	الملك سباقون
١١١	الملك سواخوس ويسمى سباقوطيف
١١١	الملك طهراق
١١٢	الفصل التاسع في ملوك الدولة السادسة والعشرين وتسمى اصطفاينا طية
١١٧	الملك ابسا ميطي قوس الاول
١١٩	الملك نيفاوس الثاني المسمى فرعون الاعرج وفيه الكلام على بني امرا تيل وفيه أيضا حرب نيفاوس مع بختنصر وتخريب بيت

صيفة

المقدس

١٢٣ الملك ايساميطيقوس الثاني

١٢٣ الملك ابرياس

١٢٤ الملك امانيس

١٢٦ الملك ايساميطيقوس الثالث

١٢٦ الفصل العاشر في ملوك الدولة السابعة والعشرين وهي دولة الهيم

وتسمى دولة الفرس

١٢٨ الملك كبير المسمى قيشاش ويسمى قيسيوس وقد سمي نفسه بجنتصر

الثاني

١٣٤ الملك دار الاول

١٣٧ الملك شيارش

١٣٨ الملك ارطغشيارش ويقال ايضا ارتسزار

١٣٩ الملك شيارش الثاني والملك سوغديانوس والملك دار الملقب نوطس

١٤٠ الفصل الحادي عشر في ملوك الدولة الثامنة والعشرين وهي

الصاوية

١٤١ الملك امرطيس

١٤١ الفصل الثاني عشر في ملوك الدولة التاسعة والعشرين وهي

الاشمونية ويقال لها الاشعومية

١٤١ الملك تقروطف الاول

١٤٢ الملك هو قور

١٤٣ الملك ايساموطيس

١٤٣ الملك موطيس

١٤٣ الملك تياروس

١٤٣ الفصل الثالث عشر في ملوك الدولة الكاملة للاثلاثين وهي

السنودية

١٤٤ الملك تقطاب الاول ويسمى تقطنبو

- ١٤٤ الملك طاخوس
- ١٤٥ الملك تيطان الثاني
- ١٤٧ الفصل الرابع عشر في ملوك الدولة الحادية والثلاثين التي هي دولة
القرن الثانية المنقرضة في مصر باعارة الاسكندر الرومي
- ١٤٨ الملك دارا أخوش
- ١٤٨ الملك ارشيش بن دارا أخوش
- ١٤٨ الملك دارا الثالث
- ١٥٠ الفصل الخامس عشر في ذكر النتائج التي نشأت من حكم دولة الهيم
على مصر
- ١٥٤ المقالة الثالثة في الدول الثلاثة الاخيرة وفيها عدة أبواب
- ١٥٤ الباب الاول في ملوك الدولة الثانية والثلاثين وهي الدولة المقدونية
الاولى وفيه فصول
- ١٥٤ الفصل الاول في بيان هذه الدولة ومدة حكمها
- ١٥٥ الفصل الثاني في مناقب الاسكندر الاكبر وقتوجه لمصر وبنائه
الاسكندرية
- ١٥٧ الفصل الثالث في ذكر واقعة اربل
- ١٦٢ الفصل الرابع في دخول الاسكندر الاكبر في مدينتي بابل بالعراق
وفاته بها
- ١٦٤ الفصل الخامس فيما تروى على موت الاسكندر من تقسيم ممالكه
بعده ومن حكم مصر من ذويه
- ١٦٦ الفصل السادس في الملك ارهميد قليس
- ١٦٧ الفصل السابع في الملك الاسكندر الثاني ابن الاسكندر الاكبر
- ١٦٨ الباب الثاني في ملوك الدولة الثالثة والثلاثين وهي الدولة اليونانية
المسماة أيضا بدولة البطالسة وفيه فصول
- ١٦٨ الفصل الاول في تأسيس هذه الدولة ومالهامن المناقب
- ١٦٩ الفصل الثاني في الملك بطليموس الاول

مقدمة

- ١٧٥ الفصل الثالث في الملك بطليموس الثاني الملقب فيلودلفيس
- ١٧٨ الفصل الرابع في الملك بطليموس الثالث الرحوم
- ١٨٠ الفصل الخامس في الملك بطليموس الرابع
- ١٨٤ الفصل السادس في الملك بطليموس الخامس الملقب بالمجاهد
- ١٩١ الفصل السابع في الملك بطليموس السادس محب أمه
- ١٩٥ الفصل الثامن في الملك بطليموس السابع الملقب أوباطورأى المجاهد
- الاب وبطليموس الثامن الملقب أوجيطنه يعني الرحوم ويلقب فسقون يعني البطين
- ١٩٨ الفصل التاسع في الملك بطليموس التاسع
- ٢٠١ الفصل العاشر في الملك بطليموس العاشر وبطليموس الحادى عشر
- ٢٠٨ الفصل الحادى عشر في الملك بطليموس الثاني عشر وبطليموس الثالث عشر والملكة قلوبطره وفيه بالمناسبة ذكر جذيمة الابرش وفقهه بالزباء
- ٢٢٥ الفصل الثانى عشر في بعض ملحوظات عمومية تتعلق بأيام البطالسة وفي ذكر جدولهم وفيه أيضا الكلام على مذهب بطليموس في دوران الشمس والنجوم وثبوت الارض وعلى مذهب قوبرينق بالحديد
- ٢٢٣ الباب الثالث في ملوك الدولة الرابعة والثلاثين وهى دولة الرومان وفيه فصول
- ٢٣٤ الفصل الاول في الكلام على أصل هذه الدولة ومدة حكمها
- ٢٣٧ الفصل الثانى في الملك أغسطس قيصر وفيه غزوة بلاد العرب واغارة أهالى السودان على الديار المصرية وظهور عيسى عليه السلام في أيام أغسطس المذكور
- ٢٤٤ الفصل الثالث في الملك طيبروس قيصر الاول ويسمى طباريوس
- ٢٤٨ الفصل الرابع في الملك فالتيولا قيصر
- ٢٥١ الفصل الخامس في الملك كلودس الاول قيصر
- ٢٥٤ الفصل السادس في الملك نيرون قيصر

- ٢٦٨ الفصل السابع في الملك اسليقيوس غلبا قيصر ويقال له غلبان
- ٢٦٩ الفصل الثامن في الملك مرقوس أو طون قيصر
- ٢٧٠ الفصل التاسع في الملك وبطيوس قيصر
- ٢٧٢ الفصل العاشر في الملك وسباسيانوس قيصر ويسمى اسباسيانس
- ٢٧٥ الفصل الحادي عشر في الملك طيطوس قيصر ويقال له طيطس
- ٢٧٦ الفصل الثاني عشر في الملك دوميتيانوس قيصر
- ٢٨٠ الفصل الثالث عشر في الملك نيروى قيصر
- ٢٨١ الفصل الرابع عشر في الملك أوليسوس طريانوس قيصر
- ٢٨٣ الفصل الخامس عشر في الملك أدريانوس قيصر
- ٢٨٩ الفصل السادس عشر في الملك طيطوس أنطينوس قيصر
- ٢٩١ الفصل السابع عشر في الملك مرقوريلس قيصر
- ٢٩٦ الفصل الثامن عشر في الملك كومودس قيصر
- ٣٠٠ الفصل التاسع عشر في الملك برطيناش قيصر
- ٣٠٢ الفصل المكمل للعشرين في الملك ديدونيوس يوليانوس قيصر
- ٣٠٤ الفصل الحادي والعشرون في الملك سبطيمس سوريس قيصر
- ٣٠٨ الفصل الثاني والعشرون في الملك بيسانوس قراقله قيصر
- ٣١٢ الفصل الثالث والعشرون في الملك أويليوس مقررنيوس قيصر
- ٣١٦ الفصل الرابع والعشرون في الملك بيسانوس هليوغباله قيصر
- ٣١٨ الفصل الخامس والعشرون في الملك الاسكندر سوريس قيصر
- الثاني وفيه ذكر أردشير بن بابك رأس الدولة الساسانية
- ٣٢٥ الفصل السادس والعشرون في الملك مقسيمينوس قيصر الاول
- ويسمى مخشيمان قيصر
- ٣٢٦ الفصل السابع والعشرون في الملك غرديانوس قيصر الاب الاكبر
- وابنه الملك غرديانوس قيصر الاصغر ويسمى الغرديانوسين بصيغة
- الثنائية
- ٣٢٨ الفصل الثامن والعشرون في الملك غرديانوس قيصر الثالث وفيه

صيفة

ذكر سابور بن أردشير وتاريخه

- ٢٢٢ الفصل التاسع والعشرون في الملك فليش قيصر
 ٢٢٢ الفصل المكمل للثلاثين في الملك دقيوس قيصر ويسمى دقيانوس
 ٢٣٥ الفصل الحادي والثلاثون في الملك غالوس قيصر ويسمى أيضا
 والوس

- ٢٣٧ الفصل الثاني والثلاثون في الملك امليانوس قيصر
 ٢٣٨ الفصل الثالث والثلاثون في الملك والريانوس قيصر
 ٢٣٩ الفصل الرابع والثلاثون في الملك غليانوس قيصر
 ٢٤١ الفصل الخامس والثلاثون في الملك قلودس قيصر الثاني
 ٢٤١ الفصل السادس والثلاثون في الملك أورليانوس قيصر وفيه ذكر
 الملكة زنوية صاحبة تدمر

- ٢٤٥ الفصل السابع والثلاثون في الملك طاقيطوس قيصر وفيه ذكر طرف
 من الادب ومقابلة دولة الرومانيين بدولة الامويين
 ٢٤٩ الفصل الثامن والثلاثون في الملك بروبوس قيصر
 ٢٥١ الفصل التاسع والثلاثون في الملك فاروس قيصر
 ٢٥٢ الفصل المكمل للاربعةين في الملك قاريونوس قيصر وفومريانوس
 قيصر وفيه ذكر فصاحة العرب في الخطابة

- ٢٥٤ الفصل الحادي والاربعون في الملك دقلطيانوس قيصر ويسمى
 دقليانوس ودقله أيضا وفي الملك مقسيميانوس هرقل أغسطس
 ٢٦٠ الفصل الثاني والاربعون في الملك غاليرس قيصر وقسطنطيوس
 خيرس قيصر

- ٢٦٢ الفصل الثالث والاربعون في الملك مقسيمينوس قيصر الثاني
 وقسطنطين قيصر الاكبر ومقسنقوس قيصر وليقنيوس قيصر وفيه
 الكلام على رفع المسيح ومذهب النصاري فيه وأنه من الخمس
 والعشرين نبيا الواجب على المكلف معرفتهم تفصيلا
 ٢٦٥ الفصل الرابع والاربعون في انفراد الملك قسطنطين الاكبر

بالامبراطورية الرومانية

٣٦٩ الفصل الخامس والاربعون في الملوك الثلاثة وهم قسطنطين الثاني

وقسطنطوس الاول وقسطنطوس

٣٧١ الفصل السادس والاربعون في الملك يوليانوس قيصر المرتد وفيه

كون المسلمين يحبون ظهور الروم على فارس

٣٧٤ الفصل السابع والاربعون في الملك يوليانوس قيصر وفيه ذكر سابور

ذي الاكاف

٣٧٨ الفصل الثامن والاربعون في الملك ولنتينياوس قيصر الاول والملك

ولتسوس قيصر أخيه

٣٨١ الفصل التاسع والاربعون في القيصرية الاربعة وهم الملك

غريثيانوس قيصر والملك ولنتينياوس الثاني والملك مقسيموس والملك

طبودوسيس الاكبر ويقال له تاوديسيوس

٣٨٥ الفصل المكمل للخمسين في ذكر ملحوظات تتعلق بالدولة الرومانية

التي هي الرابعة والثلاثون عن حكم مصر من الدول

٣٨٨ الفصل الحادي والخمسون في جدول القيصرية الرومانية الذين

حكموا مصر من أغسطس قيصر الى طبودوسيس قيصر وفيه

المقالة بين الرومانيين واليونانيين

٣٩٢ المقالة الرابعة في ملوك الدولة الخمسة والثلاثين وهي تستعمل على

عدة أبواب

٣٩٢ الباب الاول في ملوك هذه الدولة وفيه فصول

٣٩٢ الفصل الاول في الملك ارتاديوس قيصر

٤٠٣ الفصل الثاني في الملك طبودوسيس قيصر الثاني الملقب بالاصغر وفيه

ذكر بهرام جورود كراغارة اطيلا ملك الهونية وتكملتها في ذكر من

بعد طبودوسيس من الملوك وفيه ايضا ذكر قصة أهل الكهف

٤٢٧ الفصل الثالث في الملكة بولشيرية القيصرية وزوجها من قيانوس

قيصر

صيفة

- ٤٣٤ الفصل الرابع في الملك ليون قيصر الاكبر ويسمى الاقدم
 ٤٣٤ الفصل الخامس في الملك ليون قيصر الثاني الملقب بالسوقي
 ٤٣٥ الفصل السادس في الملك زيتون قيصر والملك باسيلقوس قيصر
 ٤٣٧ الفصل السابع في الملك أنسطاس قيصر الاول
 ٤٣٧ الفصل الثامن في الملك يوستينيوس قيصر الاكبر ويسمى

جوستينيوس الاول

- ٤٣٨ الفصل التاسع في الملك يوستينيانوس قيصر الاول وفيه ذكر قباز بن
 فيروز و ذكر كسرى أنوشروان والمنذر بن ماء السماء وامرؤ القيس
 الشاعر وسفره الى يوستينيانوس يستعجبه وايداع أدراعه عند
 السموأل بن عاديال الهودي وبقية ملوك العجم مذكورون بالمناسبة
 في الفصول الآتية كل بمناسبتها

- ٤٤٩ الفصل العاشر في الملك يوستينيوس الثاني قيصر الروم
 ٤٥١ الفصل الحادي عشر في الملك طيبريوس قيصر
 ٤٥٣ الفصل الثاني عشر في الملك موريقيوس قيصر ويسمى موريقيس
 ويسمى موريقيوس طيبريوس

- ٤٥٦ الفصل الثالث عشر في الملك قوتاص قيصر
 ٤٥٧ الفصل الرابع عشر في الملك هرقل قيصر وفيه مخاطرة أبي بكر مع أبي
 ابن خلف حين نزلت الم غلبت الروم الآية وفي ذكر دعوته صلى الله
 عليه وسلم هرقل قيصر الروم وكسرى والنجاشي والمقوقس وغيرهم
 وذكر غزوة قموثة وغزوة تبولة ودومة الجندل

- ٤٦٧ الفصل الخامس عشر في طحوظات تتعلق بعصر في مدة الدولة الخامسة
 والثلاثين التي هي دولة الروم العيسوية وجدول ملوكها وفيه
 الكلام على رفع عيسى واختلاف فرق النصرانية فيه
 ٤٨٢ الباب الثاني فيما كانت عليه العرب قبل الاسلام الى ان ظهر بين
 ظهر انهم بدر القام ومصباح الغلام عليه أفضل الصلاة والسلام
 وفيه فصول

- ٤٨٢ الفصل الاول في صفة العرب المميرة لهم عن غيرهم
- ٤٨٨ الفصل الثاني في لسان العرب وكون ملكة الشعر والخطابة قيسم بالجيلة والطبيعة
- ٤٩٢ الفصل الثالث في ذكر سوق عكاظ في الجاهلية
- ٤٩٩ الفصل الرابع في حلف الفضول
- ٥٠١ الفصل الخامس في ذكر المعلقات السبع وتواريخ اربابها والاماع بمطالعها
- ٥٠٨ الفصل السادس في زمن ظهور الكتابة عند العرب وفيه ذكر بيان اللغة العربية وتصاريضها وانها غير متداولة في هذه الايام والحث على تعلمها وتدوينها
- ٥١٦ الفصل السابع فيما نتج من شعر العرب وقصائدهم
- ٥٢٠ الباب الثالث في مقدمات حكمية لدولة العرب الاسلامية وفيه فصول
- ٥٢١ الفصل الاول في تقدم قريش نوع تقدم في تلك الازمان وفيه تقسيم قريش الى عشرة ابطن وذكر مناصب الشرف في الجاهلية الى ان انتهت اليهم في الاسلام
- ٥٢٥ الفصل الثاني في كون العرب اولي بزية السبق الى الاسلام وفيه اولوية قريش برياسة الدولة الاسلامية وفيه بيان عمومية رسالته صلى الله عليه وسلم الى الثقلين وبيان ان من ارسل من العرب اليهم كهود وصالح انما ارسل الى قومه خاصة
- ٥٢٧ بيان رسالة هود عليه السلام الى عاد الاولى
- ٥٢٨ بيان رسالة صالح عليه السلام الى ثمود
- ٥٢٩ بيان رسالة شعيب عليه السلام الى اهل مدين واصحاب الابكة
- ٥٣٠ بيان رسالة اسمعيل عليه السلام الى العماليق وقبائل الين
- ٥٣٢ بيان رسالة حنظلة بن صفوان عليه السلام الى اصحاب الرس
- ٥٣٤ بيان نبوة خالد بن سنان العنسي عليه السلام وبعثه لمن مات طغلا

صبيحة

٥٢٢ ايمان عدة أشخاص من أرباب الاعتبار به صلى الله عليه وسلم قبل

البعث بسنين

٥٢٣ بيان اجماز القرآن

٥٢٤ بيان حكمة كونه صلى الله عليه وسلم لم يعقب أبناء

٥٢٥ بيان نسبة أولاد فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها اليه صلى الله

عليه وسلم والى نوره

٥٤٠ من وجوه القرآن اشتماله على المحكم والمتشابه

٥٤٠ ما يظهر للعقول القاصرة من المناقضات في الآيات القرآنية

والجواب عن ذلك

٥٤١ ما يظهر في الآيات القرآنية أنه مكرر وليس كذلك

٥٤٢ بيان كون ملكة البلاغة الذوقية لا تكون للأجسمي

٥٤٣ الفصل الثالث في الارهاصات الداخلية

٥٤٤ اشارة صلح قبيل الفيل على مكة المشرفة

٥٤٥ استئصال مكة المشرفة بعد انهزام صاحب القيل بحكم نفسها

٥٤٦ وفود عبد المطلب على سيف بن ذي يزن باليمن للتمسك على اجلاته

الحبشة وتأكيده المحبة بين مكة واليمن

٥٤٧ الفصل الرابع في الارهاصات الخارجية والتأسيسات الاجنبية

المعينة في الكفاد على تمييز ما جرت به الارادة الالهية

٥٥٠ تغلب كسرى على الموصل والشام وفلسطين ومصر وحلب بسلبها

من أيدي الروم

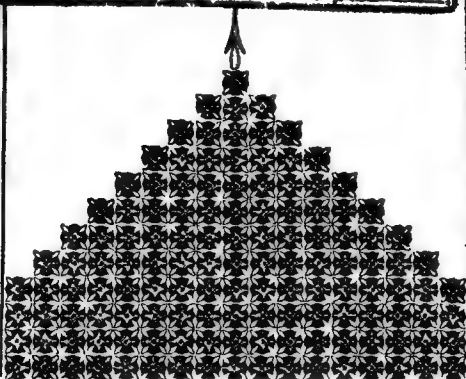
٥٥١ وفود فاصد النبي صلى الله عليه وسلم على كسرى

٥٥٢ تعجب القرم لتقدم الاسلام

٥٥٣ ختام الجزء

المجلد الاول من كتاب انوار توفيق
الجليل في اخبار مصر وتوثيق
بني اسمعيل

٢٢٢٠٢
٢٢٩٥



(بسم الله الرحمن الرحيم)

المجد لله خلق مصباح الكائنات وفالق اصباح الموجودات ونور الارض والسموات والعالم بأسرار الماضي والآت والقائم على كل نفس بما كسبت من المخلوقات خلق فسوى وقدر فهدى وأبدى وأبدع على أحسن الصور جميع المصنوعات والصلاة والسلام على صاحب الآيات البيّنات والمجيزات الباهرات من فاز من عظم القدر بالمعنى الاعظم بجليل الصفات وامتاز في محكم الذكر بالمعنى الاخص بجليل الهبات في قوله تعالى نحن نقص عليك أحسن القصص ان في ذلك لآيات وعلى آله أهل الشجاعة والثبات وأصحابه الذين وثبوا في تجديد الفتوحات أعظم الوثبات وأيدوا دين الحق القويم وهدوا الخلق الى صراط مستقيم وهدوا قري الزين والضلالات ورفعوا قواعد الاسلام ورددوا أولى الشبه والجهالات فلا أمة من الامم الا اقتبست من زواهر عقولهم النيرات ولا ملة من الملل الا التمس من أزاهر عقولهم النيرات (أما بعد) فيقول قليل البضاعة عبده رفاعة هذه شماريخ حدائق يانعة الازهار وتواريخ حقائق ساطعة

الانوار رافعة الاستار مفصلة عن جميع من حكم مصر من الدول والملل
 في جميع الاعصار سواء كان من أهل الوطن المتسقين أو من الاجانب
 المتعصبين المحين للتوطن بها والراغبين والمجهدين في حسن التربية
 والمهدين قبل الاسلام أو بعده ممن بذل جهده في التقدير أو لم يذل فيه
 جهده اقتطفها من الكتب العديدة واستخرجتها من التواريخ القديمة
 والجديدة عربية كانت أو غير عربية متجنباً فيها الاطويل غير المرضية
 مما يظهر بعرضه على ميزان العقل أنه من محض الخرافات أو مما تولى به
 الاخباريون والقصاص من اختراع الاباطيل والخزعبلات أو مما توهه
 أرباب الاوهام الفاسدة من العجائب الضليلة التي بدون فائدة اذ كثير من
 كتب السير مشحون بخوارق العادات ومملوء بوارق خيال الاعتقادات
 مما ليس بمعجزة ولا كرامة والجزم به في مقام التاريخ الرفع عما يحق
 مقامه

وليعلم الطالب أن السيرة • تجمع ما صرح وما قد أنكرنا

فهذا اكتفيت بذكر جوامع الكلم في هذا التاريخ المتناقص وبيان ما شغل
 عليه فيما يخص أزمان مصر مما يتعلق بالمدينة والعسكرية من الوقائع مع
 الاعراب عن صيغ المباني والعوامل ورفع أعلام الفتوحات الى فواعلها
 ونصب معالم الهياكل والافصاح عما سلف من ابداع الفنون والصنائع
 واختراع وسائل عموم المنافع ووسائط المصانع مع ما يضاف الى ذلك من
 ملاحظات اقتضاها الحال أو من ايقاعات تربط ما تأخر بما سبق وارتضاها
 المقال حيث أوجبه الكلام لدفع المناقاة بين العبارات السابقة واللاحقة
 أو للجمع بين الاقوال المختلفة لتصحيح التوفيق بينها والمصادقة لجاد هذا
 التاريخ بالنسبة لمساواة بشقاء الغليل لما احتوى عليه من اقتران
 المدلول بالدليل فهو في الظاهر تاريخ أم الدنيا وعنوان ملوك المملكة
 العليا حيث ان مصر كرامة الله في أرضه ولها العلائق الاكيدة مع سائر
 العالم في طوله وعرضه ولكن في الحقيقة ونفس الامر تاريخها جامع لتاريخ
 سائر الممالك والملوك فلهذا سلكت في تعميمه أحسن السلوكة فقد اشغل
 على ذكر الخلفاء والخلفاء والعلماء والحكام والسلاطين والاساطين والامراء

والوزراء وجميع ما اقتضاه فن الاستطراد وأوجبه المناسبة وحكم به
الاسلوب الحكيم لبيان المرام والمراد حتى صار أهلاً لأن ينطق بالآية التحيرية
ويسطأ كف الدعاء في البكرة والعشبة لحامى حى الديار المصرية ومعبد
بهجتها الأصلية

وكنتم أنما لحامى حقيقة وائل * كما كان يحمى عن حقائقها أبي
ومنعش نشأتها الاولية ومجدد نعمة الله الاسلامية ومشيد أركان
الاحكام النظامية ألا وهو الملك الجليل عزيز مصر اسمعيل أمده الله بطول
البقاء ووفقه لتحيين مقامه العلياء ورزقه مزيد الارتقاء (ثم لصادقت)
قصيف هذا التاريخ غناية القوة الفاعلية وساعدت ترصيفه رعاية النخوة
الاسماعيلية ووافق صدور الامر بطبعه وتمثله أثناء العهد من عقد العهد
لجله الأ كبر تاج الملك وإكليله سميت أفوار توفيق الجليل فى أخبار مصر
وتوفيق بنى اسمعيل ليكون محبوبك الطريقين متجلياً باسمى الأصل والفرع
الاشرفين

ولما كان من عادة من ألف مثل هذا الكتاب ان لا يتصفه إلا مير رفيع
الجناب خبير عزايا ما اشتمل عليه من الفصول والابواب حتى يكون
كفوا للوقوف على دقائق مبناه ورفائق معناه وكان صاحب الدولة فجل
العزیز موصوفاً بمحاسن العقل المكتسب والغريز وله فى فن التاريخ كمال
التمييز وجب على تقديمه اليه وعرضه عليه واهدائه لحضرته السنية
ليكون اول تاريخ لمصر أحرز هذه المزية

معروض الاتحاد ومفروض الاستعطاف

لى محمد مصر الوثيق حضرة محمد باشا توفيق

يا أيها الامير الجليل وسيد المجد الاثيل وسرى بنى اسمعيل وباسمى جدّه
الاعلى الذى أحيا مصر فكان بها أولى من المعلوم لدى دولتك العلية
والمصهور لقطنتك الالهية أن بارئ التسم وخالق الاخلاق والشيم ورافع
الاقدار والهم ومالك رقاب الامم قد خص أصلك الكريم والملك

البر الرحيم بالفكر والقيادة والقطنة التقادة وعوده بأن تكون
قضايا أفكاره منتجة وهدايا أنوار تصوراته منبجبة وزوايا أسرار تصرفاته
قائمة ومنفردة وسرايا أنصار مشروعاته في سبيل الظفر منتهجة ووقفه
لأحياء ما ترمضه وتجديد ما خصره وقوى قدم سعيه في تلك المناهج
فتقوى عزمه بما التهج به السلاح لخدوى من المباحج

ملك زهت بملكه أيامه * حتى اقتضت به على الأيام
وتقر في مصر من المشارك والمائل حيث أتى بما تجزعه الاوائل كأنه
مصدق قول القائل

واني وان كنت الأخير زمانه * لآت بما لم تستطعه الاوائل
فلما رأى من أثمار غرسه ما يرضيه وتحقق من إنباع ثمرات أمانيه وأن
مسند هذا الحديث متصل اليه بالنعنة عن جده وأبيه
فان الماساء أبي وجدتني * وبترى ذو حشرت وذو طوبت
استحسن أن يعهد العزاة لا كبرنيه

آراؤكم ووجوهكم وسبوقكم * في الحادثات اذا دجون فجوم
منها معال للهدى وصالح * تجلوا الدجى والاخريات رجوم
فكنت أيتها الامير الاولى بهذا العز المرفع والاخرى باسراف شرف هذا
الموضع وصرت الأبيى الاتيج والايهر الابلج بل كنت مصداق
ما قيل

فليس على المجد والمكرمات * اذا جثتها حجب يحجبك
ولما كان المجد التليد الموهوب لا يمدح الا اذا قرن بالمجد الطريف
المكسوب وكان العزيز يجمع المجدين ومضج السعدين هداية النجدين
وجبال السوددين وحلال من المحلسن يبردين

أبو الذي أعطى على الحمد ماله * وحاز المعالي واحوته المكارم
فيصبح في جمع المكارم والعلا * ويدلج في حاجات من هوانهم
اذبه فطنتك من السنة وأمتك بالتريسة الحسنة وأعتك للمعارف
المستحسنة وعداك بفهم اللغات والالسنه كما وشك بأسمى المناقب
ورشك باسمى المراتب

ان الجمل معادن * ومناقب أوثر مجدا
 فمن ذا الذي يسوم تنافس المعالي من أبناء الملوك كسومك ؟ ومن يسود
 قومه يعلم السلوك كاتسود في ظل العزيز أعزة قومك كما قيل
 وكل فضيلة فيها سناء * وجدت العلم من هاتيك أسنى
 فلا تنقد غير العلم ذخرا * فان العلم كزليس يقنى
 وهذه العناية التجهيزية بالرعاية العزيزية هي التي تقول لك بلسان
 حالها

فأقم لنفسك في اتسابلك شاهدا * بجديد مجد للقديم محقق
 فجلس المناظرة شاهد عدل وأضح مجيب بما شاهدته غير مرت من شواهد
 حضور عقلك العجيب

بمكافأ بعشى الناظرين اذا هم لمحو اشعاعه
 وهل يجمل بياحد * ان كل ألف لاتعد بواحد
 أدامك الله للبرايا * لتعمر الملك والدروسا
 من رام أن يحرز المزايا * يفوز ان رضه أنيسا
 فكأنما العلوم الرياضية تتبع من مجار أفكارك القضية ونصويرها
 بأنواع الرسوم والاشكال برفع وهم الواهم ويطغ الاشكال وأما نطق
 جنابك باللغات على اختلاف أوضاعها وتنوع أنواعها فمؤذن بغبابة
 الجزالة والفصاحة ونهاية الحاسة والسماحة كما أن خلقك سباقك
 الذهب النضار يروق التواظر ويوجب النظار ولك في علم الجغرافيا
 والتاريخ حظ وافر تقدر أن تنافس فيهما أقرانك من أبناء الملوك
 وتفاخر لاسما وان تعلم التاريخ ألبق بابناء الامراء والسلاطين اذ هو
 معرفة أحوال الامم والدول والملوك الماضين فتقف الملوك له على أحوال
 من مضى من الانبياء والاصفياء وغيرهم من أرباب الرياسات والسياسات
 بمن مرزماهم وانقضى فيعتبر القارئ لسيرتهم من تلك الاحوال ويتوصل
 على ملكة التجارب من معرفة تقلبات الزمان والانتقال فيعجز عن تجرع
 وغصص ما نقل من المضار ويفتخر التمتع بفرص ما قبل من المنافع والمبار
 فال تاريخ عمر ثمان للناظرين فن تلمع فكأنما زاد في عمره وأحسن عاقبة

أمره لاسيما من اشتغل به مثل ذاك الهبة من عنقوان الشباب ونضرة
 الاهاب فانه يكتسب في زمن الشبيبة التجارب ليحفظه الى أوان الابان
 فيحوز الشاب في وسائل الرياسة الرسوخ فكله مارسها ولا ممارسة الشيوخ
 (فلما آتست) أن رأى الجميع قد أجمع على أن جنابك المنيع لا يزال يذل
 الجهد في اتقان هذا الصنيع ويجول في حومة التاريخ أتم مجال ويسبق
 رجال الدولة ويحوز قصب السبق في مضمار هذا النضال ويصبح باللسان
 القصص في ميدان الكفاح من صدع نيرانها فانا ابن قيس لابرأح بادرت
 باقطاف أزهار التواريخ المصرية واجتناء أغمار الأثار القديمة والعصرية
 لا تشرف بوسمها باسم جنابك العالي ورسمها بعنوان كوكب سعدك المتلالي
 المتسابق الى طلب المعالي فان تفضلت بقبوله فهذا غاية آمالي فلا عجب ان
 صادف المقبول نسيم القبول أو وافق الراجي فتح أبواب الوصول على
 أن لسان الحال لاشك ينيك بأن هذا أثر من ما أثر نعماء أيك فاهداه
 الى جنابك وتقديمه الى أعتابك من باب شكر النعمة والامتنان الواجب
 في كل المذاهب والاديان لاسيما وان شكر النعمة السالفة يفيض كافي
 نعمة مستأنفة بل هو نعمة لتمم النعمة كائن عن بعض أهل الحكمة
 ولكن ما مقدار هذه المجموعة المؤلفة بالنسبة لما تجدد في عهد العزيز من
 التأليف الجليله المختلفة ومع ذلك فقد أجريت القلم في حلبة البراعة
 وأخرجت نفسي من أرض الخمول الى روض البراعة وأطلقته من عقار
 الفهاهة والليكنة الى اعمال الفكرة والقطنة فأبرزت ما كان مستترا
 من الضمائر المستكنة والفضل في ذلك للعزيز ذي الفضل والمنة بلغ الله
 عزيز مصر في حوز المعالي مناه كما يحبه منك ويرضاه وأرفق اجتهاده
 بالتوفيق سبل السداد والاصابه وهذا دعاء وافق أوقات الاجابة آمين

(تنبيه رجيح يحتاج اليه النبيه)

قد قسم العلماء التاريخ الى أثرى وبشرى
 فالأول ما كان من طريق الشرع كالقصص الواردة في الكتب
 السماوية

والثاني ما وقع عليه الناس من الوقائع والحوادث الحاصلة في العصر

القديمة والجديدة فأرتخوه وهذا القسم الثاني الذي هو التاريخ المبشرى
 ينقسم الى قسمين قديم وحديث من حيث الازمان الخالية وما بعدها ومن
 جهة أخرى ينقسم الى عمومي وخصوصي كالتاريخ لجميع الأمم أو تاريخ أمة
 واحدة كالتاريخ المصريين مثلا وأشهر تواريخ قدماء الأمم تاريخ قدماء
 مصر ثم تاريخ الصوريين يعني أهل بلاد السواحل الشامية فانهم كانوا في
 سالف الاعصار ملوك البحار وتجارهم أعظم التجار حتى يقال انهم لغناهم
 كثرت عندهم الفضة وأنقلتهم في أسفارهم فاتخذوها هلوبا للمراكب عوض
 الرصاص ثم أهالى أنور وبابل وهم قدماء العراق والأكراذ التي من مدنها
 بابل وينبوى ثم أمة الفرس الاولى وأذربيجان ولو أن هذين المملكتين
 انضمتا الى ملوك العراق لأنهما لها شهرة عظيمة حتى أن دولة العجم عريقة
 في المعرفة والحكمة ثم أمة الهند ويقال انها كانت معمورة بالعالم
 والآداب والتجارة والسياسة قبل غيرها من البلاد لكثرة خيراتها وبفوق
 جميع هؤلاء الأمم ما عدا المصريين أمة اليونان التي تاريخها أحسن تواريخ
 عمالك آسيا فائدة لتجاعة أهلها وحريةهم وعظم شأنهم واتقان سياستهم
 واحكام عمارتهم فلذلك كان له ذكر في أكثر الاحيان في هذا التاريخ

تمهيد لتاريخ مصر وتوطيد لاغنى عنه للطالب المستفيد

قال بعض العلماء التاريخ معاد معنوى لانه بعيد الاعصار وقد سلفت
 وينشر أهلها وقد ذهبت آثارهم وعفت وبه يستفيد ملكة التجارب من كان
 غزاة ويلقى آدم ومن بعده من الأمم وهم جزا فهم لديه وقد ضمنهم بطون
 القبور أحياء في عداد الحضور ولولا التاريخ لجهلت الانساب ونسب
 الاحساب ولم يعلم الانسان أن أصلهم تراب وكذلك لولاه لما تم
 الدول بموت زعمائها وعى على الاواخر حال قدمائها ولم يحيط علمها
 تداولته الارض من حوادث سمائها ولمكان العناية به لم يحل منه كتاب
 من كتب الله المنزلة فهم اما أنا بأخباره المجلجلة ومنها ما أنا بأخباره
 المختلة

وقد ورد أن في التوراة سقرا من أسفارها يتضمن أحول الأمم السالفة

ومدداً أعمارها وكانت العرب على جهلها بالقلم وخطه والكتاب وضبطه
 تصرف الى التاريخ فجعل دواعيها وتجعل له أفرح من مساعيها وتستغنى
 بحفظ قلوبها عن حفظ مكتوبها وتفاض برقم صدورها عن رقم
 مسطورها كل ذلك عنابة منها بأخباراً وأثلاً وأيام فضائلها وهل الانسان
 الا ما أسسه ذكره وبناء وهل البقاء لصورته ودمه لولا بقاء معناه فالتاريخ
 عمود اليقين والثاني للسند بما فيه من التخصيص والتعيين به تعرف الحقوق
 وتحفظ العهود ويرزما في مقام الغيب الى مقام الشهود ومن أرخ
 فقد حاسب على عمره ومن كتب وقائع أيامه فقد كتب الى من بعده بحوادث
 أمره ومن قيد ما شاهد فقد أثهد أحوال أهل عصره من لم يكن في عصره
 ومن كتب التاريخ فقد أبدى الى من بعده أعماراً وبوأ مسامعهم وأبصارهم
 دياراً ما كانت لهم دياراً

يا خيلي ذكراني بسعدى * واسعداني بذكر سكان رباعي

فأنتي أن أرى الديار بعيني * فلعلني أرى الديار بعيني

(ولا يفتي) على ضمائر أوى البصائر وخواطر أهل الفضل الباهر أن مصر
 نازعت قدماء الامم في الاقدمية فسلوا لها أنهم دونها في مرتبة الالهية
 وأن لم تسبقها أمة في ميدان القدسية ولا في حومة تقنين القوانين وتشريع
 احكام الاحكام المدنية ولم تجدهم نعمة اقتباس علومها أمة ولا ملّة ولا
 أنكرت الاستضافة بنور نبزها مملكة عظيمة ولا دولة لها اختصت به
 مصر من بين الممالك أن كل مملكة تستنير برهة ثم تطفى وتشرق شمس بهجتها
 ثم تختفي فكأنما نورها نفي ما كان ولا لمضوءها في زمن من الازمان وأما
 مصر فأغرب شيء من بقاء شمس سعداها وارتقاء كوكب مجدها انها
 بقيت سبعين قرناً فظة لم ترتبها العليا لها اليد البيضاء والسلطنة المعنوية
 على سائر ممالك الدنيا ولها الارجحية في النفوذ والتأثير وفي معيار العلوم
 فضلها شهير فقد كانت في أيام الفراغة أم أم الدنيا وكانت شوكة سلاحها
 قوية وهيبت في القلوب متمكنة عليه وفي أيام الاسكندريون من بعده من
 البطالسة وأزمان دولة الرومانيين القاهرة العباسية كانت مصر أيضاً راجية
 الدولة مهيبه الصولة لما انتشر في هجايا قلوب الامم من علو فخارها

وارتسم في مرابا الملل من رفعة منارها فكانت اهابتها بالقوة المعنوية
 بقدر اهابتها أيام الفراغة بالقوة الحسية أو ليس ان حكماء الاسكندرية
 وعلماءها وفلاسفتها اشتهروا بالعلوم العقلية لاسيما علم الاخلاق والعوائد
 وكثرت آراؤهم ومذاهبهم وأخذ عنهم الصادر والوارد والمتردد والوافد
 عموم المنافع والفوائد فتشعبت منها العلوم في سائر معالم البلاد فتغيرت
 أحوال البلاد تغاير حثيثه ونشأ عنها صورة حوادث الازمان الحديثة
 وكذلك في القرون الوسطى المعلومة التي افتتحتها قروح الاسلام لمصر على
 حالة مفهومة تجدد في مصر مالا مزيد عليه من التقدمات والاهمية مما
 لا يكاد يوجد في غيرها من البلاد الاسلامية وغير الاسلامية اذ كانت قطب
 رضى ديار الاسلام ومرکز دائرة شريعة خير الانام فقد اتصرت
 سلاطينها على ملوك الافرنج وغلبوا الجمل الغفير وهزموا الجند الكثير
 وظهروا عليهم في جهاد أهل الصليب وخلصوا بلاد القدس وغيرها من
 أيديهم بتوطين النفس في الحرب على الشدة والتصليب ولما ظهر ملك
 فرانس بجهمة دمياط والمنصورة ظهر عليه جند مصر فرجعت جيوشه
 مهزومة مقهورة وقادى بنفائس الاموال نفسه وعاد الى بلاده عادى
 تخمينه وحده ومن سوابق هذه المخالطات المشرقية وعلائق التقدمات
 الاندلسية انتشر التمدن من المشرق الى المغرب وأعظم الفضل لدار مصر في
 انتشار هذا التمدن المرقص المطرب (وفي ابتداء) هذا القرن الذي نحن فيه
 لا يتخفى حواده الشهيرة على اتبعية فقد تغلب فيه عليها الفرنسيون ورجوا
 باستلاتهم عليها بلوغ الامنية وبأي الله الاما أرادته حيث أعدوا لغيرهم
 وأنجز مراده فكانت من نصيب صاحب عزيمة ولا عزيمة الاسكندر ورب
 شكيمه ولا شكيمه كسرى وقصر فن مثل انسان عين الكمال وكال عين
 الانسان جنتمكان محمد الاسم على الشان فانه أحياء مصر حياة طيبة
 وأبرز فيها الى عالم الشهادة الامور المغيبة وورثها السلالة من بعده حتى
 وصلت الى خضيه اسمعيل الصادق في وعده الواتن بعده فاقنتى الفرع أثر
 أصله في احياء ما أماته الحدثن واعتنى بجمع ما شتته الملوان واعتمد
 في تمييز مقاصده على مولاه وقال وما توفى الابا لله فرغ في عهده على أودية

مصر أعمال العوارف والنم ونشر على أئديتها ألوية المعارف والحكم
فكن من أواديتها أصول الكياسة والرياسة ودون في ذراوينها قوانين
التدبير والسياسة وقوى عزم الشرائع والاحكام وأيدى لألمصر بتأسيس
قواعد الجند المصري على أقوى تأسيس واحكام وأخذت العلوم والفنون
في الارتقاء الى درجة الكمال وتوقرت فيها وسائل تحسين الحال وتنعيم
البال كتنظيم مجالس الملة وتظيم حقوق الاهل واعزازهم بعد المذلة
وعسى بكمرة غرائب الرغائب ورغائب الغرائب أن يأتي مستقبليها بالبحائب
ويزدحم على مورد ها العذب أرباب المآرب من المشارق والمقارب
وتفرد بشد الرحال اليها ووفود فحول الرجال عليها حتى يقول علماءها
لعلها غير هاهن الممالك ونساكها لغيرهم من أهل المناسك ما قاله
قدماؤها من الحكماء الحكيم سولون أحد عقلاء اليونان أنتم يا عصابة الحكماء
من اليونان جميعكم بعد عندنا من الشبان الفتيان ليس فيكم كهول
في الفضل ولا شبوخ ولا من له في ديوان المعارف قدم ثابت ولا رسوخ
فمن هنا يعلم أن ديار مصر في سائر الاوقات والحالات لها الاهمية الكبرى
والداخلية العظمى في سائر الحوادث الخارجية وفي جميع المهمات ولها
الامتياز الاوفر الاوفى قديما وحديثا كما لا يخفى فكما قسم كامل على
حدثها من الاقسام المعمورة فهي وحدها معتبرة كإفريقية وآسيا وأوروبا
منبع الحوادث المشهورة بل جميع هذه الجهات الثلاث بما فيها معمورة
بل شرعت الآن تنافس إفريقية في تنمية القطن والمزارع لتكثير فوائدها
الصنائع وترويج المنافع وبالجملة فهي التي قد قسمت لجميع البلاد المعمورة
أبواب الفخار المأثورة فلا غرو أن اشتهرت معهم لأن بهذا الجهد الذي
انفردت به المدة المديدة واختصت به في المقرون العديدة بل لا يزال ان شاء
الله تعالى الفخار يلازمها ولا يبرح الجهد يسالها حتى يرث الله الارض
ومن عليها وهو خير الوارثين

تقسيم تاريخ مصر الى اقسام وضعية بناء على دوامها الطبيعية
لأبأسه تقسيم تاريخها العمومي من العهد القديم الى عهدنا هذا الى قسمين

أهلين

الأول حالة ما قبل الاسلام

والثاني حالة ما بعده ويتفرع عن الأول فرعان

أحدهما زمن الجاهلية

وثانيهما اشهار دين النصرانية بالاوامر الرسمية الصادرة عن طيوديس قيصر

الرومانيين

فحالة ما قبل الاسلام عبادة عن الزمن الذي بقيت مصر فيه عاكفة على عبادة

الآوثان والاصنام أو تمسكت في آخر أمرها بدين النصرانية واتبعت شريعة

عيسى عليه السلام وهو كناية عن دورين من الزمن دور الجاهلية ودور

النصرانية فالأول هو ما كان التمدن فيه منحصر في عبادة الآوثان والكتابة

بالقلم القديم المصري والتكلم باللسان المصري القديم أيضا والتعلق ببناء

الهياكل والمعابد والقصور الذهبية التي بقيت آثارها على حافتى النيل

واقتتاح هذا الدور من اقتتاح الحكومة الملوكية بمصر ومدة هذا الدور

خمس آلاف وثلاثمائة وخمسة وثلاثون سنة شمسية قبل الهجرة وانتهى وقبل

الهجرة في أول سنة مائتين وأحدى وأربعين سنة فكان في هذه السنة

صدور أوامر القيصر طيودوسيس بانتهى في مصر عن عبادة الآوثان

والتصريح عليها ووجوب التمسك بدين النصرانية في سائر أطراف وأكاف

الممالك الرومانيين ومن جعلها اقتتاح الدور الثاني من تاريخ تدمير تلك الأوامر

الرسمية إلى السنة الثامنة عشرة من الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل

الصلاة وأزكى التحية ومدة مائتان وتسع وخمسون سنة ككلها شمسية

الاثنى عشرية التي من الهجرة وكانت مصر في هذا الدور الثاني بتمامه من

الحلقات بما صر الروم بالقسطنطينية

وأما حالة مصر بعد الاسلام فهي معتبرة دورا ثالثا وابتداء من سنة ثمان

عشرة من الهجرة المحمدية يعنى من زمن فتوح عمرو بن العاص لمصر إلى

عهد فاطمة ألف ومائتان وخمسون سنة هجرية

أقدمية مصر في التقدم والتمدن

ثم ان مصر في القديم والحديث لبنة الاخلاق سهلة العريكة تنكح من
 أرائك الطاعات والمتاسك على أنتم أربكة أزياسة القمن أبدية التدين
 ناشطة على العمل باسطة أكف الرجا والامل بخصوبة مزارعها
 واعتدال قطرها المعين على تحصيل منافعها كانت أهاليها مثرية ولم تزل غنية
 مشغولة عن الفتن والشرو والتمولة في جميعات البلاد الاجنبية وهمة أهلها
 في ثمر الارزاق وعبادة الملك الخلاق دأبهم من القديم التجارة والصناعة
 والفلاحة يكثر منهم عدد الطوائف وأرباب الصنائع المرغوبة كالحياكة
 الجيدة والصباغة بالالوان المحبوبة ومن قديم الزمان يحسنون صباغة
 المعادن السبعة وصناعة الصيني والزجاج والترويع والتطعيم بالصدف
 والعاج وغود ذلك مما كان له أعظم رواج فكانت عندهم المصنعة في أعلى
 درجات الكمال وكانت غرات عقولهم وتأنج اذهانهم لاتنشأ الا عن فحول
 الرجال اتقلت آثار صنائعهم الى البلاد القاصية وكثرت فيها الرغبات في
 الممالك الطائفة والعاصمة حتى اشتهر عند جميع الانام أن حكماءهم
 وهرامستهم الذين يقال انهم تلقنوا العلوم من ادريس عليه السلام وتلقوا
 عن سرار المنافع والشرائع والاحكام

والسرى في هذا التقدم العجيب وحسن القمن الغريب في أزمان بعيدة
 العهد عن ظهور النواميس والشرائع وتلاوة الكتب السماوية على الأذان
 والمسامع هو أن قدماء القبائل والعشائر الاوائل اما أن تكون طبيعة
 بلادهم تلائم في المعيشة القنع والصيد ورعى الماشية والتنقل من جهة الى
 أخرى بلا شرط ولا قيد فالقبيلة الصيادة أو الراعية يعطى نفعها في القمن
 ولا تصل الى درجة عالية لائن مورد كسبها ضعيف ومصدر احتياجها لطيف
 تقنع من العيش بدون الطفيف فلانصل الى القمن بسرعة ولا تصبر عنه
 بجرعة الا ان هربت الى محله وطمعت في بقعة غير البقعة

وأما الامة التي طبيعة اقليمها تلائم الفلاحة والزراعة وتصريف نتائج هذه
 البضاعة فانها تركز في ميدان التقدم وتسعى في مضمار الترتيب والتظيم
 فيقدر حاجتها الى تحصيل أدوات الفلاحة والزراعة تنبعث عزيمتها الى البحث
 عن اختراع القنون واقتراح الصناعة

فهكذا كانت ضرورة الديار المصرية حيث أوجبت خصوبة ارضها أن تكون صنائعها قسرية اذ الفلاحة تستدعي انتخاب الفصول والازمان ومعرفة سير النجوم ومساحة البلدان وهندسة الآلات والعمارات وحفظ الحصولات في المباني والعمارات ووقاية الاموال والتفوس في المدينة الحصينة والبندر المحروس والتمتع برفاهية الحال وتنعيم البال وتحسين العاقبة والمآل ونقل ما زاد عن احتياجاتها الى البلاد الاجنبية وجلب ما ليس عندها من الجهات الخارجية فأتسعت دائرتهم بهذه المثابة وتفرعت أفنان وسائلها ومقاصدها في رياضة فنون النجاسة والنجاسة وتشتت حوامها بادال الحفظ المعنوي والامنية

ترتيب مملكة مصر في القديم وسياستها واطلاقها وعوائلها

ولما تمكن من عقلها وجوب الرابطة بين الراعي والرعية والرئيس والمرؤس والسائس والمسوس وعرفت أن الحكومة الملكية بهذه الصورة لا تقوى اعتماديتها الا باستشارة رجال المشورة نشرت للملكها الاعلام والبشود وأمدته بالاموال والجنود واتخذته حامي الحى وأضافت الى ديوانه جماعة العلماء والعقلاء والحكما وجعلته على هذا الوجه مركز الانصاف واليه المرجع في الوفاق والخلاف ولهذا كان أمراء الدين في أول الحكومة الملوكية في الازمان البعيدة الاقدمية لكونهم أرباب امتياز وخصوصية وبعارف حقيقية واستقامة أمور وريعدل جهورية يرتبون ديوان الملك وسياسته العمومية والمنزلية واذا انتقل الملك الى دار البقاء حكموا عليه بأنه كان في أيامه من أهل السعادة أو الشقاء ويان ذلك أنه كان اذا مات الملكهم من قواياهم وغلقوا في الهياكل والمعابد ابوابهم ومنعوا تقرب القربان وامتنعوا من عمل عيده أو موسم أو مهرجان واستمروا على هذا الحال بوصف الحزن في هذا المآثم اثنين وسبعين يوما جلالا لانتصبة المكرم وانتشر مرتين جوع الذكور والاناث في الشوارع والحدارات في كل يوم للتدب وانشاد المرائي فكانت هذه المدة مآتما فلا يحزن فيه الخاص والعام فاذا انقضت هذه الايام وضعت جثة الملك مخنطة مصبرة

في دهلز المقبرة ثم يجشوا عن جميع ما صنعه الملك من خيراً وشر وخصوا بقافية
الدقة على الأثر والخبر بمحض ألف من الناس ~~كل~~ يعدد بحاسن الملك
ومساويه وبذكر سيرته حسناً أو رداءة وجميع مساعيه وبسير أفعاله المرضية
أو غير المرضية ويحكم في ذلك برأى جمهور الجمعية فان حكمت بدفنه دفن
بهذا الاحترام على مقتضى مقامه الملوكي والاحرم من هذا الاكرام وتجرد
عما يجب اعظامه من التيجل والاعظام ولم يكن للاهالي المصرية ولا لعامة
الرعية تدخل في حكم الملك الا في هذه القضية ومع أن هذه المداخلة بعد
الموت خفيفة هيئة فكانت نتيجتها شريفة بينة حيث انه لما حرم الدفن
كثير من الملوكة القراعنة اجتهد خلفاؤهم في اصلاح العمل وسلوله سبيل
العدل خوفاً من المناقشة بعد الموت والمطاعنة وهالهم اهانته بشتمهم بعد
المات كما هال أهل الحق خشية سوء الخاتمة والخوف من العرض على رب
السموات

وفيما عدا هذه الحالة كان المصريون يحترمون ملوكهم بقدر الاستطاعة
ويصرفون اليهم كل الانقياد والطاعة حتى كادوا أن يعبدوهم كعبادتهم
المجل والثور وينقلوهم من طور إلى طور البشرية الواشرف طور لانهم يقولون
ان من قدر له في الأزل منصب الملوكة ووثق للعدل في الرعية وصنع الخير
والمعروف مع سائر البرية فلا عجب أن كان بشراً في مظهر الألوهة
وقد كانت ملوكهم تحتهم من بين أمناء الدين في جمعية عمومية أربابهم امن
المبعوثين من كل اقليم وهم متوكلين وفواب للمداورات وعليهم في الآراء
مدار الاستصواب فيجتمعون في البريا التي بين ميت رهينة والقبور
فكان يشكل منهم جمعية عموم تعقد في الحوادث المهمة والوقائع المداهمة
كالصلح والحرب وتجدد التراتيب العمومية وتغيير الدولة عند خلو
الكرسي من الذات الملوكية ولم يكن من شأن الملوكة مباشرة الدعاوى
ولا الحكم بأنفسهم في الوقائع بل كانت المحاكم محلاً للاقتضاة والاحكام
موظفة مدققة في اجراء قواعد القوانين والاصول على أتم اتقان واحكام
فكانت مدينة منف وعين شمس بالأقاليم البحرية ومدينة أبو بالاقيم
القبلي يخرج منها خيام القضاة والحكام وكل مدينة تعطى عشرة

من القضاة لاجراء الاحكام فيجتمع من الثلاث مدن ثلاثون قاضيا لمجلس
القضاء وكان للاثلاثين قاضيا الحق في نصب قاض منهم رئيسا عليهم وبعد نصبه
يكملون عدة الثلاثين من مدينة القضاء العشرة الذين نقص منهم الواحد
وكانت نفقاتهم على طرف الحكومة ومربيات رئيسهم من بيت المال جسيمة
ولا تقام الدعاوى في مجلس القضاء الا بالمكتبة ولا يسمع التداوى والتخاصم
بالشافهة والمخاطبة مخافة أن تعذب نفوس المتضاة من سماع كلام أحد
الخصمين وتسجيل قلوبهم فصاحته أو عذوبة الفاظه فربما ترتب على ذلك
الاغراض في الاحكام فكان يكتب المدعى شكواه أولا ويعين مقدار ما يلتمس
اعتياضه في نظير ما خسره وما حصل له من الاساءة فيعطى للمدعى عليه
صورة ما كتبه خصمه ليطلع عليه فيرد كلام خصمه ويناقض رؤس جملته ثم
يجوز أن يعطى جواب المدعى عليه للمدعى عساه أن يجيب عنه وكذلك
يجوز أن يعطى للمدعى عليه بعد ذلك فاذا فرغت المناقشات والمحاورات
وجب على مجلس القضاء بعد البحث في القضية ان يحكم فيها بما يظهر له فيكتب
الحكم أيضا ويضخم الحكم رئيس القضاء على وجه مجيب
وذلك ان رئيس المجلس له زنجير من الذهب معلق في عنقه فيه صورة من
الجوهر عليها تمثال الحق مصور فعند افتتاح المذاكرة لابد من تعليق هذه
الصورة فاذا صدر الحكم من المجلس صدق عليه الرئيس بحتمه بصورة الحق
ووجهها صوب أحد الخصمين الحاضرين بالمجلس حين الختم علامة على أنه
ظهر له الحق وأنفذ

كيفية الحدود والعقوبات عند المصريين

وكان للمصريين أحكام غريبة تدون في كتب شرائعهم وذلك كعقاب
الحائث في عيونه بقتله وسر ذلك عندهم أن الحائث ارتكب ذنبا من الكبائر
كونه حلف كاذبا فقد خان معبوده بالفجور في حلقه به وأنه قد غش الناس
بيمينه الفاجرة ليعتقوه فأوقعهم في تصديق الكذب ومن أحكامهم أن من
رأى في طريقه من يقتل انسانا أو يصول عليه ولم يفشه من القتل أو الصيال
مع قدرته على ذلك فجزاؤه القتل فاذا كان لا يقدر على اغاثته بنفسه وانما

يمكن من طلب اغاثته بغيره وجب عليه أن يطلب اغاثته من القادر عليها فإذا
 قصر في ذلك قتل أيضا وكذلك إذا علم أحد بقاتل لا يخرج عليه التبليغ
 محل الاقتضاء أي الحكومة فإن لم يبلغ ذلك الحكومة فجزاؤه القتل لأن وجوده
 كعدمه ومنها أن الخائن الذي يبلغ الأعداء أسرار الحكومة ويطلعهم على
 عوراتها جزاؤه قطع لسانه وكذلك من يصطنع النكود البرانية أو يزور في
 الموازين والمكاييل أو في الختم والمكاتب أو يزور في الوثائق العمومية
 والحجج الشرعية جزاؤه قطع يده

وأما الأحكام بالنسبة للنساء فغنية على التشديد فإن من ثبت عليه أنه اغتصب
 امرأة حرة غير رقيقة بالزنا جزاؤه قطع آله الزنا لأن هذا الذنب يتضمن ثلاث
 كباثر

الأولى التعدي على المرأة بهتك عرضها

والثانية السعي في إفساد الاخلاق والعوائد في الجمية

والثالثة ما يترتب على ذلك من اختلاط الأنساب فإذا نفيهم ابرضاها فجزاؤه
 جلده ألف جلدة وجزاء المرأة قطع أنفها لتسويه وجهها حتى ينقطع ميل
 الرجال اليها وأرجهم منها

ومن أحكامهم أن الدين المدعى به لا يثبت على المدين إذا حلف على رأس
 الشهاد أن ذمته بريئة من ذلك وإن الدائن لا يستحق في ذمته شيئا ومحل ذلك
 ما لم يثبت الدائن دينه عليه بسندات قوية

ومن أحكامهم أيضا أن الربح عندهم في أي شيء كان في البيع والشراء
 لا يتجاوز رأس المال ولا عثم الغبن الفاحش وأن من عليه دين فاملاكه
 كافلة لذلك الدين وضامنة له وأما ذات المدين يعني شخصه فليس ضامنا لدينه
 وسر ذلك أن ذات المدين مملوكة للحكومة بحيث تطلبها الحكومة للمندمة في كل
 وقت وفي كل حال سواء زمن الصلح أو الحرب فلا يجوز القبض على أحد من
 الأهالي ولا حبسه في الامور الخصوصية كالدين ونحوه

ومن الأحكام الغريبة عندهم أنه يجوز للإنسان أن يقترض ويرهن في نظير
 دينه جثة والده المدفونة فيكون قبر أبي المدين تحت يد الدائن إلى قضاء الدين
 فإذا لم يقض المدين دينه ومات حرم من دفنه في مقابر والديه ويحرم أولاد

المدین أيضاً من ذلك ما لم يوفوا ما على والذينهم من الدين
ومن عوائدهم أيضاً أن الولائم التي يصنعها الاغنياء يحضرون بعد الطعام
خارجاً من أوجة الطعام فتشامر سوما عليه صورة من الخشب جيدة الصناعة
على هيئة جثة الميت ينظر اليها جميع النما على الشراب والطعام ويقرج
بعضهم بعضاً عليها بالمناوبة فيقول بعضهم للآخر انظر الى هذه الجثة ستكون
مثلاً بعد الموت فاشربوا هنيئاً وتمتعوا بديننا لكم قليلاً
ومن عوائدهم أيضاً احترام القبان الشيوخ فاذا قابل القتي شيخاً في طريقه
تأخر عنه في المسير واذ اقدم شيخ على مجلس فيه قبان قاموا له اجلالاً
لشيخوته واذ تقابل المصري مع اخوانه في موضع ولزم التسليم على من لقيه
انحنى كل للآخر وجنا على ركبته وقبل كل منهم يده صاحبه وكانت ملابس
المصريين ثياباً من الكتان لها معق ففوقها برانس منسوجة من الصوف
الايض ولكن لا يلبسون تلك البرانس في المعابد واليهام كل ولا يكتفون بها
ومتاهم بل يقتصرون على الثياب لان دينهم يحرم ذلك

(كيفية تقدم الفنون والمعارف)

وكانوا يشتغلون بفن الطب ويتقنونه اتقاناً جيداً الآن الطيب عندهم لا ينفرد
بالفرع واحد من فروع الحكمة ولا يؤذن له في العلاج الا بملازم مرض
واحد من الامراض لعدة امراض مختلفة فلهذا كثرت عندهم الاطباء
المتقنون في الفروع الطبية فكان عندهم اطباء للعيون واطباء لالوجاع
الرأس واطباء لوجع الاسنان واطباء للمعدة واطباء للامراض الباطنة الخ
وآثارهم كتاباتهم الجافية دلائل على أن درجة تقدمهم في المعارف البشرية
غير خافية اذ مثل هذا الاثر الجسيم عذران على امتياز مصر بالعلوم النافعة
في ذلك الزمن القديم

وأما امتيازها بعد زمن الفتح وانفرادها بكال المعارف فهو في غاية
الوضوح فكما كانت في القديم محط رحال العلماء والحكماء فلا زالت في
الحديث عدد علمائها كعدد نجوم السماء يرحل اليها طلبة العلم من سائر
الاقطار ويهرع اليها اولوا الفضل من جميع الامصار لتلقى العلوم العقلية

والثقلية من جهابذة اليهم بالبنان يشار وأسائذة لهم اليد العليا والسندات
 العالمية في التفاسير والاحاديث والآثار وروا في المنقول العلوم النبوية
 كما رووا في المعقول العلوم الحكيمة وتسكروا منها بما سار عليه السادة
 السنية على طبق موافقة السنة السنية وطرحوا وراءهم ظهرياً ما كان منها
 مشوباً بالضلال وتباعداً عن شبه أهل الاعتزال وعصودوها بالحج والبرهان
 وشيدوها بتكبير دعائم الاسلام والايمان محافظة على سلامة العقيدة وتسكا
 بخوف الله والمراقبة فهذا لم يتخل مصر من آثار جديدة وما أثر عديده
 وامتيازات في ميزان الفضائل والدرجة العليا ولم تزل حائرة لتلقبها بأتم النعمة
 وأم الدنيا وهل تجرد عما وصفها به المولى في القرآن العظيم حكاية عن
 يوسف في قوله اجعلني على خزائن الارض اني خفيظ عليم فتبيلها نوال خير
 لكل حاضر وباد وبرها بر لساير البلاد والعباد أهلها أهل الايمان وبها
 ترمي النعمة لأهل النعمة والاستئمان دار العمل للمعاش والمعاد ومدار
 الامل في الاسعاف والاسعاد عود عود شبابها الرطيب مشهود ورجوع
 نضرة اهابها القشيب في هذا العصر معهود بعناية الهمة المحمدية العلمية
 الزكية ومن اقبح أثرها من سلالتها الطبية كالاسمعية الزاكية النماء
 التي أصلها ثابت وفرعها في السماء فقد انهمل العيث في عهد هابعدان كان
 قطرا وتوالت عليها شمائل النعم تترى قللة الحمد على هذه المنة وهو ولى
 التوفيق والهادى الى أقوم طريق

(المقالة الاولى في تخطيط ديار مصر)

وفيها عدة أبواب

(الباب الاول في تحديد مصر وطبيعة ارضها)

ديار مصر واقعة في الشمال الشرقي من قسم افريقية ومحدودة شمالاً بالبحر
 الابيض المتوسط المسمى ببحر سفيد وبحر الروم وشرقا بالبحر الاحمر المسمى ببحر
 القلزم كما يسمى خليج العرب وجنوبا ببلاد النوبة وغربا بصحارى برقة وهي
 بين الدرجة الثالثة والعشرين والثلاث والعشرين دقيقة والدرجة الحادية

والثلاثين والسبع والثلاثين دقيقة من العرض الشمالى وبين الدرجة
الثانية والعشرين والعشرون دقائق والدرجة الثالثة والثلاثين ودقيقتين من
الطول الشرقى من باريس فهى وادىكتفه جبلان شرقى وغربى ويسدان
من اسوان ويتقاربان باسناحتى يكادايتمسان ثم تخرجان قليلا قليلا حتى
اذا وازيا بالقسطاط وهى مصر القديمة كان بينهما مسافة يوم فسادونه ثم
يتباعدان أكثر من ذلك والنيل يغاب بينهما وتشعب بأسافل الارض يعنى
الوجه البحرى وجميع شعبة تصب فى بحر سفيده وهنالك شعبتان احدهما
فرع رشيد والاخرى فرع دمياط يخرجان من النيل عند بطن البقرة فيستكون
بينهما اقلها المتوسطة والغربية على شكل جزيرة مثثلة في صورة الدال
اليونانية تسمى عند اليونان دلطة باسم حرف الدال المذكور عندهم

وامتداد مصر من الشمال الى الجنوب ثمانمائة وثمانون كيلومترا ومن الغرب
الى الشرق خمسمائة كيلومتر والكيلومتر ألف متر ومع ان أرض مصر كثيرة
الاتساع لاسيما من الشمال الى الجنوب فليست خصوبتها عومية اذ كثير
من أراضيها مستور بالرمال والجبال اليابسة القحلة وان كان فى صحاريها
عدة واحات ولا تكاد أن تقع بها الامطار وانما خصوبتها مقصورة على الوادى
المسمى بماء النيل المباركة عند فيضان النيل في معاده كل سنة ومكثه على
المزارع عدة أشهر يكسبها الخصوبة بما يحمل معه من الطين ومع قطع الجذور
ووجود الترعى الموصلة بمياه النيل الى السهول فالفضل لله تعالى على مصر
حيث من علمها بهذا النيل المباركة الذى تستغنى به عن مراحم الارض
وعواطف السماء لانه وحده هو السبب فى خصبها فلا تحتاج كغيرها من
أراضي البلاد الاخرى الى مهيئات الانبات كالسميد والتسمين والتسقيج وغير
ذلك كما لا تحتاج ايضا الى أمطار السماء بل فيضان نيلها بانضمامه الى هوائها
الجيوب التركيب كاف فى تحصيل الانبات الجيد واصلاح المزارع

(الباب الثانى فى بيان النيل المبارك)

هذا النيل السعيد هو أكبر أنهار الدنيا القديمة وقد ولغ المتقدمون
والتأخرون من الدول والملل بكشف منابعه والوقوف على مخارجه فكانت

معرفة الآن كعرفته للقديما في تلك الأزمان ولم يتبين لأرباب السياحة
 المتأخرين الآن البحر الأبيض الذي هو النيل الأصلي بدمسيره من منبعه
 الصحيح بصيفيه من شطه الايمن نهران يتدانه بمائهما الأول البحر الأزرق
 والثاني نهر اتيه الذي يلتقي معه بالتباعد جهة الشمال ومنايع البحر الأزرق
 هي التي كان ظنها السياحون منايع النيل الحقيقي وأصح الاقوال أنها تخرج
 من جبال القمر وأن مجراها نحو غنامة فرسخ من الجنوب الى الشمال حتى
 تصب في البحر المالح فعلى هذا هي البحر الأبيض وهو النيل الحقيقي ومخرجه
 ييلاد في جنوب دارفور وتسمى دار الأبيض والجبال الخارج منها هناك تسمى
 جبال الدرر وتغلي وهي متشعبة من جبال القمر فنيل مصر خارج من جبال
 القمر مستقيما في طريقه مياهم من عدة أنهر وذلك لانه يتولد في جنوب دارفور
 من جبال القمر في طول أربع وثلاثين درجة وثمان وثلاثين دقيقة من طول
 باريس شرقيا وفي عرض سبع درجات وسبع وأربعين دقيقة شماليا فيجري
 في مبادئ مسيره الى مسافة يسمى فيها بالبحر الأبيض منجها الى الشرق والى
 الشمال الشرقي ويصب فيه في أثناء جريانه البحرين السابقان وهما البحر
 الأزرق وبحر اتيه المسمى تقاربه بعد اتحادهم هذه الأنهر ومرو به ييلاد
 الدونكاو والشك والدونكاوية ودخوله في سناروكردان يسمى بالنيل ويشق
 الحبشة والتوبة فيسقى الخرطوم والحلقاية وشندي والضامر وبر بويلا
 الشاقية ودنقلة والمحس وسكوت ووادي حلفه ويدخل الى مصر متجها
 غالباً من الجنوب الى الشمال حتى فتهى الى عرض ثلاثين درجة واثني
 عشرة دقيقة شمالا فيتفرع من بطن البقرة الى فرعين أصليين وهما فرع دمياط
 وفرع رشيد وهذه القروع تقل مياهما عند تحارب النيل فلا تجد من العمق
 لبوغاز دمياط الا نحو غماية أقدام ويكون غمق بوغاز رشيد نحو خمسة
 أقدام وأما في ارتفاع الماء ووقاء النيل فينبف كل منها عن أربعين قدما
 بحيث تسير فيه السفن الحربية التي لها أربعة وعشرون مدفعا من البوغاز
 الى القاهرة

وقد صرح الآن عند أرباب المعارف الباحثين عن أحوال مصر أن سبب
 فيضان النيل الدوري كثرة الامطار السنوية بين المدارين دون سبب آخر

وأن هذه الامطار أيضا هي مصدر زيادة جميع الانهر الواقعة في المنطقة
المهترقة التي بين مداري الجدي والسرطان وأن الارض متى كانت منخفضة
كانت الزيادة الحادثة من الامطار تنكسها الفيضان في نهرها وري المزراع
ومقيا بمائه الاحمر المشوب بالطين الابيض والممتزج به كمال الامتزاج بحيث
يرسب هذا الطين على الاراضي الزراعية وينكسها الطمي قليلا أو كثيرا
وهذا الطين مشتمل على أجزاء دسمة ملائمة للنباتات مصلحة لها والا فأرض
مصر سجة في حد ذاتها لا تثبت شيئا ولا ينبت منها الا ما تر عليه ماء النيل وركد
فيه هذا الطين

فقد جرت العادة أن قوة زيادة النيل لا تكون الا عن غزارة الامطار ييلاد
الجنوب ولا تكون أمطار الجنوب الا في أيام الصيف ولم يعهد قط زيادة النيل
في الشتاء وهذا محقق عند من عرف أخبار مصر وانما تكون الزيادة
تدريجية على قدر ما يهبط في النيل من مياه الامطار وايضا ذلك في القروغ
الآتية

(الباب الثالث في منافع النيل في مزارع مصر)

من المعلوم أن مصر متوسطة بين براري اسيا المقفرة وصحاري افريقية العقيمة
وعتا ميرا المنفرة فلو لا فضل الله عليها بالنيل الميون الطلعة لكنت قحلة
كالاراضي المجاورة لهذه البقعة ولولا أنه سبحانه وتعالى سخر لها عادل سلطان
النيل المبارك ونزول جيش مياهه بواديها واصلاحها بالاحسان والتدبير جمع
اراضيها وامدادها بالميرة حاضرها وباديها لاقتفرت الى امدادها بغيث السماء
العميم وفاتها كون الطين الابيض لها أعظم صديق وحيم فان الغيث ولو أنه
قطب غوث يتكفل بالمزراع الآن سقوطه على الرمال انما هو بدون شك
ضائع فالنيل لمصر محب ودود وبه مصر منجية ولود وهذا معنى قول
أديانهم في أزمانهم الاولى وصدر القطرة المصرية مامل مصر الاعروس
عانت النيل وصارت بوصله مستبكة فأولدها الخصب والغنى والبركة
وعانت الصحاري ربح الاعصار فعمت على عمر الاعصار فلو اختلست
العصرا من مصر وصال النيل في بعض الاوقات لخلت منه مثلها باحتاج

البركات والخيرات فتعلمت هذا المعنى في قول

كلت بومل النيل مصر فأنتجت * من يافع الانعام كل ربيع
لو واصل النيل العصارى أنتجت * لكنها ألقت وصال الربيع
والاشارة في ذلك الى العصارى التي تمتد على شواطئ مثلث الغربية والمنوفية
الرملية الحصانية فان هذين الاقليمين حولهما شرقا وغربا سهول ومستويات
رمالية أو حصانية وهي راوى واسعة خالية عن الايس والجلبس فاقدة
الماء مجردة عن العشب والكلاء عرضة لحرارة الشمس المحرقة ليس بها من
الاشجار ما يستظل به كثيرة الرياح العواصف الجنوبية فليس فيها غذاء
لإنسان ولا حيوان فهي وحشة المنظر والخبر

لكن يتوفى البارئ سبحانه وتعالى وبغاية حضرة صاحب مصر رب المآثر
والمكارم ويسبغ غزوه الماضي الجازم وبذلك في الخير والمنافع جهده
المعلوم لا بد أن يواصل النيل بالعمليات الهندسية تلك العصارى كما اتصل
بعصارى القيوم وغير القيوم فتخطى هذه البرية عن الثياب الوحشية وتخطى
بين البرية بالخلل الهندسية وتصير كوادى النيل الاصلى بأربعة ارياض مترعة
الحياض تنيف في حرية الخصوبة على المنوفية وتفضل بغراية مقاربها على
الغربية وبالجمل فالنيل المبارك في الحقيقة هو روح مصر وحياة جثمانها وهو
الوصله العظمى في التواصل والتعامل بين أطراف بلدانها بل بينهما وبين
البلاد الاجنبية بواسطة البحرين المتصلين بها شمالا وشرقا اللذين جعل لهما
سابقا ولاحقا في ميزان الدول والحكومات امتياز اوضحا فنفعة النيل ظاهرة
حساب معنى ومنه جميع فوائد مصر تستلطف وتجي حتى ان طينه الا بلدى نافع
في الصنائع الضرورية فالنيل كالمناقع في المزارع والصنائع مزايه لا تحصى
ولا تنحصر ونهاية القول أنه في جنات مصر نهر الكوثر وقدمدح المتقدمون
عذوبة ماء النيل وملاصته لصحة الابدان ووافقهم المتأخرون لكن لا على
الاطلاق بل حققوا القول في هذا الشأن حيث أقادوا أن ماء النيل خفيف
بطبعه قليل المواد الاجنبية لذيق الطعم سائح للشاربين كما صرح ذلك بالتجارب
المكررة من تحليل أجزائه حتى قيل ما معناه أنه أعلى المشروبات الدوائية
وأنه يفرغ ما في الجوف وينقى الباطن فهو في هذه الحالة ممدوح جدا وهو في بحر

السنة جيد الاوصاف وأما زمن الصيف حيث يكاد أن تكون مياهه راكدة فإنه يكون مشحوناً بالماء إذا اجتمعت فيستحب ترويقه ليسوغ شربه وكذلك عند زيادة النيل فإن الماء يأخذ أولاً في التلون بلون الخضرة ويمكث على ذلك اللون نحو أربعين يوماً فيظف لون الحرة المائل للسمرة فعند ذلك يحسن الترويق أيضاً والظاهر أن هذه التغيرات حاصله لمن تلقى مياه متتابعة متواردة عليه من بحيرات معتادة الزيادة السنوية المتجمعة فيها من سقوط الأمطار على عدة محال مرتفعة من داخل افرقية بالبلاد السودانية فإذا صبت فيه مياهها الخضرة بما تحلل فيها من الحشائش والاعشاب اكتسبت لون الخضرة وحين تكثر هال عليه وجلبها الطين الفنى في مجراها تنكسبه لون الحرة الحقيقية التي بعد انحسار النيل يعقبها الغرس الألوان الزهرية

(الباب الرابع في شلال مدخل النيل الى مصر)

قبل أن يصل النيل الى حدود مصر يقط من خمسة جنات تسمى بالشلالات والشلال السادس هو شلال البربه وهو مدخل مصر من جهة القبل فهو آخر الشلالات للحدود وأولها للمقطع وهذا الشلال عبارة عن صخور متعاقلة من الجبل تكون منهاراً رأس جبلية مخرسة وشعاب حادة مفترقة عن بعضها على صورة الجزائر الكبيرة سادة تجري النيل من جميع الجهات فإذا ورد الماء في مجراه عندها صده وأوقفته فيقود ويطفو عليها حتى يغلبها ويجاوزها فعند دخوله هائجا ترتفع الأمواج المتركة مزبدة فتوصف قدم فإذا سقطت سمع لها صرير جسيم ودوى عظيم يحصل ذلك من تكسر الأمواج ويمكث بعض لحظات ويمتلئ المساقذ المظلمة من الدوامات والمقاعات المائية المسماة بالشمة وهذا الشلال يجعل سير المراكب عنده صعباً بل ربما كان خطراً ولكن توجد بميسرة النيل قطعة أرض مستوية غير مخرسة ذات تيار عظيم يجذب المراكب اليها فهو السهل للسير ولولا هذا الشط المستوى لكان العبور من الشلال خطراً جديداً وأيضاً فهذا الشط بتمامه يكون مغموراً في زمن الفيضان بالماء كالتلج العظيم فتسرف فيه السفن بالسهولة وفي زمن انخفاض النيل يسهل أيضاً صعود المراكب الهغيرة فيه ومقاطعها التيار يجزئ البان لكن

مع القرب الشديد من الشط وأما في الانحدار والسير إلى البحر فتتدرج
المراكب بغاية السرعة لا تجذابها بالتيار

فهذه حقيقة شلال اسوان وقد يظهر يادى الرأى ان ملوك مصر الذين
اجتهدوا في منفعة وطنهم بقدر الامكان قد أهملوا في عدم ازالة هذا الشلال
بالكلية مع أن هذا خلاف ما تقتضيه طباعهم في حب ما يقتضى العمار ولكن
من دقق النظر وجد أن تركهم ذلك على حاله انما كان لغرض سياسى وذلك
أنهم أبغوه عدم ليكون حصنا مانعا لاغارة أمم السودان على هذه الديار حيث
لهم سوابق في ذلك فلما تمت هذه الحصون الطبيعية لدام طمع هؤلاء القبائل
الخشنة في التغلب على بلاد مصر فهذا الاحتراس أبعد وألثك القبائل عن
التفكر في الهجوم الذى يغلب عليه أنه لا ينجح وبه انقطعت أطماعهم وبعد
شلال اسوان تصادف وأنت سائر إلى الجنوب الشلالات الأخرى في بحرى
النيل يلاذ النوبة كشلال وادى حلفاوشلال الحنش وشلال جرف الحداب
جهة قرية أبى حمد وشلال السليمانية وغيرها

الباب الخامس في استكشافات منبع النيل

لا سيما ارسالية عزيز مصر الجليل

في العصر الخالية والقرون البالية تعلقت همه القراعة بكشف منبع
النيل كالملك زمسيس ثم من بعدهم بحث قبائهم من ملك العجم عن ذلك حين
تغلب على مصر وكذلك اسكندر والبطالسة وقبصر الروم يرون الطاغية ثم
بحث أيضا عن ذلك خلفاء مصر وسلاطينها واولو كهاوليتم لهم حل هذه
المسئلة المعضلة وانما استتب بطليموس الجغرافى ما وصل اليه علمه من
استكشافات زمنه مما يقرب من الحقيقة الا أنه ذكره بوجه مبهم فسرته
الاستكشافات الاخيرة الافريقية وأوضحه أخيرا عزم عزيز مصر المرحوم محمد
على باشا حيث تين من ارساليته الاستكشافية نتائج توضح المبهم من كلام
بطليموس وتفيد حقيقة النيل ومجرأه وسمت منبعه بتطبيق ذلك على

استكشافات بعض أرباب السياحة في هذه الأزمان

(صورة ما قاله بطليموس مع بعض ملحوظات)

يستقادم من كلام هذا الفاضل ان النيل متكون من اختلاط نهرين عظيمين
أصليين وأن مخرجه من جبال القمر من المياه الدائبة من الثلوج الدائمة بتلك
الجبال وأن كل واحد من هذين النهرين يمر بصيرة عظيمة في طريقه وبعد
خروجهما من ذلك يأخذ كل منهما مسيره في قرش خاص به ووادي يجري فيه ثم
يجتمعان بعد جريهما منفصلين ويتلاقيان ويمتزجان فيصنعان نهر واحد
انتهى كلامه والواقع أن النيل الحقيقي وهو الأبيض عند سيره الى جهة مصر
يحتلط بالنيل الأزرق عند الخرطوم في محل يقال له الخرطوم ويصيران نهرا
واحدا وهو نيل مصر ثم بعد السير الى الشمال يحتلط به بحر اتره فكل من البحر
الأزرق وبحر اتره داخل في البحر الأبيض من شطه الايمن فليس استكشاف
أصح من استكشاف عهد بطليموس الواقع قبل الهجرة بأزيد من تسعمائة
سنة مع ما بينه وبين الاستكشافات الجديدة الافرنجية مما ينف عن ألفي سنة
ويفهم منه بالتطبيق على ما سيأتي لاسيما من الاستكشافات المصرية
واستكشافات بعض الانجليز أن النيل الحقيقي هو النيل الأبيض وليس هو
النيل الأزرق المعلوم المتبع الخارج في بلاد سفالة في جبال الحبشة تسمى
جبال حبش أبأري يعني جبال أبي المياه التي هي في عرض الدرجة العاشرة
والخمسين دقيقة ومنبعه فيها عبارة عن نفرة مستديرة قطرها أربعة أعشار متر
منحوتة يد الحكمة الالهية في أرض مسجحة مغطاة بالبوص والخيزران
والخثاش والنباتات خفية عن العيون فيجري الماء النابع هناك جهة الغرب
وينعطف الى الشمال فيمر في بحيرة تراه المسماة بحيرة دمبعة فيلحقها في الجهة
الجنوبية منها وهي بحيرة عظيمة فيها من الجزائر اثنتا عشرة بحيرة ولسرعة
جريان البحر الأزرق يخرج منها بدون أن ينعدم ماؤه فيها أبأيسر انعطاف
واזורاد ثم توجه الى الجنوب الشرقي ويرسم عند اقليم قوجم قوسا عظيما
يقابل الجنوب ثم يستقيم ويتجه جهة الشمال الغربي حتى يصب في النيل
الأبيض عند الخرطوم ويحتلط به كبا وهو في تلك المجارى العالية جهة

الجبسة يسمى نهر أبابوى كما تقدم وفي طريقه هناك ينبص فيه أنهار كثيرة ضخمة
وميسرة فلا يدخل سنار الا وهو نهر عظيم مهيب متلاطم الامواج فاذا دنا
من الخرطوم كان عرضه مائتين وعشرين مترافاً أكثر

فهذا النهر الازرق الجبشي انما هو فرع من فروع نيل مصر اشتبه على
المتأخرين من ارباب السياحة الا فرنجية فحكموا بأنه النيل الاصيل
وتدحوا بأنهم كشفوا منبع النيل لان جميع الناس سابقا كانوا يرون أن
النيل هو النهر الازرق والا ن قد بطل هذا الرأى وحكم علماء الجغرافيه بأن
اعتقاده غلط

وبين ذلك أن موضوع الاستكشاف المطلوب انما هو منابع النيل وهي
مسئلة مشككة والمقصود حلها بالوقوف على حقيقة منبع النيل فيسأل هنا
ويقال اذا جرى عتة أنهر في مجاري مختلفة وامتزجت كلها وجرت في واد واحد
وكان قبل الاختلاط لكل منها منبع متغير فما منبع النهر الكبير المصنوع
من اجتماعها

وجواب ذلك أن المستحق للمنبع المسؤول عنه هو أطولها مجرى وأبعدها
أصلاً فاذا نظرت الى خريطة اقليم فيها أنهر بهذه المثابة تجد المنبع المرسوم
انما هو لأكبرها مجرى ومن المعلوم أن الانهار التي تشق بلاد السودان
لم يكن منها مستوفياً للشرط المذكور الا النهر الأبيض اذ هو أطولها امتدادا
فهو المستحق لاسم النيل وهو المطلوب المنبع فبمع هذا النهر المتسلطن
محبوب عن عقول الجغرافيين وانما اقتبسوا بعض أنوار ومعارف من
ارسالية عزيز مصر المرحوم محمد علي باشا واهتدوا بها في استكشافاتهم

نتيجة ارسالية تسليم بك قبودان ودرنوبك لسفر البحر الأبيض

قد أرسل عزيز مصر المشار اليه في ظرف أربع سنوات ثلاث ارساليات
متوالية لقصد كشف منبع النيل ولكن الارسالية الثانية التي كانت تحت
رياسة سليم بك قبودان ودرنوبك هي أضع الجميع وذلك في سنة ١٢٥٧
فسارت هذه الارسالية الجغرافية في النهر الأبيض مسافة خمسمائة فرسخ من
الارتحال من الخرطوم وفي طريقها لم تجد من الانهر المهمة التي تصب في هذا

النهرين عظيمين يجتمعان به في شماله ويحتلطان به أحدهما نهر سوياط
ويقال له نهر جوجب يخرج من شرق بلاد ساقا ويرسم حول بلاد ~~ككا~~
انعطافات شبيهة بانعطافات النهر الأزرق وثانيهما بحر الغزال وهو يصب
في بحيرة نوا المسماة بحيرة كوير وعرضها ثلاثة آلاف وسقائة متر ولا يجرد النيل
في مجراه بالبعد عن هذه البحيرة شلالات ولا جبالا بل يجري النيل في سهول
مستوية مسججة ونخلة لا يكاد يدرلها النجد والمياه وانما في عرض الدرجة
الخامسة يلح بعض جبال قتر تقع الارض تدريجيا وياخذ المجرى في الضيق
ومع ذلك فعند جزيرة جاتنكير لا ينقص عرضه عن مائتي متر وهذه الجزيرة
واقعة في عرض الدرجة الرابعة وخمس وعشرين دقيقة شماليا وهي في
الدرجة الثامنة والعشرين من الطول الشرقي من باريس وعلى القرب من
هذه الجزيرة باجات كيمان من الرمال والصفور كشلالات تمنع سير السفن
على النيل منعاً كلياً

فلما ارست سفن الارشالية المصرية على هذه الجهات ووجدت الموانع للسفر
قوية اقتصرت على أخذ الاستعلامات اللازمة والاستفهامات النافعة فيما
يخص منابع النيل مما يعلم من أهالي تلك الجهة

فكانت نتيجة ذلك أن النيل يأتي الى تلك الناحية من الجنوب الشرقي
وأن منبعه يقرب من دائرة الاستواء على ثلاثين مرحلة فوق جزيرة جاتنكير
ومن المعلوم أن مرحلة السودان يعني ما يقطعه المسافرون هنالك في يوم
خمس فرائح أو ستة حسب المعتاد فكون المسافة بين جزيرة جاتنكير
ومنبع النيل نحو مائة وخمسين فرسخاً تقريباً فإذا حسبنا مجرى النيل نقول
أن من منبعه الى جزيرة جاتنكير مائة وخمسين فرسخاً ومن هذه الجزيرة الى
الخرطوم خمسمائة فرسخ ومن الخرطوم الى البحر المتوسط خمسمائة وخمسون
فرسخاً فجملة مجرى النيل ألف ومائتين فرسخاً ونتيجة هذا القياس تدل على
أمرين الأول على أن النيل هو أطول أنهار أفريقيا مجرى الثاني على أن ما
ذكره الاقدمون مثل بطليموس في حق النيل صحيح

وبيان ذلك أن النيل على كلام بطليموس مجمع نهرين عظيمين وأن مخرجه من
جبال القمر وأن كل واحد من النهرين يشق بحيرة عظيمة وبعد خروجه منها

يتفرد بحجراه في واديه وفرشه ثم يجتمعان ويصيران نهر او احد فلا اصح من هذا القول ولا اصدق منه حيث تقدم صدقه في النيل الازرق الذي هو احد فرعي النيل وأما ما يخص النهر الايض فانه يظهر من استكشاف الارسالة المصرية بضميمة أخرى تضاف اليها كاستكشاف مسيو ريجان الانجليزى أحد أخبار الانجليز المبعوثين الى افرىقية من طرف الدولة الانجليزية لتشرىياتهم بتلك الاقطار السودانية القاصية فان هذا الخبر استعوطن بالقرب من بلاد تسمى ربابه على ساحل افرىقية الشرقى فى الدرجة الرابعة من العرض الجنوبى فاجتهد في أن يستكشف تلك البلاد المجهولة الاحوال ليلخ مرامه فطاف بنفسه وتوغل في البر الى أن وصل بلدة دغاس فصادفه هناك جبل يسمى قبلى منجار وراسه مغمو رباب النبل الدائم فسأل اهل دغاس عن احوال هذه الجهة فأفادوه بعض فوائد فكسبها الى مجامع العلوم في أوروبا ومن مضمونها أنه موجود خلف دغاس اقليم واسع يسمى مونومورى فيه بحيرة عظيمة لم يطلع أحد من اهل السباحة عليها فالظاهر أن هذه البحيرة هي احدى البحيرتين اللتين يشقهما النيل يقرب منبعه على قول بطليموس ولا يسوغ لسان فخرم بذلك وانما المحقق عندنا ان هذا الرأى يوافق اتجاه النيل الاعلى ويناسب طول بحجراه

وقد نبهنا على أن النقطة التي وقعت عندها السفن المصرية هي جزيرة جاتسكرو وأما على البعد من منبع النيل بمائة وخمسين فرسخا تقرىبا فاذا فرضنا هذا الخط الذى طوله مائة وخمسون فرسخا ورسمناه على خريطة افرىقية كما فعله مسيو بيسكه في رسم خريطة وجدنا أن طرفه الجنوبى يخطب على بلاد مونومورى الممتدة من الدرجة الاولى الى الرابعة فى العرض الشمالى ومن الدرجة التاسعة والعشرين الى الرابعة والثلاثين من الطول الشرقى من باريس

وقد لاحظ مسيو بيسكه أن لفظ مونومورى هو اسم مركب من كلمتين كل منهما المعنى فى اللغة الصوهلية القرية من اللغة المونومورية بمعنى لفظ مونوملك أو اميرا أو حاكم وأما الثانية وهي موزى فهي علم على البلد ولكن معناها فى الاصل قروم من هذا قال بطليموس ان مخرج النيل من جبل القصر فله قبله فى ذلك الزمن ان النيل يخرج من جبال موزى (يعنى جبال قياو)

منجمارو بقرب موفومو يرى) فلما ألف بطليموس كتابه وذكر فيه ذلك ترجع
 لنظام ويرى بالقمر باللغة اليونانية مع أن هذه الكلمة علم على البلدة فاشتهر أن
 مخرج النيل انما هو من جبال القمر

فهذا كله يؤيد أن مخرج النيل من جبال موفومو يرى وفي الحقيقة هذه البلاد
 يصعب وصول أرباب السياحة اليها فان طرقها كثيرة الموانع عظيمة الاخطار
 لكن لا خرا عظم من يصل اليها من أرباب السياحات ويكشف منابع النيل
 المأخوذة الا بالاجتهادات والتقصينات حتى تقوم اليقينيات مقام الظنيات

(الباب السادس في زيادة النيل و ذكر المقياس)

تبتدى زيادة النيل من خامس بؤته فاذا كانت ليلة ثاني عشر بؤته يكون عبد
 ميكايل عند القطب وتوزن في تلك الليلة النقطة ويزيد النيل حينئذ ويؤخذ
 قاع النيل لاجل أخذ مقياس القاعة وينادي عليه بما زاد من الاصابع
 في سابع عشر بؤته ويقال أقل ما يبقى في قاع المقياس من الماء ثلاثة أذرع ففي
 تلك السنة يكون الماء قليلا واكثر ما يوجد في قاع المقياس من الماء اثنا عشر
 ذراعا وفي تلك السنة يكون الماء على الجادة فاذا بدأ الزيادة في خامس بؤته
 وظهورها في ثاني عشره فأول دفعه يكون في زيادة ثاني عشر أياب ومنتهى
 الزيادة الى الثامن من بابه ومن هنالك يأخذ النيل في النقصان الى عشرين في
 بابه فيكون من مبتدأ الزيادة الى منتهائها ثلاثة أشهر وخمسة وعشرون يوما
 من بابه ومدة مكثه بعد انتهاء الزيادة اثنان وعشرون يوما ثم يأخذ في النقصان
 ومن العادة القديمة أن ينادي عليه في السابع والعشرين من بؤته ويفتح
 الخليج الكبير اذا اكمل الماء ستة عشر ذراعا وكانوا يقولون نعود باقته من اصبح
 من عشرين ذراعا ثم لقدت أحوال الجسور والقناطر كان اذا بلغ الماء
 أصبعان عشرين ذراعا لايم الاراضي كلها ثم في هذا العهد الاخير حيث
 أصلت القناطر والجسور وكثرت الترع والخجان كان يكفي في الري لاسيما
 في البحيرة سبعة عشر ذراعا وربع حيث انها منخفضة لمزارع ويحتاج
 الصعد في أكثره أكثر والاقاليم الوسطى الى نحو ما فوق العشرين
 والزيادة تعلم بالمقياس الموجود في جزيرة الروضة

وهذا المقياس عمود من المرمر في قاعة مربعة الشكل فيها حجرة يدخل ماء النيل من تلك النجوة الى القاعة وفي دأرها منزل بدرجات ينزل منه للقياس وذلك العمود محزوز غليظة حوز منفصلة ومنقسمة الى ستة عشر قسما كل قسم منها ذراع وكل ذراع منقسم الى ست قبضات كل قبضة أربعة أصابع وقد أفادت العادة ان النيل الذي لا ينزل عن الذراع الثالث من العمود لا بد أن يصعد فوق الذراع السادس عشر أربعة وعشرين اصبعاً الى ثلاثين يعني يغطي رأس العمود حتى انه يحصل الري الكافي وهذا يكون سبعة عشر ذراعاً كمله أو سبعة عشر ورعاً من ذراع وكما ينادي عليه في الشوارع بقدر الزيادة من زيادة تدعى له في الخطب على المنابر بإبلاغه المزارع والمنافع وبناء المقياس كان في قديم الزمان في عدة محال من الاماكن المشهورة كدبنة منف وجزيرة اسوان وغير هاتين بعد الاسلام أيضاً في عدة أماكن ويقال ان أول من بنى مقياس الروضة هو سليمان بن عبد الملك الاموي سنة سبع وتسعين من الهجرة ثم تهدم وبعده الخليفة المأمون العباسي سنة مائة وتسع وتسعين كما يدل على ذلك التاريخ المرسوم في العمود ثم أصلحه الخليفة المستنصر بالله وصنع فوقه قبوتين أقامهما على العمود مستندتين على جدران القاعة وأصلحه أيضاً صاحب مصر محمد علي باشا

(الباب السابع في فضل النيل ومزاياه)

قال بعض العلماء لم يسم نهر من الانهار في القرآن سوى النيل في قوله تعالى وأوحينا الى أم موسى ان أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم قال أجمع المفسرون على أن المراد باليم هنا نيل مصر وقد اتفق العلماء على أنه أشرف الانهار في الارض لاسباب منها عموم نفعه فانه لا يعلم نهر من الانهار في جميع الارض المعمورة يسقي ما يسقيه النيل ومنها الاكتفاء بسقيه فانه يزرع عليه بعد نضوبه ثم لا يسقي الزرع حتى يبلغ منتهاه ولا يعلم ذلك في نهر سواه ومنها ان ماءه أصح المياه وأعدلها وأعذبها ومنها مخالفتها لجميع أنهار الارض في خصال هي منافع فيه ومضار في غيره ومنها أنه يريد عند نقص سائر المياه ويتقص عند زيادتها وذلك عند أوان الحاجة اليه ومنها أنه يأتي أرض مصر

في أو ان اشتداد القبط والحروب من الهواء وجفاف الارض فيسبل الارض
ويرطب الهواء ويعتدل الفصل تعدل زائدا ومنها أن كل شهر من الانهار
الغظام وان كان فيه منافع فلا بد أن يتبعها مضار في أو ان طغيانه بافساد
ما يليه ونقص ما يجاوره والتيل موزون على ديار مصر بوزن معلوم وتقدير
عمر سوم لا يزيد عليه ولا يخرج عن حتم ذلك تقدير العزير العليم ومنها أن
المعهود في سائر الانهار أن تأتي من جهة المشرق الى المغرب وهو يأتي من
جهة الجنوب الى الشمال فيكون فعل الشمس فيه دائما وأثرها في اصلاحه
متصلا ملازما ومنها أن كل الانهار يوقف على حقيقة منبعه وأصله والتيل
لا يوقف له على أصل منبع مع عدم الايطاء في ذلك وليس في الديانهر يزيد ثم
يقف ثم ينقص ثم ينضب على الترتيب والتدريج غيره وليس في الديانهر يزرع
عليه ما يزرع على التيل ولا يجبي من خراج غله زرعه ما يجبي من خراج غله
زرع التيل

وقد أعطى **ك** كثيرا من المحصول من أيام ميناوس أول ملوك مصر الى أيام
أمراء العهد الجديد ثم كان قد تفقر حال محصوله وسبب تفقره قبل عهد
المرحوم محمد علي باشا ان عمال الملوك لم تسمح نفوسهم بما كان يتفق على
الرجال الموكلين بحضر خلبانه وترعه واصلاح جسوره ورم قناطره وسد ما يلزم
سد من ترعه وقطع الشوك وازالة الخلفاء وما أشبه ذلك وكانوا في الا زمان
السابقة مائة ألف رجل وعشرين ألف رجل مرتين على اخطاط مصر سبعين
ألفا لاقليم القبلية وخمسين ألفا لاقليم البحيرية وكان اذا جبي الخراج من
قرى مصر وجمع كان للملك من ذلك الربع خالصا يصنع فيه ما يريد والربع
الثاني لجنده ومن يقوى به على حربه وجباية خواجه ودفع عدوه والربع
الثالث لمصلحة الارض وما يحتاج اليه من جسورها وخضر خلبانها وترعها
وبناء قناطرها والقوة للزارعين على زرعهم وعمارة أرضهم والربع الرابع
يخرج منه ربع ما يصيب كل قرية من خراجها فيسدفن ذلك لنسبة تنزل
أوجاحة تحمل بأهل القرية والذي يدفن في كل قرية من خراجها هي كنوز
فرعون التي يصدق الناس بها والآن لم تزل عادقدفن الغلال في الرمال جارية
عند أغنياء الفلاحين فهي كنوز الاهالي وعرات العدالة والسكدة ولم تفتح عرو

ابن العاص رضي الله عنه مصر قال للمقوقس أنت وليت مصر فم تكون
عمارتها فقال بخصال أن تحفر خلبانها وتسد جسورها وترعها ولا تأخذ
خراجها الا من غلظها ولا تقبل مطلق الا هالي ووفى لهم بالشروط وتدر الارزاق
على العمال لتلاير تشوا وترفع عن أهل الخراج المعاون والهدايا ليكون
قوة لهم فبذلك تعمرو مصر ويرجى خراجها والظاهر أن ملوك مصر قديما كانوا
يقسمون الخراج أربعة أقسام قسم خاصة الملك وقسم لارزاق الجنود والعسكر
وقسم لمصالح الارض وقسم يدخر لحادثة تحدث فينفق فيها فهو الذي يكثر
الحاجة اليه وهذا كله يقتضي أن اجتناء غمراتها واحياء مواتها انما هو
بالنيل المبارك فان الله سبحانه وتعالى أرسله اليها وبأركبه فيها وقدر فيها
أقواتها

(الباب الثامن في بحيرات مصر)

كان في مصر في قديم الزمان سبع فروع للنيل ينصب ماؤها في بحيرات وهي
فرع تينه وفرع تيس وفرع ديم وفرع دمياط وفرع البرلس وفرع رشيد
وفرع أبوقبر فأما فرع تيس فهو متصدل لا تتمع فرع المتزلة وكذلك فرع ديم
فلنذكر الآن بحيرات مصر التي كانت تنصب تلك الفروع في البعض منها
فنتقول

بحيرات مصر عشرة الاولى بحيرة مريوط الثانية بحيرة المهدية وتسمى بحيرة
أبو قير الثالثة بحيرة ادكو الرابعة بحيرة البرلس الخامسة بحيرة المتزلة
السادسة بحيرة أبو بعل السابعة بحيرة بردويل الثامنة بركة القساح التاسعة
بركة النظرون العاشرة فارون

(بحيرة مريوط)

أول ما يقابل الانسان عند قاعدة ممثك الوجه البحري المسمى الدلتة وهو
قادم من الغرب هو المسمى بحيرة مريوط فهي بين المحل الذي يقال له ترعة
العرب والاسكندرية وكانت هذه البحيرة في سالف الاعصر تخصب ما حولها
من الاراضي وكانت بعد قسح مصر بالاسلام عذبة الماء لما يصل اليها من

خلجان النيل ولكن في حدود القرن العاشر من الهجرة أهملها دولة المعاليك
وتركوها بالكلية فبيست وانما تبعد فيها المائتين الامطار ويحكث فيها مسدة
الشتاء وفي سنة ١٢١٦ من الهجرة قطع سفن العثمانية والانجليز جسر
ترعة الاسكندرية من الطرف الغربي من بحيرة المهدية فانتشرت مياه التربة
المالحة التي هي مثل ماء البصرى الملوحة وأخذت في الاتساع تدريجاً ودخلت
في بحيرة مريوط من عدة مصاب وفوجات فلاتها في نحو شهرين وستة أيام
من الجرى وكان كسر الجسر من مشورة الانجليز على العثمانية لقطع الامداد
عن فرنسا وية فترتب على تلك الاسشارة حدوث نوع من الطوفان أغرق
في طريقه أربعين قرية مع ما حولها من الاراضي والمزارع فلما جاءت نوبة
الحكومة لحد يوم مصر محمد علي سدد جميع الطرق والمناقذين مريوط والبصرى
هذا الوقت صار لا ينزل في هذه البحيرة غير مياه الامطار فاذا غصت بالماء عند
الامتلاء ألقيت في ترعة المحمودية قهقري في فصل الشتاء ويتصاعد ماؤها
أبخرة ولما كان فاع هذه البحيرة قد مكثت زمناً طويلاً مشوباً بالمياه المالحة
ومخالطها كان عند وجود المياه فيه يحدث على وجهه طبقة كثيفة
ملحية تجعل منظره كمنظر الثلج فاذا تبلور الملح في هذه البحيرة بهذه المثابة صار
استخراجها من هذه الملاحه

وقد كان صمم المرحوم محمد علي باشا على أن يصلح أرض مريوط ويجعلها
زراعية فانتقل الى دار البقاء والدوام قبل تغيير هذا العزم وبلوغ هذا المرام
ثم لما جاءت نوبة ولده المرحوم محمد سعيد باشا اتخذها تزل في بعض الاحيان
ولعله كان قصده أن يجدد بها العمران الا أنه لم يعمل من ذلك ما يستدل به على
حقيقة القصد

(بحيرة المهدية)

هذه البحيرة تسمى بحيرة أبوقير وهي بركة ماء على طريق الاسكندرية الموصلة
لرشد تنصب في البحر الملح بين أبوقير وبحيرة ادكو وماؤها مالحة كانت حفرت
جديدة والبوغاز التي تصل به الى البحر هو تقريباً محل القرع القديم الابوقيرى
وعلى طول الارض الرملية الفاصلة لها من البحر آثار الجسر المستطيل

الذي يبلغ طوله ثلاثة آلاف متر وقد كان هذا الجسر انقطع بشدة مياه البحر
المالح سنة ١١٢٨ من الهجرة حيث كان البحر ابتدأ في اغراق المهدية
ومسطح هذه البحيرة نحو ثلاثين ألف فدان تقريبا

(بحيرة اوكو)

هذه البحيرة بين المهدية وبحر رشيد تستقما معهما من النيل وقد كانت يست
بالكلية حيث أن جسور الترع التي كانت عقدها لم يخرج منها مصرف اليها من
مدة طويلة فلما انقطع الجسر سنة ١٢١٦ وكان فيضان النيل عاليا جدا
حتى ارتفع الماء زيادة عن نصف متر على مسلواة البحر ففتح فجوة واسعة وبغازا
عرضه نحو مائة وخمسين مترا يصب منها في البحر وحيث ان مياه هذه البحيرة
توانت من فيضان النيل في أول الامر فقد نضب ماؤها فيما بعد فدخل في تخوم
المال فغلقت مياه البحر المالح التي وصلت اليها من ترعة ديروط وصيرتها
بحيرة وترعة ديروط ترعة اتصلت بالبحر في الجنوب الشرقي من أبو قير وكانت
حدثت أيضا سنة ١٢١٦ في زمن فيضان النيل لتصرف مياه التي
أغرقت قري كثيرة ولكن لم يحصل منها كبير غرة في تصرف المياه الملحة التي
يقرب البحر فهذه المياه الخمسة بهذه الجهة بقيت على ما هي عليه وتكون
منها بحيرة اوكو التي سميت باسم بندر اوكو الواقع على شاطئها الغربي ومسطح
هذه البحيرة نحو ستين ألف فدان تقريبا

(بحيرة البرلس)

هذه البحيرة واقعة في أرض قاعة مثلث المملطة ويمتد من أحد فروع النيل
الى الآخر وهي قليلة العمق يصب فيها عدة ترع وهي توصل هذه المياه الى
البحر المالح بيوغازها وطولها نحو خمسة وعشرين فرسخا ومسطحها نحو
مائتي ألف وعشرين ألف فدان

(بحيرة المنزلة)

تمت هذه البحيرة من دباط الى تينة وطولها نحو ٨٤٠٠٠ متر وعرضها

نحو ٢٢٠٠٠ متر ومسطحها ٢٦٨٠٠٠ فدان وهي متصلة
 بالبحر بواسطة بوازين لم يزل المصرفين للمياه وهما بوازيه وبوازي أم فراج
 وهذا الفرع من القروع القديمة
 وليست مياه بحيرة المتركة كهيئة العظم ولا ملحة كياه البحر بل قديسوغ
 شربها مدة فيضان النيل فان مياهه تنبعث فيها من ترعة موسى ومن البحر
 الصغير قعذب وتخلو

(بحيرة البولج)

هذه البحيرة عبارة عن عدة السنة ورؤس مستنقعة وأجزاءها الجنوبية
 متكونة من بحيرة المنزلة ومسطحها نحو ١٢٠٠٠ فدان

(البحيرة المسماة سجة برواويل)

هذه البركة لسان قريب من البحر على الشرق من رسوم مدينة بينه القديمة وعلى
 الغرب من رأس قرزروم وبالقرب من جهة العرش توازي امتداد ساحل
 البحر ومنها جريابيس وما حكاها القدماء فيما يتعلق بها في قديم الزمان لم يزل الى
 الآن باقى الآثار فقد حدثوا بأنهم ارمال غزيرة ومغارة رديئة وأنه قد اتفق
 ان شرذمة من العساكر هلكت فيها حيث اغتريت بها وذلك أنها جهلت عمق
 هذه السجة التي هي عدة بحيرات غلغها العواصف بالمال فتغمر أعماقها
 فلما سطكوها مشوا على الرمل فوجدوا الرمل يثبت عليه القدم فيمداخلها
 وانما يأخذ في الخلط تدريجاً حتى يطول السير تنغمس فيه الاقدام وتزل فيه
 الارجل كالاول حال العميقة فهذا انغمست أقدام من سبق في السير من
 هؤلاء العساكر فاستجد بأصحابه ليغيثوه من الفرق فحصل لهم ما حصل
 لهم ورطة الرمال وصارت تنال عليهم حتى أغرقتهم عن آخرهم فلا شك
 أنها جباب ومهاوومها لك فهي محل تسلطن الرياح العاصفة وكانما هي بحر
 رمل

(بركة التمساح)

هذه البركة تسمى البصرة المرة وهي واقعة في أرض برزخ السويس ويغلب
على الظن ان ماء البحر الأحمر كلن جاريا في محلها في الأزمان السالفة لوجود
الامارات الدالة على ذلك

(بحر التظرون)

تسمى هذه البركة أيضا وادي التظرون وهي على غربي قرية الطرانة بمسير
ساعتين فهي وادجسمته منخفض مشغل على ست برك تسمى برك التظرون
لوجود الاملاح النطرونية بها وشطوطها مقطوعة بخيلان صغيرة ترشح فيها
المياه فتصنع عيون فاذا امتلأت هذه العيون وانساب ماؤها صبت في حوضان
تلك البركة وعلى شطوط هذه البركة تنبت أملاح النطرون

والغالب على الظن ان فرش هذه البركة أخفض من سطح النيل بل ومن سطح
البحر المالح فلذلك ذهب أرباب البصا الى أن هذه البركة تسفد ماؤها من رشح
النيل الكامن في خلال الاراضي وسريانه اليها من الضوم في مسافة عشرة
فراخ من محل اتصال مياه النيل عن واديه ومن المحقق أن زيادة ما هذه
البركة ونقصه دائما على عكس زيادة النيل ونقصه وذلك لان الرشح انما يحصل في
ثلاثة أشهر الشتاء فزيد فيها مياه البركة شيئا فشيئا الى منتهى زيادتها

وبقرب هذه البركة عدة ديور للقبط ومن جلة بركها برك كان لون ماؤها محمر
بأجزاء نباتية حيوانية فحين تصعد المياه منها فأول ملح يتبلور يكون أحمر اللون
وله رائحة ذكية كرائحة الورد

(بحيرة القادون)

هذه البركة تسمى أيضا بركة مريس باسم ملك يقال انه احتقرها وهي أهم جميع
البركة المشهورة في الأزمان الخالية بعموم قعها البلاد القيوم خاصة ولعموم
الديار المصرية بأمرها والقيوم واد منخفض مستدير مصنوع من جبل لويبة
على مسافة أراضى الاقاليم الوسطى ومعنى لفظ قيوم في اللغة المصرية
القدية أرض بركية مستبصرة ولم يبق من تلك البركة الا أخاضاتها الخبيسة
الماء لانها كانت سابقا نحو ستين فرصا في مثلها وكان يصب فيها ماء النيل من

خليج القيوم المسبح بحري يوسف الذي تكون على شكل يونغاز بعنفوان الماء وقوته ومجموعه على سلسلة جبال لوية حتى قصها ودخلها وكان بحري يوسف الموجود الآن يتشعب منه عدة قروع تسقى أرض القيوم ومن أروعها فإذا
 تم الري صب ما زاد من مائه في بركة فارون

وكان تصرف هذه المياه في البركة المذكورة بقصد تخزين مياه النيل فيها لينصرف منها عند الاقتضاء بقدر الحاجة

واختلف في محل المصرف من هذه البركة إلى وادي مصر فقال بعضهم أن مورد المخزن الذي كان يتلقى المياه مقدسة أشهر من السنة هو المصدر لما يحتاج اليه من الستة أشهر الباقية من السنة فعمل المصدر والمورد واحد بترتيب وتقدير مختلف واستظهر بعضهم بما هو الأقرب للاحتمال أن المصرف كان من الحقل المسعى الآن بحري بلاما فان واديه متصل بطرف بركة القارون الغربي وموجه جهة الشمال في داخل البرية بمسلة النيل وكان سابقا بحري صوب بركة النطرون بنحو ساعة ونصف وينتهي إلى بحيرة مريوط وحيث كان قراره مضمورا إلى الآن فهذا دليل على أنه كان ذيلا لبركة القارون كله أو بعضه يعني أنه كان بركة ثانية تالية للأولى فهو بركة طبيعية في الأصل وإنما دخلها التدبير البشري والعمل الإنساني واتساع هذه البركة من سط إلى آخر ثلاثة فراسخ وهي الآن عميقة لا ماء فيها ولا عشب وانما بها أشجار مستنجرة وحيوانات كذلك

(الباب التاسع في نزع مصر وخليجها)

قال العلماء إن نيل مصر كترقيس بين يدي رشيد فاضل أو سفيه جاهل فالأول عبقريته ويعرف قدره ويحسن التصرف فيه من مصلحة ويدبر أمره لينمو المحصول حسب المرغوب والمأمول والثاني يقوته الحزم والتدبير ويقنع من الثمرة القليل ويضع ماء النيل هباء مستورا بترك الواجب كسلا وتقصيرا وهل بركة مصر وخيمتها الأمن عليها المباركة الميمون والا كانت بدونه بركة قللة لا تسكن لاحد ولا تقوم بالشئون نخبها انما هو بقدر ما يجري بأراضيها من ماء النيل وتدبير مياهه الرواتب بذلك كليل ومعلوم أن النيل لو ترك وتفسده يتدفق في

البحر المالح مقدار معلوم من مائه وكيفية مقدرة عند وفاته فلما أمكن أن تجزئه
أراضي مصر بالتدبير من المياه الملتزمة عليها فانها تفوز به للاصلاح وخصبها
بقدره قلة أو كثرة وبهذا انفتاح الفلاحة ورياح الفلاح فانحصب والثروة
والقائدة انما هي على قدر ما يمكن تجزئه من المياه التي تضع في البحر المالح
فحفظها الحاجة اليها من أبرك المصالح

فهذا كانت غبطة مصر انما هي في حفر الترع والخليجان وعمل القناطر
والجور بالاحكام والاتقان وتدبير مياه النيل مع كمال الاقتصاد وتوسيع
دائرة عمليات الري والسقي لبلوغ المرام والجصول على المراد وهذا طريق
لتكثير المحصولات وتوسيع الاراضي الصالحة للزراعات ومن هنا يعظم
الغنى واليسار وتقدم الثقتن وقوة الحكومة واكتساب الثغر والاعتبار
وقد فهم هذا المعنى أكثر عقلا مملوك مصر وحكامها وأجروا قديما وحديثا
كل على قدر همته في حسن ترتيب العمليات ونظامها وكن أعظم الجميع غيرة
وهمة وتأدية لقرض المنصب وواجب الذمة المرحوم محمد علي باشا حيث
تأسى عن سلف وورث حسن صنيعه الخلف وجدد العمليات الجدة التي
أعمرت بعهد سائر الالهالي سعة العيش ووفور النعمة
ولنذكر الآن الترع والخليجان الاملية التي لعمتها واتساعها في الغالب
تسمى بحار في الديار المصرية وهي عشرة

(بحر موبس)

هذا القرع العظيم يخرج من فرع دمياط بجوار ترتيب وبنها على البعد من
المحروسة بفرسخ ويمجى الى الشمال الشرقي من اقليم الشرقية في سمات
الزقازيق وتل بسطاوي تشعب الى شعبتين تصبان في بركة المنزلة وتسير فيه
السفن كالنيل وطوله أربعون فرسخا في عرض مائه وخمسين مقرا وفيه
انعطافات كثيرة وشطوطه مسطوحة بمساواة مستوى الاراضي وقد استظهر
بعضهم أن مجرى بحر موبس فرع هو ما كان قديما مجرى فرعى منه وتبين

(البحر الصغير الى بحر المنزلة)

يخرج من فرع دمياط بجوار المنصورة ثم يمر على مدينة المنزة ويصب في
بركة المنزة كبحر مويس

(بحر شبين الكوم ويسمى بحر القرينين)

هذا البحر يمر بالمنوفية والغربية يستمد ماءه من فرع دمياط عند قرية
القرينين ثم عند شين الكوم يتكون منه فرع آخر يسمى فرع المليج ويتصل
بقناة التباينة ويصب مثلها في بحيرة البرلس واستظهر بعضهم أن هذا البحر
من أول خروجه من فرع دمياط إلى مصبه في بحيرة البرلس انما هو مجرى فرع
البرلس القديم ثم ان بحر القرينين المذكور تسير فيه المراكب وعرضه في بعض
المواضع مائة وخمسون عمدا إلى مائتين وهو يعد بياضه عدة ترع من ترع القرى
والمدن بالمنوفية والغربية

(البحر الصيدي)

قد سميت بهذا الاسم التربة الخارجة من فرع رشيد بجوار دسوق وتجر
بالتندورة وتصب في بحيرة البرلس

(الحمودية)

كانت هذه التربة سابقا خليجا صغيرا قليل النفع من منافع من حكم مصر بعد
الفتوح واشتهرت في الأزمان الأخيرة بالاشرفية وفي مدة حكم المماليك
تمطت بالردم فخرها المرحوم خديو مصر محمد علي باشا بترتيب آخر على أحسن
أسلوب وجعلها عميقة فكان امتدادها نحو خمسة وعشرين فرسخا ونحوها
بالعطف على القرب من قوه وتسير فيها السفن العظيمة وكان مدة محضرها سنة
وشهر اقصدا جتمع عليها من العملة أكثر من ثلثمائة ألف نفس وهذه العملية
جديرة بأن تنافس عمليات ملوك مصر الأقدمين أرباب القنار

وبواسطة هذه التربة أتمت الحروسة بالاسكندرية بنجاية من السهولة
وواتزت الاسفار بين المدينتين لما كان في السابق من الصعوبة في الوصول
إلى الاسكندرية من فرعي رشيد ودمياط فهي من الهمم الملوكة كسد ابوقير

وسد القرعونية التي سدها المرحوم محمد علي لتعطي المياه المستكثرة لفرع رشيد من فرع دمياط وكانت مساق سدها عظيمة وذلك لأن سدها لم يتم الا بتغيير جزء من مجرى النيل عن أصله وتحويله عن موضعه فلزم كثرة الاشغال التي لا من يد عليها ونج عنها تسأج جزءه تكافئ المتاعب والمصاريف كما سيأتي

(ترعة البعفرية)

هذه الترعة هي ترعة طنطا ومبداها من طنطا وفيها من فم ترعة شين الكوم وتخرج من جنوب بندر البعفرية وبالقرب منها متصل بترعة كفر الشيخ على الغرب من دفرة طولها خمسون كيلومتر وعرضها نحو ستة عشر مترا وعليها أربع قطار رياحات ذات أبواب لمصارف المياه

(ترعة البوينة)

تخرج من فرع دمياط على شمال دقدوس وتتجه من جهة الشمال الغربي الى السبلاوين ومنه تجري شرقا الى ان تلتقي بهرمويس وتتجمع به في جنوب كفر داود وطولها أكثر من خمسين كيلومتر وعرضها نحو ستة عشر مترا وعليها أربع قطار رياحات بأبواب للتصريف

(ترعة البحيرة)

هذه الترعة تسمى الخطاطبة وفيها في شمال بني سلامة على فرع رشيد تمتد بالاستقامة على شطوط النيل من جهة صوب الرحمانية وطولها مائة كيلومتر في تسعة عشر مترا من العرض وعليها قطار وأبواب للتصريف

(بحر يوسف)

يطلق هذا الاسم على الخليج العظيم الخارج من متقاوط على سمت اليسل ومحاذاته الى دخوله في الفيوم ويتشعب منه شعب كثيرة وقد زعم بعض أرباب الجغرافيا أن هذا البحر انما هو فرع قديم من فروع النيل كان سابقا يتجه غربا بعد خروجه من الفيوم ويصب في البحر الملح بواسطة وادي بحر بلا

ما وعرض بحمر يوسف مائة متروفرشه أو طي من الارض التي يمر بها
طريقه وقد تقدم بعض شئ يتعلق به في الكلام على بركة فارون

(ترعة السهاجية)

تخرج من النيل بجوار سهاج من الغرب تجمع منها حتى تصب في بحر يوسف
وماؤها بكثرة عقب فيضان النيل ولها جسر عظيم يقطع بكبر الخليج عند أوانه
باحتمال كاحتمال جبر الخليج نوعا ومنه يروى اراض كثيرة تستغده منه السقي
بالراحة أو بعمليات هندسية يقطع أو بسد جسور فرعية وفتح بعض قناطر
وسد بعض آخر بتقدير وتدبير معلوم في أوقاته وعند انحسار النيل ينضب ماؤه
في أغلب المحال ويبقى منه أما كن مستصر متفادله في بعض القرى يسقى منها
المزارع الصغية بالآلات كالسواقي والشواذيف وتسير فيها القوارب
ومن ترع مصر المشهورة ترعة القرعونية التي تعطلت في الأزمان الاخيرة
وذلك لانها كانت تسقط المياه بكثرة في بحر رشيد وتخرج بحردمياط وتضر
بالجهات الزراعية الواقعة عليها فصدرت أوامر سنية خديوية من المرحوم
محمد علي باشا بسد هذه الترعة بالكلية وكان هذا بعيدا عن تصديق العقل
بتجيزه لاستزاده تحويل بحر عظيم من النيل عن مجراه فحصل الاجتهاد
العظيم في تلك العملية فأنفذت الترعة المذ تورة على أتم حال وأحسن متوال
وحصل المطلوب من الثمرات والقوائد المرتبة على ذلك وسيأتي في ذكر تاريخ
مصر الجدي ببط الكلام على تجديدات محمد علي وحفيده الخديو القريد

(الباب العاشر في نباتات مصر وحيواناتها ومعادنها)

من المعلوم ان مصر من جنات الارض ومنزهاتها كما قال تعالى حكاية عن
فرعون أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي وقال تعالى
فاخرجناهم من جنات وعميون وكنوز ومقام كريم فكانت الجنات بجافتي
النيل من أوله الى آخره من الجانبين جميعا من اسوان الى رشيد متصلة
لا يقطع منها شئ عن شئ وكان الزرع ما بين الجبلين معامن أول مصر الى آخرها
فيما يلغها الماء الجاري من النيل بنفسه أو بالتدبير والتقدير وقال بعضهم في

قوله تعالى وآويناها الى ربوت ذات قرار ومعين أن الربوة أرض مصر والماء
المعين يلها فإسلامها في كون مصر من جنات الأرض ولا في القول في أنها
أخصب البلاد أنبا تافانها في الحقيقة تنبت في كل شهر من أشهر السنة نباتات
جديدة وتثمر أشجارا جديدة وتزهر أزهارا يانعة كما يعلم ذلك من تنوع قانون
زراعتها الرائبة ويقولها وخضراواتها وفواكهها وأثمارها وجوبها
المختلف ذلك كله باختلاف الفصول ففي الفصول الباردة حيث تنبت النباتات
والخضراوات تجذب عصركا أن أرواح هذه النباتات التي تجردت عن أشباحها
قد حلت في أبدان نباتات مصر حيث خضرة رياضها وبساتينها ومروجها
ومزارعها ورواق النخيل وتسر الخطاطير فتجد أزهارا للتاريخ والليون ونحوه
تدكي رائحة الهواء وتعطرها وتجذب الحيوانات في المراعى تزيد حاجتها على
حسبها فلا تكون بلاد مصر حينئذ الاستانة مستطرا فامتنور اقية النخل من
جميع جهاته وأما في الفصول الحارة فتجد أيضا الزروع الصفية في أكثر
الاماكن مخضرة والمحصولات على عبادتها محمجة وفي بلادها وأجرائها
مختلفة الألوان والمواشي سارحة في سائر البقاع مما لو أتمها المزارع لاسما
المواشي ذات الالبان وتجذب السماء معببة من غير غيوم ولا سحب وفي
الغالب يكون اعتدال الأهوية وهبوب النسيم الطيبة في أغلب الاوقات
وبالجملة فطهرها صالح لطبيع النباتات الاجنبية وضافتها للنباتات الالهية
ويمكن قسمة زراعتها الى ربتين أصليتين الاولى زراعة الاراضي المروية
بفيضان النيل فيضانا طبيعيا والثانية زراعة الارض بتدبير المياه تدبيرا
صناعيا وعلى كلتا الحالتين تزرع الحنطة والشعير والبقول والعدس والسلم
والخردل والكتان والانيسون والقرطم والتمرس والبرسيم والحلبة والخس
والبطيخ والقانون والشمع والخيار والفقوس والقرع والذرة وقصب السكر
والنيلة والقطن والارز وجميع الفواكه بأنواعها المختلفة الآن أغلبها جيد
جدا وبعضها متوسط الحال وانما في زراعة الارض بالتدبير الصناعي بالخدمة
والسقي فانه اذا كان بأرض لا يعلوها ماء النيل عند فيضانه لا ارتفاعها أو
لحجزها عنه بسبب من الاسباب التي تقتضيها فهي تحتاج لان تذر فيها النباتات
التي تستدعي تجديد السقي مدة مكثها في الارض وتحتاج الى تعب كثير وخدعة

دائمة وتكون اصالته في الاراضي التي على شواطئ النيل في الصعيد والقيوم
والاقليم الوسطى والوجه البحري في بعض جهات منه وفي الغالب أنه يزرع في
الصعيد والاقليم الوسطى على هذه الارض الذرة وقصب السكر والنيلة
والقطن والبقول والخضراوات ثم ان أغلب الجهات المصرية لها اختصاص
بزراعة ما يوافيها من الاصناف كالقيوم مثلاً فانها تتميز بزراعة الورد لاستخراج
ماء الورد الجيد منه ويزراعة الكرم بكثرة بلودته فيها وفي البصرة في المحال
المنخفضة فجهة دمياط تتميز بالارز الجيد الذي لا مثيل له وزراعة الارز بمصر
من مستحدثات الخلق تقلد الاهل الهند وقد فاق هذا الصنف بجودته وانه
طعمه عن أرز بلاد الدنيا وان يتميز عليه أرز إيطاليا فانهما ذلك في اللون فقط
لبياضه ولعته والافالارز المصري الآن أعلى الجميع وتزرع الذرة الشامي
والبلدي بكثرة في الشرقية كما يزرع فيها أيضاً قصب السكر والنيلة والقطن
وقد كثر زرع هذا الصنف أيضاً في جميع جهات مصر الصالحة له وهو دائماً
لا يزال يزيد زرعها باجماع الرغبات عليه الا من كافة أهل الزراعة ولكن
دونه في ذلك استخراج الحرير بتكثير غرس التوت ويؤمل بهمة الخديو غوه
على تداول الايام

وقد تطبع الآن بمصر نباتات أجنبية كانت سابقاً مأصلة كاللوز والبنقد
والكرز ولكنها زرعت في بساتين مخصوصة ومع أن فيها الانشجار العظيمة
الكثيرة الفروع الواسعة الظل الضخمة الجذوع الا أن أعظم جميع
أشجارها قطعاً هو شجر النخل الذي ليس غرسه مقتصراً بالاراضي التي يسقيها
النيل فترى البستان الواحد قد يكون مشتملاً على الالوف من النخل ووسط
النخلة الواحد من التمر أقل ما يساوي من الثمن رباً لا كل سنة وفي القيوم
يزرع شجر الزيتون ويكون جيداً ويخلون أنماؤه وكذلك يزرع في غير القيوم
وقد ذكر المؤرخون ان الزيتون انتقل الى بلاد اليونان من مهاجرة مصر
وهذا أصل تولدها وقد كان في سالف الازمان مصر مشهورة بزرع الكرم وكان
فرعاهما بها وكانت تستخرج منه الانبذة وتباع في بلاد الروم والآن ما يزرع
منه لا سيما بنفوة والقيوم انما هو لحد الاكل وان كان يتسده بعض أهل
القيوم الآن بنبذه غير جيد مع أن التواريخ القديمة تفيد أن في سالف

الاصار أجود أئبذة الدنيا يذمصرفه ذايذل على كثرته والرغبة فيه ولعل
الرغبة انقطعت بقرع معند ظهرو الاسلام ومع ما في مصر من الاشجار
الغنية الغضمة فهي قليلة الآجام والغابات ومحتاجة الى ذلك فليس بها
الابعض أو رمايات من أشجار الصنط لا تكفي لحاجتها وانما تنجر الخلل لكثرة
يتسعون بمجنوعه وجر يده للسقوف في الارياق وكذلك شجر الجوز فانه يتخذ
منه القوارب الصغيرة وآلات السواقى وغير ذلك فلا دمصر محتاجة الى الحث
عن حطب الوقود وخشب العمارات من البلاد الاجنية ولو اهتمت بقرع
ما يلزم لتجعت واستغنت عن غيرها

ومع أن أرض مصر عظيمة المريع كثيرة ما يترى به المواشى إلا أنها ليست
كك البلاد الاخرى ذات مروح صناعية أو طبيعية ورياض مخضرة ركلا
واسع مباح فهذا لم تبلغ فيها تربية الماشية حد الكثرة وذلك لان المواشى مدة
فيضان النيل على الاراضى لا ترى في الخلال تعلق في المزاود والاصطبلات
ثم ان من مواشى مصر الخيل وهي جيدة لان المالك كانوا يعتنون باقتناء
الخيل الجيدة الا ما قل ويرونها للركوب فكثرت وعظمت ثم في مدة المرحوم
محمد علي باشا اعتنى كثيرا بتربيته واقتدى به اعيان حكومته فزادت تحسينا
ولا زالت آخذة في النمو والكثرة في حكومة ورثته وكذلك البقر والجاموس
في جميع بلاد الريف وتخصص البحيرة بصنف الاغنام المغربية ومن أصول
ثروة مصر أيضا الابل ومعز الصعيد وأغنامه والجام والديج وجميع الحيوانات
الاهلية ويقل بهذه البلاد الوحوش بسبب عدم وجود غداؤها وغاباتها
فليس بها الا الضباع والذئاب والثعالب وهي أيضا لا تبلغ حد الكثرة وبها
الفرلان لا سيما في محاربي الصعيد ومن حيواناتها الجر الجيدة وفي مصر
يحسن تربية النحل فيطلقونه في النهار ثم يدخل في الليل الى خيلته من غير أن
يقصر في الرجوع وكذلك تربية الديج فانها من الامور المخصوصة بمصر
وتسمى حضانة السرايح بالذبل وشحوه ولكن يقل بمصر تربية القواميح
بالحضانة بل أكثره حضانة صناعية مدبرة ففي كل بلد موضع لذلك يسمى معمل
القروج وهو ساحة كبيرة مشتهة على أيسل من عشرة أيسل الى عشرين
جنا وفي كل بيت ألفا يضة وتسمى بيت الترقيد وأحسن الاوقات المختارة لعمله

أشبه وبريهات وبرمودة التي فيها يكثر البيض ويكون غزير الماء كثيرا القمح
صحيح المزاج والزمان معتدل صالح لذلك وفي نيل مصر القاسم بكثرة وانما
يظهر أنه لا تغل وجودها عن السابق وكذلك به فرس البحر ونهي
جاموس البحر وهي توجد بأسافل الارض خصوصا ببحر دمياط وفي النيل
من الاحماك ما لا يحصى كثيرة وأصنافا وأما معادن مصر فقد ذكر أصحاب
التواريخ كثرتها والا ن لا يستخرج الا النطرون والملح والاحجار الجيرية
والرخام وأحجار الالكه وأحجار الرحي والجبس والصوان وأحجار البناوم ليس
بها الا أن استخراج الاحجار قديمة ولا لمعادن مسطرة وانما يكون استخراج الملح
في القالب على شطوط ابصر الملح والنطرون من وادي بركة النطرون حيث
يوجد فيها بكثرة وهو يدخل اصالة في صناعة القزاز والصابون ويقال ان بها
معدن اللازورد واليشم والياقوت وغيرها فهداوم يحص المواليد الثلاثة
بالديار المصرية

(الباب الحادي عشر فيما شوهد من الآثار القديمة بمصر)

لم يشاهد في غير مصر من العجايب مثل ما شوهد فيها من آثار الاقدمين وهي
الاهرام والمسلات وعواميد السورى والقنايل والهيكل والبرابي ورسوم
المدن القديمة

فاما الاهرام فقد ذكرها روموها ومساحتها وهي في الحقيقة
كانت كثيرة العدد جدا وكما ببر الجيزة وعلى سمت مصر القديمة ويمتد سمتها في
نحو مسافة يومين وبعضها كبار وبعضها صغار وبعضها بالطوب والطين وأكثرها
بالخمر وبعضها مدرج وأكثرها مخروط أملس وقد كان منها بالجيزة عدد كثير
لكنها صغار فهدمت في زمن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على يدى
قرقوش أحد امرائه وكان خصاره ميا ساعى الهمة وكان يتولى عمارة مصر
فاستعمل أحجارها في بناء القساطر وبيها ومع ذلك فقد بقي من الاهرام التي
هدمت آثار تدل عليها واما الاهرام الموصوفة بالعظم فتلاثة واقعة على خط
مستقيم بالجيزة قبالة القضاة وبينهما مائة تسيرة وزواياها متقابلة نحو
المشرق واثنان منها عظيمان جدا وفي قدر واحد تقر يساويهما الشراء

ينهدن في صدر الديار المصرية وهما مقاربان جداً ومبنيان بالحجارة البيضاء
وأما الثالث فينقص عنهما بنحو الربع ~~لكنه~~ مبني بحجارة الصوان الاحمر
المتعاط الشديد الصلابة ولا يؤثر فيه الحديد الا في الزمن الطويل ويجعله صغيراً
بالقياس الى الهرمين السابقين فادق رتبته وأقرب منه بالنظر هالك منظره
وقد سلكوا في بناء الاهرام طريقاً عجيب الشكل والاقنة ولذلك صبرت
على عمر الزمان بل على عمر داصر الزمان فانك اذا تأملت فيها حق التأمل وجدت
الاذهان ائمة قد استلكت فيها والعقول الصافية قد أقرغت عليها
مجهودها والافئس النيرة قد أفاست عليها أشرف ما عندها والمكائن
الهندسية قد أخرجتها من القوة الى لفعل لما في غاية امكانها حتى كادت
تحدث عن قومها وتنبئ عن حالهم وتنطق عن علومهم وأنوارهم وتترجم
عن سيرهم وأخبارهم

وذلك ان وضعها على شكل مخروط يتدنى من قاعدة مربعة وينتهي الى نقطة
ومن خواص الشكل المخروط ان مركز ثقله في وسطه وهو يتساند على نفسه
ويتواقع على ذاته ويتحمل بفضه على بعض فليس له جهة أخرى خارجة عنه
يتساقط عليها

ومن عجيب وضعه أنه شكل مربع قد قوبل بزواياه مهاب الرياح الاربعة فان
الريح تنكسر سورتها عند مصادمها الزاوية وليست كذلك عندما تلتقي
السطح وارتفاع أكبر الاهرام الثلاثة نحو خمسمائة قدم ومساخته من أسفل
طولا وعرضا نحو خمسمائة قدم

وهذه الاهرام مبنية بحجارة جاقية طول الحجر منها بين عشرة أذرع الى
عشرين ذراعاً وسحكها بين ذراعين الى ثلاث وعرضه نحو ذلك والعجب كل
العجب في وضع الحجر على الحجر يندام ليس في الامكان أصح منه بحيث لا تجد
بينهما مدحلاً ابرة ولا خللاً شعرة وبينهما طين مونة لا يدري ما صنقه ولا ما هو
وعلى تلك الحجارة كتابات بالعلم القديم البراق الذي لم يعرف لاي أحد من أهل
مصر وانما توصل بعض الافرنج في هذا القرن الثالث عشر لحل رموزه نوعاً
وقد بين أن باني أكبر اهرام الجيزة اخيوس ملك منف وباني الهرم الثاني
خفرم اخو اخيوس المتقدم وباني الثالث مورتوس الموجود بعدهما

واشتهر أن هؤلاء الملوك كانوا قبل الهجرة في آخر القرن التاسع عشر ثم ظهر
 بالتحقيقات الحديثة أن هؤلاء الملوك كانوا قبل مبعث سيدنا إبراهيم الخليل
 فعلى هذا يكون وجودهم في القرن التاسع والعشرين من الميلاد ومنه يعلم
 تاريخ بناء الأهرام اعتمادا على هذه التحقيقات الجديدة وأنهم لبناء الدولة
 الرابعة المتوارثة الذي كان الملك صوفي هو السادس والعشرين من ملوكها
 بعد ميناوس وأن صوفي هو الذي بنى الهرم الأول وأخوه مستصوفي بنى الهرم
 الثاني كسلفه ثم منقادى اقتدى بهما بنى الهرم الثالث الصغير وبازاء الأهرام
 آثاراً بنية جبابرة ومغاوير كثيرة متواترة كبيرة المقدار عميقة الأغوار متداخلة
 وقلترى منها شياً الا وعليها كتابات بالقلم البراقى وعند هذه بأكثر من غلوة
 صورة رأس وعنق بارزة من الأرض في غاية العظم يسبحه الناس بأبوالهول
 وهو رأس تمثال جنته مدفونة تحت الأرض ويقضى تناسب القياس
 أن تكون جنته بالنسبة الى رأسه سبعين ذراعاً فصاعداً وأعجب شئ تناسب
 وجه أبى الهول فإن أعضاء وجهه كالأنف والعين والاذن متناسبة كما تكون
 الخلقة متناسبة الصورة فإن أنف الطفل مثلاً مناسبة له وهو حسن به حتى
 لو كان ذلك الأنف فى الصغير أنف رجل كبير كان مشوهاً به وكذلك لو كان
 أنف الرجل للمبى لتشوهت صورته وعلى هذا سائر الأعضاء فكل عضو يكون
 على مقدار وهيته بالقياس الى تلك الصورة وعلى نسبتها فإن لم توجد المناسبة
 تشوهت الصورة والعجب من صورة أبى الهول كيف قدر أن يحفظ التناسب
 فى الأعضاء مع عظمها وأنه ليس فى أعمال الطبيعة ما يحاكيه اذ هو صورة وهمة
 ومن الآثار العجيبة آثار مدينة عين شمس لاسمها المثلثان المشهورتان
 وتسميان مسلقى فرعون وصفة المسلة أن تجد قاعدة مربعة طولها عشرة
 أذرع فى مثلها عرضاً فى مثلها سمكاً قد وضعت على أساس ثابت فى الأرض ثم
 أقيم عليها عمود مربع مخروطيف طولها على مائة ذراعاً يتدنى من قاعدة
 قطرها نحو خمسة أذرع وينتهى الى نقطة والمسلة كلها عليها كتابات بالقلم البراقى
 قد بقيت منها الآن مسلة واحدة بالحصن بالمطرية ومثل ذلك أيضاً مسلة
 بالاسكندرية على شاطئ البحر ومثلها أيضاً يوجد فى الصعيد عند مدينة لقصر
 وقد نقل الفرائسارية أخيراً الى باريس مسلة عظيمة من لقصر أبى الجحاح

وأما البرابي في الصعيد فالحكاية عن عظمها واتقان صنعها واحكام صورها
ومجانب ما فيها من الاشكال والنقوش والتصاوير والخطوط مع احكام البناء
وجفاء الآلات والابجار مما يفوت الحصر وهي يمكن من الشهرة بحيث تفي
عن الامالة في وصفها

ومن الآثار أيضا عمود السواري بالاسكندرية وهو عمود أجرة منقط من الحجر
الصوان عظيم الغلط جدا شاق الطول لا يعد أن يكون طوله سبعين ذراعا
وقطره خمس أذرع وتحتة قاعدة عظيمة تناسبه وعلى رأسه قاعدة أخرى عظيمة
وارتفاعها عليه بهذا تقسى القوة عند قدماء مصر في العلم برفع الاثقال
ومهارتهم في الهندسة العملية وكان عليه قبة هو حاطها والقاهر أنها هي
الرواق الذي كان يدرس فيه ارسطوطاليس وشيئته من بعده وأنه دار لعلم
الذي بناه اسكندر حين بنى مدينته ويقال ان في هذه القبة أيضا كانت خزانة
الكتب التي يقال انه حرقها عمرو بن العاص ذن أمير المؤمنين عمر بن
الخطاب رضي الله عنهم مع أن ذلك لم يتحقق بل يقال انها كانت احترقت قبل
الفتح وهذا آثار أخرى تأتي في محالها

وإذا رأى اليب هذه الآثار عذر العوام في اعتقادهم في الاوائل بأن
أعمارهم كانت طويلة وجنتهم كانت عظيمة أو أنهم كان لهم عصا اذا ضربوا بها
اطرسى بين أيديهم وذلك لقصور الازهان عن مقدار ما يحتاج اليه في ذلك من
علم الهندسة واجتماع الهمة وتوفير العزيمة ومصاراة العمل والتفكير من
الآلات والتفرغ للأعمال والعلم بعرفة أعضاء الحيوان وخاصة الانسان
ومقاديرها ونسب بعضها الى بعض الى غير ذلك مما يتوجب منه غاية العجب والله
خلقكم وما تعملون

(تنبيه)

هذه الآثار القديمة تسمى أتيكة وكان صد من المرحوم محمد علي باشا أمر
سنة في نحو سنة ٢٥٢ بحفظها وان ما يحترق منها في مواضعها بحفظ في
مخزن أتيكات بالمحروسة وأنه لا يسوغ اخراج شئ منها الى البلاد الاجنبية
لانها زينة مصر ولا يجوز تجريد مصر من حليتها التي تجلب اليها المتفرجين من

سائر بلاد الدنيا ثم انهم لم يزلوا الى الآن لهامخزن مخصوص في بولاق منظم
 أحسن تنظيم ولكن لم يزل يأخذ منهم الاجاب ما يحصلونه بالشرا من تصاوير
 وموميات أى اجزاء منحنطة مصبرة مع أن بقاء تلك الآثار لازالت المملوك
 تراعيه وتحفظ عليه وتمنع من العبث فيه والعبث به ولو بالنسبة للتماثيل
 والاصنام الموجودة في تلك الاتيكات وإن كانوا أعداء لاربابها وانما يفعلون
 ذلك للمصلحة لتبقى تلك الآثار تارنا ربحا يتنبه بها على الاحتباب الخالصة
 وتسكون أيضا شاهدة للكتب المترلة فان القرآن العظيم ذكرها وذكر أهلها في
 رؤيتها خبر الخبر وتصديق الاثر ومن فضيلة بقاءها أيضا أنها تدل على شيء من
 أحوال من سبق وسيرتهم وتوفر علومهم وصفاء عقولهم وهذا كله مما اشتاق
 النفس الى معرفته وكان ذلك في الأزمان السالفة مما يحافظ عليه جدا ثم تغير
 الحال ورأى أهل الأزمنة الاخيرة ان هذه الاتيكات انما هي آثارها تله
 فراعهم منظرها وظنوا ظن السوء فمخبرها واعتقدوا أنها دلائل على مطالب
 ودقائق وحسبوا أن كل تمثال عظيم انما هو حافظ لمال تمت قدمه فصاروا
 يعملون الحيلة في التخريب والتهديم طمعا في الحصول على كنز خفي فيه
 مال قديم فبهذا صارت الاتيكات في حالة قبيحة ولولا الاوامر السنية السابقة
 لتبادى العوام على ذلك واشتغلوا باستخراج هذه المطالب المفضية الى المهالك
 فبقاؤها لمن أبرك المصالح فلا تزال تقبض منه معارف يعود نفعها على
 الجغرافيا على وجه نابع راج

(الباب الثاني عشر في ولاية مصر قديما وحديثا)

وفيه حالتان

الاولى حالة ولاية مصر قبل الفتوح بالاسلام وحكمها بأهلها أو بالاجاب
 الثانية حالة ولايتها بعد الفتوح الى وقتنا هذا وحكمها بمخلفاء العرب
 أو بالمملوك والاسلاطين

(ولاية مصر قبل الفتوح بالاسلام)

كاتب اقامة أوائل مملوك مصر في قديم الزمان بالصعيد الاعلى وكانوا ينتخبون

من أمناه الذين يعنى من كهنة الاصنام التى كانوا يعبدونها كالشمس والقمر والنار وغير ذلك من العناصر وهذا معنى قول قدماء المؤرخين من اليونان ان البركان حكمها كذا سنة يعنى أن كلهن هيكل النار هو الذى كان حاكما عليها ومدة حكمها بهذه الكيفية مجهولة الحال وانما يقال ان أول هؤلاء الولدان كان من مدينة فى الصعيد يقال لها طيسة وتسمى أيضا طينة كما يقال ان أول من أسس مدينة طيبة يعنى لقصر وما حولها هو الشمس يعنى كلهن الشمس ثم خرجت العائلات المالكية من هاتين المدينتين القديمتين ثم بنيت مدينة منف ومدينة عين شمس وصالحا وبتيس وبسطا ومدينة سواس وانتقل الى هذه المدن الملك وصارت فيه عائلات مالوكية فبهذا قال الدولة الطيوانية أو المنفية أو الشمسية أو الصاوية أو البسطاوية وهكذا وقد عدا المؤرخون دول مصر قبل الفتوح نحو ثلاثين دولة يعنى عائلة مالوكية حاكمة بالتوالى وكانت اذا انقطعت حكمومتها ثم عادت اليها تغير اسمها واختلفت فالدولة الاولى كانت قبل الهجرة بنحو ثلاثة آلاف سنة ومائة واثنين وعشرين سنة وهى بعد الحكومة الكهنوتية وأول مالوكها ميناوس المسمى أيضا مصرية ومن هذه الدولة الى حكومة دولة الملوك الرعاة المسماة دول العمالقة ثمان عشرة دولة ومالوكها ثمانية وثلاثون ملكا وهذه الدول بعضها منفرد بالحكم فى ديار مصر كلها وبعضهم منفرد باقليم وغيره حاكم لاقليم آخر وقاعدة الملك تارة فى الوجه البحرى وتارة فى الوجه القبلى فأصل الملك ميناوس من مدينة طينة فهو فى الحقيقة أول مالوك مصر بعد الطوفان وكانت مملكته باقليم الصعيد وكان وادى هذا الاقليم فى ذلك الوقت دون غيره ايس مغمورا بماه النيل لبعده عنه فكان أول جهاد هذا الملك وفتوحاته ونصراته انما هى انتصاره على النيل المبارك وذلك أنه أصلح تلك الاراضى المستنقعة بالمياه لانخفاضها وسواها لقيادتها كما قيل بأن أرقب مجرى النيل وجبهه بجسر عظيم جدا عريض يقرب محل مدينة منف وحولها عن مجرى الاصلى وجعلها فى الوادى الذى يجرى فيه الآن بين الجبلين ورفع الاراضى وجعلها قارة ثابتة وشيد مدينة منف وشرع فى اصلاح رعاياه بتحصين الزراعة وترقيتها وتنظيمها وكذلك تنظيم القوانين والاحكام وغيرها كالتحصينات فى المطاعم والمشارب والفرش وأمتعة البيوت

ومبادى العمران ومن بعده هذا الملك الى الملك مورييس المسمى طوطميس
الرابع يذكر المؤرخون عدة ملوك منذ كورين فيماتسقى عند ذكر الاهرام لا يعلم
تفاصيلهم ولا أحوالهم فليس هنا محل ذكرهم وانما سبق لنا ان من ملوك
الدولة الرابعة من بنى اهرام الجيزة وهم الملك صوفى الذى بنى الهرم الاكبر من
أهرام الجيزة وأخوه الملك سنصوفى وهو الذى بنى الهرم الثانى والثالث الملك
منقارى وهو الذى بنى الهرم الثالث وكلهم من الدولة الرابعة خلافا لمن جعل
بناء هذه الاهرام من الملوك الذين بعد سيزستريس وأما كون الباقى لها هو
خيوسيس وأخوه خفرم ومقرنوس فان صح كانت هذه الاسماء أيضاً أسماء
لمن تقدم ذكرهم أو يكون المراد بالملك سيزستريس ملكاً آخر من ملوك مصر
من الدولة الرابعة فهو غير ميسر الا كبر الشهير بالغزوات المعهودة
ثم ان مينائوس أول ملوك مصر الى قطايبو الثانى آخر ملوكها الاهلين
مدة ألفين وخمسة مئة سنة على القول المشهور وقيل ثلاثة آلاف وخمسة مئة وقيل
خمس آلاف وأربعمائة وأربعين فتكون دولة الفراعنة بقيت بمصر هذه
المدة الى ما قبل الهجرة بنحو ألف سنة

المقالة الثانية فى طبقات ملوك مصر وفيها صدارة ابواب الباب لاول فى الطبقة الاولى وتسمى العليا

مبدؤهما من سنة ٥٦٢٦ قبل الهجرة وهى من مينائوس الى الدولة
الحادية عشرة ومدتها نحو ١٩٤٠ سنة
لاشئ محقق فى التاريخ فيما يتعلق بالدولتين الاوليين من هذه الطبقة وانما
هناك بعض شئ يتعلق باخر الدولة الثالثة منها وهو ما يقههم من كتابات المباني
فى وادى مغارة بجزيرة الطور أن من ملوك هذه الدولة الثالثة ملكا يقال
له سناورون بصورون أنه غزا جزيرة الطور واستولى عليها بالانتصار على عرب
بنى عون وأنه أول من بنى بوادى مغارة المتقدم المباني المصرية لاستخراج
معادن الحامس الموجودة بجبل الطور
فيؤخذ من هذا أن ديار مصر كانت من عهد الدولة الثالثة من هذه الطبقة

أخذت في توسيع دائرة المعارف وامتداد الحدود والبحث عما فيه منفعتها
ولم تترك تترك انتهاز الفرصة في الأزمان الأولى بل هذا يدل أيضا على توفر
الأدوات والآلات ووجود المقننات واتقاء الموانع في تلك المدة وأنها
كانت من ذلك الحين ذات جمعية نأنسبة عمرانية بل ذات تدين معلوم مألوف
للأهل فقد وجد على أهرام سقارة كتابات متحدة التاريخ مع بناء أهرام تدل
على ديانة مصر وأنها كانت صابئة من زمان الملك خيوس حتى أنه مرسوم
على الأهرام اسم الأصنام المصرية من الشمس والقمر وغير ذلك وهذا كله يدل
أيضا على أن ملوكها في تلك الدول الأولى كانوا ذوي تصرف مطلق فاعلين
مختارين لهم يدعوا على التصرف في النفوس والأموال فلهذا اقتدروا على
إتناء البناءات الضخمة الجسيمة وغزوا الغزوات البعيدة وماذا لم لا لثروتهم
وبأسهم وسلطنتهم بكمال التصرف على رعابهم وامتنازت الدولة الرابعة من هذه
الطبقة بكثر ملوكها وطول مدة حكمها كما سيأتي ذك في جدول الدول
المصرية وبعض ملوك هذه الدولة اشتهر في تلك الأزمان القديمة بعد الصيت
بسبب أشغالهم وعمارتهم العجيبة كالبنين لأهرام الحسيرة وهم الملك خيوس
وأخوه الملك خفرم وخلفهما وهو مقريوس وقد تقدم أن لهم أسماء آخر
قرية من هذه اشتهر وأبها

وأول من نبه على هؤلاء الملوك هردوطس وقد أيد قوله الوصول في عصرنا
هذا إلى قراءة النقوش البريانية والحصول على حل رموزها بعرفه المتأخرين
فقد وجدوا داخل الهرم الكبير اسم لفظة خوف فاستنبط منه أنه خيوس
وجدوا أيضا بالأهرام اسم خفرة واستدلوا به على خفرم ووجدوا اسم
منقارة فأخذوا منه مقريوس ولا يعلم أحد من ملوك الدولة الخامسة باسمه
ولانتبه وانما يعلم أن بعض ملوكها بنى بجهة سقارة المحل المسمى بمسطبة
فرعون وبعض مقابر في تلك الجهة كما يعلم أيضا اسم ملك اشتهر بأشغالهم
وعملاتهم ويظهر أنه من ملوك الدولة السادسة وأنه يسمى باني ماري را وقد
استظهر بعضهم أنه هو موريوس اليونان صاحب بركة فارون وخالفه آخرون
كما سيأتي أن معنى موريوس بحيرة

وقد ظهر لبعض علماء الآثار من الاستكشافات الجديدة القرية أنه عتب

انقرضت الدولة الخامسة بموت آخر ملوكها استولى على كرسي المملكة المصرية دولة أخرى أصلها من مدينة منف وأشهر ملوكها كما قال الخبير مانيطون اثنان وهما الملكة نيطوكريس والملك أبيابوس فأما الملكة نيطوكريس فقد لقبها مانيطون المذكور في تاريخه بموردة الخلدن وذكر أنها كانت أشهر عصرها حسنا وجمالا وفضلا وكالا ويقال عنها انه كان له أخ قتله أعداؤه فأخذت بنارهم من قاتليه فحذبتهم الى مقاصير تحت الارض أعدت لهم فيها وليمة عظيمة فلما انتهوا في لذات المأكول والمشرب أمرت بأن ينساب عليهم ماء النيل فأغرقهم جميعا

وأما الملك أبيابوس فقد كان ملكا مغازيا كالملك خيوس وكان من جملة من اعتاد الأعادة على مصر من طوائف الرنوج طائفة تسمى هو هو فسمى هذا الملك في غزوها وادخلها تحت الطاعة لمملكة مصر وكذلك انقادت له قبيلة من قبائل العرب تسمى بنى هروسة وكان جماعة من المصريين يستخرجون معادن النحاس من جزيرة الطور بعد استيلاء أحد ملوك الدولة الثالثة عليها كما سبق فكدر عليهم بعض العرب الموجودين بها فعاقبهم الملك أبيابوس بما فعلوا ويكثر ذكر اسم الملك أبيابوس في الكتابات المنقوشة على الآثار القديمة بالقلم البرياني فيوجد بها آثار اسوان واسنا وناحية القصر والصيدا باقليم قنا وناحية الشيخ سعيد وزاوية الميتين بمديرية المنيا وفي جهة سفاره وفي ناحية صان باقليم الشرقية ويوجد مصوراى مخخور وادى المعارة بجبل الطور وفي المحل المسمى بالحمامات الذى تأوى اليه القوافل الذاهبة من قنا الى القصر ولفظ أبيابوس معناه باللغة المصرية القديمة طويل القامة فمن هذا نقل الحكويون ان هذا الملك كان يبلغ من الطول سبعة أذرع وحكم مصر مائة سنة انتهى ولعله هو الذى عرخته المؤرخون أيضا باسم بابى مارى رافىكون على هذا غرر موريس الذى ظن اليونان أنه اسم منشى بحيرة قارون وقد ظهر بالاستكشافات الجديدة أن لفظ موريس أصله مبرى ونقله اليونان الى لسانهم بزيادة السين ومعنى مبرى فى لغة المصريين القديمة بحيرة أو بركة كان يطلق علما بالغلبة على بحيرة الفيوم فأضاف اليونان اليه لفظ بحيرة أو بركة وقالوا بحيرة موريس فلما نهم أنه اسم لصاحب البحيرة والحال أنه اسم للبحيرة

نفسها التي أنشأها الملك أمونتها أحد ملوك الدولة الثانية عشرة
والدور المتمدن آخر الدولة السادسة إلى أول الدولة الحادية عشر منهم بل
هو أشكل أزمان نار يخ مصر و ملوكها فيما يتعلق بالسنين والوقائع في مدة
نحو ٤٣٦ حتى أن جميع صحف المؤرخين قد دخلت من بيان هذا الدور فلا
يقدر أحد أن يهتدى إلى معرفة الدولة السابعة والثامنة والتاسعة
والعاشرة اذ هي مغلقة الابواب فلا سبيل إلى الوقوف منها على الصواب
ولعل هذا ناشئ عن قفرة في فهم الامة عن بناء عمارات تدل آثارها عليها وعن
عدم الاهتمام إلى هذه الآثار بسبب كونها معصبة عليها الدهر صرورة حتى
صارَت في دفتان الارض مكنوزة غير معروفة

(قبية)

قد صبح بالتواتر والاستفاضة أن ميناوس أى مصر ايم هو أول ملوك مصر بعد
الطوفان وانه أول مؤسس للمملكة المصرية في تلك الازمان وأن مصر من
وقته إلى الدولة الرابعة كانت في حالة الطفولية قليلة الآثار العمرانية
فيظهر والدولة الرابعة سنة ٤٨٥٧ قبل الهجرة أخذت مصر في التمدن في
عصر الملك خيوس السمي في نقوش الآثار باسم الملك خوفو وله غير ذلك من
الاسماء وقبره في الهرم الكبير الذي هو أكبر أهرام الديار المصرية الذي أنشأه
هذا الملك في مسافة ثلاثين سنة بمائة ألف من العملة يتناولون العمل في كل
ثلاثة أشهر حتى تم العمل ولم يزل يظهر أنه فوق طاقة البشر بعد مكث ستين
قرناً من الدهر بدون خلل وكذلك ما يجواره من الأهرام التي عدت من
عجائب الدنيا والصحيح أن تمدن مصر وصل اليها من بلاد آسيان من جزيرة العرب
لأمن بلاد النوبة والسودان وأنها في مدة دول الطبقة الاولى بلغت مصر من
التمدن النسبي حظاً وافراً اذ كان في زمن الجاهلية الاولى بديار مصر قوم
أولو علم وحكمة وفضل ونعمة لهم حكومة ملكية وقوانين ضبطية ووربطية
وهل تظهر المباني العجيبة الامن ملوك رعياهم لا و امرهم ونواهيهم سبعة
وزرعاتهم ومطامعهم ماثلة كل الميل محببة مطيعة

(الباب الثاني في الطبقة الثانية وتسمى الطبقة الوسطى)

وهي من الدولة الحادية عشرة الى الثامنة عشرة في سنة ٣٦٨٦ قبل الهجرة
ومدة هذه الدولة ١٣٦١

قد سبق لنا أن مصر بقيت من بعد الدولة الملوكية السادسة الى الحادية عشرة
قليلة العماير عديدة الشعائر ليس لها ما يدل على تاريخها في أثناء هذه المدة
التي تبلغ نحو أربع مائة وستا وثلاثين سنة وانما في أيام الدولة الحادية عشرة قد
نمضت بعض غموض وصار لها في أيام هذه الدولة من المباني والآثار ما يدل
دلالة قوية على أن ملوكها كانوا يسعون الملوك الناطوية ويقال لهم أيضا
الناطوية ويقال للدولة دولة أنطو ودولة تنطو ولعل هذا كان من أسماء الملوك
أو من ألقابهم ويستفاد من التاريخ أن هذه الدولة علمت في مصر أعمالا
توجب فخارها ومجدها ويقال انها أصلحت في مصر اصلاحات جديدة وتنظيمات
مفيدة وحسنت حال الخط والكتابة عن الحال الاول وغيرت القسك بالديانة
الى نسق عليه يعول وقد وجدوا في مدينة طيبة بالصعيد مقابر معدة للملوك
هذه الدولة الحادية عشرة وأما الدولة الثانية عشرة فهي ابتداء دور جديد
وتاريخها يظهر لعظم قدرها وعلو شأنها واعتبارها بقدر ما أحدثته في مصر
من المآثر لا سيما في أمر مهم عا د على مصر بالمنفعة الجسيمة وذلك أن مصر
كانت في الدولات السابقة منقسمة الى حكومات مختلفة طامكة في أن واحد
ففي أيام هذه الدولة اجتمعت وارتبطت رابط وحدة وصارت مملكة واحدة
في دار ملك واحد وهي مدينة طيبة التي كانت تحتها لاحد الحكومات فأقل من
حكم وحده من ملوكها هو سيزورطاس الثالث فانه كان ذا شوكة عظيمة وان كان
في مبدأ أمره يحكم بالاشتراك هو والملك أمونتها الثالث في آن واحد وعوضا عن
سيزورطاس الاول وأمونتها الاول الا انه كان له السطوة فقد وجد مكتوب على
الأسطوانة التي أقامها في مدينة عين شمس انه كان يلقب بصاحب الوجه القبلي
البحري ويوجد مكتوب أيضا على مبنى قديم جهة الشلال الثاني في النوبة
أنه كان يلقب بالملك المنصور على أمة القوس والنشاب وعمل يدل على ذلك أنه
مؤثر في بعض المباني معه أسارى استعبدتهم من آسيا الغربية وهذا دليل

على أنه غزا هذه الجemie ومن المشهور أيضا أنه أقول من بني أسام مدينة
 كركك الصعيد وأما بعده من الملوك فقد أعتما فقط وكانت مملكتهم من آخر
 زمانه فانه وسع حدود المملكة المصرية الى ناحية سمينة في جنوب الشمال
 الثاني وقوع في بلاد النوبة وهذا الفتح مذكور في تاريخ مانيطون باسم
 سيزوستريس ولا بد أن هذا الاسم كان من أسمائه في ذلك الوقت بل ربما كان
 تسمى به عدت من القراعنة فبتقدم الازمان وبداول الايام اشتبه هذا الملك
 بوميسيس الأكبر المعروف بعنوان سيزوستريس وهذا الاخبار انما هو من ملوك
 الدولة السادسة عشرة أو التاسعة عشرة على الخلاف فيه ولعله سمي
 سيزوستريس باسم ذلك الملك السالف المذكور جاء أن يصير مثله وقد نسب
 اليونان جميع ما فعله الاول من المآثر الخارجية والدخيلة للثاني الاخر مع
 ضخمة فعلاه وما نزه وقبحاته وعماره والسبب في ذلك مجرد الاشتباه وتأسي
 غير اليونان باليونان ثم خلف سيزوطاس الثالث أمونها الثالث
 وهذا الملك هو الذي بنى البرية الشهيرة التي هي أعظم العمارات المصرية
 القديمة وأجبتها وهذه البرية لم يزل أثرها الى الآن باقية في اقليم الفيوم
 ومرسوم عليها اسم هذا الملك

وقد بنى رونق ملك مصر ويجهت ازمناسطويلا الى أثناء الدولة الثالثة عشرة فما
 يدل على ذلك مشاهدة المباني العظيمة المختلفة فانا نجد ما يدل على ان المملكة
 المصرية في أيام أولئك الملوك المعمرين تلك المباني كانوا أقوياء وحرارا لا أحد
 يكدر راحتهم ولا يصد هم عن مشروعاتهم فقد وجد أيضا في جزيرة أرغوف
 داخل النوبة جهة دقله مبان ضخمة باقية بناها ملوك هذه الدولة فلا يقدر على
 بناءهم من الملوك الا من كان صاحب قوة وبأس وراحة تامة ولكن في أثناء هذه
 الدولة السادسة عشرة كانت مملكة مصر على ما استتبأ أخيرا من تماثيل
 وأحجار مستكشفة بناحية صان والعراية المدفونة التي هي آثار مدينة طيبة
 أو طيبة لم يزل باقية في مدة حكم ملوك الدولة الثالثة عشرة على حاله تمتدنا وقد
 ذكر المؤرخ مانيطون أن عدة ملوكها كانوا اثنين ملكا وأن مدة حكمهم كانت
 ٤٦٣ سنة وكذلك يؤخذ من الاستكشافات الجديدة بناحية صان ومن
 تمثال عظيم صار الاطلاع عليه بجزيرة أرجو بالقرب من دقله هو من آثار

الدولة الملوكية الثالثة عشرة أن المملكة المصرية في أيام هذه الدولة اتسعت حدودها كما كانت عليه في مدة الدولة الثانية عشرة وكذلك مما ينبغي التنبيه عليه أنه وجد فوق وادي حلقة بالقرب من قرية سمحه حفور عالية وعرة واقعة على حرف النيل عليها نقوش بالقلم البراني على ارتفاع سبعة أمتار فوق أعلى مقياس النيل هناك على الدرجة العليا من الزيادة فيهم من ترجعها أن النيل كان في عصر الدولة الثانية عشرة والثالثة عشرة أقصى زيادته موضع النقش من تلك الحفور فيستبان من هذا أن النيل المبارك كان قبل هذا العصر بأربعين قرناً من الزمن يبلغ عند الشلال الثاني زيادة عما يبلغه في عصرنا هذا من الارتفاع بسبعة أمتار ولعل سبب ذلك أن ملوك الطبقة الوسطى اعتمدوا بالعمليات الجسيمة في ماء النيل بقصد الامتاع من غائلته والارتفاع بزيادته مع التحصن من غارات أعدائهم الذين كانوا يتجمعون عليهم من السودان فجعلوا هذا الشلال المدبر حصناً طبيعياً مانعاً قوياً لا يتمكن معه الزحف من نزول سفنهم إلى مصر والاعانة عليها وذلك كما ذكره المؤرخون أن بلاد كوش وهي البلاد السودانية كانت في ذلك الوقت أعداء مصر وكانت قوة مصر دائماً متجهة لمصادمتهم ومقاومتهم ومنع اغارتهم حتى أنشأت حكومة مصر فيما وراء الشلال الأول على شطى النيل قلعة كنه وسعته فلعلا فيما بعد صنعت الشلال الثاني لكمال الاستحكامات والتحصينات

وأما الدولة المصرية الرابعة عشرة فمجهولة الحال لا يعلم المؤرخون في حقها شيئاً وأما الدولة الخامسة عشرة والدولة السادسة عشرة فأصلهما من مدينة طيبة بالصعيد وكانت هذه المدينة تحت ملكهم في أثناء هذه المدة كانت اغارة الملوك الزعارة على مملكة مصر وتجديد دولة جديدة بالوجه البحري بمصر ويقال ان اغارتهم كانت في أيام الملك طيبا ووس ودولتهم تسمى دولة الهقصوص واشتهروا بالتوارخ باسم الملوك الزعارة يعني ملوك العرب وفي كتب التواريخ الاسلامية يقال لهم العمالقة ولا يعلم تحديد وقت هجومهم على مصر ولا مدة حروبهم وإنما المحقق أن دولتهم كانت معاصرة للدولة المصرية الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة وان انقراض دولتهم كان مفتاح الدولة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة فانهم في أثناء هاتين الدولتين كانوا لا يزالون

يغيرون بعض أخبار غير متبعة وزعم بعضهم أيضا استطهارا منه أن دولة
الرعاة عاصرت أيضا الدولة الرابعة عشرة والخامسة عشرة قال ما ينطون
المؤرخ لما غضب الله على مصر أرسل اليها من المشرق أمة خبيثة الا انها ذات
شجاعة فاستولت عليها دون حرب ولا قتال واستعبدت رؤسائها وأهاليها
وهدمت معابدها وهاياكلها ولبت الاولاد والحريم وملك عليها ملكا
جديدا من هذه القبيلة الهقصوصية أقام في مدينة منف وهو الملك
سلاطيس ومن فرو وجبا نفسه من أنفخذ العائلات المالكية ذهب الى الصعيد
والى ساحل البحر الاحمر وأما هذه القبيلة فتصلت بالقلاع والعساكر والجنود
على أن تمكن من الاقاليم البحرية والوسطى وأزعجوا أهل مصر ولم يبق
للدولة المصرية المتأصلة الا ملك الصعيد وكانت دار ملكهم مدينة طابوه
وأصل هؤلاء القبائل الرعاة مجهول فبعضهم يجعاهم من الامة العبرانية
وبعضهم يقول انهم تباروزا مكة أغاروا على بلاد مصر لخصوبتها وبعضهم
يجعلهم صوريين وكنعانيين والاقرب الى العقل أنهم من جهة الحجاز وبلاد
الشأم القريبة من مصر وفي مدة هؤلاء الملوك الرعاة المعدودين من فراعنة
مصر أيضا ولو أنهم أجانب كان دخول بني امرايل في مصر للتوطين بها في أيام
ما كان يوسف عليه السلام عزيز مصر وكان ذلك في عهد الملك أبوفيس من
ملوك الرعاة وذلك قبل الهجرة بنحو ألفي وخمسة وسبعين سنة
والظاهر أن المدة التي كانت قاسية على المصريين وظهر فيها جبر الملوك الرعاة
لم تكن مدة أبوفيس الذي هو فرعون يوسف والسعي عند العرب بالوليد بن
الريان فقد وجد في هذه الازمان الحديثة جهة مبانى أواريس التي هي صان
من الاسماء ما يدل على انه كان يحسن معاملته المصريين ويمارح عوائدهم
وأخلاقهم ما أمكن وانما ما حصل للمصريين انما كان قبله وبعده وبيان
ذلك على وجه التفصيل وزيادة الايضاح ان الملك طيماس هو الذي تغلبت
العرب على مصر في أيامه ولم يتمكنوا منها الا بعده وأن أول ملوك الرعاة كان
سلاطيس وأن آخرهم كان الملك أسيس وأن جهة تمكنهم وقوتهم العسكرية
كانت في مدينة أواريس التي هي صان وأن في مدتهم لم يستطع عائلات
دول مصر أن يعيثوا واملوكا في الاقاليم البحرية ولأن يتمكنوا تحت الطاعة

والاقتصاد لهم فشتتوا بعاتلاتهم وغزقوا كل عمزق في جهة صعيد مصر وبلاد
الكنوز بالتوبة وعلى سواحل البحر الاحمر وكان مصر على هذه السواحل
قبائل وملقات واختارت لدولة الملوكيسة أن تجعل دار ملكها في مدينة
طيوة التي هي دار القراعنة القديم فهذا مكان في الديار المصرية مملكان
متعاصرتان وهما مملكة القراعنة المتأصلين في صعيد مصر ومملكة الملوك
الرعاة المتغلبين في منف وكان حكمهم عاملا لاقليم الوسطى والبحرية فهذا
كانت ملوك الدولة السابعة عشرة المصرية لها فرعان معاصران فرع أصلي
أهل وفرع متغلب اجنبي ومدة حكم ملوكهم كما تكاد أن تكون متحدة
التاريخ مختلفة المؤرخين مدحا وقد حاقلا غرابية في وقوع الاختلاف في
حكايات وقائعهم وانما من المحقق ان الملوك الرعاة كان دأبهم تخريب
العمارات العظيمة وتدمير المباني المصرية الجميلة وكانوا لا يألون باتلاف
العمائر الشهيرة والظاهر أن اتلافهم امتد واتسع عن دائرة حكمهم باناراتهم
حتى وصل الى أسوان التي هي آخر حدود مصر فقد دمر واهلك من المباني
ما قدر واعي تدميره

وأول ملوك الرعاة الذي هو قائدهم باطيس لما تولى المملكة بنى في الوجه
البحري مدينة عسكرية بقرب تنيس وسماها أو اريس كما سبق وجعلها
عسكرا عظيما حصنه وجع فيه بنوده فكان في أمن من هذه الجهة على مصر
بحيث لا يقدر أن يهجم عليها أحد من بلاد آسيا حيث كانت معاينة لمصر
في تلك الازمان ورتب أيضا رباطات وحراسا جهة الشرق والشمال وكان
دائما ملاحظات ومحافظات جهة الوجه القبلي فكان في أمن تام من
هجوم ملوك مصر المتأصلين المقيمين بالصعيد بحيث لا يستطيعون أن يطلبوا
حقوقهم بالانارات كما عرفت الاشارة الى ذلك

وأما خدفاء طيماوس وهم ملوك المصريين المتأصلون فقد باغوا مقصدهم في
الحزم والتحفظ على أنفسهم وعلى ملكتهم من هجوم هؤلاء الملوك الرعاة فكان
لهم نوع استقلال وأما أخذ امهم فدلتهم كانت ظاهريه لا حقيقية وليست
عظيمة الشوكة ولا متكنة للقوة فثناواهم ملوك الصعيد الوطنيون وبذلوا
جهدهم في مراعاة خدمهم وحشمهم ليخلصوا في الخدمة والصداقة

واستجلبوا محبة الاهالي ووجوه اكابر المملكة لاسيما ان الجميع لهم مصلحة
 عظيمة في التمزج مع هذه العائلة القديمة لاسترداد حقوقهم ومزاياهم التي
 ضاعت بضباع حقوق ملوكهم واجتمعوا على قلب رجل واحد وحاولوا غير مرة
 ان يقاتلوا انحصارهم فبعد الجهد الجهيد انتهى الحال الى ان احدهم لاه
 القراعنة المسمى اموسيس تمكن من تبديل ثملهم في اطراف مصر واكافها
 وحاصر مدنتهم العسكرية مدة سنين وضيق عليهم الحصار ومات قبل ان يظفر
 بهم ظفرا تاما فقتل بعده ابنه المسمى امونوفيس الاول وابني الحصار وزاد في
 الضيق عليهم فكانوا يحبب لا يمكنهم الا المصالحة فصالحهم على ان يخرجوا من
 مصر امنين على انفسهم واما اموالهم فخرجوا منها الى بلاد انور وبلاد آسسيا
 وسلكوا من جهة العريش فكانت مدة حكمهم نحو اربعة قرون وكان
 الخرج لهم منها هذا الملك المتقدم الذكر وكانت - نوته في هذه الغزوة اربعمائة
 وثمانين ألف مقاتل ومع ذلك فلم يتمكن من اخذ معسكر عده عنوة فكان هو
 اول ملوك الدولة الثامنة عشرة وذكر بعضهم ان مدة حكم الملوك الراعة كان
 يوجد عديسة صان بالوجه البصري دولة ملوكية اخرى من ضمن دول الملوك
 الراعة حضرت الى مصر من قبيلة يقال لها الخيتاس وهي من القبائل النازلين
 بجبال ارمينية كانوا يعبدون صنما يسمى سوتيج فجاءت الى مصر ولم تكن
 بكافي العمالة المتصفين بوصف التدمير والخراب فانهم ولو كان نزولهم على
 الديار المصرية واستبلاهم عليها بطريق القهر والغلبة الا أنهم اكتسبوا من
 تمدن رعياهم واثقوا بالملوك مصر في تقديم الفنون والصنائع حتى جاسوا
 رعياهم في اتخاذ القماش في مدينة صان وتعلموا كتب المصريين والنخط
 البراني واستعملوا حتى صاروا من المصريين الحقيقيين وتلقبوا مثل سلفهم
 بالقباط الطغاة والسلطنة ودولتهم هي الدولة السابعة عشرة العربية
 المعاصرة للدولة السابعة عشرة التي بطيوة في الصعيد فاصدر من المؤرخ
 مانطون وغيره من ذكر ملوك دول الملوك الراعة يحمل على ما عدا هذه
 الدولة السابعة عشرة فان الدولة المصرية في ايام ملوك هذه الدولة قام سبعة
 وعظم مجدها واستوجبت حسن الثناء عليهم حتى بقي على عمر الدهور فان الملك
 سيزوستريس الاكبر الذي هو رمسيس الثاني بعد ان عقد عقد متاركة مع

طائفة الخيتاس يلاذ الارمن الذين هم أصل الدولة السابعة عشرة بعد
مضى أربع مائة سنة من تاريخ دخولهم الديار المصرية أجرى بمدينة صان
مراسم عيد عام ملوكي فلما ذكر ملوك الدولة السابعة عشرة وذكر الملك
سباطيس الذي هو أول ملوك هذه الدولة بمصر عنوه في متن العقد بعنوان سيد
قومه ولقبه بلقبه الذي تلقب به وقت ولايته ومن المعالوم أيضا انه في أثناء
الدولة السابعة عشرة العربية امتلأت شواطئ النيل من الجانبين مدة
حكمهم بأنواع العمار والابنية الجليلة الآثار الدالة على الثن والرفاهية
وقد علمت فيما سبق ان ملك دولة الملوك الرعاة زال على يد الملك أموسيس ونقول
الآن ان أكثرهم انتقل الى برزخ السويس وارتحلوا الى بلادهم الاصلية
وبقي بعضهم بالجهاز المصرية فأقطع الملك أموسيس لمن بقي منهم بعض الاراضي
التي كانت يسد أسلافهم ليزرعوها ويتعيشوا من ثمراتها وبانقراض دولة
الرعاة عادت مملكة مصر التي كان أسسها مينائوس الى الملوك الاهليين وبقيت
طائفة الرعاة الذين تخلفوا بأمر الملك أموسيس تكونت منهم قبيلة لم تزل
ذريتها على جوانب بحيرة المترلة يمتازون عن غيرهم بقوة أعضائهم وهيئة
وجوههم التي هي انواع استتالة نهذا ما يتعلق بالطبقة الوسطى التي أعظم
عزايها انشاء بحيرة فارون ولها ما تراه أخرى كحوادث أيام يوسف عليه السلام
والنواويس الموجودة بين حسن القديمة وأسيوط ونماثل مدينة صان
ومسلات المطرية ولقبوم فلا مانع أن يكون بين حالة الاختلال تخللت
أحوال العظم وحسن الحال حتى جاءت الدولة الثامنة عشرة لى هي أول
ملوكها: بونوفيس الاول

(الباب الثالث في الطبقة الاخيرة)

وهي من أول الدولة الثامنة عشرة الى الحادية والثلاثين التي مبدؤها سنة
٢٢٢٥ وتنتهى بالدولة الحادية والثلاثين التي هي دولة الفرس المنقرضة
سنة ٩٥٤ قبل الهجرة وفيه فصول

(قبيل)

على مقتضى حساب موسى وشعبيون يقتضى أن ابتدأ سنة ٢٤٤٤ وقد
سرجداوله على تجميع هذا الحساب فلذلك جرى على ما في كتابه والفرق بين
بالنسبة لتواريخ هذه الأزمان القديمة

(الفصل الاول في ملوك الدولة الثامنة عشرة)

قد ظهرت هذه الدولة بظهور لم يكن لسواها وقد جبرت في أقرب وقت
مادمرته أمة الهكسوس العمليقة فعمرت تلك الدولة الهياكل الدينية
والعمارات المدنية فامتلات شواطئ النيل بالعمارة من ساحل البحر المالح
بالجهاات البحرية الى جبل البركل بدفقه من البلاد السودانية وافتتحت طريق
التجارة وأعانت الزراعة والفنون والصناعة حتى بلغت الى أوجها وتمكنت
مصر من حسن السياسة والرياسة حتى فاقت على ما سواها من الامصار
وانفردت بالشوكة والبأس فاستولت من جهة الجنوب على الاقطار
السودانية واستعملت عليها العمال والنواب ومن جهة الشمال توغلت
جيوش مصر حتى قمت الجزيرة بين دجلة والفرات وتركت في قلاع تلك
الجهاات ونفورها الجنود للمحافظة والولاء للملاحظة كما سبأ في ذلك عند سرد
ملوكها الذين أولهم الملك أمونوفيس وان كان في الحقيقة الفخر انما هو لايه
الملك أمويس فانه هو الذي أنقذ النصارى المصرية من يد العمالقمة وفي أيامه
بدت استهلات المجدو والفخار فانه بعد أن أجلى العمالقمة من بلاد مصر جدد في
المسيرو راعهم الى ان دخل اقليم فلسطين للاستيلاء عليها ثم جال بجنود وجهه
الجنوب واستولى على بلاد النوبة ومع اشتغاله بالحرب اعتنى بتعمير الهياكل
والمعابد التي كان دمرها العمالقمة وأنشأها كل ومعايد أخرى وقد امتدت
من الاستكشافات الحديثة فخر هذا الملك لاسيما من العثور على الحلى الذي
وجد داخل تابوت والدته الملك المصرية وحفظا بآتيكه خاتنه يولاق في ذلك سلسلة
طويلة من الذهب وقلادة ذهب منقوبة القراندوتاج عليه تمثالان من الذهب
وسيف مسقط محلي بالذهب وكان هذا الملك قد أمر بصياغة ذلك لزيعة جنة
والدته لتدفن معها في اطلع على هذا الحلى النفيس لا يكاد يصدق ان هذا
النفائس صاغها هذا الملك عقب خروج مصر من ربة المتغلبين

• (جدول ملوك الدولة الثامنة عشرة) •

أسماء الملوك والقابهم	مدة المملكة سنة شهر	ابتداء التملك قبل الهجرة سنة
١ أمونوفيس الاول (ابن أموسيس)	٣٠ ٧	٢٤٤٤
٢ طوطوميس الاول (ابن أمونوفيس الاول)	١٢ ١٠	٢٤١٢
٣ طوطوميس الثاني (ابن المذكور)	٢٠ ٧	٢٤٠٠
٤ الملكة أمنسه (أخت المذكور)	٢١ ٩	٢٣٧٩
زوجهها الاول يسمى طوطوميس وزوجهها الثاني يسمى أمنظه		
٥ طوطوميس الثالث (ابن الملكة أمنسه)	١٢ ٩	٢٣٥٨
٦ أمونوفيس الثاني (ابن طوطوميس الثالث)	٢٥ ١٠	٢٣٤٥
٧ طوطوميس الرابع (ابن أمونوفيس الثاني)	٩ ٨	٢٣١٩
٨ أمونوفيس الثالث ويسمى ممنون (ابن المذكور)	٣٠ ٥	٢٣٠٩
٩ { هوروس (ابن المذكور) طماهوموت بنت هوروس }	٢٨ ٥	٢٢٧٩

جميع مدة هذه الدولة ٢٠٣ وعدها بعضهم ٢٤١
كما ساقى ولعله أدخل فيها مدة من تولى قبل هوروس من غيريت الملك أو جعل
مدة حكم كل ملك فيه زيادة تحتسب مع هذا بالادخال والاخراج وباختلاف
أقوال المؤرخين

فقد تبين من هذا أن الدولة الثامنة عشرة أولها الملك أمونوفيس الاول الذي
هو مؤسس الدولة المذكورة المتوارثة وان آخرها الملك هوروس فلذلك هؤلاء
الملوك على حسب ما هو في الجدول الذي استنبطه موسيو شمبليون من
الكتابات البرانية ومن الصحف القديمة التاريخية استبطا اجتهاديا مبني
على تعقل الوقائع ومقابلتها ببعضها فهو معتزلة اليقين وليس خارجا عن دائرة
المعقولات التاريخية مع بعض تأشير للاستكشافات الجديدة من فاطر

الاتيكه جناب ماريتيلك القرنساوى فيما يناسب اقتباسه

(الملك امونوفيس الاول)

هذا الملك أعاد الحكومة المصرية في مدينة منف و حكم مصر بتمامها مع مضافاتها ولواحقها واشتغل كسلفه بتشييد الهياكل واصلاح مآدمره مالوك الدولة الراحية وعت عمارة مدينة منف وغيرها من مدائن المملكة كدكن بلاد النوبة المصرية

وفي مدته لم تزل مصر تسعى في توسيع دائرة حدودها شمالا وجنوبا فاثارة تشهد على أن جنوده دخلت الشام والسودان وابتداء مملكه في سنة ٢٤٤٤ قبل الهجرة وحكم ثلاثين سنة وسبعة أشهر

الملك طوطوميس الاول ويسمى طوطوميسيس وهو ابن امونوفيس الاول

هذا الاسم في لغته بالطاء ولا مانع في تعريبه أن يكون بالتاء لانه مر كبتن كلمتين أحدهما نوت ومعناها رب وميس او موسىس معناها ابن ثم صار علما وهو الذى بنى المباني العظيمة المسماة مدينة أمبو وله كذلك مباني أبريم ومنها الهيكل المنحوت فى الجبل هناك وقد غزا هذا الملك بلاد السودان واتصر عليهم وكذلك غزا بلاد العراق والاكراد وكان المستولى عليها اذذاك قبائل تسمى الروقونو كانوا استولوا على حصون واستحكامات كديفتى ينوى وبابل ويدل على ذلك ما وجد بنواحي القرآت من الألواح المنقوشة بالقلم البراقى على ان هذا الملك اتصر على هؤلاء القبائل ونظير هذه النقوش توجد بالجهات الجنوبية أيضا وابتداء مملكه في سنة ٢٤١٢ قبل الهجرة وحكم ثلاث عشرة سنة وبعضهم يجعل مدة حكمه احدى وعشرين سنة

(الملك طوطوميس الثانى)

اشتغل كسلفه ببناء الهياكل والمعابد فى مدائن مصر ومن مبانيه ما وجد

الآن باسنام بنى نظريف بججر الصوان الاحمرية بيت آثاره الدالة على تمام دخول الولايات السودانية تحت طاعة مصر ولم يكن له فتوحات غير ذلك وله كذلك تزويق مبانى مدينة أمبو التي بطيرة واسمه مرسوم في كثير من المباني المنقوشة ولقبه عليها هكذا رب اللطافة سيد الدنيا صاحب المعروف وابتداء ملكه سنة ٢٤٠٠ وحكم ثلاثين سنة وسبعة شهور

(الملوك أنفسهم ويقال ان اسمها باتزو)

هذه الملكة هي بنت طوطوميس الاول وأخت طوطوميس الثاني الذي مات ولم يعقب وارثا للمملكة فورثت الملك بعده أخته وتزوجت بزوجين أحدهما يسمى طوطوميس وهو أول زوجها والثاني يسمى أمنطه فكان زوجها الاول ملكا بالتبعية لها وهي ملكة في الحقيقة فهي المعدودة في السلسلة الملوكية وقد ولدت من زوجها الاول ولدها طوطوميس الثالث ثم مات زوجها الذي كان يحكم بالتوكيل عنها فتزوجت بعده أمنطه فكان أيضا يحكم المملكة بالتوكيل عنها ثم عن ابنها طوطوميس الثالث مدة قصوره وبعد أن بلغ رشده كان يشركه في الحكم والملك بوصف كونه زوج أمه ومكث اشتركا معه عدة سنين من مبداء ملك طوطوميس الثالث المذكور وبهذا السبب قال بعض المؤرخين انه ساقط من سلسلة هذه الدولة الثامنة عشرة اسم طوطوميس آخر واسم أمنطه وجواب ذلك أنهم ما كانوا يحكمون بالتوكيل وكان ابتداء ملكها سنة ٢٣٧٩ قبل الهجرة ومدة حكمها بالانفراد والاشتراك احدى وعشرون سنة وتسعة أشهر بناء على استكشافه أنه لما مات طوطوميس الثاني ولي المملكة من بعده طوطوميس الثالث وكان طفلا صغيرا فكلفته أخته هاتزو وكان لها نفوذ المملكة في عهد الملك السابق وكانت مدة سياستها المملكة بطريق الكفالة من باب الاقيان حيث تجاوزت مدتها اذ بلغت سبع عشرة سنة وان كانت أيام حكمها مشقة على الفخار فإن لها آثارا جليلة من العمارات في جله آثارها الشهيرة المسلمين بجهة الكرنك اللتان لم تزل احدهما قائمة على ساقها الى الآن وكان سبب انشائها هما تخليد ذكر والدها طوطوميس الاول وكان رأس كل من المسلمين

متوجا يا كيل هري الشكل من الذهب المقنم على الاعداء وصنعة كل واحد
منهم من استخراج حجر من جبل أسوان الى ان تم عمله سبعة أشهر ومن
آثار هذه الملكة أيضا الهيكل المعروف بالدير البحري بمدينة طيبة مكتوب على
جدرانها الغزوات الحاصلة منها بالقلم البراق وعليها تصاوير بدبعة الصنعة
يظهر منها صور غزوها في بلاد العرب انتصرت فيها جنودها وقد استكشف
أخبارها عن استيذان معا عليها من الرسوم صورة هذه الغزوة أيضا وعليها
تمثال قائد الجيوش المصرية وبين يديه قائد جيوش العدو وهيئة الضراعة
أشعث أغبر طويل الشعر مجتر دأ عن السلاح ووراءه زوجته في حلة التذل
والخضوع وفي جهة أخرى من التماثيل صورة السفن الحربية المصرية فيها
أسرى المهزومين وغنائمهم من حيوانات غريبة كالزرافة والقردة والنمور
وغير ذلك من الغرائب وصورة السفن ضخمة يظهر عليها مائة التركيب ذات
شراع ومجاذيف وعلى سطحها طواقم البحرية ووجده تماثيل آخر عليها
أشكال العساكر المصرية راجعة من الغزوات كلها تسرع في المشي وتدخل
مدينة طيبة بدلائل النصر مسطحة برماح أو بلبط في الميادين وفي الميادين قايضة
فرع نخلة أخضر علامة النصر ومامهم آلات الموسيقى كالمزامير
والطبول يذقون النوبة الحربية ويضربون الألحان والآلات ويحياهم ضباط
العساكر حاملين على أكتافهم الاعلام والبيارق الوطنية مكتوب بأعلاها اسم
الملكة كقبلة الملك في هذا العصر صاحبة الامر والنهي وربة النصر وهذه
الملكة مستحقة في الواقع ونفس الامر أن تدعى في جملة كبار ملوك الدولة
المصرية فإن لها من الآثار المصرية ما يقتضى انتظامها في سلك ملوك الدولة
الثامنة عشرة من جملة المآثر وجليل الفاخر مما يخلد ذكرها وقد استبدت
بالتصرف الملوكي مدة سبع عشرة سنة حتى بعد أن تقلد أخوها طوطميس
الثالث بالملكة لم يزل في يدها الحل والعقد نوعا إلى أن ماتت واستبد أخوها
بالمالك الذي كانت تولته أغلب مدتها بوصف الاقييات

(الملك طوطميس الثالث)

هو أخو الملكة أمنسة وجاهد طوطميس الاول بن آمونوفيس الاول استبد بعد

موت أخيه بسرير الملك وهو مشهور عند اليونان باسم موريس وهو الذي
 حفر بحيرة موريس المسماة برصكة قارون التي تقدم ذكرها في الكلام على
 البحيرات وقد عثرت فيما سبق أن موريس اسم البحيرة لا الملك وأن منشئ هذه
 البحيرة الملكة أمونتها وأنهم ليست من ملوك الدولة الثامنة عشرة كما ظهرت
 من الاستكشافات الجديدة ومع أن مدة حكمه كانت قصيرة لكن كان فيها
 ما ينظمه من كبار ملوك مصر أرباب الاعتبار الصيت والشهرة فإنه لم يوجد من
 أحسن ملوك مصر ما تراه أكثر مما وجدناه الأماقل وكان يحب السلم والراحة
 ويألف تقديم القنون والمعارف حتى قيل أنه استحق أن يلقب بأحب الأكر
 فقد بلغت مصر في أيامه ما لا مزيد عليه من الاعتبار فقد كان في داخلها قوة
 عسكرية أهلية منتظمة وآثار جليلة معظمها يوجد كثير منها بوادي المغارة
 وبمدينة عين شمس وبمدن منف وطبوة وبجزيرة أسوان وببلاد النوبة وكذلك
 كما كانت مصر قوية في داخلها صارت قوية في خارجها بما حازته من الظفر بكثير
 من الملل البعيدة والغريبة فكان لها كمال النفوذ في الممالك الأجنبية وكان
 ملكها حكامين الملوك يقطع النزاع وحكمه قرين الاتباع وازدادت حكمته
 بفتح بلاد السودان التي جال فيها كل الجولان يرسل إليها العمال والنواب
 وفي أيامه فتحت سفنه الحربية جزيرة قبرص واستقرت جنوده مدة سنوات
 تجول في بلاد آسيا الغربية حتى قيل في أيامه أنه ساءغ لمصر في عصر هذا الملك
 أن تضع حدودها حيث شاءت لأن مملكتهم اشتملت على بلاد الحبشة والنوبة
 والسودان والشام والعراق والجزيرة وبلاد الأكراد وقد طالت مدة حكم
 هذا الملك كفاً له وإصالة حتى بلغت سبعاً وأربعين سنة فلما توفي انتقلت المملكة
 المصرية لحفيده أمونوفيس الثاني

(الملك أمونوفيس الثاني)

يوجد اسم هذا الملك في مباني بلاد الكنوز وبريم والنوبة أكثر من وجوده
 في مباني مصر وذلك لأنه اجتمع في أن يستقر على تيمم ما نوى فعله والده فكان
 والده بعد أن شيد في مصر العمارات العظيمة ابتدأ في عمارات النوبة فأقام
 بتيممها ابنه وكانت كثيرة ومع ذلك فيوجد اسمه على عمارات في طبوة ومن

عمارته أيضا هيكل الكلابشة الذي انهدم بالحرب أو بطول الزمن وتجدد
 في عهد ملوك البطالسة ومن بعدهم تهدم أيضا وجدده الرومانيون ويقال ان
 حالته التي هو عليها الآن تدل على أنه لم يكمل وإبراهيم ملك هذا الملك في
 سنة ٢٤٥٠ وقيل غير ذلك وحكم خمسة وعشرين سنة وقيل لم يحكم الا عشر
 سنين وعشرة أشهر ولم يعلم مدفنه في أي محل من الوادي الغربي من النيل
 ولم تتغير ترابته من تراب أسلاف ملوك الدولة الثامنة عشرة

(الملك طوطوميس الرابع ابن آمونوفيس الثاني)

تولى هذا الملك بعد أبيه آمونوفيس الثاني واستمر على بناء الهيكل الذي كان
 شرع فيه أبوه وغيره من المباني في وادي حطقة ولكن مدة حكمه كانت كلها
 عبارة عن احتياطات عسكرية وتسكيم فتوحات لاسيما في آخرها وذلك لان
 حدود مصر القبلية كان يخشى عليها من القبائل العاصية جهة برية لوية
 وبلا دبرقة حتى ان هذا الملك اجتهد في قتالهم في آخر سنتي ملكه وقد وجد
 ما يدل على ذلك في آثار بجحة الشلال مكتوب عليها ان هذا الملك انتصر نصره
 عظيمة على أعدائه في السنة السابعة من ملكه وكان ابتداء ملكه في سنة
 ٢٣١٩ قبل الهجرة وحكم تسع سنين وثمانية شهور وهذا هو المشهور

(الملك آمونوفيس الثالث)

هذا الملك هو ابن طوطوميس الرابع وتولى عهده وهو من أشرف ملوك هذه
 السلسلة المصرية وله صيت عظيم في الاقطار المغربية يسميه اليونان الممنون
 ويحكى أن ولادته وترتيبه وأحواله رشوته كانت عجيبه ومرسومة في آثار
 مباني لوقصر أبي الجحاح على وجه غريب مضمونها ان رئيس السكينة بشر
 أمه بجملة فأحست بذلك عن قرب فلما وضعت به بشرها أيضا بعظم ناموسه
 زيادة عن غيره وأن يكون له ملك عظيم لم يسبق مثله وأنه يملك ما بين النخاطقين
 مشرقا ومغربا وشمالا وجنوبا فكان من شأن هذا الملك أن يبلغ من العظم
 ما بشر به الكاهن وغالب مباني وهياكل لوقصر أبي الجحاح وبيان الماول
 من أعماله وآثاره وقد غزا الغزوات لاسيما جهة بلاد النوبة بالسودان

واتصرف فيها ولذلك تأله وألقب نفسه بلفظ هوروس يعنى شمس الربيع كالقبط
نفسه بملك القطرين وصاحب المصريين ومولى الخلفائين ومراده بالقطرين
البحيرة والصعيد والمصريين منف وطبوة وبالخلفائين المشرق والمغرب يعنى
آسيا وأفريقية وكان هذا الملك مهيأ في زمن الحرب حسن السياسة في زمن
الصلح فقد امتدت حدود مملكته من الجزيرة الى داخل بلاد الحبشة وقد
ملا جوانب النيل بالآثار العجيبة والتصاوير الفريسة والهياكل والمعابد
فمنها هيكل جبل البركل وهيكل الشلال الثالث وله آثار بجزيرة أسوان وبجبل
السلسلة وبجهة طرة وبجهة منف وبجزيرة الطور وله زيادات في هيكل
الكرنك وإضافات الى هيكل لوقصر مما هو مدفون تحت أسوار القرية ويقال
انه هو الذى أنشأ على مبصرة النيل تجاه ناحية لوقصر معبد امن أعظم
الآثار المصرية القديمة وقد تقرب الآن الا الصورتان المسميتان الآن
بالصنمات وهما عبارة عن صورة الملك أمونوفيس الثالث المذكور وكان في
الزمن الاول لم يلتفت الى هذه الصورة أحد فحصلت زلزلة في سنة ٥٩٥ من
الهجرة فأسقطت إحدى التماثيل وبقيت قاعدة قائمة في محلها وقد شوهد أن
هذه القاعدة متى سقط عليها الندى وقت الصباح سمع منها صوت مستطبل عند
شروق الشمس فكان يعجب من ذلك أرباب السياحة من اليونان والرومان
فاعتقدوا أن صورة الملك أمونوفيس هذه هي صورة معبود المصريين الخرافى
يسدى النخبة عند طلوع الشمس الى الفجر ويودعهم أن هذه أثر الندى وتأثير
الشمس في الجرف هي خاصية طبيعية ومتى ظهر السبب بطل العجب وخلف
عدة أولاد تولي منهم بعده ملك مصر ابن هوروس وكان ابتداء ملك أمونوفيس
الثالث في سنة ٢٣٠٩ وحكم ثلاثين سنة وخمسة شهور

ويقال انه قد تناوب كرسي المملكة المصرية من غير بيت الملك عدة ملوك
معدودين في جملة الدولة الثامنة عشرة كما الى الذكر آثارهم ليست بعظيم شئ
ثم تولي الملك هوروس وبه رجح المنصب الملوك الى مستحقه من بيت الدولة
الثامنة عشرة كما تولي عليه أيضاً من بعده افراد آخرون من أهله

الملك هوروس بن أمونوفيس الثالث وفاته المسماة

طاج وموت بنت هوروس

لما ظهر هذا الملك على سرير الملك قامت بمصر قيامات شديدة ومحن جديدة بسبب ما حصل من تبديل الديانة في زمن أمونوفيس الرابع فانتقلت الالهة في شأن ذلك ومحو آثار الملوك الذين انتزعت من أيديهم المملكة قبل هوروس من جميع الهياكل والمعابد بل تشبهوا بهم بالكلية وكان قد سبق من هؤلاء الملوك تأسيس مدينة جلييلة بقرب تل العمارنة لتكون تحت ملكهم عوضا عن طيبة بالصعيد فجعلوا عاليها سافلها حتى انمحي أثرها مع أن ذلك كله جرى في مدة الملك هوروس فلم يمنع من كونه كان ملكا حسن السياسة والرياسة لاسيما في التمسك ببداية أهله في ذلك الوقت فعادت المملكة في أيامه الى ما كانت عليه أولا وبلغت من درجة العز والمجد مبلغا عظيما وبقي لها ما كانت حازته من الحدود البعيدة في عهد الملك طوطوميس الثالث وكان هذا الملك آخر من أبلغ الديار المصرية من ملوك الدولة الثامنة عشرة أقصى درجة العمار والفخار فقد سار على سير أسلافه من الاجتهاد في تجديد الهياكل والمعابد والقصور في بلاد مصر ومضافاتها وأما بقية طما هو موت أخت رمسيس الاول فكانت عند موت أيها رشيدة وكان أخوها رمسيس الاول ابن هوروس قاصرا خلفته على الملك ولم يعلم بينها وبين أخيه أسماء من تولى من بعض الملوك الذي تنوهد كرمه فمما سبق وكان ابتداء ملك هوروس في سنة ٢٢٧٩ قبل الهجرة وكانت مدة ملكه وملك بنته معا عاشر وثلاثين سنة وخمسة أشهر وهو آخر ملوك الدولة الثامنة عشرة على قول بعضهم وقد أقامت على كرسي المملكة ٢٤١ سنة وبعض أهل التاريخ يجعل آخر الدولة الثامنة عشرة الملك رهاميري فيزيد عدد السنين لهذه الدولة فيجعل مبدء الدولة التاسعة عشرة سنة ٢٠٩٦ قبل الهجرة والاقرب للصحة ما ذكرناه

(الفصل الثاني في ملوك الدولة التاسعة عشرة)

هذه الدولة لم تزل مصر في أيامها باقية على حالة حسنة من المجد والعز والاجتهاد في الغزو وتوسيع البلاد وانما اعتراها في أثناء هذه المدة بعض قنور في الهمة

يعنى أنها كانت مهيبة تشن الغارة على غيرهما من البلاد وتختص بحرب
المهاجمة دون المدافعة فاعتراها في خلال هذه المدة ان صارت تارة مهاجمة
وتارة مدافعة عن نفسها
وأول هذه السلسلة الجديدة من الملوك هو الملك رمسيس الاول وآخر ملوكها
رمسيس الثاني

(الملك رمسيس الاول ابن هوروس)

خاف أخيه وأباه وسار على سائر أسلافه وله آثار عظيمة في مصر وواى حفلة
وصورته في رواق صور الملوك بالصعيد بجانب صور أسلافه ولم توجد صورة
أخته طما هو موت بين صور أسلافها بوصف كونها ملكة ولعل ذلك أن
المنصب الملوكي كان انتقل في الحقيقة لآخيه الناصر رمسيس ومع ذلك فلم
يستبد به الابنوتها فحفظت الاصول المصرية في أوضاع التصاوير الملوكية
ومن المحقق أن الملك رمسيس الاول غزا غزة وبجبهة شمال الشام بمسيرة نهر
الفرات وجبل كورين والبحر المالح وهى البلاد المعمورة بطائفة الخيول
عباد الصنم المسمى سوتيج وهم أمة ذات بطش وقوة وهجم على عدة طوائف
من حلفائهم من أهل آسيا وهوا أول من نجح على ملاقات طائفة الخيول
والجولان في بلادهم وكان ابتداء تولية هذا الملك سنة ٢٢٤١ قبل الهجرة
وحكم تسع سنوات وخلفه ابنه منقطه الاول المسمى عند اليونان بالملك
سيطوس الاول

الملك منقطه الاول المعروف عند اليونان

باسم سيطوس الاول

الظاهر أن مدة حكمه هذا الملك كانت أيضا مما يجعل به تاريخ مصر
فكيف وهو أبو رمسيس الاكبر وله من الآثار العجيبة الخطا الاو فرقا
يدل على عظمه ما يشاهد الآن في المملكة المصرية بالوجه البحرى والقبلى
من الآثار العجيبة وعلى البحر الاحمر وبلاد النوبة وقد نقل الاقربج من

غرائب آثاره ما لا يحصى الى مدائنهم وزينوا بها تحف خاتمتهم في الاقاليم
الوسطى جهة بنى حسن الجديدة وبنى حسن القديمة آثار هيكل القمر الذى
أسسه طوطوميس الرابع وأكمل بناءه منقطه الاول وبنى بجانبه معابد
ومقابر مرسوم عليها اسم هذا الملك وكذلك جدد فى الصعيد الاعلى عند جبل
السلسلة على الشاطئ الغربى من النيل معبد منحوت فى الجبل ولم يزل منه
بقايا جيدة الصناعة كاملة الزينة تقتضى تشتم من العمارة والنقش فى أيامه
وله القاعة ذات الاعمدة الموجودة ببجحة الكرنك التى هى من أبداع العمار
المصرية القديمة وتسمى بالقصر المنقطى نسبة الى هذا الملك ورثاقة هذا
القصر تدل على أنه كان معبداً السكنى ملك صاحب شوكة عظيمة وثروة جسيمة
ويقال ان سيطوس المذكور لم يتم هذا القصر وانما تمه بعده ابنه رمسيس
الثانى ويقال ان هذا القصر يصلح أن يكون دارا للسكنى بحسب أوضاعه
وأن يكون هيكل العبادة بحسب نقوشه وتصاويره ولهذا الملك أيضا هيكل
للشمس فى محل يسمى الآن وادى المويه على البعد من النيل يومين فى البرية
التي على طريق القصر

ومما نسب اليه أيضا تقطيع أحجار الرصيف المصنوع الآن فى جزيرة اسوان
وهو من آثار أحجار العمارات التى كان بناها هذا الملك فى هذه الجزيرة
ونسب بعضهم اليه أيضا صنع المسلة العظيمة التى انتقلت من مصر الى رومة
ووضعت بها فى ميدانها الاكبر ومن أعماله الهيكل الكبير الذى صار
استكشافه أخيراً بالخرابة المدفونة وما يحتويه من التماثيل العجيبة وهذا
الملك هو أول من حفر الخليج لتوصيل ماء النيل الى بحر القانم وأول من فتح
طريقا للقوافل توصل من أسنا الى معدن الذهب بجبل أوتوكى حيث حفر فى
الجبال عينا صناعية تتبع منها المياه دائما ولم يقصر مع تجديده فى العمار
العظيمة فى تحصيل سحر القدر وعلو الرقعة والشان للممالك المصرية وتوسيع
حدوده ما قد سار على سيرة جده طوطوميس الثالث وبنى على بناءه من توسيع
الحدود المصرية كما يعلم من نقوش الكرنك فى مادة الحروب التى فعلها
سيطوس فانها تفيد أنه أدخل بلاد السودان تحت الطاعة وحارب بلاد
الشام واتصر بها وترك بقلاعها المحافظين من الجنود المصرية وغزى بلاد

آسيا واتصر على الخيما والروتونو وهاقيبتان عاتيتان وغزا كلا من
مدينتي فينوي وبابل وسار بجنوده الى أقصى بلاد ارمينية واتصر على أهلها
ومن هنا يظهر أن بلاد آسيا الغربية التي كانت تحت طاعة الدولة المصرية
ومعدودة من مضافاتها قبل الدولة التاسعة عشرة قد أخذت من أول عهد
الملك سيطوس الأول ثاني ملوك الدولة المصرية التاسعة عشرة في الخروج
عليها وعدم الانقياد لها ولا بد أن مصر من وقت خروجهم كانت تعاملهم
معاملة البغاة العصاة عليها فلما بلغوا أشدهم وقويت شوكتهم صاروا الدولة
مصر من أشد الاعداء وصاروا يتشبهون بالسعي في اضرارها بقصد التغلب
عليها عند الفرصة فلهذا تجد كما سيأتي صدور ذلك عنهم كثيرا وكانت وفاة هذا
الملك سنة ٢١٩٩ وكان ابتداء ملكه في سنة ٢٢٢٢ وحكم اثنتين
وثلاثين سنة وثلاثة أشهر ودفن بعد اقل من قدماء الملوك المصرية بمدفنه الذي
ابتناء لنفسه في وادي بيبان الملوك جهة مدينة طيبة ومدفنه هناك حسن
الشكل من أبداع العمارات المصرية وهو تحت الارض يتجيب منه غاية
الجب من جهة احكام البناء والتشييد وهندسة الرسم المهندم على وجه
عجيب مع اتقان التصاوير الجيدة والنقوش المحكمة وتولى بعد نقطة الاول
ولي عهده رمسيس الثاني بكرى واديه

الملك رمسيس الثاني المشهور عند اليونان

باسم سيزوستريس

يقال لهذا الملك رمسيس الاكبر لانه أعظم ملوك مصر سلطنة وقوة وشوكة
وأبهة مع طول مدة حكمه التي كثر فيها الآثار المصرية والعمائر الجسيمة
حتى لا يكاد يوجد وادي النيل أثر من الآثار القديمة والعمائر الفخيمة
الا وعليها اسمه ورسمه كما سيأتي ذكر ذلك مع توسيع الفتوحات وجولان
الغزوات وتجديد الاصلاحات وكثرة الترتيبات والتنظيمات المملوكية
والعسكرية

وكان هذا الملك في أيام والده مشغولا بالحروب والغزوات وكان له مدخلية

عظيمة في جاية الوطن ونصرته قبل أن يكون ملكا فاستحق بهذا عظيم الشهرة
وبعد الصيت وأن يذكر بذلك في صحف التاريخ لاسيما ما فعله من عظام الأمور
بعد جلوسه على سرير الملك ويقال ان كاهن هيكل الشمس بن أباة بأن ولده
هذا يملك سائر بلاد الدنيا ولذلك لما آلت اليه المملكة المصرية اهتم بهما كل
مدينة منف المتدورة للشمس فشيدها ووسعها توسعا خارجا عن حدة العادة وقد
طال عمره وامتدت مدة ملكه وتناقلت ما أثره وواترت مقافره وصارت بسيرة
مجده الركان في سائر الاقطار والبلدان حتى بقيت سيرة ذكره الى عهدنا هذا
والظاهر أنها تبقى مخلدة الى قيام الساعة فصدق تاريخه قدما المؤرخين
ووضحوا مناقبه وعلياته الحربية والسلمية من آخر القرن الثاني والعشرين
الى أثناء الثالث والعشرين قبل الهجرة وقالوا انه ملا مشارق الارض
بصيت فتوحاته وأرهب مغاربها التي كانت اذذاك خشيبة يهبة بأسه
وسطوانه وأغنى أهل وطنه ونعم بالهم وحسن احكامهم وقوانينهم وقلم
أحوالهم وجدد عصره وأحيامصره وقوى فيها البطش والشوكة وضرب
الخراج على عشرين أمة استرعاها ومكن بذلك بلاده وملكه وابتقى المباني
الباقية المآثر التي لم تترك الاوائل من أمنالها شيئا الا و آخر وقد ذكر
المؤرخون أنه لم يسبق رمسيس الثاني أحد من ملوك الدولة الثامنة عشرة
والتاسعة عشرة أعظم من طوطوميس الثالث الذي كان يئنه وبين رمسيس
الثاني ستة ملوك ورمسيس هو سابعهم وهم

١ أمونوفيس الثاني

٢ طوطوميس الرابع

٣ أمونوفيس الثالث المنون

٤ هوروس بن أمونوفيس الثالث وبنه طماهورموت

٥ رمسيس الاول

٦ منقطة الاول

٧ رمسيس الثاني

ومما ذكره المؤرخون أن أباة سيطوس كان يتوسم فيه من سن شويئته
استعداده للعروب وممارسة الخطوب فأناطه بهذه الصناعة حيث أنس

منه المهارة والبراعة وانعلم هذه تهذيبا وأسس له تأسيسا غريبا
 مبنيا على ما كان مألوفا للطبائع بحسب الأزمان والبقاع من سلوك وسيل
 المغالاة في تفصيل الجهد والقتار وترك التسهيل والمبالاة في استحصال
 الشرف والاعتبار بجمع سائر أئاد من الصبيان المصرية المستوين معه
 في زمن الولادة العصرية وجمعهم في الساحة الملوكية ليصير أوضاعهم معه
 واجراء تزيينهم بالسوية لتكون التربية للجميع واحدة على كيفية يكون
 التساوى فيما ينشئ وينهم غير متباعدة حتى يصيروا جميعا له من الانصار
 والاعوان عند ظهور الابان وحضور الاوان ويتخذ منهم وزراء الملكية
 وأمراء العسكرية فكان ذلك كله حيث عزوا مثله على العيشة المستعصية
 وتعودوا على الحركات المتعبة فلم يكن عندهم من أقرب الاشياء الامشاق
 الحروب ومقاساة الخطوب ومن جملة تربية هؤلاء الغلمان أنهم كانوا يذهبون
 قبل تناول الطعام صباحا ومساء للرياضات البدنية والحركات الجمثانية وكانوا
 أومشاة وكضا وأهرولة وأنهم دائما كانوا يعملون في ترويضهم شوطا فسيحا
 وفي العادة جمل ترويضهم في الصيد والقنص

وكان رمسيس المذكور من زمن شيوخه فاضلا بارعا جادا متضلعا من العلم
 والحكمة حتى قيل انه تلقى سائر العلوم والفنون عن هرمس المثلث وهو
 ادريس عليه السلام وزعم بعضهم أنه تلقى عنه العلوم مشافهة فلعل من زعم
 ذلك يعتقد أنه تلقاها في عالم الرؤيا أو عالم الالهام لاستحالة الاجتماع المتعارف
 لرفع ادريس الى السماء وتأخر زمن رمسيس وانما الظاهر أنه اقتبس تلك العلوم
 من كتب هرمس المثلث بالتلقي والتلقين من أحد الهرامسة المصريين وقد
 دلت كتب اليونان على أن هرمس الهرامسة المثلث هو ادريس عليه السلام
 وهو مصري المولد وأنه أول من وضع العلوم والفنون والسياسات والتدابير
 والحروب والصنائع وله رموز عجيبة وأسرار غريبة ومعارف كلية وبحرثية
 وما ينقل عنه الى هذا العهد من الاقوال والروايات معتقدا الصحة مقبول
 للعقول ومألوف للنفوس قال بعضهم كانت عادة المصريين من قديم الزمان
 أنهم اذا اخترعوا شيئا من المعارف النفيسة والحكم الرائدة نسبوه الى
 هرمس المثلث ليسهل تلقيه من عامة الناس بالقبول وليتقوا به الجميع كمال

الوثوق فيما اشغل عليه من القروع والاصول ولعل مثل هذا معهود في العصر الحديث

ولما تزعج رمسيس الثاني في حياة آبيه وكان قد تربى في حجر الشجاعة والمجاسة والرياسة والسياسة وتعود على اقحام مشاق الصيد والقنص في الفلوات الواسعة وعلى مواثبة الوحوش والجوارح في الجهات الشاسعة جعل أبوه يعلمه اقحام الاخطار والوقائع فأرسله أول مرة لغزو بلاد العرب فقه ودق هذه الغزوة الصعبة على تحمل الظما والجوع وهيات هيئات الرجوع فأدخل العرب تحت النل والخضوع فانقادوا لشوكة الدولة المصرية ولم تكن العرب قبله انقادت لملك من الملوك الاولية بل ولا كانت قابلة للانقياد والطاعة لتفورها عن التأنس ومخالطة الجماعة وقد اقحم مع هذا الشاب العقبان الحجازية من اشتر لمعه في التريسة من القتيان المصرية فكافوا له أعظم أعوان وأنصار وعادوا معه منظرين بالنصر الى الاوطان مع بلوغ الاوطار فلما تحقق منه أبوه دلائل الطغر والنجاح وأيقن ان اجتهاده في الجهاد مقرون بالفلاح سيره الى جهات المغرب فاستولى على برقة وغيرها من بلاد افرقية وصيرها مضافة الى الديار المصرية ثم مات أبوه عقب ذلك وتركه أهلا لتدبير الممالك فقام باعباء الملك الجسيمة وأضمر على توسيع ممالكه بالفتوح العظيمة وتعلقت آماله بتسخير الممالك المعمورة فخذ الجنود المؤيدة وجيش الجيوش المنصورة وشرع في التغلب على الاقطار السودانية فاستولى عليها وضرب على أهلها خراجا مقدرا يدفعونه كل سنة من الابنوس وشن القبل والذهب ثم بعث الى البحر الاحمر بعارة سفن تنيف على ثلثمائة سفينة حربية فاستولت على سواحل هذا البحر وجزائره ومدنه ونغوره وعلى جزائر بحر الهند ومع تجهيز هذه الغزوة وجعلها تحت رياسة امرائه جهز في آن واحد غزوة أخرى برية مقارنة لها اجتمع فيها أبطال رجاله وغول أجناده وقادها بنفسه وسار بها الى بلاد آسيا فاستولى عليها وجال فيها حتى دخل بلاد الهند وعبر نهر الكنك ووصل من داخل أرض الهند الى البحر المحيط الهندي وكذلك جال في طوافه حتى دخل بلاد التتار وسار حتى وصل الى نهر طونة واجتازه واستولى أيضا على جزائر بحر الروم عند عودته ودخل بعض ممالك أوروبا وبعض روم إلى

وهي آخر جولانه وسلك في فتوحاته مسلح الحلم مع المهزمين والصفيح عن
 الجائين والعادل مع الامم المغلوبين فلم يضرب عليهم الخراج الا بحسب
 ميسرتهم فمن هذا يشهد ان جولانه في البلاد وتسخيره للعباد كان يفوق ما وقع
 من ذلك للاسكندر الرومي حيث ان اسكندر المذكور لم يصل الى ما وصل اليه
 رمسيس وقد تمت هذه الغزوة في ظرف تسع سنوات وانما يؤخذ من هذا كله
 ان البلاد المجاورة لتلك الاقطار التي فتحها كانت مستعدة للطاعة والاقبياد
 وان تلقى اليه مقابلد مما لكانت عانت باسه وبطشه وانما لا تقدر على
 مقاومتها فلهاذا سهل اخذها وكان كلما فتح مملكة من الممالك واستولى
 على دولة من الدول وخضعت له امة من الامم اتى فيها فرقة من المصريين
 ليستوطنوا فيها وينشروا بها اخلاقهم وعوائدهم لتكون علامة ظاهرة
 ودلائل باهرة تبقى على عر الايام وتداول الاعوام حجة على نصرته وبقائه
 ذكره وربما شيد فيها اعمدة جليلة وابنية جميلة ورسم فيها عبوره بتلك البلاد
 ونقش عليها تاريخ استيلائه على الامم والعباد ولا زال بعض هذه المآثر باقيا
 الى الآن في بعض الممالك دالا دالة بينة على ذلك

فقد حكى المؤرخ هرودوتس انه رأى في سياحته بآسيا اعمدة مكتوب عليها
 بالقلم البرياني قد فتح ملك الملوك و سلطان السلاطين بسيفه مملكة كذا وكذا
 وكان رمسيس يأخذ بعض البلاد عنوة وبعضها صلحا ومع انه أكثر من
 الفتوحات في افر بقية وآسيا وبعض أطراف أوروبا كان لا يخطر بباله فتح
 داخل بلاد أوروبا لانه كان يعلم علم اليقين تعذرا الميرة والعدة في هذه الاسفار
 الطويلة وأنه لا يتيسر له الحصول على الامداد ولا الذخيرة فلذلك لم يتصد لغزو
 تلك الجهات

وقد أفاد التاريخ ان طبع هذا الملك الفاتح كان يخالف طباع غيره من الملوك
 المهتورين والسلاطين الفاتحين وذلك أنه لم يكن متولعا بالاجمير وحببة
 الظفر والغنيمة وهزم الاعداء والانتصار على الممالك بقصد شفاء القلب
 والتلذذ بغلبة الاعداء من أي قبيل وكان مدار رغبته على أن تتقاد البلاد
 والعباد لسلطونه وتخضع لعزته وان تنسب اليه وتعترف له بالولاء والسيادة
 وتدفع له الخراج والحزبة ولم يكن متعلبا بالهزيمة أن يحكمها بنفسه

ولا لفضيلة أن يشرفها أحكام الديار المصرية وسياساتها فكانت فتوحاته اسم بدون جسم وغرس أشجار بدون أغمار ولذلك لما جال غاية جولته وصال نهاية صولته وفرغ من التغلب واستراح وعاد الى مملكته وأغمد السلاح دخل في ميدان حوزته الاصلية وانزوى في زوايا الاقطار المصرية ولم يسر حكم مصر في الحقيقة الا على بعض بلاد مجاورة لها ولم تستقر البلاد الخارجية على دفع ما تقرر عليهم من المربة لظلم هذا الملك الانحور أربعة أجيال فامتنعوا من دفعها وآل أمرها الى الابطال ولما عاد رمسيس الثاني الى مماسكتهم صر زبن هياكلها وأتخفها بنقائس الغنائم وبسط ما أهداه وأسدها الى المعابد من هذه المكاسب الواقعة مما عاد على جميع الاهل بالثروة والغنى ثم صرف همه بالكلية والجزئية الى اصلاح وطنه وتنظيمه وتكميل رفاهيته فشرع في تشييد المباني العجيبة التي لا تدرك محاسنها الا العقول الذكية والافكار الجليلة ولا تزال تأمل فيها عقول الساف على ممر الدهور والاعصار لتكون دالة على فخارها وما ذكره أعظم تذكار وتكون مأثرة مخلدة الازمان

فقد جد هذا الملك في مصر ما يقتضى السعادة والسيادة والامنية وحفظ الحقوق للرعية المصرية وكان في بناة الهياكل والمعابد يراعى معتقد المصريين بل معتقد كل كورة من كور مصر وكل مدينة من مدائنها وجعل عليه هذه المباني والصناعات على المستعبدين الذين سباهم وأسره في الغزوات وجعل معظم همته في تحسين مدينتي مصر العظمتين وهما منف دار المملكة وطبوة دار الديانة

وقد شدد هذا الملك يد الاسرى ما يلزم من الجسور والقناطر والترع والخجان ورفع الاراضي المنخفضة التي يفسدها فيضان النيل ونقل المدن المنخفضة من محالها وحويلها الى ربوات وهضبات وتلال عالية حتى لا يكون للماسلاطة على العمران ولا على الانسان والحيوان فقد يشاهد الآن أن بجهة لوقصر أبي الجحاج وما حوله قصور امنية على قل صناعي مرتفع فوق المزارع ولا زال باقيا من زمن هذا الملك الى وقتنا هذا

وما صنع من الترع والخجان منه ما هو خارج من النيل بالقرب من مدينة

منفتمواصل الى البحر الملح بقصد تسهيل التجارات بتوصيل الارزاق من
اقليم الى آخر ومن مدينة الى أخرى مع قصد منع اغارة فرسان البلاد المجاورة
لتلك الناحية اذ كانت عادت لهم الهجوم على مصر من تلك الجهة وكذلك كما
حصن الجهات الغربية حصن الجهات الشرقية بالقلاع والحصون لمنع هجوم
أهل الشام والجزائر

ويقال ان هذا الملك حين رجوعه من غزوه الجسيمة جاء اليه أخوه لاستقباله
في مدينة تنيس وأظهر أنه بهتته وأبدى له البشاشة والفرح فأحسن الملك فيه
ظنه ولم يعتقد أن أخاه يظهر خلاف ما يظن وفي الحقيقة أضمر أخوه السوء
والهلاك فأضرم النار في قصر هذه المدينة وكان الملك وعائلته لا يشعرون
بذلك حين أحسوا بالخراب فتر الملك من هذا الخطر العظيم ونجا بنفسه وعائلته
ويقال ان أخا الملك الفاعل لهذه القعلة هو ما يسمى عند اليونان دانوس
المصري المعلوم الهجرة الى بلاد اليونان وأنه اتجمع اليها وأسس فيها
القبائل المصرية في آخر القرن الثاني والعشرين قبل الهجرة ويؤيد هذا
أن هذا التاريخ موافق للقرن الذي عاينه رمسيس المذكور من غزوه
وبعض هذا القول أيضاً ما حكا بعض المؤرخين من أن دانوس هو عين
أرمابيس أخى رمسيس وأنه ركب سفينة من مصر مع فرقة مصرية وهاجر الى
موره وعمر بلاد اليونان وبتة خالف ذلك بعض المؤرخين وقال ان دانوس
هذا ليس من أبناء ملوك الدولة التاسعة عشرة ولا من اخوة رمسيس الثاني
وانما هو من عائلة الملوكة الرعاة المحاربين للدولة المصرية المتأصلة في الحقوق
الملوكية وأنهم لما ضيقوا على أمراء الملوكة الرعاة وأخرجوهم من مصر وشتوا
شملهم هاجر واتخذت رياسة دانوس المذكور وقيل انه من أبناء بنت ايناخوس
المصري الذي كان قروم من مصر مع فرقة عربية من عرب العمالة الى صور
فتزوج منها وأعقب بتا يسلا والصور ولدت دانوس المذكور ثم هاجر
ايناخوس الى بلاد اليونان وتقلد ملك أرغوس وهو اقليم في موره فلما انتقلت
المملكة الى أولاده وأولادهم وكان دانوس من ذرية بنته ارتحل الى مملكة
أرغوس يطلب أيضاً حقوقه ووراثته في ممالك جده ومن هنا يعلم أن بلاد
اليونان تمتدت من هاجر اليها من الديار المصرية في أزمنتها الاولى وأن

اليونان انما هي بنت مصر لان القبائل المصرية الذين تمكنوا فيها بالمهاجرة
انتشروا في سائر بلاد الروم ومدنوها فلا شك ان مصر حربية بتسميتها أم
الديانم انه حدث في بلاد اليونان بعد المصريين قبائل صورية وكنعانية
كلوا غنائمها ومكنوا عماريتها ثم أقبل عليهم أمير من البلاد التتارية القرية
من الجبال الجرسية مع عشرة فانتشروا بها الا ان الفضل للمتقدم كاهو
معلوم

ثم ان رمسيس الثاني مع ما كان عليه من العظم والفخار الذي عرف به في جميع
الاقطار قد أطلق انورانية فتوجه العجيب وكسف كوكب شمس نصرته
وشمس بهاء تدبيره الغريب شغفه بالفخار العاطل ولوعه بالتعاطم الباطل
وسلو سبيل السكر الذي لا جدوى له ولا تحت طائل وذوله عن أنه من البشر
واستهزأ بالملوك الاسرى ليجرد البطر والاشر ولولا ذلك لكان بالنسبة اقدمات
الملوك كالمصباح وكشروق الشمس في الاصباح ولكان منفلوما في سلك
كبراء الابطال وأمر اغول الرجال وعلى كل حال فهو طراز تيجان الملوك
المصرية وعصابة اكلي السلاطين المشرقية ولوانه حدث منه نادرة
تفر منها الطباع ونجذ كرها لاسماع وهي ما قبل عنه انه يبلغ من الكبر
والخفاة أنه كان اذا ركب في موكب أو محفل الى معبد أو هيكل أو موسم
أو زينة أو أراد ان يشق المدينة وكان عنده بعض من الملوك والامراء والرؤساء
والكبراء ممن حضروا ليدود الجزية المقررة أولاداء التشرى فأتوا دار
معتبة مقدرة فانه كان يغتنم فرصة هذه الحافل الموكبية ويربطهم كالخيل
أربعة أربعة ليجروا العربية ويعتقد ان هذا من قبيل الطنطنة وعنوان
على شوكة السلطنة وفي غير هذه الحالة قبل الموكب وبعده يحسن الصنيع
معه وينزل في اكرامهم وتلطيفهم ما عنده فلا يصلهم لديه من الهوان الاجر
عربية لانها راعوا الشأن في هذه الاحيان

عوقب في آخر عمره بالاهانة ولم يساعده الدهر على حسن العقبي ولم يكمل معه
في ذلك احسانه بل كعبصره وضاع بذلك حظه وفقد أنسه فقتل بنفسه
نفسه ليربحها من العناء وسكن رسمه وما فارق الدنيا الا وتزل مصر في
غاية الثروة والغنى والسعادة والهناء وكل انسان من أهلها شاكرا لصنيعه

حامد لقعاه ولم تنل مصر من أحد من خلفائه ما نالت من فضاله
 قال بعضهم انه حكم مصر ثلاثا وثلاثين سنة وقال آخرون ان مدة حكمه
 طالت حتى بلغت سبعا وستين سنة وقبل بلغت ثمانيا وستين سنة واشهرها وعما يدل
 على طول عمره وصحة استطالة مدة حكمه أنه لما تغلبت على مصر دولة العجم
 وخرجت الحكومة المصرية من يد الدولة الاهلية وكان في رواق الصور
 المملوكة المصرية بطيرة بالصعيد صورة رمسيس الاكبر أراد دارا ملك العجم
 التغلب على مصر أن يضع صورة نفسه في هذا الرواق فوق صورة رمسيس
 المذكور وكان ناموس رمسيس لم يزل محفوظا عند أهل مصر لا يعاولونه
 ناموس أحد من كبار الملوك مع تقدم عهده فغضب جميع الناس من قصد دارا
 لاسيما رئيس الكهنة المحافظ على تلك الصور وقال للملك دارا لا يجوز لاحد
 من الملوك أن يعاول على رمسيس الاكبر الا لمن ساواه في المآثر والقضائل
 وصنع لمصر من الصنائع والمنافع نظير ما صنعه هذا الماحد الفضل فلم يغضب
 دارا من هذا القول الا ليميل أجاب الكاهن بالرضا والتسليم ووعد أنه ان
 عاش عمر رمسيس ليجهتد ويقبل مصر من المحاسن ما فعل ذلك الملك الكريم
 حتى لا يكون دونه في المقام لتستحق صورته ان ترقى مرقى الاحترام
 فمن هذا يؤخذ أن رمسيس المذكور طالت مدته على سبيل السلطنة والافلا
 معنى لرجاء دارا أن يعمر مثله ولا فائدة في انتظاره طول المدة في السلطنة ولا
 لوعده بفعل ما يقتضي الظهرة والطنطنة لاسيما وأن دارا المذكور لما وصل
 الى مصر كان في السنة السادسة والثلاثين من تملكه على العجم فرجأه طول
 مدة في الملك على مصر كدة رمسيس يدل على أن رمسيس تملك عليها من أيام
 النبوية الى بلوغ الشيخوخة والهرم ويؤيد ذلك أيضا ما سبق ذكره من
 كثرة العمارات الجليلة التي تستدعي المدة المديدة وكان يستعمل ابناء
 العمارات العمومية على العادة المصرية الاسرى العديدين الواردين اليه
 من الحروب ووفود الغرباء الواصلين الى مصر من بلاد آسيا للاستيطان بوادي
 النيل الجيدة الخصوبة السهل المعيشة المكملة للاغراب فكان هؤلاء
 الاجانب يقومون بالاشغال والخدم في نظير ما يعود عليهم من المنافع وقصد
 التوراة على ان بني اسرائيل استعملهم فرعون المسمى رمسيس في بناء مدينة

في شمال مصر تسمى مدينة رمسيس

ثم انه قبل تولية رمسيس كانت امتدت أنظار الاغراب الطائعين لمصر أن
يخرجوا عن الطاعة ويتصلوا من الجماعة فحسرت القنن في بلاد السودان
على مصر وقاموا على ولائها وتواهبوا واربوهم واتصر عليهم ولاية مصر
وعمالها النصرات العديدة البالغة النهاية في ذلك العصر بدليل تصاوير
ككيفية تلك النصرات المتواترة الصادرة عن أمراء الجنود المصرية
وهزمهم رؤساء العصاة السودانية وكذلك في أثناء تلك المدة هجم على ديار
مصر من بلاد المغرب من جهة برقة أقوام كالجراد المنتشر زرق العيون شقر
الشعور فكان يخشى على الأقاليم الجنوبية منهم فدفعهم الجنود المصريون
دفاعا عنيفا وقد أسلفنا أنه غزا برا وجرا بلاد آسيا وحضر كثيرا من الممالك
والأقاليم التي أضافها البلاده ونقول هنا لبيان ذلك أنه لما حصلت من أقوام
آسيا حركة مثل حركة المغرب وتحالفت قبيلة الخيتاس مع عشرين قبيلة من
آسيا وكان جميعهم أرباب شجاعة في الحروب واقحام الخطوب يحاربون على
العربات والعجل وتحزبوا جميعا على الديار المصرية فالتهم رمسيس الثاني مدة
ثمانى عشرة سنة وكان الحرب بين القرنيين مجالا في تلك المدة فصالحهم
بمشارطة فيها المزية للبياسين وفي أثناء هذه الغزوة الطويلة المدة أبدى
رمسيس الثاني بمرأى ومسمع من جنوده براهين الشجاعة الشخصية
والبسالة الذاتية ما استحق به المدح من شعراء زمانه وأدباء عصره وأوانه
بقصيدة وجدت مكتوبة على أسوار جهة الكرنك بالصعيد وعلى الوجهة
الشمالية من باب هيكل لوقصر الكبير تاريخ هذه القصيدة في شهر أيب
من السنة الخامسة من حكم هذا الملك

وبيان هذه الواقعة أن الملك بينما كان يجتد السفر مع جنده صوب مدينة آتس
اذقابلهم جماعة من أهل البادية المتصين في الطريق لاستطلاع أحوال
جيوش مصر من طرف قبيلة الخيتاس أعداء المصريين فأضالوهم السبل
ووقع رمسيس وجنوده في ورطة كين واحتاطت به على حين غفلة جديرش
الخيتاس والمتصين معهم ففر من كان حول هذا الملك ونجا به نفسه فوقع
وحده بين أعدائه فقال الشاعر يحكى الواقعة ان حضرة الملك نهض وهو في

غاية الصحة والسلامة واعتدال المزاج لم يال بشئ كانه الذوب بطش شديد
 فلبس عدة الحرب في الحال ونهى اللطعن والثرال وانساب بعمرته في صفوف
 الجوع وجمعهم على بن خيتاس وحده وبذل في اقتحام الوغى جهده بمشهد من
 جميع الاتباع والخدم في وسط ألفين وخمسمائة عربية حربية من شعبان
 الخيتاس والعصية والقبائل المتكاثرة والعشائر المتظاهرة وكان على كل
 عربية من عرباتهم ثلاثة من المحاربين ولم يكن مع حضرة الملك أحد من عشيرته
 ولا من أمراء دولته ولا من قواد جنوده ولا من العساكر الرماة ولا من
 عساكر العربات فتوجه الى معبوده واستغاث بمولاه قائلاً يخاطبه تركنى
 وحدى جند الرماة والفرسان ولم يبق معى ممن يشد أزرى أو يعضد ظهري
 فماذا يريد مولاي فهل أنا عاص استحق العقاب مع أنى لمولاي سميع مطيع
 أعجل بما أعلم من الامر بقدر ما استطيع وأقوم بحقوق المشاعر وأظهار
 الشعائر وأملأ بيوت العبادة من غنائم الاعداء وأقترب الى المعبود بالقربات
 التى لا تحصى عدا وقد أكثرت من المعابد والهيما كل وذبحت ألف ثور قربانا
 مزينة بلزهور الطيبة الرائحة وقد شددت الهيما كل الجسيمة واقطعت لها
 الاجار العظيمة وغرست في المعابد الاشجار المخددة ونذرته بالسكون ما أثر
 موقدة وأحضرت من جزيرة اسوان للمولى المعبود أجار المسلات الشاحخة
 وأجريت السفن في البحار الزاهرة جلب غنائم الملل الى الهيما كل الباذخة
 فهأ يا الهى أدعوك وأنا بين أقوام كثيرين لا أعرفهم وأنا فى حضرتك
 وحدى فاقد الجندى تركنى عساكر الرماة وفرعنى الفرسان الكفاة وقد
 دعوتهم فمأجابونى واستغثت بهم فمأغاوتونى وأنت أولى بي من الجنود
 الرماة والفرسان وأحق بنصرتى من الابطال والفتيان فانصرنى على العدد
 الكثير والجمل المتخير

ثم أجاب الشاعر فى قصيدته بكلام عن مولاه أنه لبي دعوته وقبل رجاها
 فقال

سمعتا ياريسين نداك رقبنا رجاك فأنا منك قريب وجميع محبيب آخذ
 بيدك وأقوم بسعدك وأنا خير لك من الآلاف المؤلفة والاعداد المؤلفة
 ومتى كنت بين عربات القوم ولو كانوا ألفين وخمسمائة عربية ذهبوا منهم زمين

بالحرب والويل وانداسوا تحت سناك الخيل وضعت قلوبهم بين جوارحهم
 واسترخت أعصاب أعضائهم وجوارحهم فلا يفوقون سهما ولا يهزون
 رمحا ساغرقهم في الماء يغمسون فيه كما يغمس القساح ولا يستطيعون الى
 السباحة من راح بل راحم بعضهم بعضا ولا يستطيعون نهضا وبقي
 كل منهم صاحبه بالمهاجمة والمواثبة ولقد تعلقت القدرة بأن لا يلتفت أحد
 منهم خفة ولا مره ومن وقع منهم هلك ومن هوى فلا يجد له مسلك
 هذا ما قاله الشاعر على مقال المولى وقال في هذه القصيدة على لسان سائس
 ركاب الملك الذي رأى صفوف الاعداء متراجحة مخاطبا للملك بأبيها السيد
 العظيم والملك الكريم حامى حتى مصر يوم التوال قد بقينا وحدهنا بين
 صفوف الاعداء في ميدان القتال فهلا مهلا والنجاة النجاة عسانا نقذ
 نفوسنا والمهج وماذا يكون العمل والخروج من الضيق والمخرج فاجابه
 الشاعر على لسان الملك قوجاشك ولا تفقد اتعاشك فاني سأنقض عليهم
 انقضاء العقاب الكاسر على الغنمة وأطرحهم في التراب طرح الرمة
 الرمية ثم هجم رمسيس عليهم حينئذ بعربته وحمل عليهم بقتوه ست مرات
 متواليات ففهر رجالهم وهزم في كل مرة أبطالهم فاجتمع حوله قواد
 عسكريه وفرسانه ولم يشهدوا الواقعة الاولى ولا كانوا من أعوانه فجمع بهم
 ثملهم وصفهم حوله وقال لهم لعمري قد احتد عليكم قلبي واشتد عابكم
 غصبي هل منكم من أدى مفروض الوطن وسجى الحى والسكن ولولم
 ينبت في هذا الميدان قدى لثبت عدمكم وعدى ولا زال يوبخهم الشاعر على
 لسانه ويطنب في ذكر أصناف مضمار الحرب وميدانه ويذكر الشاعر في
 قصيدته مثالة الجنود للهالك وما أجابوا به عن خطابه ومدحهم له بأنه بمفرده
 سد عنهم في قتال الاعداء مكاره الحرب بقلق أبوابه وأن ما فعله يعجز عنه
 البشر حتى نظمهم الشاعر في سلك الألوهية حيث ظهر على أعدائه بأعجب
 مظهر ولعل مسند الألوهية كان في تلك الأزمان من المساند النسبية يعنى
 كقطاب الأزمان الاخيرة وأرباب الاحوال والكرامات الشهيرة والا
 فعقلاء المصريين وحكماءهم يشاهدون موت من تأله بنفسه أو الهوه للتهويل
 والتفخيم فلا يظن بهم أن معتقدتهم فيه أنه متصف بنصب الألوهية العظيم

فقد مات رمسيس الثاني بعد أن حكم ثمانيا وستين سنة وشهرين وكان استاء ملكه سنة ٢١٩٩ قبل الهجرة النبوية على صاحبهم أفضل الصلاة وأزكى التحية وبعض الاستكشافات الجديدة تدل على أنه ~~كان~~ موته في نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الهجرة ويقال انه حين مات خلف مائة وبعين ولدا منهم تسعة وخمسون ذكورا وعلل هذا من باب المبالغه من المؤرخين المتقنعين كما أنهم بالقوا في غزواته واتساع دوائرتي حياه حتى أنهم نسبوا اليه وحده من الوقائع الحربية ما حصل من ملوك عديدة كملك طوطوبيس الثالث والملك سبطوس الاول والملك رمسيس الثالث وكل هؤلاء لم يكونوا ذويه في الشهادة والقتال ولا في بناءه الذكرو وكثرة الآثار حتى ان بعض المؤرخين نسب هذه الوقائع لرمسيس الثالث وقال هو الذي يسمى سيزوستريس وقد علت ما عليه أكثر المؤرخين ثم ان الذي خلف رمسيس الثاني الاكبر من أولاده الكثيرين هو ثالث عشر أولاده الذي كورالمسي منفطة

(الملك منفطه الثاني)

هذا الملك يسمى أيضا فاران أو فرعان ويقال له أيضا فرعون وانما يسمى منفطه لكون جده كان يسمى بذلك وكانت عادة ملوك مصر الجارية عندهم أن يلقب الملك منهم بلقب جده ولهذا الملك عما تروما تركيبة في الديار المصرية كسلافه وقد حكم خمس سنوات وأعقب ثلاثة أولاد تولى البكرى منهم الملك وسمى منفطه الثالث كما سيأتي ويقال أن في مدة حكمه ~~كان~~ خروج بني اسرائيل من الديار المصرية مع موسى عليه السلام من بعد ما حصل من المعجزات المذكورة في التوراة وفي القرآن الشريف فهو على هذا هو فرعون الذي أغرقه الله تعالى في بحر القلزم ولا يمنع من ذلك وجود قبره في ضمن القبور الباقية الى الآن بالجهة المعروفة بباب الملوك بالصعيد لأن وجود القبر لا يدل على وجود مقبور فيه فكثيرا ما تجد في بلدة مشاهد على اسم افراد ومدقهم الحقيقي في غير هامن البلاد فان من الجائز أن فرعون بنى لنفسه مدفنا ولم يدفن فيه ويدل على هذا أن الملك منفطه الثاني لما مات خلف ابنة يقال لها طوسير وخلف ابنا قاصرا تسمى فيما بعد منفطه الثاني وأن هذه الملكة

بسبب قصور أخيم أولت الملكة المصرية وتزوجت بأمر يقال له صفتا
منقطا ومعناه ابن النار أو عبد النار ولتوضح قضية غرق فرعون في ترجمة
هذه الملكة

(الملك طوسير فت الملك منقطة الثاني)

تولت هذه الملكة حكومة مصر بعد أبيها منقطة الثاني وكان زوجها المسمى
صفتا منقطا يلقب ملكا وفرعون تعالها ولذلك وجدت مقبرة الملكة طوسير
مع مقابر أسلافها من الملوك الذين تولوا مصر منذ كورة في سلسلة الملوك دون
زوجها مع أن زوجها مدفون أيضا بمقبرة قريبة من مقبرتها وإنما لم يدفن مع
الملوك ولم ينتظم في سلسلتهم لأنه لم يكن من العائلة المالكة فزوجه هي الملكة
ومن السلسلة وإنما استولت على الملكة لتكون أخيها كان قاصرا
وكان أبدا مملوكها قبل الهجرة بنحو ألفي سنة وحكمت تسع عشرة سنة
وسنة شهور ومن ضمن هذه المدة حكم أخيها منقطة الثالث الا في هذا كلام
المؤرخين في حق هذه الملكة وهو يؤيد قضية غرق فرعون ونجاة بني اسرائيل
ويدل على أنها كانت في زمن هذا الملك وبعض المؤرخين من أهل أوروبا
قال ان هذه الواقعة حصلت في زمن رمسيس الثاني وزعم بعضهم أنها
كانت في زمن أبيه منقطة الاول والاكثر من المؤرخين أنها في زمن فرعون
ابن رمسيس الأكبر المسمى عندهم فرعان ويقال له أيضا آخو خوريس وهذا
الاختلاف إنما هو في خروج بني اسرائيل من مصر لا في غرق فرعون ومع
ذلك كله أيضا فكل يبنى خروج بني اسرائيل على حسابات قريية
واستنباطات اجتهدية يسلك فيها مسالك عجوز فيطبق الوقائع لعلها تطابق
التوراة لان قصة بني اسرائيل وغرق فرعون لم تستقد الا من الكتب السماوية
يعني من التوراة والقرآن الشريف وتوارى عن مصر القديمة لم يكن لها
الامنيان يستنبط منهما الوقائع المصرية وهما الكتب السماوية أيضا
واسترايونس وأمثاله فاما استرايونس وأمثاله كهيروطوط فلم تعرضوا لغرق
فرعون ولا لنبأ موسى على الصفة المذكورة في القرآن والتوراة مع اعتماد
المؤرخين لما في الكتب السماوية من التواريخ القديمة المصرية فما كان

واقعة بنى اسرائيل في نجاتهم الاقصية يتصل لها مؤرخو اليونان أدنى شيء يدل على تفسير كلام الكتبة السماوية حتى يؤثرون جميعا انفلاق البحر بحادثتي المد والجزر المدورين ويشكرون غرق فرعون موسى ويجمعون ان هذه الواقعة على فرض صحتها لم تكن واقعة رسالة ولا ايمان وانما هي واقعة سياسية واقتضات ملوكية استدعاها الاتحاد بنى اسرائيل بالمولك الرعاة المتعصبين لمصر وانضمام بنى اسرائيل الى من بقي من طوائف هؤلاء الملوك وأن ملوك مصر المتأصلين انما ضربوا على الاسرائيليين الاسترقاق والاستعباد لاضعاف ناموسهم حتى لا يستطيعوا مساعدة أهل الحجاز والشام بمن مطمح نظره الاغارة على مصر وانما قيسوا الاوروبيين يذكرون الفرق على وجه مجمل تبعاً لعبارة التوراة مع أنه بالتفحص يفهم غرق فرعون مما أسلفناه بانضمامه الى ما ذكره مؤرخو العرب

فبتلاوة عبارة من عبارات المقرري ومقابلتها بتاريخ منقطة وبقته طوسير يكون غرق فرعون مصر قطعياً ونص عبارة المقرري
قال ابن عبد الحكم لما أغرق الله آل فرعون بقيت مصر بعد غرقهم ليس فيها من أشرف أهلها أحد ولم يبق بها الا العبيد والاجراء والنساء فانفق من مصر من النساء أن يولين منهم أحداً وأجمع رأيهم أن يولين امرأة منهم يقال لها دلوكة بنت ذباو كان لها عقل ومعرفة وتجارب وكانت في شرف ومنهم وموضع وهي يومئذ بنت مائة وستين سنة فخافت أن يقتلوا لها المملوك فجعلت نساء الاشراف وقالت لهن ان بلادنا لم يكن يطمع فيها أحد ولا يعتد به اليها وقد هلك أكبرنا وأشرفنا وقد ذهب السحرة الذين كانوا يقوى بهم وقد رأيت أن أبني حصناً أحقق به جميع بلادنا فأضع عليه المحارس من كل ناحية فانالنا آمن أن يطمع فينا الناس فبنت جداراً أحاطت به على جميع أرض مصر كلها المزارع والمدائن والقرى وجعلت دونه خليجاً يجري فيه الماء وأقامت القناطر والترع وجعلت فيه محارس ومسالخ على كل ثلاثة أميال محروس ومسلمة فيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل وجعلت على كل محروس رجالاً وأجرت عليهم الارفاق وأمرتهم أن يحرسوا بالاجراس فاذا آتاهم آت يخافونه ضرب بعضهم الى بعض الاجراس فيأتيهم الخبر من أى وجه كان في ساعة واحدة فنظروا

في ذلك فغلبت بذلك مصر من أرادها و فرغت من بنائه في ستة أشهر وهو
 الجدار الذي يقال له جدار العجوز مصر وقد بقيت بالصعيد منه بقايا كثيرة
 فلكتهم ثلاثين سنة انتهى وقوله لم يبق الا الاجراء والعبيد لعله من الدوائر
 الملوكة لامن عموم أهل مصر وقال المقرري في محل آخر أيضا قال ابن
 عبد الحكم ولما أغرق الله فرعون بقيت مصر بعد غرقه ليس فيها من أشرف
 أهلها أحد ولم يبق الا العبيد والابرار والنساء فأعظم أشرف من بمصر من
 النساء أن يولين منهم أحدا وأجمع رأيهم أن يولين امرأة يقال لها دلوكة
 فخلعت دلوكة بنت ذبا ويقال دلوكة بنت فاران وكان لها عقل وقهارب
 ومعرفة وكانت في شرف منهن وهي يومئذ بنت مائة وستين سنة فبنت جدارا
 حصنت به مصر من الاعداء وكان بناؤه في ستة أشهر وهو حائط العجوز انتهى
 ملخصا

ويؤيد كلام المقرري ما سبق ذكره من أن طوسير على كلام المؤرخين من
 اليونان وغيرهم هي بنت منقطة الثاني وأنه يسمى فاران وفرعان وفرعون
 فقط فاران موجود في كلام المقرري بعينه مع اتفاق مؤرخي اليونان أن
 زوجها لم يكن من بيت الملك ولأعد في الملوك ولأدفن في مقابرهم وتولية هذه
 الملكة عقب موت أبيها وجدها مع كثرة العائلة الملوكة من ذرية زميس
 الثاني تدل دلالة قوية على اقتراض الذكور منهم وهذا لا يكون الا عقب
 حادثة عظيمة هائلة وهي غرق فرعون وقومه ولولا ما نقل عن التوراة أن
 زميس الثاني استخدم الاسرائيليين في بناء الهيكل لصح أن يقال ان
 خروج بني اسرائيل من مصر وغرق فرعون كان في زمن الملك هوروس
 المتقدم المذكور وأن التي حكمت بعده طما هو موت بنته ويكون خروج موسى
 عليه السلام في نحو السنة السابعة عشرة من حكم هوروس يجعل
 طما هو موت بنت هوروس هي عين دلوكة العجوز وقطع النظر عن عمر دلوكة
 المحكي في كلام المقرري فإنه من محض مبالغات المؤرخين استباطا من تسمية
 حائطها بجائط العجوز مع أنها تسمى كما قاله المسعودي في مروج الذهب بجائط
 العجوز بالحاء ومعيدل على أنها ليست عجوزا بالغة لذلك السن ما نقله المسعودي
 أيضا أنها بنت هذا الحائط من خوفها على ولدها فن كانت لها ولد تخاف عليه

لا تكون عجوزا تلك المسألة ولكن الثابت عند المؤرخين ان الذي كان قاصرا
بعد موت هوروس انما هو رمسيس الاول ابن هوروس وأخو طما هو موت
التي فرضنا أنها دلوكة فلعلة اشبهه على مؤرخي العرب بالابن وعلى كل فن مات
أبوها وخلف أخاها قاصرا لا تكون عجوزا تلك الصفة فإذا طما هو موت هي
التي خلقت هوروس وهو فرعون الذي أغرقه الله في اليم ويؤيد ذلك ما ذكره
قاموس مشاهير الرجال الفرنسي أن تاريخ خروج بني اسرائيل من مصر كان
في سنة ١٦٤٥ قبل الميلاد الموافق لصومنة ٢٢٦٧ قبل الهجرة وقد علم من
جدول تاريخ الملوك السابق ان الملك هوروس وطما هو موت بته كان ابتداء
ملكهما في سنة ٢٢٧٩ قبل الهجرة وان مدة حكم الاثنين ثمان
وثلاثون سنة وخمسة أشهر وان مدة حكم بته منفردة ثلاث عشرة سنة فإذا
طرحنا هذه المدة الاخيرة من ثمان وثلاثين سنة وخمسة أشهر كانت مدة حكم
هوروس خمساً وعشرين سنة فيكون خروج موسى في نحو الاثني عشرة سنة
من أيام حكم هوروس ويكون تتبع فرعون لموسى باقى المدة الى غرق فرعون
أو أن هوروس هو الذي حكم المدة القليلة وبته طما هو موت التي قد زاناً أنها
دلوكة هي التي حكمت المدة الكثيرة حيث دلت التواريخ العربية على أن
دلوكة حكمت مصر عشرين سنة حتى بلغ صبي من أبناء أكبر العائلة المالكية
فتولى بعدها بل قيل انما حكمت نحو ثلاثين وان الذي خلفها هو أخوها
رمسيس حينئذ اذا قلنا ان هذه الملكة قد حكمت عشرين سنة من ثمان
وثلاثين وخمسة أشهر كانت مدة حكم أيها ثمان عشرة سنة وخمسة شهور
فيكون خروج موسى مع بني اسرائيل في السنة التاسعة عشرة من حكمه
الموافقة لسنة ٢٢٦١ تقرسافيكون الفرق بين هذا الحساب وبين ما
ذكره قاموس مشاهير الرجال نحو ست سنوات وهو فرق هين بالنسبة لاختلاف
الحسابات بالنسبة لتلك الازمان المجهولة

وقد قلنا ان بعضهم يجعل خروج بني اسرائيل وغرق فرعون في زمن منفطة
الاول فيكون ذلك في نحو سنة ١٢٣٠ قبل الهجرة ويعد أنه هذا الملك لم
يحصل عقب حكمه حالته عجيب كقولية امرأة بل تولى بعده رمسيس الثاني
وبالجملة فقدما القبط نسبوا هذه الواقعة للملك منفطة الاول ونسبوا اليه

طرد العمالقة من مصر وجعلوها واقعة واحدة واحدة للتعمية بقصد اخفاء واقعة
اغراق فرعون في بحر القلزم وعلى جميع الاحوال فخرج بنو اسرائيل
ونجاتهم وغرق فرعون ثابت لاهم افسه سواء كان في زمن فرعون هوروس
أو منقطة الاول أو منقطة الثاني أو في زمن رمسيس الثاني أو في زمن فرعون
آخر ساقط من التواريخ القديمة لاسيما وان المؤرخين قد ذكروا أنه ساقط من
التاريخ القديم ما لو قبل هوروس وبعده فحاز أيضاً أن يكون فرعون الذي
أغرقه الله هو وجنوده منهم ووجود مدافن لمن ذكروا لا يمنع الفرق لجواز
عدم الدفن بها كما سبق على أن فرعون موسى نجيا سنده بعد الفرق بصريح
الآية وهي قوله تعالى فالיום نصيبك لئلا تكون لمن خلقك آية بعد قوله
تعالى حتى إذا أدركه الفرق قال آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل
وأنامن المسلمين فقوله تعالى فالיום نصيبك أي فخرجك من البحر
وخرجك مما وقع فيه قومك من قعر البحر أي نصيبك بدنا مضام من غير روح
وجسما كاملا سوى ما لم تتغير عريا ناسم غير لباس معجزة لموسى عليه السلام لتكون
لمن خلقك بمن اعتقدوا فيك الالهية ولم يشاهدوا غرقك آية حتى لا يكذبوا
بذلك زعمانهم أنك اله لاتموت وأنك لست ربهم الاعلى وأنك كنت بالامر في
نهاية الجلال والعظمة ثم صار أمرك الى ما شاهدونه فيك فقد أغرق سبحانه
وتعالى جميع قومه وما أخرج أحدا منهم من قاع البحر بل خص فرعون
بالاخراج بهذه الحالة الجسيمة دلالة على كمال قدرته تعالى وعلى صدق موسى
عليه السلام في دعوى النبوة وقوله تعالى لمن خلقك أي للمصريين الذين
ليسوا من الجنود ممن لم يصابوا بالغرق أو ممن بنو اسرائيل فقد قيل أن فرعون
كان طريقا على عمرهم أو المعنى لئلا تكون لمن بعدك من جميع
المخلوقات آية تفرعون في هذه الحالة وهي النجاة بالبدن لامانع من أن يكون بعد
اشهاره وتمثيله أخذودفن وان لم يوجد نص صريح بهذا وبالجملة فدلوك الهجوز
هي الملكة طما هو موت بنت هوروس أو طوسيرفت منقطة فانها حكمت تسع
عشرة سنة وستة شهور هي وأخوها منقطة الثالث الآتي

(الملك منقطة الثالث ابن الملك منقطة الثاني)

هذا الملك يسمى أيضاً أوزر يامنقطة وهو أخو الملكة طوسبر وكان كثير التعب
 بعبادة ذلك الوقت له التحافات كثيرة واغداقات على الهياكل والمعابد وقبره
 في بيان الملوك في آخر الاوان المتسع المتسع المبدان وليست عمارته مكمله
 كما يغني وهو آخر ملوك الدولة التاسعة عشرة على ما هنا ولكن المؤرخ مانطون
 جعله آخر ملوك الدولة الثامنة عشرة وسلك عليها بعضهم ولكن دلائل مدينة
 أبوجهة لوقصر وما اشتملت عليه من الآثار هي أقوى حجة من تأليف
 مانطون وقد دلت على وجود ملك آخر بعده فيكون آخر الدولة التاسعة عشرة
 أو الثامنة عشرة على الخلاف الذي تقدم ذكره وستأتي الإشارة إليه أيضاً
 وهذا الملك الذي هو آخر الدولتين يسمى رهاميري وكان ابتداء ملك منقطة
 الثالث في أثناء ملك اخته ومدة حكمه مندرجة في مدة حكمها فهي مدة
 واحدة كما سبق ذلك عند الكلام عليها

(الملك رهاميري)

تولى هذا الملك ملك مصر سنة ١٩١٤ قبل الهجرة ولا يعلم حقيقة نسبه وانما
 الظاهر أنه من عصابة الملوك السابقين أو من أرحامهم وكذلك لا يعلم مدة حكمه
 بالتحديد وانما استنبط بعض المؤرخين بالقرائن والدلائل أنه حكم بعد سلفه
 السابق خمس سنوات وأشهرًا وبها تمت حكومة الدولة التاسعة عشرة مائة
 وأربعاً وسبعين سنة وانتهت بسنة ١٩١٠ قبل الهجرة على حساب
 الاستكشافات الجديدة وبعضهم يدخل بعض ملوك الدولة التاسعة عشرة في
 ملوك الدولة الثامنة عشرة فتختلف المدة

(الفصل الثالث في ملوك الدولة المكمل للعشرين)

هذه الدولة كالدولتين قبلها طيبة وأول ملوكها هو من أبناء ملوك من قبلها
 فلا يفهم من لفظ دولة معناها المعهود الآن بل لفظ الدولة عند قدماء المصريين
 بمعنى آخر كالعبادة والفرع والعائلة التي تحكم مدة خاصة في بلد خاصة
 حكومة متميزة وان لم تختلف السلالة ولا خرجت الحكومة عن السلسلة
 الملوكية وترتيب ملوك هذه الدولة في مراتبهم الحقيقية ترتيباً زامياً لا بحجة له

قوية وانما هو مأخوذ من الاجتهاد والاستنباط والاستدلال من الآثار
أومن أقوال المؤرخين وابتداء حكم هذه الدولة سنة ١٩١٠ قبل الهجرة
ومدة حكمها مائة وثمانية وسبعون سنة ومدة كل ملك من ملوكها مضطرب
فيها فلذلك ضربنا عن تواريخهم صفحا واكتفينا بذكر وفاتهم وأول ملوك
هذه الدولة رمسيس الثالث ويسمى رمسيس المعون يعنى عبد شمس ويسمى
أيضا سيطوس الاول

(الملك رمسيس الثالث)

من المعلوم في تاريخ مصر القديم أن رمسيس الاكبر جعل لهذا الاسم كبير
اعتبار ومزيدا فخارا فقد تلقب به من بعده من الملوك حتى ان هذه الدولة
المكتملة للعشرين سميت بالدولة الرمسيسية وكان أولها الملك رمسيس الثالث
الذى فعل من الحروب والعمارات ما استحق به أن يتظم في سلك كبار ملوك
مصر السابقين فقد دلت الآثار القديمة على انتصاره في غزوات جسيمة حتى
عُد من كبار القاطنين للبلاد ويقال ان في عهد أبي هذا الملك هجم العمالقة على
ملك مصر خفاف أبوه عليه حيث كان صغير السن وسار به الى بلاد السودان
فأقام به ثلاث عشرة سنة فلما بلغ ابنه الاشجع جيشا عظيما وجاء به الى مصر
فهزم أعداءه وطردهم من مصر الى الشام وتمكن من سرير الملك بدون منازع
ولم يكن عمره اذ ذاك الا ثمانى عشرة سنة وقد جمع أيضا عساكر برية وبحرية
وغزا البلاد البعيدة بأسيا وفتحها ويقال انه لما سافر للغزو ترك أخاه أرميس
حاكما على مصر بالنيابة عنه متصرفا في ملك مصر بشرط أن لا يلبس التاج
الملوكي وأن يراعى حقوق زوجة أخيه أُم أولاده فسار رمسيس المذكور
الى قبرص ففتحها ثم غزا سواحل الشام والجزيرة والموصل وأرمينية وغيرها
من البلاد المشرقية وبينما هو في القنوجات اذ وصلت اليه رسالة من رئيس
الكهنة تفيد أن أخاه أرميس لم يعمل بأوامره ولا احتفل بوصاياه بل أقام راية
العصيان واستتب بالملك فعاد رمسيس الى مصر ودخل مدينة تيس واستولى
على سرير الملك ولبس التاج الملوكي فهرب أرميس وهاجر من مصر وهو
الذى يسمى عند اليونان دانوس وكانت هجرته الى بلاد اليونان وقد جعل

بعضهم هذه الواقعة كانت مع رمسيس الأكبر وحكاها بطريقة أخرى فسلم
عما سبق في تاريخه

والاقرب كما قاله بعض المؤرخين أن هذه الواقعة انما حصلت مع رمسيس
الثالث دون رمسيس الأكبر وهو الذي بنى مدينة أبو المعدودة قطعة من
مدينة طيبة وهي عبارة عن هيكل عظيم أنشأه هذا الملك لتخليد ذكره وكتب
عليه غزواته ويقال ان بلاد السودان والحبشة أظهر والعبسان في عصره
عنة مزان فأدخلهم في الطاعة المرة بعد المرة وكذلك لمعصى أهل لويه وهي
بلاد برقة وأغاروا على الثغور المصرية من جهة الغرب سار اليهم هذا الملك
وهزمهم شر هزيمة مرار عديدة وبالجملة فقد أدخل تحت الطاعة سائر
المضافات المصرية وهزمهم برا وبحرا كما يعلم ذلك من التصاوير الموجودة
بمدينة أبو فانه من جملة ما يشاهد فيها صورته واقفا على ساحل البحر في وقته
مع أهالي آسيا يدفع هجوم الاعداء عن البر وفي جنب عربته كالملك رمسيس
الثاني أسد مستأنس يقاتل عنه ويقترس الاعداء المغلوبين وبهذا يستدل
أن الدولة الملوكية القائمة للعشرين كانت سعيدة الطالع وأن هذا الملك أعلى
شأن المملكة المصرية كالسابق وان كان اعترى الحكومة المصرية الخمول فانما
كان هذا بعد عهده مات هذا الملك بعد أن حكم مدة طويلة وتولى بعده ابنه
رمسيس الرابع أكبر أولاده العشرة خلفه في ولاية العهد لكونه البكرى
ولمقتضيات أحوال محلية كما وقع قطير ذلك لايه رمسيس الثالث

(الملك رمسيس الرابع)

وبعضهم يسميه الخامس كما يسمى الثالث الرابع وعلى كل حال فهو ابن رمسيس
المعنون طالت مدة هذا الملك جدا حتى قال بعضهم انها بلغت نحو ستين سنة
والظواهر أنه ولد قبل موت أبيه بزمان يسير ولم يفهم من التواريخ أفعال ظاهرة
تدل على كبر الفخار وانما وجد من سوما في آثار مدينة جبل السلالة ما يدل
على أن مدته حكمه كانت في غاية من الفخار فقد وجد مكتوب في هذه المباني
ما مضى عنه ان وادي النيل في أيام هذا الملك أترى وأخصب ونبات الارض
دعرع واعشوب وقدملا أفواه الهياكل بجبل ذكره ونحن مسامح

المعابد والمجاهدين لجليل ثنائه وشكر محبت أمته بأعظيم منيعه ونعيم بره وكانت أحكامه في جميع الرعية على صورة عادلة مرعية أتقى جميع المراتب والطوائف على ما كانت عليه من التمتع بالشعار والوظائف والخصائص والطوائف وصار كل من الخاصة والعامة والاصحاب والاصغر مستبشرا بأيامه مسرورا بأحكامه لانه كان اذا نام تفكر في أحوال الرعايا واصلاح حال البرايا واذا استيقظ أحسن معاملته الجميع بكل النفع وحسن الصنيع كما يفعل الاب مع بنيه وهكذا فعل الملك النسيم فهذا يحصل مناقبه التي تؤذن بعلو مراتبه مات هذا الملك بعد ان حكم مدة أطول من سلفه وتولى بعده أخوه رمسيس الخامس

(الملك رمسيس الخامس)

هذا الملك هو ابن رمسيس الميمون وبعض المؤرخين يجعله السادس من هذا الاسم تولى ملك مصر ولا يعلم له من الآثار ما يدل على حالة حكمه وانما يعلم أنه قبل أن يلي المملكة كان موظفا في خدمة سلفه بوظائف جليلة منها أنه كان رئيس عساكر الفرسان وتربيته في وادي ميان الملوك لم تزل الى الآن ظاهرة على روبة في آخر الوادي وعليها نقوش دالة على وقائع فلكية رموز دينية فتجدها راسم فلک الشمس وما تقطعه في اليوم والليلة وعليها رسم عدد ساعات اليوم والليلة أيضا وجد اداول هلال الكواكب وحلولها في البروج واحكام النجوم وتناسخ الارواح والنص على ثواب المحسن وعقاب المسيء وذكر الحروب الواقعة في أيامه ويفرض أن مدة حكم هذا الملك كانت عشرين سنة وتولى بعده أخوه رمسيس السادس

(الملك رمسيس السادس)

هذا الملك الذي جعله بعضهم سابعاً من هذا الاسم لا يعلم له من الآثار الا قبوره المحفورة في صخور ميان الملوك بقرب قبر أخيه رمسيس الخامس وهو أول ما يجده الانسان أمامه وهو قادم من القرية هناك وكانت مدة حكمه خبث سنوات على ما قيل وخلقه بعدموته أخوه رمسيس السابع

(الملك رمسيس السابع)

قول ملكة مصر عقب موت أخيه وله آثار عظيمة بقيت رسومها فنها بعض
مباني مدينة منف كالأعمدة الشاذخة التي ارتطاع العمود منها أربعون قدما
التي بقيت على حالة حسنة إلى أن أقامت مقامها الاسكندرية وما أحسن قول
بعضهم

سألت اطلال مصر * عن عين شمس ومنف
نما أ حارت كلا ما * وما أجابت بحرف
وفي السكوت جواب * لذي الفطانة يكنى

وهذا دليل على أن المملكة المصرية كانت لم تزل إلى أيامه باقية على عظمتها
وكمال استقلالها وراحتا ولم يكن طرأ عليها اختلال ولا تضعع حال وكانت
مدة حكم هذا الملك أيضا خمس سنوات على ما قيل وخلفه بعد موته رمسيس
الثامن

(الملك رمسيس الثامن)

وبعضهم يجعله التاسع ويقول أنه آخر ملوك الدولة التاسعة عشرة وقد علمت
أنه معدود في الدولة المكمله للعشرين على الاصطلاح الجديد الذي سلكه
موسيو مارييت بك ولم يعلم المؤرخون درجة قرب هذا الملك من سلفه وإنما
وجودهما في صف تماثيل الملوك الرميسية فنسب له المؤرخون بأنه على
عمود نسب العائلة المالوكية الواردة لملك مصر وقد هو أيضا في تماثيل ريشين
على ظهره وهما في اصطلاح هذه الدولة علامة على الصدق والعدل فاستدل
بهما على أنه معدود من الملوك وقد وجدوا أيضا بالاستكشاف صورة سند
قديم يدل على أنه كان رتب صدقة جارية على هيكل مدينة طيبة صرفت
لستحقها ست سنوات متواليات فبانضمام ما ذكر مع ما تضمنته فهرست
المؤرخ مانتون المتعلقة بسلسلة الملوك وقوله عنه أن هذا الملك مات في السنة
السابعة من حكمه يدل جميع ذلك على أنه ملك من ملوك هذه الدولة وأنه حكم
سبع سنوات ولكن استظهر موسيو وجيليون العارف باللغة المصرية القديمة
من الكشف عن قبره ودلائل ما ظهر له أنه حكم ثمانية وأربعين سنة قال أن

اتساع مدفن هذا الملك والتأني في بناءه واحكامه وعمل هذا العمل الجسيم في
مدة حياته يستدعي طول مدة حكمه

والى حد هذا الملك الذي هو رمسيس الثامن تعلم وقائع الرمسيسية وبعده
عدة ملوك لا تعلم وقائعهم وانما تعلم اسمائهم فقط بل من ملوك هذه الدولة
ملكان مجهولا الاسم والوقائع فلذلك اكتفى المؤرخون بسردهم على هذا
الوجه

١ رمسيس التاسع	٦ رمسيس الثالث عشر
٢ رمسيس العاشر	٧ رمسيس الرابع عشر
٣ رمسيس الحادي عشر	٨ باهوراموسه
٤ أمينوميس	٩ فهمه
٥ رمسيس الثاني عشر	١٠ ملكة اثين مجهولين

فيفهم من هذا أن أغلب هؤلاء الملوك رمسيسية ولا تعلم مدة حكم كل ملك من
ملوكها على حدة بل منهم ملكان مجهولان لا يعلمان لا اسماء ولا لقبا وفي بعض
كتب التواريخ الجندية يوجد بدل باهوراموس اسم هرهور وبديل فهمه اسم
بيانكي معبرا عما بأنهم من طائفة الكهنوت واعلمها من الاسماء المترادفة
على معنى واحد وأن هرهور هو عين باهوراموسه وبيانكي هو عين فهمه

وقد ذكر هذا المؤرخ أيضا ملكا من طائفة الكهان المتغلبين باسم بتاطيم ولعله
أحد الملكين المجهولين ولما كان هؤلاء الملوك الاحدى عشرة المسكونة لبقية
الدولة المكمل للعرش من ذرية من قبلهم من الملوك الرمسيسية الطيبة
ولكنهم ليسوا أرباب ظهور ولا بهجة كاسلافهم جعل بعض المؤرخين
أسلافهم من الدولة التاسعة عشرة وجعلهم دولة هي تمام العشرين لانهم
خلعوا من الملك أسلافهم وظهروا منظر الجول والتساهل حيث خانوا
الامانة وأهانوا الديانة ونبدوا أحكام المملكة وراهم طهر بافطردهم أهل
الكهانة وضمو اناج الملك لرياسة الدين فظهر من مدينة تبس دولة جديدة
وقد نص مؤرخو اليونان على حادثتين عظيمتين حصلتا في أيام دولة الرمسيسية
لابأس به ذكرهما الاولى احداث دور فجمة الشعري وطلوعها وانثاية أخذ
اليونان لمدينة طرواده القريب محلها الآن من اسكى ازميز

وبين الحادثة الاولى ان المصريين كانوا يحسبون السنة التوتية ثلثمائة وخمسة وستين يوما واستقروا على هذا الحساب المدة المديدة ثم بين لهم برصد الشعري اختلاف حسابهم ونقص سنتهم ربع يوم فبتسكيل ربع اليوم في الاحتساب تكون السنة التوتية ثابتة على حالة واحدة فوجدوا الفرق بين السنة المختلفة والسنة الصحيحة في كل مائة وعشرين سنة شهرا كاملا وبجميع هذا الشهر وزيادته يتكون منه في كل ألف وأربعمائة وستين سنة زيادة ثلثمائة وستين يوما وهي سنة كاملة وهي الفرق بين السنين المختلفة والسنين الصحيحة فكبس هذه السنة في تلك المدة يوافق في آخر الدور أول السنة الصحيحة لأول السنة المختلفة ويوافق طلوع الشعري فتصحح السنة التوتية على هذا الوجه هو ما سيجي عند القدماء بالادوار الشعري

ووجه هذا التصحيح أن الألف والأربعمائة والستين سنة المختلفة بإضافة السنة الفرق عاها التصحيح تكون ألفا وأربعمائة وستين سنة صحيحة وحينئذ يكون عدد دورهما بهذه الاضافة واحدا لأن أيام كل منهما مساويا لمقدار الآخر في العدد فلذا صح التصحيح لتوفيق السنين وكان تاريخ هذا التصحيح في أواخر القرن العشرين قبل الميلاد وهو يوافق زمن الرميسية وأما الحادثة الثانية التي هي أخذ مدينة طروادة ونقل اليونان عليها فهو أيضا في عصر أوائل دولة الرميسيين على أشهر الأقوال فقد صرح الأواب بلياس أن فتوح اليونان لمدينة طروادة كان في زمن رميس ملك مصر ولم يذكر أي رميس هو وانما من المعلوم أن تدمير اليونان لهذه المدينة كان في سنة ١١٨٤ قبل الميلاد الموافق لسنة ١٨٠٦ قبل الهجرة فيقرب أن يكون في زمن رميس الرابع وان جعله بعض المؤرخين بمقتضى حسابه في زمن رميس الثامن استطاعا بتوفيق الحساب ومن المعلوم أن اختلاف حساب السنين في تواريخ ملوك مصر انما جاء من اختلاف أسماءهم وألقابهم باختلاف المؤرخين بسبب كثرة الألقاب هؤلاء الملوك وأسمائهم المتعددة المترادفة غالباً على معنى واحد فانها متى طرقت سمع المؤرخ ظن تباينها من ملوك رميس الثامن يسمى مينو فريس في كتب بعض المؤرخين ومعناه عبد شمس وهو اسم من أسماءه ويسمى طوريس عند بعض أخرى وبقيت أسماء الملوك كذلك

فن هذا حصل الالتباس في تواريخهم
 وهناك حادثة أخرى من حوادث ملوك الدولة الرسيبة علمت من لوح حجرى
 موجود بالجزيرة الملوكية بمدينة بارس مستخرج من هيكل شونس الذى
 هو أحد الاوثان المعبودة بمدينة طيوه بالصعيد منقوش على هذا اللوح بالخط
 البربانى أن أحد الملوك الرسيبين لقي في بعض أقطاره بالجزيرة بين دجلة
 والفرات التى كانت تابعة اذئذ الملوك مصر احدى بنات الملوك بيلاد الجزيرة
 فتزوج بها ثم مضى على ذلك بعض سنوات فينما كان رسيس جالساً في قصره
 بمدينة طيوه واذا ببعض الخلب أخبره بحضور رسول من طرف صهره يلتقى
 منه أن يرسل اليه طبيباً ذا فإلعالج بته التى هي أخت زوجة فرعون
 المذكور حيث أصابها داء أبحر الاطباء فبعث اليه طبيباً مصرى باليخرج ما بها
 من الجن فلما وصل الطبيب المصرى الى تلك الجهة بذل جهده في علاجها فلم
 يجيد علاجه شيئاً ولم يخرج الجن منها وعاد الطبيب الى الديار المصرية بدون
 نتيجة وكان ذلك خمس عشرة سنة خلو من حكم الملك رسيس المذكور ثم في عام
 ست وعشرين سنة من حكمه وفد عليه رسول آخر وأقادر رسيس من طرف
 صهره بأنه لا يشئ ابته من علقها الا أحد الاوثان المعبودة بمدينة طيوه فبعث
 اليه القتال المعسى شونس فمكث في الطريق سنة ونصف حتى وصل الى بلاد
 الجزيرة وعزم على الجنى حتى خرج من بدن ابنة الملك فعاد اليها الشفاء كما
 كانت فلما عرف ملك الجزيرة خاصية هذا الوثن من ان يحضر حضوره فيه
 الشفاء صهم على أن يحضره في قصره مع علمه بأن يحضره يوجب العداوة بينه وبين
 صهره فأقام هذا الوثن محجوزاً ببلاد الجزيرة ثلاث سنين وتسعة أشهر ثم رأى
 ملك الجزيرة في المنام أن هذا الوثن استحال الى صورة قبان من ذهب وطار الى
 مصر وأنه في وقت طيرانه أصيب الملك بعله آتته على حين غفلة فلما استيقظ أمر
 بإطلاقه في الحال وأرجاعه الى محله فعاد الوثن الى هيكله المعبد بمدينة طيوه
 بالصعيد في سنة ٣٣ من حكم الملك رسيس هذا ما وجد مكتوباً على اللوح
 الحجرى قال بعضهم ولعل ملك الجزيرة تمثيل ما هاله في منامه قطير منه وخشى
 عاقبة أمره ففك سجنه حالاً ولعل هذا المنام أيضاً منام همة وأما الشفاء
 بحضوره فهو استدراج أو أن في هذا الصنم خاصية وضعها فيه كهنه مصر

للمصروع بالجن كالحلبت أو صادقة اقدار وقد انتهت الدولة المصكمة
للعشرين سنة ١٧٢٢ قبل الهجرة وهي ابتداء الدولة الحادية والعشرين
الآتية

(الفصل الرابع في ملوك الدولة الحادية والعشرين)

ابتداء حكم هذه الدولة كان في سنة ١٧٢٢ قبل الهجرة وملكها سبعة
ومدة حكمهم جميعا مائة وثلاثون سنة وأصل هذه العائلة الملوكة تنسب إلى
من مدينة تنيس التي يسميها بعضهم أيضا مدينة صان وهي مدينة أرلية لم يكن
بمصر مثلها استواء وطيب تربة وكانت جنات ونخلًا وكرما وشجرا ومزارع
وكانت فيها بحار على نهر من الأرض ولم ير الناس بلدا أحسن من هذه الأرض
ولأعظم اتصالا من جناتها وكرمها ولم يكن بمصر كورة يقال إنها ليس لها شبه
الاقصوم وكان الماء متقدرا إليها لا ينقطع عنها صيفا ولا شتا يسقون جناتهم
إذا شاءوا وكذلك زرعهم وسائرهم يصب في البحر من جميع خلجانه وقد كان بين
البحر وبين هذه الأرض مسيرة يوم

ويقال إن الجنتين اللتين ذكرهما الله تعالى في كتابه العزيز أذيعول واضرب
لهم مثلا رجلين جعلتا لأحدهما جنتين من أعناب وحفظناهما بنخل الآيات
كأنما لاخوين من بيت الملك أقطعهما ذلك الموضع فأحسنا اعمارهن وهندسته
وبنيانه وكان الملك يتزعم فيهما ويؤتي لهما منهما بغرائب النواكح والقول ويعمل
له من الاطعمة والاشربة ما يستطيه فحجب بذلك المكان أحد الاخوين
وكان كثير الضيافة والصدقة ففرق ماله في جميع وجوه البر وكان الآخر
ممسكا بسخر من أخيه إذا فرق ماله وكل باع من قسمه شيئا اشترا منه حتى بقي
لا يملك شيئا وصارت تلك الجنة لآخيه واحتاج إلى سواها فأنهره وعمره بالتبذير
وقال كنت أنصك بصيانه مالك فلم تفعل وقضيت أمساكي ففشرت أكثر منك
مالا ولدا وولي عنه مسرورا بجماله وجنسه فأمر الله البحر فركب تلك القرى
وغرقها جميعها فأقبل صاحبها يولول ويدعو بالتبورو يقول يا ليتني لم أشرئ
ربي أحدا قال تعالى ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وهذه تنيس الاولى
ثم بنيت ثانی مرة وصارت عظيمة الشأن حتى يقال انه كان اياما مائة باب مثل

مدينة طيوه والى هذه المدينة تنسب هذه الدولة التنيسية
(أسماء ملوك هذه الدولة)

١ مندوفطف } ابن حاسن ويسمى منداس واسمندان ولم يكن حاسن
أبومندوفطف ملكا بل كان من أحاد الرعية وانما
تولى الملك ابنه مندوفطف

٢ حاسن بن مندوفطف } يسمى هذا الملك أسوسينيس ويسمى أيضا
فوسناس حكم ستة وأربعين سنة

٣ نقر خريس (حكم أربع سنوات)

٤ أمينوفطيس (حكم تسع سنوات)

٥ أوسوخور (حكم ست سنوات)

٦ اسيناخس (حكم تسع سنوات)

٧ حاسن الثاني (ويسمى ابوسينيس حكم ثلاثين سنة)

وقد عاشت وماتت هذه الدولة بدون نحر ولا اعتبار ولم يكن لها من الشهرة
الاضباع الملك في عصرها وضيع ملك مصر بعد السعة ورجوعها الى
حدودها الاصلية وضعف ما في مدينة طيوه من العائلة المالوكية فلا يوجد
لاحد من ملوكها ما يذكره من مبنى من المباني أو معنى من المعاني الا اولهم
فقط فقد وجد على صخر من الصوان في جزيرة بربا بأسوان نقش بالقلم البراني
متمثل على طلب الدعاء بحفظ منداس مؤسس الدولة الحادية والعشرين
وقد كان موت حاسن الثاني آخر ملوكها سنة ١٦٠٣ قبل الهجرة

وكانت هذه الدولة في عصر سيدنا سليمان وأبيه داود عليه ما السلام ويقال
ان سيدنا سليمان تزوج بنت أحد فراعنة هذه الدولة المذكورة وأمرها
مدينة غزة ولهذا بنى الجامع الاقصى على منوال المباني المصرية وبنت مدن
الشام على رسم عمارات مصر

ثم ان عجز فراعنة هذه الدولة بتضعع حالها فتح بابا لاضاعتها من أيديهم حيث
ظهرت عائلة أخرى من بسطة محلها الا أن قريش من الزقازيق وخلعت عائلة
تنيس من الملك وتقلدته واستولت على المملكة المصرية فمثل هذه الوقائع
التي يفتخ عنها اختلال الدولة وعدم انتظام أحوالها تؤدي الى زوال ملك

الملوك وسلطنة السلاطين

فتى وجدت أمة من الأمم أوله من الملل انقسمت الى حزبين كل منهما يسعى في مصلحة نفسه الخصوصية فاعلم أن سعيهما معا انما هو لعدوهما المترقب لذلك فهو يعود عليه بالنفع دونهما يدون أن يشعر بذلك فهما في الحقيقة سعيهما لحرمانهما معا وتكفي خضمهما الصدق مما تب قوم عند قوم فواند وماذ كراه من أسماء هذه الدولة التنيسية فهو ما ذكره المؤرخ مانطون في دولة العائلة المالوكية المصرية الحقيقية بالاقليم البحرية وكان بالصعيد بعدينه طيوه دولة أخرى مصرية تغلبت عليها طائفة القيسيين وتلقب أيضا هذه الدولة الصعيدية بالدولة الحادية والعشرين وهم الذين أنعموا عمارة الهيكل الذي بين الكرنك ولوقصر وعليه توجد أسماءهم مكتوبة وأما الدولة المالوكية البحرية المعاصرة له فان لها أيضا آثارا ببعض جهات لاسيما بمجعات تنيس وقد استكشف لها بعض تيجان وأكاليل صيغت لتكون فوق المباني وبعض صفائح من الذهب محفوظة في ضمن المحفوظات بالاتيقة خاتمة بيولاقتدل على أسماء بعض ملوك من ملوك هذه العائلة صار الوقوف على أسمائهم عن قريب محال يكونوا معلومين في التواريخ السابقة

وقد انتهت مدة هذه الدولة سنة ١٦٠٢ قبل الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام وجاءت بعدها الدولة المالوكية الثانية والعشرون

(الفصل الخامس في ملوك الدولة الثانية والعشرين)

كان سرير هذه الدولة بمدينة بسطة بالشرقية ومحلها الآن تل بسطة القريب من الزقازيق وعدد ملوكها تسعة ومدة حكمهم مائة وسبعون سنة والظاهر أن هذه الدولة البسطية لم يكن من ملوكها من الغزاة وأرباب الفتوحات الا القليل كما أن الظاهر أيضا أنهم كان لهم قرابة أو مصاهرة أو ميل للاجانب فان أسماءهم كاسماء ملوك العراق والاكراد وكانت عساكرهم المحافظون لذواتهم ليسوا من أهل مصر بل من المغاربة ولا يعرف لهذه العائلة المالوكية عمارة جسيمة تنسب اليها للغاية الآن وانما يؤمل أنه باستمرار عملية الحفر بناحية

تل بسطة لابتد وأن يستكشف بعض عمارات ومباني مما أنشأته هذه الدولة
بمدينة بسطة التي اتخذتها سيرا الملكها وأول ملوكها شيشاق

(الملك شيشاق وهو شيشونق الاول)

يسمى هذا الملك بهذا الاسم في التوراة واسمه مرسوم على الآثار القديمة
باسم شيشونق وقد كان من أرباب الغزو والفتوحات فهو الذي غزا بلاد
فلسطين حيث سار من مصر إلى القدس في جند مؤلف من نحو ألف ومائتي
عربية حربية وستين ألف فارس وطوائف كثيرة من المشاة المغاربة
والنوبة وغيرهم فاستولى على جميع قلاع فلسطين ودخل مدينة القدس
وسلب أموال المسجد الأقصى الذي بناه سيدنا سليمان عليه السلام وكذلك
سلب أموال القصور والملوك حتى الدروع السليمانية المروعة من الذهب
وقد أبدت هذه الحادثة التي ذكرها التوراة ما شوهد في روافد الكرنك
بصعيد مصر مرسوم عليه تمثال الملك شيشاق يجز تحت أقدام الأصنام كثيرا
من الأسرى وعلى صدورهم اسم جنسهم وبلدهم فقد وجد من النقوش على
صدر صورة أحدهم أنه يهوذا ملك فلسطين وهو مصوريين الأسرى مؤثوق
اليدين خلفه وقد دل التاريخ على أن شيشاق قطع أجارا كثيرة من مقاطع
جبال السلسلة وأعادها لعمارات هيكل الشمس بقرب الكرنك وغيره بطبوه
ولم يجز ذلك بنفسه بل تم مقصوده بعده خلفاؤه وقد حكم هذا الملك اثنين
وعشرين سنة وخلفه ابنه أوسرخون مات سنة ١٥٨٠ قبل الهجرة

(الملك اوسرخون الاول)

هذا الملك يسمى في التوراة ذاراق ويعبر عنه بالملك الحبشي حارب مملكة يهوذا
كسلفه شيشاق في حرب القدس وكان ذلك بعد أخذ مدينة القدس تسع
وعشرين سنة فهجم على مملكة يهوذا بنحو مليون من النفوس وثلاثمائة
عربية حربية ونوغل في البلاد بالاعارة فسار ملك يهوذا الملقاه واصطفت
جنود الفريقين في وادي صفد بقرب مدينة قديعة تسمى ماريصة ولكن آلى الله
العرب في قلوب الحبشة فهربوا جميعا هذا مفاد عبارة التوراة والمراد بالحبشة

المصريون ومن معهم من الجنود الاجنبية فيؤخذ من هذا انهم زام هذا الملك
وعدم استيلائه على تلك المملكة وقدمات سنة ١٥٦٥ قبل الهجرة بعد
ان حكم خمس عشرة سنة وخلق ولد شيشونق الثاني

(الملك شيشونق الثاني)

لم يعلم في حق هذا الملك شئ من الوقائع الا كونه حكم تسعا وعشرين سنة
فيكون موته سنة ١٥٢٦ قبل الهجرة فتكون مدة حكم الملوك الثلاثة
سنا وستين سنة ولم يعلم باق ملوك هذه الدولة بعد هذا الملك وانما استبطل بعضهم
من بعض دلائل انه تلك بعد شيشونق الثاني ملك يسمى طاقيلوطس ثم تولى بعد
طاقيلوطس ملك يسمى أوسرخون الثاني ولم يعلم لحكمهم حامية ولا وقائع
فيكون عدة الملوك المعروفة الاسما من هذه الدولة خمسة

رذ كرماتون المؤرخ ملكين آخرين ولم يعين ما بالاسم وقد سبق لنا ان المؤرخين
جعلوا ملوك هذه الدولة تسعة فبقى أربعة من الملوك غير معلومين بالكلية فينتج
من هذا ان مدة حكمهم المائة وأربعة سنين الباقية هي من المائة وسبعين سنة
مدة حكم هذه الدولة وأن مدة الملوك المعومين أكثر من الستة وستين سنة
الذكر كورة ولعل الملك أوسرخون الثاني خلف ذرية ورثوه واحد بعد واحد
وانهم أضعفوا هذه الدولة المصرية وكاوا سببا في انقراضها وأن سكوت
المؤرخين عن أولاد أوسرخون الثاني المذكور إنما الصفيح عن جنائياتهم بكم
أسمائهم وعدم التعرض لهم بشراً وانما سكتوا عنهم لعدم الاكتراب بهم
حيث لا يستحقون أن يذكر في سلسلة الملوك وسبب ضعفة الدولة الحادية
والعشرين وما بعدها أن هذه الدول لم تسلك مسالك أسلافها في التثبيت لحفظ
ناموسها وبقاء محيط ديارها بل رضيت بتحككات الملل الاجنب عليها ومطوعة
أهوائهم لاسيما وقد انقرضت دول الملوك الطيبة والمنقضية وانحى أثر نسلهم
وانقطع سرير الملك عن طيوه ومنف واتخذ الملوك أسرة مما كان في
مدائن الاقاليم البحرية فبهذا صار ديار المصرية بحيث لا تسلك استقلالها
واستبدادها والسبب الاصلى لذلك كله أن الملوك الطيبة التي ارتفع شأنها
وعلاسلطانها قد فتحت أبوابها لبعض الاجانب كبنى اسرائيل وقطعتهم بعض

الضياع ليستوطنوا بها على سبيل الضيافة والاكرام ولكن احترست منهم ومن ظهورهم وضبطتهم غاية الضبط وأدخلتهم تحت الطاعة وأمدول المدن البحرية فانهم لم يفتخروا من الاجاب ولا لاحظت أطوارهم وحر كاتهم فمن كان تحت قبضتهم من الولايات المضافة اليها أقالمواراية العصيان وتعدوا الحدود وما أقطع لهم من الاراضي للاستفاعة به والتعيش منه طمعت نفوسهم لاستقلاله والاستيلاء عليه بالقهر والغلبة وانتهى الحال تغلب الاجاب على ملك مصر لكثرتهم بالنفوس الشرقية فالظاهر أن الدولة المملوكية الثانية والعشرين كان ملوكها من الاغراب المتوطنين وقد خلف هذه الدولة دولة أخرى أسوأ منها لاهي الدولة الثالثة والعشرون

(الفصل السادس في ملوك الدولة الثالثة والعشرين)

الظاهر من الوقائع التاريخية أن الديار المصرية في عهد هذه الدولة كانت ممزقة كل ممزق وليست على صورة وجود كلية تعد فيها أبواب الحل والعقد فكانت في الاقاليم البحرية متفرقة غير متواطنة كالجمهوريات ولو كانت كما في عصر العمالة منقسمة الى دولتين أجنبية وأهلية لكان أهون مما هي عليه في هذا العهد فانها كانت في عهد الدولة الثالثة والعشرين منقسمة الى دول متفرقة وطوائف متكاثر غير متفقة فكان يحكمها عشرة من ملوك الطوائف وجمهورهم من طائفة الماسواس وهي طائفة عسكرية وأجالية كالانكشارية اعتصبت المملكة بطريق التعدي هذا ما كانت عليه مصر في الاقاليم المصرية الحقيقية وأما مضافاتهم ولواحقهم من الاقطار السودانية التي كانت من أول الزمان الى عهد هذه الدولة متفاداة للفراغنة فخلعت الطاعة واستبدت بنفسها وخربت عن حكومة مصر ولم ترض بالانقياد لتوايب مصر عليها فخرجت السودان عن طاعة الدولة المصرية بالكلية في أيام الدولة الثالثة والعشرين ولم تكف بذلك بل أغارت على جنوب مصر من جهة الصعيد حتى وصلت الى اقليم النوبة حتى صار الصعيد في ذلك العصر أشبه باقليم سوداني فكان عصر هذه الدولة زمن قن ومحن كادل على ذلك الاستكشافات الجديدة من لوح حجر صواني بجبل البركل باقليم دنقلة وهو من انشاء ملوك الدولة السودانية وليس

من أعمال ملوك مصر الأصليين

ومضمون ما دلت عليه الكتابة أن طاغية الكوشين يعني السودان من بني حام لما أسسوا لانفسهم مملكة مستقلة تدينوا بدين المصريين واستعملوا طريقة كتابتهم وتعلوا لسانهم فكانت السودان صادرا عن عدن قلعاء المصريين وأن السودان أغاروا على معلمهم ومعدنيهم وغلبوهم بما تعلموه منهم ٥١ فكان هذا أشبه بجزيرة سند منغ المسماة بجزيرة هاتي حيث استقلت بنفسها وطردت القرانساوية ومثله ما وقع لكثير من دول أوروبا في ضافاتهم بأمر يقظة حيث خلعوا طاعة ملوكهم عقب التمدن واستبدوا بحكموماتهم وكان أيضا أشبه بالنيل وقد رجح على منبعه بالطغيان وليس هذا يجب في أبناء أبناء كل زمان

أعلمه الرماية كل يوم * فلما استساعده رمائي

وكم علمته نظم القوافي * فلما قال قافية هجائي

ثم انه يظهر للم تأمل أن أحوال مصر مرتبطة في المعنى بتابعي نيلها وأن منافعها المعنوية تابعة لمنافعها الحسية فكما قرب ماء النيل من مصبه صوب الوجه البحري خففت قوته وهي عزمه الى أن يتلعه البحر المالح وكذلك حكومة مصر في الأزمان الخالية لما كان مصر رها بالصعيد الاعلى في مدينة طيوه كانت قوية الشوك في أعلى درجة فلما دنت من الوجه البحري فقدت قوتها شيئا فشيئا حتى صارت أشبه بشئ بالشبح الذي بلغ درجة الهرم فضعفت فبته ورذ إلى أرذل العمر وأدركته منيته وذلك بمقتضى علاقات ذلك الوقت وأما روابط أيامنا هذه التي صار لمصر في الجهات البحرية منبع عظيم كسبح النيل وهو منبع المنافع العمومية كالجمارة ونحوها فهي مرجحات قوية لوجود تحت المملكة بحرية من المنافع وقد استبان من هذا كله أنه بعد الدولة العشرين قد انقضت تقريرا ملوك طيوه بالصعيد وذهبت عائلاتهم المالوكية وانحلت تندهم الجليلية الجليلية فصار لا يصد عن طيوه ملوك ولا فنون وليس لها حل ولا عقد وانما كانت في ذلك الزمن مقصورة على المحافل الدينية والجامع الكهنوتية وفي الزمن الذي كانت فيه بهذه المنابة ارتقى الوجه البحري الى شأو الدرجات العالية وارتفعت فيه قوة المعارف وشوكة الملك وظهرت مدنه

العظيمة يظهر رفيع كدائن تنيس وبسطة وصا الحجر وسهند وغير ذلك وصار
بهذه المدن دول ملوكية منفردة أو متفرقة ولكن كلها عانت من المملكة
رجعت الحكومة القهقرى الى ان وصلت الحكومة الى الدولة الثالثة
والعشرين التنيسية التي قلنا ان عصرها كان عصر محن وقن فان حكومة
مصر كانت في أيامها في قبضة عدة دول ملوكية متفرقة على غير عود العائلات
الملوكية الاصلية ذكر منها المؤرخ مانطون الدولة الملوكية الحقيقية ولم
يتعرض لغيرها من الدول وذكر من ملوكها ثلاثة بأسمائهم وذكر غيرهم من
المؤرخين أنهم أربعة وان المعلوم بالاسماء منهم ثلاثة لا غير أخذ من المباني
القديمة ومع ذلك فالملوك الثلاثة وقع ذكرهم في الكتب على وجه مختلف حيث
وجدت على المباني بلفظ وفي فهرسة مانطون بلفظ آخر كما تراه في الجدول

١	ابن هبوط	١	باطوباسيطس	} على حسب فهرسة مانطون
٢	أوسورطاسن	٢	أوسورطون	
٣	أمين هم جم	٣	ابساموس	

وقد استكشف ما ريت بك محافظا الاتيقمناه من لوح حجرى وجدته بقبر
العجل أيس الذي بجهة سفارة دولة ملوكية أخرى كانت مستقرة بمدينة منف
وعلم من الكتابة التي على الحجر حقيقة ثلاثة ملوك أيضا كالملوك الثلاثة
التنيسية وعلم من لوح حجرى آخر وجدته البك المذكور بجبل البر كل باقليم
دقطة ما يفيد أن بعض أقاليم مصر كان في أثناء تلك المدة في قبضة بعض ملوك
طوائف متفرقين ليس من ذكرهم المؤرخ مانطون ولا من ورد اسمه باللوح
الحجرى الذى وجد بقبر العجل أيس الذى كان يعبد المصريون في تلك
الازمان

ثم ان وقائع الدولة الثانية والعشرين وما بعدها يظهر فيها ان من أسماء
ملوكها ما يوافق أسماء أهل الموصل فهذا يقتضى وجود رابطة بين دولة مصر
ودولة الموصل فهل هذه الرابطة كانت مصاهرة وقعت بين الدولتين فأرادت
مصر التحبب والتقرب الى دولة الموصل بتسمية أولادهم بأسماء موصلية
لا سيما وأن المحبة كانت اذئذ الثمن الطرفين حيث كان لمصر نفوذ على ساحل
دجلة والفرات وأولم يكن سبب ذلك رابطة مصاهرة بل حصل في مصر تغيير

وتبديل في دولتها باستيلاء بعض ملوك الموصل والجزيرة عليها بعد انجلاء
المتغلبين اقتبست مصر تلك الاسماء مثل أوسرخون ونحوه ويدل على هذا
الرأى الأخير سكوت مؤرخي المصريين عن بيان أخبار القرن الخامس عشر
قبل الهجرة حيث كتموا فيه ما عساه أن يكون وقع لمصر من الزينة
وكان ابتداء حكم ملوك هذه الدولة الثالثة والعشرين في نحو سنة ١٤٣٢
قبل الهجرة وانتهأ وهلسنة ١٢٤٣ فتكون مدة حكمهم تسعا وثمانين
سنة ثم جاءت بعدها الدولة الرابعة والعشرون

(الفصل السابع في ملوك الدولة الرابعة والعشرين)

هذه الدولة صاوية تسبة الى تحت ملكها وهو صالجر التي هي مدينة أزيلقم
تزل آثارها القديمة باقية الى الآن ولم يبرز من هذه الدولة الامك واحد وهو
بوخوريس كما ذكره المؤرخ مانطون فهذه الدولة عبارة عن هذا الملك وقد
وجد اسم هذا الملك مكتوبا على بعض أحجار من قبر الجبل أيس الذي كان
يعبده قدماء المصريين

(الملك بوخوريس)

قد اشبه على بعض المؤرخين هذا الملك بفرعون بن رمسيس الثالث صاحب
واقعة خروج بني اسرائيل على بعض الاقوال فان ذلك وافق القرن العشرين
قبل الهجرة بخلاف هذا الملك فان وجوده في القرن الثالث عشر قبل الهجرة
الذي يسمى انيسيس البصير لانه كان فاقد البصر الذي خلقه سياقون ملك
النوبة المتغلب على مصر

وبيان ذلك أن بوخوريس كان صاحب تنظيم وترتيب وترية وتهذيب قوى
روابط التجارات وأعان على المحافظات الاجنبية والمعاملات وبذل مجهوده
في تحسين المملكة المصرية التي جلد بها دولته القسرية ولكن صروف
الدهر غلبت هذا الملك الغالب واوقعته في أعظم الشدائد والنواب حيث
اتهمه جميع الملأ بأنه أهان نورا كانوا يعبدونه وجعلوا تلك الاهانة أعظم ذلة
وكانت انقطعت ملكة مصر عن رونقها القديم وشاخت وهومت واشتهر وهما

وضعها في كل اقليم فعد قضع حالها هم النوبة بالخروج عن الطاعة
 وهجموا على مصر ورفعوا علم العصيان وشراعه فاستجدهم المصريون على
 ملكهم البغيض وأعانوا عليه ملك النوبة وشنوا غارة الاغراء والتخفيض
 فأغار ملك النوبة على الديار المصرية من وراء الشلال ووقع بوخوريس في قبضة
 سباقون الجبروتية فألقى غرود السودان خلسل الرفاهية حيا في النار ولججه
 عن المجحزة استعاره اللهب استعارة تحقيقية ذهبت به الى مجاز البوار
 فكانت هذه الحادثة كناية عن استيلاء الدولة السودانية الخامسة والعشرين
 وسأبقى بيانها أتم تبين

وقد وجد اسم بوخوريس قريبا في هذا العهد منقوشا على آثار جهة
 السويس في خفر الموضع المسمى سريوم وكان ابتداء حكم هذه الدولة سنة
 ١٢٤٢ وانتهى لها قبل سنة ١٢٣٧ قبل الهجرة فتكون مدة حكمها
 ست سنوات وبعض المؤرخين جعل ابتداء هذه الدولة سنة ١٢٨٤ وجعل
 حكم بوخوريس المذكور أربعين سنة ولكن الاصح ما سبق وأن
 ابتداء الدولة الخامسة والعشرين كان في سنة ١٣٣٧

(الفصل الثامن في ملوك الدولة الخامسة والعشرين)

قد كان استيلاء السودان على مصر وتأسيسهم فيها دولة سودانية مسببا عن
 الاقليات المترتبة عن العداوة والشحناء بين ملوك الدول السابقة الذ كرحق
 ان في التوراة ما معناه ان ملوك تنيس صاروا لا يقول لهم وملوك منف ضلوا
 وأضلوا قومهم فقضينا ان نعطي مصر ملك جبار يتولى أمرها ويدبر شأنها
 ٥١ ففسر الاحبار الملك الجبار بالملك سباقون السوداني

(الملك سباقون)

لما صد على مصر مصر عقب احراقه لبوخوريس اتسعت ملكته عليها الى
 البحر الابيض وقد تقدم بيان جبروته وقسوته باحراقه لبوخوريس حيا ومع
 ذلك فقد ذكر بعض المؤرخين أنه اتفاد لقانون التمددات المصرية وتدين
 بديانة مصر وكان له عدل في الرعية وفضل من بعده من الملوك السودانية حتى

حكى عنه أنه رأى في المنام أن معبود مدية طيوه يذره أنه لا يتمكن من ملك
مصر الا اذا قطع كهانها وأمناء أديانها ارباقلم وافقه ذمته ولا رضى بذلك
وأثر خلع نفسه من المنصب الملوكي والعود الى وطنه وأبى أن يلوث ناموسه
بسفك دماء أمناء الأديان فان صح هذا النقل كان دليلا على صحة حسن سيرته
وطيب سريرته وانما يقال عنه أنه أول من أبطل العقوبة بالقتل وقد اجتهد في
اصلاح الجسور السلطانية والقناطر الملوكية والترع والخجان العمومية
ورم المباني النافعة واصطنع المصانع البارة فكيف هذا مع ما فعله
من الجبر في مبدأ أمره بما يلوته ويقضى بسابقة شره ولا مانع ان الحامل له على
الخروج من الضد الى ضده والاتقال من النقيض الى نقيضه أنه لما تقلد
مملكة جديدة وفتح دولة حديثة كان أول فكرته اصلاح الزال وجبر الخلل
لا سيما وأنه تولى مملكة مشرفة على الخراب فخالها وأوجبت عليه الاصلاح أكمل
ايجاب فبادر بالوصول الى مقاصد العمران حيث توفرت له الوسائل والاسباب
لا سيما وأن بلاده محاورة للديار المصرية فهو يعلم حالها وأسباب ضعفها
الداخلية وما يلزم لحسن الادارة والسياسة وما يقتضيه منصب الملك والرياسة
بل كان بين الاقليمين في الازمان السابقة روابط وعلاقات وتناسب واتحادات
حتى قيل باتحاد مصر والنوبة في الجنسية والاصول الاولى حتى ان ملوك
النوبة المعاصرين للملوك الدولة الخامسة والعشرين السودانية المصرية
بنوا في النوبة مباني على منوال المباني المصرية واصطنعوا مصانع وهياكل
كهاياكل المصريين وعبادتهم عليها نقوش باللسان المصري القديم بالقلم
البرباني ولم تزل الهياكل المصرية حافظة الى الآن اصلاحات هذا الملك وسلفه
وتزييناتهم ونقوشهم فبعد ذلك في لوقصر أبي الجحاج وكذلك تجدد في مدينة
طيوه صورة سباقون عاكفا على تقريب القرى لتماثيل هذه المدينة وأصنامها
حتى ان ملوك السودان لتصرهم لقبوا أنفسهم بالقراعة وتكنوا بكنى ملوك
مصر

ويقال ان الملك سباقون كان في عبادى حكمه في حروب مستمرة مع ملك
مصرى من العائلات القديمة حصن مملكته في الوجه البحرى ولعل دولة
السودان بمصر كانت كدولة ملوك الرعاة كما في أقاليم مخصوصة وكانت

دولة الملوك المصريين موجودة في جهة أخرى ومحاربة معها وكانت مدة حكم الملك سباقون اثنتي عشرة سنة فيكون موته سنة ١٢٢٥ قبل الهجرة

(الملك سواخوس ويسمى سباقوطيف)

بعضهم سمي هذا الملك سباقون الثاني تولى مملكة مصر بعد موت أخيه سنة ١٢٢٥ قبل الهجرة وهو المذكور في التوراة حيث ذكر أن ملك القدس لما خرج على ملك بابل المسمى سلا منصر استجد بملك مصر المسمى سوارقند عليه فلا بد أن هذا الملك هو الملك سواخوس ومع أنه تعاهد مع ملك القدس لم يرب سلا منصر فلم يتفق ملك القدس بمعاهدته ولم يتصر على عدوه ولم تعلم مدة حكمه وإنما يظن أنها سبع سنوات تقريباً فيكون موته سنة ١٢١٨ وتولى بعده الملك طهراق

(الملك طهراق)

هو ثالث ملوك الدولة السودانية الخامسة والعشرين تولى مملكة مصر سنة ١٢١٨ قبل الهجرة وكان ملكاً كالحار باهزم ملك بابل كما يشهد بذلك ما ذكر عنه في التوراة وما نقله اسطرابون المورخ وبعض ذلك ما يفهم من المباني المصرية فقد وجد عن عهد قريب في آثار مدينة آتوم شمال هذا الملك منقوشاً عليها أنه حكم السودان والمصريين وافرقيّة جنوباً وشمالاً وأن مملكة بابل كانت بقيادة من مملكته وتابعة لمصر في مدته وإنما قيل إن هذه دعوى بدون دليل لاسيما لمن يعلم حقيقة مملكة بابل في تلك الأزمان حيث كانت دولة قوية وم صاحبة صولة على بني إسرائيل وأهل فلسطين وإن مصر كانت في ذلك الحين تخشى بطشها فلا يصح أن يكون لمصر عليها ولا سيادة فلم يكن لمصر مدّة طهراق حكم على ممالك دجلة والفرات وأنما شرعت مصر في تسخير تلك الدولة في زمن دولة نينوا وحسين أغار على بابل وكثيراً ما تجدد في عنوان ملوك مصر تقيهم بملوك آسيا والظاهر في هذا اللقب أنه ليس على حقيقته بل تقيهم بملوك الشام أيضاً فيه تسامح منهم ونسأهل لأنهم لم يستقلوا بحكم الشام بالتصرف الحقيقي بل حكمهم فيه اسم بدن جسم وكانت مدة حكم هذا الملك خمسة

وعشرين سنة وبه انتهت حكومة الدولة السودانية الحقيقية وخلفتهم دولة أخرى مصرية صابئة وهي الدولة السادسة والعشرون ويقال إن ملكا بعد طهراق يسمى يانكي وهو آخر هذه الدولة المصرية الخامسة والعشرين ومدة حكمه على ما يظهر ست سنين فتكون مدة حكم هذه الدولة خمسين سنة وانتهائها كما تقدم سنة ١٢٨٧ قبل الهجرة ولكن حقق بعضهم أن الملك يانكي المذكور وزوجته الملكة أمونور وطيست التي وجد لها تمثال عجيب محفوظ بجزيرة الآثار القديمة ببولاق حكما على إقليم الصعيد فقط في العهد الذي كانت فيه الأقاليم البحرية محكومة بالحكومة الاتقي عشرية التي ستذكر في الدولة المصرية السادسة والعشرين

الفصل التاسع في ملوك الدولة السادسة والعشرين وتسمى اصطفاينا طية

قال بعضهم أنه كان قبل هذه الدولة دولة تسمى الجمهور الاثني عشري المتعاهد ويقال لها الحكومة الاتعاشرية وقد اشتهرت بذلك وأنها كانت صابئة على الدولة الاصطفاينا طية نسبة إلى اصطفاينا طيس أول ملوكها فعلى هذا يقال إن مدينته صا الحجر لما أفضى بها الحال إلى انحطاط ملوكها وانقرضهم وضعفت مملكة مصر فتعصبت وجوه الدائن المصرية وأعبانها وعقدوا معاهدة بينهم على تخليص وطنهم من الأجانب فأخرجوا دولة السودان الحاكمة من الجهات البحرية وتقاسموا المملكة فكانت مصرية بين اثني عشر حاكما من أمراء المدن المتعاهدين كل أمير يحكم مدينة إقليم ويحكم ذلك الإقليم تمامه فسميت هذه الحكومة بالمقاسمة الاتقي عشرية فكانت عبارة عن جمهورية التزامية إلى أن استولى عليها الملك إسماعيل بقوس صاحب مدينة صا الحجر وخلصها من يد المتمردين واستبد بحكمها فهذا صارت مملكة واحدة ويقال إن هذا الملك استعان في ذلك بعساكر يونانية متطوعة فقد حكي هرودوطس واقعة تملك إسماعيل بقوس ملك مصر واستبداده وتخليصه من أيدي حلفائه بواسطة عساكر اليونان على وجه غريب حيث قال إن بعض

الكهان كان قد أخبر هؤلاء الملوك المتعاهدين أن أحدهم لابد أن يشرب
 الشراب ذات يوم للتقرب به إلى صنم النار في قدح من حديد وبهذا يصير ملكا
 على جميع الأقاليم المصرية وكانوا يشربون شرابهم في أقداح الذهب فبينما
 كان هؤلاء الملوك الأشاعش مجتمعين للتنادم على الشراب تقربوا إلى صنم النار
 ولم تكن أقداح الذهب المصقوفة بينهم إلا أحد عشر قدحاً بقي أحدهم وهو
 إيساميطي قوس بدون قدح فزع مغرور من رأسه وكان من حديد فشرب فيه
 الشراب قسداً كرفقائه بشرى الكاهن السابق وتنبهوا بذلك فآكر هو على
 أن يهاجر إلى بعض أبحاث بالوجه العري خيفة أن يثبت بالملك دونهم فأقام
 بتلك الجهات منفاً بعد وصوله إلى تلك الجهات أحضر كاهنًا من الكهان
 وسأله عما سيقع له فأخبره أنه لابد أن يثبت وحده بملك مصر وأن يخبره على
 أقرانه رجال من حديد يقتلهمون عليه من جهة البحر الأبيض فاتفق أنه
 أرمي على بر مصر رجال أرباب صيال من ملاحى اليونان مسلمين بأسلحة من
 حديد وخرجوا في البر على مصرية من منازل إيساميطي قوس لينهبوا البلاد
 ولكن لما ذكر إيساميطي قوس أن خبر الكاهن ربما يتحقق بذلك بادروا إلى
 عساكر اليونان ورحب بهم وأكرموا نزلهم ووعدهم بالانعام وتحالف معهم
 على أن ينصروه فدخلوا في خدمته واستعان بهم على شن الغارة على أقرانه
 وانحاز إليهم حزبه المصري فتلاقى جنده بجنده أعدائه فظفر بهم وشلعهم عن
 أسرته ملكهم واستقبل الملك وحده فكان هذا مبدأ الدولة الصاوية السادسة
 والعشرين فبأنفراد هذا الملك بالحكومة انفتح لمصر ثانياً باب المجد المؤمل
 وعادلها ووقفها الأول ورجعت لها شوكتها القديمة وطمعها في الغزوات
 الجسيمة ونالت من التوسيع دائرة ملكها غاية المطلوب واكتسبت من حفظ
 ناموسها نهاية المرغوب ومن هذا يفهم أن بين الدولة السودانية والدولة
 الاصطفائية طامة فترة وهي مدة الدولة الاثني عشرية وقال بعض المؤرخين
 انه لا فترة بين الدولتين وصححه

وبيانه أنه لما شق على أهل مصر تحمل حكم الملوك السودانية مع عدلهم
 وكانت الامة المصرية أصعب ما على نفوسها الانقياد للأغراب اجتهدوا كل
 الاجتهاد في طردهم وقرر بنظام المملكة لعائلة المصرية وكانت في ذلك الوقت

مدينة صالجر مدينة شهيرة بعظم مبانيها وأكثر ما أثرها وبما فيها من المدرسة
 الكهنوتية الجامعة لأنواع العلوم والمعارف فكان لها الأريحية على
 غيرها من مدن ذلك الزمن فاستدب بعض أمرائها وهو اصطفاينا طرس قصاد
 العساكر وهجم على الطائفة السودانية فهزمهم وطردهم من الأقاليم البحرية
 واستبد بالملك وجعل كرمي مملكته بمدينة صالجر فهو أول الدولة الصاوية
 ظاهرا ولكن أولها في الحقيقة الملك ايساميطيقوس فانه هو الذي تم انفصال
 السودان عنها بالكلية وقد حقق بعض الاستكشافات الجديدة أن
 الدولة الاثني عشرية أقامت مخالفة مدة خمس عشرة سنة ثم جاء بعدها
 ايساميطيقوس حيث أغار على محالفيه وهزمهم كما تقدم ذكره ويظهر لبعض
 المؤرخين أن ملوك هذه الدولة بل والأمراء الاثني عشرية من نسل الأمراء
 الاغراب وأنهم من مغاربة برقة وان جعلهم كثير من المؤرخين من أبناء
 أمراء مصر المتأصلين وعلى كل حال فهذه الدولة سواء كانت متأصلة أو أجنبية
 فقد ورثت الديار المصرية السعادة والرفاهية مدتها ثمان وثلاثين سنة بما
 اجتهدت فيه من محبة الفنون والصنائع وبناء الهياكل القديمة بعد ان دراسها
 وتجديد معابداً أخرى حديثة وتشييد أبواب مدينة صالجر سرى مملكتها فانها
 بنت بها أبوابا كبيرة جدا حتى قال المؤرخ هيرودوطس بأنه لم يشاهد مثل
 عظم هذه الأبواب بسائر الديار المصرية ولكن هذه المدينة الشهيرة قد
 اندرست مع أبوابها بعد أن رجعت ناصكة على أعقابها ولم تزل الرسوم
 الباقية الى الآن تدل على عظمتها وقد كان سابقا حوالها ما لا يحصى من
 الحدائق والبساتين والطيور المغردة والوحوش المستأنسة والانهار المطردة
 والرياض المونقة والقصور المرتفعة التي كانت شرفاتهم من حجارة ملونة تلعب
 اذا أصابتها الشمس فيبتشر شعاعها على ما حولها وكانت فيها جميع آلات
 النخمة وادوات الرفاهية وكانت العمارات منها ممتدة في رمال رشيد ورمال
 الاسكندرية قال بعض النقات ممن دخل مدينة صاومشي في خرابها انه وجد
 لبنة طولها أربعة أشبار فكسرها وجعل يتأملها فاذا فيها سنبلة قمح قدر شبر
 وافر كانها كما حدث فخر كما يده فخرج قمح أيضا كارجبه جدا في قدر حطب
 اللوي فلم يجد فيه تغيرا

ومن آثارها هيكل الملك أبرياس وهو هيكل عظيم يضاهي أعظم العمارات
 المصرية التي بناها من قبلهم من ملوك مصر وبه قبره ولعل هذا الهيكل هو
 هيكل عطار الذي هو مدبر الحكمة فان هذا الهيكل من عمارات صا الحجر كما
 ذكره المؤرخون وفي هذه المدينة أيضا قبر الملك أماسيس ومما يوجب هذه
 المدينة أيضا من الآثار العظيمة تمثال عظيم الارتفاع يبلغ ارتفاعه خمسة
 وسبعين قدما وهو كالتمثال الذي بمدينة منف من آثار الملك أماسيس وقد كان
 أحضر الملك أماسيس لتصلح الهيكل الموجود بتلك المدينة أحجارا ضخمة زائدة
 في الغضامة بعضها من مقاطع الأحجار بطرة وبعضها من محاجر أسوان وهي
 الجافية في الحجم وبالجملة فأعظم آثار مدينة صا الحجر معبد صغير مقفول من قطعة
 حجر واحدة كان قد نقله الملك أماسيس من جبال جزيرة أسوان إلى مدينة
 صا الحجر واستعمل على نقله من تلك الجهة ألفين من العملة فنقلوه إلى السفن
 فسارت به على النيل مسافة ثلاثة أشهر وطولهم من الخارج اثنا عشر مترا في عرض
 سبعة أمتار وعمكة أربعة أمتار وكان يعمل لهذه المدينة عيد تقديم حافل وموسم
 عظيم جامع للخاص والعام يسمى عيد المصايح توقد ليته بالوقدات النخبية ولما
 كانت هذه المدينة غاصة بالحكمة والعلوم النافعة انجذب إليها فلاسفة اليونان
 وصاروا يحجون إليها من جميع الجهات ومنها اقتبست العلوم والمعارف أثينة
 مدينة الحكماء اليونانيين على ما ذكره مؤرخوهم بل قد دل التاريخ على أن
 مدينة أثينة هي مؤسسة من قبيلة مصرية وذلك ان امقرويس المصري هاجر
 من مدينة صامع فرقة مصرية وركب البحر حتى رسا على ساحل اليونان
 ودخل اقليم أثينة مع حربه وكان ذلك في أثناء القرن الثالث عشر قبل
 الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية فأسس هناك اثنتي عشرة
 قرية قصارت هذه القرى فيها مدينة أثينة ورتب هناك جمعية الاحكام
 والقوانين وعلم يونان تلك الناحية العلوم الدينية والفنون الزراعية وعقود
 النكاح وصناعة النقش والفنون المصرية فهو المؤسس لمدينة أثينة التي
 هي من أعظم مدن اليونان

وكانت هذه الدولة السادسة والعشرون مملكة عصب دولة أجنبية حسنة
 الفعل فأرادت أن تجتهد غاية الاجتهاد وقضاعتهم في تشييد أوطانها

وتأييد عمارتها وزيادتها حتى تظهر المزية وتستبين المحبة الوطنية التي هي من
 الامور الجبلية فصنعت من العمارات بعد فنها نظير ما صنعته من قبلهم بالقسنة
 ملوك الدولتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة بمدينة طيبة وكذلك قد جددت
 هذه الدولة السادسة والعشرون بجملة قبور بجملة جهة العصا صيف من مدينة
 طيبة بالعيد تتميز عن غيرها بما فيها من السعة وحسن صنعة التصاوير المزيّنة
 وكذلك وجد بطريق الاستكشاف ألواح حجرية بقبر الجبل ايس بسقارة فيها
 بيان جميع الآثار والعمارات التي حدثت في عصر بعض ملوك هذه الدولة
 المعنوين بعنوان ايساميطيقوس وعلم منها أن المصريين كانوا يحافظون على
 تقبيد عنوان قبر كل عمل يعبدونه في ضمن لوح من الحجر ويدفنون كل لوح
 في قبر عمله وجميع تسجيل هذه العناوين بصورة وثيقة واحدة يثبتون في هذه
 الوثيقة التجربة تاريخ مولد الجبل وتاريخ وفاته ومدة عمره ميثاقه السنون
 والاشهر والايام ويؤرخون ذلك من ابتداء حكم الملك الحاكم وكذلك كما
 يوجد لبعض ملوك هذه الدولة آثار متفرقة بصخور أسوان ومحطة الحمامات
 ومدينة طيبة وبالعرابة المدفونة وسقارة ولكن آثارهم الكبيرة بمدينة
 صالح الجرج كما تقدم ولم يكن لها حظ في الحروب والغزوات وفتح البلاد فان الملك
 ايساميطيقوس شرع في فتح بر الشام وحاصرها تسعة وعشرين سنة وبجز
 عن الاستيلاء عليها وكذلك شرع الملك ايضا أن يعيد ما كان للديار
 المصرية من اليد الطليعة على بلاد الجزيرة بين دجلة والفرات فلم يستطع ذلك
 بل لا قام الملك بمختصر في مدينة كركيش ولم ينج منه الا بالفرار وكذلك بعث
 الملك ابريما الجنود الى بلاد القبروان ليقضها فانهم مزوا عدة مرات وقتل
 منهم خلق كثير وقد جبر عدم فلاح هذه الدولة عنايتها بمادة القديين ونشر
 أسباب العمارة والتحصين وفتح أبواب المدن المصرية لقبائل العرب واليونان
 وأهل الشام وساحل البحر الايض لتكثير التجارات والصناعات بالمخالطة مع
 الاغراب

وقد جعل المؤرخون عددا لملوك هذه الدولة تسعوا وأنتهم حكموا مائة وثمانية
 وثلاثين سنة وأما ابتداء حكمهم سنة ١٢٨٧ وانتهى سنة ١١٤٩ قبل
 الهجرة وأولهم الملك اصطفينا طيس وآخرهم الملك ايساميطيقوس الثالث

(ذكر ملوكها)

- ١ الملك اسطفانياس
٢ الملك ناخيسوس
٣ الملك نيفاوس الاول

هؤلاء الملوك الثلاثة لا يعلم لهم ما أثر ولا مناصب ولا حسن مباد ولا عواقب وانما يقال انهم من هذه الدولة السادسة والعشرين ولعل مدتهم حكمهم كانت نحو خمس عشرة سنة وانما عين المدة التي حكمها امراء الدولة الاثني عشرية بل ربما كان هؤلاء الملوك الثلاثة معدودين على التعاقب من عصبية هؤلاء الامراء والمدة واحدة أو أنهم كانوا معاصرين لهم فالمدة واحدة أيضا وبالجملة فمدتهم نحو خمس عشرة سنة وأول ملوك هذه الدولة في الحقيقة هو الملك ايساميطيقوس الاول

(الملك ايساميطيقوس الاول)

تقلد هذا الملك مصر سنة ١٢٧٢ قبل الهجرة المحمدية ويسمى هذا الملك أيضا ايساميطيق وهو في الحقيقة مفتاح خفر هذه الدولة ومصباح تاريخها وهو صاحب الفتوح وعلى لسان جميع الاخباريين هو محمود والمدوح له ما أثر تاريخه في مباني طيوه وفي أعمدة الكرنك وفي جزيرة الصنم عمليد أيضا على أنه قطع من محاجرها أحجارا كثيرة منها ما أدخله في المباني والعمارات ومنها ما أصلح به الهياكل القديمة المحتاجة لترميمات وفي محاجر طره يوجد اسمه منقوشا على حجر كبير وهذا يدل على أنه قطع أيضا من محاجر القليل أو الكثير وقد اعتنى بعمل تاريخه مؤرخو اليونان لانه أول ملك مصري له الفضل عليهم حيث قربهم الى بلاده واستمال قلوبهم بالدخول في رياسته جماعته وأجناده وخالف في ذلك عوائد من تقدمه من الدول وخص يونان آسيا وأوروبا من بين الاجناس والملل وأقطعهم الاقطاعات من الاراضي المصرية وسوى بينهم في الحقوق وبين طوائف الجنود الوطنية وأدناهم وجعلهم من المقرين في المعية وأعطاهم غلما من المصريين لتعلم اللسان اليوناني منهم حتى يترجوا بين اليونانيين والمصريين في أيامه كرت بوسيلة

الترجمة التجارية والمعاملات وسهل الاخذ والعطاء بسهولة المخاطبات
وتأسست بالقطر المصري العمائر التجارية وبهذه الوسيلة تعرف اليونان
تاريخ مصر على الحقيقة واستقام نقل الاخبار المصرية على أحسن طريقة
وهذه أول مرة تكلم فيها اليونان بلسانهم في البلاد الاجنبية لان أول اقامة
اليونان في غير بلادهم انما كانت في الديار المصرية ولما رأى همه هؤلاء
اليونان ومساعدتهم في أى مكان وزمان أكثر لهم المراتب ورتب لهم
قشلات ومخيمات وجعل معسكرهم بين مدينتي تينس وبسطة في الولاية
المعتادة للجنود الوطنية وقلد منهم رجالا وابطال المناصب سامية بلدية وحين
غزوه بلاد الشام أعطى دائرة المعاونة منهم وظائف شريفة وجعلهم على
مينة الجنود الاهلية فاستشاط جنود مصر غيظا من ذلك وصموا على
القراد من مملكة مصر الى غير هامن الممالك فهرب منهم نحو مائتين وأربعين
محاربا من غول الرجال ممن كان معدودا من كبار الابطال فهذا داخل قوة
مصر بعض ضعف واضمحلال فاجتهد هذا الملك في اسقائهم اليه ووعدهم
براحتهم حين القدوم عليه ولم يجد ذلك أدنى فائدة بل اختاروا الاقامة بين
أظفار الاجانب وبقيت هذه الجنود على ما كانت عليه شاردة أبدة فأقطعهم
ملك النوبة بعض أراضي ليتعيشوا فيها قوطنوا هنالك بوطن يسمى دار
المصريين المهاجرين

فلما أيس منهم ملك مصر قوى روابط المحبة مع الاجانب وأكثر ما استطاع من
جلب الصاكر الاجنبية من عرب وغيرهم وغرضه الاصل من ذلك أن
يأمن من هجوم الاغراب مثل الهجوم فلم يفهم أهل مصر ذلك وحقدوا عليه
باطنا فاكدوا روابطه بينه وبين الكهنة ليطمق من جهتهم فأجرى العوائد
والصلات على المعابد والهياكل وافترق عليها النفقات الجزيلة ونجى في منف
ضلعامن هيكल النار وشيد هيكلا معلق الجبل أيس المستقر الظهور بعد
الجبل أيس النى تقي بالموت على عادة ذلك الوقت واشتغل بالتراتب الملكية
والتنظيمات الادارية وتكثير الارادات المالية بشمول أقطاره على التجارات
الخارجية وجدد معاهدات تجارية بينه وبين اليونان والصوريين فهذا
صارت مصر مركز التجارة الامم والمال وتكاثر الاسفار البحرية والبرية تدهابا

وايايا مع كمال الامنية على النفوس والاموال فصار لا يقتل الغريب القادم على مصر ولا يستعبد كالسابق حتى ان المعاهدة مع الصوريين عادت على مصر بالغنى والثروة لانهم لهم التقدم في التجارة والملاحة اذ كانت ملكة صور مخازن جميع الدنيا وكانت ميناءها وسواحلها مطعما للقنوج المصريين ومطعما لانظار ملوكهم الاقدمين فانهى الحال بهذا الملك ان أضمر قنوج بلاد الشام وحاصر بعض قلاعها واستولى عليه بعد تسعة عشر من الايام وقد طال عمر هذا الملك الذي كان يلقب بشمس الملة وسليم الجبلية فمات سنة ١٢١٧ بعد ان حكم نحو اربعة وخمسين سنة وأبقى سيرته مستحسنة وترك لابنه نياوس الثاني انعم المشروع وهكذا ما ابتدأه الاصول ليكون تيممه على القروع

(الملك نياوس الثاني السمي فرعون الاعرج)

قولى ملك مصر بعد موت ابيه فى نحو سنة ١٢١٨ قبل الهجرة النبوية فاستدام حرب الشام وهزم جند عذوة واستولى على جميع ديار الشام وكان قد أعد لملك سغنا بجمرية وثمانه مصرية بقيت آثارها الى زمن أسفار هرودوطس فى مصر فكان هجوم هذا الملك على الشام برا وبحرا وقصة ذلك مفصلة فى التوراة فى السفر الثمانى من كتاب الملوك ومفصلة ان فى أيام يوشيا ملك يهوذا اسار نياوس ملك مصر الى نهر القرات لحرب ملك تلك الجهة فذهب الملك يوشيا نحو ليقاطه فقال لفرعون اذهب حتى ليس اليك جئت فلم يسمع منه يوشيا فضر به فرعون بسهم فى القروة فقتله فى مجدة نيب أبصره هناك وقبر فى اورشليم فاختر اليهو دودا يهو حازو سعى يواش وملكوه عليهم فاقام ملكا باورشليم ثلاثة أشهر فأساء فى الحكم وعطل أحكام التوراة فأسر نياوس ملك مصر عند مدينة حملا تلك على اورشليم وولى بدله أخاه اليقيم ملكا عليها وسعى أيضا يواقيم واستعصب فرعون يهو حازو ودخل به الى مصر أسير الى أن مات هناك فى أسره وكان فرعون ضريب على اورشليم وهى ملكة يهوذا خراجا مائة قطار من الفضة وعشر فذبا فصار يعطى يواقيم لفرعون حيث كانت تؤخذ من البلايا باسم فرعون ويجمع من الاهالى على

قدراً أحوالهم وفي أيام بواقيهم المذكور تولى يحشصر ملك بابل فملك على
أورشوليم وانقطع حكم فرعون مصر عنها ولم يعد أيضاً ملك مصر للخروج إلى
الشام ولم يطلب خراجها لأن ملك بابل أخذ من نهر مصر إلى نهر الفرات جميع
النهر كان ملك مصر انتهت عبارة التوراة وقدر كرماتون ان مدة حكم
نضاوس كانت ست سنوات فهل هذه المدة توافق ما في التوراة وهل نص
التوراة يعضدها الجواب عن ذلك أن الملك نضاوس الثاني هزم بوشيا وقتله
في الواقعة المذكورة وتولى بعده الملك ياهو حاز وحكم ثلاثة أشهر فقط وعزل
وقبض عليه أسيراً وتولى بعده بواقيهم أخوه وفي السنة الرابعة من حكمه
على أورشوليم خرجت بلاد الشام من حكم الملك نضاوس عقب الهزيمة التي
حصلت له على نهر الفرات حيث ظهر عليه يحشصر واقتفى أثره إلى أن أدخله
في مصر حيث ملكه فموتة عقيب هزيمة وعود من الشام يؤيد صحة هذه المدة
التي حكاهامانطون

وبمناسبة ذكر في اسر ايل هنا لا بأس بذكر نبذة تتعلق بهم فنقول هذه الامة
هي بيت النبوة ومعدن الرسالة من نبي آدم وجمهور الانبياء عليهم السلام منهم
وكانت مساكنهم ببلاد الشام وبها كان ملكهم الاول والاخر إلى أن
أجلاهم عنها المرة الأخيرة في طيطوس الملك الرومي ومن قبلهم وبدد جمعهم
فتقطعوا في البلاد أيدي سبا وفرقوا في أقطارها شذرو مذرفليس في معمرور
الارض ملكة الادقياء منهم فهم منشورون في مشارق الارض ومغاربها
وجنوبها وشمالها ولم يقل منهم الا الجزار فان عمر بن الخطاب رضي الله عنه
أجلاهم عنها الامر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك بقوله لا يقيعد دينان يجزيرة
العرب ولم يشتهروا الا بالعناية بعالوم الشرائع وسرا الانبياء فكان أحبارهم أعلم
الناس بأخبار الانبياء عنهم أخذ ذلك علماء الصحابة كعبد الله بن عباس
وكعب الاحبار وروهب بن منبه ولم يشتهر علماء اليه وبعلم الفلسفة ولكن
ربما كان في أيام دولتهم من عني منهم بعض عالوم فلسفية وقليل ما هم وانما
يعلم أن لهم حساباً دقيقاً في تاريخ شريعته ومعاملاتهم لكن لا يعلم هل هو من
تأنيج عقول علمائهم أو رتبته لهم بعض العلماء من غيرهم فلما تفرقوا في البلاد
بعد ذهاب دولتهم ودخلوا الامم فحركت هم قليل منهم لطلب العلوم النظرية

واكتساب الفضائل العقلية فقال أقرانهم ماشاؤا من فنون الحكمة
وفهم مما تقدم أن نضالوس لما ظهر عليه بختنصر واقبى أثره من الفرات
الى ان أدخله في مصر التي هي آخر حد وملك بختنصر مات هذا الملك حقيق
أنه عقب هذه الهزيمة بعد دخوله مصر بدون أن تقع مصر في قبضة بختنصر
ولادخلت في حكمه المذكور خلافا لما ذكره بعض المؤرخين من أنه دخلها
ودمرها وقتل ملكها وافتتح بلاد المغرب وخلافا أيضا لما قالوه من أنه ملك
الدينا بأجمعها والآية الشريفة تدل على أنه كان مسلطا على بني اسرائيل جزاء
لهم على اختلافهم وظلمهم فقد قال تعالى وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب
لتقصدن في الارض مرتين ولتعلن علوا كبيرا فاذا جاء وعد اولاهما بعنا
عليكم عبادنا اولى بأس شديد يعني بختنصر وأصحابه فحاسوا خلال الديار
وكن وعدا مفعولا

وقال بعض المؤرخين ان فرعون الاعرج يعني نضالوس كانت له حروب وسير
في الارض وهو الذي غزا بني اسرائيل وخرّب بيت المقدس مرة قبل بختنصر
وبالجمله فمن تشبهه بالحروب وسيره للغزوبالجنود الكثيرة وتعميره للسفن الحربية
بقصد الفتوحات يفهم أن همته في ذلك كانت كهمة أيه كبيرة وانما لم
تساعده المقادير ولا صفه الاوقات

ولم يكن جهده مقصودا على الاشغال الحربية بل كان كأيه العناية بتدبير
داخل المملكة وتحسين أحوال الرعية وتوسيع دائرة التجارة قوا في أيامه
الاختلاط بالاجانب ونشعب فروع المعاملات وسهل الاخذ والعطاء بواسطة
التعارف والتخاطب والترجمة فاستدعى الحال لتثبت هذا الملك بشروع
جسيم بنحيا له وسمح به دهره لدون أمثاله وهو وصل ببحر القلزم بالبحر الرومي
بقطع رزخ السويس بقرعة موصلة للتيل على امتداد أربع مراحل بحرية
عرضها يسع سفينتين متحاذيتين مسدأة هذه التربة من مدنة بسطة وآخرها
بركة التماسح حيث جاء ببحر القلزم كلن بجمراه بالقرب من ذلك فشرع في هذا
المهم الجسيم فهلك في أثناء هذه العملية مائة وعشرون ألف نفس على ما حكاها
هرودوتس فأوقف هذا الملك هذه العمليات لاسيما وقد أخبره بعض الكهنة
أن هذا العمل يكون خطا لا تنفع به ابدولة أجنبية وقال ارسطاطاليس انما ترك

نبحاوس وغيره من القراعنة عملية التركة بعد أن ابتدئوها لما أقادهم
 المهندسون أن سطح البحر الاحمر أعلى من أرض مصر فلهذا لم تنته العملية
 الا الى بركة التمساح المسماة بالبحيرات المرة
 وقد شرع دارا الاكبر ملك القرم في فتحه ولكنه ترك العمل خوفا من
 اغراق البلاد بسبب ارتفاع سطح البحر الاحمر على أرض مصر ثم تممه الملوك
 البطالسة وأوصاه الى البحر الاحمر واستعانوا على سلامة الاراضي المصرية
 من التلف بأبواب وأقفال ورياحات فكان نافعا للتجارات ثم طم وبقي مسدودا
 الى قنوح مصر بالاسلام حتى أمر بفتحها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي
 الله تعالى عنه ثم سد في زمن المنصور والدوانيقي العباسي ولم يزل في حال الدولة
 العلية فتحه والآن صار التثبث بذلك بعباية الحكومة المصرية وبهمة
 مولى مصر حضرة اسمعيل باشا يفتي انجازها على صورة مرضية مع حسن
 الروابط التجارية والسياسية الاحتراسية التي لم تختر بالسلطة
 ومع ان الملك نبحاوس أبطل اشغال التركة السويسية التي هي مقصد نفيم في
 المنافع المصرية فقد اجتهد في مقصد آخر شريف ومطلب سام منيف له فائدة
 قوية على المصالح التجارية وهو الشروع في معرفة محيط قطعة افريقية
 والوقوف على مسالكها البحرية على وجه الحقيقة فكلف البحرين من
 أهل صور والملاحين منهم عن لهم خبرة بالبحور على بحر الدهور والعصور
 وجعلهم على أن يرتحلوا من خليج العرب وأن يعودوا من بوغاز سبتة وان
 يستكشفوا البحار والبرور والجزائر لبوغاز الارب فتوجهوا بعدة سفائن من
 بحر القلزم واخترقوا البحر المحيط الهندى واستكشفوا المسالك المجهولة في
 تلك الازمان ومروا بال رأس المسمى رأس بونس برانس يعنى رأس عشم الخبير
 واقتفوا في مسيرهم سواحل غرب افريقية حتى وصلوا الى بوغاز طارق المسمى
 بحر الزقاق ومنه دخلوا الى البحر الايض المتوسط حتى وصلوا الى بر مصر
 وبالجمله فقد أنجزوا هذا السفر وعادوا بعد نحو ثلاث سنوات وحرروا بالتحري
 ما ظهر لهم من الاماكن والمسافات فبهذا علمت سواحل افريقية وما حولها من
 البحار على وجه الصحة ولكن غاب علمها عن العقول وتناسى الناس في أقرب
 وقت خبرها المنقول فلم تعد منها على الجغرافيا ثمرة مستمرة وأتى عليها حين من

الدهر لم تكن شأماً ذكورا بالمتة

وقد حكم هذا الملك ست سنوات على رواية مانطون ومات في سنة ١٢١١

(الملك إسماعيل قوس الثاني)

هذا الملك يسميه المؤرخون إسماعيل صعد على سمر مصر بعد الملك نينغوس سنة ١٢١١ و حكم ست سنوات ولأن بعضهم جعل مدة حكمه أكثر من ذلك وغزا بلاد النوبة ومات في رجوعه من الغزوة في سنة ١٢٠٥ وسأني ان احدي بناءه تزوجت الملك أماسيس المقتصب للمملكة المصرية وأنها ولدت منه ولدا سمي باسم جده وتولى ملك مصر بعد أبيه أماسيس

(الملک ابریس)

تولى هذا الملك سنة ١٢٠٥ قبل الهجرة ويسمى في فهرسة مانطون فبريس
ويسمى في التوراة اخفري بالخاء والحاء وسميه هر دوطس افرس وفي التوراة
انه استجده صدقيا ملكهم وزاعلي يجتصر ولم تنفع اغاثته بشئ فان يجتصر
ذبح اولاد صدقيا امام ابيه ثم قعا عيني صدقيا وسلسله وحمله الى بابل وسجن
فها الى ان قتل صرا كما سأتى

وقد بعث ابرياس بعد ذلك بغير الغزو بلاد القبروان ولكن لم يتصرف فيها أيضا بل كانت الهزيمة على جنوده وانتهى أمر عسكره ان رفعت راية العصيان فأمر ليهزم ابرياس أماميس ليضمد ناره هذه الفتنة ليرجع الجنود عن العصيان فذهب أماميس الى المعسكر وكان من ابطال جند ابرياس وأراد أن يعظهم وينصحهم عسى أن يعودوا للطاعة فينبها هو في أثناء ذلك إذا حاط به أحد الجنود وألبسه خودة في رأسه كالناج وصاح بأعلى صوته قد وضينا لكم ملكا علينا فلم يمتنع أماميس من قبول ذلك وسار على رأس الجند لقتال ابرياس ولم يكن في صف ابرياس الا الجنود الاجنبية المحمكة قتلا في الصفان عند مدينة منوف السفلى والتحمت المعركة فكانت عساكر ابرياس المحمكة تقا تل بغاية من الشجاعة والمهمة وقتله عدد هم انهزموا شر هزيمة ووقع ابرياس في قبضة خصمه أماميس فسار به الى مدينة صاوح حمله في القصر العظيم الذي كان

بسكنه قبل وقوعه في الامر وأحسن في حقه الصنيع وعامله أحسن المعاملة
وأظهر لمكادام الاخلاق وحفظ ناموسه

ولكن قد اعتمد جنود مصر ما حصل لهذا الملك من الضيم والذل بالعزل
والسجن مع ما كانوا عليه من الحق والغيظ لكسر أنفسهم بأغرائه العساكر
الاجنية عليهم جبروا الملك اما سيس على أن يسلمه لهم فبجبروا ما قبضوا عليه
قتلوه خنفا في سنة ١١٩٢ بعد أن حكم نحو اثني عشرة سنة

(الملك اما سيس)

تولى هذا الملك سنة ١١٩٢ تقريرا قبل الهجرة وقد سبق أن تقلده ملك مصر
كان باقتضاب الجنود وفي مبدأ أمره لم يكن لاهل مصر عظيم احترام ولا مزيد
اعتبار في حقه لانه لم يكن ذا حسب رفيع ولا نسب عريق ولكن سلك مسالك
الحزم واليكاسة وذهب مذهب حسن التدبير والسياسة فقام شأنه وعظم
سلطانه ولما استشرع بما خطر في بعض النفوس من اعتقاده ضعفه وخساسة
حسبه جمع محفلا عاما وقتل فيه بانا من ذهب كان مستعملا في استعمالات
العامة ثم استحال الى ان صار عمالا للعبادة فعظم حينئذ محله في النفوس وصار
مرعى الحرمه والناموس

ولما كان هذا الملك ذكي الفطنة جيد القريحة أحسن تدبير الملك مع القيام
يحفظوا نفسه وتوفيته بملاذها الصحيحة فوفق بين مصلحته الخصوصية ومصلحة
ملكه العمومية فقد قال ذات يوم لأخصائه أما علمتم ان القوس لا يوتر الا عند
الحاجة وبرخي متى فرغ القصد منه حيث أنتج الشدا تاجه وهكذا الانسان
اذا انهك على شغل جسد صعب فلا بد أن يعطى لنفسه الراحة ويبلغها من
الخط ما تستروح به وبه تستريح اليه كمال الاستراحة والا ان استدامت على
الجديات داخلها الحماقة والعقله على تداول الاوقات واستعدت للوساوس
والجنون وصارت غير قابلة لادراك اسم المصون وقد بالغ المؤرخ هردوطس
في مدح هذا الملك حتى جعل أيامه أعظم من أيام من سواه من الملوك وان مصر
لم تخلص في أيام غيره كخصبها في أيامه الهنية ولم يقض النيل على مصر بالخيرات
في مثل أيامه ولا صارت قبله كما في عهده مر بعهدة غنية حتى قيل ان مدن مصر

بلغت في عهده عشرين ألف مدينة عامرة والظاهر انه معدود منها الكفور
والقرى التي كانت زاهية زاهرة كالمداين بل الظاهر أن هذا من مبالغة
المؤرخين كما هو العادة

وقد أخذ هرودوتس حصر هذا العدد من أمراء الدين بمصر والسكمان وكانوا
يجبون المغالة والاطراء في مدح مصر في أيام الحج لم يظهر بذلك فخرها في عهد
ملوكها المتأصلين لسكايه هؤلاء الملوك الأجانب وللمدح لما سبق للملوك الوطن
من الرغائب والغرائب وكان من أعظم أسباب تروتها أيضا تجارت العظيمة
لا سيما مع أم اليونان فانهم كانوا في ذلك الوقت عندهم حركة التجارة والصناعة
عما تتصلوا عليه بمخاطبة المصريين ولذلك كان هذا الملك دائما مساعدا لليونان
شاعلا لهم باقتطاعه الخصوصية فقد رخص لهم الاستيطان بالديار المصرية في
مدينة قراطيس التي محلها الآن بذررقوة على قول بعضهم وبعضهم يجعل
محلها كوم نكرانس وجعل محلها العالم الفلكي مجونيك بالاستظهار بقرعة
يجواردمهور البحيرة لقرائن اثرية دلته على ذلك وقد أباح لهم أن يتسكوا
بأصول ديانتهم وأقطعههم أراضى مخصوصة لينوافها معابدهم وهياكلهم
ومذايجهم على اختلاف طوائفهم وأديانهم ومذاهيبهم وعقد مع حكومة أثينة
معاهدة واستولى على جزيرة قبرص وأضافها الى مملكة مصر ولم تكن قبل
ذلك دخلت هذه الجزيرة في حكم مصر ولا أضيفت الى اياتها الا هذه المرة
وعقد أيضا المعاهدات مع أم أخرى كلمة القبروان بأفريقية وكان له مخاطبات
ومراسلات مع الملوك الأجانب وقد بقي في التاريخ من مراسلته الى ملك جزيرة
صيصام المسماة سيموس ينصحه فيها بنصيحة خيرية اقتضاها الحال بقوله لا تأمن
صروف الزمان بل تجهز لنواب الخدنان واقع النفس بالزهد في الدنيا عن
اتباع هواها وعصها ولا تبلغها بالتشهى منها فبعد وصول هذه النصيحة الى
الملك المذكور كان باصبعه خاتم جوهر نفيس لا يؤثر عليه شيأ من زينة الحياة
الدنيا فالتقى اليه حيث عزم على الزهد وصمم ولكن سعد هذا الملك القائم
بجمعه في أقرب وقت بهذا الخاتم وذلك أنه ابتلعه حوت عظيم وقع في شبكة صائد
وحكم أن هذا الحوت يصلح لمائدة هذا الملك دون غيرها من الموائد فوجد
الملك الخاتم في جوف الحوت ففهم منه أن الاشياء مسعود وبخوت ومع ذلك

فقد دارت في الاواخر دوائر الزمان على كل من الملكين وصح ضمون ما في
الرسالة من العنوان فالعبرة انما هي بالخواتيم والعواقب ولا أمن لاحد من
صروف الدهر والنواب وكان للملك أيضا مراسلات مع سولون حكيم
اليونان وكانت المخاطبة بينهما متوازاة لا قباس القوائد والعرفان فلهذا
كان لهذا الملك ذكر في محفوظات الافاضل فكان تاريخه قائم البرهان
والدلائل وقد ترقى بتسامن بنات ايساميطيقوس الثاني تسمى عنق ناس
اصطفاهما من العائلة الملكية ليؤسس تسلسله منها دولة صاحبة حق على أمكن
أساس فولدت له ولدا سماه ايساميطيقوس باسماء جدوده وتوسم فيه أن يكون
خليفته وولي عهده وقد مات هذا الملك بعد أن حكم أربعاً وأربعين سنة على
ما ذكره المؤرخون وعضده مع ما وجدته مرسوما على الهياكل والمباني
الباحثون وان كان على موجب ما في الجدول لم يعط له من الحكم الا نحو
خمس وثلاثين سنة وخلفه ابنه وتلقب ايساميطيقوس الثالث ومدة حكمه
كانت في تاريخ هذه الدولة السادسة والعشرين مدونة

(الملك ايساميطيقوس الثالث)

هذا الملك هو آخر ملوك الدولة الصاوية وهو تاسعهم ويسمى عند المؤرخين
وفي فهرسة ما يظنون تارة ايسامقريطس وتارة أخرى ايسامينطس ومرسوم
على المباني باسم ايساميطيقوس وايساميطيق باسم أجداده لآلته ولم يذكر
التاريخ له شيئا من المناقب الا كونه زال في زمان حكمه ملك مصر عن
القرعنة وانقرضت في أيامه دولتهم وأنه حكم ستة أشهر بحيث لا يكاد يعرف
له أمر ولا نهى ولا يكاد يستشعر بملكه وقد اقتضت صروف الزمان بملك دولة
العجم للمملكة المصرية بعد غزوة مجهزة مدة تسنين آل أمرهم فيها الى هزم آخر
فراعنة المصريين وانتقال الملك الى دولة العجم سنة ١١٤٩ قبل الهجرة
بعد حكم الدولة السابقة مائة وثمانية وثلاثين سنة

الفصل العاشر في ملوك الدولة السابعة والعشرين
وهي دولة العجم وتسمى دولة الفرس

عند ملوك هذه الدولة ثمانية ومائة ملكهم مائة و... وعشرون سنة وابتداء
 ملكهم سنة ١١٤٩ قبل الهجرة وبيان ذلك أنه قبل انقراض الدولة
 السابقة بنحو اثني عشر سنة كان ظهر في آسيا الغربية أمة خاملة لا ظهور
 لها ولا ديانة وانما هي اخلاط ناس فاجتازت نهر الرس هائلة لا تدرى أين
 تتوجه وانضم اليها قبائل مثلها من البلاد المجاورة لحسدودها وسارت جهة
 الشمال الغربي من آسيا تحت قيادة قائدها كبروس ويسمى كورش ليس
 من بيت الملك وهو كسرى الاول من ملوك الفرس ولا يصدها في طريقها أحد
 ولا يمنعها مانع وكان كورش رئيس جميع هذه القبائل والطوائف ومحبوباً
 بعباد الجحوس وكان ضباط هذا الجيش من أمراء الفرس الكينية وكانت
 الطائفة المقسمة على غيرها من طوائف هذا الجيش طائفة الفرس فعدى
 كورش بجيشه الجرار من هري دجلة والفرات وجعل معه كره في اقلبي
 خوزستان والعراق واستولى على المدينتين العظيمتين وهما خوزست وبابل ثم
 تغلب على بلاد الشام بدون عمانع وضرب الخراج على ملوك الشام وجعل على
 أهل الشام مغارم في نظير ترخيص استدامة التجارة لهم ببلاد الجزيرة بين دجلة
 والفرات وصارت الشام في أيام كورش ايلة من ايلات العجم فامات كورش
 الا وخنوده كانت مشرفة على الاستيلاء على مصر فتولى ابنه قنيساش المسمى
 كبيراً وقبسيوس على مملكته فسار على سيره في الحكم والاعارة وتتم مشروع
 أبيه وفتوحاته فهجم على مصر هجوم السيل على الاباطح فأغرقها في بحر ظله
 وعسفه وبذل العمل الصالح بالطالح وسمى بختنصر الثاني ولعل هذا معنى
 قول المؤرخين ان بختنصر خرب مصر مع أن بختنصر الجبار ملك الموصل
 لم يحكم مصر ولا خربها كما تقدم وسيأتي لذلك بعض بيان والسبب المعقول
 لا غارته على مصر ان أمة العجم المتبررة كانت اتخذت في أيام أبيه الحروب
 والاعارات ديدناً وكانت تتقلب في البلاد شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً ولما وجدت
 مغائتها في ذلك التقليل صارت تبحث في طريقها عن الغنائم والمكاسب وكان
 اذ ذلك صيت غنى مصر وخصبها يطعم فيها الاطماع الاجنبية فهم قنيساش
 على ان يغلب عليها مستعيناً أيضاً بجنود أبيه المتجمعين من جزائر اليونان ومن
 بلاد افاضلى ممن كان يتبع أبيه في الخط والترحال ولما كانت في طريقه قبائل

العرب وكان يخشى الاقامتهم عقدهم عقد محالقة استأمن به في طريقه
فسار على مصر من جهة القروا حيث كان ملك مصر ناصبا معسكره هناك
للاقائه ومدافعة فجهيم ملك العجم على جيوش ملك مصر فهزمه وهرب ملك
مصر حتى لحق مدينة منف فارسل اليه قنبيشاش ملك العجم سقرا ليلتكموا
معه في شأن تسليم مصر صلحا فقتلهم فسار هذا الملك لقتاله فغبت أمامهم
مدة طويلة ثم آل الامر الى ان سلم ملك مصر لخصمه بعد ان فارقه اتباعه ومن
هذا الوقت انتقل ملك مصر من أيدي أهلها الى قبضة العجم وقام السفه
والجهل مقام الرشد والقدن وكان هذا هو مبدأ الدولة السابعة والعشرين
كما سبق

ويقال انه حصل لاباسم يطبقوس الثالث غاية النذل والهوان ويقال ان
قنبيشاش أمر بقتله فلم يظهر التأم ولا التأثر من ذلك بل قال ان هذه المصائب
أحق من أن يتأثر بها عاقل فاعتظ بذلك ملك العجم ومن معه حتى قال بعض
المؤرخين انه رقى ملك مصر ورق لحاله وهيم بان يرجع له الحكومة ويجعله نائبا
عنه لولا ان هذا الملك امتنع من ذلك وقال الموت ولا النيابة فرماه بعض
أعدائه بدسائس خفية وأنه مضمحل لقننة وتقويم الامه المصرية على العجم
فحكم عليه بالقتل وسقام دم نور فشربه ومات بعد ذلك وتمكن قنبيشاش من
الملسكة بموته

الملك الكبير المسمى قنبيشاش ويسمى قنبيسيوس وقد سمي نفسه بختنصر الثاني

هذا الملك هو رأس الدولة السابعة والعشرين حكم مصر حكومة عسكرية
صعبة ومن كان معه من عباد الجيوس عاوا في معابده صروها كلها وأضرها
بدن أهلها مع ما صنعت هذا الملك بعد غزويه في سيوة والنوبة من بنش قبر
أما بيس وضربه وقتل كهنة المعابد في موسم الحجل أبس
وقد ذكرنا سبب محبته في مصر وحقيقته وبيننا أنه هو الصحيح وقد نقل
مؤرخو اليونان في شأن ذلك أقوالا مطروقة للعامة بما يخبره الحكويون

من التوادد التي لا يليق بغيره من المورخ ذكرها واعتمدها فنها ان قتيشاش
كان طلب من أماسيس فرعون مصر بته لبناهما فأرسل اليه أماسيس فتا
من بنات ابرياس فكشف هذه الحيلة ووجدها ليست كقولهم فقد عليه في
ذلك وغزا مصر لينتقم من ولده وقيل انه طلب منه حكما كالأماهر فأرسل
اليه كحالا من مصر فادعى الكحال المذكور أنه من المغوضين عنده وان
هذا الملك انتهز هذه الفرصة في تقيمه من القطر المصري فأغرى هذا الحكيم
قتيشاش على قتاله وقيل ان كورس أباقتيشاش كان تزوج بابنة ابرياس
وان قتيشاش ولدها فهو سبط الملك ابرياس فلما كان أماسيس غاصبا للمملكة
جده أراد قتيشاش أن ينتقم منه وقيل ان المرأة التي أخذها أبوه من مصر لم
تكن الاسرية من المحاطي المصرية فكانت مضارة لاسمه فهذا أوجب حقه
على مصر واغارة عليها وقد سبق ذكر السبب الحقيقي وهذا كما يدل على ان
قدماء اليونان كانت طباعهم كغيرهم من أهالي هذه الازمان الحديثة
يميلون الى التقاط الخرافات العجيبة والاباطيل الغربية فتصديق الامور الغريبة
المعقولة قدر مشترك بين أمم سائر الازمان القديمة والحديثة والصحيح الذي
ينبغي أن يعتمد عليه في ذلك هو ان الملك قتيشاش لما وصل الى الديار المصرية في
عهد اساميطيقوس الثالث التي جيش العجم وجيش مصر عند مدينة فرما
فبعد لقاء الصقيين والمكافحة من الجانبين ظفر ملك العجم على مصر فدخله
ودخل الديار المصرية واستولى عليها عنوة وصيرها اقليما من مملكة العجم
سنة ١٤٩ قبل الهجرة وأقام بها أولا مدة خمس سنوات لم ينتك لها حرمة
بل حفظ نعمتها وأبقاها على عبادتها وأظهر علوا الهمة والشفقة والرحمة حيث
قرب اليه أمناء الديانة المصرية ليتعلم منهم ما اشتهر وابه من العلوم والحكمة ثم
شرع هذا الملك في ثلاث غزوات في آن واحد حيث أرسل غزوة بجهرية بحرب
جمهورية قرطاجية بالمغرب وجهز لذلك سفنا قبروصية وسفنا صورية فغابت هذه
الغزوة لوقوع الاختلاف بين الفريقين لاسيما وان الصوريين هم الذين عمرت
قبائلهم مدينة قرطاجية وأسست مملكتهم فكان بين القرطاجيين والصوريين
علاقة القرابة فكان لا يمكنهم رفع السلاح على أقاربهم فانهم زعموا
البحرية يلاذ افریقیة ويرجع جيشه مذموماً مخذولا وكانت الغزوة الثانية في

بلاد النوبة الغربية

وبين ذلك أنه بعث قبل الحرب نحو النوبة سفرا من وادي الكنوز
يحسون لغة النوبة وكانت رجال النوبة حسان الخلق طوال القامات غلظا
شداد أذكاء العقول معروفين بعلو الهمة والشجاعة وانما هم ملون القنون
التي بها يكمل تمدنهم لاعتمادهم على قوة أجسامهم وصلابة أبدانهم وكان مما
يزيدهم بسطة في الجسم والنبات قناعتهم في المطاعم والمشارب فلهذا كانوا
أطول الناس عمرا فكثر ما كان يعيش الانسان منهم مائة وعشرين سنة
فلم يكن سفراء قنيتشاش في الحقيقة نحوهم الا عيوننا وجواسيس ليرودوا
البلاد ويستكشفوا أحوالها فعرف النوبة منهم ذلك ولكن رحبوا بهم
وعاملوهم أحسن المعاملة ولم يظهر وأخذوا الحذر منهم ولا الاحتراس وكان
مع هؤلاء الرسل هدايا الملك النوبة من المصنوعات الذهبية والحلل الحر
الارجوانية والعطريات ذات الروائح الذكية وأنبذة التمر المنبهة للشهية
فأعجبهم كل الإعجاب من هذه الهدايا هدية الشراب فأرادوا مكافأة الملك على
هدية السنية فأتحوه بقوس أو تره ملكهم محضر من سفراء قنيتشاش وقال
ما مضونه ان ملك النوبة ينصع ملك الجعم ان لا يحضر الانبسه لحربنا على كثرة
جندنا ولا يكون حضوره الا اذا قدر هو وأحد من الجعم أن يوترقوسا عظيما
مثل هذا القوس وحده كما أو تره وحدي في أقرب وقت وفي أثناء المسافة التي
لم يمكنه فيها تعليم ذلك فليحمد الله المعبود حيث لم يرزق النوبة الطمع في السير
على بلاد الجعم والاستيلاء على ملكهم اه

فلما نقل ملك الجعم هذا الجواب خنق كل الخنق وسار يطالب بلاد النوبة
هائجا مسلوب الخواس لم يعتن بتنظيم جيشه ولا باستحضار ذخائره ولا بإيجاد
ضبط ولا ربط بين عساكره وبمجرد وصوله الى مدينة طيبة بصعيد مصر قطف
فرقة من جيشه تبلغ خمسين ألف نفس وأرسلها الى واحات سيوه ولم يكمل
غزوه وقيل انه سار بعض مراحل في الصحراء التي بين مصر وبلاد السودان
فنفذ زاده فبادر بالرجوع ولم يقنع من الغنمة بالاياب بل قصد غزوات
السمية واحات آمون القريبة من جبال برقة وهي واحات سيوه بقصد استعباد
أهلها وهدم هيكل المشتري الموجود بها المسمى هيكل آمون حيث هو معبد

برارويج اليه الناس فيبتاعهم في أثناء الطريق بعد مسيرة عدة مراحل
 في الصلاة مرتين معهم خبرا عن قتلهم الرقيق وأضلهم عن الطريق حتى
 فقدت أزوادهم ورواحلهم وتاهوا في الصحارى تلك الجهة اذهب عليهم
 ربح السعوم فأهلكهم عن آخرهم باغراقهم جميعا في بحر الرمال ولم ينج
 منهم أحد وقيل ان هذه الغزوة كانت قبل غزوة السودان وانه قد سار
 بيقية جيشه الى النوبة فلما وصل الى خمس مسافة الطريق نزل بجيشه القحط
 وانخمصة حيث لم يكن احترام على ما يكنى من الرادف كانت عساكره في أول
 الامر تأكل حيوانات الجمل والنيل فلما فرغت كانوا يغتزون بما يصادفهم
 في طريقهم من الاعشاب والحشائش الرديئة فلما توغلا في الاراضي الرملية
 غير المنبتة صار يأكل بعضهم بعضا بالاقتراع من كل عشرة أنفس واحد من
 تقع عليه القرعة فكان هذا الامر أشد عليهم من الجوع ومع ذلك فالملك مصمم
 على استدامة السير ومصر على المجازفة غير مكترث بخسارة جنده ولكن انتهى
 به الحال ان خاف على نفسه الهلاك ورجع القهقري ومع الخمصة الشديدة
 الحاصلة في الجند لزال الملك في مائدته محافظا على رسومها واستكمال أصناف
 المطاعم اللذيذة فعاد يقيية جنوده حتى وصل مدينة طوبه ولقد صد استعواض
 الخسارة العظيمة التي تلقت في غزوه سلباً لمنفعةها كل هذه المدينة وزينتها
 وذخايرها من ذهب وفضة وغير ذلك وكانت مما لو أمثال نفائس والامور الثمينة
 فكان هذا مما يبعد عند المصريين من التعدييات الكفرية ومن هذا الوقت لم
 تكن أفعال هذا الملك الاحمض اختلالات متوالية وقساوات متتالية حتى انه
 تصادف عند دخوله في مدينة منف التي كانت أعظم مدن الدنيا كانوا يعملون
 فيها كلها مومما مشهودا لولادة العجل أيس فظن أنهم فرحون مستبشرون
 بهزيمة فضل جميع الحاضرين من الكهان وأمراء الاديان وأرباب الحسل
 والعقد وختم ذلك بنسب جثة أماسيس وضربها وضرب أيضا العجل المحترم
 الذي هو حسب اعتقادهم ربهم المعظم بطعنة خنجر فأدماه وأطهر في ملاعظ
 من الناس ان هذا العجل ليس باله فاتصر عابد النار على عباد الابقار ومأوى
 القرى بين جهنم وبئس القرار
 ويقال انه من حين الغضب على المصريين تلقب بختنصر الثاني وهذا معنى

قول المؤرخين ان يقتصر غرب مصر فالمقصود به قنيساش أول ملوك العجم
كما أشرفنا إليه فيما سبق وقد أطنب المؤرخون في وقائع جبروته مما يلوث جميع
أوصافه ونعوته فما يحكي عنه أنه ذات يوم أكره أحد أخصائه المسمى
ابرياساسبه على أن يخبره بما يعتقد الرعية في شأن أحكامه وفي تعداد مناقبه
وسيرة له لعل في أيامه فقال له انهم يعتقدون انصافك بالافاضة والمجسدة
والمناقب الحسنة والاحكام السديدة ويرون انه لا مثيل فيك الا الانهمالك
على الشراب ولولاها لكنت منزها عن العيوب بدون ارتياب فقال قنيساش
هم يعتقدون اذا أتى لست لدى الشراب من ذوى الالباب ثم شرع يشرب
من الخرفوق العادة وأمرها بحضور ابن ابريساسبه وكان رئيس السقاة في
مجلس شرا به وأمره أن يقف بالمجلس منتصبا واضعا يده على رأسه وقال لايه
أريد ان أقيم برهانا في ذلك على محوى ولونعاطيت ما تعاطيت من الاقداح
فها أنا مقوق سهمي لأصيب فؤاد هذا الغلام مدير الراح فان أصبت المرى
فلست فاقد الحواس وان أخطأته صح في حق ما يعتقد الناس فسدد سهمه
صوب فؤاد هذا الغلام ففأده بأحد السهام وأمر خالابش بطنه ليرى
أبوه السهم مرشوقا في فؤاد ابنه ثم قال لايه هل سبق لاحد منى نظير هذه
الاصابة فأجاب له الاب بقوله ليست في طاقة أحد من البشر هذه البراعة
ولاهذه النجاة فمكن اتفاق المظلوم أن يشع من فعله الظالم ولا غرابة في شئ من
الدولة الجوربة باشتراك الحاكمين والمحكومين بالكبائر والعظائم
ويحكي عن هذا الملك ما علا الصعاقب والطروس من أمثال ذلك بالتفصيل في
قتل النفوس حتى يقال انه كان يقبلى بقتل الاعجم وذبحهم كالانعام فقد
قبل انه دفن اثني عشر من أعيانهم أحياء في ساعة واحدة وأهل عليهم
التراب حيث خطر له انهم مستحقون ذلك العقاب وقد نبش في مدينة منف
المقابر لينسلى برؤية الرم وانه نبش في مدينة صا قبرا ما سيس وضربه بالعصا
ومثل به ونقم عليه واتقم وهذا يدل على أنه اما كان في عقله خبل أو في لبه
خلل أو أن عقول مؤرخي أخباره في تلك الأزمان كانت محتلة وأنهم يصدقون
جميع الاباطيل والخرافات بدون قيام القرائن على صحتها والادلة وفي آخر
أيامه في مصر حدثت فتنة عظيمة يلاذ العجم وهي أن ناسه عليها طمع في نقل

الملك الى عائلته تقسه فأقام أخاه الشيخه باهرديوس أخى قبيشاش ملكا على
العجم فملكوه عليهم لالتباسه بين كورش ونيجزواتقلبه بالحكم مع الأكرام
والتعزير وأعلن له باللوكة على جميع بلاد العجم وأرسلوا الدعاء للمبايعة في
جميع الجهات وعند كافة الأمم ويسمى في كتب التواريخ باهرديوس الجوسى
ويقال انما سمي بجوسيا لظهور زردشت بدين الجوسية في أيامه ويعتقد
الجوس نبوة زردشت وبعضهم يجعل تاريخ ظهور هذا المتنبى قبل كورش
وكان قبيشاش خرج من مصر ودخل الشام فينها هو هناك اذ حضر داعى
العجم يدعوا أهلها للمبايعة باهرديوس المذكور والى الاقباده في سائر الاحكام
فلما سمع قبيشاش بذلك أراد أن يحدد المسير ويخلع الغتصب لملكه من
التفت والسير فينها هو يركب جواده اذا نساب سيفه من غمده فخرجه في
نخذه وألزمه وساده فبات بعد أيام قلائل بعد أن حكم مصر خمس سنين ولم يقيم
على هذا القيل دلائل

ولم يذكر لهذا الملك من المناقب الحسنة والمآثر المستحسنة الا منقبه واحده
يشتم منها رائحة حب العدل والانصاف وان كان قد تغلى فيها هذا الملك
وسلك سبيل الاعتساف

وهي ان أحد قضائه المسعى سيزمناس ارتشى في بعض الوقائع ليحكم بالباطل
فلما علم بذلك قبيشاش قتله سلفا وأمر أن يقرشوا جلده على منبر القضاء ولى
اينه قاضيا بدله وذكره ماجرى لوالده فيما مضى ونه ما عن الرشوة والبرطيل وعن
استبدال الحقوق بالباطل ويقال ان سبب جبروته قلة الترية والتأديب
وعدم اعتناء والده كورش بالقيام بشوئيه في تحسين الاخلاق والنهذيب
لان أياما كان منهمكا على الغزو والفتوح لم يتفرغ لتربية ابن البوح تربية
ابن نصوص بل وكل أمره في ذلك للحكام سرايته وحرمة وقل أن يقلع أمير
ملك في الحرم من مهده الى بلوغ حله

وقيل ان ما حكى عنه من الامور الخلة غير صحيح لان أغلبه من قتل هرودوتس
عن كهنة مصر وهم أعداء لهذا الملك فمكافوا يمتثلون عليه ما لا يحصى
من القبيح وأما هرودوتس فانه كان لا يعلم حال هذا الملك الا من هذه الجهة
الكهنوتية وأما ويل الاعداء على عدوهم غير نبوتية

ولما خرج قبيشاش من مصر كان أتاب عنه في الحكم ارياداس فلما مات
قبيشاش سنة ١١٤١ قبل الهجرة بعد ان حكم ثمان سنين وخلقهم دارا
الاولى كانت الفتنة في بلاد العجم ثم خمدانتهز النائب القرصة وشرع يستقل
بمحكم مصر ويجعل نفسه أصيلا قد اراد ان ذلك وأبعده وبذل جهده في أن
يحسن معاملته المصريين وأن يسقيهم اليه لينسبهم ما صدر من قبيشاش

(الملك واره الاول)

كان صعود هذا الملك على تخت العجم في نحو سنة ١١٤١ عبارة في مبدئه
عن تأسيس قواعد هذه المملكة الفارسية وتنظيم أمورهما فقد كان كورش
وقبيشاش وسعاهذه المملكة في دون عشرين سنة فلما اتسعت دواثرها
وتكاثرت آفاليها قمها دارا حين جاءت له نوبة المملكة الى عشرين ايلة
أو عملا وقد اجتهد في جلبه لها وسائط الثروة ووسائل الغنى حتى كان يسميه
الفرس بالملك النقاد وذلك لانه كان يعرف جهات المكاسب وتحصيل الاموال
وجلبها من أى شئ كان كما كانوا يلقبون قبيشاش بالملك المتك و كورش
بالملك الاب قيل وكانت مصر وقسم النوبة واقليم القيروان واقليم برقة في هذه
القسمه معدودة ايلة واحدة وعملا واحدا و كانت تسمى الايلة الثالثة
الفارسية وتدفع خراجا جسيما للفرس

وكان محصول صيد السمك من بحيرة فاروق بالقيوم يجبي لطرف الحكومة
وكان محصوله كل يوم مقدارا جسيما مدة الستة أشهر التي يدخل فيها ماء النيل
زمن القيضان الى البركة وفي الستة أشهر الباقية محصولها هين بالنسبة للستة
أشهر الاولى وكانت مصر تدفع كل سنة أيضا مقدارا من الخنطة لكفاية المائة
والعشرين ألف نفس من الجنود أو المعاوين المتوطنين بمعاظلة مدينة منف
من طرف الفرس وكان هذا المقدار أن يزيد من الكفاية فكان يفيض منه وكانت
ايلة مصر بعد ايلة بابل والموصل اللتان هما الايلة التاسعة من ايلات العجم
أكثر جميع الايلات خراجا وقد سبق أن آفاليه النوبة كانت في أيام العجم مضافة
الى مصر ومع ذلك فقد استنج بعضهم من قرائن تاريخية ان قسم النوبة الذي
كان في زمن الفراعنة مضافا الى مصر وكان يدفع الخراج لهم قد انفصل

عنها في أيام دولة العجم وأنه لا يستقامن تاريخ دولة العجم أنهم كانوا يملكون
شبا من الاقاليم بعد جزيرة أسوان مما يلي الجنوب وانما كانت ملكة النوبة
المسماة لمصر لازمة بهدايات برعية تدفعها على سبيل المحبة للعجم وانما كانت
في هذه المزية مساوية لبلاد فارس نفسها حيث كانت غير لازمة بدفع شيء
يوصف الخراج فكانت بلاد النوبة المذكورة تهدي الى العجم كل ثلاث
سنوات مدين من الذهب الخالص ومائة قضيب من الابنوس وخمسين جوار
نوبات واحد وعشرين من قبل وقد دلت المبانى المصرية على أن النوبة
كانوا يدفعون نظير هذا القدر للملك رمسيس الاكبر ولسطه وخلقه وقد ضرب
الملك دار السكة باسمه من صنف الذهب وصار التعامل بها في جميع ممالكه
وهو اول من أدخل في مصر العملة التي سميت بالسكة الدارية وكان الملك
قنيشاش قد قلدينا به مصر للنائب اريانس فلما تولى دارا ابقاء على منصبه
فضرب السكة من الفضة باسمه فلما علم دارا بذلك عاقبه على اقبائه واتهمه
بالخروج عليه

وقد وصف المؤرخون دارا بعلمه لتنظيم الممالك وتحسين ادارتها وسياساتها
ولعلمهم استنبطوا ذلك من ضربه العملة ومن بعض اصلاحات أخر كما استنبطوا
من ذلك أيضا أن مصر كانت في أيامه سعيدة ولو أنها كانت محكومة بغير أهلها
لحقيقة الحال أن مصر كانت كغيرها من بلاد المشرق التي في حكم الفرس
وكان الفرس الموجودون فيها عباد النار مجوسا متعصبين لدينهم وانما أبت
الحكومة الفارسية لهم رخصة عبادتهم فقط وحرمت على جميع الفرس المقيمين
بمصر الكتابة بقلم المصريين القديم ونهت عن أن تتداول بينهم هذا اللسان
ولو في مصر وأمرتهم أن يحافظوا على لغتهم حتى لقد كادت أن تكون أهلية
في مصر فكتابة العجم الجوسية المقدسة عندهم أصلها من لسان الكلدانيين أي
السريانيين وهم أهل بابل ثم تلقاها عنهم أهل اذربيجان ثم انتقلت الى فارس
فلما تغلب الفرس على مصر بقي في مصر آثار من هذه اللغة يعني من كتابتها
وكانت حكومة العجم هيئة لينية في حق الواحات وغيرها مما جاور مصر فلم تشدد
عليها القصد اتساع دوائر التجارات فكانت ستم أن تستولى بالطف واللين
على المحصولات التي تضبط للميرى خاصة من الاقاليم المسكونة بالعساكر

بقدر لزوم العساكر وانما الاتم شيأ من اراديت المال بمصر لا بقدر ما يصرف
على الطرق وغيرها بالعمليات كطريق الجحاز من السويس والقصر فقد وجد
ما يدل على ذلك منقوشا على الصخور مما يفيد أنهم كانوا يملأون الى عمل ما فيه
الوصلة بين طريق مصر والجحاز فقد شرع الملك دارا المذكور في عملية الترتعة
بين النيل والبحر الاحمر ويقال ان بعض ملوك مصر شرع فيها قبل زمن حرب
ترواده وان يخاضه الثاني ابن اساميطيقوس شرع في تكميلها حتى أشرف
على ذلك ثم تركها خوفا من اغراق مصر حيث انها أخفض من البحر وقيل سبب
ذلك أن قوة الساعة في مصر في ذلك الوقت كانت لا تفي بانجاز ذلك العمل وقد
وجد بقرب هذه الترتعة في واديها بعض مبان مرسوم فيها حروف فارسية
قديمة ثم أبطل دارا ترعة السويس وأدار أنظاره الى اصلاح طريق القصر
حيث وجدها مهمة للاخذ والعطاء فأصلحها وبالجملة فلم يكن دارا متخذاً
مستكنة في مصر بل كانت اقامته في المدائن الكبيرة من آسيا وكان عنده
أطباء من مشاهير حكام مصر وكان قد سبق مجيئه في مصر في زمرة جنود
سلفه قتيشاش حين استيلائه عليها وكان تقابل مع يوناني يسمى سمعان
صوقوصون في مدينة منف فكان دارا ذات يوم خفيا على قتيشاش وكان
سمعان ملتحفا بكساء قاني الحرة فأعجب دارا فوهب هذا اليوناني برنسه لذلك
الفارسي الذي كان جنديا لا منصب له ولا نفوذ كلمة فلما ان صار دارا ملكا على
مصر أكرم سمعان المذكور وأحسن منزلته فدل ذلك على أنه كان صاحب وقاء
ومكارم أخلاق كما قيل

ان الكرام اذا ما أيسروا ذكروا * من كان يألفهم في الموطن الخشن
ولما كان حكام القرمس أرباب جبر وقساوة على رعاباهم وكانوا متمادين على
الجور والظلم أصرت رعاباهم على مقابلة السيئة بمثلها فخرج أهل بابل عن الطاعة
وطلبوا الحرية وأحاطوا بمدينة بابل حيث كان الملك مقيما بها وضيقوا على
أهل فارس في الحصار عشرين شهرا ولكن سلك العجم مسلك المكر والحيلة
ورفعوا الحصار وغلبوا أهل العراق واستقر الملك كما على بابل
فاقدت مصر بالعراق في انارة القننة وخرجت عن طاعة العجم وكان هذا قبل
موت دارا بسنة واحدة يعني في السنة الخامسة والثلاثين من حكمه فاجتهد

في ادخالهم تحت الطاعة خالت بينه وبين مرأته زيادة النيل وفيضانه وحجبت
العساكر عن الوصول لقمع المصريين فللمات داراسته ١٠٩٧ قبل
الهجرة عن أربع وأربعين سنة من حكمه لم تكن دخلت مصر تحت الطاعة
بل لازالت القننة باقية في بلاد مصر نحو ستين

(الملك شيارش)

تولى شيارش في سنة ١٠٩٧ قبل الهجرة فكن حكومة العجم في مصر
وعاقب أرباب القننة وضبطهم ومسك زمامهم وأبواب عنه أخاه أخناس وجعله
حاكماً على مصر

ولما اتفادت مصر لحكمه رتب جنده في ظرف أربع سنوات وجهز للفرزوات
هذا الجند في السنة الخامسة وقطر القناطر وبني في الصعيد قباب المدينة
المدفونة وقد أعطت الإيالة المصرية لشيارش في غزوه ما أتت سفينة مكحلة
العدة مظمة الرجال كل واحد من رجالها على رأسه خودة من الحديد ودرقة
ورمح مما يناسب حرب البحر وأعطتهم البلط اللازمة للعرب وكان لهؤلاء الجنود
أيضاً دروع وسيف

ولم يكن للمصريين محبة في دوام ملك العجم عليهم ولو أنه وجد مرسوماً
في مباتيهم ما يفيد مدحهم للعجم فقد وجد منقوشاً في آثار القصور التعبير عن
الملك شيارش بأنه المولى المحسن سيد الجميع فهذه الكتابة انما هي رسمية
جوى بها العرف في حق المولى فلا يستفاد منها اسعاد ولا تعاب في أثناء الدولة
الاجنبية الجائرة عليهم وأيضاً انه يموت هذا الملك ظهر منهم ما يفيد الحقد
والبغض لانهم يادروا بمجر دموته لطلب استقلاليتهم وتخليص ملكهم وكان
عندهم شجاعة وثبات وحب لوطانهم واستعداد للتسلل بشراعتهم
وعوائدهم والذب عن دينهم ومصادرة حريتهم يذل الاموال والارواح عند
الاقضاء وذلك لانه كان منقوشاً في لوح أفتدتهم صورة ما وقع من الاجانب
من الظلم والعدوان فانه طالما سلطهم ملوك الاغراب المنافع الجمة ونهبوا
هياكلهم ومعابدهم في ابتداء فتح البلاد ثم مات شيارش سنة ١٠٨٨ بعد
أن حكمه تسع سنين وتولى بعده ارطخشيارش

(الملك ارطخشيارش ويقال ايضا ارتسجار)

تولى هذا الملك على العجم في نحو سنة ١٠٨٨ قبل الهجرة واجتهد في طاعة أمره اجتهدا كليا في حسم الفتنة القائمة في مصر وبذل المهمة في تصميم ملكه فيها وكانت قوة العجم مهددة وخوفة لليونان وعلى صيت بعيد وهيبة عظيمة وكان بين اليونان ومصر محالقات وعهود على ان تطرد اليونان من سواحلها سفن العجم وعساكرهم التي كانت تخشاهم مصر حتى لا يبقى في مصر للعجم بقايا فوضعت حكومة أثينة سفنهما في البحر لمنع عبور سفن العجم وبعثت الى مصر جنودا يونانية من عمالكت معاينة مع أثينة لتنضم الى جنود مصر فترتب على اجتماع هذه الجنود الاتصار العظيم على العجم وانهم زام جنود ارطخشيارش وانضامها الى جهة مدينة منف فهاجمت عليها جنود مصر في تلك الجهة ولكن اجتهد ارطخشيارش في التوصل الى فصل جنود اليونان من جنود مصر وتفريق العصبة فأضعفهم ونزل بسواحل النيل وصمم دولته بمحاصرة مدن السواحل المصرية فعادت مصر الى ما كانت عليه في قبضة الفرس عليها بالكلية وأقام معه اخناسا نائبا على مصر فاستعبد أهلها وأذلهم أكثر مما كان لهم في أول الامر وأكثر مؤرخي اليونان المشهورين كانوا أحياء في وقت هذه الواقعة فحكوها على ما ينبغي ألا أنهم وان اتفقوا في الوقائع فقد اختلفوا في الازمان والتواريخ وأصح حكايتهم هذا المعنى كلام مانطون حيث يشهد له ما وجد في المباني المصرية مما يوافق

ومضمون كلامه يقتضي ان ارطخشيارش بعد أن مكن دولته حكم في مصر ثمانيا وثلاثين سنة بعد عريان المصريين على نائبه مدة ستين سنة تكون مدة حكمه جميعها على العجم أربعين سنة ولا زال المصريون خاضعين لنائبه كما كان ذلك في مدة حكم أخيه شيارش فكانوا على غاية من الاسر والاستعباد وقد وجد اسم هذا الملك ارطخشيارش مرسوما على الصخور التي بالطريق بين قنا والقصر مضمون ذلك أنه ملك مصر وسيد الدنيا ولما مات سنة ١٠٤٨ قبل الهجرة بعد مدة حكمه السابقة خلقه شيارش الثاني

(الملك شيارش الثاني)

(الملك سوغديانوس)

(الملك دارانوطس)

لم تكن مدة حكم الاقل الا شهرين ومدة حكم الثاني كانت سبعة أشهر وأما الملك دارانوطس يعني ابن شيارش الثاني من السفاح فقد تولى في نحو سنة ١٠٤٧ قبل الهجرة وحكم نحو تسع عشرة سنة كما يدل على ذلك كلام فهرسة مانطون التي يجري فيها ذكر الحكومات ولوقية ولو كانت مدة حكم الملوك قصيرة وأما فهرسة ملوك العجم المنقولة عن المؤرخين السابقين والفلكيين الاقدمين فلا وجود فيها لشيارش الثاني ولا لسوغديانوس بل كذلك جدول سلسلة تاريخ الملوك الذين ذكرهم بطليموس الفلكي في طالعته كتابه المجسطي التي بنى عليها رجبته تذكر كورس وقيساش ودارا الاول وشيارش وارطخشيارش ودارا الثاني ولم تذكر غيرهم فالعمدة على ما قاله مانطون

والظاهر أن معاهدة المصريين مع الآتين كانت في عهد حكم ارطخشيارش وتفصيلها ان سبب اتلاف سفن العجم بالكلية أو قبض الآتين عليها هو أن اليونان نزلوا بالنيل وأخرجوا عما كرههم الى السواحل تحت قيادة فارطيس وكان اخمناس نائب مصر من طرف العجم معه ثلثمائة مقاتل فهزمه جند المتعاهدين وأهلكوا منه ثلث عساكره وقتل هذا النائب في هذه الواقعة وهرب بقية عساكره في قلاع منف فحاصروهم المصريون ثلاث سنوات وضيقوا عليهم الحصار فغاء العجم امتدادات من جهة أناطلي والشام فانهزم المصريون والآتيون ورجح قائدهم وهربوا امام العدو وهاجزوا الى الوجه البصري يتحفظون فيه من عدوهم فناوشتهم عساكر القرس هناك نحو سنة ونصف وكانوا متحصنين في جزيرة بين فرعين من فروع النيل فطمع أحدهما العجم واستطروا للوصول اليهم فصالحهم المصريون على أن يسلموا أنفسهم من غير أن يقتل منهم أحد وأما الآتيون فكانوا عشرة آلاف مقاتل فأحرقوا مرآكب العجم ولم يرضوا بالمصالحة كما رضى بها المصريون واختاروا شرف

الموت في ميدان الحرب على عار العبودية فصالحهم العجم مصالحة ليس فيها
ذل ولا عار حيث أنسوا منهم الشجاعة وكانوا مع ذلك قد أشرفوا على التلف
فأنفق عليهم العجم ثم أرسل الاتقيون سفنا أخرى يونانية فأتصر عليهم العجم
أعظم نصرة وانقاد مصر ثاني مرة وجعل واليا عليها سرطاما من القاري
وقبض على قائد المصريين وأرسله إلى ملك العجم فسلمه هناك فظهر العجم أنه
ابن إسماعيل بن قوس ملك مصر

وهذه الواقعة الأخيرة لم تخمد همة المصريين ولا أوهنت حماسهم ولا أضعفت
تعصيمهم للوطن بل رفعوا أعلام العصيان وطلبوا الاستقلاليتهم في عهد
دارا فوطس وأقاموا عليهم رئيسا مصريا يسمى أمرطيس من مدينة صالجر
فأنهزم عند مصادمة العجم وانحاز إلى الجهة البحرية ومكث في الأراضي
المسجلة مستترحا لا يدفونه أحد إلى أن استدعاه المصريون نائبا لخصيص
الوطن من الأعيان

فخضر هذا القائد وفامت عساكره عساكر نائب دارا فوطس وطاردتها فني
أثناء ذلك مات دارا فوطس المذكور في نحو سنة ١٠٢٨ قبل الهجرة بعد
أن حكم نحو تسع عشرة سنة فلك المصريون جميع ديار مصر فشرع أمرطيس
في الحكم على مصر وأجرى الأصول السابقة كسلافه من القراعنة وبتدفيها
الاحكام القديمة سياسية وأديانية وبهذه المثابة انقرضت دولة فارس في مصر
التي هي عبارة عن الدولة المصرية السابعة والعشرين فكانت مدة ثمانمائة
واحدى وعشرين سنة كما تقدم

الفصل الحادي عشر في ملوك الدولة الثامنة

والعشرين وهي الصاوية

تنسب هذه الدولة إلى صالجر كما تقدم في تقريرها وكان ابتداء حكمها في نحو
سنة ١٠٢٨ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى
التحية ولم تعد ملوكها بل الملك أمرطيس هو الذي تملك فيها وحده فكان
عبارة عنها

(الملك امرطيس)

تولى هذا الملك المصري سنة ١٠٣٨ قبل الهجرة ولا مانع أن يكون من نسل عائلة ملوكية قديمة وهو وحده على اقتراده عبارة عن الدولة الثامنة والعشرين ومع أنه لم يحكم الا سبع سنوات فقد اجتهد في اصلاح ما أفسدته دولة فارس وفي اعادة المراسم والمواسم الدينية وفي اصلاح وتحسين ما أتلفه الاجسام من الهياكل والمعابد والمصانع وقبذل همة قبل تطبيقه بالملك في الحروب الطويلة التي كان بها خلاص وطنه ولوعاش طويلا تمكن من اصلاح جميع ما فسد فيها الا أنه مات سنة ١٠٣١ وقد أبقى بقايا أصلها من بعده من ملوك الدولة التاسعة والعشرين التي أعقبت دولته وهي الدولة الاشمومية

الفصل الثاني عشر في ملوك الدولة التاسعة والعشرين وهي الاشمومية ويقال لها الاشمومية

نسب هذه الدولة الى مدينة قديمة تسمى أشمون الرمان التي هي على تخطيط تقويم البلدان لابي القداء في محل المدينة القديمة المسماة منديس فيقال لهذه الدولة أيضا المنديسية وكان عندها في قديم الزمان مصب فرع من النيل يسمى الفرع المنديسى وقد طم الآن بالزمام ولا يدرى سبب صعود هذه الدولة على سرير الملك بعد الدولة الصاوية التي قبلها وكان ابتداء حكمها في نحو سنة ١٠٢١ قبل الهجرة وعند ملوكها خمسة ورأس هذه الدولة الملك نفروطف

(الملك نفروطف الاول)

تولى هذا الملك في نحو سنة ١٠٢١ قبل الهجرة واسمه عند اليونان نفريطس ولم يزل من منذ صعوده على السرير يهتدم ملك العجم ويرعبه يبعوث الجنود الكثيرة لحربه ومع ذلك فقد بذل ما عنده في سلامة وطنه حيث عقد معاهدة مع جمهورية اسبارطه اليونانية لتقديمونه بأن تعاونه على العجم التي

هي خصم القرين فكان متقوا بهذه المعاهدة مات في نحو سنة ١٠١٥
فكانت مدة حكمه ست سنوات وتولى بعده الملك هو قور في هذه السنة

(الملك هو قور)

تولى هذا الملك في نحو سنة ١٠١٥ ويسمى عند اليونان أخوريس ومدة
حكمه على ما هو في فهرسة مانطون ثلاث عشرة سنة اجتمع فيها دائماً في ارباب
الجمجم فكانت مصر في أيامه مجتمعة دائماً بالمحافظة والممانعة ووجدت
المعاهدات النافعة مع الامم والملاول مثل أهل قبرص والعرب والغرب وبرقة
وكان في مصر عائلة كان قلبها عليها اسما مطبقوس في زمانه وكان منها
شخص يسمى غايوس خرج بسبب النفاق والعداوة من مصر ودخل في
خدمة الجمجم واشهر عند رؤسائه منهم فوقعت منافسة بينه وبين أحد رؤسائه
في حرب قبرص فهرب أياضاً من خدمة الجمجم الى مصر وتبعه حوب من الجنود
البحرية والبرية تحت قيادته وانضموا الى جند الملك هو قور وأضيف اليهم
عساكر اسبارطة وتحزروا مع مصر على حرب الجمجم فأت غايوس المذكور قبل
الاتصار على الجمجم وكذلك مات رؤساء المعاهدة فانقضت المعاهدة بموت من
ذكرها الجند هو قور عهد مع أمم اليونان ليتصرفهم على الجمجم وانطلقوا الى
مصر تحت قيادة خابرياس الاثيني فلما جاء أهل فارس الى مصر كانت على جانب
عظيم من القوة فلم تبلغ فارس شفاء غليلها وخاب سعيها وفي أثناء هذه المدة مات
ملك مصر المذكور ومع ما كان عليه هذا الملك من الاشتغال بحماية الوطن
فقد سعى أيضاً في اصلاح ما بقى من تخريب الاعجام عمال بصلحه سلطه فقد يوجد
في مدينة آو في طيوه بالصعيد اصلاحات للاعمدة المحمول عليها الايونات
تشهده بالاصلاحات الجسيمة بل في مقاطع الحجر يطو ما يدل على أن هذا الملك
استخرج منها في السنة الثانية من حكمه أشجار اللباني التي أنشأها وأعادها
وقدمت هذا الملك في أواخر سنة ١٠٠٣ قبل الهجرة بعد أن حكم ثلاث
عشر سنة على ما سبق وخلقه اساموطيس وفي أيامه قدم افلاطون وغيره من
حكماء اليونان مصر لتعلموا الحكمة من حكماء عين شمس ومنف وطيوه لينشروا
العلوم النافعة في بلاد اليونان

(الملك إسماعيل موطيس)

تولى هذا الملك في أواخر سنة ١٠٠٣ قبل الهجرة ولم يحكم إلا سنة واحدة وقد وجد مرسوماً في قصر الكرك في مدينة طبوه بقرب حلقه هو قوروقد مات في نحو سنة ١٠٠٣ وخلفه الملك موطيس على ما هو في فهرسة ما يظنون

(الملك موطيس)

تولى هذا الملك سنة ١٠٠٣ قبل الهجرة ولم يحكم إلا سنة واحدة ولم يعلم له شيء من المآثر ولا ما يذكر به في رسوم المباني وقد خلفه الملك ينفاروس عقب موته سنة ١٠٠١ قبل الهجرة

(الملك ينفاروس)

تولى هذا الملك في أثناء سنة ١٠٠١ قبل الهجرة ولم يحكم إلا أربعة أشهر فقط ولا يعلم من آثاره إلا صم أبي الهول الذي وجد في خزينة القف الأنطليكية المملوكة بعد يته باريس ولقبه الملوكي كلقاب القراعنة السابقين عليه ويقال له أيضاً ينفاروس وهو آخر ملوك الدولة التاسعة والعشرين التي لم تكن مدة حكمها إلا إحدى وعشرين سنة وجاءت بعدها الدولة الثلاثون وهي الدولة السملودية

الفصل الثالث عشر في ملوك الدولة المكملية للسملانيين وهي السملودية

هذه الدولة منسوبة لمدينة سمندوق القديمة بالوجه البحري كاللؤلؤ الأخرى المنسوبة إلى المدن البحرية وذلك لأن مدن الصعيد انقطعت شهرتها العظيمة وصيتها البعيد المذكور في التواريخ بالتسمية لما كان يصدر فيها من الملوك فإن مدينة طبوه تمكنت من هذا الجهد الأثيل وهو خروج ملوك الدول منها

زمناً طويلاً ثم تجردت عنه وانقطعت للكهنوتية فكانهم الماطال بها الاستعداد
والهوان واضمحلت شرفها القديم فلم تكن مصدر ولا مركز الملك لسرير
القرعنة انطلقت أنوارهم بجتها وضاعت منها هذه المزية وانتقلت منها الرئاسة
الاصلية الى مدن الاقاليم البحرية ثم امتدت هذه الدولة كانت نحو غمانية
وثلاثين سنة وملوكها ثلاثة وكان ابتدأ حكمها سنة ١٠٠٠ قبل الهجرة
التبوية وأول ملوكها نقطاب الاول

(الملك نقطاب الاول ويسمى نقطنبو)

تولى هذا الملك سنة ١٠٠٠ وهو رأس هذه الدولة الجديدة ولم تكن مدته
صلوا ولا راحة بل كان كسلفه فقد مضى زمانه القصير في الحروب فانه في السنة
الثانية من حكمه قد أغار عليه العجم فاضطر الى دفاعهم وقد كانت جاءت اليه
عساكرهم برا وبحرا وقرت من جهة فرما وكان مختصا من ذلك بتجنيد الجنود
الكافية للمحافظة فانتصر عليهم لاسيما وقد وقعت المشاحة وعظمت الفشة
بين عساكر العجم ومع انهز امهم فقد ركبو النبل وتخصنوا ببعض الجهات
ولكن وضع الملك نقطاب المحافظة اللازمة لحاية منف ثم شرع في قبائلهم
فسار خلف القائد فرنا باز امير عسكر العجم ففاض النبل على عادته وعم أرض
مصر فوقع العجم في أيدي المصريين بعد أن تلف أكرع عساكرهم فخلصت
مصر من أيديهم

فبعد سنوات قدم الملك ابن يلاس اليوناني على ديار مصر سفيراً من طرف
مملكة اسبارطه التي هي لقدمونه يستظهر لاهل اسبارطه على طائفة من
اليونان تسمى طيوه اليونانية حيث عظمت شوكتها وظهرت على اسبارطه
فأغاثهم وكانت مدته في آخر عمره صلوا وراحة وعمل يدل على ذلك فقرغه في آخر
أمره للادارة وتحسين مصالح مملكته فله آثار جلييلة من هياكل ومعابد
واختلف في مدته فقبيل انه حكم عشرين سنوات وقيل وهو الاصح انه حكم
ثمان عشرة سنة فيكون موته في نحو سنة ٩٨٢ قبل الهجرة

(الملك طافوس)

تولى هذا الملك سنة ٩٨٢ قبل الهجرة ويسمى عند المصريين طاؤس وقد اشتغل مدة حكمه بحمامة مصر من الهجم المغيرين عليها ويمكن المعاهدة مع القدامونين من أمم اليونان فبعثوا الجيشاً فأئده اجزيلا س فوعده طاخوس برباسة عموم العساكر المصرية بربية أو بجرية ولكن لما ارتاب في منظره وكان منظره دون مخبره لم يقلده الارباسة العساكر البرية وقلة فأئد آخر يسمى خبيراس برباسة العساكر البحرية وجعله أمير عموم الجيش براو بجو رابعي أعطاه هذا العنوان وكان قد أشار اجزيلا س على الملك ان لا يجمع على أهل فارس الا اذا قدموا مصر فأبى الملك الا قتالهم علاقاتهم في سواحل بلاد الشام ولم يرض انتظار وصولهم الى مصر فبيعد ما خرج بجيشه عن حدود الديار المصرية قامت عليه عساكر مصر متحيزين على عزله فخلعوه وولوا عليهم نقطائب الثاني ابن أخي طاخوس فهرب طاخوس بعد عزله عند ملك العجم وقابله في طريقه ببلاد العرب ولا يوجد لطاخوس أثر على أى مبنى من المباني المصرية فيما يعهد الى الآن وكانت مدة حكمه الى هروبه سنتين

(الملك نقطائب الثاني)

تولى هذا الملك سنة ٩٨٠ عقب خلع طاخوس وقد اتخذه عساكر مصر ملكا عليها فظهر بعد ذلك خصم لفرعون المذكور يتطاب الملك منه وهو أمير من أولاد وجوه أشمون وتحزب معه كثير من العساكر وأجاب دعوته كثير من الاحزاب فأشار اجزيلا س على فرعون أن يسد دخل الخوارج والعصاة بالهجوم عليهم حتى لا يكون لهم زمن يتعلمون فيه ويكثرون من الامدادات وحسن الترتيب ولكن ارتاب الملك من هذه النصيحة ولم يقبلها فعمدا قريب ساحله عصاة العساكر وغالبوه وجبروه على أن ينحصر في مدينة من مدائن فأحاط بها عساكر خصمه ولم يساعده القائد اجزيلا س بل خذله في اول الامر ولما اشتد عليه الخطب أشار عليه أن يفتح المدينة ويغير على الاعداء ويحمل عليهم حلة شديدة ففعل فظهر عليهم وأبعدهم عن المدينة واقتفى اجزيلا س أثرهم وأخذ أميرهم أسيرا وبقي نقطائب الثاني على مملكته لا يعارضه أحد في تدبيره وفي السنة الثانية من ولايته عقد معاهدة مع أهل صيدا وصور وكانوا

كاهل مصر على خوف من تلك أعيان فارس عليهم فكانت المحافظة أيضا قدرا
مستركا بينهم وكان كل منهم محتاجا للاحتراس من العدو فلما قصد القرس
مصر اضطروا الى حرب الصوريين أولا فكان هذا عائقا لهم عن الوصول
الى ارض مصر

فبعث نقطاب فرقة فيها أربعة آلاف مقاتل يونانية مججمة من طرفه وجعل
رئيسها منظور الرومي ودخل في معاهدة القريقين أيضا عساكر قبرص
فكسروا جنود العجم فغضب ملك فارس من انهزام رؤساجنوده فقاد جيشا
ثانيا بنفسه وانطلق به الى مصر ففرع الامير منظور الرومي من عظم هذه
الغزوة وهاله كثرة عساكره انهزع الى الانتظام في جند الفرس ودخل على
دارا خوس الا في ذكره لانه أقوى من اخصامه فرجب به دارا وأحسن له
الصنيع ربا أن يده له على الجهات المقصودة لخروجه حتى يسهل له أخذها

وأما نقطاب فجهز من العساكر ما يقوم لحماية بلاده من خصمه فقاد جندا
مؤلفا من نحو خمسة وعشرين ألف يوناني وعشرين ألف مغربي وستين
ألف مصري ووضع الحرس والمحافظة في جميع الثغور والحصون المهمة
فكان في مدينة القرامن المحافظة خمسة آلاف نفس وقد كان كل من
المهاجرين والمدافعين بعضهم نصب أعين البعض الآخر وكان مع كل من ملكي
مصر وفارس رؤساه من اليونان من حزبه يستشيروهم ويستعينون بشجاعتهم
في الحرب ويثق بأمانتهم في رئاسة العساكر فالتصفت الحرب وكانت بين
القريقين سجالا وانتهى الحال الى ظهور فارس على ملك مصر فسلم المصريون
واليونانيون أنفسهم لامرأ ملك العجم فلما رأى ملك مصر انهزام جنده وتبدد
شمله وقرب زوال ملكه ضاقت به الحيل وداخله اليأس والقنوط فلم يسعه
الا أن يجمع خزان أمواله وقرأ الى بلاد النوبة بدون رجعة وكان هذا الملك
آخر ملوك الدولة المصرية المكمله للثلاثين كما هو آخر ملك مصري من هذه
الدولة وقد حكم ثمانى عشرة سنة ومن بعده لم ترجع دولة الفراعنة المنصب
الملوكي ولم يبق للملأمة المصرية الجليله الذكر والمآثر سرير مصري أهلى
بل صاروا تحت ولاء العجم والروم الى فتوح مصر بالاسلام كما سيأتى في محاله
ان شاء الله تعالى

وقد انتهت هذه الدولة المكمل للثلاثين في نحو سنة ٩٦٢ قبل الهجرة
بعد أن حكمت مائة وثلاثين سنة

وهذه الدولة كالدولتين قبلها سكّات عبارة عن قن واختلالات فإن الديار
المصرية وإن كانت قد عادت حكومتها إلى أهلها في ذلك العصر إلا أنها لم تزل
على حالة غير ثابتة لتهدد الأعداء لها وافتراءهم عليها ومع ذلك فلم تخل دولة من
تلك الدول الثلاثة عن المآثر الأهلية ولم تحرم من المزية الملوكية فإن الملك
أمر طيس ملك الدولة الثامنة والعشرين قد اجتهد في إصلاح ما أفسده
المجسم وإعادة المراسم والمواسم الدينية وتعمير الهيكل والمعابد والمصانع
وكذلك كل من الملك أخوريس والملك نراطيس اللذين هما من ملوك الدولة
التاسعة والعشرين قد اجتهد في تزيين الهيكل المصرية بالتماثيل والصور
أي أن كلامها حسن بصورته وكذلك الملك نقطاب الأول أحد ملوك
الدولة الثلاثين اصطنع نوايت عظيمة منها ما نقل إلى مدينة لندرة وإلى مدينة
برلين وإلى مدينة باريس ومنها ما هو باق بالانطقة المصرية وهي عبارة عن
نوايت عظيمة حسنة الهيئة متخذة من حجر الصوان وكذلك زاد هذا الملك
بعض الإضافات توسيعية في هيكل مدينة أبوالكرنك بالصعيد كما أكل عمارة
قبر العجل أيس بمدينة منف وبني الباب الكبير الحصين الموجود أمام المباني
التي تحت الأرض من آثار مدينة منف وكذلك شرع الملك نقطاب الثاني
أحد ملوك الدولة الثلاثين في بناء الهيكل الكبير بحجزيرة البريا القرية من
أسوان فمن هنا يعلم أن الفتن الخارجية لم تنعق فراحة مصر ولا منعهم من
العمارات الأثرية ولوفى أيام انحطاط درجتها واضمحلال شوكتها وضعف
سياستها ورياستها بل كن رونقها في أيامها لا يتقص عما كان فيها من البهجة في
أيام الدول الأجنبية الآتية

(الفصل الرابع عشر)

في ملوك الدولة الحادية والثلاثين التي هي دولة القوس
الثانية المنقرضة في مصر بأغارة الاسكندر الرومي

كانت مصر تخلصت من استعباد القوس ومكثت مدة نحو ست وستين سنة في

حكم الدول الثلاثة السابقة وقد خليت في اثناء هذه المدة بحفظ استقلاليتها واستبدادها بنفسها وبظهورها على عدوها الى أن غلبت عليها الهجم في هذه الدفعة الثانية في أيام دولة دارا الأخوش الذي أسسها في سنة ٩٦٢ قبل الهجرة ولكن لم تطل مدتها فانها كانت غافى سنوات فقط وعند ما و كها ثلاثة وقد انتهى حكمها في سنة ٩٥٤ وفي هذه السنة تولى الاسكندر الروى مصر

(الملك دارا الأخوش)

تولى هذا الملك سنة ٩٦٢ قبل الهجرة بعد أن انتصر على نقطانيب الثانى ملك مصر الذى فر هاربا وأقام دارا عليها شخصا يسمى فرنده أحداً امرأته نائباً من قبله واستتب هذا الملك أموال مصر واغتنم جميع ما فيها ويقال انه بنى قصر الشمع وجعل فيه هيكلاً فيكون قصر الشمع من بناء القرس وكان دارا قبل التغلب على مصر حكم على الهجم نحو عشرين سنة كما دلت عليه كتابات المباني المصرية ومات سنة ٩٢٠ فكانت مدة حكمه سنتين وتولى بعده ابنه أرشيش

(الملك ارشيش بن دارا الأخوش)

تولى هذا الملك أيضاً مصر سنة ٩٦٠ ومكث ما كمال عليها سنتين كايه ولم يعلم في المباني المصرية له ذكر وانما ذكره ما ينطون في فهرسته وخلفه بعد موته سنة ٩٥٨ قبل الهجرة دارا الثالث آخر ملوك فارس في مصر

(الملك دارا الثالث)

تولى هذا الملك مصر سنة ٩٥٨ وحكمها أربع سنين وهي أيضاً مدة حكمه سلطنة فارس الواسعة الاطراف والاكاف وفي مدة هذا الملك تضعفت سلطنة فارس في سائر أقطارها وتلاشى أمرها فقد اقتضت الحكمة الالهية ان الملك كورش رأس الدولة السكينية أسسها ووسعها لتكون ملكاً للاسكندر الروى حيث ورنها عن خلفاء كورش ارناء وقتاً وذلك ان خلفاء كورش عاشروا اليونان وتعلموا منهم ما عندهم من حب الوطن وان الامة

القليلة الا الى الصادقة في حب وطنها كلمة مقدونيا اذا كان عندها بعض
تتدن وسياسة تغلب العدد الكثير والجسم القوي من أخصامها وكان من أم
اليونان جمهورية يونانية وصلت في نوبتها الى درجة عالية في التمدن وانطبعت
فيها الشجاعة لكونها ساكنة بالغور بالاقاليم المجاورة للبحر فظهرت على
غيرها من الامم وطاوعيد صيتها الى اقاصي البلدان وسارت بشهرة مفاخرها
الربكان وهذه الامة هي أمة مقدونيا فقد حكمت بلاد اليونان واستولت على
جميعها ولما كان ملكها فيليس ذا قريحة سياسية يدبر أمر ملكه بالسياسة
والكياسة خلفه على الملك ابنه الاسكندر فوسع ممالكه بمهيب سيفه وذلك
ان هذا الفتى الماهر في الحروب الشجاع الممارس في الخطوب لم يعقه عائق
عن توسيع دوائره وقوحيه للبلاد وتسخيره للعباد ما يمكن وجد في طريقه بحاراً
غير مسلوكه لوانع أو صمارى غير مطروقة لعوائق أو جبال شاهقة أو مسالك
متضايقة

فقد جال الاسكندر جميع اقاليم آسيا فدخل بلاد الهند وقد شمل ملكها
المسمى يوروس وهزمه وكان يوروس المذكور قد حارب الاسكندر ارباعاً على
فيل عظيم وقد ظهر من هذا الفيل كمال القروسية فغزه الاسكندر الا كبر ونذره
لكركب الشمس المعبود عند المقدونيين وسعى هذا الفيل باسم أجاكس أحد
فحول اليونان فصار هذا الاسم معلقاً على هذا الفيل كاجل عنوان ثم حرم
ركوب ظهره ما عاش من الزمان وقد عثروا فيما بعد على هذا الفيل عينه بهد
مضى ثلثمائة وخمسين سنة وهذا استدل أرباب التواريخ الطبيعية على ان
عمر الفيلة قد يبلغ أربعمائة سنة ثم بعد ان غزا الاسكندر الهند قد شمل تحت
فارس أيضاً وورث ملكهم وكان فتوح ما تغلب عليه الجسم من الممالك أسهل
شيئاً بالنسبة اليه لاسيما ملكة مصر لانها لما كانت مستعبدة لهم داخله تحت
أحكامهم الشاقة رحبت بالاسكندر ليخلصها من ربقة الاسرافس فيها
حكمه من سنة ٩٥٤ قبل الهجرة الحمديّة فكانت مقدّة حكم القرس على
مصر حكماً حقيقياً أو صورياً بقدر المدة التي مضت بين قتيشاش الى موت
دار الثالث فكان ما بينهما من الدول المصرية غير معتبر لكون دولة القرس
كانت لهم بالمراد في المدة المتخللة بين حكمها في المرتين

(الفصل الخامس عشر)

* (في ذكر النتائج التي نشأت من حكم دولة العجم على مصر) *

عما يلج الباحث عن الآثار القديمة أنه من عند مدينة طيبة في صعيد مصر الى محلة الدكة في بلاد النوبة في مسافة خط يري عن ستين فرسخا يشاهد الانسان أن المباني المأثورة عن البطالسة والرومانيين كثيرة باقية قائمة على سوقها وأن مباني قدماء مصر من المملوك الفراعنة حاوية على عروشها لم يبق منها الا رسوم واطلال فاستبطل من هذا ان منشأ ذلك تخريب العجم لمباني الفراعنة في صعودهم وادى النيل لنهبهم الى النوبة حيث تركوا النهر بموازاة قرية نبوه وأخذوا طريقهم في العظمور لكونها أقصر من طريق النيل الصعب المسلك على الجنود لكثرة الشلالات والجنادل وهذه الطريق العظمورية الحجرية هي التي يتبعها الى الآن الركب المسافر الى النوبة لقصرها فلهذا كان الهيكل الذي بناه طوطوميس الثالث بقرب أبي جدي جنوب سبوه لم يزل موجودا ويشمال هذا المحل الى طيوه لا يوجد الا مباني مشيدة أو مجددة عمرها وأجدها البطالسة والرومان على آثار ملأهم العجم وأما مباني الفراعنة جبهة صكرو سكوريت الوالي قائما وان كانت لم تزل باقية الى الآن مع أنها على طريقهم ولم تدخل في عموم ما ذكرناه فانه لم يكن للعجم عليها سلطة لكون هذه الهياكل مضمونة في الجرف فليس في طاقتهم تدميرها فلذلك قنعوا بتعيب الهيكلين الموجودين هناك ومما لوحظ أيضا أن حكومة الفراعنة كانت عادلة لنا كان أهلها منقسمين الى طوائف لهم مدخلة في تلطيف الحكومة وبهذا تحسنت أخلاق الحكومة والرعية ففي مدة حكومة العجم استحالتم حكومة مصر الى حكومة مطلقة طاغوتية وبقيت في تصرف أمراء العجم المختلفين في درجات الجبروت والقسوة كل يفعل ما تسم به من خصيته في حق مصر وأهلها فلم تكن مصر في أيامهم في الحقيقة الا اقليما من سلطنة العجم الواسعة بل كانت أشبه شيء بحكم فارسي

ومما يظهر أيضا أن الماوية الذين هم أمنا مجوس فارس كانوا مخالفين للكهنة الذين هم أمنا دين المصريين ولما خلفهم لاهل مصر في العبادة لم

ينوا في مصر لاصنامهم وأوثانهم هياكل وانما اقتصروا على تخريب هياكل
المصريين وبيوت أصنامهم ولم يصحوا لهم الا التعبد بدينهم في محاريمهم بل
ضبط العجم أيضا ملائكة الطوائف الكهنوتية وضرروا المعابد على أصنام
المصريين في نظير اباحة التعبد بها لكونها في اعتقادهم باطلة فكانت تدفعها
لاصنام الفرس الحاكين لكونها في اعتقاد الفرس صحيحة وفي الواقع ونفس
الامر لم يكن هنالك تماثيل بين فارس ومصر لاني الهياكل والتماثيل ولا في
الكتابة الفارسية ولا المصرية القديمة بل كانت بينهما المباشرة في ذلك كلية
أصلا وفرعا

ومما يلاحظ أيضا ان حكومة الفرس بقيت في مصر محافظة على زيهم في ملابسها
الفارسية كما بقى المصريون محافظين على زيهم في اللبس ولم يمنعهم الفرس
من ذلك ولم يوجد على المباني المصورة صورة أحد من أهل فارس على صورة
الفرس وانما وجد مصورا عليها صورة أهل فارس الاولى في الحروب التي
اتصرت فيها عليهم قدام ملوك الفراعنة

كذلك لم يعتبر بأحد من ملوك الفرس دفن في مصر أبدا وانما قد عثر على
مقابرهم في رساتيق قصور مدينة اصطخر فان أهل فارس كانوا تابعين لاصول
زردشت متبعين بها فكانوا يصرون أجسام ملوكهم ليدفنوها في بلاد فارس
لاقتضاء قوانينهم ذلك ولومات ملوكهم في أعيان بلد فقد نقل قبيشاش جنة أبيه
كورش من الشام الى مدينة اصطخر كرسى بلاد فارس ليدفن بها وقد زاره
هنالك الاسكندر الاكبر حين مر وره تلك الجهات وكذلك أمر الاسكندر بدفن
دارا في مقابر أسلافه فارس ومقابر ملوك الفرس مبنية في جبل بفارس يسمى
الجبل الملوكي كما ان مقابر ملوك مصر التي في طيبة بالصعيد مبنية على ربوة عالية
في المحل المسمى ببيان الملوك وقد استنبط بعضهم من ذلك ان ملوك العجم قلدوا
ملوك مصر في بناء مقابرهم بالجمال العالية بل قيل ان دارا الاول اقتدى بملوك
مصر في كون الملوك منهم يبنون قبره في حياته فأمر ببناء قبره بفارس وجهاز
الاشغال اللازمة لتشييده وكان مرأته أن يرى قبره قبل موته فحبل بينه وبين
ما يشتهي من رؤية قبره وهو على قيد الحياة

وقد اكتسب أهل فارس أيضا من حكمهم في مصر بعض عادات مصرية

اقتبسوها من الطوائف المصرية المنقسمة باعتبار منافعها وفنونها الى
 مراتب مخصوصة فكانت قبل استيلائها على مصر لم تنق الجهد والشرف
 لطوائفها على اختلافهم الا للقبيلة المالوكية المأجدة وكان باقي طوائف
 العجم مجردين عن التقدير والمعارف لا يعرفون الديانة ولا الفنون والصنائع
 والزينة بل كانوا اذا تلقت الخدمة العسكرية وليس لهم خبرة الا بالحروب
 ولا شغل الا بها فكان كورش ملك فارس في زمانه مثل جنكزخان فيما بعد
 في كونه صاحب قبائل مجتدة يستعين بها على غزواته حتى انه استخدم طوائف
 المغول والتتار العارفين بالحروب المهيئين لاقتحام الخطوب في جميع
 فتوحاته فكانوا يسعون معه أينما سار للقتال والمعارك بل لم يكن سعى هؤلاء
 القبائل الا عبارة عن اتجااع أُمم فارقت من الاقاليم المجدة الى الاقاليم الخسنة
 فكانت تنقلاتهم هجرات واتجاعات في محاطرات في نزولات في منازل
 راتعة

فحكّمهم على مصر وعلمهم الحكومة المستكملة وفتح أعين ملوكهم لطرف
 السياسة والرياسة ومعرفه الاحكام المتنوعة الاشكال فان مدة قتيبيشاش
 شاهدة بذلك ودلائل قطعية عليه

وبيانه أنه لما قامت في مدينة فارس قسنة عظيمة ظهر فيها سمرديوس الساحر
 وتكلم من كرسي القوس بدعوى أنه سمرديوس أخو قتيبيشاش وظهور افكه
 وخلعوه من الملك وأرادوا أن يأسوا حكومة فارسية جديدة فاختلفت
 الاحزاب في صورة تلك الحكومة وتشكيلها فجمعوا جمعيات ومجالس وصاروا
 يتكلمون فيها بالخطابات الرسمية والمقالات السياسية كل منهم يبدى
 ما يستحسنه في المشورة فبعض الخطباء أشار عليهم بترتيب المملكة المربوطة
 بالقوانين والاحكام المشروطة بالسيرة على أصول العدل بالاتقان والاحكام
 وبعضهم أشار بالحكومة الاتزامية المودعة بين أيدي الوجوه والاعيان ومجلس
 الجمهورية المؤلف من أمراء البلدان وبعضهم ارتضى الجمهورية الاهلية
 المؤلفة من وكلاء الاهالي والرعية على اختلاف الدرجات لا يختص بجزية
 الرأى فيها انسان دون انسان فلا شك ان هذه الآراء لم تكن تخطر لاهل فارس
 ببال لولا قدمهم في مصر وحكمهم فيها مدة أجيال بل تقسيم مملكة العجم

الى ايلات وعمالات وكور في أيلهم بلدا الاقل انما كانت اقتدا بملوك مصر
 في تقسيماتهم التي صار عليها في جميع الدول المعول فيها هذا التقسيم انتظمت
 احوال ممالك العجم وحسنت عندهم الادارة الكاملة والسياسة الفاضلة
 ودخل جميع اقاليمهم المختلفة تحت قانون عام واتحدت في سائر اعمالهم
 الاصول والاحكام وهذا بعينه هو اساس الحكومة السياسية على نسق
 الحكومة المصرية فقد صارت بلاد فارس حكومة ملكية بعد ان كانت
 حكومة عسكرية فالفضل في جميع ذلك للمصر المحمية

وبالجمله فاذا اردنا استخراج المنافع التي بقيت عند ممالك الامم المتقدمة التي
 قصها العجم وفضلت بها فضل المحكوم على الحاكم استتجنا ان نعدن جميع
 هؤلاء الامم التي صار عندها معلومات غنية واحكام قانونية هو السبب في هدم
 اساس مملكة العجم واستئصالها بعد ان بلغت ما بلغت في التمكن مع
 استدانتها على الطغيان والعدوان وعدم معاملتها رجايا لها بالعدل والاحسان
 فانقرضت هذه المملكة الفارسية العجيبة الظلمة وزال ملكها بمصر وأغلب
 البلدان ولم ينعها الخمسة ملايين من العساكر التي رتبها شيارش للتغلب
 والاعتصاب وكان سبب انقراضها في مصر قيام المصريين عليهم وخروجهم
 عن طاعتهم وشجاعة اليونان المعاهدين للمصريين وصلابتهم في الحروب
 وملازمهم لاقتحام هذه الخطوب وتعميمهم على هزم العجم فغلب التقدم
 الكامل على الظلم والجبروت

فانقراض حكم الفرس بمصر فتح لمصر تاريخا جديدا على نسق جديد في الوقائع
 الزمانية ومن ايا حديثه عادت عليها بالقوائد وذلك أن استيلاء الاسكندر
 وخلفائه على مصر بعد الفرس كان أخف ضررا على أهلها من حكم الفرس
 وذلك لان أمة اليونان القديمة كانت أمة عاقلة تلاثم أحوال جميع الامم
 وتوافق ادارتها لطباع ذلك الزمن القديم لاسما وان كان قد كان بينهم وبين
 المصريين سابق عهود ومحادثات جعلتهم حريبا واحدا على الفرس وكذلك
 كان بين مصر واليونان روابط محبة وشرايط مودة باشتراكهم في العلوم
 والمعارف الحكيمية والتأليف والتصانيف النافعة والقرايح الهندية
 والعقول الذكية واشتركا في الامور الدنيوية والشوكة البرية والبحرية

فكل هذه المشار كانت أوجبت الوحدة الباطنية والاتحاد القلبي

(المقالة الثالثة)

في الدول الثلاثة الاخيرة الى تاريخ أمر الملك طيوديس قيصر الرومانيين
وهي من سنة ٩٥٤ الى سنة ٢٤١ وفيها عدة أبواب

(الباب الاول)

(في ملوك الدولة الثانية والثلاثين وهي الدولة المقدونية الاولى وفيه فصول)

(الفصل الاول)

• (في بيان هذه الدولة ومدة حكمها) •

صكان ابتداء هذه الدولة اليونانية التي عرفت في التاريخ بحالة الدولة المقدونية
الاولى من ابتداء سنة ٩٥٤ الى سنة ٩٢٧ قبل الهجرة فكانت مدة
حكمها سبعة وعشرين سنة وعدد ملوكها ثلاث ورأس هذه الدولة الاسكندر
الاول الملقب ايضا بالاسكندرا الاكبر وهذه الدولة انتهت سلسلة الملوك
المصرية العائلات التي ذكرها المؤرخ مانيطون في تاريخ مصر فمن هذه الدولة
وما يذكّر بعدها الى فتح الاسلام ليس الاعتماد فيه الاعلى ما يفهم من آثار
العمارات مما هو مكتوب عليها ومفهوم منها مع ما يضم الى ذلك مما يستفاد
من كتب اليونان والرومانيين المتداولة عند الامم وما ترجم منها في اللسان
المختلفة مما يدل من الآثار المصرية على ملوك هذه الدولة مصر اعيان متخذ
من حجر الصوان وجد في هذا العهد بجزيرة أسوان مكتوب باعليه عنوان
الاسكندرا الاكبر وكذلك وجد بالكرنك مقصورة من حجر الصوان منسوب
بناؤها لتقليد أريديس أخى الاسكندر وكافل ابنه الاسكندر الثانى وكذلك
صار استكشاف بعض تصاوير بهيكل بالكرنك ولو قصر مكتوب باعليه اسم
الاسكندر الثانى ابن الاسكندرا الاكبر تدل على أنه من ملوك الدولة المصرية
مع ما يضاف الى ذلك كله مما ذكره المؤرخون في شأن ملوك هذه الدولة وبيان
الوقائع والحوادث الحاصلة في أيامهم كما ستعرفه في الفصول الآتية

(الفصل الثاني)

• (في مناقب الاسكندر الاكبر وقتوحه لمصر وبنائه الاسكندرية) •

رأى من هذه الدولة المعروف بالاسكندر الاول ويسمى أيضا الاسكندر الرومى ومع
أنه يلقب أيضا بذي القرنين لأنه غير ذى القرنين المذكور فى القرآن الشريف
فهو الاسكندر المقدونى ابن فليس ملك مقدونيا وأمه نسي ليبنائه أناط أبوه
فليس ارسطاطاليس الحكيم يرى عمدة شيبته فكان من مبدء أمره تلوح
عليه سمات النجابة ويستيق من حاله أنه سيصير يوما من الايام مقردا فى الدنيا
ظاهرا على ملوكها وأن يفعل من القنوجات العظيمة ما يحل به اسمه فى دنياه
مشاهير الرجال وقسب بقاءه بالانصران النجيبه فى الحروب والقنوجات
ولما شرع أبوه فى غزوة مدينة بيزنطيا التى خلقها القسطنطينية كان مر
الاسكندر نحو ست عشرة سنة فأقامه مقامه فى حكومة مملكة مقدونيا
ولو احقها وفى أثناء هذه النجابه اجتهد الاسكندر فى تسخير الممالك المجاورة
لمقدونيا وكانت قد أظهرت العصيان ولما صعد على سرير ملك أبيه وهو فى سن
عشرين سنة فتح شمال روم الى سواحل ايطاليا وأدخل اليونان تحت
طاعته وكانوا قد خرجوا عليه استضعافا له وظنا أنه لصغر سنه لا يستطيع
تذليلهم ودمر مملكة طيبويه اليونانية وأخذ مدنها عنوة وأقنى أهلها ولم
يستثن من قتلهم الاعاثة فندروس الشاعر ثم أعلن حرب فارس وارضاها
اليونان أمير جيوش جميع الممالك اليونانية المصاحبة له فى هذه الغزوة فنقاد
ثلاثين ألف مقاتل من المشاة وخمسة آلاف فارس من القربان وسار بهم
فامسك بلاد فارس فاجتاز بوزغاز كلبولى فهزم عسكر دارا على سواحل نهر
استولى فى أناتولى فغرض مرضا شديدا ألجأه الى الإقامة فى طرسوس زمنا
فلما شفى هزم دارا أيضا عند نهر ابازوفى اقليمى سلقفة وأقنه وفى هذه الواقعة
أمر عسكر دارا وعاملهم بأحسن المعاملة الملكية وأخذ عقب هذه
النصرة صورو صيدا وفلسطين وغزة ودخل مصر واستولى على جميعها بالحلم
والعدل واستماله قلوب أهلها وترتيب ادارتها وسياساتها القديمة على ما كانت
عليه ولم يغير شيئا من عوائد المصريين وتوجه الى كهن المشتري فى واحات

سيرة ما استجوب الكهانة ولم يظهر نفسه فعرفه الكهان وأعلنوا بأنهم يعبدون
 أنه ابن المشتري الذي أصله ككه في مدينة طيوه وأن سره سرى الى معبد
 سيرة ومع حكاية المؤرخين سفره بتلك الجهة فلا يوجد الآن من آثار القديما
 ما يدل على سفر هذا الفاتح الى الكتابة ولا بالنقش بل لم يوجد الى الآن اسمه
 مكتوبا الا على مصر اعى باب مصنوع من حجر الصوان وجلس في هذا العهد
 بجيزة أسوان ومرسوم عليه عنوان الاسكندر الاول كما سبقت الاشارة الى
 ذلك في الفصل الذي قبله ولم يبق من آثاره غير ذلك الا آثار مدينة الاسكندرية
 التي اختار موقعها في البرزخ الذي بين بحيرة مريوط والبحر الملح في غربي
 النيل

وقد كان هذا المثل قرية قديمة تسمى راقودة قد دخلت في سور الاسكندرية وبقي
 اسم راقودة نلطة بالاسكندرية بنيت على آثارها
 وقد رسم الاسكندر صورة مدينته الجديدة وجعلها على نسق المباني المقدونية
 وقد خطط محل أساساتها بالدقيق المتخرمونة العساكر بنيت أسوارها على
 هذا التخطيط وكان قطر محيطها لا ينقص عن ثمانين غلوة سهم وكان المعمار
 المسمى ديتارخس اليوناني هو الأمر بإجراء عملية الرسم بإسمه الاسكندر
 وقد عين الاسكندر بنفسه محال المباني العمومية والهيكل سواها كانت
 معابد أصنام اليونان أو أصنام المصريين وهذا دليل واضح على إباحته العبادة
 بل نص المؤرخون على أنه صرح للمصريين بإباحة ذلك يوم فتوحه فهذا
 الصنيع لم يخطر مثله لعقول العجم أيام حكمهم وهو يدل على علو درجة
 الاسكندر في الفنون وحسن السياسة والتدبير فإن معابد المصريين على
 مقتضى معتقدتهم واجبة البناء في هذه المدينة الجديدة وقد أحدث الاسكندر
 لهذه المدينة العمران حيث جلب اليها من المداين المصرية أناسا كثيرين
 تصير بهم أهله عامرة وجعل فيها محافظين مقدونية وأذن لكثيرين من اليونان
 وأهل أنطولى وغيرهما من البلاد المشرقية أن يستوطنوا بها وفتح أبوابها
 لجميع أهل الملل والدول وأعداهم كراجديد التجارة أهل المشارق والمغارب
 فصارت كذلك على مدى الأزمان فهي الى الآن رابطة لزومية ومدينة
 مركزية لتجارة أوروبا وآسيا وأفريقية بل وأمر بقة وقد رزقها الله تعالى

بفتح آخر مقدوني الاقليم بمخلد الاسم لمشروع الجسيم أشرق طالع بعده
على أفق مدينة سلفه في زمن طويل من بعده وقد كانت أن تكون في نومة
أصحاب الكهف والرقم فأعاد اليها شلبها وألبسها من الزينة اهلها وهياها
لما قصد سامية ومراصد عالية وأعاد اليها المآثر الدوائر بمقتضى أحوال
لزومية ومساعدات وقفية وتنظيمات أوروبية وهذا المقدوني الثاني
المعزود الاسم الكريم بالثاني ساكن الجنان الحلج محمد باشا على الشان
جليل البرهان أنجز دوام ما قصده الاسكندر وفواه وذلك مما تفضل عليه
به مولاه مما يعود بالمتافع الجلية على الديار المصرية وينتهي به الحال
الى تمدن افرقية والى هذا العهد لازالت هذه المدينة تزايد في درج
الكمال وببلوغ الآمال وسيأتي الكلام على معبدتقتن الديار المصرية
وبيان مفاخر الاسكندرية في الحكومة الاسمجلية المحفوظة بالعناية
الصعيدية ثم لما قصد الاسكندر السفر الى آسيا من جهة الشام ليستقر على
الغزو والفتوح قلد ولاية مصر للامير اقلبيومنوس وسار هو حتى دخل الى
آخر حدود آسيا وفي عودته من مصر الى آسيا اتصر على دار النصر الاخرة
بقرب مدينة اربل جهة الموصل وكان ذلك في سنة ٩٥٣ قبل الهجرة
الحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية

(الفصل الثالث)

(في ذكر واقعة أربل)

كانت هذه الواقعة ختام دولة الفرس في حكمهم على الممالك المتكاثرة
وبيان ذلك أن جيشي مقدونيا وفارس كانا متباينين عددا وبطشاق كان
جيش دارا مؤلفا من ستمائة ألف من العساكر المشاة وأربعين ألفا من الخيالة
وكانت عساكر الاسكندر لا تزيد على أربعين ألفا من المشاة ومن خمسة آلاف
الى ثمانية آلاف فارس واسكن عساكر الاسكندر كانوا أرباب شهامة وقوة
حماسية وأما العجم فكانت جنودهم أقواما متجمعة وأخلاط مستهجنة
وهما مستهجنة لاجنودا مجذرة بحيث لم يتكون منها جيش منظوم مؤلف
من كذا أبطال وساعة فحول رجال

وكانت تعبئة الجيشين على شكل واحد فقد رتب كل من الفريقين جنده صفين
 فجعل الاسكندر الفرسان جناحي جيشه مهيئة ومبسرة والمشاة قلبا وكبداله
 وجعل ضباط المشاة والفرسان تحت قيادة ملوك الطوائف الذين جاؤا معه
 من محالكمهم وجعل الحكام والامراء ارباب الرياسة العالية من أخصاء
 الملك وأمنائه وجعل الفرسان مواجهة صفهم محصنة بمائة عربية حربية مسلحة
 بالمشير والمناجل وخمسة عشر فيل امركوبة بالعساكر وكان مستقردا رايهم
 في مركز الصف الاول محررسا بالحراس الملوكة المنتهزين من شجعان جنده
 وبالعساكر اليونانية المستنظمة عنده بوجاق العساكر المشاة عن ادخلهم
 في خدمته لما عهد فيهم من الحماية ومقاومة يونان المقدونية المزعجة
 ولما رأى دارا أن صفوف عساكره أكثر امتدادا وانباطا في الصف من
 عساكر الاسكندر أضمر أن يقتنم فرصة ذلك بالاحاطة على صفوف عساكر
 الاسكندر ليحصرهم من جميع جهاتهم ويأخذوهم غيلة من كل جانب ولم
 تفت هذه المكيدة الحربية الاسكندر بل تداركها حيث أمر حاكم الصف
 الثاني أنه اذا هجم عليه عدو ومن الخلف يدير وجه الصف اليه ويقاومه
 أو يرتب عساكره متقاطعة تقاطعا صليبا في حالة ما اذا جاء العدو للهجوم
 على جوانب الصف ووضع الاسكندر لقصين أكثر عساكره المقوسين
 والمقلابية ورماة التبال والايغار في واجهة الصف الاول لمقاومة العدو
 ورد عرباته المسلحة بالمشير والمناجل ولارباب خيل تلك العربات وتغيرها
 بنساق السهام والتبال والايغار على وجهها كالمطار السماء وأمر الاسكندر
 قواد جناحي جيشه أن يقدوا صفوفهم امتدا واسعا بشرط أن لا تضعف قوة
 الصف بالمتوالا تشاروقا وجعل أيضا في المعسكر بعض قراقرلات لحفظ
 الخنازير والامتنعة وللمحافظة على أسرى الفرسان المسجونين فيه وكان من
 جلبتهم أم دارا وأولاده وجعل امارة مينة الجيش لنفسه وامارة الميسرة
 للامبربارميون

فلما تقابل الجمعان تبين للاسكندر أن دارا دبر له كينافا في موقع من المواقع
 فانها زعته الاسكندر واجتبه ووسع جيشه على البعد من هذا الكمين جهة
 اليمين ليأمن من هذه المكيدة فكان الهجوم يرضون على جيش الاسكندر بحسب

حركة جيشه وموقع عساكره ثم أدرك داراً أن القصد من حركة جيش الاسكندر
انتهى زحمة جيشه من المل الذي أصله بالتسوية الى أرض مصرية
بالارتفاعات والانخفاضات لتنعى عربة المسلحة وتجهزها عن المسير فأمر
فرسان الجناح الايسر الذي هو أبسط وأوسع من جناح جيش الاسكندر أن
يتقدموا أمام الجيش وأن يحيطوا بجناح جيش الاسكندر ليعنوه عن
الانبطاح والاتساع زيادة عما هو عليه فلما أحس الاسكندر بذلك منهم بعث
فرسانه بصددهم عن ذلك على قدر الامكان فأنكسرت عساكر الاجماع وانضمت
ثم حلت على العدو حلة عظيمة والتعم القتال

وكن عساكر الهجم أكثر عدداً وعدة من عساكر المقدونية وأجود سلاحاً وخيلاً
ومع ذلك فعساكر الاسكندر تجللت وتثبت أمام العدو حتى كادت وتعبت
من مطاردة فرسان الهجم ثم أخذت في الثبات والبسالة فوق طاقاتها وتغادرت
على ذلك فألحقت فرسان الهجم الى الفرار

ففسدت ذلك أطلقت الفرس عربات ذات المناشير والمناجل على مزراجية
المقدونية فاصدة اختلال نظامها وتبدد شملها فكان ذلك أيضاً بدون طائل
لأن المزراجية صارتوا عند ذلك يدقون بأسنة رماحهم على درقاتهم فصعدت
عنها قفعة عظيمة صوتهما من عجب للقبول وجعلت ترمى النبال عليهم من كل
جانب فهذه الوسيلة جعلت الخيل ورجعت ناكسة على أعقابها فهاجمت
على عساكر أصحابها فأوسقتهم جراحاً وجعلت كيدهم في قلوبهم وتعرض
عسكرا الاسكندر لبعض عربات الهجم بالقبض على زمام خيولها فأوقفوها
وأزروا من فيها وذبجوه على محله وبعض عربات الهجم دخلت في الانفرجات
المختلة بين الصفوف التي أمر بانفراجها الاسكندر بعبورهم فاستولى عليها
المقدونية بدون أن تضرهم في عبورها بشئ

وقد فهم الاسكندرون داراً أنه يريد أن يدبر حركة أخيرة ليهجم على جيشه
بجميع جنوده دفعة واحدة فنهض الاسكندر من هذه الجملة على جنوده لقاتلهم
وكثرة عدد العدو وخاف أن ينهزموا بالرعب حين الاتساع عليهم فذبح حلة
لاحياء قلوب عساكره واتعاشهم وكان معه بالعسكر شخص يحسن العرافة
وزير الطير يسمى أرسطاردة فأمره الاسكندر أن يلبس حلة العرافة البيضاء

ويقبض بسد على غصن من شجر الغاروين ير الطير ويشير باليد في أشباه
الخطر والتردد في القطر دنا هذا العراف من الجيش ووقف في مركزه وصاح
بأعلى صوته معلنا البشارة فأتا للاح إلى أن عقابا باسطا جناحيه على رأس
الاسكندر وهذه بمقتضى التجارب عندي دلالة باهرة على النصر والتأييد
وها هو العقاب يرى من أبصاركم وأشار بأصبعه إلى جهة السما فأخذ
الجميع أبصارهم وشخصوا إلى ما أشار إليه وتخيّلوا أنهم رأوه بالأبصار فدبت
في عروق أبدانهم النخوة ودخلهم الحماس والفتوة فعادوا بالجملة على
عمدتهم بقوة ونشاط وبسالة وشجاعة وسرور نفس وانبساط وشقوا
صفوف الأعداء ومزقوهم كل ممزق وشقوا شمل فرسانهم فلما رأى الملك
ذلك لحقهم بنحوص جيشه وحرسه وتم هزيمة الأعداء من جناحهم الأيسر
وسقاهم في الوغى كأمس الموت الأحمر فلما تمت عليهم الهزيمة رجع الملك
القهرى حيث لا موجب لاقتفاء آثارهم ثم انعطف بالجملة على الفرقة التي
كان فيها دارا فلما التقى الصفان وكان كل من الملكين يرى من صاحبه
ومسمع قويت عزيمته الجندين وتحركت همة الجمعين وقد كان دارا راجعا
عربته مسلحة وكان الاسكندر أيضا راجعا على ظهر حرواده وحوله حرسه من
فحول ورجال أجناده عن يديه بنفسه فاشتد القتال وانشع المجهال وسالت
الدماء في ميدان التزال وقد فوق الاسكندر سهمه وسنانه قطع بذلك
ركاب دارا الملك دارا فخرق الطنون أن دارا هو المطعون وكثر اللفظ بذلك
ودارت اللسنة أن دارا لا محالة هو الهالك فشدوا عليه النكير ودعوا
هنالك شورا حيث هو قد صار من القادمين على منكرو نكير فاختل نظام
جيوش الجعم وفزع أمارب دارا وأحبابه حيث أيقنوا بالتلف والعدم وفارقه
كل من كان على ميسرة عرته لظنهم موته وأما من كان على يمينه فقد علم
الحقيقة فبادر بأخذه وتوصيله إلى مركز جنوده ليكون في أمن عليه وأمان
والطمئنان من غائلة الطعان فلما رأى دارا أنه معرض للخطر وأيس من بلوغ
الوطر سئل خنجر من غمده وهم يقتل نفسه ومفارقة جنده وما جده على
هذه العزيمة الاتخوفه من عار الهزيمة التي هي عند أهل الحروب مثلبة
ذميمة ثم رأى أيضا أن عساكره لم يزل فيهم الرمي ويعلم ساعدتهم الدهر والتأم

نملهم المرقق فاستحي أن يتركهم وحدهم لحومة الميدان ويشاركهم مفارقة
الجبان فاستبق على نفسه ولم يسع في تجهيل حوله برمه وأما جمعه فكانوا
بين الرجاء والخوف فارتخت أقدامهم شيا فشبها فاقترحت صفوفهم وأرغمت
أنوفهم فلم تكن هذه واقعة قتال بل كانت مذبة كلمة الاختلال فلما
أيقن دارا أن جنبه قد حان وأنه قد آمن الدهر نغان عطف على وسائل النجاة
وعول واقفى جنده أثره وأولوا صريح ما لم يتأول وقترقوا في القلعة طالبين
النجاة فاقفى الاسكندر أثر مسائرا الى اربل فلما أن يبعد داراهنا لمع
أبصاره ونظفر بذخائره ومناعه فوجد أنه ترك الخزان ماله غنية بل ترك
قوسه ودرقه واخفى غيب هذه الهزيمة

فهذه آخر هزيمة للفرس ونصرة للمقدونية خسرت فيها العجم سلطانهم الباهرة
ودولتهم القاهرة فقد قال المؤرخ أريانوس ان العجم هلك منهم في هذه
الواقعة ثلثمائة ألف نفس غير الاسرى وهذا ان لم يكن صحيحا فلا أقل
من كونه يبدل على ان خسارتهم كانت جسيمة جدا وأما ماجند الاسكندر فلم
يهلك منهم على ما قاله أريانوس الا نحو ألف وماتت نفس أكثرهم من القرسان
وهذا أيضا من باب المبالغة التاريخية في القلعة من طرف مؤرخى اليونان
وفي الحقيقة كانت هذه الواقعة بقرب محل واقعة أيزو في سهل بالموصل على
مقربة من مدينة اربل فهذا اشتهرت هذه الواقعة بهذا الاسم وهو واقعة
اربيل

ثم لازال الاسكندر يقفوا أثره من محل الى آخر ليعلم خبره وأين مستقره
فوجدته قبلا قريسا من دمعان باقليم اذربيجان فأسف عليه كل الاسف وعلم
أن قاتله أحد قواده حيث لم يوافق دارا على الهروب وارتكاب أكبر
الذنوب فصنع له جنازة عظيمة ملوكية ورجع من حيث أتى لمقاصده
الخصوصية وأول شئ فعله الاسكندر بعد النصر والفتوح تقربب القرى
وذبج النبايح وشكر الله واطهار التهانى في الغبوق والصبوح ثم أنعم
بالصلات والعوائد والمنح الجزيلة القوائد على جميع من امتازوا في الواقع
من الابطال وحازوا لقب السبق في حومة التزال فقد منحهم أيضا
المنازل والتصور والمنصب والوظائف وجعلهم من ولادة الامور ولما

كان شاكر الفضل أم اليونان حيث قلده الامارة العظمى على عموم جنودهم المختلفة باختلاف البلدان ومنحوه الرياسة العمومية على سائر الجيوش اليونانية أمر برفع ما كان عليهم من التكاليف واستمال قلوبهم اليه وألفها أحسن تاليف وأعاد لهم ما سلب منهم من الخصاص وأمر بالمزايا وسرر مدنيهم وأعتقها ورفع عنها المغارم ومنحها بالعطايا وبالجملة فقد أظهر للجميع ميله الى الفضائل وجبه لاجلها مكارم الاخلاق وامانة الرذائل وأنه أهل وقار وامانة وصاحب عناية وصيانة وقيام بإداء الواجبات والحقوق ومحبة البر ومبغض للعقوق لا يميل عن العدل والاحسان ويجب أن يقتدي به في ذلك كل انسان وبالجملة فقد كان يسلك مع رعاياه سبل الفضائل ومكارم الاخلاق حتى اشتهر بالمكارم في سائر الاقاق

(الفصل الرابع)

• (في دخول الاسكندر الاكبر في مدينة بابل بالعراق ووفاته بها) •

قد سار الاسكندر فاصدا مدينة بابل حتى لم يكن بينه وبينها الا فرسخ ونصف واذا بعشائر أهل العراق الذين كانت لهم يد في رصد النجوم خرجوا اليه من المدينة وغتلاوا بين يديه وأخبروه بأنه ظهر لهم من التنجيم ومن علوم أحكام النجوم القديم أن دخوله بعد سنتهم يعود عليه بالخطر وأنه يموت بذلك كما بداهم من الطوالع وظهر ورغبوا كل الرغبة أن ينصرف عنها الى غيرها من المداش فمطعم من ذلك وتشامم ولم يدروا أن المقدركاثن فبعث بعض أمراءه الى هذه المدينة وسار الى معسكره وقد أضعف شك التنجيم بقيته فوصل الى معسكره بعد مئتي عشرة أيام وكان في المعسكر جماعة من حكماء اليونان العظام فقد مواعليه للتهنئة والتبريك وعلوا ما في نفسه من الوسوسة والتشكيك وأنه عدل عن دخول بابل لما أوصحه المنجمون من الدلائل فأقاموا الخليل والبراهين على أن أحكام التنجيم مجرد دعوى ليس تحتها طائل وأن زعم الاطلاع على الغيب من قبيل افك بدون شك ولا ريب وأن تنجيم أهل العراق من قبيل الزندقة والتفاني فطمع في السير الى بابل مع جميع جنده وكان قد بلغه قدوم الوفود من جميع بلاد الدنيا اليها وانهم ينتظرون

قدومه فخذ السير بكل جهده فلما فرح بذلك واستبشر وزال عنه الوسواس
والشر طر ح قول العراقيين وراءه نظريا وصار التشاؤم من قولهم نسبيا
منسيا ودخل هذه المدينة التي هي مركز الجمعية العمومية مع غاية الابهة
والطنطنة المشرقية ثم تقابل مع سفراء الملوك العظام وأظهر الشحم وعلو
الشأن مع الترحيب والاكرام

ومكث في بابل نحو سنة يجتذفها الاعياد والمواسم والضيافات والولائم
ولم يجد عن طريق الصواب بشئ من أنواع الظلم والارتكاب ما عدا
ارتكاب اللذات والانهماك على الشراب فينجا كان ذات ليلة في مجلس
اللذات والشهوات اذا سرف على نفسه وأفرط في السكر والمقدرا لشذات
فالتسوا منه في مجلس الشراب اعادة الحانة والمداوم وأن يشرب على صحة
كل واحد من النداءى فحوجام وكانوا نحو العشرين أنيس كل واحد منهم هو
نديه له وجلس فأجاب هذا الالتباس وشرب العشرون عن حجة كل واحد
كأس ثم استدعى بقدر كبير المقدار يسمى هرقلوس الجبار بسع مل است
زجاجات فشربه مرتين وأراد أن يظهر النبات فوق مغشيا عليه وانكب
على حياء فأصيب في الحال بشديد الحى فهاخأه أحد ولاحياء بل نقلوه
في فرشه فاقد الشعور فلازمتة الحى المتقطعة بالمرور والعبور فكان
اذا فارقتة الحى يأمر وينهى بما يخص ارسال الجنود المقدونية لجهات
الغز و برية وبحرية فلما ان زمان مرضه قصر وأن أمره الى استكمال
قتواته وحفظها يصير فلما رأى أن حياته على شفا وأنه قد أيسر من البرء
والشفا وأنه قد ضعف حواسه وانقطعت أنفاسه خلع خاتم من اصبعه
وسله الى الامير برديقا وأوصاه أن ينقل جسده الى هيكل المشتري بواحات
سيوة ليدفن هناك بين الاصنام لابين الناس ومع أنه كان على آخر رمق
فكان يظهر التجلد والقوة فقد أسند ظهره ذات يوم على وسادة ومثبه
يقبلها جميع الجنود حسب العادة فسأله بعض كبار دولته عن خلقه على
هذه الملكة الجسيمة فقال خليفتي عليكم أهلكم بحفظ ناموس الملك
والطريقة المستقيمة ثم قال انى لارى انه لا بد أن يقع بينكم القتل

والشقاق وأن لا يكون بينكم اتحاد واتفاق وسأله بعضهم متى تعتك من
 يجبل ويعظم وفي سلك أقطاب الكون وعقدتهم المنظم فأجاب لا أستحق هذا
 الاحترام الا اذا ساعدتم يعدي واتظم بملككم أحسن نظام فكانت هذه
 العبارة آخر كلامه ونهاية ساعاته من الدنيا وأيامه توفي وعمره ائذئلك اثنان
 وثلاثون سنة وثمانية شهور وهذا أصح الأقوال والمشهور وحكم منها
 اثنتي عشرة سنة ألا الى الله تصير الامور وكان ذلك سنة ٩٤٦ قبل هجرة
 بدر التمام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام

(الفصل الخامس)

فيما ترتب على موت الاسكندر من تقسيم ممالكه بعده ومن حكم مصر من ذويه
 لما كان قد فتح الاسكندر الممالك العظيمة وأدخل ممالك آسيا تحت حكمه
 اشتمر في البلاد الشرقية بكلال الرجولية والشهامة بل جل في الاعين من
 جهة كونه فاتح البلاد الدنيا وصار له احترام وتبجيل حتى قيل ان نصرته
 السريعة خارجة عن طوق البشر وانهم من قبيل العناية الالهية فكانت
 سطوته موجبة لصداقة الامم التي استرعاها واتقياها بالحكمة مدة حياته
 وكان يظن من هؤلاء الرعايا وملوكهم القيام بحقوقه بعد موته وبقيامهم تحت
 دولته فلما مات فجأة لم يبق شيء من ذلك وكان أمر الله قدرا مقدورا
 ومن الهزب ان الحقوق المكتسبة بالقوة القسرية تزول بزوال تلك القوة بل
 متى تجددت قوة أخرى غالبت افاقتها استزع بهذه القوة أي تكسب الحقوق بمثل
 ما كانت اكتسبت أولا حيث ان العلة تدور مع الماعول وجودا وعدما
 فالحقوق التي اكتسبت بالقوة القهرية تزول بالقوة القهرية فكما لعب
 الاسكندر في ميدان حروبه باسترقاق الممالك والمالوك وامتد بحكمومة هذه
 الممالك وأعدا حقوقا للجمع أن مبني ذلك على التعدي والتسلط بالقوة عوقب
 بنزعها من ورثته وورثائه بل الذي انتزعها منهم بقوته هو من شارك في العمل
 والتقلب وأعانته عليه

ولم يعقب الاسكندر وارثا ليرث ملكه يصلح لان يحفظه محال ولو على مملكة
 مقدونيا الموروثة عن آباءه فضلا عن أن يحفظه على الممالك المتكاثرة فان

الاسكندر لم يكن له من الاخوة الا أخ لا بعيد عن فليس أريد يس وكانت أم هذا الولد نبنة الاصل فأخذها فليس أبو الاسكندر ورزق منها بذلك الولد وكان للاسكندر أيضا وادمن زوجته باريسينه بنت دارا اسمها هرقلوس وصكانت زوجته التي مات عنها وهي روشنك بنت ملك همدان من بلاد الهند حاملا ومشفرة على الوضع فكان يحفل أنهم الوضع ذكر ايرجى أن يحفل أباه فكانت ولاية العهد منحصرة في شخصين محققين وثالث مظنون

فأما أخوه فليس أريد يس فكان معلوما حاله وأنه غير مقتدر على حمل أعباء الملك الجسم فلا يصلح للخلافة على عماله وكان ابنه من باريسينه لا تجربة عنده ولا سبق له معرفة بسياسة ولا رياسة ولم يكن محققا ذكورية الحمل الملوكي وعلى فرض وجودها فالخا كم في الحقيقة هو وصيه وحكومة الوصي ضعيفة نظرا للوقت والحال حيث أن موت الاسكندر كان بفترة بعد استيلائه على ممالك متكاثرة وخضوع ملوك قوته له فلا يقوم مقامه على هذه السلطنة العظيمة وصى على طفل صغير بل لا بد في حفظ هذه الممالك المختلفة المتباعدة من ملك عظيم صاحب بأس خطير موصوف بجميع صفات الاسكندر الصالح لها

فلما اتحد جميع قواد جيشه وأمر امرأته وأعيان دولته واتفقت كلمتهم وكانوا على قلب رجل واحد لهان هذا الخطيب الجليل واقتروا على وجه جميل واكن ترتب على أطماعهم اختلاف الكلمة ويحقق ما أخبر به الاسكندر قبل وفاته من حصول الفشل والمشاحة بينهم وذلك لانهم كانوا جميعا ما بين أرباب مجده أثيل ونسب عريق وأمايزات بجده امارات ملكية وامارات عسكرية ويضاف الى مجدهم التلبذ والطريف كون الحكمة الالهية زادتهم بسطافي الاجسام والعقول وكان عن امتاز منهم بهذه المحاسن والعطايا وفاق على أقرانه بالخصائص والمزايا عتة أمراء وهم
برديشا واليونان وأنطباطير ولوزيمك
وبوطون وبوطسطن ونيارخس وبطليموس

ففي غداة موته اجتمعوا حول سريره ووضعوا على ذلك السرير علامات الملك الخصوصية وسلاح الاسكندر وعقدوا مجلسا وتذاكروا فيه من خلقه

فرأى برديقاً أولوية ابنه من زوجته ووشك القريب الولادة ورأى يبارخص
 ان الذي يصلح لذلك هو ابنه الموجود المرزوق لمن بابيسينه بنت دارا وقد
 سبق أن هذا الولد يسمى هرقولس فنقض بطليموس كلا الرأيين ولم يستحسن
 تولية واحد من العليين قاتلاً انهما من اسباط ملوك العجم فاذا قلنا الملك
 لواحد منهما فكأننا سلطنا بأنفسنا ملكاً مقدونية للولك فارس ثم قال الاحسن
 أن توضع ادارة سلطنة الاسكندر في يد مجلس. ولف الاعضاء من أعيان قواد
 الاسكندر فيجتمعهم سدا ولون في هذا الرأي اذ ابصوت جهوري يسمع من
 خلال المجلس هانحن نبائع أخا الملك خليفة على سلطنة أخيه ونلقبه فليش
 وكان هذا الاسم مألوفاً عند أهل مقدونية وقد عضد هذا الرأي رئيس الجنود
 المشاة فاختلقوا على هذا الرأي ورفضه أكثرهم واجتهدوا في عدم تولية
 أخيه واستعانوا بفرسان الجنود فلم يجد ذلك شيئاً بل ظهر فليش أريد يس
 أخو الاسكندر وعليه الحلة الملوكية وترى ملك العجم قبايعه السواد
 الاعظم والجهور من الاهالي والجنود على أنه وارث الاسكندر فوزع الايلات
 والمناصب الملكية على الضباط ومشاهير الرجال لاسماعيل من كان مقبولا
 منهم واشتغلوا بتخبط جثة الاسكندر وتصبيرها وكان لم يرل طر سحا على فراشه
 محروما من الدفن مدة سبعة أيام وفي هذا المجلس قلدوا بطليموس نائبا على
 مملكة مصر وما يضاف اليها من برقة وبلاد الغرب المتاخمة لها وبعد فليش تولى
 الاسكندر الثاني تحت كفاية يطون فتكون عدة ملوك مصر التي من الدولة
 المتدونية الاولى التي هي الثالثة والثلاثون ثلاثة وهم
 الملك الاسكندر الاكبر وقد سلف ذكره

(الفصل السادس)

(في الملك ارهيد فليش)

يسمى هذا الملك ارديدس فليش وهو أخو الاسكندر من أبيه وفي الحقيقة لم
 يكن الابن فليش من السفاح تولى ملكه قدونيا بالاشتراك مع ابن أخيه
 الاسكندر الثاني ولم يكن له في المنصب الملوكي على مقدونيا الا مجرد اللقب
 لا التفوذ الحقيقي فكان ملكا في الصورة فقط وكان المتسلطن على ممالك
 مقدونيا في الحقيقة الامير بردا قاومى الاسكندر على مملكه وذلك لان

الاسكندر حين حضرته الوفاة أحضر أربعة من أمراء جنوده الذين هم من
 ملاوك الطوائف وجعلهم أوصياء على تقليد ممالكهم بسحقها فتغلب الأمير
 برداقا على ختم الاسكندر عند موته واجتهد في أن يستولى على جميع الممالك
 وطمع في السلطنة وكان للاسكندر الابن أكبر أخت تسمى قلوبطره فتزوجها
 الأمير برداقا فتعزب عليه أربعة من ملاوك الطوائف ومنعوه من ذلك وكان
 بطليموس اذ ذاك نائباً على مصر من طرف ملك مقدونيا فصار برداقا قاراً من
 المختصين إلى مصر طمعاً في أخذها من بطليموس حيث يقس هو من السلطنة
 على مقدونيا فالتحم القتال بينهما بقرب مدينة منف فانهم زمر برداقا هناك
 ومات غرقاً في نيل مصر
 وأما فليبس أرهيدس ملك مقدونيا فقتله لينبأه زوجة الاسكندر لسبع
 سنين من حكمه فكانت توليته في سنة ٩٤٦ وموته سنة ٩٣٩ قبل الهجرة
 وانقرضت مملكة مقدونيا الاسكندر الثاني

(الفصل السابع)

(في الملك الاسكندر الثاني ابن الاسكندر الأكبر)

هذا الملك هو ابن الاسكندر الأكبر من زوجته روشندن بنت ملك همدان
 تلقب ملكاً في طفولته في أيام ٤٠ فليبس أرهيدس ثم بعد موته انقرضت الملك
 الصوري وكان النفوذ اذ ذاك للامير انطباطير أحد الاربعة الاوصياء بعد
 موت انطباطير دخل الاسكندر المذكوّر تحت وصاية الامير بطون أحد
 الاوصياء الاربعة توسط بطليموس نائب مصر فعند ذلك قام ابن انطباطير
 المسمى كسندره على الاسكندر المذكوّر فقتله وتغلب على مملكة مقدونيا
 وقتل لينبأه أم الاسكندر أيضاً وحمل الناس على المبايعة له على المملكة في نحو
 سنة ٩٣٣ قبل الهجرة فيكون مدة حكمه انفرادت سنين ثم ان كلا
 من فليبس والاسكندر الثاني كانت مصر في قبضتهما بالتبع لمملكة مقدونيا
 كالاسكندر الاول فان لهما آثارا بمصر فالت على ذلك فقذف فليبس أرهيدس
 مقصوراً جيلة من حجر الصوان بهيكل الكرنك وهي في وسط مقصورة أخرى
 من انشاء الملك بطولوميس الثالث امام محراب هذا الهيكل وكذلك قد وجد
 بعض نصابير بهيكل الكرنك ولو قصر مرسوم عليها اسم الاسكندر الثاني

فهذا كله يدل على ان قليش والاسكندر الثاني كانت لهما اليد العليا على مصر وجعلت الاسكندر الثاني انقضت الدولة الثانية والثلاثون وكانت مدتها سبعة وعشرين سنة وحفظتها الدولة الثالثة والثلاثون التي هي الدولة اليونانية الملقبة بدولة البطالسة

(الباب الثاني)

في ملوك الدولة الثالثة والثلاثين وهي الدولة اليونانية المسماة أيضا بدولة البطالسة وفيه فصول

(الفصل الاول)

* (في تأسيس هذه الدولة ومالهامن المناقب) *

قد أسلفنا أن الامير كسندره بن انطاطير قتل الاسكندر الثاني ملك مقدونيا وقلب على مملكته وجعل الناس على المبايعة له وان ذلك كان في سنة ٩٢٢ قبل الهجرة ثم بعد مضي نحو ست سنوآت من قلبه اقسام ممالك مقدونيا مع بطليموس نائب مصر وكان ذلك في سنة ٩٢٧ قبل الهجرة ومن ذلك الوقت صارت مصر في قبضة البطالسة مملكة مستقلة لا مشارا لئلهم فيها ولا منازع ثم انضم اليها مملكة قبرص والقيروان عقب حروب عديدة كما انفصلت عنها هذه الاقاليم واتصلت بها ممالك اراضيها بالحروب المترددة وأما ملك مصر الحقيقي يعني ملك الديار المصرية فقد بقي في أيدي البطالسة ثلاثة قرون متوالية مع حفظ الحدود الحقيقية المصرية فكان تأسيس دولتهم سنة ٩٢٧ قبل الهجرة وكانت هذه الدولة عبارة عن بقية الدولة اليونانية وانما انفردت عنها لاستقلال ملك البطالسة بملك مصر ومضافاتهما حيث لا رابطة لمصر بمملكة مقدونيا ولا غيرها من بلاد اليونان لاسيما بعد استبداد بطليموس الاول بحكومة مصر وعقب السبع عشرة سنة التي كانت عبارة عن فاشطامية وان كانت مدتها في الحقيقة استقلالية فعلا

قد تحققت غرات فتوح الاسكندر وبدا اصلاحها في مصر وظهرت فيها شوكتها وبهجتها ولكن لم تظهر نتائج عقل هذا الفاشط المقتوفى وآثار فكره الا في

أيام البطالسة بالاصالة وبعد هم بالتبعية فان ادخال المعاملات التجارية
والعارف أوجبت اتحاد المشرق بالغرب كما تخيلته قريحة الاسكندر
وتصورته فطنته

(الفصل الثاني)

(في الملك بطليموس الاول)

أول دولة البطالسة بطليموس الاول الملقب سوطير يعني المخلص وقد وقعت
مصر في نصيبه حين مقاسمة ممالك الاسكندر بين ماولك الطوائف وكانت مصر
أعظم ممالك الدنيا وأرجحها وأبهجها وكان لاغوس أبو بطليموس من قواد
فليبس أبي الاسكندر فاشترك بطليموس من أيام شببته في الحروب مع
الاسكندر واقتسم معه الخطوب فرفع قدره حتى صار رئيس فرسانه وخدمه
بالصدقة في جميع غزواته حتى تولى بعده وفاته حكومة مصر فصارت مصر
من ذلك الحين حكومة مؤلفة الالهالي ما بين مصريين ويونانيين
قال بعض المؤرخين كان بطليموس اللاغوسي يعرف اعتبار مصر ومقامها
وامتيازها بين الممالك وكان محتصا من دون ماولك الطوائف بالعدل
والاستقامة منزها عن طماعية النفس لا يخطر له يال التغلب على سلطنة
فارس ولا أن يقلد الاسكندر ولا أن يحلقه على ممالك بخلاف أقرانه وانما
كان يتدخل عند الاقتضاء في مصالح الدولة الفارسية لقمع مطامع غيره فقط
فكان دائما على حذر من طمع النفس كما كان محترا من طمع غيره في مصر
فلذلك بقيت مصر محفوظة الساموس لم يبلغ أهلها أحد من ماولك الطوائف
في سلبها من بطليموس

فأول ما حكم بطليموس مصر أحسن التدبير والسياسة واستقال عقول جميع
الالهالي المصرية وقد كان اذا التبرديقا وصيا على مملكة فارس ويده الخل
والعقد وكان بطليموس يعهد عنه الطمع في الاستيلاء على مصر فأخذ الحذر
منه وجهز جنودا عظيمي العمالة وعضد مملكة بمعاهدة الماولك الخارجية
وتحالف أيضا مع الامير أنطيباطر والى مقدونيا وهاهره وبينها هو يدبر أمور
مملكته ويقيم دعائم حكومته ويقوى روابط شوكة اذ لاحت له الفرصة في

ادخال جمهورية القبروان بالجمهات المغربية تحت حكمه لما قامت فيها قسنة
عظيمة بين الجمهورية والاها الى قلب الجمهور والاعيان رعاياهم ونفوا أصحاب
الاملاك من مدينة القبروان فزلوا مصر واستجاروا ببطليموس فأحسن نزلهم
وأجارهم حيث انطلق منهم بجنود كافية وسفن حربية وافية فهزم ذلك
الجمهور واستولى عليها وأضافها الى مصر وعاد الى مصر حكومته معصوباً بالهناء
والسرور

وكذلك انتهز فرصة أخرى زاد بها رفعة وغرأ وهي ان الامراء المصموموا على
نقل جثة الاسكندر الى مقدونيا وأحسن بطليموس بذلك بادربالسير الى بلاد
الشام بجنده مظهر ائدية آخر واجب لسيده وبمجرد وصوله وخروج
الجنائز لاذهابها الى مقدونيا استولى على تابوته ورجع به الى الاسكندرية
وبنى له هيكلاً عظيماً وصنع لجنائزه محفلاً جسيماً يسبق بمثله فهذا أحبه
جميع الاها الى ودنامته الخاص والعام وكان دأبه تأليف القلوب فهرع
الناس الى الاسكندرية وجاء اليها القاصي والدان من جميع الاقطار ورغب
الجميع في خدمة بطليموس واتظامهم في زمرة جنوده فحسن حال السائس
والمسوس وفي هذا الوقت بعينه خطر ليرد بقاء أن يغير على مصر فهم عليها بجحيلة
ورجله فانهم عند عبوره بالنيل فقتله جنوده وأغرقوه وقد كان ببطليموس
قادر على أن يأخذ مقدونيا بعد قتل برديقا لما كان له فيها من الاحزاب
والاحباب ولكن أثر بها صاحبه يطون على نفسه فأقامه وصيا على أرهدس
وبقى أرهدس ملكاً تحت كفاته

ولما كان ملوك مصر في سائر الازمان يرغبون في اضافة قبر الشام الى مصر جهز
لذلك جيشاً وبعث من قبله قائد التغلب عليها فاستولى قائده على أصول مدن
السواحل الشامية ولكن لم تمكن تحت يد بطليموس مدة طويلة بل أخذها
منه أنطيفونس أحد ملوك الطوائف بعد هزمه هزيمة متلفة ولكن انجبرت
خسارته في هذه الواقعة بما اكتسبه بالاستيلاء على جزيرة قبرص واعادتها
الى حكمه بعد خروجهما عليه وباستيلائه أيضاً على اقليم أدنة وما جرى له ثم ان
دمتريوس بن انطيفونس قصد مصر أيضاً فاستشعر بذلك بطليموس فسار اليه
في جنده مؤلف من ثمانية آلاف من المشاة وأربعة آلاف من القربان فلما

وصل الى قرب غزة وتلاقى الجمعان هنالك والضم القتال بينهما كانت الهزيمة على دميريوس ولكن عامله بطليموس بأحسن معاملة ملوكية حيث أعاد اليه جميع الاسرى فالتا ليس قصدي بالحرب مع انطيقونس وابنه تحصيل الغنائم والسبايا واعلم موجب الحرب بيني وبينهما مخالفة الشروط والعهود وسلبهما من صليقوس مملكة العراق بمحض التعدي وهتك حرمة الحقوق والمهالفات وقد اكد سب بطليموس من نصرته غزة حيا زعمديني صيدا وصور لنفسه واعادة مملكة العراق لسليقوس الذي استظهر به في هذه الواقعة العظيمة ومع ذلك لم تمكث مدن السواحل في حكم بطليموس بل جرد انطيقونس وابنه دميريوس جنودا عظيما وسلبوها من يده ولم يسلمها الا بعد ان هدم حصونها

وقد كان بطليموس في الغالب منصورا في المدافعة عن مصره لا يغلبه غالب في المهاجمة عليها وأما في حروبه الخارجية فلم يعد عليه كبير فائدة بل كان مآل نصرته الى الهزيمة وعاقبة ظفوره الى الخيبة وذلك لان سبب نصرته في مصر منعة سواحلها التي يصعب الدخول منها وميل المصريين اليه لان ميل الرعايا لملوكهم هو حرز حرز وحسن منيع وهو الحصن الحقيقي لحفظ الملك والمملكة ولذلك لما أراد انطيقونس عقب انتصار ابنه على الجنود المصرية في قبرص أن يغلب على مملكة مصر تلقى أكثر سفنه وخابت آماله وولى مديرا

ثم ان بطليموس لما علم بالتجربة الصعبة عقم نتائج الفتوحات الخارجية اختار السلم والراحة وأجهم عن أن يدخل في مصالح العجم وأغبرهم قفر غ في باقي مدنه لتنظيم مملكته العظيمة وعزم على أن يصرف اليها همته وأن يبرز في تشييدها حكمته فشرع في تميم الهياكل والقصور والمباني والمصانع التي عملها في الاسكندرية لتصير من أعظم مدائن الدنيا فمن هذه المباني ضريح الاسكندر الاكبر الذي خفي الآن عن العيون وظنت بأنه في محل نبي الله دانيال الطنون وكذلك منارة الاسكندرية التي أنشأها بجوار الميناء البحرية لمنافع التجارات وفوائد السباحات الملاحية والمعاملات وهي أحد بنيان العالم العجيب الذي بقي على مجرى الزمان من عجائب الدنيا حتى تولى به مؤرخو المتقدمين وشعراء المتأخرين فمن ذلك قول بعضهم

وسامية الاربعاء تهدي آخا السرى * ضياء اذا ما خلد من الليل أغلما
 لبست بهاردا من الاتس صافيا * فكان يند كارا الاحبة معلما
 وقد ظلتني من ذراها بقبة * ألاحظ فيهم من صباي أنجبما
 نخيل ان البصر فحق غمامة * وأنى قد خيمت في كبد السهما
 وقوله وقد ظلتني من ذراها بقبة الخ يشير به الى ما ذكره ومن أنه كان هنالك
 قبة أساسين من نحاس مذهب والقبية مذهب وأن ارتفاع القبضة ومائة
 ذراع أو أشارة اذا كان الشاعر من المتأخرين الى القبية التي بناها أحد بن
 طولون من الخشب في أعلى المنارة حين رم المنارة وقال بعضهم فيها أيضا
 ومنزل جاوز الجوزاء مرتقيا * كأنما فيه للسرير أو كآ
 راسي القرار تسامى القصر في يده * للنوء والنور أخباء وأخبار
 أطلقت فيه عنان النظم فاضطردت * خيل لها في بديع الشعر مضمار
 وبالجملة فقد كان موضوع بناء هذا المنار بهذا الموضع ليكون علما بالليل
 ومقربا للتهاروا أن بانيه انما هو بطليموس الاول في أصح الاقوال
 ومن أنفع مباني بطليموس المذكور مدرسة الاسكندرية المسماة بالواق حيث
 جمع فيها جميع علوم ذلك الوقت ومعقولاتهم من فلسفة ورياضيات وطبيعات
 وحكمة وآداب والهيئات وكانت هذه المدرسة موصلة لقصره بقرب عمود
 السوارى وقد جلب اليها علماء اليونان وغيرهم من سائر البلدان فلم يرض على
 الاسكندرية يسير من الزمن الا وقد استحال مركز السائر العلوم والفنون
 وكانت هذه المدرسة ذات ابواب عظيمة ورواقات حسنة تجمعة وأنشأ فيها
 خزائن كتب ملوكة جمع فيها الكتب القديمة المعنى بها وجلب اليها
 النساخين والمصحفين والمجلدين والمذهبين وكان بطليموس المذكور يستعير
 الكتب الجليلية من محالها فينسخ منها النسخ الجليلية ثم يرسلها الى رايها ابدا
 عن النسخ الأصلية المستعارة ليحفظها في خزائنه فكثرت الكتب النافعة
 المتنوعة بتقوع الفنون والعلوم وبلغت في الكثرة مبلغا جسيما
 وكان له من يد عناية بالفنون البحرية وعمارات السفن حتى كان عنوانه في
 ديوان مقدونيا قبطان الاسطول وكل هذا كان ميلا لثروة مدينة الاسكندرية
 حيث عادت عليها الملاحة بتوارد المعاملات فكثرت في أيامه التجارات

والخلفاء مع البلاد الدانية والقاصية والامم الاجنبية مثل بلخ
وحمدان وبلاد الهند والسودان والحبشة وغيرها وكما كثرت القرو
والقنى وازدهم الناس على مصر وازداد أهلها وسكانها زيادة بليغة كثر ايراد
الحكومة وقويت شوكتها وعظم سلطانها وارتفع شأنها ومكانها فكانت
قوتها العسكرية بزية أو بحرية جسيمة وكانت سفينة بطليموس محامية
للتجارات الواسعة وأعلامه الملوكية منشورة على هذه السفن بجهات البحر
الشاسعة محترمة الناموس عند جميع الملل والدول

وقد ذكر بعض المؤرخين ان مصر في أيامه كان في وسعها الاستحضار على مائتي
ألف من العساكر المشاة وأربعين ألفا من الفرسان وثلاثمائة من الافعال
الحرية وعلى ألفي عربية مسلحة بالمشاة والمناجيل وكان في مخازن المملكة
ثلاثة آلاف طقم مجهزة من الزرد وكان بالترسانات نحو ثلاثة آلاف وسبع مائة
سفينة كبيرة أو صغيرة وكان ما سبق في الخزينة في كل سنة من ايراد السنوى
بعد الصرف نحو مائة ألف كيس وقد كانت مدينة الاسكندرية خاصة
بالاهالى وجميعهم على غاية من المحبة والمودة لهذا الملك العادل لاعتدال
حكومته وتشويق السكان برخصة التجارة والارباح بحسن معاملاتهم مع
المدن الكبيرة فكانت أسواق التجارات فيها نافعة بروج الاخذ والعطاء
وكانت هذه الحالة تكتسب كل يوم النمو والزيادة حتى ان بطليموس كان دائما
يجلب الاهالى من موطنهم لاستيطانهم في الاسكندرية وقد رغب طوائف
اليهود والنزول بها حتى تكاثروا فيها بالناسل وعمر وافيها خطة عظيمة أضيفت
اليهم

ومما حبب في هذا الملك رعاياء أنه دون ملوك الطوائف أنبي رعيته مخين
استولى عليها أحكاما وسياساتهما وعوائدهما وصورة تقسيم أقاليمها وأباح
لها التمسك لاصولها الدينية وأنبيها طوائف الكهان والاحبار على حالهم
وبهذا تمكنت دولته وامتدت صولته ومع أنه مكن الاسكندرية
وجعلها مقر حكومته ودار مملكته ففسد أنبي مدينة منف على حالها من
كونها دارا لمملكته وسما ومقر صرير الاحتقالات الملوكية والشعائر المصرية
ذات الابتهاج لا يلبس الملك التاج الملوكي الا فيها فكانت بمنزلة مصر القاهرة

الآن بالقسبة للاسكندرية وكن فيها الهيكل الاكبر المشتمل على الشعائر
الدينية

وفي أثناء تنظيم بطليموس لهذه المملكة المصرية كانت الدولة قد طرأ عليها
ما صير هامش رفعة على قسنة عظيمة وذلك أن دمتریوس لم يفتتح بمملكة مقدونيا بل
هجم على آسيا وأراد أن يعيد جميع البلاد المشرقية التي كان يحكمها أبوه
أنطيوخوس فحزب عليه بطليموس وأخذ سقته الحربية ودخل في بحر الروم
فوجد أن معاهديه من ملوك الطوائف كانوا مؤثمة الحرب إذ قد غلبوا
دمتریوس وسلبوا منه مقدونيا وأخذوه أسيرات ثم مات في أسره ومن ذلك الوقت
عاش بطليموس في ممالكه مقتعاً بالسلم والراحة بدون منغص

ثم لما رأى أنه قد عمر ونأز الثمانين سنة شرع في ترتيب ولاية عهده من بعده
حتى لا يبقى ملك مصر بعده وفاته متردداً عرضة للشقاق وكان له زوجتان وله من
كل منهما أولاد فكان أكبر أولاده من احدهما يسمى بطليموس ويلقب
ترونیوس یعنی الصاعقة لحذته وجسارته وكان أكبر أولاده من الزوجة
الآخرى يسمى أيضاً بطليموس الملقب بحبيب أخيه من باب أسماء الاضداد
فاخار الثاني ونصبه ولي عهده فاستشاط أخوه من ذلك غيظاً وخرج من مصر
وذهب الى بلاد مقدونيا والجم إلى ملكها سيليقوس فأكرم نزله ومع ذلك
قتله بطليموس الصاعقة غدراً ودعا أهل مقدونيا وترحاله لبايعته وصار ملكاً
على تلك الجهة ثم قتل الامراء المتطعين للمملكة وكانت أخته أرسنويه قد
فقدت زوجها الوسيساقوس وتأييت وكان لها ولدان منه فقتل زوجها وقتل ولديها
فقتلت الى مصر فقتل زوجها أخوه بطليموس الثاني الملقب فيلادلفيس فلم يقتصر
بطليموس على تقليد ابنه الثاني ولاية العهد من بعده بل لآلها رغبة فيه آثره
على نفسه وقلده الملك في حياته وكان بطليموس المذكور قد حكم في مصر ثمانية
وثلاثين سنة منها سبع عشرة بيمينصب نائب ايلة مصر ومنها احدى وعشرون
بيمينصب ملك مصر وسلطانها ولما اراد خلع المنصب الملوكي على ابنه عقده موكباً
عظيماً وقلده ملك مصر وكان ذلك في سنة ٩٠٧ قبل الهجرة ثم مات
بطليموس بعد نولسة ابنه بستين وهو في سن الثمانين وقد تقدم أنه كان يلقب
سوطير یعنی الفلص أو المنجي

(الفصل الثالث)

* (في الملك بطليموس الثاني الملقب فيلودلفيس) *

تولى المملكة سنة ٩٠٧ قبل الهجرة ولقب فيلودلفيس أي محب أخيه من باب التهكم والسخرية بقصد الضدية لانه كان يبغض اخوته وقد تصددهم بالقتل وكان سنة وقت تولده ملك مصر أربعاً وعشرين سنة وقد سار على سير أبيه وتحقق فيه ما كان يرجوه منه من الاستقامة حيث آثره على أخيه في ولاية العهد عنه وكانت مدة ملكه التي هي عبارة عن ثمان وثلاثين سنة مصر وفة غالباً في السلم والصلح بل كانت خيراً من مدة أبيه وقد تفرغ هذا الملك الى تقديم العلوم والمعارف فهو الذي أمر القسيس مايطون المصري بتأليف تاريخ مصر باللغة اليونانية فجمع هذا المؤلف تاريخاً من الدقائق الرصينة والتذاكر القديمة المحفوظة بالهياكل والمعابد المصرية ولم يبق من هذا التاريخ المايطوني الا بعض جزئيات وصلت الى الاقريق في ضمن كتب المؤرخين من اليونان والروم يرسم عبارات منقولة عنهم وجدول مبين فيه ما لزم مصر كان قد وضعه المؤرخ المذكور في ذيل تاريخه وأثبتته في تاريخه بعض المتأخرين من المؤرخين السابقين على زمن الهجرة بسنين قلائل ثم أن ذلك الملك قوى أيضاً في مصر التجارات فكانت مصر في عهده أعظم البلاد تجارة وملاحة وأسفاراً وبحرية وعمراناً فقد حكى سيوقريطس أن مدن مصر بلغ عددها في أيام هذا الملك ثلاثة وثلاثين ألف مدينة فإذا صح قول هذا المؤرخ أنتج أن مصر اذ ذاك كانت أعز بلاد الدنيا ولا فنان قلنا أن هذا النقل من مبالغة المؤرخين واطرائهم كما هو دائماً فلا أقل من كونه يقيد أن مصر في هذا العهد كانت عامرة جداً وقد كان وراث هذا الملك من أبيه عمالكة كثيرة لأن أباه كان تلك غيرة ديار مصر مملكة القبروان وسواحل الشام وبلاد العرب المجاورة لمصر وجزيرة قبرص وجزائر بحر الروم وأغلب سواحل أناتولى الجنوبية وبعض سواحل روم الى فاقشع الابن بهذه الموروثات العظيمة ولم يطمع كما هو الظاهر في الفتوحات التي تقتضي توسيع سلطنته زيادة عن ذلك بل اقتصر على محافظة عمالكة وإدارة اقطاره الى عمليات جسيمة تعود منها على

بلادهم بل وعلى سائر بلاد الدنيا المنافع الجمة وهي أن تضع من القنوحات الجليلة
 والتوسيعات التي بدون فائدة فاعتنى بمعرفة حقائق البلاد واستكشافات طرق
 البحار بالأسفار ليقف على معرفة المسالك والممالك فاستكشف داخل بلاد
 إفريقية والبلاد التي على سواحل بحر فارس وأرسل القبطان طيوسطينس
 إلى بلاد النوبة من طريق مصعد النيل ليعرف حقيقة مجراه ومنبعه وليسخر
 بلاد السودان إلى طاعته فوصل ذلك القبطان إلى جزيرة مروة بقرب شندى
 وهي جزيرة آتية في مسافة ستين يوماً وأرسل أيضاً القائد أرسطقرون
 إلى هذه الجهات فحال في هذا الأقليم أبعد من هذه المسافة وانعطف من
 هنالك إلى جهة المغرب فهاتين السياحتين اتسعت دائرة المعارف
 التجارية واتطمت بين مصر والنوبة كما اتسعت دائرة المعارف
 الجغرافية وأمكن الوقوف بذلك على أحوال البلاد والعباد قال ديودورس
 الصقلي أنه لم يكن قد توغل أحد في بلاد النوبة بهذه المثابة من الدهور الخالية
 إلى عهد بطليموس وانما نهاية ما وصلت إليه المعرفة هو حدود حكومة مصر
 جهة الجنوب لأن وسط بلاد النوبة لم يكن أهله يألفون الأجانب فكان
 في دخول الأجانب إليهم خطر عظيم فلم تعلم حقائقها إلا من أسفار هذا الملك
 ودخول الجنود اليونانية بها تحت قيادته انتهى

وقد اجتمع بطليموس في ترتيب المعارف التجارية بين ممالك والممالك
 الهندية والمشرقية وقد جدد عملية فتح ترعة السويس التي كان شرع فيها
 من القراعنة الملك نيفاوس ومن القرمس الملك دارافتيخ بطليموس محب أخيه
 هذا الخليج من فرع طينة القريب من تل بسطة عند الزقازيق وأوصله إلى
 البحر الأحمر قرب السويس في الجهة الشمالية وقد أرسل طيوسطينس الذي
 كان استكشف مجرى النيل في النوبة إلى أن يستكشف طريق البحر الأحمر
 وسواحله وأرسل كثيراً من الكشافين لكشف جهات عديدة كسواحل
 جزيرة العرب إلى بحر الهند وأخذ مساحتها ورسمها وأرسل سفناً أيضاً
 لاستكشاف سواحل الحبشة والبلاد السواحلية الداخلة وأمرها أن تجعل
 قباطة تستكشفه محطات عسكرية أو تجارية وكان سير هذه السفن إلى تلك
 الجهات من ميني القصير فكانت مورد اللجارات ومصدر الأخذ والعطاء

سواء بلاد النوبة أو بلاد العرب أو بلاد العجم والهند وكان مركز التجمعات
العمومي مدينة الاسكندرية فكانت محط الرحال للتجار لم تنقل عنها فضيلة
الاولية الى غيرها مادامت دولة البطالسة باقية فكانت الاسكندرية قطب
دائرة تجارة الدنيا

ومع أن توارىخ الأزمان القديمة أوضحت عن مشروعات بطليموس محب أخيه
وعن مآثره الجملة على وجه التفصيل فلم تغدنا تفاسيل وقائعته الحربية
وسياسته الخارجية وما جرى بينه وبين المقدونيين من الحروب

وغاية ما يستفاد من التاريخ في مدة هذا البطليموس أن مصر في أيامه حفظت
علوشاتها وبقا ناموسها كأي أيام أبيه ولا يعلم كيف كان نفوذه عند ملوك
الطوائف ولا درجة توسطه فيما يجري بينهم حيث كانت مصر في الدعة
والراحة وكانوا هم في الحروب والمنازعات والفتن والاختلالات وانما وقع بين
بطليموس وأخوته وأبصاره حرب في الشام والقيروان وأوقع فيها أخوته
بالاستقلال عليه وكان فيها مؤيدا منصورا وقدر قوا بقتله بريقة
لأنطيوخوس ملك الشام وشرط عليه أن يكون لا ولدا له الذكور ومنه ورثة
ملك الشام بعد أبيهم وهذا يدل على أنه كان منصورا على أنطيوخوس ثم جهز
بنته جهازا عظيما ملوكا وأوصلها بنفسه الى زوجها من طريق البحر حتى
دخلت الى مدينة أنطاكية على نهر العاصي وعمل لها الافراح العظيمة
والاحتفالات الجليلة الثلاثة بجماعه وقيام صهره ومات بعد عودهم من هذا
السفر وقد كان شرع في بناء هيكل عظيم لزوجته أرسنويه التي هي أخته
وكانت قد فترت من مقدونيا بعد قتل بطليموس الساعة لولدها ثم تزوجت به
وذلك لأن بطالسة مصر وسلاوقية بلاد الروم كانوا يعتقدون أنهم ورثاء ملوك
الفرس فتجسوا بزواج الاخوات والبنات واختصوا بتجويره دون المالك
المقدونية وغيرهم من الامراء اليونانية فهذا تسبب عنه فساد أخلاقهم وقبح
سيرهم واتصافهم بالساوي والمناكب الفاضحة وقد تقدم أن بطليموس محب
أخيه كان دائما ملقبا توسيع دائرة العلوم والفنون والصنائع والتجارات
وقد نسق القول على توسيعه للتجارات باستكشاف الطرقات البرية والبحرية
وأما التفاته للعلوم فقد أكثر من تحصيل الكتب ونجسب الخزائن التي أسسها

أبوه وكانت عظيمة فزادها من الكتب الجليلة ففي السنة العاشرة من توليته أمر بترجمة التوراة من لسان العبرانيين إلى اللسان اليوناني لأن كثرة الاسرائيليين وكثرة اختلاطهم مع اليونان أوجب اطلاع اليونان على كتبهم ومعرفة عقائدهم وأحكامهم وهذه الترجمة هي المسماة بالسبعينية وسأني أن المأمون صنع في ترجمة الكتب اليونانية إلى العربية مثل ذلك ولما كان هذا الملك يرغب في الوقوف على سائر الكتب المترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللسان اليوناني لم يهمل كتب اليهود الذين وطئهم في بلاده وكان ديوان هذا الملك دائماً مشحوناً بالشعراء والادباء وأرباب الانشاء والمحاضرات وكان قد شرع في عقد المحالطة والمعاملة بينه وبين مدينة رومة وعقد معها معاهدة فهذا أوجب هذه المعاهدة تأسيس مداخلة رومة فيما بعد في المصالح المصرية وقد مات بطليموس الثاني في سنة ٨٦٩ قبل الهجرة بعد أن حكم عتاتياً وثلاثين سنة

(الفصل الرابع)

(في الملك بطليموس الثالث الرحوم)

هذا الملك يلقب ويرجى طه ومعناه الرحوم لقب به من باب التهكم والسخرية وهذا اللقب هو الذي اشتهر به وقد لقبه رعاع الناس بلقب آخر وهو أطريفون ومعناه المهزول وتولى على مصر سنة ٨٦٩ وقد ذكره بعض المؤرخين بهذا اللقب أيضاً ولما خلف أباه على سرير المملكة لم يمكث زمناً طويلاً الا وقد اضطر إلى الحرب والقتال مع ملك الشام واستمرت المشاجرة بينهما زمناً طويلاً وذلك لأن أنطيوخوس ملك الشام كان قد تزوج بربة بنت أخت بطليموس المذكور وعقب طلاقها وهرت مع ابنها في قرية دفنة من بلاد انطاكية فقبض عليها سايوقوس الثاني ملك الشام وقتلها وقتل ابنها بعد أن تغلب على ملك زوجها فهذا أوجب حرب أخيه بطليموس ويرجى طه مع ملك الشام ليأخذ ثارها ويقيم لها وولدها منه فسار إلى الشام بجند عظيم من المشاة والفرسان والقبيلة وجهز سفناً حربية لتساعد الجنود البرية فأغار على البلاد التي قبل نهر القرات فاستولى على مملكة أدنة وما جاورها وعلى

سواحل سبواس وعلى ايلاعكا وعلى سواحل اناطولى و جال في ممالك أعدائه
وظفر بهم في أسرع وقت ثم اجتاز نهر الفرات واستولى أيضا على الجزيرة
والعراق وعلى اقلبي خوزستان واذر بيجان وكان مستعدا للتغلب على
فارستان وجميع بلادها الى بلخ وهمذان ولولا ما بلغه من قيام فتنة عظيمة في
الديار المصرية صدته عن الاستمرار على الحروب لملك جميع سلطنة أخصامه
السيلاوية و مولوا الطوائف بل عاد الى مصر وابقى من قنوجاته مملكة الشام
وسلم مملكة أذنة وما جاورها لانطيوخوس أخى سيلوقوس وكان قد خبز بيع
بطليموس وأعادته على ملك الشام فكافأه بطليموس بمملكة أذنة
وقد أبقى بطليموس جنودا مصرية في المدن تحت قائده المسمى زططيس ودخل
هو مصر منتفلا بالغنائم ومن جعلها تحت ايل الاصنام المصرية النفيسة التي كان
استلها قتيشاش ملك العجم من مصر ونقلها الى بلاد فارس كجاسيأى ذلك في
الفصل الثاني عشر من هذا الباب ثم بعد مضي زمن يسير نطن سيلوقوس انه
تقوى على حرب مصر فغزاها فانهم زعم وخاب أملهم فأتى أثره بطليموس ودخل
الشام وأخذ دمشق ومبا فارقين وجبر رؤساء السيلوية ان فروا الى انطاكية
وازرؤوا فيها

ثم اصطلح انطيوخوس مع أخيه سيلوقوس وتعصبا معا على ملك مصر فالتزم
أن يعقد مع ملك الشام هدنة يترك فيها الحرب بينهما عشرين سنة ثم وقع الشقاق
والاختلاف بين الاخيرين المذكورين فاعتزم بطليموس فرصة العداوة بينهما
في فسخ الهدنة وأغار على الشام ودخل الى بلاد الجزيرة وقد كان انطيوخوس
فاقد المملكة أذنة مطرودا منها فذهب الى مصر فلما انه يجد فيها ملجأ وحى عند
بطليموس فلم يصفح عنه بطليموس ولا ساعده من غدرة وخيائته بل سجنه فدير
الهروب ورجع الى اناطولى ومكث فيها مدة طويلة يتحارب أمراء الشام
وأما بطليموس فكان آمنا مطمئنا على سريرته مشغولا بتنظيم ملكه وتدبيره
بل كان يصرف جل زمنه في الولائم واللذات والخطوط والشهوات مما
أفضى الى تلقيبه بالهزل وصاحب الكسل والهمول ومع ذلك فلم يزل في
حفظ ناموس مصر الملوكى بل بقى ناموسها في أيام حكمه كما ورثه عن
أسلافه فكان له النفوذ في مصالح اليونان محاسبا عن حقوق معاهدته

المورلية معيناهم على مقاومة المقدونية مساعداً المحالفة بالعساكر البرية والبحرية وإذا اقتضى الحال ساعدتهم بالمال فينما هو كذلك إذا اختلته أظفار المنية وحالت بينه وبين الامنية في سنة ٨٤٤ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية وكانت مدة حكمه خمسا وعشرين سنة وخلفه بطليموس الرابع محباً إليه

(الفصل الخامس)

(في الملك بطليموس الرابع)

تولى هذا الملك مملكة مصر في سنة ٨٤٤ قبل الهجرة ويلقب فيلادوروس أي محب أبيه على سبيل التكم لانه اتهم بقتل أبيه بالسهم وهو رابع ملوك البطالسة اللاغوسية جلس على سريره مصر في أيام صباه فكان نفوذ الحكم لوزيره سوسيدوس كما كان له النفوذ سابقاً على المملكة في أواخر مدة بطليموس الثالث ولاجل أن يتمكن هذا الوزير من النفوذ والانفراد بمصالح المملكة والاستبداد بالرأى والحل والعقد ترك الملك نهمل في اللذات والشهوات وأرخله العنان في ذلك حتى لا يكون للملك وقت لرعاية الرعية ولتباعده عن المصالح العمومية لالتفاته لفظوظ نفسه وملاذه الخصوصية وبهذا احتجب بطليموس عن أرباب الديوان وعن أرباب الوظائف والعمل فكان لا يرى ما مورى المصالح الا في النادر وكان لا يلتفت الى حكومة الاقاليم والممالك البعيدة المضافة الى مصر ولا يسأل عن أحكامها وولاتها وجنودها مع أنها كانت مطمح نظر أسلافه فكانوا يلتفتون اليها أكثر من مصر فكان سلقه يبدلون الهمة في حفظ وادى الشام الذي بين طرابلس ودمشق وكانوا يحفظون جزيرة قبرص المحروسة بعساكرهم حتى كان يهابهم ملوك الشام ويخشون من ملوك مصر ومن هجومهم على بقية البلاد الشامية وكان البطالسة لهم مدن على سواحل بلاد آسيا وعلى الجزائر وكانت الثغور والباطات الساحلية في قبضتهم من عكا الى جنات قلعة وبوغاز كليبولي وكلها محروسة بجنود تابعة لمصر وكان لهم مدن بقيت في أيديهم من تغلبهم على اقليم روم ايلي فكانوا يلاحظون بذلك اقليم روم ايلي ومقدونية وعند الاقتضاء يبعثون

عساكرهم لهذه الجهات القاصية ولا يخشون شيئاً امامهم من هذه الممالك
وبهذه الوسائل يحكمون مصر مع غاية الامن والاطمئنان فهكذا كانت حالة
ممالك أسلاف بطليموس الرابع ولهم حق في رسوخ ملكهم على البلاد
الخارجية لكمال الامن على خصوص مملكة مصر وتمكنهم فيها ولكن أهمل
بطليموس الرابع حفظ البلاد الخارجية لتقرغه لظفوط نفسه وانهما كعلى
الذات والشهوات الملوثة وقد عي عن التبصر في تدبير مملكه ولم يكثر بحفظ
ناموس سلطانه فعما قريب قام عليه أعداؤه وصمموا على قتله والاستيلاء على
سلطنته

وقد جرت العادة أن الملك الموصوف بهذه الصفات يكون مضيع العقل
ضعيف الرأي أي أن ذنا يصنى الى الاغراء والتحذير ويسمع ما يلقي اليه من التهم
ولا ينقدها بتدبير ويعامل بالنسوة والجبروت من يتوسوس منه بسعى السعاة
ووشى الوشاة فأدخل عليه وزيره سوسينيوس الارجيف والتخويات التي
لا أصل لها حتى صار يأخذ حذر مخوف على نفسه وعلى مملكته وقصد الوزير
بذلك أن يبعده عن أرباب النفوذ لئلا يقف منهم على حقيقة حاله وخيائنه فنفر
نفس الملك من النصح وأغراء على ايدائهم حتى أمر الملك أن لا يقتل أخيه
مفاس لئلا يتصدع العساكر الجمجمة ويتحزب معهم عليه وأمر أيضا
بقتل أمه برينة مثل هذه الاسباب وسأق قتل لاخته وزوجته ثم قصد أن يقتل
اقلئومونس ملك أسبارطة الذي استضافه وذلك أن ملك أسبارطة كان
موجودا مئة بطليموس الملقب وبرجيطه أن يرجع اليه ميراث أبيه بمساعدة
المملكة المصرية وكان متعاهدا معه على ذلك في زمن بطليموس الرابع التمس
تخيير الوعد فلم يجب الى ذلك لاسيما وكانت فرصة تخيير هذا الوعد أسهل شيء
عليه لأن انطيوخوس ملك مقدونيا كان قد مات وبقيت مقدونيا تحت حكومة
ابنه الذي كان سنه خمس عشرة سنة فنضرع اقلئومونس الى ملك مصر أن
يمكحه من مقدونيا فخشي بطليموس عاقبة ذلك وأبي أن يعينه مخافة أن يستولى
فيما بعد على عموم اليونان ويوسع سلطنته في أوربا فيعود منها الضرر على مصر
فغضب اقلئومونس من امتناعه وتكلم وهو في مصر في حقه بما لا يليق وقال
انه ليس أهلا للاتحاد بالشبان الذين يلعبون بالز امير فوصل ذلك الى

مسمع سوسيموس وزير الملك بطليموس فزعم ان ملك اسبارطة اقليومونس
انما اراد بقوله ذلك انارة الفتنة في مصر فبهذا السبب وضع عليه السجن
وجعله تحت الحرس فغضب اقليومونس من هذا الصنيع وقال لا اموت ابدا
في الحبس المطالم موت الجبان وانتهز فرصة غيبة بطليموس في ابوقير فجمع خدمه
واجابه على وليمة وخرج في النهار معهم من محبته مشهرا سيفه من غمده بدون
أن يترقب أحد في وقوع ذلك منه فاستدعى من الاهالي ان تقوم معه وان
تطلب الحرية فلم يوافقوه أحد على ذلك فصدد الى قلعة الاسكندرية
وكسر ابوابها وأخرج المسجونين وسلمهم ليستعين بهم فلم يخرج تديره حيث
قهره ضباط القلعة وهزموه فخنس هو ومن معه الوقوع في يد خصمهم فقتل
بعضهم بعضا فلم يكتوا أخصامهم من شفاء غليلهم منهم

فلما قدم بطليموس الى الاسكندرية مثل بجنة اقليومونس بصلها وذبح تحتها
زوجته وأمه وأولاده وكان ذلك في سنة ٨٤٢ قبل الهجرة وكان أنطيوخوس
الاكبر ابن سيلوقوس قلينوكوس خلف من منذ سنوات على مملكة الشام أخاه
سيلوقوس قلينوكوس المذكور وكان أنطيوخوس شابا ولكن متصفا بصفات
عظماء الملوك فرأوه نفسه أن ينتهز فرصة جبن بطليموس الرابع وقتوره متهمة
لينتقم منه مما فعله أبوه في الشام وأن يستلب منه الاقاليم التي تملكها مصر
في آسيا والبلاد المشرقية فشرع في ذلك فخاب أمله وضاع في هذه المرة عمله
وتفنى عما صمم عليه وذهب التسكين ما قام في بلاده من الثقل والشرو فبينما
كان أنطيوخوس بعيدا عن حدود مصر وإذا ببطليموس قد وجد طريقة
في تقوية نفوذ مملكته وزيادة بطشها فقدم معااهدة مع اخيوس ملك أنطولى
المتقلب عليها بنفسه فبعد أن سكن أنطيوخوس قسنة بلاده المشرقية جاء الى
انطاكياء مدينة السيلوقية الواقعة على نهر العاصي وكان بها العساكر المصرية
من وقت نصره بطليموس الثالث فأخذها وكلن سيودوطوس اليوناني
حكما دارا على العساكر المصرية التي بالشام من طرف بطليموس فكان غير
شاكر لسيده حيث كان سيده غير شاكر أيضا لصنيعه فلم أنطيوخوس جميع
ما تحت يده من الولايات والمدن الاخرى كصور وعكا فلاحق بطليموس تلك
الخطيئة أرسل به لحكم دارا آخر الى سواحل الشام وأصبه بجند جديد

فهجم هذا الحشد على انطيوكوس في جبال بيروت فهزمه انطيوكوس
 هزيمة عظيمة فوقعت البلاد في يد انطيوكوس الى حدود مصر
 ولما كانت قوة بطليموس متباعدة جهة القرماء وكانت لم تزل عظيمة القوة
 شديدة البأس جذاذ برأباطوكليس وسوسيوس حيلة على انطيوكوس بأن
 أرسلوا السفراء اليه لطلب الصلح وقصدوا بذلك تطويل الوقت وأظهروا أنهم
 يريدون عقد هدنة بعهلة أربعة أشهر فحضر فصل الشتاء في المخاطبات التي
 لا طائل تحتها فلما دخل فصل الربيع شرع في الحرب
 وكان كل من ملك مصر وملك الشام لم يقن بحرية تساعد الجنود البرية
 قتالاً في جهة صيدا وكانت القوة البحرية من الطرفين متكاثرة لا ظهور
 لسفن أحدهما على الآخر ولكن كانت جنود انطيوكوس البرية منصورة
 على قطيعهم من جنود مصر فاستولت على ايلة يسان وعملكة يهودا وجزء من
 بلاد العرب وكان ذلك في سنة ٨٣٨ قبل الهجرة وبعد ذلك بسنة أخرى
 وزرأ مصر بطليموس على ان يقود الى الشام جنده بنفسه فسار من القرماء
 أميراً على جيش مؤلف من سبعين ألفاً من المشاة وخمسة آلاف من القرماء
 وثلاثة وسبعين فيلاً وقصد أن يهجم بذلك على انطيوكوس وكانت عساكر
 انطيوكوس اثنين وسبعين ألفاً من المشاة وستة آلاف من القرماء ومائة
 واثنين من الفيلة ثم تقابل ملك الشام وملك مصر تحت أسوار مدينة رافيا بين
 العريش وغزة فظهر انطيوكوس على عدوه من الجهة التي كان فيها انطيوكوس
 المذكور ولم يلتفت الى الجهة الأخرى من جيشه وقد كانت انهزمت عساكر
 تلك الجهة وأخذت في الفرار ولم يشعر همز يمتها فلما التفت اليها علم هزيمة ميسر
 جنده وانكسار قلب صفه وأنهم ولوا مدبرين فاقتضى الحال أن يقف ويجمع
 ما تشتت من جنوده المهزومة فوجد أن معسكره قد خسر خسارة بالغة فولى
 مدبراً بالبقية وركب جنده مصر منصوراً يستولى على مدينة رافيا ومدن
 سواحل الشام وفلسطين وطرابلس ودمشق وكان انطيوكوس قد قلب
 على هذه المدن قرياً فالتزعت من يده فعمد متاركة وهذه مع المصريين بعهلة
 سنة واحدة
 وهذه الواقعة سميت واقعة رافيا وقد نتج منها تعذيب اليهود وقتلهم وسبب

ذلك أن بطليموس الرابع كان القس من خاخام القدس أن يدخل بيت
القدس فنعه الخاخام من ذلك فغضب على جميع اليهود وأمر باستصال يهود
الاسكندرية وكتب لجميع عماله أن يقتدوا به في قتل اليهود وأهلا كههم
ولما رجع هذا الملك من الغزو إلى الاسكندرية عاندا كان عليه من اللذات
والشهوات وكان بالاسكندرية امرأة تسمى اغاسقلة كانت أخت اغاسقليس
أحد وزراء المملكة وكانت مشتركة مع الوزير سوسيبوس في السياسة
والتدبير فأخذت بجماع قلب الملك لفرط حبه لها ورضته على قتل زوجته
الملكة ارسنويه وبسبب ذلك أن زوجة بطليموس المذكورة كانت أيضا أخته
ومكثت مدة طويلة معه بدون تناسل منه فكان الملك محروما من خليفة منها
بعده ثم رزقت منه بولدف سنة ٨٣١ قبل الهجرة فوقعت الغيرة منها في قلب
اغاسقلة وحقدت عليها لما وجدت أن جميع الالهة في فرحوا بوضعها غلاما
فنفقت عليها وقصدت اعداءها توسط سوسيبوس فأغرى الملك على قتل أمها
بريقة فسعى في قتل البنات أيضا فلم يعش الملك بعد قتل زوجته التي هي أخته
لأن جسمه كان قد انتهن بالشهوات واللذات وقد ضعفت قواه فمات
في مجبوحه شبابه وكان انطيوخوس اذئذ المسمى غولا بجرب فارس وبلغ
وهو ماذن ومصحفا أن يهجم على مصر فيجنوده المتكاثرة وكان موته في سنة
٨٢٧ قبل الهجرة فكانت مدة حكمه سبع عشرة سنة وتولى بعده ابنه
بطليموس الخامس

(الفصل السادس)

* (في الملك بطليموس الخامس الملقب بالماجد) *

تولى ملكة مصر سنة ٨٢٧ وهو ابن بطليموس الرابع ويا لقب ايغاثونوس
ومعناه الماجد فأعلن له بالملك بعده في سنة ٨٢٧ وأقاموا عليه وكيلا
اغاسقليس أحد وزراء أبيه حيث كان عمر بطليموس المذكور خمس سنوات
وكان سوسيبوس وزير المملكة كما كان في السابق وله اليد العليا في ادارة
المصالح الملوكية وبوصاية اغاسقليس على هذا الملك القاصر صفا الوقت له
ولاخته الدينية النفس وتكثرت من مرامهما بدون منكذ ولا منغص فلا زال هذا

الكافل يزاد في ارتكاب الجرائم مجاوزة الحد وحسب نفرت منه ومن عائلته نفوس الالهالي والجنود نفورا شديدا وحقدوا عليه وقد أوجس في نفسه خيفة الفسنة منهم والقيام وأنه عرضة للانتقام حيث هو مبغوض الخاص والعام وقد خشى عاقبة ذلك على نفسه وصكان بأنفسهم أن يقطع عن ذنوبه وأن يعتذر عما جناه وكان لاختلاقه فأراد أن يقدم مع المقدونيين معاهدة ليكونوا من حوزة على أهل مصر فاجتهد في ذلك ولم يفرأ جهته شيأ بل انتصر المقدونيون لخصمه المسيي طابوليمس رئيس الجنود اذ صكانوا يعتقدون شجاعته واستقامته وخذلوا كافل المملكة فلما قامت الفسنة وخرجت الالهالي والعساكر عن طاعة وصي المملكة لم يجد نصيرا ولا مجيرا قال بولبس في حكاية هذه الفسنة مانصه

انقسم أرباب الفسنة الى فرق متعددة فاجتمع البعض في ميدان السباح وأخذوا في الصباح والمهياج والقوغا وشرع البعض الآخر في التشجيع وتقوية الحماس والوعظ وبعض ثالث تجنب الخطر وانزوى في بيته أو في الاماكن الحصينة وفي أثناء هذه الثورة وظهور الفسنة وتجمع الجوع كان أناس قليلون ناثما في قصره فأيقظوه فاحس بالخطر الابعد أن امتلا ما حول القصر الملوكي وميدان التعليم والرحبات والملاعب من الناس المجتمعين وبالجملة فقد كانت غصت الميادين السلطانية بالاحراب على اختلاف مراتبهم وصنائعهم فسار وصي المملكة وخلقه أتباعه وحزبه الى محل الملك فأخذ بطليموس من يده وصعد به الى الرواق الموصل للملعب بالقصر وكان للقصر ثلاثة أبواب فسد البابين الكبيرين بالاحجار والتاريس وتحصن وراء الباب الثالث واحتجى فيه مع عائلته وحراسه والملك بطليموس وسائر الاتباع

فازداد اجتماع الالهالي ونسلهم من كل حذب الى الحال العمومية واستفاضتهم من جميع أخطاط المدينة حتى سدوا الطرق والمشاريع والحارات وملؤا البيوت والسطوح والطاقات وضجوا وبجوا وصاحوا وهاجوا وماجوا كلنما اعتراهم الجنون ففي هذا الحال الى ضجوة النهار وازدادوا في الحدة والشجوت ولهجت الالسة بالانتقام وأخذ النار وازالة الذل والعار واستدعوا جميعا خروجا امير اليهم من قصره وانقضا لمن كلفه وولى أمره

فتمزكت عساكر اليونان المقدونية وحاصروا دهلز السراية السلطانية محل
 انعقاد المجالس العمومية ويجشوا عن المحل الذي احتفى فيه بطليموس والنجباء
 فحرقوه وخلعوا أبواب الرواق الاولى ليفتحو لهم مدخلا ومخربا فلما وصلوا
 الى ثاني الابواب دعوا بطلب تسليم الملك اليهم بدون حجاب فلما رأى أغاسقليس
 أن نفسه قد صارت عرضة للبلايا لما جلبه لها من الرزايا ترجى بعض من معه
 من الحراس أن يستميلوا اليه نفوس الناس وأن يعطفوا قلوب الجنود
 المقدونية عليه عسى أن يتطروا بعين الرأفة اليه وأن يعلموهم بأنه مستعد
 للتنازل عن الكفالة الملوكية وللإستعفاء من مثل زمام المملكة المصرية وأنه
 راض بإسقاط حقوقه ومزاياه وترك أمواله وما ملكت يده ليعفى بذلك نفسه
 من الهلاك ولا يخرج من المملكة بشئ من الاموال والاملاك وانما يكتبني
 بالكفاف ويتجرد عن صفات الاماجد والاشراف حتى لا يكون له أذى
 شوكه وبأس بحيث لا يتوهم نفوذه أحد من الناس فلم يرض أحد من
 الحراس أن يدخل في ورطة التوسط في هذه القضية ولأن يكون شفعاء في
 تخليصه من هذه البلية فلما أيس من شفاعة الشفيع وقطن من المجا والمنجي
 في هذا الهول الشنيع مقيده الى العساكر المقدونية اشارة الى التسليم
 الذي يعقبه حصول الامنية أو المنية وكذلك أخذه أغاسقليس أخرجه
 نديهما من القميص وقالت هذا الندى هو الذي أرضع الملك وأعتدى ببلبه
 فلا يسوغ وقوعه في مثل هذا الخطب العويص وتضرعت الاخت وأخوها
 باظهار الندم ولات ساعة مندم فلم ينفع البكاء ولا العويل ولم يرث أحد من
 الاهالي لهما ولا سمع لهم منها الكثير ولا القليل فأخرج الملك من حوزة
 فأخذه الجنود الى حوزة وأركبوه جوادا وذهبوا به الى الميدان القسيق فصار
 يمرأى من الاعبى والقصي فلما أبصر جميع الجوع فرحوا به الفرح الشديد
 وأقبلوا اليه وأجلسوه على كرسي الملك وشرعوا في أحسن مشروع انسا له
 أحد الأمراء هل تأذن به دردماء أرباب الحياة التي خانوك في قتل أمك
 ولم يراعوا قانون المصانة وهل تتركهم ينتقم لك منهم جميع الناس أو تأمر
 في حقهم بما تقتضيه أو امرك السنية بخلاف هذا الاتماس فأجاب بإباحة
 اراقة دمهم وتنكيس علمهم فقال ذلك الأمير لبعض الجنود أخبروا الاهالي

بما قاله الملك وأمر بتجهيزه في اليوم الموعد فلما سمع الناس ذلك الأمر الصريح
 استحسنوه جميعاً وحصل لهم به غاية التفرح
 وقد كان أغاسقليس وأخته ذهب كل منهما في محل أقامته منتظرا ساعة
 قيامته وكان قد تفرق العساكر من بادئ رأيهم أو باغراء بعض أمرائهم
 للبحث عنها فني خلال ذلك برز شخص من أخصاء أغاسقليس يسمى فيلون في
 الميدان برونز المعربد السكران وصاح بين الأهالي وهم في نهاية الغضب
 والحقد قائلاً كيف تصنعون لو خرج أغاسقليس من ورطة هذا الخطر فلا بد أن
 جميعكم ندم على هذا العصفان الذي هو محض أشرو بيطر فلما سمعوا منه هذه
 المقالة هجموا عليه بالمشاقمة والملاكمة وقصدوا قتاله فأظهر المدافعة عن
 نفسه وقاومهم فمزقوا ثيابه وطعنوه بالرمح فكان ذلك أول ظهور المقتلة
 واراقة دماء حروب أغاسقليس الذي هدر دمهم لما زلت قدمهم وروما جسته
 يجب أغاسقليس مضجعة بالدماء في الميدان العام وتنبهوا القتل بشدة هذا الحزب
 وذبحهم كالأنعام فظهر أغاسقليس مكبلاً بالسلاسل والأغلال فأكبوه على
 وجهه وأذاقوه بالقتل كأس العذاب والويل ثم حضرت أخته أغاسقليه مع
 بناتها وأقاربها فقتلوهما أشد قتله ثم قتلوا زوجته المسعاة أيلانه وراكبة على
 جوادها عريانة فأذاقوها وأتباعها بالقتل كأس الالهانة
 وكان المتولى لقتل الجميع الأهالي والرعايا فتركوا شيأ من أنواع التعذيب
 إلا إذا قومه للمتبوعين والاتباع فبعضهم كان يعض بأنيابه وبعضهم يطعن
 بجرابه وبعضهم يصفأ العيون حتى إذا قومه على هذا الوجه كؤس المنون
 وكلما قتلوا واحدا منهم مزقوا جسده وقطعوا أعضائه وأهانوا رثته ولما علم
 النساء المنسوبات إلى المأسكة أرسلنوه حضور فيلأمون قاتلها إلى
 الاسكندرية هجموا على منزله وأرادوا القتل به بأشد بلية فأنخنوه بالعصى
 والمثاقلات ونجسوا قتلها بالسلح بأشد القتلات وخنقوا ولده وكان في سن
 الطفولية وذبحوا زوجته بالميدان العمومي أشد ذبحه ردية
 وعقب هذه القسوة الواضحة والمقتلة الفاضحة أقاموا الإمبراطور يوليوس
 مقام أغاسقليس في الوصاية على الملك فلم ينتج من هذه القسوة العظيمة الاتغير
 الوصاية واستبدال الكفالة فكان ما ذهب من مصر حاكم غشوم وخلفه ظالم

مشؤم وذلك أن الوصي الجليد كان تربى في المعسكرات فلم يكن له خبرة بأصول
السياسات فنشأ من ذلك ضعف المملكة المصرية وأخذها في الاضمحلال
لسوء تدبير هذا الوصي وعدم معرفته في الادارة الملكية فانه بمجرد ما استولى
على ما في مصر من الخزائن والاموال تفرغ للالاقاب الصوبلحانية أو الترسية
مع أقرانه من السبان واتخذ لهم عقب هذه الالاعاب الهزلية الولايم الفاخرة
والضيافات التي بمثلها عزرية وأخذ يسرف في النفقات ويذر فيما يخصه من
الاموال لسفراء عمال كاليونان والولايات وأكثر من المنح والعطايا والراغب
لادباب الملاهي والملاعب ولائرا العساكر والاجناد ومن يتردد على
ديوانه السعيد ويحسن له ما أراد فهذا السلوك تسبب عنه أنه أقصى الاهالي
وصار يئس منهم حجاب لشغلهم بحفظ وطنه واسراف على نفسه مما يمنع الاقتراب
فاضطروا الى تسليم عنان الحكومة المصرية لبيد ارسطومينيس الرومي فكان
كانه الثابت الحقيقي يتصرف كما يريد فنشأ من ذلك من الوخامة والسقامنة
ما لا عليه من مزبد

فبتلك الفسنة التي سفل فيها الدم المباح وبما أعقبها من التقلبات الخالية عن
الصالح والاصلاح لاحت القرصة القوية لملك الشام أن ينتقم من واقعة
راقيا التي سبق فيها الكلام فقدم معاهدته مع فليس ملك مقدونيا فجمع فليس
على جنات قلعة وعلى بوناز كليبولي وعلى بلاد روم ايلي التي كان فيها من عهد
قنوق في بلاد قمر رباطات مصرية ومحافظات عسكرية وكذلك هجم
ملك الشام على المدن المصرية المملوكة بالديار الشامية وعلى جهة أنطاكي
وكان بهذه البلاد أسقوياس من طرف بطليموس الخامس فانتصرت مصر
في أول أمرها على ملك الشام نصره عجيبة على سواحل الشام وعلى بلاد
فلسطين ثم انتزعت على منابع نهر الاردن وأخذ منه أنطيوخوس صاحب
الشام مدينة سامرة وغيرها من المدن كدينة القدس نفسها وفي ثاني سنة
مضت من هذا التاريخ أخضعه جميع المدن المصرية التي بولاية أدنة وغيرها
من ولايات أنطاكي وقد تصادف في حالة نصره أنطيوخوس على ملك مصر أنه
كان قد سمع أنطيوخوس أن يهجم في أوروبا على جمهورية الرومانين باطاليا
فلاجل أن يتفرغ للتجهيز لهذه الجهة ولغزوها لزم مصالحة بطليموس مصالحة

نافعة تقوى روابط المحبة بين الطرفين وتؤكد دوام الصلح بينهم وكان
 لأنطيوخوس بنت نسعى قلوبطره فكان من شروط الصلح أن يزوجه الملك مصر
 ويهب لها أقاليم الشام في تطهير جهازها بداعي أن مملكة الشام كانت محل النزاع
 بين مصر والشام فلما جعلت من نصيب قلوبطره كأنها صارت حاسمة للنزاع بين
 القرينين

ولما كان ملك مصر لم يدخل بها وإن كانت معدة لذلك بموجب الشروط بقيت
 عند أبيها في أثناء هذه المدة حدثت فتنة أخرى في مصر نشأت عن البغضاء
 بين أرسطومينوس كافل المملكة واسقوباس رئيس الجنود وقد كان هذا
 الرئيس معتمدا على الجنود الرومية التي في خدمة مصر فلما وقع القتال بينه
 وبين خصمه في الاسكندرية أثار اسقوباس الفتنة وقواها وتكاثر أحرابه
 وخرجوا عن طاعة الملك وتبعه جميع أهل بلاده ونحزب المصريون مع الملك
 فقبضوا على رئيس الجيش وحققوا قضيته وأبنتوا خباته وحكموا عليه
 بالقتل هو وأحرابه وطردوا جميع أهالي بلاده من الخدمة العسكرية المصرية
 فخرج أرسطومينوس في هذه القضية ثم أراد أن يتمكن من النفوذ فكان إذا
 فتوح الملك في محفل عام يجلس على سرير الملك ويتقلد بالاحكام ولم يكن منه
 اذذاك يزيد عن ثلاث عشرة سنة وذلك في سنة ٨١٨ قبل الهجرة

ومع أن هذه الفتنة التي أثارها اسقوباس قد سكنت فقد نتج عنها وقت
 اضطرابها اشاعة موت بطليموس بدون أصل حتى وصل ذلك الخبر إلى صامع
 أنطيوخوس في بلاد روم ابلى فأراد أن ينهز هذه الفرصة ويفسخ المعاهدة
 بالهجوم على جزيرة قبرص وكانت تابعة لمصر فوجه اليها سفنه فمرتها الرياح
 المختلفة على سواحل أنطاطولى فني أثناء ذلك وقف على حقيقة الحال وأيقن
 أن بطليموس لم يزل على قيد الحياة فصمم على عدم نقض المعاهدة التي عقدها
 في شأن زواج بنته الملك مصر وكان قد مضى ست سنوات من وقت عقد المصاغة
 بينه وبين أرسطومينوس فسار إلى مدينة رافيا بين غزة والعريش واستحب
 بنته معه وكان أيضا بطليموس نازلا بهذه المدينة فبنى زوجته واستلم بالتوكيل
 عنها أقاليم الشام التي هي جهازها حسب الشروط

ثم شرع أنطيوخوس عقب ذلك في الحروب مع جمهورية الرومانيين بإيطاليا

وكان بينه وبين ملك مصر عهداً كيدة بأن لا يعاون الرومانيين عليه ومع ذلك
 فقد عرض بطليموس عليهم المرة بعد المرة أن يتدهم ويعينهم بما يتسونه فلم
 يرفض مجلس ايطاليا بقبول تلك الاعانة فلما انهم أنطيوخوس في غزوته
 ومات عقب ذلك كان المأمول لملك مصر بالنسبة لمواالاتهم تلك الجمهورية
 أن تبقى زمام طويلا في السلم والاطمئنان ولكن اساعة بطليموس الما جد لتدبير
 المملكة وظلمه رعاياه كان السبب في انقطاع راحتها وعدم تمتعها بلذة الصلح
 مع الاهالي وذلك ان وكيل هذا الملك كان دائماً يفضحه ويخونه ويعتقه عاقبة
 أنفاله الوحشية وكان الملك لا يقبل نصيخته ويحقد عليه في تهديده وتخوينه
 فتخلص من هذا الوزير بقتله بالسهم ليرتاح منه فلما تفرق بقتل وزيره ترتب على
 استبداده برأيه ذنوب كثيرة وأرتكب من الماسم والخطايا ما لا يستطيع ان
 تحمله الرعايا وكثر منه الطغيان والظلم والعدوان فتج من ذلك خطر عظيم
 الاختلال وقامت الاهالي على الملك ملتزمة تغيير الحال وعمت الفتنة كثيرا
 من المدن المصرية واهكن جنود اليونان المستخدمون في مصر كانوا أيضا
 كثيرين فنصر الملك وخذلوا أعداءه لاسيما وان قائدهم بولقراطس كان بطلا
 فاضلا وهما ما بسلا فضيق على السائرين للفتنة كل التصيق وحصرهم غاية
 الحصر حتى سلوا أنفسهم لعقو الملك وطلبوا منه الامان فذهب كثير من رؤساء
 الاحزاب المصرية الرافعين راية العصيان الى مدينة صالجر حيث كان الملك
 فيها فقتلهم شر قتله ومثل بهم وكان ذلك في سنة ٨٠٧ قبل الهجرة المحمدية
 على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية

ثم ان الوقائع التي حصلت في آخر مدة بطليموس الما جد لا يعلم منها الا كونه
 جتدا المعاهدات المتعقدة مع يونان المورة وانه بينما كان يجهز جوده للحرب
 مع سيليقوس الرابع ابن انطيوخوس اذا ختمته المنية في سنة ٨٠٣ قبل
 الهجرة بعد ان حكم أربعة وعشرين سنة وكان قد أحضر بهذه الغزوة كثيرا
 من الجنود الخارجية المجهزين ولا زال يكرمهم ويقال انه سئل ذات يوم من
 أين تدفع جوامك هؤلاء العساكر ونفقات هذا الجيش الجزا فاجاب كيف
 هذا السؤال أما تعلمون ان أموال أحيانا يهاى أموالنا قد دخلت الاراجيف
 في قلوب أحبابه ففكر وابه ودسوا عليه السم فأت مسموما لكونه أقرط في

(الفصل السابع)

* (في الملك بطليموس السادس محب أمه) *

تولى هذا الملك سنة ٨٠٣ قبل الهجرة وهو أكبر ابني بطليموس الماحد يلقب
 فيساوماطور يعني محب أمه على سبيل التكميم والصخرية خلف أباه في سنة
 ٨٠٣ قبل الهجرة وكان فاعصراً ولكن كلفت مدة قصوره وذكفاته أقل
 اضطراباً وقلبا من مدة قصور أبيه فإن ملكة مصر قد أصلمتها عناية الملكة
 قلوبطره أم هذا الملك وذلك أن سيليقوس الرابع ملك الشام مع كونه أخا هذه
 الملكة وخال ولدها قد أراد أن ينهز فرصة طفولية هذا الملك ويستولى على
 ولايات مصر التي بسواحل الشام ووادي دمشق فاخترته المتينة في أثناء
 تجهيزه للغزو وحال بينه وبين ما يشتهي فصمم خلقته أنطيوخوس على تخبيز
 هذا المقصد فاقتضى الحال أن قلوبطره التفت لملكه ابنها حامية الرومانيين
 بأن تكون مصر تحت عنايتهم وملكها تحت كفالتهم فبعثت جمهورية
 الرومانيين من طرفها أميرا يقال له ايليوس لايدوس الى مصر وجعله كقبلا
 على هذا الملك الصبي وكان هذا الكفيل من طائفة أمنا الدين الكهنة
 فحانت الملكة قلوبطره بعد يسير من الزمن فعزل أهالي الاسكندرية
 هذا الكفيل وقتلوا الكفالة لتخمين مصريين وهما أوليوس الطواشي
 ولونيوس أحد أعيان الحكومة وكان ملك الشام قد استولى على سواحل
 الشام ودمشق فطلب منه هذان الوصيان إعادة هذه الأقاليم للديار المصرية
 وكذلك ملك الشام الذي هو أنطيوخوس طلب كفالة ابن عمته وقال انه أولى
 بذلك من الأجانب وفي أثناء هذه الحالة حضر من طرف الرومانيين الى مصر
 سفراء مقوضون بتجديد المعاهدة بين الجمهورية الرومانية والدولة المصرية
 على طبق شروط كانت بين الجمهورية وبطليموس الخامس فأنهم واقضت
 المعاهدة ولم يفصلوا الخصومة التي بين الشام ومصر فصار اشهار الحرب بين
 حكومتى مصر والشام وكان الرومانيون مشغولين اذئذ بالحرب مع برشاوش
 ملك مقدونيا فكان يتعذر عليهم اعانة بطليموس السادس محب أمه فاستولى

أنطونيوس يدون تعب ولا نصب على ولاية دمشق ويهودا وسواحل الشام
 الى حدوم مصر كما استولى على جزيرة قبرص بحضانه محافظها فتقوى
 أنطونيوس بنجاحه ورغب أيضا في الهجوم على مصر فاجتهد بطليموس أن
 يوقف سيره عنده مدينة فرما ويمنعه من دخول مصر وكان ذلك في سنة ٧٩٢
 قبل الهجرة فانهمزمت في هذه الواقعة عساكر مصر هزيمة شديدة ودخل
 أنطونيوس الى مدينة مصر بالنصر والتأييد ومع ذلك فقد أحسن معاملته
 بطليموس واعتذر له بأنه لم يقصد الحرب الاستيلاء على كرسى مصر
 ولكن ديوان الاسكندرية وجنودها وعساكرها لما رأوا وقوع ملكهم أسيرا
 وأنه صار في قبضة ملك الشام بايعوا على مملكة مصر أخاه بطليموس بدله وقبلوه
 أو يرجطه الثاني يعنى الرحيم وكان هذا الملك صبيًا فاصر اقلع علم أنطونيوس
 بذلك سار بجيشه لحرب الاسكندرية فتجهز من فيها للممانعة والمدافعة وبذلوا
 غاية جهدهم في ذلك وبعث بطليموس أو يرجطه الثاني وأخته قلوبطره سفراء
 الى الرومانيين للاستغاثة بهم وحاصر ملك الشام الاسكندرية وطالت مدة
 حصارها وفي أثناء ذلك أشاع يهود الشام موت ملكهم في حصار مصر فقامت
 قننة عظيمة في الشام وطلت في آذان أنطونيوس فعزم على العود الى مملكته
 فعند ذلك ذهب بطليموس السادس محب أمه الى منفيس رجاء أن اختلافه
 مع أخيه يكون وسيلة في استيلائه على مصر كما كان وقد ترك أنطونيوس
 محافظته بمدينة فرما فلم ينجح في ائادة القننة بين الاخوين وتوجه الى القدس
 فأخذها وسلب ما سلب ونهب ما نهب ففى أثناء غزوه مع يهود الشام اصطحب
 بطليموس محب أمه مع أخيه أو يرجطه الثاني بتوسط أخيهما قلوبطره
 في هذا الصلح وقصد أن يدافعا عن وطنهما كل جهدهما في حالة ما إذا خطر
 يال أنطونيوس أن يجهد الحرب ويغير على مصر والنساء أيضا من الرومانيين أن
 يعنوا جمعية مختارة لاصلاح ذات البين بين مصر والشام وصار قواد الجنود
 المصرية لقتال سفن أنطونيوس على سواحل قبرص الى حين حضور الجمعية
 الرومانية وفي فصل الربيع سنة ٧٩٥ قبل الهجرة هجم جيش جرار من
 الشام على مصر واستولى منها على جميع البلاد الى حد مدينة منف ونصبوا
 معسكرهم قرب الاسكندرية وكان قد حضر بوليوس ليناس سفير الرومانيين

فأوقفهم هناك ثم أخرجهم من مصر في أسرع وقت على أحسن وجه
ومع أن ملك الشام قد انفصل عنها كما هو مرام الآخرين فلم يطل الصلح بينهما
ولم تتمتع مصر بالراحة لحصول القتل وتولد الحرب الداخلي ولا يعلم تفصيل
هذه الحادثة وانما غاية ما وصل الى علم المؤرخين أنه نتج منها ذهاب أوجر جبطة
الثاني الى مدينة رومة ليستقيث بالجمهورية الرومانية فأرسلت الجمهورية
المذكورة سفارة أخرى وأقادت بطليموس أنها حكمت بأن ينازل أخيه
أوجر جبطة عن مملكة القبروان وبرقة لكن لم يقنع أخوه أوجر جبطة الثاني
بنصيبه في هذه المقاسمة بل ألح على مجلس رومة بأن يضم الى هذه المملكة قسما
آخر من الولايات التي تحت حكومة مصر فأضافوا الى ما تقدم جزيرة قبرس
فأبى بطليموس ملك مصر أن يمتثل لهذه الزيادة فغضب الرومانيون من ذلك
لأن لهم ان ذلك كمال النفوذ في الدول المشرقية والتحكم عليها لاسيما اذا قوض
اليهم الحكم فكان لأحد من ملوك زمانهم يعارض آراءهم فأصدر مجلس
رومة أمرا بترخيص سائر الممالك اليونانية وممالك آسيا وكانت متعاهدة
مع رومة أن تمتد عند الاقتضاء بالامدادات اللازمة أوجر جبطة الثاني وان
تنصره على أخيه فاستعان بملك الممالك وجهاز الجنود لقتال أخيه ومع ذلك
كله فكانت الهزيمة عليه وقد كان في قدرة بطليموس أن يصنع معه ما تقتضيه
العداوة من الانتقام لكن عامله بكارم الاخلاق وصفح عنه الصغ الجليل
واشترط عليه أن يقتنع بمملكة القبروان وبرقة وبعض مدن من جزيرة قبرس
ولاجل تمكين الصلح وبنائه على أساس متين وعد أن يزوجه أخاه ابنته كعادة
البطالسة في ذلك الوقت تشبها بملوك فارس الذين يزعمون أنهم ورثاؤهم
فبوسيله ذلك كله رجعت مصر الى الصلح التام والراحة العامة وبقيت على
ذلك عدة سنوات ثم انه كان في جزيرة قبرس حكمدار من طرف مصر يسمى
ارخياس فأراد خيالة مصر بتسليم الجزيرة لملك الشام حتى كادت أن تضرم
لذلك نار الحرب بين المملكتين كل الاضرار ولم يكن انكشفت الحيلة ولم
يستطع ارخياس أن ينجز خيالاته بل خاب أمه لظهور دذاته فيثس وقتل
نفسه فأضمر بطليموس العداوة لبطليموس ملك الشام بسبب اغوائه لحاكم
قبرس وقصد أن ينتقم منه فأعان اسكندر مراد صهره أن يدعى أنه ابن

أنطونيوس وأجلسه على سرير الشام بمحض دعواه وعزل دمتريوس سوطير
وكان ذلك في سنة ٧٧٥ قبل الهجرة وأمه في نصرته على دمتريوس المذكور
بالعساكر المصرية

فلما تولى الاسكندر مملكة الشام التمس أن يترجح قلب بطريرك بطليموس بحب
أتمه فجهر هاله أبوها وسار بها بنفسه إلى الشام وعمل لها أفراس عظيمة وفي سنة
٧٦٩ قبل الهجرة يعني بعد تولية الاسكندر بطليموس بست سنوات نهض
دمتريوس نقطاطور بن دمتريوس سوطير وقصد أن يستلب تاج أبيه من
اسكندر المقتصب الذي هو صهر بطليموس فأعان بطليموس اسكندر بجيش
عظيم برى وبحرى فأخذ بطليموس بجنده البلاد الشامية من فلسطين إلى عكا
وكلما تغلب على مدينة رتب فيها رباطا مصرية فارتاب من هذا الصنيع
أمنيسوس وزير اسكندر ملك الشام ونوى أن يقتل ملك مصر غيلة فاستشعر
بطليموس بذلك وأحسن عما نواه عدوه فطلب من اسكندر عقاب هذا الوزير
فأبى اسكندر أن يعاقبه فأشهر بطليموس الحرب معه وتغلب على مدن
سواحل الشام إلى انطاكية التي على نهر العاصى وفرق بينه وبين بنته وساعد
دمتريوس بن سوطير أن يأخذ مملكة أبيه ويجلس على كرسيه وزوجه ابنته
وانتحدث قوة مصر والشام فلما وصل بطليموس بحب أتمه إلى انطاكية ألبسه
أهلها تاجين أحدهما تاج مصر والآخر تاج الشام فأبى أن يلبس تاج مملكة
الشام بل أثر به دمتريوس المذكور وكان شابا فاذا انظرت إلى حقيقة هذه
الواقعة تجد أن ماضعه بطليموس مع دمتريوس نظير ماضعه قبله أنطيوخوس
في مدينة منف مع ملك مصر سواء بسواء حيث أن ملك الشام أعطى مملكة
مصر لوزير جيلة كما تقدم ولكن وصل اسكندر من بلاد القرمان مع جنوده
وتقابل مع أعدائه وتصادموا فانهزم اسكندر وهرب عسدرئيس حتى من
أحياء العرب فقتله في سنة ٧٦٨ قبل الهجرة وبعث برأسه إلى بطليموس
قتصادى موت بطليموس في هذا الوقت حيث سقط من ظهر جواده في أثناء
نصرته بعد أن حكم خمساً وثلاثين سنة وفي مدة بطليموس بحب أتمه هرب
أونياس الاسرائيلي إلى مدينة الاسكندرية بمصر واستاذن من هذا الملك في بناء
هيكل لليهود على محله هبداً يخفى مدينة تل بسطة لاطهار شعائر اليهود في

الديار المصرية على منوال هيكل بيت المقدس

(الفصل الثامن)

في الملك بطليموس السابع الملقب أوباطور أي الماجد الاب وبطليموس
الثامن الملقب أويرجيطه يعني الرحوم ويلقب فسقون يعني الباطن

أما بطليموس السابع الملقب أوباطور أي الماجد الاب فقد خلف أباه بطليموس
محب أمه في سنة ٧٦٨ قبل الهجرة وكانت أيام حكمه قصيرة جدا حتى لم
يذكره بعضهم في بطالة مصر بل كان لا يعلم للمؤرخين أنه تولى على مصر وإنما
نص أهل التاريخ على أنه كان من نسل البطالسة ثم ظهر للمؤرخين المتأخرين
استكشاف وثيقة معاهدة يونانية مكتوبة في ديوان مصر يؤخذ منها أنه ابن
بطليموس محب أمه وأنه تملك مصر ولقب بالماجد الاب وأنه تولى قاصرا وكفله
أمه قلوبطره وحكمت مصر بالنيابة عنه مدة يسيرة جدا بحيث لا تعد مدة
مستقلة في حثثذاتها بل متحدة داخله في مدة أخيه بطليموس الثامن الملقب
أويرجيطه الثاني يعني الرحوم الثاني

وأما أويرجيطه الثاني المذكور الذي هو بطليموس الثامن فسبب توليته
للملك أنه كان في زمن أخيه بطليموس محب أمه ملكا على القبر وان فشاع
موت أخيه قبل حصوله ولكن اعتقادا على التواتر صمم أن يسادر بالثقل على
مصر فجهز ذلك وتقوى بجنده وكذلك الملكة قلوبطره زوجة بطليموس محب
أمه لما تولى عنها زوجها الذي هو أيضا أخوها بادت بالمباينة لابنها بطليموس
الماجد الاب وكان صغيرا قاصرا فلما قدم بطليموس الثامن إلى مصر ووجد
أخاه قد مات وأن ابن أخيه قد تولى ملك مصر لم يظهر تطلب الملك بنفسه بل
تطلب أن يكون وصيا على مملكة ابن أخيه فأبى قلوبطره أن تمكنه من
الوصاية فجمع على الامكندية وتزوج قلوبطره التي هي أخته وزج في يوم
عقده عليها ابنها على حجرها يده وكان قد أمر يقتل أخرب ابن أخيه فقتلوا
عن آخرهم وبعد هذه الافراح والاتراح وسفك الدماء سم من أخته حيث
لم يكن الغرض من زواجها الا التمكن من التاج الملوكي فتزوج عليها بنتها من
أخيه وبقي مع الزوجين الام والبنت بوصف الزوجية وأبقى لكتيبهما عنوان

ملكة مصر فأوجب هذه القعلة الشنيعة بانضامها الى جبروته فتور جميع
رعاياء منه بالكلية فخشي عاقبة ذلك فاتخذ الجنود الاجنبية المحركة لحماية
نفسه ومحافظة ممالكه فاشتدت بذلك كراهية الخاصة والعامة لاسيما أنه
كان منهم كاهن على اللذات والشهوات ومصر على أنواع المعاصي فكره الجميع
منظره وقبح في أعين الناس صورته وكان قصير القامة ضخيم البطن لا يكاد
يقدر على المشي لهذه العلة المسببة عن الافراط في الشهوات واللذات ولهذا
لقبه أهل الاسكندرية بالبطين وقد طال حكمه من سنة ٧٦٨ الى سنة ٧٣٩
قبل الهجرة فبلغت مدته تسعة وتسعين سنة على ما كان عليه من
العسف وبغض الاهالي

ومن العجائب أنه مع كونه محقرا مبغضا عند جميع الاهالي الى هذا الحد
طالت مدته حكمه ولم ينزع الملك من يده ولكن متى ظهر السبب بطل المحجب
فقد استبان أنه كان له وزير عظيم حامل لآباء الملك وكان هذا الوزير راجحاً في
ميزان الاعتبار عند الجميع فبهذه الوسيلة وحسن التدبير والسياسة لم يزل ملك
مصر باقيا مع الخدم بحسن ادارة الخادم وهذا هو الوزير المسيحي هو هباراش
محاظ الاسكندرية فكانت مدته وزارته مائة لعط المملكة حامية
لها من الاختلال واقية لها من الزوال نعم انه في آخر مدته هذا الملك حاج
غضب الاهالي واشتد حقهم عليه فقامت الفتنة على ساق وقدم في سنة
٧٥٢ وحرقوا قصر الملك وأورجيلة الثاني الذي هو بطليموس الثامن فبادر
ذلك الملك بالهرب وقصد جزيرة قبرص واستحب معه قلوب طره الصغيرة وكان
مثير الفتنة ومقوم الاهالي قلوب طره الكبيرة التي هي أمها بدليل أنهم لما
كسروا تمائيل أورجيلة الثاني الذي هو بطليموس الثامن تلميحا بعزلوا
زمام الحكومة لهذه المملكة فبادرت بقبولها

ثم إن الملك لما سمع في أثناء طرده هذا الخبر استشاط غيظا وخشي ان تباع
المملكة لابنهامنه على ملك مصر فأرسل يأخذ ابنه في قبرص ليكون معه فيجترد
وصوله اليه أمر بذبجه ثم وضع أجرام في زنبيل وبعث بها الى أمه في
الاسكندرية فبينما هي مشغولة بعمل وليمة لمولدها اذ جاءوا اليها بجثة ابنها
مذبوحا ممزقا فجهزت لحرب أورجيلة الثاني كما تجهز لحربها وأكثرت كل من

بجنده وجعل أويرجيطه قائد جيشه هجما لوخوس وجعلت قلوبطره قائد جيشها
 مرسياس فلما التقى الجمعان في ميدان مصر هزم قائد أويرجيطه جيش الملكة
 قلوبطره ووقع مرسياس أسيرا في يد خصمه فبعثه إلى الملك أويرجيطه في
 جزيرة قبرص فأحسن معاملته وصفح عنه ليستميل بذلك قلوب المصريين وأما
 قلوبطره فمحرزيت في الاسكندرية وخلعت المملكة المصرية على صهرها
 دميتريوس نيقاطور ملك الشام فجاء حالا وحاصر القرم فقامت قيامة في الشام
 فعاد اليها سريعا فاضطرت قلوبطره إلى الهروب في الشام فهذه أمارت تسليم
 الاسكندرية صلحا لا ويرجيطه الثاني فركب سريسطه ثانيا وأراد أن يتقدم من
 دميتريوس فأغرى شخصا يسمى سيد اطمس على أن يدعى أنه ابن انطيوخوس
 ملك الشام وأن له حق في الملك عليها فقام ليدعي ذلك ويتطلب حقوقه فلقب
 نفسه اسكندر زائيناس وباعه أمانس كثيرون وحارب دميتريوس فانهزم
 دميتريوس بقوة خصمه الدعي وهرب في صور وقتله زوجته بهذه المدينة في
 سنة ٤٨ قبل الهجرة فانتقلت اليها هذه القعدة بمملكة الشام وكانت تعهد
 أن زائيناس يفض أويرجيطه الثاني فتقربت من أويرجيطه المذكور
 واستمرت على الحرب مع زائيناس فانتصرت عليه بعناية ملك مصر ومعاهدتها
 له وتزويجه بنته السماعة طروقانه لابنها أنطيوخوس أغرويوس لتأسيس المحبة
 وتأكيد هاتفي هذا الوقت استمر بطليموس الثامن الملقب أويرجيطه الثاني
 في أمن تام على مملكة مصر إلى أن حضرته الوفاة وقد سلك مسلك أسلافه من
 ملوك البطالسة من الزيادة في كتب خزانه الاسكندرية زيادة كثيرة وكان له
 مشاركة في العلوم الحكيمة والفنون الادبية فكان قد تلقى العلوم عن
 المعلم ارسطارخس الشهير بالمعارف الادبية وقد ألف هذا الملك بعض كتب
 ورسائل وفي أيامه كانت السفرة العلمية لاستكشاف بجزر الهند وكانت هذه
 أول سفرة سافر فيها المصريون لاستطلاع أحوال البحر المحيط الهندى تحت
 رئاسة القائد هودوشيش القوزيقي وكان شجاعا على الاسفار جسورا
 على اتمام البحار والقفار بحسن الارصاد الفلكية والملاحظات العلمية
 وتعيين المواقع الجغرافية فحاطر في الملاحه وطاف حول افريقية في هذه
 السياحة وتعم بالارصاد معرفة ما في البحر الهندى من الجزائر والبلاد في أيام

بطليموس المذکور وكان موت هذا الملك سنة ٧٣٩ قبل الهجرة وبعد
أن حكم تسعا وعشرين سنة كما سبق في أثناء الفصل وتولى بعده بطليموس
التاسع

(الفصل التاسع)

(في الملك بطليموس التاسع)

تولى بطليموس التاسع ولاية مصر في سنة ٧٣٩ قبل الهجرة وتولى ملكا عليها
الى سنة ٧٠٣ فتكون مدة حكمه ستا وثلاثين سنة ومن ضمنها مدة حكم
أمته قلوبطره الصغيرة كما سيأتي في آخر الفصل

ولهذا الملك عدة ألقاب فيلقب سوطير الثالث يعني الخالص وبوطونوس يعني
المحبوب ولاطوروس يعني الارقط لانه كان له علامة في وجهه وكان أكبر
ولدى بطليموس البطين من قلوبطره الصغيرة وكانت أمته تغضه وتحب أخاه
الصغير المسحى اسکندر وتؤثره عليه وكان لها سلطنة على قلب زوجها بطليموس
البطين فحلمته على أن يبعث هذا الولد البكرى الى جزيرة قبرس ليكون حاكما
عليها وقصدت بتغريره حرمانه من ولاية العهد وانتقال حق الملك لولدها
اسکندر الصغير ليخلف أباه فيما بعد على مصر بدون مانع وليغتنم هذه
الفرصة قبل أخيه الاكبر لكن مع ارتكابها هذا العمل خاب منها الفتن
وأخطأها الامل لانه بمجرد موت زوجها بطليموس البطين جبر أهل الدولة
المصرية قلوبطره الصغيرة على أن تحضر ابنها الاكبر من جزيرة قبرس لتقلده
مملكة مصر فادرت باحضاره وألبسته التاج الملوکی واشترطت عليه أن يطلق
زوجته قلوبطره أخته ويتزوج بدلها إحدى اخواته المسماة سيلانة المعهودة
الطاعة لاتها والمعروفة بـ **ك**مال الامتثال وعدم العقوق فطلق قلوبطره
وبقيت حاکمة على جزيرة قبرس واستقرت على التداخل في مصالح الشام الى
أن قتلت بأمر أختها طروفانة ملكة الشام وتزوج بطليموس لاطوروس
أخته سيلانة عملا بشرط أمته

ومع ذلك فقد بقيت قلوبطره أمته حاكمة عليه مضرة له العداوة ومريدة له
التلف فبجبر دأن ماتت بنتها قلوبطره حاکمة قبرس جعلت ابنها الصغير

اسكندر ملكا على هذه الجزيرة رجاء أن يعود منها ذات يوم ويصير ملكا على مصر فكانت دائما مصحمة على خلع ولدها الا كبر من مملكة مصر عند أول فرصه فكث كل من بطليموس التاسع وأمه فمناطويلا على ادمان العداوة والاصرار على السائس الخفية وكل منهما يعقد على حزب في الشام من أغراضه ثم انتهى الحال على أن أم الملك المذكورة اتهمت ابنها بطليموس التاسع بأنه هم بقتلها معا فحزبت عليه جميع أهالي الاسكندرية ليقسكو به ففر هاربا الى جزيرة قبرس في سنة ٧٢٨ قبل الهجرة وعاد إليها اسكندر الى مصر فبايعه المصريون وجعلوه ملكا على مصر به هذه الوسيلة

ومع ذلك فلم تترك قلوب اطرها ابنها الا كبر بطليموس التاسع آمن على نفسه في مدة ازوائه في جزيرة قبرس بل أرسلت اليه جيشا مصر بالخرجه منها ويحمله عنها فخرج بطليموس التاسع من قبرس الى سواحل الشام ومعه ثلاثون ألف مقاتل فهجم بهم على سواحل نهر الاردن وهزم اليهود الذين كانوا أعداء لانطيوخوس القوزيقي ملك الشام وكان هذا الملك معاهدا له واستولى أيضا على عكا وكانت في قبضة مصر فلما سمعت قلوب اطرها بهذه الوقائع جهزت جنودا مصرية برية وبحرية وسيرتها الى الشام وأخذت منه مدينة عكا وقصدت أن تخرج جزيرة قبرس من قبضته فنجحت عن ذلك ومكث الحرب بين الام والابن مجالا كل منهما غالب تارة ومغلوب أخرى الى أن انتهى بالمصالحة بينهما

ومكثت هذه الحروب مدة طويلة متجهة جهة الخارج وكلما انقطعت تتجدد بدلها فتتجدد اخلية في مصر فالتقت قلوب اطرها الى حسم الفتن الداخلية وقد رأت ان ابنها الأصغر اسكندر الاول الذي جعلته ملكا على مصر ولقبته بطليموس لم يكن مطيعا لا و امرها ونواهيها فأخذت تتحد عليه وتضمر له سوء كما فعلت بأخيه فقصدت أن تخلص منه بقتله عليه فبينما هي شاردة في تخطيط أغراضها اذا حس بذلك قد دارك نفسه بابسا حياته بقتل أمه فقتلها وأراح العباد والبلاد منها واستبدت من هذا الوقت ملك مصر يدون مشارك ولا منازع ثم ارتكب ذنبا آخر وهو نبش قبر اسكندر الاكبر وسلب التابوت المصوغ من الذهب المتضمن لعظام هذا الفاتح المقدوني فاذا طعمه الى سلبه بوضع

جثة اسكندر في تابوت مخضمن الباور قبعد هذه القعدة لم يمكث زمان طويلا
الا وقد جوزى بعمله وذلك أن منعيه أغضب الاله الى والجنود قعصوا عليه
جميعا فقرها ربا الى خارج مصر فاستدعى ديوان الاسكندرية حضور أخيه
بطليموس سوطير وطلبوه من قبرس لما آتسوه فيه من جيد السيرة وحسن
الاخلاق فالت اليه النفوس واجتمعت على محبته القلوب فحضر سوطير
الثاني بالاسكندرية وكان أخوه بعد أن خرج من مصر وصل الى بلاد بركة
فاستولى عليها وقصد أن يجتهد في الاستيلاء على قبرس فسار اليها بجند
ووقعت حروب بحرية بينه وبين جنود قبرس فهلك في هذه الواقعة سنة ٧١١
قبل الهجرة واتبأ بطليموس سوطير فسار بجنده الى مدينة طيوس مدينة
الصعيد وكان قد امتنع أهلها من مبايعته ورفعوا راية الخروج عن طاعته
فقاتلهم وهزمهم واستولى على المدينة وقتل وسلب وسبي ونهب فاباد هذه
المدينة التي كانت في مصر على كمال العمارة والزينة فلم تعد الى حالتها العليا
ولم تضر بعد ذلك أم مدن الدنيا

ثم ان المملكة المصرية عادت في أيام هذا الملك الحسن التدبير والسياسة لعلو
شأنها ورفعة مقامها كما كانت في السابق وصارت لها اليد العليا والشوكة
القوى على ممالك بلاد الشرق فان بطليموس التاسع أعاد لها شوكتها البحرية
بتعمير السفن التجارية والحربية وتمكين فن الملاحة فبهذا حسن حالها وعلو
قدرها وصارت مرغوبة للمعاهدات ومطلوبة للعصافات فقد التمس
مطريدا طمس ملك قبادوقيا وارمنستان تأكيد عهد المحبة وعقد المودة بينه
وبينها وكذلك التمس منها الرومانيون نظير ذلك وهذا مما يؤيد فخرها في تلك
الازمان ويزيد قدرها بين دول ذلك الاوان وكان بين ملك قبادوقيا والرومانيين
شفاق وخلاف فكان التماس كل منهما معاهدة مصر لقصد تحصيل القوة بها
ومع الحاح التماس بين الطرفين فقد أتى بطليموس التاسع أن يتعاهد مع كل من
القر يقيين وان يوالى مملكة من المملكتين ونوى أن لا يتدخل ظاهرا في حروب
بعضهما مع بعض والظاهر أنه كان يخشى اتساع صولة الرومانيين وقوة دولتهم
لأنها كانت دائما آخذة في التزايد شيئا فشيئا فكان يحاذر من مساعدتهم
ومع اظهاره خلوا غراضه كان يعين ملك قبادوقيا سرا فان من المحقق ان

الرومان لما أرسلوا قائدهم بوقولوس لحرب مملكة قبادوقيا بعثوا سفيرا الى ملك مصر يطلب منه الاعانة للقائد بوقولوس وكان المطالب لذلك سولارئيس الجمهورية الرومانية وامتنع ملك مصر من ارسال هذه المساعدة وكان ذلك في سنة ٧٠٧ قبل الهجرة وهذا مما يدل على شوكة مصر في ذلك الزمن حيث لم تلب دعوة سولارئيس الجمهورية الرومانية مع أنه كان لا يمكن اذذاك لاحد من ملوك الدنيا أن يخالف أغراض الرومان لما كانوا عليه من العز والسلطان

وقد مات ملك مصر المذكور حثف أنفه وترك مصر اذذاك في صلح مع غيرها من الممالك وكان موته في سنة ٧٠٣ قبل الهجرة ومدة حكمه وحده ومع أمته ست وثلاثون سنة وقد خلته بنته قلوبطرب بريقه على سرير الملك ولم تحكم الا ستة أشهر لا غير

(الفصل العاشر)

• (في الملك بطليموس العاشر و بطليموس الحادي عشر) •

يعبر عن الاقل باسكندر الثاني وعن الثاني بعنوان أوليطيس ومعناه الزاهر وكانت مدة ملكهما معا من سنة ٧٠٣ قبل الميلاد الى سنة ٦٧٤ نحو تسع وعشرين سنة وذلك أنه لما مات بطليموس التاسع كان الامير سولارئيسا على الجمهورية الرومانية وكان لاسكندر الاقل البطليوسي ابن سمي اسكندر الثاني وكان مقيما في ديوان متريدا طس نزى لاقبل ذلك عنده ولما جاء الامير سولا الى قبادوقيا قائد اعلى عسكر الرومان للعرب مع ملكها متريدا طس المذكور واستحسن اسكندر الثاني أن ينضم الى سولا ليعينه عند الفرصة على تولية مصر له فذهب الى سولا فأكرم نزله واستحبه معه الى رومة بعد انقضاء حرب قبادوقيا فلما تواتر الخبر عوت أخيه سوطير الثاني الذي هو بطليموس التاسع أرسل سولارئيس الجمهورية اسكندر الثاني ليتولى ملكا على مصر فلما وصل اسكندر الثاني الى هوبطليموس العاشر الى مصر قصد أن يحسم القسنة ويقطع عرق النزاع بينه وبين الملكة قلوبطرب بريقه فنزوجهما وشاركهما في الملك فبعد أيام قلائل قتلها ليتفرد بالملك فلما رآه رؤساء الجنود

المصرية معولا على دولة الرومانيين التي هي أجنبية وليس لها حق في المدخلة
في المصالح المصرية مع كون هذا الملك مغفوضا للمصريين في حثذاته ذهبوه
في ملعب الاسكندرية بعد تسعة عشر يوما مضت من ولايته

ولم يكن انذال البطالسة الا لغوسية أولاد ذكور من نكاح صحيح وانما كان
لسوطير الثاني وادم السفاح يسمى بطليموس أوليطيس يعني الزامر لتولعه
بسماع الزمار فولاه المصريون ملكا عليهم لقبوه بطليموس الحادي عشر ومن
المعاصم أن هذا الولد قد تولى ملك مصر مع اتمامه بوصفين مذمومين من
أعظم العيوب وهو كونه من السفاح وكونه تولى المملكة رغما عن أنف
الجمهورية الرومانية بدل ملك كان اتخذه الرومانيون ونظموه في سلك أحبابهم
ومعاهدتهم فكانوا بالضرورة لا يعترفون بملوكية بطليموس الزامر فهذا صرح
الرومانيون بأن توليته على مملكة مصر لا غية لا اعتدائهم ولا صادفت محلا
وأعلنوا أن سرير مصر خال عن الذات الملوكية المستحقة للتولية المعتبرة
الصحيحة وإن ملوكية مصر انحلت لاعتن وارث من السلسلة وآلت الى نظارة
جمهورية رومة بقتضى وصية اسكندر الثاني ملكها وسواء كانت هذه
الوصية صحيحة أو ادعاءية فكانت على كلتا الحالتين لا بد من تنفيذها جبرا
وأيضا كان في الشام من ذرية بطالسة مصر بنات خلفن ذكوراً وإناثاً من
ملوك الشام فكان يعتقدن تقديم نسلهن على بطليموس الزامر وإن نسلهن
الأولوية عليه وإن الرومانيين يساعدون على ذلك

وذلك أنه كان لبطليموس سوطير أخت في الشام تسمى سيلانة كانت زوجة
بطليموس القوزيقي ملك الشام وكان قد بنى لها من تعلقات مصر بعض مدن
على سواحل الشام كدنية عكا ولها ولدان من ملك الشام أحدهما يسمى
انطيوخوس والثاني يسمى سيليقوس فبعثت في ايطاليا ابنتها لتطلب من
جمهورية رومة أن تسعى في تقليدهما لملك مصر بقولها إن المملكة المصرية
انتقلت اليهما بالمراث من جهة أمهما فاستشعر بطليموس الزامر بهذا وبعث
من طرفه سرا عتقه سفراء الى رومة ليعارضوا مطالبة الملكة سيلانة
ويمنعوا انطيوخوس وسيليقوس من دعوى ذلك لأنهم ممن أمراء الشام
لا من أمراء مصر وليستقبلوا بالرشا والبراطيل بعض أمراء الجمهورية

الرومانية ليحكمونوا معه ومن اغراضه فوقعت المذاكرات والمداولات
في مجلس رومة مرارا وتكرارا في شأن مملكة مصر وهل يجوز أن ترسل
الجمهورية الى ديار مصر جنودا رومانية ليقبوا فيها اقامتهم وقوة لمنع
الاختلال ولحفظ المملكة من النزاع والجدال ولتكوين بطليموس الزاهر
أم لا يجوز وسبب المذاكرة والتطويل ما كان يدفعه وكلا بطليموس في رومة
من البرطيل فكانت لاتحل هذه المسئلة المعضلة بمدينة رومة بل يحصل فيها
التراخي والاهمال وأيضا كان للرومانيين في ذلك الوقت شغل أهم من هذا
وهو الحرب المفتوح بينهم وبين متريداطس ملك قبادوقيا فكان هذا الحرب
مما عاق الرومانيين عن الالتفات لمصر وتعيين اغراضهم فيها فلما هزموا ملك
قبادوقيا وفرغ الرومانيون من قتال مصر فواهمتهم الى الالتفات للمصالح
المصرية على وفق اغراضهم

فالتس اقراسوس ويولوس قيصر اللذان هما رؤساء رومة من مجلس
الجمهورية أن يصير ارسا الهما من طرف جمهورية رومة الى مصر لاجراء
ما تقتضيه مصلحة المملكة المصرية فلم يصدق مجلس رومة على ارسا الهما في
سنة ٦٨٦ قبل الهجرة التمس المستشار يولوس من مجلس رومة أن تضاف
مملكة مصر لممالك الرومانيين وتكون اية المنطقة بآلة رومة وكان في
المجلس قيرون الخطيب ويقال أيضا شيسرون وهو خطيب مصقع مشهور
بالفصاحة والبلاغة فأقام البراهين القاطعة على عدم صحة اضافتها رومة لما
في ذلك من مخالفة أصول الملل والدول واحتج أيضا على وجوب استقلالية
مصر في حداثتها وان تكون قائمة بنفسها مستبدة بأحكامها لاقتضاء
موقعها ذلك فحكم مجلس رومة بناء على جماع دلائله وبراهينه بتخليص مملكة
مصر من ورطة التبعية للرومانيين وقضى بإبقاء استبدادها بنفسها على حاله

ولما كانت الجمهورية الرومانية لاتزال تتوسع مصر بادخالها في اياتها
وتهددها بتبعيتها لها أوجب ذلك أن بطليموس صرف النظر عن موالة
الجمهورية الرومانية ومصادقتها في الباطن فلما انفتح الحرب أخيرا بين الرومانيين
وبين متريداطس اقتصر بطليموس على اظهار عدم التعرض للطرفين فلم
يساعد الرومانيين ولا أمتهم وكذلك لم يساعد متريداطس مساعدة ظاهرة

وانما كان بينهما امر اسلات سرية ومخاطبات باطنية فلما عاد جيش الرومانيين من حرب مصرية. اطس وكل الرئيس على الرومانيين الامير يوميوس وكان قد نزل بالشأم فبلغه في طريقه موت متر يد اطس الذي كان عدواً مينا لرومة أدخل هذا الرئيس الى حدود مصر فارتعب منه بطليموس الزاهر وأرسل اليه الهدايا الفاخرة وواساء كل المواساة والتمس منه ان يعينه على رعاياه وكانوا قائمين عليه مضرمين نار الفتنة في المملكة المصرية فأبى هذا الامير الروماني دخول مصر وامتنع من اعانة بطليموس فألح عليه بطليموس وطلب منه المعونة والمحاماة فأجاب به الى ذلك وكان في مدة حصار يوميوس لبيت المقدس أعانه بطليموس بالدراهم والنخائر فلما عاد يوميوس الى رومة وكان قيصر ملكا عليها وكان بينه وبين يوميوس محبة فأوصاه على بطليموس فشمله قيصر بنظره وجعله تحت حمايته والتمس من المجلس الروماني أن يقره على ملوك مصر بعد أن كان قبل ذلك قد قضى في هذا المجلس بنزع الملك من يده وكان ذلك في سنة ٦٨١ قبل الهجرة

وبالجملة فقد أنفقت السلالة اللاغوسية الاموال الجمة في تحصيل الحماية الرومانية فانه بعد هذا الزمن يسير قريبا بعض أبواب المجلس الروماني بتعالف بعض أبواب مجلس الالهالي الروماني نزع ملك جزيرة قبرس من يده ملكها أخى بطليموس الزاهر وادخل هذه الجزيرة في أملاك الجمهورية الرومانية فأجيب الى ذلك واعتصبت رومة جزيرة قبرس فأغضب ذلك ديوان الاسكندرية وأهاليها لانهم كانوا اذذاك لازالوا محافظين على التمسك بحفظ ناموس وطنهم وصيانة املاكهم أكثر من تمسك ملوكهم بذلك فالتمس أهل الاسكندرية من ملكهم بطليموس الزاهر أن يذل جهدهم في نقض معاهدة الرومانيين وأن ينزع من أيديهم جزيرة قبرس بالقهر والغلبة ويعيد أخاهم ملكا عليها وفي تلك الحالة لم يكن بطليموس أهلا لاجتياز ذلك ولا يربح منه الجسارة اللازمة لحماية وطنه فلماذا أجابهم بالتمنع وعدم الرضا بما التمسوه منه فقاموا عليه وأناروا الفتن والشرو ونفخ من مصر يدون أن يشعربه أحد وذهب الى رومة لالتماس الاعانة على رعيته حيث حرضوه على ما ينبغي فلم يقبل منهم ذلك وكان الرومانيون قد عينوا الامير قاطون حاكما على جزيرة قبرس وقد سار حتى وصل

وصل الى جزيرة رودس فذهب اليه بطليموس الزاهر بعد خروجه من مصر
 ليزوره فلم يكرمه بل لاهه على الخروج من المملكة وتركها وأشاور عليه أن يركب
 معه سفنه ليوصله الى مصر ويتوسط له في الصلح مع رعيته وأكده عليه في ذلك
 فأبى بطليموس الرجوع الى بلاده قائلاً ان مقيد السؤال الى مساعدة رومة
 أهون علي من عودي الى مصر لطلب الصلح مع رعيتي وفي أثناء هذه المدة كانت
 انقطعت أخبار بطليموس الزاهر عن رعاياه ولم ينفقوا له على خبر ولا أثر فظنوا
 أنه قد هلك وكان له بقتان كبيرتان وهما قلوبطره وفاقه وبرنيقه ثم بعثوا الى
 الشام سفراء ليلقوا من انطيوخوس خال الملكين أن يحضر الى مصر
 ليشركهما في المملكة وقد كان انطيوخوس ملكاً على الشام ثم عزل عنها بعد
 طرد الرومانيين ملك الارمن وكان الذي عزله عنها هو بومبيوس رئيس رومة
 فكان انطيوخوس مقيماً في الشام كآحاد الناس فلما ذهب السفراء لطلبه لم
 يجده على قيد الحياة فهذا فاقه المنصب الملوكي على مصر كافات أهالي
 الاسكندرية غرضهم من التعضيد فعرض السفراء هذه المشاركة على فليش
 أحد أقاربه السابقه للثقل على مصر ومدافعة الاجانب ولكن صدق عن
 السفر الى الاسكندرية فاجبوس قائد عسكر الرومانيين حيث لم يمكنه من
 ذلك فاستبدله السفراء بالامير سيليقوس أخى انطيوخوس فقبل المنصب
 وسار الى مصر فوجد قلوبطره وفاقه احدي الملكين قد مات بعد ان
 أشرك أخنخافي حكم مصر ستة كمله ووجد برنيقه منفردة بملك مصر
 فتروجهما سليقوس واشترى منهما في الحكومة المصرية وبعد يسير من الزمن
 قتله خنقا وترجعت بعده اريخيلوس كاهن هيكل البستان الذي يلاذ
 الارمن ويقال ان هذا الكاهن ابن متريد اطس الاكبر ملك بلاد الارمن
 وبقيت معه

وأما بطليموس الزاهر فكان قد اتقل من جزيرة رودس ووصل الى رومة
 وتدخل مع أرباب الحل والعقد من الجمهورية ودبر جميع ما يقدر عليه من
 الحيل والوسائل وتوصل الى الرومانيين ليعود الى منصبه الاصلى ويرجع ملكاً
 على الديار المصرية وأرفعت معه الامير انطونيوس الشهير الذي صار فيها
 بعد انفصال رومة وكان في وقت هذه المأمورية قد تقلد اماره قبادوقيا وبلاد

الاومن قعه للرومانيين بادخال بطليموس مصر وتصيبه على مملكته كما كان
وفي أثناء ذلك حصلت مشاجرة في رومة بين أعضاء الجمعية الرومانية وقام
التزاع والشقاق الداخلي على ساق وقدم وخروج بومبيوس من مدينة رومة
مغضباً فأعادت هذه الفتن والحمن الرومانية تخبيز سفر بطليموس الى مصر بل
كان خروج بومبيوس من رومة على الحالة غير المرضية محض ضرر على
بطليموس لانه كان مظاهراً ومناصر الاغراضه فبقى بطليموس في رومة عديم
الجاه قليل الخيلة وأما أهالي الاسكندرية فأنهم الما بطقهم خبر حياته وتشبهه
بالسبي في رومة لنيل مراده أرسلوا الى رومة سفراً لتبسيط همته والسعي
في تقيض مراده ونهبوا على سفرائهم أن يعددوا معايه ويترافعوا معه
بالتبابة عن الاهالي في مجلس رومة فصيل بطليموس الزامر في قتل أكثر هؤلاء
السفراء وكانوا تحت رئاسة الاميرديون فجذب بطليموس اليه هذا الرئيس
وصده عن أداء أمور يسه اما بالرشوة أو التهديد فلم يعد الى مجلس رومة
للمرافعة ولا الى التشكي لجمعية الرومانيين فلم يتم أمر قضية بطليموس الزامر
وعود ملكاً على مصر الا في سنة ٦٧٧ قبل الهجرة لما تولى بومبيوس حاكماً
على الرومانيين وتلقب قسلاً عليهم وتقلد هذه الرئاسة العظمى فانه حين ذلك
حرر الاوامر الاكيدة الى غابريوس قائد جنود الرومانية المأمورة بالغزوة
الفارسية ان يعيد بطليموس ملكاً على مصر ويصبه ليجلسه على كرسى مملكته
وسلم هذه الاوامر الى بطليموس ليذهب بها الى ذلك القائد

فلما وصل بطليموس الى الشام وجد غابريوس عازماً على عبور نهر الفرات ليعيد
على مملكة من عمالك الفرس متريدا طس الثالث الذي كان طرده أخوه منها
وهذه المأمورية تعادل مأمورية إعادة ملك مصر الى مصر سواء بسواء بالنسبة
لقائد الجنود الرومانية وانما غزوة مصر أسهل وأقرب من غزوة فارس وأرجح
منها بالنسبة للقائد المذكور لان فيها دراهم معدودة وبراطيل موعودة فان
بطليموس قد صرح لهذا الامير بذلك ووعد بالدراهم غير مرة فلما طن في أذنيه
رنة الدراهم والذناير رجع مصالحة بطليموس على مصلحة متريدا طس الثالث
فتأخرت نصرة هذا الامير ومع أن قانون الرومانيين كان يأبى خروج الولاة من
ايالاتهم وأنهم انما يرسلون من يقوم مقامهم في مثل هذه المأموريات حتى

لاتقومهم ادارة األعلمهم بأنفسهم فقلنا ان هذه الرسوم غابنوس وأتاب
عنه ولده في ادارة الشام مدة غيابه وسار بنفسه مع بطليموس الزامر الى مصر
وقد أمته اليهود بأصناف الامدادات وكان قائدهم كرهه مرقوس
أنطونيوس محب بطليموس الذي سألني قرياً أنه يستترك مع قلوبطرس ملكة
مصر في التسلط على مملكة مصر وأنه يتزوجها ويشاركها في الزينة والرفاهية
المصرية فوصل هذا القائد امام مدينة فرما بمصر مع فرسانه الرومانية وتقلب
عليها بدون قتال بل بخيانة المقيمين بها من اليهود فقدم اريخيلوس زوج الملكة
برنيقة وكان شجاعاً في الحرب صنيدياً شديد الطعن والضرب فوجهم على جند
غابنوس الروماني على مقرية من فرما فانهم زرع جيشه ودخل جيش الرومانيين
في الديار المصرية من جهة الروم كذلك دخلت سفنه قهرامن بوغاز البحر
وسلكت في النيل وسارت وهي صاعدة على ظهر هذا النهر

ومع ان أهل الاسكندرية كانوا يغضون بطليموس الزامر في الباطن والظاهر
لانهم لا يترقبون منه الاضمار السوء الا أنهم لما رأوه قد وفد عليهم ودخل
البلاد وصار بين يديهم ورأوا أن اريخيلوس زوج الملكة معهم على
مدافعة الرومانيين وممانعتهم وأنه يجهز الاسكندرية للمحاصرة والدفاع
خافوا عاقبة هذا النزاع مع ما جلبت عليه طباعهم من الخفة والطيش وقد
كرهوا المدافعة لظنهم أنها غير نافعة فكثروا فطهم واشتد سطهم لاسيما لما رأوا
ان اريخيلوس يرسم خطوطاً مستحكات هندسية ويخطط اخاديد تحفظة
ويحفر الخنادق للممانعة فانهم ازدادوا خفاعة عليه ومع ذلك فقد أراد أن
يقاوم مقاتله جديدة بالمهاجمة فاجتهد في تحصيل الظفر والتأييد فخاب
في عزيمته وانهمز وقتل في هزيمته فجلس بطليموس الزامر على سرير الملك ثانياً
بعناية الرومانيين

وأما انطونيوس قائدها كرا الرومان فإنه لما علم بقتل اريخيلوس رثى لحاله
وتأسف عليه وشيع جنازته بأعظم المحافل لانه كان قد أضافه قبل ذلك بمصر
فأكرمه غاية الاكرام فأدأى اليه بعد موته ما يليق به من كمال الاحترام وبمجرد
دخول بطليموس الاسكندرية وعوده الى كرسي السلطنة المصرية سلك في
الاتقام أشنع طريقة فابتدأ يقتل منه برنيقة وسفك دماء الأغنياء والاعيان

وضبط أموالهم وأهدأ أهل الرومانيين المتعصبين معه حيث نصره على
الانقسام والاقتران ثم ذهب غابنيوس مع قائده أنطونيوس من حيث أتى منتقلا
بالخنازير والأموال وأبقى لبطيوس من بحر سم من خول الرجال وهم من الغلبة
أي قداماء الفرنساوية

فعاد لبطيوس في هذه المرة ملك مصر ولم يصنع فيها شيئا من المنافع كما أنها
في الدفعة الأولى لم تتفع منه مصر شي مومات في عنقوان شبابه وكان موته في
سنة ٦٧٤ قبل الهجرة فكانت مدته مع مدققين حكم قبله وبعد حكمه
الأول نحو تسع وثلاثين سنة وكان قد أرسل قبل موته إلى مدينة رومة سفراء
ومعهم وصية لمجلس الرومانيين ليحفظها بومبيوس تحت يده مضمونها أنه
أوصى بممالك مصر لا كبراً ولأولاده وكبرى بناته بشرط عقد الزواج بينهم ما حين
يلوئهم ما سن الزواج وأن يشتر كل معاً في الحكومة شيوعاً وأن يكون الرضى
عليهما الأمة الرومانية وأن تعاملهما بمنطوق العهد نامه المتعقد مع الجمهورية
الرومانية والدولة المصرية

(الفصل الحادى عشر)

(في الملك بطليموس الثانى عشر وبطيوس الثالث عشر والملكة قلوبطره)

كانت مدة ولايتهم من سنة ٦٧٤ إلى سنة ٦٠٢ قبل الهجرة النبوية فتكون
مدة ولاية جميعهم نحو اثنين وعشرين سنة

ويبان ذلك أنه لما مات بطليموس الرابع تولى بعده على مصر ابنه بطليموس
الثانى عشر الملقب ديمس أى النجار عملاً بوصية أبيه ولم يكن عمره الا ثلاث
عشر سنة فكان حاضراً وكان عمر قلوبطره الشهيرة الموصى لها بالملك بالمشاركة
مع أخيها سبع عشرة سنة فكانت أهلية السياسة والتدبير منحصرة فيها
دون أخيها لعدم رشده فأقيم عليه ثلاثة أوصياء من أعيان المملكة المصرية
وهم بوطين الطواشى وطبودوطس وزير الداخلية وأخيلاس رئيس الجند
وكان هؤلاء الثلاثة أعداء لقلوبطر من حيث أغراضهم الذاتية
فكانوا لا يرغبون فى اشتراكها مع أخيها فى الملك فكان اشتراكها معه معباً
على نفوسهم والمعرضة للتولية المذكورة على مجلس الرومانيين صدق

عليها جميع أربابه وبمقتضى هذا الاقرار والاستصواب صارت الملكة وأخوها بطليموس الثاني عشر منطوعين في سلك الملوك المعاهدين للرومانيين ومعدودين من أحبابهم ومحسوبيهم وفي هذا الزمن بعينه كانت بداية الدولة الرومانية بين يدي أميرين رومانيين مشتركين وهما بولس قيصر وبومبيوس وكانت قد ظهرت بينهما العداوة وحصل القتل الذي لا حزن عليه واتقسم الرومانيون الى حزبين بحسب اغراض الرئيسين واتفرد كل منهما بحزبه وحصل القتال بين القرينين المتحزبين فصمم بومبيوس على أن يهاجر من رومة الى البلاد اليونانية وكانت معدودة ضمن الايلات الرومانية وتجهز للارتحال فأرسل أكبر أولاد مع قائدهم حزبه يسمى قورنيليوس سيون الى مصر ليجمع له منها عساكر يستعين بها على خصمه قيصر فأمدته قلوبطرمه بالزاد والراحلة واعانته بستين سفينة مصرية وبالعساكر الغلبة التي كان أبجهاها غابنيوس في مصر لحرس الملوك البطالسة وقت أن أعاد بطليموس الزاهر وكان عددهم خمسمائة مقاتل فسار ابن بومبيوس الى أسيه بهذه الامدادية ولم تكن على غرض أو مسياه بطليموس فقتلوا على قلوبطرمه هذا الصنيع وحنقوا كل الحنق وحزضوا أهالي الاسكندرية على القيام عليها والخروج عن طاعتها فثار ثائرة عظيمة يخشى عاقبتها فخافت على نفسها وفرت الى الشام مع اختها الصغيرة المسماة أرسنويه

وتصادف في ذلك الوقت أن بولس قيصر هزم خصمه بومبيوس عند مدينة فرسة بولاية ترحاله ففر بومبيوس هاربا الى مصر وكان بطليموس الثاني عشر انذرا فاصدا للمصر من الاسكندرية الى الخارج ليقتلوا ثأر اخته قلوبطرمه ويحاربها فلاح سفين بومبيوس وعلم انه جاء الى مصر مستنجرا به لاله عليه من اليد البيضاء حيث أعانه على توليته ملك مصر فلما رأى بطليموس أن بومبيوس جاءه نزلا مستصر خالجه من قيصر لم يحسن نزله ولم تأخذه الخوة للملوكة ولا القوة والارحية على أن يحمي نزله لاسيما وان له عليه سابقة معروف واحسان بل عامله معاملة الخائن الجبان المقابل النعمة بالكفران فقتله ليشتت فيه خصمه ولم يراع حقوق المنة والنعمة فشتان بين صنيع بطليموس ملك مصر وبين صنيع محمد بن معاوية عامل مصر حيث أجار رجلا من روح من

صالح بن علي في أيام الخلفاء العباسية وذلك انه لما ولي صالح بن علي علي مصر
من قبل ابن أخيه أبي العباس السفاح خرج عليه رجاؤه بن روح بفسطاطين مع
عمه الحكم بن ضبعان المتولي على شرطة مصر فأرسل اليهم صالح بن علي أبا
عون ومحمد بن أشعث الخزازي فهزما الحكم وبلغ صالح بن علي ان رجاؤه بن
روح دخل مصر واستجار بمحمد بن معاوية فأجاره فأرسل اليه فحضر فقال له
ألم أكرمك ألم أشرفك قال بلى فقال جزائي منك ان أجرت عدوتي قال ومن ذلك
أيها الأمير قال رجاؤه بن روح فأت به قال أصلى الله الأميراً اختواحدة من
انثنين في فيهما براعة أمان أني صدر لئلا يعين أو ترسل رجلاً من ثقاتك يقتل
منزلي قال أو تقتل قال نعم فأحلفه بطلاق زوجته وعتق عبده ومشيته الى
مكة راجلاً حافياً خلف محمد بن معاوية له ثم انصرف الى منزله وأعلم زوجته
فاعتزلت عنه وقالت له لا تنقطع عني ثلاث عربك فلما عزل صالح بن علي عن
مصر ورجع الى بغداد أظهر محمد بن معاوية طلاق زوجته وأعتق رقيقه
ومشي الى مكة كما شرط عليه وما أحسن قول الشاعر

هو المرأة أماماً له فحل * لعاف وأما جاره فحترم

فبطليوس ملك مصر لم يرع حق الجوار كأحد ولاية مصر في أيام الاسلام
فلما حضر قيصر بنفسه امام الاسكندرية متبعا خصمه وكان بطليوس اذذاك
بقريب فرما يريد السفر الى الشام رجع حالاً الى الاسكندرية ولما أرى قيصر
على بئر الاسكندرية حضر طيودوس وزير بطليوس الى يولس قيصر برأس
بومبيوس ووضعها بين يديه فكان أول شيء وقع عليه بصر قيصر رأس خصمه
فلم يملك قيصر نفسه من اسالة الدموع على قرينه ورثى لحاله وأظهر الاسف
والحزن وجهه فحازته بكال الاحتفال كما يليق بحمام خول الرجال والامراء
الابطال ومع انه كان هزموه واتصر عليه في حال حياته نصرته بحبيبة والجاه الى
الهرب الى مصر فقد أحسن معه الصنيع بعد موته وعامله بمكارم الاخلاق
اللائقة بأكابر الامراء وأمراء الكبار وسيأتي انه ولو أمهل بطليوس
وأبقى عليه الا انه سجنه ثم أطلقه بشروط ثم غزاه وأغرقه هو وجنده في النيل
وما هذا الا لاختبار اقلنيوس فستان بين سوء خلق بطليوس وحسن خلق
قيصر فذهب الملقى قديم ولا ياباه الا كريم

لم يبق في الناس الا الشوك والملق * شوك اذا اختبر واوردا اذا رمقوا
 فان دعاك الى ايلافهم قدر * فككن سعي العمل الشوكي يحترق
 وما فعله قيصر في حق بومبيوس بعد قتله تطير ما فعله الاسكندر الا كبر في حق
 دارا خصمه بعد موته يقتل اسباعه له فانه أسف عليه غاية الاسف وقتل فانه
 وأما قيصر فلما وجد خصمه قد مات مقتولا ولم يكن له حاجة بمصر غير قطع عرق
 النزاع مع خصمه قصد الرحيل منها حالا الى مدينة افرقية بالمغرب وكان قد
 تجمع في هذه المدينة ما بقى من أحزاب بومبيوس ولكن عاقبه عن السفر
 اختلاف الرياح فأقام بالاسكندرية ثمة نابل كان الموجب الحقيقي لاقامته
 بالديار المصرية انما هو تعلقه بقلوب طرده لانها كانت بديعة الجمال وكان قد
 أحضر هامه من الشام الى مصر وأعادها ملكة كما كانت وأصلح بينها وبين
 أخيها بطليموس الثاني عشر

وكان أهل الاسكندرية يتشبثون دائما باستقلال وطنهم ويتغالون في محبة
 حريتهم ويكرهون توسط الرومانيين في المصالح المصرية فلما حضر قيصر مصر
 وأصلح بين قلوب طرده وأخيها بطليموس المذكور أغضب ذلك المصريين قتلهم
 بوطين الطواشي للوجوه والاعيان من هنك ناموس المملكة المصرية وعدم
 رعاية حرمها من طرف قيصر الذي لم يراع حقوق مصر ثم أمر بوطين المذكور
 الامير أخيلاس قائد الجيوش المصرية أن يهجم على الاسكندرية ويقا تل
 بطليموس المذكور وكان قيصر قد أمر بصرف جنوده وتخليه سيولهم
 وخروجهم من الاسكندرية حيث لا حاجة لهم فلما هجم جند مصر على
 بطليموس دبر هذا الملك الهروب من قصره ولحق بمسكرو قيصر ليعتق فيه ولم
 يكن مع قيصر من العساكر يحميه الا ثلاثة آلاف نفس فكان في
 حيرة عظيمة في أمر هذه المدينة العامرة الغاصة بالاهالي المطبوعين على خلق
 ماؤكهم فاراد قيصر فسكرين القننة وتلى عليهم وصية آخر ماؤكهم ووعظهم
 الموعدة الحسنة ليدفعهم بالتى هي أحسن وأمرهم بأن يعطوا جزيرة قبرس
 لذرية بطليموس الزامر وهما أرشويه وبطليموس القاصر ليشترا كافى بملكتهما
 وأزمنهم ذلك بوصف كونه رئيس الرومانيين ومنقذ وصية ملك مصر وكالناظر
 الحسبى على مصالحها وان توسطه ليس من تلقاء نفسه ولا لافهار جاهه

فسكرت القنسة سكونا، وقام حاجب ثانيا بخريرى الوزراء الاوصياء الى
 وجدوا ان وصايتهم قد زالت وان تصرفهم قد انتهت، باتقاه منهم الى الرومانيين
 فخرضوا جميع الالهالى على القتال واتحد بوطيق الطواشي بالامير اخيلاس قائد
 الجيوش المصرية وغيرهم وصمموا على اهلاله قيصر ومن معه من الرومانيين
 بالاسكندرية فجاء اخيلاس اليها بجيشه وكان يبلغ اثنين وعشرين ألف مقاتل
 ونصب معه كرها امام الاسكندرية واقاد الرومانيين ان تسكن القنسة
 لا يكون بدون تسليم قلوب طره للاهالى لينتقموا منها كما يشاؤون فلم يررض قيصر
 بتسليمها واختار الاقامة فى الاسكندرية محصورا ومسجونا واثرا للمكاره
 الشديده على تسليم هذه الملكة للاهالى يستنجون دمها ورأى ان ذلك محل
 بناموسه وموجب لاتصافه بالخسة ودناءة الهمة فشرع أهل الاسكندرية
 فى وضع يدهم على سفنه واستيلائهم عليها فلم يكنهم منها بل أضرم فيها النيران
 حتى انتشرت الحريقه منها الى القصر المائوى واحترقت كجفانة البطالسة
 الموصلة الى هذا القصر وقد سبق انهم جمعوا فيها عددا كثيرا من كتب الدنيا
 مع ما تجدد عندهم من التاليف العديده ومن هنا يتضح ان نسبة حرقها الى
 عمرو بن العاصى بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنهما انما هو
 من اشاعة المؤرخين الذين لا علم لهم بالحريقة المذكورة الواقعة فى أيام
 البطالسة فلامعنى حيث نلن يشق الغارة باليوم على أمير المؤمنين رضى الله
 تعالى عنه بأنه حرق كتب العلوم الاولية وينجا كانت عساكر قيصر القليلة
 العدد الكبيرة الشجاعة مشرفة على قبور الهمة مما فاسوه من النصب
 والتعب انجاهم الفرج على حين غفلة بقدوم فرقة عسكرية وذخائر
 وامدادات حضرت اليهم من رومة فاستقبلها قيصر بنفسه فهذه الامدادية
 المنضمة الى العساكر البحرية اتصر قيصر على أهالى الاسكندرية وهزمهم
 شرهزيمة حتى التجؤا الى طلب الصلح من قيصر وأرسلوا اليه من طرفهم رسلا
 مفوضين فى ذلك فالتس منه الرسل اطلاق بطليوس الثانى عشر وكان محجوزا
 عنده فصالحهم على اطلاقه بشروط معلومة وأطلقه مع علم قيصر بغيره
 وخيائته وانه خصه ولكن اثر الاسكندرا ان يكون خصه سلكا وان يكون
 حربه مع هذا الملائدون الالهالى لان الحرب مع ملك يجمع عساكر معينة محمكة

يستعين بها على خصمه أسهل من الحرب مع الالهالي بتمامها حيث لا يمكن القبض على جله الالهالي فضرية الملك الملك مثله وحر به معه أولى وأقرب من ضربته لالهالي مملكة بتمامها وحر به معهم وأقرب للانتصار

فبعد ذلك ما تحلص بطليموس الثاني عشر من قبضة قيصر أظهر لرومانين أشد المعاداة وقصد قيصر بالمضرة والايذاء ولكن من سعد قيصر حضور مرتد اطمس والى برغام لمساعدة قيصر مع الجنود الرومانية التي كانت في اناطلي والشام وفلسطين وكان قد هجم على عساكر قيصر جيش مصري يمنعه من المرور بالشام فهزمته عساكر اليهود ووقع حرب عظيم آخر بين قيصر و بطليموس على سواحل النيل فهلك في هذه الواقعة بطليموس الثاني عشر عقب انهزامه وفراره مع فرقة عظيمة من جيشه غرقوا جميعا في النيل وقد نفثهم الامواج على الساحل فقررت جثة بطليموس بما وجد به من الدرع المصوغ من الذهب الذي كان مذكرا به وكان موته في سنة ٦٦٩ قبل الهجرة بعد أن حكم خمس سنوات

وبعد موته جلس أخوه بطليموس الثالث عشر على سرير الملك بأمر قيصر لأن قيصر تغلب في غزوه التي مات فيها بطليموس على الاسكندرية ومصر فكان يقتدر أن يجعل مصر ولاية رومانية من جله عموم ولايات الجمهوريه الرومانية ولكن استصوب تنفيذ وصية بطليموس الزاهر وأثر تنفيذها على شقاء أطماعه فولى بطليموس وكان فاصرا مملكة مصر ليشترك مع أخته كلوبطره في الحكم وأبني لحرس كلوبطره وصيانة مملكتها فرقة عسكريه غلبه أي فرنساوية خيفة من أن ينزع احد الملك من يدها واستعجب معه الى رومة أختها ارستويه لانها لو بقيت في مصر لحصل بوجودها في المملكة قسنة عظيمة فوصلت هذه الاميرة الى رومة أسيرة كأنها غنيمة من جله ما اعتمه قيصر من مصر ودخلت في رومة في الموكب المنعقد لقيصر وقت دخوله في رومة فن هذا الوقت صارت كلوبطره قابضة على زمام مملكة مصر ولهادون غيرها في المملكة الحل والعقد وأما زوجها الذي هو أخوها فكان ملكا صوريا فقط

وفي سنة ٦٦٨ قبل الهجرة يعني بعد جلوس بطليموس الثالث عشر على كرسي المملكة بسنة واحدة سارت كلوبطره هي وزوجها الى رومة فتلقاها

الرومانيون تلقى المصير المتعاهدين مع الرومانيين وبعد سنتين من هذا التاريخ مات بطليموس الثالث عشر عقب ثلاث سنوات من حكمه ويقال إن أخته
 قلوبطره بعته

ومادام قيصر على قيد الحياة لازالت قلوبطره باقية بحمايته وجاهاه تحت عناية
 رومة وحمايتها ومن هنا يعلم أن ملك مصر في ذلك الزمن كان متعلقا برومة
 غير مستقل بنفسه وكان في حى الرومانيين وقد اتفق في تلك الازمان أن قيصر
 عظيم بأسه وقويت شوكته وظهر منه قصد التعدي على الجمهورية الرومانية
 وحرمانها من الحرية وانه اذا دام على هذه الحالة تسلطن عليها حسا ومعنى
 وكان حزب الجمهورية قويا وكان فيهم شجاع يسمى بروطوس دعى بمجهول
 الالب الا أنه كان مشهورا بمذهب الحرية ومتعصبا للجمهورية وكانت
 أحزاب الجمهورية قد أضمرت على التخلص من رئاسة قيصر بقتله فخرضوا
 بروطوس على ذلك وقالوا له لو كنت شجاعا ما بقيت في العبودية على هذه الحالة
 فتكهن الاغرام من قلبه وقال للحزب دليل شجاعى اطلاقكم من أسر
 العبودية وجرّد خنجره وأقبل على قيصر في المحفل العام بالمجلس وطعنه بفرع
 عينه قيصر اليه وصاح قائلا قد طعنت يدي ولدى وفي الحقيقة كان
 بروطوس بن قيصر من السفاح والى وقت قتله اقيصر لم يعلم انه أبوه فندم على
 ذلك وخلص الرومانيون من قيصر ووقعوا في أسر من هو أشد منه وهو
 أغسطس قيصر أول ملوك القياصرة كما سيأتي في سائر الدولة الرابعة
 والعشرين

فلما قتل قيصر محبوب قلوبطره كان يخشى على مصر من هجوم قيسوس
 الروماني حاكم الشام فحاطرت قلوبطره بنفسها والتجأت الى المجلس الروماني
 وتوصلت بعد موت أخيها الى غلين أصغرا ولادها التي زعمت انها ولده من
 قيصر ولقبته بطليموس قيصر ون يعنى القيصر الصغير ويجعله بعض المؤرخين
 بطليموس الرابع عشر وكان أنطونيوس أحد الشركاء في دولة الرومانيين قد
 عشق قلوبطره بمجدد ما رآها بعد موت قيصر وجاها حامية كاملة وفيما بعد
 تزوج بها وارتبط بحته بجنها وتحتها بطنها فكان لسان حالها في هذه الحالة
 ينشد

ان ضاق بي بلدي عمت لي بلدا * وان تأني منزل بي كان لي بدل
 وان تغير لي عن وقد رجعت * أمني الموقتل من بعد رجل
 لم يقطع الله لي من صاحب أملا * الاتخذ لي من صاحب أمل
 وبيان ذلك ان أنطونيوس لما أدخل قلبه بطرمت تحت حمايته كان قد قصد أن
 يسافر للغزو في مملكة من ممالك العجم وكان قد ارتأى في سياسة هذا الملك
 واشتبه في أمرها وخشى أن لا تكون صادقة في محبتها فتساعد أخصامه عليه
 فأراد أن يتحقق أمرها ويعلم حقيقة سلوكها معه تفصيلا فتدع عليها في
 الامتحان والاختبار حتى طلب منها مقادير جسيمة من المال فلم تقصر في ذلك
 فعزم عليها أن تسير من مصر بعد وصوله الى مدينة طرسوس وتصل اليه هناك
 وتبادر بمقابلته فيها وكانت قلبه بطرمت تعلم منزلتها عنده ومالها في قلبه من شدة
 المحبة وانها متسلطنة على فؤاده فسلكت مسلك الدلال والخفرو لم تبادر
 كرجوه الى السفر بل أخرت السير الى جهة طرسوس ثم لما لحظها الهوى على
 السير سارت حتى وصلت الى ايلة سلفقة فركبت نهر قرصو وهو نهر طرسوس
 وسارت في سفينة مذهبة الاطراف والاكاف أرجوانية القلوع والستائر
 الحرير وكانت أمواج البحر تضطرب بالنسيمات على نفقات العبدان والمزامير
 وروائح الخور يعبق شذاها بسائر الارياق فتكذب الروائح المسكية وبفوح
 منها الى سائر التواحي روائح الطيب الزكية حتى امتلأت شواطئ النهر من
 رباها فلما لحق أهالي مدينة طرسوس انه قد هل عليهم كوكب الزهرة المصرية
 وموكب ملكة الجمال القيصرية ولاحت أنوارها الاشراقية بأفاقهم المشرقية
 هرعوا جميعا الى هذا النهر للتملي رؤياها والتعطير برباها وكل استقبال جميل
 يحياها ونصبة الملوك يحياها ولم يتخلف الا أنطونيوس انبى في مجلته السعيد
 ولم يسع لاستقبال هذا القمر المنير من بعيد بل استدعاها أن تحضر امامه
 حيث قدمت الى المدينة باللامه فلم ترض هذه الملكة الابسعيه اليها على
 الاقدام وقدومه عليها ولا لاطهارا لتجميل والاعظام فأجاب الى مطلوبها
 ولي دعوتها كرجوها وكانت على غاية من البهاء والجمال ونهاية من التزين
 بأنقر ما عند هامن حل الكمال فتعجب أنطونيوس من زهوها وجمالاتها بهذه
 الحالة وصهرت لبه بما كانت عليه من الجمالة والحلافة فأدخلها في مجلسه الملوكي

القائى فخطرت كعصن البائة المتأود فحق لسان حال انطونيوس أن يشد
بحسن يوسف من مصر دت ملكه * وللهى نصبت من دلها شبكه
مصرية لملولك الروم ماسرة * هندى الحانها من صلبه فتكه
لاغر ومن فلك يرتج ان خطرت * فكم لى القلك الدوار من حركه
يطالع القلب باب الاختصاص بها * وقد غوى فى الهوى من يقبل الشركه
ثم هيا لها من الوليمة الفاخرة ما هو بعفاه ومقامها من اللائق فابتهج مجلسه
بها كمال الابتهاج واتفتشت اشعة ما علم من الجواهر والملابس الزهية
على ارجاء المحل فكانت كالسراج الوهاج فكان المجلس يسطع على جوانبه
أنوار الاشكال المتنوعة وتلا لا على اطرافه واكافه لواضع أنوار
الاجسم التورائيه المجتمعة فالتحدث الانوار الحسية بالمعنوية فى محفل
هذه الوليمة البهية وما ذاك كله الامن بهجة هذه الملكة المصرية ففى هذا
الوقت أخذت بجماع عقل أنطونيوس وسهرت لب هذا البطل وشموس
الحسن المصرية تستولى على النفوس فجعلت من هذا الوقت طوع عيدها
وأسير قيدها فجلبته معها الى الاسكندرية وانعقد بينهم عقد الزوجية
وذاق معها فى هذه المدينة نعيم الوصال وتلذذ منها بشهى طعم الحسن
والجمال وذهل نظرفته عن وظيفته وبيت قصيده عن تمام مقصوده وما
فصله عن نواصل هذه اللذات ولا أخرج من التمتع بجمال هذه الذات الا
تهليده من مجلس رومة بجزده من منصب الحكومة وخوف انفراد
اقطاعه من قرينه بالرياسة واستبداد شريكه دونه بالسياسة فخرج من مملكة
مصر مكرها لابل و نهض الى ايطاليا على عجل ثم سار من ايطاليا الى ايلة
الشام ليجوز فيها ما اذا الحرب لغزو الاجرام فقابلته قلوب طره فى البلاد الشامية
لقضاء الاوطار وتمتت عليه أعظم أمنية اذا التقت منه أن يضيف الى المملكة
المصرية جميع مدن السواحل الشرقية الواقعة على بحر سفيد لتوسيع
دائرة ملك مصر على وجه مفيد وأن يضاف الى مصر أيضا جزيرة قبرص وجزر
من أطول وبلاد يهودا الموصوفة بالبلم فى تلك الارمان والتقت أيضا أن
يعطى لها بلاد العرب والجزاز الموصلة الى بحر الهند لتكون هذه البلاد
مضافة لدولة الاسكندرية لما أن أهلها أرباب حركة صناعية وادارة تجارية

فهذه الاضافة يتم للاسكندرية صفة المركزية العمومية لتعود بها المعاملات
كل من القديم وتعود مافات فان الاسكندرية كانت تلاشت تجارتها
وتضع حال معاملتها من منذ تدمير مدينة صور التي هي قرنة الاسكندرية
ومن وقت انقراض مملكة الجحيم لم يبق لكل من مدينة صور والاسكندرية
الا الشهرة الظاهرية الصورية

فتقبل أن يهجم أنطونيوس على بلاد الانجاس معترج على مصر لاجابة الناس
هذه الملكة وتعلمه على ابداع نظام فلما دخل الى الاسكندرية اطلال المكت
مع الزهرة المصرية ولم يستطع الخلاص من أسر جالها بل نسي مقام وظائقه
الرومانية واستعرض أعمالها باههالها بل شرع في مقدمات اضعاف
مصالح الجمهورية الرومانية وابطالها فاعطى عنوان الملك لاولاده من
قلوبطره وقسم الممالك التي يؤمل فتحها بينهم دون سواهم وجرّد رومة من
هذه الممالك ولم يراع حقوق الرومانيين وخالف هواهم فجعل ابنه اسكندر
ملك أرمينية وأذربيجان وفارس وقلد ابنه الثاني بطليموس ملك سواحل
الشام ودمشق فاطول وأحضر هذين الولدين أمام الأهل بالظهور الملوكي
المعتاد فألبس ابنه الأكبر التاج الملوكي والحلة الملوكية في زي ملوك الارمن
وأذربيجان وألبس الثاني التاج الملوكي والحلة الملوكية في زي ملوك
الطوائف الذين خلفوا اسكندر على الممالك اليونانية ومن هذا الوقت صارت
قلوبطره لا تخرج من قصرها الا بالملابس الملوكية الرسمية الموكية اللاتقة
لملكة مصر والرومانيين برسم كونها ملكة مصر بالوراثة عن أسلافها وبرسم
كونها زوجة ملك الرومانيين الذي هو أجل ملوك الدنيا وبرسم كونها
أم الملكين العظمين اللذين تملكا على ممالك الجحيم فصارت لا تظهر الا بهذا
المتظهر العظيم

وقد كان في عصمة أنطونيوس زوجة أخرى رفيعة الحسب والتسب وهي
أوقطاوية أخت أوقطاس شريك أنطونيوس في الرياسة الرومانية فبالزواج
على أخته حصل الشقاق والعداوة بين الشريكين وفارق أنطونيوس زوجته
أوقطاوية واقتصر على قلوبطره وكانت ملكة الرومانيين اذ ذاك أعظم ممالك
الدنيا مجدداً وشأوا وكانت تحت رياسة أنطونيوس وأوقطاس وكانا مشتركين

فيما شيعوا ولهم علىها اليد العليا ولم يكن حاكم هذه الجمهورية غيرهما الا
مجلس الجمهورية الذي له حق التصرف بالحل والعقد في هذه المملكة العظيمة
فتظلم أوقطائوس من خصمه لهذا المجلس الذي هو عزلة محكمة عليا ثبت
الاحكام بين الانصام ورفع دعواه واتهم أنطونيوس بأنه مارق الدولة الرومانية
وأدخل قيصر ون في وراثته قيصر مع أنه ابن سفاح فتحكم المجلس الروماني بعزل
أنطونيوس من رئاسة الجمهورية وعلان الحرب مع قلوبطر ملكة مصر
وبالضرورة صار أنطونيوس من ذلك الوقت عدوا لأوقطائوس وقد قال
أوقطائوس لمجلس الجمهورية لا يسوغ لنا أن يكون الحرب بيننا وبين
أنطونيوس لأن الشراب المصري قد أسكره وذهب بعقله فلا يكون حربنا الا
مع أتباع الملكة قلوبطره وأمر امجنودها يشيرون بذلك الى أنه مخمور لا يكاد
يعصفو فلو كان كعنترة العيسى واتصر عليهم حين غزوه لرد عليهم بمنزل قوله
واذا شربت فأنى مستهلك * مالي وعرضي وافر لم يكلم
واذا صحت فما أقصر عن ندى * وكما علت شمالي وتكرمي

وقد أخذ هذا المعنى ابن حديد وزاده حسنا فقال

يبيد عطايا سكره عند صهوه * ليعلم أن الجود منه على علم
ويسلم في الانعام من قول قاتل * تكتم لما خافته ابنة الكرم
لكن أنطونيوس صدق القول بالفعل بفراره وعدم قراره قال ابن الرومي
* والله ما أدري لاية علة * يدعونها في الراح باسم الراح
الريحها أم روحها تحت الحشا * أم لا ريباح نديمها المرنج
فاستعد كل من الفريقين للحرب وخربت قلوبطره بنفسها للغزو وأحببت
معهما أنطونيوس الى محل الواقعة البحرية وهو مدينة أكسيوم التي هي مدينة
أزيو بساحل روم ايلي فكانت ميدان القتال بين أنطونيوس وأوقطائوس
فأمدت قلوبطره أنطونيوس وحزبه بمائتي سفينة بحرية واجتهدت في احياء
همة الجنود ونشاطهم لكي تنصر على أوقطائوس ويكون ثغرة نصرة السفن
المصرية عاندا عليها بالمجد والغلار

ولو أن ما أسعى لادنى معيشة * كفاني ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لجد موثل * وقد يدرك الجد الموثل أمثالي

فجعلت مدار الحرب على جنودها البحرية لتغلب خصمها بجندها لحصل القتال
بين سفن الرومانيين والسفن المصرية وكان الحرب بينهما سجالا فلم يقتصر
أحد الفريقين على الآخر وأتت أوصاراً قطعياً باسم النزاع فبينما الأمر كذلك
اندسرت ستون سفينة من سفن قلوبطره بقوة المجاذيف وانفصلت من بين
سفن أنطونيوس وهربت صوب جزيرة المورة وفيها الملكة قلوبطره هاربة من
القتال والهروب نصف الشطارة فارتدت من مضمار الزوال أما لان الحرب
أقزعتها والطعن والضرب روعها فخافت على نفسها من الهزيمة التي
عاقبتها ذميمة أو أنه حصل بينها وبين أوقطاس اتفاق سري ودسائس
مكتمومة ومواعدة بينهما وبينها فقد رتب بقرنها حيث وجدته قرين سوء

ذهب الجار إلى استيفيد نفسه * قرناً قارب وماله أذنان

فلما راها أنطونيوس قد أدبرت ولي مدبراً وراءها أما جبناً منه أو أفاقني أثرها
للتعلق بها وعدم القدرة على فراقها كما قيل

يوم الفراق لقد خلقت طويلاً * لم تبقى لي جلد ولا معقولا
لوحارمر ناد المنية لم يجمد * إلا الفراق على النفوس دليلاً
قالوا الفراق فما شككت بأنها * نفسى عن الدنيا تريد رجلاً

وبالجملة فقد هرب كل منهما إلى مصر ولسان حالهما يقول

وما أدري إذا عمت أرضاً * أريد الخير أيهما يليني
أأخير الذى أنا أبتغيه * أم الشر الذى هو يفتنني

فاقتنى أثرهما أوقطاس وملت إليه قلوبطره مدينة فرما التي هي مفتاح
الديار المصرية وأرادت بهذه الخيانة أن تعصب إليه حتى ينتهي الحال بها أن
تتصل من أنطونيوس وكان أنطونيوس لسوء ظنه يعتمد على أمانتها ولا يخطر له
في بال أنها سلمت مدينة فرما قصداً ولو قيل له ذلك لا يصدق

يقضى على المرء في أيام محنته * حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

لا سيما وأنه في يوم وصول أوقطاس أمام مدينة فرما كان أنطونيوس
دخل الاسكندرية وأطلع الملكة على دفتر العساكر الذين حاربوا معه وأما زوا
في الواقعة وكل هذا لم يجذب قلبها إليه فصارت لا تقول على كلامه ولا تعتمد
عليه وكأنها تقول

كنت بدراوكان قلبي أقفا * ومليكا ولا أخاف أمرك
 فاعترنا الكسوف والملك ولي * عظم الله في المحاسن أجرك
 وفي اليوم الثاني من دخوله الاسكندرية قتله العربان وتجزوا عليه مع
 خصمه واتصل عنه العساكر المشاة وانضمت السفن المصرية الى سفن
 قيصرون ولاشد أن هذه فعلة قلوبطره لانها جردت أنطنيوس من جميع
 الجنود حتى من السفن البحرية التي كان يمكنه أن ينجو بها من خصمه فهذا
 كله عن الخيلة وان لم يستشعر بها أنطنيوس ولكن كذا المريب أن
 يقول خذوني لأن قلوبطرة أحبت بسوء فعلتها وحالها ثم الفعل في صدرها
 نفاقت من انتقام أنطنيوس اذا علم الحقيقة
 ومهما يكن عند امرئ من خليقة * وان خالها تخفى على الناس تعلم
 فاختفت مع أموالها في مدفن حصين كانت شيدته لتدفن فيه فكانها
 مصداق ما قيل

جعلت حقيبة الاطماع يأسا * فأواني الى كهف وديع
 ركبت عطية الاقبال غفلا * بلارحل يشد ولاشروع
 فاحقت في هذا المحل وأشاعت انها تريد قتل نفسها وتوثر الخبير بذلك حتى بلغ
 أنطنيوس فغرم أيضا أن يقتل نفسه حتى لا يعيش بعدها فأشار الى ملوكه بتجهيز
 هذه الفعلة فرفع الممولس سيفه مظهرا قتل سيده وطعن نفسه بالسيف ولم يسمح
 نفسه بقتل مولاه فنجب أنطنيوس من ذلك وطعن نفسه بجذعته ولم يمت
 في الحال وقد علم قبل ازهاق روحه أن قلوبطره لم تزل على قيد الحياة فطلب
 من أتباعه أن يقلوه اليها ليجمع بها قبل موته

تمنيت من حبي بنية أتنا * وثدنا جميعا ثم تحيا ولا أحيأ
 فترجع دنياها عليها واتنى * بساعة ضعيها أرضيت من الدنيا
 فلم تفتح له باب محله بلا أدته من شبك المحل وأترلته في جهنم المدفن فبات
 فيه وما هذه الايام الاصحاف * نوزخ فيها ثم نعى ونعى
 ولم أر عيشا مثل دائرة المني * توسعها الا مال والعيش ضيق
 وكان قد بلغ اوقطوس أن قلوبطره تريد أن تقتل نفسها فأرسل اليها من
 جنده من يمنعها من ذلك فدخلوا من ذلك الشباك فوجدوا في حراسها خنبرا

كأنها كانت تقربه على بطنها وأورها على هيئة من بعدد الى طعن نفسه
وفي الواقع أنها كانت لا تحب قتل نفسها وانما كانت تظهر ذلك لأمل أن
تقتل أوقطاوس كما قتلت عمه قيسر فخاب ظنها في ذلك ولم يلتفت أوقطاوس
الى اجمالها ولا مال قلبه اليها

لست عن غوى هواه بريم * أو طبا عليها القنا كالكناس

ان دنت دارها فلي لبي * أو أنى ربعها فليست بأس

فلم يلتفت الى تهديدها اياه بقتل نفسها الصعب على نفسه ذلك

تهقدنا وتوعدها رويدا * متى كالأمل مقبونا

فلما أيست منه بالكلية صممت على قتل نفسها فأمسكت عن الشراب
والطعام وواصلت الصيام لفهمها ان غرض أوقطاوس أن يوقعها في أسره
ويذهب بها الى رومة ويدخل بها في حوكب عظيم من جله الغنائم المصرية
مغولة العنق وربما يربطها خلف عربته ويدخل بها رومة على هذه الحالة
المعزلة فقتلت نفسها شتر قلة حتى لا تكون عند أعدائها لهشلة ومع ان
أوقطاوس كان يرسل اليها ليدعها عن قتل نفسها وتوعدها بقتل أولادها
بعد ما ان فعلت ذلك لم تنفع التهديد ولا التحذير بل كان ما كان من قتلها بما
جرت به المقادير

من نال من دنياه أمنية * أسقطت الايام منها الالف

فوجدوها ذات يوم من الايام مية في وسط نساء مقنولات معها وجميعهن
ينام فكانت هي نائمة على فرش من الذهب الابريز وعلى جبينها تاج الملك
لهابه على صوحيحاتها كمال التميز وكانها متجسلة بجميع زينتها الملوكية
ليوم عيد وهو في الحقيقة يوم وعيد أول راسم رومية

فالدهر يرقص والايام تتشده * هذا هو العيش لولا أنه فاني

واختلف في طريقة قتلها لنفسها فقصل انها تعاطت لذلك السم الناقع
والمواثر انها كانت أحضرت ثعباناً عظيماً أخضته في وعاء ملوّه من التين مدة
طويلة فلما خرج اليها الثعبان من الوعاء قالت لقد سان وقتك وقد حضرت هنا
فدب لقتلها وسعي هذا منذ اول في ذلك الوقت على لسان العاتمة واعتقد صحته
أوقطاوس حتى انه لما عاد الى رومة صوّرت عمال هذه الملكة وجعل في جانب

صورتها نعبا فانيثها وكان موتها سنة ٦٥٢ قبل الهجرة

وقد وقع نظير ذلك تقريرا للزبارة المتولية على ملك أبيها بالعراق مع جذية
الابرش ملك الحيرة الآن الزبارة سلكت في جميع سلوكها مملكة الابطال ولم
تطمع فيها أحدا من الرجال وشتان بين العصمة العربية وعادة اليونان
الابتدائية وكانت واقعة الزبارة بعد واقعة قلوبطره بنحو ستين سنة لأنها كانت
بعد ميلاد عيسى بثلاثين سنة وبيان خبر الزبارة مع جذية أن جذية كان من
العرب الأولى من بني آياد وكان في أيام ملوك الطوائف وكان قتلها شاطئ
الفرات إلى ما ولى ذلك إلى السوادستين سنة وكان الملك قبله أباه وهو أول من
ملك الحيرة وهي بلدة قديمة كانت على ساحل البحر بقرب الكوفة وكان في قديم
الزمان بحروا الآن ليس بها أثر بل آثارها طامسة وكانت الحيرة منزلا لملوك بني
نظم وهم كانوا ملوك العرب في قديم الزمان وأبائهم أرادوا الأسود بن يعفر في قوله

ماذا أو مل بعد آل محرق * تركوا منازلهم وبعد آيادي

أهل الخورنق والسدير وبارق * والقصوى الشرفات من سداد

نزلوا بأفقره يسيل عليهم * ماء الفرات يجي من أطواد

أرض تخيرها الطبيب مقيلا * كعب بن مامة وابن أم دواد

جرت الرياح على محل ديارهم * فكأنهم كانوا على ميعاد

ولقد غنوا فيها بأنهم عيشة * في غل ملوك ثابت الأوتاد

فاذا النعيم وكل ما يلهى به * يوما يصير إلى بلى ونفاد

ويروى عن أبي أمية شريح بن الحرث القاضي بالكوفة الذي يضرب به المثل

في العدل وتدينق الأمر أنه جاء رجل عند مله شهادة فقال من الرجل قال من

بني فلان قال أتعرف قاتل هذا الشعر

ماذا أو مل بعد آل محرق * تركوا منازلهم وبعد آيادي

قال لا فقال توقف يا وكيل في شهادته فإن من كان في قومه رجل لهذه التباهة

وهو لا يعرفه أفطنه ضعيفا وكان جذية هذا يغير على ملوك الطوائف حتى

غلبهم على كثير مما في أيديهم وهو أول من أوقد الشع ونصب المجانيق للعرب

وأول من اجتمع له الملك بأرض العراق وكان قد قتل أباه الزبارة ملك الجزيرة

ويعتقن ملوك الطوائف وغلب على غالب ملوكهم وألجأ الزبارة إلى أطراف

ملكتها وكانت عاقلة أدية فبعثت اليه تخطبه لنفسها ليتصل ملكه بملكها
 فدعته نفسه الى ذلك فشا وروزراه فكل أشار عليه أن يفعل الا قصر بن سعد
 فانه قال له أيها الملك لا تفعل فان هذه خديعة ومكر فقصاء وأجابها الى ما سألت
 فقال قصر عند ذلك لا يطاع لقصر رأى وقبل أمر فأرسلها مثلاً ولم يكن قصيرا
 ولكن كان اسمها ثم انه قال له أيها الملك أما اذا عصيتني فاذا رأيت جندا قد
 أقبلوا اليك فان ترجلوا وحيولك ثم ركبوا وتقدموا فقد كذب ظني وان
 رأيتم اذ احيولك طافوا بك فاني معرض لك العصا وهي قوس بخديعة لا تدرك
 فأركبها واخرج فلما أقبل جيشها حيوه ثم طافوا به فقرب قصر اليه العاصف غل
 عنها فركبها قصر فضا فتنظر جذية الى قصر على العصا وقد حال دونه السراب
 فقال ما ذل من حرت به العاصف فأرسلها مثلاً وأدخل جذية على الزباء وأفهمته
 أنها ليس عندها متاع عروس وأنها لا تصلح للقتع واحياء النفوس وأمرت
 باجلاسها على نطع وقطع رواهش أي العرقين اللذين في باطن ذراعيه فقطعت
 رواهش وكن قد قيل لها احتفظي بجمه فانه ان أصاب الارض قطرة من دمه
 طلب بئاره فقطرت قطرة من دمه في الارض فقالت لا تضيعوا دم الملوكة فقال
 جذية دعوا دما ضعه أهله فلم يزل الدم يسيل الى أن مات ثم ان قصر أتى عمرا
 ابن أخت جذية وأخبره الخبر وحرصه على أخذ النار واحتمال لذلك بان قطع
 أنفه وأذنيه ولحق بالزباء وأخبر أن عمرا فعل به ذلك وانه اتهمه بمالائه له على
 حاله فلم يزل يخذلها حتى اطمانت له وصارت ترسله الى العراق بمال فيأتي الى
 عمرو فيأخذ منه ضعفه ويشتري به ما يطلبه ويأتي اليها به الى أن تمكن منها
 وسلته مقتايع الخزان وقالت له خذ ما أحيت فاحمل ما أحب من مالها وأتى
 عمرا فاختب من عسكره فرسانا وألبسهم السلاح واتخذ غراثرو وجعل أبقاها
 من داخل ثم حمل على كل بعير رجلين معهما سلاحهما وجعل يسير النهار حتى
 اذا كان الليل اعتزل عن الطريق فلم يزل كذلك حتى شارف المدينة فأمرهم
 فلبسوا الحديد ولبسوا الغراثريلا وعرف انه مصيها فلما أصبح عندها دخل
 عليها وسلم وقال هذه العير تأتلك الساعة بجملم بأن قط مثله فصعدت فوق
 قصرها وجعلت تنظر العيروهي تدخل المدينة فأنكرت مشيها وجعلت
 تقول

ما للجمال مشيا وتيدا * أجند لا يحملن أم حليدا
 أم صر فاطماد اشديدا * أم الرجال جنما قصودا
 فلما توافيت العير المديشة حلوا أبقالهم وخرجوا في الحديد رأتني قصير يصعرو
 فأطامه على سرب كان لها اذا خشيت خرجت منه فأقبلت لخص من السرب
 فأناها عمرو مصلتا سيفه فجعلت تخص خاتمها وفيه سم ساعة وتقول يدي لا بيد
 عمرو وفارقت الدنيا وما أحسن ما أشار إلى ذلك ابن جابر الاندلسي في وصف
 عمرو حيث قال

تطول به للعبد أشرف همة * فلما عه عن غاية قصير
 سما الاقتصار المكرمات كاسما * بعمر والى الزمان سعي قصير
 وقد ذكر هذه الواقعة على بن زيد العبادي في قصيدة طويلة أولها
 أبقلت المنازل أم غنيا * تقادم عهدن فقد بلبنا
 وقال يخاطب النعمان بن المنذر بن ماء السماء

ألا يا أيها الملك المرحي * ألم تسمع بخطب الاقربنا
 ومنها

دعا بالبقعة الامراء يوما * جذية عصر نحوهم تبينا
 فتأوى امرهم وعصى قصيرا * وكان يقول لو توسع البقينا
 ودمست في مصيفتها اليه * ليمك بضعا ولأن تدينا
 ففاجأها وقد جعت فيربوا * على أبواب حمن مصلتينا
 فأردنه ورغب النفس بردي * ويسدى للفق الحين الميئنا
 وحدثت العصا الاتباعه * ولم أر مثل فارسها همينا
 وقد دت الاديم لراشيه * وألني قولها كذبا ومينا
 ومن حذر الملاوم والغازي * وهن المتدبات لمن مينا
 أطلق لافقه الموسى قصير * ليصدعه وكان به ضينا
 فأهواه لما ربه فأضحي * طلاب الوتر مجد وعامينا
 ومادفت امرأ لم تحش منه * غوائله وما أمنت أمينا
 فلما ارتد منها ارتد صلبا * يجر المال والصدر الضعينا
 أنما العير تحمل ماديها * وقع في السوح الدارعينا

البقرة اسم موضع بالحيرة
 والنبين كاتبين بالتصريك
 السيد والشريف والقطن
 ودقيق النظر وكل يصح
 ارادته هنا ٨١ مؤلفه

ودرس لها على الاتفاق عمرا • لشكته وما خشيت كينا
 فجاءها قديم الاسر عسبا • يصل به الحواجب والجينا
 فاضحت من خزانها كأن لم • تصكن ذبا حامله جينا
 وأبرزها الحوادث والمنايا • وأى معمر لا يتلينا •
 اذا أمهلن ذا جدد عظيم • عطفن له ولو فزطن جينا
 ولم أجدهن يلهو بشئ • ولو أترى ولو ولد البينا
 وكأأنه انتهى بقتل الزبا حكم ملوك الجزيرة وانتقاله الى ملوك الحيرة انتهى
 كذلك بقتل قلوبطره نفسه احكم البطالة بمصر وصارت مصر ايلة رومية
 حتى ان بطليموس يقصرون الذى هو ابنها بعد أن كان تلقب ملك الملوك فى
 حياتها فقد قتلها وقطّاع الاقصر ذكر باسم أغسطس بعد قتل أمته قلوبطره
 ولبعضهم يأبى الناس انى ناصح لكم • فعوا كلامى انى ذو تجارب
 لا تلهينكم الدينابر خرفها • فائدوم على حال ولا طيب

(الفصل الثانى عشر)

فى بعض ملحوظات عمومية تتعلق بأيام البطالة وفى ذكر جدد ولهم

هذه الدولة تسمى أيضا دولة اللاغوسية وجميع ملوكها يسمون باسم
 بطليموس بن لاغوس ويقال ابن لاوى أيضا الذى هو رأس هذه الدولة
 فغلب على جميعهم اسمه كما أن نساءهم يسمين غالباً باسم قلوبطره وبريقه
 وأرسنوبه ولو أن مصر فى أيامهم كانت رجعت الى الفقهى التسمية ومالت
 من درجتها العليا الى درجة ثانوية حيث فقدت ما كان لها من وطأة القدم
 على سائر الدول والامم الا أنها كانت لم تزل فى أيام البطالة كسيرة المآثر
 غزيرة القامخ تسحق الانتظام فى سلك المجد المؤئل وشرق العقد الاول
 ومما أعان على انصافها بهذه المناقب تبصرها فى العواقب حيث تعلق
 همتها بفتح الرخصة العمومية وكال الحرية لاهل الوفود والربة وتظمت
 الجميع بوحدة الاحكام فى أبجل ترتيب وأكمل نظام وشملت جميع الاهالى
 والسكان بحسن المعاملة بالعدل والاحسان وقد كان سن لهم هذه السنة
 الحسنة اسكندرا الكبرى الذى هو أول الدولة اليونانية حيث حسن تحت

مصر وأمنه فانه مجبر دفعها أياح لها التعبد بدنيها والتسلق بعقائدها ولم يكلفها
بما لا يطبق لتكثير فوائدها وقد اقتدى به بطليموس بن لاغوس حين خلفه
عليها فصرف جميع عنايته في عماريتها وتحسين حال أهلها وتجنب ما كان
فعله قيساش الجبار ملك الجعم من الظلم والجبروت الذي تسمى بسببه بختنصر
فاختلط بهذا الاسم مع غرود الموصل المقوت فبعناية بطليموس لاغوس اتخذ
اليونان والمصريون في المدن العام والتسوية في الاحكام وانما في اليونان
صفتهم الجنسية وأصلهم اليونانية فكانت ملوك البطالسة تسبق قلوب
الرعية المصرية بابقائهم على عاداتهم الوطنية عادية أو دينية فقد ذكر
المؤرخون أن أحد البطالسة لما توجه الى غزو العراق وماواله وخاب سعيه
ولم يبلغ من أعدائه مناه عاد من الغزو ومعه أكثر من خمسة وعشرين ألف
صنم مما كان قد استلبه ونقله من الديار المصرية الى تلك الجهات قيساش
ملك الجعم فلما ظفر به بطليموس في أسفاره بادبر رده الى المصريين ليؤلف
قلوبهم بإعادة مناسك الدين وشعاره فكان مما أعان على العمران رعاية
العوائد والعناية بأباحة الأديان

ومما جعل لدولة البطالسة في أوائل أمرها كمال الرسوخ والنبات أنهم تشبثوا
بتجديد العلوم والمعارف في الاسكندرية ليحبروا ما فات فان مدار الحركات
العقلية على النظر في العلوم وصرف الافكار الى تحصيل ما يدوم فقد سبق
لنا أن بعض ملوكهم أمر بترجمة التوارق من العبرانية الى اليونانية وجلب
لها سبعين مترجما يعرف حقيقة الصحف السماوية وفي أيام بعض ملوكهم
كان تأليف ما يظنون لتاريخ القدماء من المصريين وجمع كتبخانه الاسكندرية
المنقلة على جميع علوم الاولين والآخرين فشغلت هذه الخزانه بجميع
كتب اليونان والرومان وانضمت الى كتب حكماء المصريين التي منقوها
في غابر الأزمان ولأجل تمام القائدة ترجت الكتب المؤلفة باللغات الاجنبية
الى اللغة الاهلية وقد أنشأ بعض هؤلاء الملوك خزانه للكتب والغرائب
وجلبها من سائر الاقطار لتكون في مصر من العجائب ووضع هذه الكتب
الجهة برواق في الاسكندرية يسمى رواق الحكمة حتى قيل انه لم يسبق تنظيم
مثل هذا الرواق في سائر الاقطار والآفاق

وأما ما يخص العمارات والابنية فكانت دولة البطالسة تقيم على حبها
للعمارات أصدق شهود وأعدل بينة كما يشهد بحسن أثرهم النيل ما يشاهد
منه على شواطئ النيل حتى قيل أنه لم يكن بعد الدولة المصرية التاسعة عشرة
أكثر آثار من آثار دولة البطالسة المعتبرة فقد أصح ملوكهم ما كان قد
تخرب من الهياكل المصرية وأعوانا ما استلوا من العمارات الالهية
وأضافوا الى ذلك معابد جديدة وهياكل عديدة كلها كل بلاد التوبة بالتأكل
ويلاذ الكلابسة وكذلك المباني التي يجزيرة البر بالهجمة أنس الوجود فانها
زينة تلك الجهة وجالها مشهود ومن آثارهم القنينة مدينة اسنا القديمة
التي احتضنت عن الابصار بناء المدينة الجديدة على هذه الآثار ومن بناهم
أيضا مدينة أرمنت القديمة بالقبضة الرسوم والدمن الدالة على فخامة
ملوك ذلك الزمن ومع أنهم جعلوا مدينة الاسكندرية دار ملكهم وتقام عقد
سلكهم وحلوا بأعظم أنواع الزينة والزخارف وجعلوا بها من الآثار التليد
والطارف فلم يطر حوا مدينة طوبه بالصعيد في زوايا الاهمال بل كسوها
بالعمار الجديدة حل الجمال والكمال فحما أسومها الهيكل المعروف بدار
المدينة والمعبود الصغير المبني على بركة أبو المزين بأجل زينة وشيدوا على
الجانب الايمن منها الباب الكبير المنفرد في شمال الكرنك والباب الآخر المناظر
له الذي يجزبه القادم من لوقصر الى هيكل شونس وقد بنت الملكة قلوبطره
بندرة هيكل عظيم أهده لاصنام المصريين باسم ولدها قيصرون المولود لها
من بولس قيصر الروم سفاحا وهذه الملكة هي التي بنت مدينة ادفو القديمة
ذات الآثار الجمجمة والرسوم الدينية ورسم أسماء الاماكن والبلدان وفي
جميع آثار البطالسة كتابة اسم الملك والعنوان ومما يدل على مجدهم وعزهم
ما يوجد بكثرة باقليم اسنا واقليم اخميم كقشاة النيدة التي بناها بطليموس
فيلا دقصر وكذلك تكثر آثارهم بناحية بهيت بجوار الهة الكبرى ويغلب
على ظن الباحثين عن الانطبقات والآثار القديمة أن من جملة آثار البطالسة
المباني الجميلة القرية من مقابر العجول الايسية المعبودة للمصريين التي
بناحية سقاره وما يوجد في هذه المقابر من التواويس والتوايت العجيبة
الصنعة

ومما عثر عليه جنود القرائساوية مدة أقامتهم في الديار المصرية لوحة الحجر
التاويغية التي تعرف فيما بينهم بحجر رشيد وهي من آثار البطالسة النافعة
فقد توصل بها أخبار أوروبا إلى حل رموز الأعلام القديمة على طريقة بارعة
فهذا اللوح الحجري مكتوب على إحدى جهاته ثلاث صحائف متعاقبة متقاربة
أحدها بالقلم البرياني القديم المخصوص بمعرفته الحكام والعلماء وهو قلم العلوم
والمعارف والأسرار والصيغة الثانية مكتوبة بالقلم المعتاد المتداول بين
الاهالي المصرية في ذلك الزمان والثالثة بالقلم اليوناني فبالأتمثل لتلك
الصحف وامعان النظر فيها أدرك العقلاء يادى الرأى أن الصيغة الثالثة
اليونانية انما هي ترجمة الصيغتين اللتين باللغة المصرية وأنه يمكن علماء
مكتوب على الحجر أن يتوصل بالمعلوم منه إلى الجهول بمقابلته الحروف
والكلمات والتوفيق بينها والوقوف بذلك على اصطلاح القلم المصرى القديم
الاشارى والاعتبائى وكان القرائساوية لما عثروا على هذا الحجر حفظوه في
الاسكندرية ثم وقع بعد ذلك في يد الانكليز مع بعض آثار أخرى سلبوها من
القرائساوية حين خروجهم من مصر ولم يزل هذا اللوح الحجري بقصبة
القراتب بمدينة لندن في قفصه تفسير القلم المصرى القديم الاشارى
والاعتبائى ينبغي أن تسب لدولة البطالسة وتضاف إلى ما لهم على مصر من
القضائل والبد البضاء

وبالجملة فقد جعل ملوك البطالسة ديار مصر سلطنة يونانية وأقاموا كرسيا
بمدينة الاسكندرية صار هذا الثغر مورد النخاس والعام والمورد العذب كثير
الزحام فوجد عليها من الخارج أبواب العلوم والمعارف من العلماء والحكام
والادباء وأبواب العقول الكاملة فعمرت بهم مدرسة الاسكندرية وتمكنت
غاية التمكين وتشيدت على أساس متين حتى لم يزل رونقها باقيا في أيام دولة
الرومانيين فانه لما ظهر دين عيسى بن مريم واتشرف مشارق الارض ومغاربها
وعثرت وتشتب إلى مشاعب ومذاهب واختلعت فروع عشائمه ما بين مخطئ
وصائب وعارضته الحكما والفلاسفة ووقعت المحاورات والمجلدات بين
أهل الرشد والسفه امتاز حكام الاسكندرية بمشاجرة هذا الدين والانتصار
لدين المصريين وان لم يدل هذا على رشدهم وسدادهم فقد دل على تمكن

عقولهم من ادراك عقائدهم فقد داموا متمسكين بعبادة الاصنام
والاولئك مع كونهم أرباب العلوم الحكمية في تلك الأزمان ولكن أضلهم
أقبح علم

واذا الينان لم تغن شيئاً * فالتماس الهدى بين عناء
واذا ضلت العقول على علم فماذا تقوله النعماء
وأما في مادة الإدارة فلم تخل دولة البطالسة من المخالطات السياسية
والعلاقات الدولية والاشغال الداخلية والخارجية فانهم قد بعد صيتهم
وسارت به الركان في سائر المدن والبلدان وصعدوا الى أوج التفار على قدر
الامكان وان لم يصلوا الى درجة فراعنة مصر في الأزمان الخالية والدهور
البالية وانما كان جل مشروعاتهم وخير منفعوهم تقديم العلوم والآداب
والترحيب بالاجانب والاعراب وكشف الحجاب لمن يطلب الاقتراب وبقيت
هذه العادة جارية على سبيل الملك لا العارية الى زمن الاسكندر بطليموس
الزاهي الذي لم تخل مدنه عن بعض المحاسن والمآثر ولكنه لما لم يعقب نسلا
كفوا لولاية عهده أوصى بالديار المصرية كفالة وتلك الى الدولة الرومانية
من بعده

انظر الى لاعب الشطرنج يجمعها * مغالباتهم بعد الجمع رميا
كلره يكسح الدنيا ويجمعها * حتى اذا مات خلاها وما فيها
فكانت آخر ذرية البطالسة بالديار المصرية الملكة قلوبطره التي كانت
السبب في تدميرها بالاتحادات القيصرية ومع أنها كانت بدبعة الجمال في كمال
عقلها وسياستها غلبت في غالب الاحوال غول الرجال فاستولت على عقل
يوليوس قيصر وصادت بشركتها أنطونيوس فدخل في حبائلها وما قصر وكان
ييدها زمام دولة الرومان التي كانت لها السلطنة على عمالك تلك الأزمان
فأعان قلوبطره كل من الرئيسين على أغراضها وشفيهاها من أمراضها وكان
ما كان بين قيصر أغسطس وأنطونيوس مما يقرأ القلوب ويوحش النفوس
مما أتى الى قتل نفسها بنفسها وتحميل حلولها في رسمها مما تقدم ذكره وعلم
في سائر التواريخ أمره وكانت بالاتحاد مع أنطونيوس قد تزوجت ابنها
قيصرون بتاج ملك الملوك يعني ملك مصر وجملة بلاد النجم كرمستان

واذربحان وغير ذلك من مملكة الججم فلهاذا عتده المؤرخون من البطالسة
 فيكون على ذلك هو بطليموس الرابع عشر وكان كما تقدم ادخاله في ميراث بعض
 اقاليم الرومانيين سببا في حرب أوقطاوس مع أنطونيوس وهلاك هذا الاخير
 وقتل قلبطره لنفسها وزوال دولة البطالسة وقطع ديارها واستتصال نسلها
 بقتل أغسطس لقيصر ون السالف الذكر واستيلاء دولة الرومانيين على مصر
 وقد عدا أكثر المؤرخين من البطالسة الذين حكموا مصر من ليس منهم
 كبطليموس الاقلوزي الفلكي ولو أنه يوناني أو مصري فالتحقيق أنه ليس من
 عائلة البطالسة الملكية وقد كان هذا الحكيم الشهير من أصحاب المعارف
 الموجودين بالاسكندرية في القرن الثامن قبل الهجرة كان كثيرا الاشتغال
 بالعلوم الفلكية والجغرافية وكان كثيرا الاجتهاد والتشبيث بجمع أشباه
 المعارف ومتفرقاتها ولم يعده العلماء من أرباب القرائح المحترعة للعلوم بل كان
 أغلب أوقاته يشتغل بنقل كلام من قبله من الحكماء وبذل الجهد في تصحيحه
 وتنقيحه وترتيبه وتهذيبه وكان أكثر اعتماده على كتب أبرخس الحكيم حتى
 قال بعضهم أنه لم يصلح مما فيها من الخطا الا القليل بل ما حذر منها لم يستوف
 تحريره وقد اشتهر مذهب الفلكي باسمه فيقال مذهب بطليموس لدوران
 الشمس والنجوم السيارة حول الارض الثابتة ورسم الشمس والنجوم
 مداراتها حول الارض ولا زال الحساب جاريا على المذهب البطليموسي عند
 جميع الفلكيين في سائر المشارق والمغارب الى أن ظهر قوبرنيق الفلكي
 الاورويباوي فأقام البراهين على ثبوت الشمس ودوران الارض وتبعه أهل
 أوروبا في مؤلفاتهم الفلكية والجغرافية وقالوا ان حركة الشمس انما هي
 ظاهرة فقط والحساب واحد وليس القول بدوران الارض انفرده الحكيم
 قوبرنيق المذكور بل هو مذهب قديم لبعض فلاسفة اليونان كفيثاغورس
 الحكيم وأصحابه كما ذكره العلامة محمد بن محمد القزويني في كتابه بمجانب
 المخلوقات وغرائب الموجودات وعبارته ومن القدم ما من أصحاب
 فيثاغورس من قال ان الارض متحركة دائما على الاستدارة والذي يرى من
 دوران الكواكب انما هو دوران الارض لا دوران الكواكب وقال
 بعضهم انها واقفة في الوسط على مقدار واحد من كل جانب والفلك يجذبها

من كل وجه فلذلك لا تميل الى ناحية لان قوة الاجرام متكافئة مثال ذلك حجر
المغناطيس الذي يجذب الحديد لان من طبع الفلك أن يجذب الارض وقد
استوى الجاذبين جميع الجهات فوقفت في الوسط ومنهم من قال انها
مدورة موقوفة في الوسط وسببه دوران الفلك وسرعة حركته ودفعه اياها من
كل جهة الى الوسط كما أنه لو جعل تراب أو حجر في فارورة مدورة وأديرته في
الخط ببقوة قام التراب أو الحجر الى الوسط انتهت عبارته ومع أن قوبرينق
أبطل مذهب بطليموس في دوران الشمس حول الارض وجعلها من الثوابت
وأثبت قول فيثاغورس وأصحابه من أن الارض دائرة وصار هذا المذهب
معمولاً به ومعهداً عند الافرنج فلا يحصل بأس من تقدم العقول بعد مدة
طويلة ورجوع الافرنج الى مذهب بطليموس بعد مدة مديدة بمقدار المدة التي
مضت من زمن بطليموس الى عهد قوبرينق ولا غرابة في ذلك فان مذهب
بطليموس لم يزل الى الآن متداولاً على اللسان فيقول الافرنج ان الشمس
تقطع فلكها في مقدار كذا فينسبون الحركة اليها نظراً للظاهر وعلى كلا
المذهبين تكون الارصاد الفلكية واحدة وانما الاختلاف في العلل
والاسباب وكل من القولين بدوران الشمس أو الارض فيه عظم دلالة على
قدرة الله سبحانه وتعالى

ولله في كل تحريك * وتسكينه أيد اشاهد

وفي كل شيء له آية * تدل على أنه واحد

ولا ينبغي أن يذكر القول بدوران الارض الا في معرض الحكاية عن قائله وهو
قوبرينق أو فيثاغورس ومن ذهب مذهبهم من أهل الهيئة والجغرافة لاني
معرض العقائد الدينية التي يعتقد فيها على صريح نص الآيات القرآنية
كقوله تعالى والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم فعلمنا
معشر أهل السنة أن نعتقد جريان الشمس وأن نسلك في ذلك مسلك
السلف من تقويم جريان الشمس الى الله تعالى لامذهب التأويل فلا نقول
ان جريان الشمس ظاهري ناشئ عن جريان الارض على مذهب من يقول به
كفيثاغورس مثلاً ثم ان فيثاغورس الحكميم من قدم من حكماء اليونان الى
مصر فلما وصلها اشتاق الى الاجتماع بالكهنة الذين كانوا يصرفون دعى أهل

مدية عين شمس قبلوه قبولاً كريهاً وامتنوه زماناً فلم يجدوا عليه نقصاً ولا
 قصيراً فوجهوا به إلى كهنة منف كي يبالغوا في امتحانه قبلوه على كراهة
 واستقصوا امتحانه فلم يجدوا عليه معيباً ولا أصابوا العثرة فبعثوا به إلى أهل
 ديو سوس أي طيوه بالصعيد ليتمنوه فلم يجدوا عليه طريقاً ولا إلى ادحاضه
 سيلاً ففرضوا عليه فرائض مخالفة لفرائض اليونانيين كيما يمنع من قبولها
 فيدحضوه ويحرموه طلبته فقبل ذلك وقام به فاشتد إعجابهم به وفشا بصر
 ورعه حتى بلغ ذكره إلى أماسيس ملك مصر فأعطاها سلطاناً على جميعها بالرب وعلى
 سائر قرانهم ولم يعط ذلك لغريب قط فقد فهم مما سبق أن بطليموس المذكور
 ليس من أولئك مصر البطالسة ولا من البيت المالوكي كما توهمه كثير من
 المؤرخين كما أن بعض المؤرخين توهم أن من ملوك مصر بطليموس الذي سماه
 الصانع ودل أنه تولى على مصر بعد أبيه بطليموس الأول الملقب سوطير
 والواقع أن هذا خطأ من وجهين الوجه الأول أن بطليموس المذكور ابن
 سوطير إنما يلقب بالصاعق لا بالمانع لحذنه وشدة جرائته تشبهاً بالصاعقة
 الوجه الثاني أن الذي تولى ملك مصر بعد بطليموس سوطير الأول إنما هو
 بطليموس فيلودلفس بن سوطير وأخو بطليموس الصاعقة كما سبق ذكره في محله
 وأما بطليموس الصاعق فإنه تولى مصر وسار إلى مقدونيا وكان ملكاً عليها
 سيليقوس فأكرم نزله ورجب به فخانه بطليموس الصاعقة حيث قتل به وطلب
 من أهل مقدونيا وترحاله أن يبايعوه بالملك فصار ملكاً على مقدونيا وترحاله
 ثم قتل الأمراء المطالبين للمملكة المذكورة وترجى بأرسويه أيم الأمير
 لوسياقوس وبني بها وقتل أولادها من زوجها القديم فهربت عن مقدونيا إلى
 مصر خوفاً من القتل بها فترجى بها بصر أخوه بطليموس فيلودلفس ثم كان
 لبطليموس المقدوني الجزء من جنس العمل تقدمت قبلاً في حربه مع الغلبة
 الذين هم قدماء القرانساوية بعد أن حكم على مقدونيا وترحاله سنة وستة
 أشهر فلاقوه لعمته من بطالسة مصر وإن كان من العائلة المالوكية حيث لم
 يتول مصر أصلاً ولتذكر هنا جدولهم

جدول البطالسة الذين حكموا مصر

أسماء الملوك	مدة حكمهم	أسماء الملوك	مدة حكمهم
بطليموس الاول	٢٨ سنة	بطليموس السادس	٢٥ سنة
بطليموس الثاني	٢٨ سنة	بطليموس السابع وبطليموس الثامن	٢٩ سنة
بطليموس الثالث	٢٥ سنة	بطليموس التاسع	٢٦ سنة
بطليموس الرابع	٢٧ سنة	بطليموس العاشر والحادي عشر	٢٩ سنة
بطليموس الخامس	٢٤ سنة	بطليموس الثاني عشر وبطليموس الثالث عشر والملكة قلو بطره	٢٢ سنة

فكانت مدة حكم ملوك هذه الدولة ما بين وخسة وسبعين سنة كما ذكره المؤرخون لان ابتداء دولتهم من سنة ٩٢٧ قبل الهجرة وانتهاءها سنة ٦٥٢ قبل الهجرة أيضا فيكون مدة حكمهم ما ذكره ولكن اذا جمعت مدة حكمهم على ما في الجدول المذكور وجدت المدة ثلاثمائة سنة وثلاث سنين فاطرح منها سبعة عشر سنة حكمها بطليموس بن لاغوس بولاية نائب على مصر قبل استقلاله بمملكته اعطيا فتكون باقي المدة ما بين وستة وعشرين سنة ومن المعلوم أن ابتداء تلك كل ملك وانتهاء مدته وابتداء مدة الآخر قد يكون في آخر السنة المحسوبة من حكمه أو في وسطها فتختلف السنين حيث شهور التولية غير معلومة فالاحدى عشرة سنة هي فرق التوليات الملوكية وبالجملة فمدة حكمهم هي المائتان واخمس وسبعون سنة ويضاف اليها سبعة وعشرون سنة حكم الدولة اليونانية قبل الهجرة الاولى قصير مدة حكم اليونان ثنتين وثمانين سنة وهذاوافق ما عليه أيضا مؤرخو العرب حيث قالوا ان اليونان حكموا مصر ثلثمائة سنة وستة واثنتين واثلاثين سنة الزائدة فرق بين المبدأ والمنتهى وبعد هذه الدولة الثالثة والثلثين ابتداء الدولة الرومانية الرابعة والثلثين التي ابتداءها من سنة ٦٥٢ قبل الهجرة

(الباب الثالث)

* (في ملوك الدولة الرابعة والثلثين وهي دولة الرومان وفيه فصول) *

(الفصل الاول)

• (في الكلام على أصل هذه الدولة ومدة حكمها) •

تسمى هذه الدولة دولة اللاتينيين واشتهرت بالدولة الرومانية نسبة الى مدينة رومة التي هي تحتها كما أن هذه المدينة سميت رومة أو رومية نسبة الى باتيها وهو رومولوس بالاشتراك أخيه روموس وكان تأسيسها سنة ١٢٧٥ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم وبيناتها يؤرخ الرومانيون تاريخهم

وكانت في مبدأ أمرها عبارة عن ضيعة كالضياح المعتادة ماوى لارباب الصيال وقطاع الطريق يجتمع اليها أخطا الناس والهجم ثم تجاسم أمرها واتسعت بالتدريج في أيام ملوكها السبعة الذين تداولت أيديهم عليها واحد بعد واحد في ظرف قرنين ونصف وهم رومولوس الذي هو مؤسسها ونوما بومباوس الذي هو أول مقنن لقوانينها ثم طوليوس هسطيوس ثم أنقرس ثم تركين القديم ثم سرويوس طليوس ثم تركين الشاب الظريف وقد اتسعت مدينة رومة في عهد الثالث والرابع ثم قويت شوكتها في عهد الملوك الثلاثة الأخيرة وازداد عدد أهاليها زيادة بليغة ونجسوا على الفخ والترف ثم انتزعت المملكة من أيدي العائلة التركيفية وترتب بدل الدولة الملوكية حكومة جمهورية ذات رئيس يلقب بالقنصل ومعناه منفذ الأحكام فلك واستمرت الحكومة الجمهورية على هذا الوجه مدة خمسمائة سنة وكانت للدولة الرومانية في عهد الجمهوريات غاية العزة والظهور فقد استولت على جميع أمم إيطاليا وأدخلتهم تحت الطاعة والانقياد ثم ظهرت ظهورا كاملا وكانت دولة قرطاجه السعلة قرطاجنة أيضا وهي الآن تونس معاصرة لها ومعادلة في القوة والبأس فوقع بين الفريقين حروب عظيمة تسمى بالحروب البونيقية فأنتهى الحال بأن انتصرت رومة على قرطاجه ودمرتها ككل مدمر واستولت على مملكتها وكذلك ظهرت على ملكة مقدونيا أعظم ظهور وعلى بقية أمم اليونان بل وعلى جميع الامم المعروفة في تلك الأزمان ماعدا الامة الجرمانية والفرس الاولى وكانت في أشد دولتهم مصر ذات قوة وشوكة ففدت

دولة الرومان أنظارها عليها وتداخلت في تنصيب ملوكها البطالسة حين
داخلهم الضعيف بالشجرات الداخلية وانهى الحال بتسلط الرومانيين
على الديار المصرية وجعلها اية رومانية في عهد أغسطس كما سيأتي وكان
أغسطس مبدأ دولة القياصرة الا في ذكرهم واحد بعد واحد فيما بعد
وفي أول أيام القياصرة عظمت دولة الرومانيين وملككت الدنيا بأجمعها ثم
حصل فيها حروب داخلية أفقدت حالها وسلكت القياصرة فمسلكت الترف
والانهمالك على اللذات والشهوات وفاد الاخلاق وطفوا وبغوا فكان
هذا موجبا لاضططاد دولتهم ووهن ملكهم وفي سنة ٦٥٢ قبل الهجرة
تحولت الحكومة الجمهورية الى حكومة قيصرية وكان أول ملوكها الملك
أغسطس الا في سنة ٢٤١ قبل الهجرة انقسمت القيصرية
الرومانية الى قيصريتين قيصرية المغرب وتختها مدينة رومة وقيصرية المشرق
وتختها مدينة القسطنطينية وفي سنة ١٤٦ قبل الهجرة تغلب على
قيصرية المغرب الامم التبصرة كاتمة القوطة وغيرها وانحلت قيصرية
الرومان المغربية وانهى الحال بزوال ملكها في تلك الجهات بالكلية وبقيت
قيصرية المشرق الى فتوح الاسلام فغزا القسطنطينية بنو أمية وضربوا
عليها الخراج ولكن بقي قصهادا بدون علاج الى أن انتهى فتحها السلطان
محمد خان الفاتح كما ستعرفه وأما الديار المصرية فاستمدت في حكومة
الرومانيين وصارت اية من اياتها في سنة ٦٥٢ وقت أن صارت
قيصرية وبقيت في أيديهم الى فتوحها بالاسلام سنة ١٩ من الهجرة
المجديية يعني مدة ٦٧١ سنة منها احدى عشر وأربع مائة سنة الى صدور
أمر الملك طيودويسيس بالتسلك بالديانة العيسوية في جميع الايلات الرومانية
التي منها اية الديار المصرية وهذا هو موضوع الباب المعقود لهذه الدولة
الرومانية الثلاثة والثلاثين وبقيت مدة الدولة الرومانية الحاكمة على مصر
التي مبدؤها تقسيم القيصرية تذكر في مقالة أخرى على حديثها وقسمت
مصر قبل استيلاء هذا القيصر عليها سنة واحدة وكانت معدودة في هذه السنة
من جلة أعمال الرومانيين
ثم لما تغلب قيصرا كان ملكا عليها باقى الايلات الرومانية وحيث كان هذا

القيصر أول القياصرة وبه استخالت الجمهورية الى مملكة كان لا بأس بذكر
بيان تحويل الجمهورية الرومانية الى مملكة قيصرية رومانية وبيان أسباب
تحويلها وهو أن أوقطا والذي صار فابعد أغسطس كان أبوه أحد أرباب
مجلس الجمهورية ويسمى أوقطا ويوس وكان معتزاً بآبائه ولوس قيصر أحد
رؤساء الجمهورية فوالدت أوقطا والمذكور فلما مات أوقطا ويوس كان ابنه
أوقطا في حداثة سنه فبناه خاله قيصر واعتنى بربيته وأرسله الى مدارس
اليونان لتصيل المعارف فلما قتل خاله قيصر في مجلس الجمهورية برومة
كان عمر أوقطا وثمانى عشرة سنة وكان في مدارس بلاد اليونان للتعليم فبادر
بالحضور الى رومة ليستولى على ميراث خاله قيصر حيث بناه ومع أنه صغير
السن فقد جبر أنطونيوس أحد رؤساء الجمهورية على أن يعطيه جراً عظيماً
من ميراث قيصر وكان أنطونيوس قد اغتصب ذلك وأعطاه لقبه ثم خاف من
بعض أمراء الرومانيين أن يقتلوه حيث لمخ منهم الغباوة فاصطلم مع خصمه
أنطونيوس وزوجه أخته أوقطاوه التي صارت ضرة قلوبطرم ملكة مصر
فيما بعد فهذا الصلح اشتركه هو وأنطونيوس في رئاسة الجمهورية الرومانية
وأشركا معهما ثالسا يسمى ليديوس فكانت رئاسة الجمهورية مثلثة فشتوا
شمل أعدائهم وكانوا مثل بولس قيصر يميلون الى المذهب المائوي
والاستبداد بالاحكام ولا يحبون الحكومة الجمهورية التي تفوض فيها لاعضاء
المجلس بتمامه فقتلت الثلاثة فقتلت شمل أعدائهم وهزموا أحزاب الجمهورية
وكان هذا بهمة أوقطا وأنطونيوس ثم شرع في طرد شريكهما الثالث وهو
ليديوس فناوياه وبلغاه قصودهما من طرده وصفا لهما الوقت واقسما
أقاليم الرومان فأخذ أوقطا والأقاليم الغربية وأخذ أنطونيوس رئاسة
الأقاليم الشرقية وفعل أنطونيوس ما فعله من تزوج قلوبطرم وخلعه عليها وعلى
أولادها جزاً من نصيبه من الولايات الرومانية فوقعت العداوة بين الشريكين
ووقع الحرب بينهما فأتصرا أوقطا وعلى أنطونيوس عند مدينة اكسيوم
يساحل روم الي فهرب أنطونيوس الى مصر فاقبض في قبضة الرومانيين فلما رجع
الاسكندرية قتل أنطونيوس نفسه فصارت مصر في قبضة الرومانيين فلما رجع
أوقطا الى رومة تلقب أمير مجلس الجمهورية ثم تلقب امبراطوراً بالجمهورية

ثم قلب أخيراً أغسطس يعني قيصرًا فتحوّلت من ذلك الوقت الجمهورية
الرومانية إلى ملكة ومع أن أغسطس قبل توليته قيصرًا كان فيه شدة
وحدة وبخاوة وقساوة فبمجرد توليته تشبّث بالعدل والحلم فرتب القوانين
العدلية لراحة الأهل وسلك مسلك الرفق والعين مع الجميع وعلى فيه من
الحسنة فلم يكن عظيم الشجاعة وأما اتصافه في حروبه فأنما كان بشجاعة
قواده وأمرائه لا سيما قائد المسمى أغريبافانه كان بطلا صليداً وقد كان
أغسطس لم يسبل إلى المعارف الأدبية فلهذا جلب إلى رومة أرباب الأدب
والشعر ويقال أنه سُم من المنصب الملوكي وأراد خلع نفسه ولكن نأى عن
ذلك فيما بعد وتعلم بقية أوصافه ووفاته في الفصل الآتي

(الفصل الثاني)

(في الملك أغسطس قيصر)

تولى هذا الملك قيصر على الدولة الرومانية سنة ٦٥١ قبل الهجرة ثم
استولى على مصر فكان أيضاً ملك مصر يقيم عليها نائباً من طرفه وكان يلقب
امبراطور ومعناه في الأصل رئيس الجيوش واشتهر كغيره باسم قيصر
ويلقب أيضاً أغسطس ومعناه الرئيس الأعلى أو الخديو لما تولى هذا الملك
وانتقد بالملكة الرومانية وفد عليه رسل الملوك بالشرق يرغبون في ولايته
ويضربون إليه في السلم فأسعفهم ودانت له الأرض وضرب الخراج على
أهل الآفاق وكان العامل على اليهود بالشأ من قبله هيرودوس ولما استولى
على ناحية الشرق سير عساكره إلى فتح مصر فملكها وقتل ولدي قلوبطره
وكانا يسميان الشمس والقمر وكان أحدهما المسمى قيصر وبنات من السحاح
لقيصر خال أغسطس فكانت أمه لما تزوجت من أنطونيوس وولدت له
أولاداً أقطعهم أنطونيوس بعض عمالك بلاد الروم فقلب قيصر وبن ملك الملوك
لاستحقاقه ارث مصر عن أمه واث بعض بلاد الروم عن قيصر أبيه فلما قتل
أغسطس أولاد قلوبطره آل إليه ملك مصر ويحسن هنا قول الشاعر
والموت تغذوا والوداد متخالها * كما تخرب البيت بني المساكن
وعلى تسمية وادي قلوبطره بالشمس والقمر وازدهائهما لحظة وكسوفهما

لا الى هودو والمجلاء يطبق قول بعضهم
 يا ذا الذي بصروف الدهر عينا * هل عائد الدهر الامن له خطر
 أما ترى البحر تعلو فوقه جيف * ويستقر بأدنى قاعه الدرر
 وفي السماء نجوم لا عداد لها * وليس يكسف الا الشمس والقمر
 فلما دخلت مصر تحت حكمته ولى على اياها قورنيليوس غالوس فكان
 أول نائب على مصر من نواب الرومانيين حيث صارت مصر بعد انقراض
 دولة البطالسة بموت قلوبطره عمالة رومانية وفي قبضة القياصرة فكان أول
 اجتماع هذا النائب على مصر اصلاح ما أفسدته القسطن والحروب الاخيرة
 يجلب الراحة العمومية والعلمانية الداخلية كما اجتهد أيضا في اصلاح
 الاراضي الزراعية بالعمليات الهندسية كحفر ترع مصر وخلقها ثم اقامة
 جسورها وقناطرها ومع تشيئه بمصالح المصلحة المصرية قام عليه أهالي مدن
 عديدة ورفضوا راية العصيان فأسكن قسنتهم وأدخلهم تحت الطاعة والانتقاد
 وكان من جملة المدن التي أضرم أهلها نارا القسنة مدينة طيبة بالصعيد فعاملها
 بالسلب والنهب واستوعب أموالها وضبطها للدولة رومة وحاز لنفسه مقدارا
 جسيما من الاشياء النفيسة على ما حكاه قداماء المؤرخين والظاهر أنه اغتر
 بعد ذلك بشوكتة وشدة بأسه وبصبرته على المصريين فظفوا وبغى وتظم
 نفسه في سلك القراعنة وقلدهم في جميع أفعالهم الجوربة فأمر أن تفت
 تماثيله على صورته وتوضع في الميادين العمومية بمصر وأن ترسم وقائعه
 على المباني والهياكل العامة كالقراعنة الاقدمين ولكن لم تدم هذه الحالة
 زمنا طويلا ولا تها برفعة شأنه وعلو مقامه كما يتجلى حيث أعقبها عزله ونفيه
 وقتله لنفسه في محل نفيه وسبب ذلك أن أغسطس كان قد غضب على أحد علماء
 الآداب الرومانية وطرده من رومة فأواه بمصر هذا العامل فهذا أغضب
 أغسطس فكان هذا سببا لما جرى عليه من قتله لنفسه والظاهر أنه لم يتول
 بمصر نائب من طرف خليفة أو سلطان الا سوق نفسه الى الاستبداد بمصر
 والاستقلال بحكمها والتسلط عليها وذلك اما الطمعية النفس في الافراد
 بالمجد والشرف لاسيما اذا كانت في أشرف المواطن كصر واما لاقضاء موقع
 مصر وحدة التصرف وعدم التبعية وانها لا تفلح حكومتها الا بانفراد الحاكم

بالصرف فيكون النائب مضطرا الى الاستقلالية ورفض التبعية ويدل
على هذا أن نائب مصر قديما وحديثا لخصوصيات ومزايا ومعافاة دون
غيره من نواب الممالك ولم يكن في زمن من الأزمان تابعيا مطلقا بل تبعيته
ظاهرية فقط فقل أن تجد نائبا على مصر لم يبحث عن الاستقلالية والذي
لم يبحث عن ذلك بكوهه قائد المعز يدين الله الذي أخذ مصر لسيدده ولم يطمع
فيها فإنه كان بمنزلة الملك الحقيقي لاسيما وأنه كان ملوكا وجميع جنوده اتباع
للمعز وبالجملة فتبابة مصر ووزارتها كالسلطنة قديما وحديثا فان نور الدين
ولاها وزارة لصالح الدين

وتولى بعد قورنيلوس غالوس نائباً على مصر بطرنيوس وفي أيامه قام عليه
أهل الاسكندرية وخرجوا عن طاعته فأدخلهم حالاً وسريعاً تحت الطاعة
الرومانية وفي مدة ولاية هذا العامل أمر أغسطس بغزو بلاد العرب فجهر
بطرنيوس نائب مصر حينئذ في قيادة الجيش اليوس غالوس أحد قواد
الجنود الرومانية وسيره الى بلاد العرب تحت قيادة القائد المذكور وقيل
أن أغسطس صاحب الجند أيضاً الى تلك الجهة فاصرت تلك الجنود
الرومانية على العرب من أول الامر ثم انهزمت واضمعت لصعوبة مزاج
الاقطار الجازية وعدم موافقة اهويتها للجنود الرومانية فبعد مضي سنة
كاملة في الحروب والمخاطوب ومقاساة التعب وفقد الزاد
والراحلة وما يضاف الى ذلك من أمراض تلك التواحي وعدم اتقياد العرب
لغيرهم رجعت الجنود الرومانية من طريق بلاد العرب ودخلت في مصر
من غير حصول على مرغوب الامبراطور أغسطس حيث كان قصده من هذه
الغزوة الاستيلاء على بلاد اليمن والكثيرة العطريات والبهار لاسيما وأنهم
كانت اذذاك مركز المحصولات الهند الشهيرة بالثروة والغنى ولا غربة في
نسبت أغسطس بذلك فقد دلت التواريخ والوقائع قديما وحديثا على أن كل
من ملك مصر من أرباب العقول السليمة امتدت انظاره العالية للاستيلاء على
جزيرة العرب للاستحصال على الخطوة بمحصولات الهند واعتنام مكاسبها
وأرباحها

وفي مدة هذه الغزوة العربية اعتمد أهالي السودان فرصة غيبة العساكر

من صعيد مصر وغاروا على البحار المصرية بجيش جرار تحت قيادة قنصا قه
ملكه جبال بركل باقليم دقته فاستولت على مدينة أسوان وماحولها من
الجزائر المصرية بجزيرة الصم ودخلت بلاد الصعيد الاعلى وأهلكت
الحرث والقسل واغتنت الغنائم العظيمة فقصدها بطرنيوس ودفعها عن
مصر الى السودان واقتنى اثرها ليعاقبها على جسارتها وتعذيبها حتى غلبها
على دارملكها ولم يعقد معها الصلح الا بشرط أن تدفع لدولة رومة خراجا
سنويا وأن تعين من طرفها سفراء للقصر أغسطس لتتيم هذا الصلح باقراره
عليه وكان قد بلغ ديوان رومة خبر هذه الوقائع ومجموع هذه الملكة على الديار
المصرية التي هي من الاممال الرومانية فانفعل أغسطس من ذلك كله وسار
بنفسه الى مصر لينتقم من هذه الملكة لظنه انها لم تزل بصعيد مصر متشبثة
بالتقوى والفساد قبله في أثناء طريقه وهو يجزيرة صيصام انتصار بطرنيوس
عليها وما عقددها على الصلح وتقويض تيممه لا أغسطس وأن نائب مصر
حمل الملكة على أن تعين سفراء لها للملك فاستطاع أغسطس سفراء السودان
فلما حضروا اليه أقر الصلح الذي عقده نائبه وانما في هذه الملكة من الخراج
السنوي الذي تقرر عليها عامه

ولما عاد بطرنيوس من البلاد السودانية الى الديار المصرية عكف على ما كان
عليه من حسن ادارة الاقاليم واصلاح اراضيها وتقويم أودها بما تقتضيه
أحوال البلاد المصرية وكان مطمح نظره في عملياته كلها اصلاح مجارى
النيل ومصارفه وخلقائه وترعه فبذل مجهودا في ذلك حتى صار النيل على
حالة مرضية بحيث متى بلغ اثنى عشر ذراعا يكون ضامنا للرى وكافلا لخصوبة
الارض وكثرة الانبات وكان قبل عملية هذا النائب لا يكتفى في رى مصر
دون أربع عشرة ذراعا هكذا قال أرباب التاريخ والمشهور أن رى مصر
في تلك الايام ست عشرة ذراعا فلا مانع من أن حسن عملية الرى تفعل
الغرائب وأن المقصود أن رى مصر اذا وصل الى أربع عشرة ذراعا لا يحصل
القمح لامكان زرع التبارى في الاراضى العالية وزرع الحنطة في مجارى
من الواطية وهذا كاف في أن مصلحة الرى ليس فيها في الأربع عشرة ذراعا
مضرة وقدمت بطرنيوس واليا على مصر ثمان سنوات ثم خلفه عليها أليوس

غالوس الذي كان قائداً من طرف قيصر على غزوة العرب في أيام نيابة بطرس
ويعتبر دولة أليوس غالوس نائباً على مصر ذهب إلى المسجد الاعلى
واستعجب معه اسطرابون الجغرافي في سياحته لاستكشاف البلاد وبقي
نائباً على مصر مدة طويلة ومات أغسطس في نيابته

وقد أعقب دولة الرومانيين على مصر خسارة عظيمة ومضرة جسيمة بالنسبة
للعلوم والمعارف الموجودة بالاسكندرية بنصف مدارسها ومكتباتها الالهية
ولم تكن هذه الخسارة دون ما سبقت من حريقه كنهانة الاسكندرية في آخر
أيام الملوك البطالسة وذلك لأن كبار المعلمين والمدرسين تلك المدارس رحلوا
من الاسكندرية إلى رومة لينالوا القبول عند القيصرية والحظوة بانعاماتهم
الجليلة فخلت منهم ربوع العلوم والمعارف والفنون والطوائف ومع ذلك
فقد جتد القيصرية في مصر مدارس ومعالم وعينوا الهام من الرؤساء والرجال
من في السبق في ميدان الفضائل ولكن لم يحتفل الا هالي بتلك المدارس
ولما رمو العلوم كالاول حيث فترت همهم واعتراهم التسكسل عن التحصيل
فمن هذا لم تقدم العلوم حتى التقدم الكلي كالسابق وان كانت تلك المدارس
المصرية لازال يخرج منها أفاضل ممتازون بالعلوم والآداب لهم جليل
الذكر والشهرة في تواريخ أولى الالباب وبالجملة فقد وقع في زمن حكومة
الرومانيين على مصر بالنسبة للعلوم والمعارف نظير ما وقع في سائر الازمان
وهو أن تحصيل المعارف البشرية واكتساب العلوم العقلية ظهر في مصر
بقدر ما اقتضته عناية الحكومة واجتهدت فيه همة الدولة المتسلطة عليها
ومن المعالوم أن أيام الدولة الرومانية لم تكن كأيام القرعنة ولا البطالسة
في صرف الهمة للفنون والعلوم فان غالب همة الرومانيين كانت مصروفة
في الحروب والغزوات وتوسع دائرة الفتوحات فلما أخذت مصر أعدها
مخزناً للدولة تستخرج منه ما تحتاج اليه من محصول الزراعة وجعلت
الاسكندرية مركز التجارة وتكثر البضاعة فكانت المعارف المصرية
بالنسبة لدولة رومة من الأغراض الثانوية

وقد أقصدى أغسطس بالاسكندرية الاكبر حيث رخص للمصريين في التمسك
بدينهم وأباح لهم التعبد بمقتضى أصولهم ولم يمنعهم من شيء مما اعتادهم

وعواندهم فصاروا يجتدون الهياكل لاصنامهم في أي اقليم من الاقاليم
المصرية أو النوبية ويصلطون ماتهم منها حتى انهم كتبوا على مبانيهم اسم
أغسطس قيصر لتخليد اسمه وتأيد رسمه وفي أيام هذا القيصر الروماني كان
ظهور عيسى بن مريم على نينوا وعليه أفضل الصلاة وأزكى السلام فكان
ميلاده قبل الهجرة بستة وثمانين وعشرين سنة بعد ولادة ابن خالته يحيى
ابن زكريا ثلاث سنوات وبموالده عيسى عليه السلام الذي حصل بعد نحو
عشرين سنة مضت من ملك أغسطس أرخ النصارى فيما بعد تواريخهم
وهو روح الله وكلته ألقاها الى مريم وأصل عيسى في اللغة العبرانية التي هي
لغة أمه وآبائها ياشوع وسمته النصارى يسوع وسماء الله تعالى وهو أصدق
القاتلين عيسى ومعنى يسوع المخلص بتشديد اللام وينعت بالمسيح ومعناه
الصادق وكان من خبره عليه السلام أن مريم ابنة عمران بينما هي في محرابها
اذ بشرها الله تعالى بعيسى فخرجت من بيت المقدس وقد اغتسلت من الحوض
فتمسك لها الملك بشرى في صورة يوسف بن يعقوب أحد خدام القدس فنفخ في
جيبها فسرت النفخة الى جوفها فحملت بعيسى كما تحمل النساء اذ حلت نفخة
الملك منها محل القحاح ثم وضعت بعد تسعة أشهر على الاصح بقرية بيت لحم
من عمل القدس في يوم الاربعاء خامس عشرى كانون الاول وتاسع عشرى
كبهك سنة ٣١٩ للاسكندرو فقدمت رسل ملك فارس في طلبه ومعهم
هدية لها فيها ذهب ومزولبان فطلبه هيردوس ملك القدس ليقتله وقد أنذره
فسارت أمه مريم به وعمره ستان على جارومعها ابن عم لها وهو يوسف التجار
حتى قدموا الى أرض مصر فسكنوها مدة أربع سنين وذلك انهم حين وصلوا
الى مصر نزلت به أمه الى مدينة بوسطة في رابع عشرى بشنس فلم يقبلهم أهلها
فنزّلوا بظاهرها وأقاموا أياما ثم ساروا الى مدينة ممجدو وعدة والتيسل الى
القرية ومشوا الى مدينة الاثونين فدخلت مريم بعيسى عليه السلام
وظهرت له في الاثونين آية وهوان خمسة جبال زلجتم في مروورهم فصرخ
فيها المسيح في الاثونين فصارت بحارة ثم انهم ساروا من الاثونين وأقاموا
بقرية تسمى فيلس مدة أيام ثم مضوا الى القومية وكان بها أصنام فصاح من
جوف الاصنام صائح وقال ان امرأة أتت ومعها ولدها يريدون أن يخرّبوا

بيوت معابدكم فخرج اليه ما تفرج لبسلاحهم وطردوهم عن مدينة القوصية
 فخصوا الى ناحية ميرة في غربي القوصية ونزلوا في الموضع الذي يعرف اليوم
 بدير المحرق وأقاموا بمسرة أشهر وأياماً فرأى يوسف التجار في منامه قائلاً
 يخبره بموت هيرودس ويأمره أن يرجع بالمسيح الى القدس فعادوا من ميرة
 حتى نزلوا حيث الموضع الذي يعرف اليوم في مدينة مصر بقصر الشمع
 وأقاموا بمخارة تعرف اليوم بكنيسة يوسف ثم خرجوا منها الى عين شمس
 فاستراحوا هناك بجوار ماء فغسلت مريم من ذلك الماء ثياب المسيح وقد
 انصفت وصبت غسلها تلك الاراضي التي تبت اللسان هناك وكان اذا
 ذاك نبت اللسان بالاردن فاقطع من هناك وبقى بهذه الارض وكثر الماء
 بالبرز الموجود هناك حيث سال عليها الماء الذي غسلت منه مريم فهذا سبب
 تعظيم النصارى لهذه البرز وذكر بعضهم ان من خواص مصر النيدة وهي
 غسل القمح ولا يوجد في الدنيا امطناعها الا بمصر وقد ذكر الحكماء أن
 السيدة مريم عليها وعلى ولدها الصلاة والسلام صنعت النيدة للسيد عيسى
 عليه السلام حين قل لبنا فالهمها الله تعالى عملها ومن المعلوم أن النيدة أكثر
 اتخذها في منشأة اخيم المسحة بمنشأة النيدة ولم يزل عملها باقياً بها الى الآن
 ولم يذكر أحد من المؤرخين أن مريم ذهبت بعيسى عليه السلام الى تلك
 الجهات من الصعيد وانما قال بعضهم أن مريم أقامت أيضاً بابنها بائناس
 المدينة بالصعيد حتى قبل ان أمته ولدته بها وان فيها النخلة التي ذكرت في قوله
 تعالى وهزى اليك بذراع النخلة فاقطع عليك رطباً جنياً وان هذه النخلة
 تسمى نخلة مريم وانها لم تزل باقية بائناس المدينة الى آخر أيام بني أمية والذي
 عليه الجاهلة أن عيسى عليه السلام انما ولد بقرية بيت لحم وجاءت به أمته الى
 مصر وعمره سنتان وأنه أقام في مصر أربع سنين ثم عادت به أمته ومعها يوسف
 التجار وعمر عيسى ست سنين فزلت به مريم قرية الناصرة من جبل الجليل
 فاستوطنتها فشبها عيسى حتى بلغ ثلاثين سنة فصار هو وابن خالته يحيى بن
 زكريا عليهما السلام الى نهر الاردن فاعتسل عيسى فيه فغلت عليه التوبة
 لثلاثين سنة ولم يقبأ غيره الا على رأس الاربعين فغضى الى البرية وأقام بها
 أربعين يوماً لا يتناول طعاماً ولا شرباً فأوحى الله اليه بأن يدعوني اسرائيل

الى عبادة الله تعالى فطاف القرى ودعا الناس الى الله تعالى وأبرأ الأكره
والابرص وأجبا الموتى بلذن الله وبكت اليهود وحصل ما حصل مما سبأني
ذكره في الفصل الآتي وفي السنة الرابعة عشرة من ميلاد عيسى الموافقة
لسنة ٦٠٨ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية كان
موت أغسطس الذي هو أول قيصرية الرومانيين وعمره ست وسبعون سنة
بعد ان حكم ثلاثا وأربعين سنة حكومة ملوكية غير مدّة الرئاسة الجمهورية
وتولى بعده على الرومانيين قيصر طيبروس ثم ان لفظ أغسطس ويقال فيه
أيضا أغسطس ومعناه الرئيس الاعلى كما سبق وطلق عند الرومانيين على كل
ملك من ملوكهم فهو بمنزلة قيصر وامبراطور فهي القاب ثلاثة مترادفة
على معنى واحد

(الفصل الثالث)

* (في الملك طيبروس قيصر الاول ويسمى طباريوس) *

تولى هذا الملك قيصر سنة ٦٠٨ قبل الهجرة
وهذا القيصر هو ثاني امبراطور من امبراطرة الرومانيين خلف أغسطس على
الدولة الرومانية وتولى على مصر عاملا من طرفه يسمى أمليوس أولوس فاجتهد
هذا العامل في تقرير خراج مصر زيادة عما كان يقرره عليها أغسطس وبعث
يستأذن طيبروس في ذلك فأجاب به هذا القيصر بقوله نعم أستهي من الراي
تسمين ما يرعاه ولا أرضى منه أن يذبحه وهذا نظير ما صدر في صدر الاسلام من
أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعامله لما أراد مثل ذلك وزاد في
الخراج زيادة فائقة المحدث كتب اليه ان القيمة قد درت ولكن أجابت
أولادها وقد خلف هذا العامل عدة ولاة تعاقبت على مصر في مدة طيبروس
نختمهم ألبوس سيان وهو الذي تكبر وتعظم جده اليخشي بأسه ويجعل قدره
في أعين الناس وتكمل هيئته فكان جوره وخطله بكور طيبروس وخطله
وعتوه لان طيبروس كان جبارا عنيدا ما كرا ومخادعا منافقا يظهر خلاف
ما يطن بدليل أنه في عهد أوليته على رومة أراد أن يخلع نفسه من الملك فأتا
ليس لي فضل في السياسة والتدبير كفضل أغسطس بل قبل اقدامه على

التولية ترجاه مجلس رومة في أن يكون قيصر الرومانيين فلم يتول الاكرها
وأظهر انه لا يجب أن يكون امبراطور وهذا نظير ما وقع من السلطان قانصوه
الغوري حين اختاروه للسلطنة على مصر وحين سئمو اعنه بعد ذلك فجمعهم
وأظهر انه يريد خلع نفسه من السلطنة فأبوه فكليد الماول قد تنفق مع
اختلاف الازمنة والامكنة وفي الحقيقة كان أغسطس أهلا للحكومة
الدولة الرومانية فانه لما تولى لقب نفسه أميراً ولم يرض أن يكون ملكاً ولا سيده
فقد ساس الرومانيين وما سادهم ورعاهم وما استرعاهم وأما طيبروس فلم يرض
أن يلقب امبراطور يعني أمير العساكر بل تسلطن وقال أنا مولى الرعايا
وسيدهم وهم عبيدي وأمر العساكر وفائدهم وهم جنودي وملك الاهالي
وسلطانهم وهم في قيودي وقد كان يرى ان اهدأ جميع أنواع التعظيم
والتهجيل بالنسبة لتقامه شيء قليل وقد استوزر من يلائم طبعه من الامراء وهو
ألبوشيان نائب مصر وجعله آله الجبروت ووسيله عظمى لطاغوته وكان
هذا الوزير بطانة سوغاثا رعى طيبروس يقتل عائلته أغسطس فقتلهم على
التدريج واحداً بعد واحد ولم يبق منهم الا القليل ثم استشر هذا القيصر بأن
وزيره يريد أن يتقلب على الملك ويستلبه من يده فأمر بقتله وطرحه في الميدان
العمومي ففرح الاهالي بذلك ومن قواجسته وفي أول ولاية هذا القيصر كان
العثور في بلاد الجعم على القبل الذي أخذ الاسكندر من يوروس يعني فيروز
ملك الهند ووجهه ونذره لكوكب الشمس وأطلقه محزماً ظهره اكراماً لعبوده
كما تحرم عند العرب الابل التي يصل راكبها الى الحرم النبوي كما قال الشاعر
واذا الملقى بنا بطن مجدا * قلهورهن على الرجال حرام

والرجال بالحاء المهمة فلما عثروا بهذا القبل استدل على أنه طويل العمر
وقد تقدم ذكر ذلك في الفصل الرابع عشر من ماول الدولة الحادية والثلاثين
قال في حيلة الحيوان وقد حكى ارسطو أن فيلا ظهر أن عمره أربع مائة سنة
واعتبر ذلك بالومم انتهى والواقع أن القيل يعيش هذا القدر من السنين كما
نص عليه أيضاً غير الديميري من علماء المواليد ونظيره هذه الغرسة ما حكاها ابن
خلكان قال ان في اثنا مائة ٦٦٠ توجه عسكر الشام الى انطاكية فأقاموا
عليها قليلاً ثم رجعوا فآخبرني بعضهم بغرسة وهي أنهم نزلوا على جرود وهي

بين دمشق وجص فاصطادوا جر وحش كثيرة فذبح رجل جارا وطبخ لحمه
 فبقي يوما وقد عليه ولا ينضج لحمه ولا يتغير ولا يقارب النضج فقام جندي
 وأخذ الرأس فوجد على أذنه وسما فقرأه فإذا هو بهرام جور فلما أنوا أحضروا
 تلك الأذن إلى فوجدت الوسم ظاهرا وموضع الوسم أسود وهو بالقلم
 الكوفي وبهرام جور من ملوك القرس كان إذا كثر عليه الوحش وسماه
 وأطلقه وجر الوحش من الحيوانات المعمرة وهو له عاش ثمانمائة سنة وأكثر
 انتهى كلام ابن خلكان ونقله عنه صاحب المتقى من تاريخ الاسلام لمحمد
 ابن الذهبي كما نقله أيضا عنه الدميري في حياة الحيوان وبعد أن أورد هذه
 الغريبة قال إن جر الوحش تعيش أكثر من مائتي سنة ثم قال وقيل إنها
 تعيش أكثر من ثمانمائة سنة ثم نقل عن الجاحظ أن أعمار جر الوحش تزيد
 على أعمار الحمر الأهلية قال ولا يعرف جارا هلى عاش أكثر من جارا أبي
 سبارة وهو عليه بن خالد العدواني كان له جارا أسود أجاز الناس عليه من
 المزدلفة إلى منى أربعين سنة انتهى ومن العجب أن ثلاثة من أكابر الفضلاء
 يقولون مثل هذه الغريبة ويعتقدون أن الجارا الوحشي يعيش ثمانمائة سنة
 فأزيد مع علمهم أن العمر الطبيعي للحمر ولو وحشية هو نحو الخمسين بموجب
 الناموس الطبيعي الذي اقتضته الحكمة الإلهية ويعتقدون في ذلك
 على الوسم باسم بهرام جور مع أنه يمكن أن يصطاد أحدهم المتأخرين جارا
 وحشا ويسمه باسم هذا الملك الإلهي تذكارا لتولعه بالصيد فن عمر عليه فإن
 أنه من وسم بهرام جور فلعل جارا هؤلاء الفضلاء الذي هو مطية قولهم من
 هذا القبيل ويدل على ضعف قولهم كون الاسم بالقلم الكوفي الذي لا يصح على
 وجه مستحسن أن ينسب لبهرام جور في تلك الأزمان ولو تظنوا المثل هذه
 الدقيقة لحققوا النقل وناقشوا فيه لكن تهاقوا في أمثال هذه الغريبة
 وحكاية هذا الجارا الوحشي أشبه بحكاية ابن بطوطة في سياحة الصين عن شيخه
 المعمر عدة قرون وحكاية أهل السودان المتواترة عن عبد العزيز القندري
 الذي نقلوا عن أهل قندرا أنه عاش فوق أربع مائة وخمسين سنة مع أن
 الأعمار الاستثنائية يعني النادرة جدا في الأزمان الجديدة لا تكاد تبلغ المائتي
 سنة والتثبت أولى في مثل هذه الأمور وكان هذا القيصرفا كاللدماء

حاقدا على جميع الاكابر والاعيان تكبره أهل رومة منقظه واعتكف
في جزيرة قريسة من رومة وانزوى فيها ليعبد عن أعين الناطرين ويفعل
مالا يليق بالمنصب الملوكي فاخلى في هذه الجزيرة مع شركائه في الفسق
والخباثت وأوى اليها أرباب الرذائل والدنايا وشبه الشيء منجذب اليه وجعل
هذا المحل مقبلة ومذبحه فكل من أراد قتله أحضره من رومة الى هذا المحل
وقتله وأغرقه في الماء من محل مخصوص بالجزيرة معد لذلك وفيه آله تكسب
على الغرق فتكسر عظامهم حتى لا يعيشوا بعد السقوط في الماء وكان له
بهذه الجزيرة قصور فاذا أراد أن يتلثى حولها للتراحة يسأل السامعي عن
حال الطريق حولها هل هي خالية من الناس أولا

ومع بطنه وقتكه فكان في ارباب عظيم وخوف على نفسه فكانت ذمته
مترددة موسوسة تحيك فيها الاتام وتقرن فيها الشبهات والوساوس فكانت
نيران ذمته المتوقدة ترمي أحشائه وطالما كان يسأل العرافين والكهان
ويزجر الطائر في كل مكان وأوان ليتعرف عاقبة أمره والباقي من عمره ولما
أحس بأن عمره قد دنا وأشرف على القدوم الى دار البقاء والخروج من دار
القضاء تكلف كتمان سره على من سواه وأظهر التجلد وأخفى نضبه وعناه فبينما
هو خارج من وليمة من الولائم اذا بصره حكيمة فوجهه بحال غير موافق للصالة
الطبيعية ولا ملائم وان علامات الموت قد نشرت عليه آثارها وأنشبت
المنية أنفاسها وان عيشته أضغاث حالم بعد ظهور هذه العلام فاندراهل
الديوان بأن القيصر لا يعيش أكثر من يومين وانه سينفق على رأسه عما قريب
غراب البين فأرسلوا ساعة لقواد العساكر فكان أول حاضر منهم ومبادر
الامير البغولابن جرمانيقوس فأمسك زمام الحكومة واستولى عليها فابشر
الاولو قدر جعت القيصر حواسه واستنار بعد الظلام نبراسه فارتعب جميع
الناس غاية الارتعاب وهربوا وارتابوا غاية الارتياب فقام امير مباركة
الطلعة ميمون يسمى الامير مقرون قائد القيصر في برجة وثقل عليه بها
حتى صارت فوقه كالغمة وكان هذا القيصر هراما قد ناهز السبعين أو الثمانين
فكان لحينه في سنة ٥٨٥ قبل هجرة سيد الاولين بعد ان حكم ثلاثا
وعشرين سنة

وقبل موته بأربع سنين رفع عيسى بن مريم الى السماء وقصة رفعه مشهورة
في قصص الانبياء وبين العلماء وملخص ذلك انه لما تقبا وأظهر المعجزات
المدكوذة في الفصل السابق وأمر اليهود بالذهاب في الدنيا والتوبة من المعاصي
آمن به الحواريون وكانوا قوما صابدين وقيل قسارين وقيل ملاجين ولا مانع
أن يكونوا من هؤلاء الطوائف الثلاثة وعددهم اثنا عشر رجلا وصدقوا
بالانجيل وكذب به عاتة اليهود وضلوه واتهموه بجهلهم وعنفهم فكاتبه
ولهم عدة مناظرات آلت بهم الى أن اتفق أحبارهم على قتله وطرقوه ليلة
الجمعة فقبل انه رفع عند ذلك وقيل بل أخذوه وأتوا به الى بلاطس النبطي
شحنة القدس من قبل الملك طيباريوس قبصر وراوده على قتله وهو يدفعهم
عنه حتى غلبوه على رأيه بأن دينهم اقتضى قتله فأمكنهم منه وعندما أدنوه
من الخشبة ليصلبوه رفعه الله اليه ولهم العمر ثلاث وثلاثون سنة وثلاثة
أشهر فقبلوا الذي شبه لهم كما أخبر الله تعالى في قوله ولكن شبه لهم وما
أحسن قول المتنبي

مامقاي بأرض محلة الا • ك مقام المسيح بين اليهود

انا في أمة تداركها الله غريب كصالح في غمود

وقد اشتهر هذا الملك بأنه هبكل الظلم وشخص الجبروت ومع انصافه بهذه
الحصال الذميمة فكان له فضائل ومعرفة بالسياسة والتدبير فقد كانت أيامه في
رومة أيام سلم وصلح مع الاجانب ولم يحصل في مملكة الرومانيين المتقلبة أدنى
اختلال وكانت العدالة موجودة في الاقاليم والعمالات وكلت أموال
الخزينة الرومانية مدبرة موفرة فقد وجد في بيت مال الرومانيين بعد موت
هذا القيصر خمسمائة وخمسون مليوناً من القرينكات واشتغل كثير بالعلوم
والآداب وألف وصنف وتعلم باليونانية واللاطينية ولكن اغتال قائله
يد الضاع بمجرده ما خلت من ذات الملوكة الرباع واليه تنسب طبرية بالشام
فهى مأخوذة من اسمه

(الفصل الرابع)

• (في الملك قاليغولا قيصر) •

تولى امبراطورية الرومانيين في سنة ٥٨٦ قبل الهجرة بعد وفاة عمه
 طيبريوس وكانت مدة حكمه نحو أربع سنوات واستبشر به الرومانيون في
 طالعة أمره لاسيما وانهم كانوا قد ضجوا من طغيان طيبريوس وكذلك عما
 أوجب فرحهم به أنه ابن جرمانيقوس الذي كان من خول الرجال المحبوبين
 للرومانيين فلقبوا ابنه فاليفو لالجهم اياه تبعاً لمحبتهم لايه في عهد حكمه فنجح
 الدولة وولى نعمة الملة وكان في أوائل حكمه على جانب عظيم من حسن
 السلول وكمال الاستقامة كما توسم فيه جميع الرومانيين ذلك ثم لما مرض
 مرضاً شديداً وشفى منه تغيرت طباعه واختلت أحواله واستحالت الى حالة
 سيئة جداً حيث اعترته الحماقة التامة والميل لارتكاب الكبائر والمآثم وسفك
 الدماء والغدرو والاتصاف بسائر القبائح

فقد تشبث بان يحيط به أرباب اللهو واللعب وأهل الخزية والهذيان
 والتجارب بالمعاصي وانخطايات كان يفعل اللهو واللعب في المحافل العامة
 وعلى رؤس الاشهاد ويدعو لذلك أرباب المجلس الروماني وكل من لم يستحسن
 هذه الألعاب ويظهر الانبساط منها والاعجاب يقتله حالا ومن رفع صوته في
 ميدان اللعب أمر بجلبده وضربه ضرباً مبرحاً فمات في ذات يوم في عقد مجلس
 الألعاب أن هذا الملك كان يناقش بين الفضائل الرومانية ويقاضل بينها وبين
 المحاسن اليونانية ويجادل في التفضيل بينهما فتركت عاقبة الرومانيين مجلس
 اللعب وانقصوا عنه فصاح هذا الملك قائلاً ليت الالة الرومانية لم يكن لها
 الرأس واحدة يشير الى أنه كان يسهل عليه قطعها وكثيراً ما أمر بطرح من
 قصر من الألعين عند الحضور في ميدان اللعب وقذفه بين المتفرجين عقاباً
 لتقصيره ورميها قطع لسانه حذراً أن يصيح في الميدان فيكدر على أهل المجلس

وقد ارتكب غاية التبذير ونهاية الاسراف في الخطووظ والشهوات حيث
 أنفق على ذلك ما أبقاء سلفه طيبريوس من الاموال فكان يأمر بأعمال الجسور
 والقناطر على البحر فكانه يأمر بالبحال مما يظهر في خيال ذهنه الدال على
 الاختلال وبمعمل الصنادل والزوارق المرسعة بالجوهر ويجعل في هذه السفن
 جامات وغرفاً مزيّنة وأمثاراً وأزهاراً مرفقة وقد اصطنع اصطبلان به
 من المرمر لقرص كانت عليه عزيمة وعمل في الاصطبل لهما حوضان العاج

ورضع طقوسها بالثول والمجان وقيد اسمها في دفتر القسيسين والاحبار وروعد
أن هذه القروس تصير ذات يوم من الايام حاكمة على الرومانيين ويكون لها عليهم
الامر والنهي وكان يسميها الخرفى الاكواب من الذهب وهذا من أعجب
العجب

وأمر في حق نفسه أن تصنع صورته ويتخذ منها تماثيل عديدة حتى توضع
في جانب الاوتان والاصنام في جميع الهياكل والمعابد الموجودة في كافة
المدن الرومانية ليكون من جملة الارباب وجعل لنفسه قسيسين خصيصين
يتقربون الى عتاله المتخذ من الذهب الابريز بنبات الطواويس والسمن وكل
طير نادرا الوجود عزيز فكلم سبق في ملوك الدنيا كما بأمر الله يفعل في رعيته
مشتهاء ولعل مثل هؤلاء الملوك المتجاوزة في الاحكام الحدود صار في حقهم
المبالغة والمغالاة أكثر مما ينسب اليهم مما ليس بمعهود والافكيف يتصور أن
أتم من الامم تطيع الحاكم المحتل وتطبق اختلاعه وتنقاد الى امتثال ما به أمر
وحكم وهل كان وزداؤه مثله في الاختلال والافكيف بلغ منهم هذا المبلغ
في الاقتصاد والامتثال لاسما وان الامة الرومانية كانت متقدمة وذات
قوانين محكمة متقنة فيبعد أن يكون ما حكاها المؤرخون عن مثل هذا الملك
وقائع حرفية والافكا الفرق بين الامم المتقدمة والخرسانية في الاحوال العسفية
ولعل هذا في التواريخ ضمن القضايا الانحرافية والتحريفية وبالجملة فكان
عظم جبروته على قدر جسامته فحقه فكان اذا أمر بقتل انسان أمر بحضور
أبويه وأقربائه ليشهدوا مقتله فاذا اعتذروا حدهم عن الحضور بمرض مثلا بعث
بنعش يحمله عليه يشهد قتله وكان لا يحاول قتل أحد ولا تعذيبه الا وهو على
المائة وكان يوصي الجلايا بالتعذيب وكان ذات يوم في وليمة حافلة وفيها
أرباب مجلس رومة متكامله فضحك هذا الملك وقهقهه من غير سبب فسأله
من يجابهه من أرباب المجلس عن سبب هذه القهقهة فقال لهم انما السبب هو
أنى ان أردت أن أقتلكم قتلكم بأذى اشارة ومع أنه كان طاغية جبارا
وداهية غدارا فلم يكن شجاعا ولا هاما ولا بلاسلا مقداما بل كان يرحب قلبه
من أقل الاشياء ولا يستطيع في الصف أن يقابل الاعداء فقد سار في غزوتين
احداهما الى بلاد جرمانية والثانية الى بلاد أربيطانية فلم يكتسب غير الجبن

والعجز وعدم من غير أن يرى صف الاعداء مع الخيبة ومع ذلك فكذب في سفره
الى مجلس رومة يقول لاربابه بينما أنتم عاكفون على الذات ومتسبطون على
بساط الشهوات فانا معرض نفسي للاخطار باقحام العقبات وكان أشد
القباصرة ظلم حتى انه طلب من اليهود نصب وثنه بيت المقدس فنعوه
ووقعت في أيامه شدة على النصارى ويقال ان امرأته من بيت الملك تنصرت
في أيامه فعضدت النصارى ولقي النصارى الذين بالقدس الشدائد من اليهود
وكذلك لقي اليهود في أيامه شدة فانه أول سنة من ملكه غزا نائب مصر اليهود
واستعبدهم سبع سنين وفي الرابعة من ملكه أمر عامله على اليهود بفلسطين
أن ينصب الاصنام في محاريب اليهود بيت المقدس فلما عظم في الاساءة حاله
وثقلت على قلوب الجميع أفعاله قتله الامير خيرياس في قصره وخلص العالم
من جنونه وأمره وكان ذلك في سنة ٥٨١ قبل الهجرة وبموتة قوت الاعين
فألفت عصاها واستقر بها النوى * كما قرعينا بالاياب المسافر
وفي أيامه كان العامل على مصر من طرفه أوليوس فلاقوس فحصل في أيام
ولايته قتل عظيمة في مدينة الاسكندرية بأن نائب مصر المذكور أساء السلوك
فأوجب اظهار اليهود العداوة لحكم الرومانيين على مصر فقاموا على
الحكومة وأظهروا العصيان وصعدوا على القتال فبعزل النائب المذكور
وقتل سكنت الفتنة وتولى على الرومانيين بعد مقتل فالينغولا المسمى أيضا
فالويس الامبراطور قلودس الاول

(الفصل الخامس)

* (في الملك قلودس الاول قيصر) *

تولى هذا الملك امبراطور على الرومانيين في سنة ٥٨١ قبل الهجرة وأمر
توليته عجيب وذلك انه لما قتل سلفه في قصره دخل العساكر القصر الملوكة
لنهب والسلب فينما أحدهم يقتل على شيء منه يسه اذ عثر بشخص طويل
القامة أصلح الرأس محقق وراى القراش ترتفع جميع جوارحه فاقد الحواس
فاستبان أنه قلودس من آل بيت جرمانيقوس فسلم عليه الجنود بالقيصرية
ولقبوه امبراطور الرومانيين وجلوه على تخت روان وذهبوا به الى المعسكر

ووضعه هنالك فأفاق هذا الأمير من فزعه وبايعه الحرس الملوحي فأتم على كل واحد منهم بخمسة وعشرين ديناراً يسقيل ظلوهم اليه ويعتد على صداقتهم ووعده بقبلة الجنود أن يغمرهم بأنعامه

ما قيد الحز كعبد الشرا * وأطلق اللسن الا السخا
فكن كريمة لا تنفق فاقة * ما يعقب الشدة الا الرنا
وقال آخر

اذا وضعوا تيجانهم فضر اغم * وان زرعوا تيجانهم فبدور
على أنهم يوم التزال قساور * ولكنهم يوم النوال بجور
وقال آخر

اذا كان لي في دولة المرخبطة * ولم يغشني احسانه ورعايته
فسان عندي موته وحياته * وسان عندي عزله وولايته
وبالجملة فاللهما تفتح اللهما فكان هذا أصلاً للأنحافات الملوكة والانعامات
القيصرية ورسمان رسوم ابتداء التولية للخلافات فلا تنفق هذه العادة
حيث صارت سنة متبعة

وكان هذا القيصر مجتهداً من المكر والحيلة منزهاً عن الغدر والاذى كثيره
وقليله وانما كان على غاية من الحق والعدل حتى كانت أمته تلقب من زمن
الطفولية بأفحوة العالم وبالصورة الخيالية لانه كان في مهب دميتي بداء
الهزال حتى أوره تخافة الجسم ومخافة العقل فكان أشبه بالخيال ومع ذلك
فكانت له مشاركة في الانشا فقد ألف تاريخ رومة وقرطاجة وأحسن ما وصى
ولما كان هذا القيصر عاجزاً عن حمل اعباء الملك وتديره أو كل ادارة المصالح
للمعاقب والموالي وقلدهم بإدارة أموره وكانوا أصحاب شرور وقبائح
والشهور اثنان عن تقلد منهم رياسة المصالح أحدهما يقال له بلاص والثاني
يسمى زرجاقا كان أعز وزدائه وأعظم أمراهه وكانا يغرانه على ارتكاب
الجور والعدوان وعلى قتل أخبار الناس من الوجوه والاعيان وكان لهذا
القيصر زوجة خيئة تسمى مسالينه وكانت ممن يشكرن العشير ويكفرن
الكثير من الخبز واليسير فكانت تنفضه وتحقد عليه طمعاً في زواج شاب
من الامراء تميل اليه فقصدت ذات يوم قلبه لتولي محبها قيصر ابدله على

الدولة فانكشف لها منها الحياة وأنس منها خدش وجه الامانة فقتلها بدون عطف ولا حناة ومن ذلك الوقت صحما من غفلته وداخلته الجلسة غيب يبقظته ونظور من طبعه الى طور آخر جدد وتزوج بزوجة أخرى أيم نسي أغريته وهي بنت جرماني قوس من نسل أغسطس ولكنها ليست في الحياة دون السابقة بل عنها تزيد وكانت ولدت من زوجها الاول نيرون الجبار وكان للقصر ولد آخر من ضرتهما وداثما تغار منه ومن أمته ونطمع في تولية مملكة الرومانيين لابنها القنذار وتحرم منها أخاه ابن ضرتهما كما هي فعال الاشرار وخصال أهل النار فصعقت على سقى السم لزوجها قلودس فجهرت له سما بطياً قشره ولم يمت في الحال فخسبت على نفسها من ظهور هذه الحياة وان تذوق ماذا فيه ضرتهما من المذلة والاهانة فأرسلت الحكيم يسمى زفقون وأشركته معها في قتل هذا القصر وسقيه كأس المتون فأظهر هذا الحكيم أن يسنى الملك علاجاً لاستقراغ ما في جوفه فأدخل ريشة مسهومة في حلقه فكانت سبباً في تجميد حلقه فمات لوقته في سنة ٥٦٨ قبل الهجرة بعد أن حكم ثلاث عشرة سنة وكانت على الرومانيين مرة بالمرّة

وفي مدة حكمه وقعت في مصر واقعة بين يهود الاسكندرية ومن بهذه المدينة من اليونان وحصلت بينهما قتلة عظيمة اُقتل فيها الفريقان فأسكن هذا الملك قسنة اليهود وأعطاهم رخصة بأن ينتخبوا لهم نقيباً منهم يحكمهم على حسب ما لهم من المواثيق والعهود وفي أيامه كتب متى حواري انجيله في بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدي الى الرومية وكذلك كتب بطرس رأس الحواريين انجيله بالرومية ونسبه الى هرقل تلميذه وكتب لوقا من الحواريين انجيله بالرومية وبعث به الى بعض الاكابر من الروم ثم عظم القسادين اليهود بعضهم مع بعض فبعث أقلوديس عساکر الروم فقتلوا من اليهود خلقاً كثيراً وجلاوا الى انطاكية ورومة من اليهود سيدياً عظيماً خربت القدس وانجلى أهلها عنها فلم يول عليهم القياصرة أحد الخرابها واقترق اليهود على فرق كثيرة ولسع من ملك هذا القصر دخلت بطريق من الروم في دين النصارى على يد شمعون الصفا فاجأت الى القدس ليظهر دين النصارى ورجعت الى رومة وكذلك اتسعت في أيامه بمصر دائرة العلوم والمعارف وتأسس في الاسكندرية دار

علوم متصفة بالتصانف والطائفت وتحسنت بها المدارس والمكاتب وعادت لما كانت عليه من علو الشأن والمرتبة ولكن كان اجتهاد العلماء والفضلاء لا يوازي كرامة الحكومة لهؤلاء النبلاء فان اكرام الدولة كان أجسم من تحصيل العلوم من هؤلاء الاجلة

(الفصل السادس)

(في الملك نيرون قيصر)

تولى هذا الملك الامبراطورية في سنة ٥٦٨ قبل الهجرة المحمدية وحكم ثلاث عشرة سنة كثيرة السيئة قليلة الحسنة وكان نيرون ريباً قلودس قتيناه وزوجه بته أوقطاوه

وكيفية توليته أنه في أثناء احتضار قلودس ومعالجته في نزع روحه أظهرت زوجته أغريسة أم نيرون غاية الأسف والحزن وبالغت في ذلك وأظهرت أيضاً أنها تريد أن تسلي نفسها وتصبها على هذا المصائب العظيم في زوجها وكان ابنه من ضربتها المسمى اربطانيقوس يشبه أباه فذهبت اليه وعاقته وضمتها الى صدرها وقالت له انك على صورة أليك قلودس الذي نحبه فلا يسلينا عنه غيرك وانا لا تقدر على فراقك فكانها تقول

فاقتطري الولدين من أدناهما * شهابوا الحمد فذلك الماحد

فألانت له الكلام وخادعته ومنعته أن يخرج من القصر وأن يظهر بين الأهل وأمرت الحراس أن يغلقوا جميع أبواب القصر ومنافذه وأن يشيعوا زمناً بعد زمن أن القيصر قلودس قد تناقص مرضه وحصل التحسين في صحته وأنه مشرف على الشفاء

وفي أثناء هذه المدة صارت تداهن الجنود وتواسيهم بالهدايا والانعامات فبهذا دبرت التدابير اللازمة لتولية ولدها نيرون فلما تم لها ذلك وأيقنت بنجاح مرامها فتحت أبواب القصر على حين غفلة واذا بنيرون خرج وصحبته بوجوس رئيس الخفر القيصرى فدخل هذا القيصر في وسط الخفر الملوكي فتلقوه بالترحيب والكرامة وبأبعوه ثم ذهب الى المعسكر الروماني وتلا عليهم مقالة رسمية تتضمن تشويق الجنود واحياهم قلوبهم ووعدهم بالانعامات الجمة

كانعامات أبيه فسلموا عليه بالقيصرية والامبراطورية الرومانية وصديق على
هذه الميابة العسكرية أرباب مجلس رومة وأهل الحل والعقد بالمدينة وبهذه
الطريقة وثق هذا القيصر بأن لا يتوقف في مبايعته أحد في الايالات الرومية
ثم جهز واجازة فلودس مع غاية الاحتفال وشيعوها بما يليق بمقامه القيصري
من الاجلال

ولم يكن عمر نيرون اذ ذاك الا خمس عشر سنة فحكمت أمته بالنيابة عنه وكان
يظهر من حاله أنه يصير قيصر اجليل الشأن وكان في حال شبوئته يستشير معلمية
بوغوس وسناخس في جميع أطواره وأحواله حيث استوزرهما وكان الاول
ممتازا بمعارفه العسكرية وشهامته وحسن استقامته كما كان الثاني ممتازا
بذكاء قريحته وقوة فطنته وحسن سلوكه مع الناس بمكارم الاخلاق فلما
أراد الملك تلاوة المقالة الرسمية على جعبة الالهة الرومانية أنشأه سناخس
مقالة تتضمن الوعد منه للالهة أنه يحكمهم ويسوسهم على موجب أصول
أغسطس وقوانينه العادلة ويمحكي عن هذا القيصر من الكلمات الدالة
على أنه يرجي خبره لمدينة رومة أنه ذات يوم عرضوا عليه قضية حكموا فيها
على انسان بالموث ليكتب بالاجراء والتنفيذ فصاح قائلا يا ليتني كنت أنثيا ولما
مدحه مجلس رومة قال لأرباب المجلس أمسكوا عن المدح حتى استحقه وكان
يظهر من حاله أنه يألف الحلم والعدل فبان منه فيما بعد خلاف ذلك فقد كان
هذا القيصر ظالوما غشوما قليل الدين بدين من الاديان فانه لما بلغه أن كثيرا
من أهل رومة تدينوا بدين النصرانية كره ذلك عنهم وأمر بقتلهم حيث وجدوا
وقتل بطرس رأس الحواريين الذي كان بطر كبر رومة منذ خمس وعشرين
سنة وكان بطرس المذكووزيادة عن كونه رأس الحواريين رسول المسيح
الى رومة فولى بدله أريوس بطر كاعليها وقتل مرقس الانجيلي بالاسكندرية
لثنتي عشرة من ملكه وكان هنالك من منذ سبع سنين بها صاعدا على اشهار
النصرانية بالاسكندرية ومصر وبرقة والمغرب وولى مكانه حنانيا وهو أول
البطارقة بالاسكندرية واتخذ معه الاقسة الاثني عشر وقتل أيضا هذا القيصر
رئيس كهنونة اليهود بالمقدس فثار اليهود على من كان بالمقدس من النصارى
وقتلوا أسقفهم هنالك وهو يعقوب بن يوسف التجار وهدموا البيعة وأخذوا

الصليب والخشبين ودفنوها الى أن استخرجتها هلاله أم قسطنطين وولى
 مكان يعقوب التجار ابن عمه شمعون ثم ناربهم اليهود وأخرجوهم من المقدس
 لعشر خلون من ملك نيرون فأجازوا الاردن وأقاموا هناك وبعث نيرون
 قائده المسمى وسباسيانوس ويقال له اسباسيانوس وأمره بقتل اليهود وخراب
 القدس فحصن اليهود من هذا القائد وبنوا عليهم ثلاثة حصون فحاصرهم
 اسباسيانوس وخرّب جميع حصونهم وأحرقها وأقام عليهم سنة كاملة وهذا
 كله بخلاف ما كان يعهد من نيرون في ابتداء أمره فهذا وغيره من أفعاله
 الشنيعة ظهر جبروته واستبانت ذنابه واختل حاله وسامت أفعاله وزرع أمته
 من النباة عنه ولم يكن لوزيريه السابقين منعه من اتباع هوى نفسه فأوجهم
 الامر أن واقفاه على مرغوبه ولم ينجلا من ذلك وأما أمته أغريته فكانت
 تحب أن تكون نافذة الكلمة على الحكومة فجاء ابنها وكان جل قصدها أن
 تبلغ بغيبتها وتنفذ أحكامها من الجنابات وخلافها فكان قتل النفس عندها
 كالشيء لبقاء الملك في قبضة ولدها ولتمكنها من أنواع التصرفات فاشتكت
 من ساول ولدها وأوخت لرؤساء الجنود أنها تخشى ضياع الملك من يده
 بواسطة ابريطانيقوس ابن ضرته وانها تبغى زواجه حتى تأمن على الملك
 فسمموا من ذلك الحين على قتل ابريطانيقوس فينما هو ذات يوم على المائة
 القيصريّة مع الاقارب والحواشى اذ وقع مغشياً عليه وذلك لان نيرون
 اصطنع له كأساً مسموما وسقاه له على الاكل فلما رأى الحاضرون سقوطه
 تفرقوا ما بين مرجوف وخائف ومن بقى منهم على المائة صار مبهوتا يتطر
 شزرا الى نيرون ويشخص اليه بالبصر وأما نيرون فكان لا يبالى بذلك بل
 اضطلع على فراشه ومدرجليه كأنه لا يعلم سبب موت أخيه بل قال للحاضرين
 ان موته بمرض كان فيهم من زمن طفولته وان موته عادى ودفنه ليلا بدون
 احتفال الجنائز وقسم أمواله وأملا له على المواليين معه في قتله

ومن هذا الوقت أحاط بهذا القيصراً باب القسق والعصيان وأصحاب
 اللهو واللعب والالخان وقطاع الطريق وخزان الرقيق وجلسوا معه على
 فردخوان وصار يلبس في الليل للتسكّر تبديلاً وتخفياً ويتبارى الماليك
 متردياً وبطوف باطراف المدينة وأكافها ومحبتها المعاكيس المتاحيس

يتهبون الحوائيت ويؤذون المارين ولا يذاء العفاريت ولكون هذا القيصر
 منكر الايكاد يعرف للاهالي في طوافه حتى اذا قاتل معهم ضربه ضربة
 موجعا أثر فيه تأثيرا ذريعا ثم علم الاهالي أنه هو الذي يطوف ليلا مع قطاع
 الطريق فاقدوا به في ذلك وكثر التعدي والسلب والنهب ليلسان المفسدين
 حتى صارت رومة في الظلام كأنما هي مدينة أخفت عنوة وقد جرح هذا
 القيصر في بعض الليالي بجراحة شديدة في قتاله مع الاهالي فاحتاط من ذلك
 الوقت واحترس من وقوع مثل ذلك فلم يطف بالليل الا معه ما يكتفي من
 العساكر المتكره لباس ومن المصارعين المتبدلين لتلايع رفهمهم أحسن
 الناس ثم أن أم هذا القيصر التي هي أمز منحه وأدهى كانت تستهي أن تأمر
 دائما وتنهى ويكون في يدها زمام المملكة فلم تلك مقصد هافي ذلك حيث كان
 ابنها يمنعهما من تنفيذ أغراضها ولا يمتكن من ذلك فقصدت أن تصنع طريقة في
 إعادة نفوذها بالقهر والغلبة ولكن كان ابنها مغري من بطائنه ووزرائه وكانوا
 يشيرون عليه في جميع أموره بالمقاسد والقتل والنهب والسلب فكان يسلك
 سبيل الاصرار على أفعاله القبيحة الاخذة دائما في الزيادة فلما أنس من أمته
 ما أضمره لهم من المكارة اشتد بغضه لها وأضمر قتلها ليستربح منها وكان من
 أشد أمرائه قننة وافسادا أنيقاطوس أمير السفن القبطية قد بر القيصر
 الحيلة في قتلها وهو أن يصطنع سفينة مخترعة عجيبه الشكل والهيئة بأن
 يكون جرم منها منفصلا عن أجرائها الحقيقية منصلا في الظاهر بها بحيث
 لو سقط في البحر تبقى السفينة بتمامها كاملة ولا يخشى عليهما من الفرق
 فاستحسن القيصر هذا التدبير فاصطنع الأمير السفينة بهذه المثابة وأظهر
 القيصر أن يريد أن يعمل عيد الهيكل عطاورد في مدينة بياوس التي على ساحل
 نابلي وكان لهذا القيصر في هذه المدينة قصر ملاكي وحمامات ومنترحات فدعا
 أمته وأقربها أنه يريد عمل المواسم هناك وأنه بمناسبة ذلك يصالحها الزولي ما في
 النفوس فيها وبينه فصدت قوله وحضرت في الحال راكبة سفينة وكان هو
 في المينا لاستقبالها فلما أرست سفينتها استقبلها بأحسن تشريف وتلطيف
 وأخذ يدها وضمها الى صدره ولا زال يكثر من الملاطفة والتودد حتى مضى
 يوم العيد فذهب ما كان بها من الوحشة والنفور وزال عنها البأس

والوسواس ثم ذهب ليقومها الى جهة الساحل وكانت السفينة حاضرة
ومر منقزنة تليق بهما أثر لها فيها واقترعا على وجه جبل وهي لا تدري ما نصبه
لها من الشر فكسارت مع السلامة صوب مقصدها وكان السير في ليلة مقمرة
تحسن فيها الملاحة فبينما هي قد دخلت السفينة في بحبوحة البحر اذا عطيت
الاشارة على حين غفلة للملاحين بما أضرع لهذه الاميرة فالتخسف مقعدها
وافصل عن السفينة وسقطت بها وعن معها من أتباعها الألواح في البحر
فصاحت احدي النساء المصاحبات لها وقالت أنا الاميرة أغريفة أم القيصر
ظنا أن تجو بذلك من الفرق فضر بهم بعض الملاحين بمجذاف فقتلها
وأما أغريفة أم القيصر نفسها فلم يحصل لها من سقوطها في البحر الا جرح
هين وكانت تحسن السباحة والعموم فسبحت حتى وصلت الى سفن تجارية
باحدى المين الرومانية ناجية بنفسها فلما عرفوها وأصلوها الى مينائها ضواحي
بلد ثم اوقد فهمت بما كان دبره لها ايها من الهلاك ووجئت أن سكوتها عن
ذلك أولى وأنه لا ينفعها الاعدام اظهارا أنها فهمت الحيلة فكسبت لابنها
ما مضونه قد نجحت بالاطاف الالهية من الفرق وتخلصت من الخطر العظيم
فارتجف قلب نبيرون من ذلك وارعدت مة اصله وعلم أنه قد خاب في تدبيره وأن
حيلته لم تنفع لماسق في علم الله وتقديره وخشى من أمه انها ان عاشت وقيت
على قيد الحياة لا بد أن تثير عليه قسنة عظيمة وتقرى عليه العساكر والقواد
وأرباب الحل والعقد فسمى في طلب قتلها بسائر الوسائل الموصلة الى ذلك
بأى شئ كان وألح في ذلك على كثير من أرباب الفساد والعصيان وعرض عليهم
واحد بعد واحد هذا الامر وطلب منهم الغدر فبرزه صاحب الحيلة الاولى
وتعهد بقتل هذه الاميرة ليكون له على ايها بقتلها اليد الطولى فصاح القيصر
قائلا لهذا الجلاد ان صدق قولك فانا قد صرت من الآن فصاعدا قيصر رومة
وما يتبعها من البلاد وأما أنت فلك على اليد البيضاء ولا بد أن أكافئك أيضا
فقتلها من ليته انقاطوس الاثيم وأخذ ذبحها في عنقه ليكون للقيصر اصدق
صديق وأعز حميم فلما بلغ القيصر مقتلها أشاع أنها قتلت نفسها واختارت
مفارقة رومة بالحلول في رمسها فمن ذلك الحين صفا الوقت لنبيرون الجبار
وخلاله الجلو وصار يفعل برومة ما يشاء ويختار

لقد انقردت تلك رومة فافرح • مات الذي قد كنت منه تسبحي
فصار يفعل ما به الله بدون أن يخجل من شيء ما صار يتعدى الحدود ويجول في
ميدان السفاهة والدناءة فكانت ما تمكن من الحكم وتسلطن الالبترد
ويتشيطن وكانت زوجة عفيفة حسنة الاخلاق حيدة السيرة تسبحي
أوقطار به قل أن يوجد مثلها في الآفاق فعشق امرأته تسبحي بوبه وكانت من
الخواطي فصارت له محبوبه ففقد عليها عقد زواج وأمر بقتل الاولى وفي حالة
قتلها كان عاكفا على اللهو واللعب مشغولا بسماع المرقص والمطرب في
المحافل العمومية والملاعب الاهلية وقد اتخذ ملعبا عظيما ضرب اليه من
جميع الجهات الاسوار وكان ميدانا رجا خصه لحظ نفسه في السر
والاجهار فكان يأوي اليه في الليل والنهار ويجرب نفسه في اللعب
والغناء والرقص وسوق العربات ويفعل ذلك بنفسه واذا احتاج الى
المتفرجين والمستمعين احتفل بخدمة وحشمه وحشدتهم في الميدان أجمعين
أكتعين أبصعين فليعب أمامهم ويأخذ الله نفسه أضعف بالنسبة اليه
احتشامهم ولا يزال يجرب نفسه في هذا الميدان حتى وصل في جميع هذه
القنون على كمال الاحسان والانتقان بحيث تأهل للعب في المحافل العاقبة
فكان يركب الابل ويعدو عليها ويجمع الحيوانات الهراش ويصطنع الولايم
يدعو اليها الخواص والعوام ويتفق عليها كرائم الاموال الجمعة وجزيل
الانعام ولا يدع أحدا من الاهالي الادعاء للحضور ليفوزوا بالخطوط
والجبور فكان رعاغ الناس اذ ذاك لا يطلبون الا اللعب والقوت ويتسنعون
بالكفاف من ذلك الغرض المقنوت

قالت أراك مع الانزال تعبيهم • ومن يصاحبهم في عمرهم
لا يعصب المرأة الامن وواقفه • متى رأيت الطبا والاسدي قرن
أجبتهم اظهر اعذري ومتشدها • يتابه تضرب الامثال في الزمن
يقضى على المرفق أيام محنته • حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن
وقد تلا جدران هذا الملعب بالذهب الابريز وكساه من حل السندس
الطرز أحسن نظريز وعمل الاشر والشبك الذي يصطاد به من القصب
المصنوع من الذهب والقضة وكان اذا ذهب هذا القيصر الى الملعب سار

بأنف عربة تنسجها البغال المتعلة بالبحير وكان يحبه أيضا سائسوا الخيل
والسعاة متجملين بالملابس متزينين بأنواع النقائس وكان يطلق في ميدان
اللعب أصناف البضور الثينة كللسك والعنبر ويتفق في ذلك كله على
الالعب ما لا يحصى من الاموال ولا يحصر

ويغناهوعا كم ذات يوم على أنواع اللهو والعب مشغول ومشغوف بما
يجب المتفرجين وبطرب اذ حصل في مدينة رومة حريق هائل رعى المدينة في
أقرب وقت وسرى في اطرافها وأكافها واحترق من أهلها الجسم الغدير
وخرج الناس منها بادرين بالقرار فحاج من فحاج وتلف من تلف ولم يستطع
أحد اخاد النيران وكل من تعرض لاطرافها سمع صواتهم تده وتوعد من غير
أن يرى شخصه بل كان الناس يصرون شعل النيران المتهبة ترمى في المدينة
وبها أصوات تصيح فحن مأمورون بذلك وكان القيصير على ما يقال فوق منارة
عالية ينظر الحريق على بعد ويقرح عليه مستحسنا ذلك المنظر الهائل وكان
اذن يرى اللاعبين يشد الاشعار التي قبلت في رسوم ترواده ومعالها
وأطلالها بعد خرابها ويغنى بها مقتلا ولم يوجد أن الالهة قد خسروا منازلهم
وأموالهم ومتاعهم وخرجوا من المدينة غيب هذه الاحوال مجردين عن
الذخائر والاموال أراد أن يجبر كسرهم فأذن لهم بأن يدخلوا في ميدان
تعليم العسكرية وفي غير من الميادين القيصرية وأباح لهم سكنى بيساته
وبنى لهم الدور والمساكن حالا وفرشها لهم وأعطاهم بعض أدوات وآلات
وأرخص أثمان الحبوب والقلال وكل هذا يستعملهم ويستعطفهم فلم يجد
ذلك شيا ولا مال اليه أحل من الالهة حيث علوا أن هذا القيصير قد سعى في
خراب وطنه ولا سيما أنه كان شرع في بناء قصر متخف بالذهب والاحجار
النفيسة وكان رعه ريملا تسعا وأدخل فيه البياتين والحدائق والمزارع
والبرك والانهر والغابات والرياض والحياض فكانوا يقولون انه هو الفاعل
للحريق والامر به فلما علم منهم ذلك وكثر قطعهم به أراد أن يسكتهم فادعى أن
هذا الحريق انما هو صادر من النصارى الذين جددوا دين عيسى بهذه المدينة
وتثبت بهذه الوسيلة وقصدى بتعذيبهم واهلاكهم وكان تعذيبهم معدودا في
رومة من الافراح والمواسم فكانوا يلبسونهم جلود البهائم ويطرحونهم

للكلاب لتفترسهم وكانوا يصلون بعضهم ويدهنون جلود بعض آخر بالدهان والزيت والنقط والقطران فإذا أظلم الليل أطلقوا فيهم النيران وأوقدوهم كلما عيل ليستصحبوا بهم وكانت هذه القاتل كلها تفعل في حدائق نيرون وبساتينه بأمره وقت الألعاب الميدانية وكان يشاهد ذلك بعيني رأسه ويندح بين الأهالي في صورة عريجي أو في صورة أخرى وفي هذه الهنة العظيمة قتل بطرس حواري وبولس حواري بعد أن جاهد كل المجاهدة ودعا الناس إلى دين المسيح عليه السلام وكان استشهاد بطرس حواري بالصليب واستشهاد بولس بضرب عنقه حيث كان رومانيا تطلقوا به في القتل

ثم أخذت رومة تعبد دسائساً فاجتهدت في تشييد مبانيها أعظم وأنظم مما كانت عليه قبل الهنة وفي أثناء ذلك قام أهلها على نيرون وأضرموا نار القسنة وقصدوا بذلك إبطال الألعاب والملاهي فحزب عليه أرباب المجالس والأمراء والاعيان بل والنساء ورتابوا على ذلك سرّاً وكتموا بحيث لا يفشي إلا بأجرا مفعولة من طرف المتعصين ولكن انفضح حال هذه القسنة السرية فقبض على الأحزاب وصار عذابهم بأشد العقاب وكان من أعيانهم شخص يسمى سور يوس فقال لنيرون لا أحد من العساكر يصدق في خدمتك إلا بقدر معروفك ومحبتك وأما أنا فقد شرعت في بغضك من وقت ما صدر منك قتل أمك وزوجتك ومن وقت ما صرت عريجياً ولاعباً ومحرراً لرومة انتهى

وقد عذب بعض من اتهمه بالقسنة من أرباب الفضل والادب تعذيباً شديداً فقطع عروقه وفتح منازل الدم ولا زال يستقرخ دمه حتى مات بهذه القسنة وقد اتخذ نيرون مع منصب القيصرية على رومة صناعة القسنة وضرب اللحن واللعب في الأفراح العامة حتى أنه قيد اسمه في دفاتر اللاعبين والمغنين لأنه شرع أولاً في انشاد الأشعار للسماس وأراد أن يظهر يظهر أرباب هذا الفن ليطلب الجلوس فطلب منه الامتحان في اللحن وغير اللحن حيث أقادوه أنه لا يقبل دخوله في أبناء الفن إلا بالبحث والاختبار لاوقوف على درجة فضله ورتبته في هذا الاعتبار فقدم في الميدان العام يرى لاعب وعلى هيئة مناضل مضارب وفي صورة مغن في الميادين والملاعب ولم يصق ولا تنفخ ولا مسح وجهه بل أمال أعطافه وترخ وحافظ على القوانين

والرسوم الواجب اتباعها في الميدان ثم جئنا على ركبته كالمتقي الحاضر من
لنقصه الا الهالي في غنيته فقرحوا بذلك وابتهجوا واعل ايتها جهنم انما كان
سببه تعجبهم من قلة امرؤاته ومذلتة وهوانه وأيضا لم يكن أحد من الاهالي
مقتدرا على أن يظهر الكآبة والعبوس وقت لعب القيصر في الميدان بل
لا يمتنع اظهار الالتفات والمسرة والاعجاب وكان لا يستطيع أحد أن يكدر
على مجلس اللعب ولا على المتفرجين والافلايول من الاتفة فكان بالميدان
حراس متفرقون في الاطراف والا كاف يعاقبون من حصل منهم أدنى خلل
حتى ان الامبروسياسيانوس الذي صار فيما بعد قيصر على رومة لما تناوم
وظهر منه غبطة قصد القيصر قتله في ظلمة ذلك ولولا شفاعته من لارتشفاعته
عند القيصر ما فجل من القتل وكذلك بوبه زوجة القيصر ومحبوته لما قالت
له انه لاعب عجيب اللعب على سبيل التحكم رفسها برجله في بطنها رفسة عنيفة
كانت سببا في موتها

وقد قصد نيرون سفر بلاد السودان فانتقل من رومة ورسا على بلاد اليونان
ليغزوها غزوة لعبية حتى يشهدوا له بالبراعة في فنه وحروبه اللبية فاستحسب
جنوده وكانوا من أرباب الالحان والمغنين فتسلطوا بالعبدان والمزمار وغيرها
من آلات الطرب ونزل بهم مدينة قورثيه وكان يونان هذه الجهة دون غيرهم
يعرفون هذه القنون حتى المعرفة فانتصر عليهم نيرون في هذه الحروب الالابية
فتزل تماثيل غول الرجال الذين اشتهروا في سالف الاعصار بالسباق في
الالاب الاولامبيقية وانتصروا فيها وحازوا لقب السبق في ميدان القنار
والالاب الاولامبيقية نسبة الى اولمبيه بلدة يلاذ اليونان وكان بها موسم
يجتمع اليه الناس في كل أربع سنين كسوق عكاظ وفيه تكسب الامتيازات
اليونانية وبهذه المواسم المتكررة كل أربع سنوات يورث اليونانيون
وقائعهم فيقولون حادثة كذا وقعت في الاولامبياق الاقل أو الثاني أو الثالث
وهكذا كالسنة من الميلاد ومن الهجرة فهذا الاولامبياق عبارة عن عقد
أربع سنوات

فلما نزل نيرون تماثيل غول اليونان بالقول على انه انتصر عليهم تقديرا كان
هذا بمنزلة التحقير لقدماء اليونان ومع ذلك فقد صانع الاهالي وصفوا هذه

النصرة الخيلية تلقا وتقا كما نهم شهدوا هذا القيصري بالبراعة والقوة
على الاقدمين وكانت هذه الواقعة كما تقدم بمدينة قورنثيه باقليم أخايا وكان اذ
ذال هذا الاقليم تحت استعباد الرومانيين فأعقوا قلوبهم وأعادوا الحرية كما كان
أولا حيث شهدوا في الالعب بكمال البراعة واستحسنوا منه اتفاقه هذا القرن
واحكامه لتلك الصناعة وكان ذلك في نحو سنة خمسمائة وخمسة وخمسين قبل
الهجرة فكانت غنيمته من هذه الحروب استحسان ألعابه التي يعدها من
المفاخر وليست في الحقيقة الا من قبيل الهزليات والمساخر
فقد رضى من الغنيمه بالاياب بل بامه بصفقة المغبون غب الغياب حيث خسر
الاقليم الذي استولى عليه سلفه بالاكتساب وداخله في عودته الاختيال
بنفسه والاعجاب ووقع استحسان اليونان للعبة منه أعظم موقع فلما دنا من
مدينة رومة هدموا الجبابرة أسوار المدينة فدخلها من هذا النقب راكبا
عربة مسجوبة بتخيول بيض لابساحله أرجوانية ملوكية وخودة مرصعة
بنجوم فضية وزهية وعلى رأسه تاج النصر اليوناني المصطنع من أغصان
الزيتون البري وفي يده اكليد آخر يوناني من شجر الفار وكل هذا علامة على
الاتصار وأمامه جماعات حاملون ألقاوغتامة اكليد مكتوب عليها أسماء
المسابقين المناضلين الذين حازوا لقب السبق في مضمار الفئار واستحقوا
الامتياز بين الاقران بهذه الاكليل والتيجان وحول عربة هذا القيصري
يشد المفتون غرمة واتصاره وأمامه المباخر والعطريات يعبق شذاها في سائر
النواحي والجهات وأناس كثيرون يترون الازهار واللاكي في هذا المركب
العالى المتلالي وهذا يذكر التالى

من الكرلجانا الناصر * وجانبه أسد الغابة

ووكبتك باشيخ هطش * ما كانت الاكذابه

ثم لم يكف هذا القيصري بهذه المفاخر والامتيازات بل أمر أن يصنعوا
تماثيله ويصوروه على هيئة أرباب الطرب والالعب وأن توضع هذه التماثيل
في الميادين العمومية على هذه الصورة الرمزية وأن ترسم بهذا الوجه على
النشود والسكة القيصرية ولحجته في تيجان نفمة وجمهوريه المغنى الخارج
من فمه أمسل عن كثرة الكلام والتزم الصمت حتى عن الامر والهي في

الاحكام وقل الكلام مع جنده وخادمه وعبيده خشية أن يضعفه
يلبغ من ترخيم الاقلام أنه فكان يعتد هذه الاجادة من كمال الشرف
والمهلة

فهذه مناقبه في حياته وأما كيفية عماله فكان سيمها أنه لما أخل بامور ذاته
الملوكية وبجرمة مرواته القيصرية وتجاوز الحد الى هذا الحد وفقد صفة
الشرف العلية ومنقبة المجد سم الاهل من الاتقياء مثل هذا القصر
القديم والملك الوضع الثيم وخيم الخيم عديم التربية البعيد عن التكريم
فصموا جميعا على مجازاته بسوء فعله واستحسنوا المبادرة بقتله وكان من جملة
الاقاليم الرومانية اقليم فرانس القديم التي كانت اهلها تسمى الغلية وكان
نائب هذا الاقليم يسمى ونديش من ذرية ملوك تلك الجهة فخذ على نيرون
وناواه وقصده بالحرب عسى أن يخلص من الاستراحة منه مناه وعرض تقليد
ملك الرومانيين على نائب رومة في اسبانيا وكان يسمى غلبا وكان ذلك
في سنة ٥٥٤ قبل الهجرة فلما أحس بذلك نيرون أرسل قائد جنود جرمانيا
الى ونديش قائد الغلية فقتله وتجهز هذا القائد الجرمانى لمساعدة القيصر على
غلبا المتخبط للقيصرية فبلغ قائد جنود جرمانيا الخبر بأن مجلس الرومانيين
استصوب مبايعة غلبا فأججم عن المعونة

وأما نيرون فقد أيقن انه لا محصل له عن الهلاك وتصور الموت نصب عينيه
وتعاسر عن الخطوط والشهوات وهرب من رومة مع أربعة من عتقائه
واختار سكنى الصلوات قبل بقصره في الخلا على البعد من رومة بامبال
قلاتل وقد دلت على قرب حينه الدلائل فأشار عليه بعض أحابيه بقتل نفسه
بنفسه وتقربه بالطوع والاختيار الى الحلول برمسه وأن هذا أولى من قتل
أخصامه لأنه يشجع نفسه على ذلك لأنه كان يخشى من الموت ويقرم منه كل
التفور ولم تسمع نفسه بسماع قول الشاعر لو كان في زمانه

قد قلت منذ كرو الحياة وأطنبوا * في الموت ألف فضيلة لا توصف

منها أما ان لقاءه بلقائه * وفراق كل معاند لا ينصف

فطالما كان ينوح على نفسه ويندبها ويقول كيف يجوز قتل مثلي وهو
صاحب فن نقيس ولسان حاله يشد

لو يعلم الدهر مني ان مصطبري * يقتال صرف الليالي ثم يقتصر
 كانت جياذ الرزايا كل اطردت * تقوم حول دموعي ثم تنعكس
 فينماهو على هذه الحالة اذ سمع صهيل الخيل وصرير سنا بكها وقد حضر
 الفرسان وقبضوا عليه فقال لهم هيا بنا لقد اوجبت الشجاعة علي ان اقتل
 نفسي حين لاحيله لي فيبادون ذلك

أبت لي همتي وأبي حياتي * وأخذني الحمد بالثمن الربيع
 واجشأني على المكر وهنسي * وضربني هامة البطل المشيع
 وقولي كلما جشأت وجاشت * مكانك تحمدي أو تنزعي
 لادفع عن ما ترصالحات * وأحبي بعد عن عرض سر مح
 فهم يقتل نفسه وشجع نفسه فلم تشجع وكما عمد لقتل نفسه يده وفيها الخنجر
 رفع يده من الخوف فأخذ بعض أحبابه يده قابضة على الخنجر ووضعه على
 منصرفه ليشجعه فجلد لذلك وطعن نفسه فأزهرتها وكان موته في سنة ٥٥٤
 قبل الهجرة فاستراحت الامة من ظلمه وعسفه يقال انه وجد على سيفه يجتصر
 كتابة أعجوبة فقرأت في هذه الايات

الشر مصراع له سطوة * يستنزل الجبار عن عرشه
 وأنت ان لم ترج أوتى * كالميت محمولا على نعشه
 لا تنبش الشر فتبلى به * فقلنا تسل من نبشه
 اذا طغى الكبر بلغم الكلي * أدرج رأس الكبر في كرشه
 ونابش الموتى له ساعة * تأخذه أبش من نبشه
 * لله في قدرته خاتم * تجري المقادير على نقشه

فمن هذا يهيم ان يجتصر الجبار كان يعتقد وحدانية الله وقدرته فقد قال
 بعضهم نقلنا عن وهب بن منبه انه بعد ان رآه الله بشريته بعد المسح ورد عليه
 روحه دعا الى توحيد الله تعالى وقال كل اله باطل الا الله اله السماء فقبل
 لوهب أمان مؤمنا فقال وجدت أهل الكتاب قد اختلفوا فيه فقال بعضهم
 آمن قبل أن يموت وقال بعضهم قتل الايمان وخرب بيت الله المقدس وأحرق
 كتبه فغضب الله عليه فلم يقبل منه التوبة وقد تقدم ذكره في الكلام على الملك
 نيقاوس الاعرج أحد ملوك الدولة السادسة والعشرين فاليه الاول

أصدقيت قبل في وعد الظالمين فقد صدق في صاحب السيف المرقوم علي
وفي غيره ومن أحسن ما قيل في وصف دعوة المظلوم على الظالم قول بعض
الاعراب في آيات لا بأس بذكرها هنا

وسائرة لم تسرف في الأرض تبتغي * محلا ولم يقطع بها البید قاطع
سرت حيث لم يجد الركب ولم تنخ * لورد ولم يقصر لها القيد مانع
تمزوراء الليل والليل ضارب * بجثمانه فيه سمير وهاجع
إذا وفدت لم يرد الله وفدها * على أهلها والله راء وسامع
تفتح أبواب السموات دونها * إذا قرع الأبواب منهن قارع
واني لا أرجو الله حتى كائن * أرى يجميل الظن ما الله صانع
ومدح بعضهم أنسابا وشبه سموة بدعوة المظلوم فقال

كلت همك السموات خلقت * فكأنما هي دعوة في ظالم
وطئت بأوطان التجوم فكملها * من ما رد قدفت إليه براجم
والسراج الوراق في هذا المعنى

توق ممن سموة دعوة * تطلع حيث السهم لم يطلع
ما كبد القوم إذا أرسلت * فيها الذي في كبد الموضع
وبعوت نيرون الظالم القشوم وانقطاع حكمه الذي كان على الرومان من
أعظم البلا والشموم انقطعت عائله قيصراً غطس وتم أمر الامبراطورية
للقيصر غلبا قال بعضهم ان نيرون مع ما كان عليه من الطغيان والعدوان
واللهو واللعب والهذيان كان ينتخب نوابه من أرباب القضاة فكانوا جميعا
يحسنون السياسة والتدبير في كافة الاقاليم والبلدان وكان حريصا على
الوقوف على الحقائق والكشف عن تفاصيل الجزئيات والذائق فقد أناب
عنه في مملكة مصر بليولوس فأحسن فيها الصنيع وأصلح أرضها وأخصبها
بتدبير النبل المبارك على وجه رفيع وكان لهذا القيصر أعشاء بتهين الديار
المصرية وبكال رغبة في الوقوف على حقيقة المناصب النبيلة فلهاذا بعث
من الرومانيين جماعة ليستكشفوا هذه المناصب فأدوا واجب سياحتهم في
الانظار السودانية على وجه جليل فقد حكى من شاهد أرباب هذه السياحة
حين عودهم من السودان انه اجتمع باثنين من رؤسائهم وسمع منهما شفاها

ماملنصه

قدوصلنا بعد سياحة طويلة وسفرة مستطيلة الى ملك السودان فأعطانا الزاد والراحلة وأمدنا بالذخائر المطالة وأعانا على تقيم هذا السفر وقضاء الوطر بأن أوصى علينا الملوك المجاورة لبلاده فأذنوا لنا بالجلولان في بلادهم والتقدم فيها والتعمق في أقاصيها فسرنا حتى انتهينا الى محال ذات بعيان وبطائح وبرك يتعد السيف فيها للغادي والرائح لكونها مجهولة المعالم والمسالك غير مطروقة لاهالى تلك الممالك لكونها مملوءة بالاشجار المتكاثفة والحشائش والاعشاب المتلافة فهذه المثابة وبشكاف غروسةا يعسر التطرق فيها بل يتعذر فلا يستطيع دخولها الماشي الخائض في مائها ولا يستطيع الركاب أن يسير بعطش في أرجائها وقد وجدنا هناك صخرتين عظيمتين تخرج عندهما المياه بغاية القوة فاعلمنا هل هما منابع هذا النيل السعيد أو متابعه بعدهما وإن هذين المنبعين في أثناء طريقه ومنبعه الحقيقي بعيد انتهى

ومن المحقق أن نبرون كان أشغل نفسه بمصر وتعلق قلبه برويتها حتى انه عزم على أن يسافر اليها وتجهز لذلك وكان اذا ذاك نائبه طقسوس أخاه من الرضاع فأرسل اليه بعله بقدمه الى مصر وأرسل القيصر رسلا يشعرون بقرب قدومه ويجهزون ما يليق باستقبال ذاته القيصرية فجهزوا له ما يلزم وصنعوا الحمامات خصوصية حسب العادة والرسوم ليدخلها عقب القدوم فقبضوا عليه طقسوس واغتسل فيها فكان هذا بالنسبة للقيصر مما يحل بالناموس الملوكي فلما علم القيصر تلك الجسارة أمر بقتل النائب ولم يراع أخوة الرضاع ولا حق النيابة والامارة

انى لاعزف في الرجال مخادعا * يهدى الصفاء ووده محذوق

مثل القدير يريك قاع قراره * لصفاه والقاع منه عبق

فأحسن قول الطغرائي

أعدى عدوك أدنى من وثقت به * فحاذر الناس واحصهم على دخل

فانما رجل الدنيا واحد ها * من لا يعول في الدنيا على رجل

وحين أشرف القيصر على حد الارتحال الى الديار المصرية حلت في مدينة رومته قذ داخلية فقتل هذا القيصر الشرير يوم ان عزم على السير في صباحه

وأطلقوا بفرار غزته ذائه فور مصباحه وكان ذلك في سنة ٥٥٤ قبل الهجرة
الحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى الصلة وكانت مدة حكمه نحو
ثلاث عشرة سنة كما تقدم الكلام على ذلك في أول الفصل السادس

(الفصل السابع)

* (في الملك اسليقيوس غلبا قيصر ويقال له غلبان) *

نولى هذا القيصر أمبراطور على الرومانيين عقب انقراض عائلة أغسطس
في سنة ٥٥٤ قبل الهجرة وحكم سنة واحدة وكان غلبا المذكور من
عائلة شهيرة بالحسب والنسب بين عائلات إيطاليا وكان شيخا كبيرا معمرًا نحو
ثلاث وسبعين سنة فاجتمع الجنود الرومانية في مجلس للشورى بينهم فأجمعوا
أمرهم سرًا في أن يكون لهم الحق أن يتقبضوا قيصرًا من غير مدينة رومة
فالتفتوا هذا القيصر المعمر وكان موسرًا بالمال لكن بخلاف صعب الاخلاق
مدققًا في الادارة والتدبير مشددًا في الصرف والاتفاق لا يلائم طبعه طبع
الرومانيين في الكرم وانما اتعبه الجنند على ما فيه من هذه العيوب ظننا
انه لشيوخه لا يعمر زمان طويل ولا ورجاء انه يتولى ربه ما تسهل أخلاقه وتغير
طباعه ويتخلق بالسوء والكرم وينالهم منه ما يمتنونه من خيل الاحسان
والنعم وتوهموا فيه أنه أقل ما يعطيهم من العطايا عواندهم ومرباتهم التي
عودتهم عليها سلفه من القياصرة عند التولية فان هذا رزق لا مقطوع
ولا ممنوع فلا يتوهم الحرمان منه وكان الجنود كانت على هذا الامل كان
الاهالي ايضا يؤمنون منه أملا آخر فكانوا ينتظرون منه أن يعمل لهم مواسم
وأعيادًا وولائم وملاعب عمومية لمنافعهم الخصوصية وكان جميع ذلك
بخلاف رأيه ومذهبه ومعدودا بالنسبة اليه من النواقل بل من الاسراف
والتبذير

فلما يجدد وفي بشئ من ذلك بل أمسك عن الانعامات المعتادة للعساكر
المنتخبة ولغيرهم القسوامنه الوفاء به التماسا رعيها كان جوابه الا أن قال
أنا أختار عساكرى أحسن اختيار ولا أشتري خدمتهم بدوهم ولأدينارهم
عاقب وزرائهم ويوزر غيرهم واستوزر غيرهم وأمرهم سرًا بالاقتصاد وتقليل

الاراد والمصرف على قدر الامكان محاذرا على حسن التدبير كما قيل
 حذرا مورا لا تخاف وآمن * ما ليس منجيه من الاقدار
 فضيقوا على العساكر وقروا عليهم كمال التقصير فاعتباطوا جيعا من سوء هذا
 الترتيب المبني على شع هذا الشيخ الكبير فبهذا السبب كان الخلاص من
 العجب فلم يقتصروا على نزع الملك من يده بل صعدوا على اقتراع روحه من
 جسده اذا اراد الله امر امضى * ولم يقوحي على رده
 ولله در من قال

اذا المرء احب نفسه كل شهوة * لخصه ايام تبيد وتنفد
 فبالله لا يحمي عن حرامها * لخصه ما يبق له ويخلد

وكان بعدي رومة انسان من عائلته قديعة ماجدة يسطل الكرم يده ويمد
 للشجاعة ساعده يسمى مرقوس أو طون وكان شهيرا بسعة الاتفاق متغلا
 بالديون للذل في مواصلة الرفاق فلتجيز توليته قتلوا ذلك الشيخ الهرم بعد
 سنة من حكمه وأردفوه بوزيره المسمى بسقون اذ هو مثل قيصره على التمسح به
 ونهم فكان في حالة الموت والحياة معطوفا عليه وشبهه الشيء منجذب اليه
 فتولى مرقوس أو طون في سنة ٥٥٢ قبل الهجرة ولم تطل مدة حكمه
 ولا علمت منه مضرة ولا مبرة فسبحان من فاوت بين الخلق قبل لابراهيم عليه
 الصلاة والسلام اذ جمع ولد له قتله للبعين وقيل لبني اسرائيل اذ جوا بقره
 فذبحوها وما كادوا يفعلون وخرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه من
 جميع ماله وبخل ثعلبة بن حاطب بالزكاة وبادعها في حضره واسفاره وبخل
 الجاحب بضوء ناره وكذلك فاوت بين الصهوم فسبحان أنطق متكلم وبأقل
 أعجز من أخرس وفاوت بين الاماكن فزود تشكو العطش والبطائح تشكو
 الفرق وهو سبحانه وتعالى الفاعل المختار يقلب القلوب كما يقلب الليل والنهار

(الفصل الثامن)

* (في الملك مرقوس أو طون قيصر) *

قد اختارت جنود رومة تولية مرقوس أو طون في سنة ٥٥٢ أمبراطور
 عليهم لشهرته بالكرم عسى أن يقوزوا منه بانهم مالديم النعم وكأنه بما استتر

عندهم من الفضائل هو المعنى بقول القائل
 سألت أخاه البحر عنه فقال لي * شقبي الا انه السائح العذب
 لئلا يمتاطه ومال فديتي * تماسك أحيانا وديته سكب
 اذا نشأت بركة فله الندى * وان نشأت بخرية فلي السحب
 ومع ذلك فلم يصهم شيء من فائض نعمته بل اقتسموا معه رايض نعمته لانه
 ريثما تولى القيصرية ورضيت به رومة والديار المصرية كانت جنود الرومان
 في جرمانيا قديما بيعت أيضا وبطليوس المسمى أيضا ايطالس الذي هو قائدهم
 قيصر اعلى الرومانيين فحصل حرب داخلية بين الفريقين ولما تلاقى الجمعان
 واصطف الفريقان بدون حضور الامبراطورين انهزمت عساكر أوطون
 واتصرت جماعة وبطليوس فلما أحس أوطون بانهم زام جمعه وتحقق انطفاء
 نور شمع قتل نفسه بعد أن حكم ثلاثة شهور فهذه النصره تحققت
 الامبراطورية الرومانية للقيصر وبطليوس وفي مدة حكم أوطون على رومة
 ولو كانت المدة هينة ضربت السكة باسمه في مصر لانها أول من اعترف له
 بالقيصرية من الممالك الرومانية كما سبق حتى ان اسمه يوجد في مباني مصر
 العمومية مرسوماعليها دون سلفه وخلفه يعني دون غلبا قيصر ومن بعده
 وهو وبطليوس قيصر فلم يوجد لها اسم على المباني العمومية المصرية
 وفي زمن القيصر مرقس أوطون وفي عهد اثنين من خلفائه كان السائب
 على مصر طيبروس اسكندر من طائفة اليهود وسياق ذكره في الكلام
 على وسباسيانوس قيصر

(الفصل التاسع)

* (في الملك وبطليوس قيصر) *

لما تولى هذا الامبراطور على الرومانيين في آخر سنة ٥٥٣ قبل
 الهجرة ذهب الى مقتل خصمه الذي قتل فيه عدوه وأظهر الشجاعة التي هي
 أقيع المثالب اذا لأحد يأمن صروف التواب
 لا تظهرن لعاذل أو عاذر * حالك في السراء والضراء
 فارجحة المترجين حرارة * في القلب مثل شماعة الاعداء

ثم قال لقوادعنا كره ان جثة الصدوق المقتول هنا لا يزال يشم منها على طول
الزمان وتداول الايام رائحة طيبة فخل هذا القول الصادر من هذا القيصر
الروماني الذي كان أعظم ملوك الدنيا في ذلك العصر يدل على خسته وقلة
مروءته ولؤم طبيعته وانه لا يرجي منه خير لوطنه لان قصده بذلك ان هزيمة
عدوه تسبب عنها تنعيمه وتلذذه بالطعام والمشرب والانهمال على اللذات
والشهوات وسائر الاغراض الدنيوية الدنية بدون نظر لمنافع وطينة وقد
تحقق منه ذلك فيما بعد

الناس أطوارا اذا جريتهم * كالنبت فيه طيب وخبيث
وفي الخبر ان الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض فجاء بنو
آدم على قدر الارض فجاء منهم الاجر والايض والخبيث والطيب وقال
بعضهم الناس معادن كعادن الذهب والفضة وغيرها

صاعت مروءة أهل الارض كلهم * الا الاقل فليس العشر من عشره
لا تحمدن امرأ حتى تجربته * فربما لا يوفي خبره خبره
وقيل ان جملة الناس كالشجر والنبات منها ما له نخل وليس له ثمر وهو النافع
في الدنيا دون الآخرة فان نفع الدنيا كالنخل السريع الزوال ومنها ما له ثمر وليس
له نخل وهو الصالح للآخرة دون الدنيا ومنها ما ليس له واحد منهما كأم غيلان
تمزق الثياب وليس لها طعم ولا شراب ومثاله من الحيوان الثائرة والعقرب
قال الله تعالى يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير
وقد كان هذا القيصر خفيف البدن ضاوي الجسم يضيع أكثر ساعاته
في الجلوس على المائدة وباقي ساعاته يشغل نفسه في الاوامر يجلب الاطعمة
النادرة العزيرة الوجود من الاقطار الشاسعة والبلاد البعيدة وقد أحضر
له أخوه في يوم واحد التي محكة وسبعة آلاف طائر من أغرب الطيور وأنذرهم
وجودا وطبخها وأحضرها على مائدة ليس كمره على ذلك ويحصل على
الشرف والفخار فما كان من القيصر الا أن استخف بها وأظهر انها كالأشئ
ووجد طريقة جلب بها أكثر من ذلك وأعظم ليظهر اقتدار نفسه وكانت
مدة حكمه ثمانية شهور فأنفق فيها على مطبخه ما قيمته نحو مائتي مليون فرنك
فلم يكن هذا القيصر الا حق الابلطه بدون أن يشبعها أبدا وكان لا يشغل

بشي من مهمات المملكة ولا يتفكر في حسن تدبير الحكومة بل يصرف
 همه في المطاعم والمشارب فقد قيل عنه انه لما بلغه ان عساكر الرومانية
 والايلات المشرقية والديار المصرية قد بايعوا وسبا سنانوس القائد الشهير
 على القصرية الرومانية لم يتفكر في ذلك ولا اهمه هذا الامر بل بقي نائما تحت
 ظلال الاشجار كالبهمة الساعية لم يتقل من محله معقدا على امرائه وجنوده
 موكلا امره اليهم وهذا يقرب مما حكاه المؤرخون عن الخليفة الامين العباسي
 وهو مشغول بالصيد حين حربه مع أخيه وهجوم الجند عليه فانهمزمت
 جنود هذا القيص من جنود خصمه وأخذوا ردة منه فاخنت في بيت أحد
 مجاهبه فقبضوا عليه وطافوا به المدينة مشدودا الوثاق يسبه العاتية في طريقه
 ويضربونه ثم انتهى الحال بضرب عنقه ليلا فهو وان فاته الموت بالثخمة
 الحسة فقد أدت به الى الهلاك الثخمة المعنوية وكان موته في سنة ٥٥٢
 قبل الهجرة

(الفصل العاشر)

• (في الملك وسبا سنانوس قيصر ويسمى اسباسيانوس) •

تولى القصرية في سنة ٥٥٢ قبل الهجرة وانتهى حكمه في سنة
 ٥٤٣ فكانت مدة حكمه عشر سنوات وسبب توليته القصرية ان
 السلطنة الرومانية منذ ان صارت امبراطورية بعد ان كانت جمهورية كان
 مضى عليها خسون سنة يعظمها الاول ثم صارت بعد هذه المتضمن تأسيسها
 قصرية قد ماتت بتعاقب القيامة الذين لا رأى لهم ولا حرم عندهم ولا
 حسن سياسة ولا كياسة الى الانحطاط بعض ميلان وتنازلت عن درجتها
 القديمة وعن رفعة الشأن وربما لا عجب بها اخصامها خارجا وادخلوا لم يرج
 لها ميزان فكانت الاجام تغير على ملحقاتها المشرقية المرة بعد المرة والكرّة
 بعد الكرّة وكان رعاياها من اليهود في بلاد فلسطين يعتقدون ان حكم دين
 عيسى بن مريم عليهم قد ان أوانه وان الرومانيين هم خلفاؤه وأعوانه وانهم
 يتصلون عن رومة أو يستقلون بأنفسهم فكانوا يقومون على الرومانيين
 ويشيرون الفتن ويرفعون راية العصيان ويقاؤون ولاية أمورهم وكانت

الايالات المحكومة بالرومانيين فحاول مثل ذلك وتطلب الاستقلال فقد تحزب
 الاميريقيو وبليس الفلنكي مع ايلة جرمانياعلى الجنود الرومانية وكان يطلب
 انفصال الايالة القليلة عن حكومة رومة بعضى استقلال أهالى فرنسا القديمة
 وما يتبعها وكان فى الدولة الرومانية عائلتان شهيرتان بالبأس والكلمة
 احدهما تسمى عائلة الغلاوية والثانية تسمى عائلة الانطونونية فاجتهدت
 كتابهما فى رفع شأن الدولة الرومانية ومعوصيتها واعادة رونقها القديم ولم
 تكن العائلة الغلاوية ذات مجد أثيل ولا نسب عريق ولم يكن رئيسها
 وسباسيانوس صاحب مظهر عظيم بل كان يألف الخول فلم تكن له شهرة عالية
 ولا صيت بعيد لان جدته لم يكن الا ضابطا من ضباط بومبيوس وكان أبوه صيرفا
 وأما هو فقد كان بطلا باسلا ومقداما فاضلا له حظ عظيم فى الفضائل العسكرية
 ونصيب وافر من العارف الملكية فكان عصاميا لا عظاميا ولكن كان فيه
 الجمل والطمع وهما خصلتان ذميتان ومن المعلوم أن الخصال الذميمة تضر
 بالفضائل وكان له مداخلة قوية مع الاسكندر بطيباروس الامراتيلى نائب
 الديار المصرية فلهذا توسط هذه النائب فى قضية توليته حيث سجل الجنود
 الرومانية التى بمصر على المبايعة لهذا القصر واتخاها امبرا خور على الدولة
 الرومانية ولذلك كان اعتراف ديوان الاسكندرية بالامبراطورية سابقا على
 واوين الايالات الرومانية وكان هذا بداخل هذا النائب الجسور فكان
 جراؤا ومن هذا القصر القاهر كما جاوزى مجير أم عامر فقد قتله بعد سنة وولى
 بدله لوبوس نائبا على مصر فى سنة ٥٥٢ قبل الهجرة
 وكان عمر هذا القصر عند توليته مستين سنة فضايف الخراج وزاد العوائد
 وجاوز الحد فى ضرائب الاموال وأحدث مكوسا لم تكن قبل هذه وبلغ من
 طمعه انه كان لا يستحي أن يقاسم خدمه وحشمه وأتباعه فى الاموال
 المستفادة منهم من الشفاعات وكان يبعث الى الاقاليم عى لايختارهم من
 المشهورين بالطمع والجمل ليعاقبهم فيما بعد بضبط أموالهم واستصفا ما عندهم
 بالمصادرات وكان يشبههم بالسفنج ويقول ان السفنج متى عصره أخرجوا
 ما فيه من الماء فكذلك العمال متى صاروا للتشديد عليهم أخرجوا ما عندهم
 كل امرئ راجع يوما لشيئته * وان تخلق أخلاقا الى حين

فلا غرابة من صدور تلك الافعال من اجتمعت فيه قلة الاصول وكثرة
الفضول وخفة العقول وسوء الاخلاق وتكدير الضمائر ومخالفة
الباطن للتظاهر فالوائق بمثل ذلك على غرر والمتمسك به على خطر
عموا عن الخير واعادت قلوبهم * فعل القبيح وظنوا أنه حسن
وكان الرومانيون ولوه عليهم لظن ضعفه وانتظار الدين والرفق وعدم
التشديد عليهم ثم تبين لهم انه لم يظهر بعد اغسطس قيصر يد أصعب من
يده ولا أقوى من سطوته وبأسه في مسكن زمام المملكة وحسن تدبيرها
وسياستها فانه عمل في المملكة الاصلاحات النافعة التي ابتهجت بها أيامه
وافقرت بها أحكامه واستولى على مدينة القدس الشريف بعد ان غلبت
الرومانيون عليها اليهود بوجه عنيف وذلك انه أقام ولده طيطوس على
حصارها وعاد هو الى ايطاليا فأخذ المدينة ولده عنوة بعد مقاومة عظيمة
وهلك في هذه الواقعة من اليهود ألف ومائة نفس بالقطع والاسر وبهذه انتهى
خواب القدس الشريف كما أئذ وعيسى عليه السلام حواره حيث قال لا يثقي
من هذه المدينة حجر على حجر ومن هذا الحين تفرق شمل اليهود في الآفاق
وتمزقوا كل ممزق وانتشروا في الانظار وتفرقوا أيادى سبأ وانقرض ملكهم
ولم يبق بعدهم ما قائم لهم في شأم ولا عراق
ولما ملك طيطوس بيت المقدس رجع النصارى الذين كانوا عبروا الى الاردن
فبنوا كنيسة بالمقدس وسكنوا وكان الاسقف فيهم شمعان ابن عم يوسف
النجار وهو الثاني من أساقفة المقدس
وبمع أن وسباسيانوس المذكو كان متصفا بحسن التدبير وجبل الخصال
وكال العدل لم تسلم مصر في أيامه من الجور فقد جدت فيها مغارم لم يكن أحد منها
أحد قبسه وأوكل أمر جمعها وتحويلها الى أرباب الخيانة من أعوانه فكانوا
لا يراعون للرعايا المصرية الا ولادمة ولما شكوا المصريين من مظلمتهم لهذا القيص
قابلهم على ما قيل بالاستهزاء والسخرية ولم يقبل منهم صرخوا ولا عدلا ولسان
الفرح يناجي صبرا فان الفرج يفاجي
خفف عليك ولا تكن قلق الحشى * مما يكون وعد له وعساه
فالدهر أقصر مدة مما ترى * وعسا أن تسكني الذي تحشاء

وذلك أن وسباسيانوس لما بلغ سن تسعة وستين سنة مرض مرضاً شديداً
 بعز في مثله الشفا حيث أيس من نفسه اذ كان على شفا وصكان من عادة
 الرومانيين اذا فارق الدنيا قيصرهم وحنوه بعد المات وتعلموه في سلك
 العلويات وعدوه في عدد الرومانيات فكان هذا القيصر يزح في محفل
 تقديسه بمحضر كاهن دينه وقسيسه ويقول قد آن تقديس نفسي بالروحانية
 وتطمي في سلك الارواح العلوية ولما أحس بدنو أجله وأشراف على انفصال
 روحه من بدنه أظهر عدم خوفه ووجله واعتمد على أيدي أمراه واستند
 واتصب من فراشه قائماً كالوتد وقال يحق للقيصر أن لا يموت الا قائماً مات
 لوقته وهو منتصب ولصفة الشجاعة مقتضب وكان ذلك في سنة ٥٤٣
 قبل الهجرة وحكم من السنين عشرو كما تقدم في أول الفصل ويولي بعده ولده
 طيطوس منصب القيصرية

(الفصل الحادي عشر)

(في الملك طيطوس قيصر ويقال له طيطس)

تولى الامبراطورية في سنة ٥٤٢ قبل الهجرة وحكم الى سنة ٥٤١
 وكان قبل توليته لا يعهد منه فعل الخير ولا مكارم الاخلاق بل كان المعهود فيه
 القساوة والجبروت والسفاقة والاسراف لاسيما ما ظهر منه في محاصرة
 القدس واستيلائه عليها وما فعله من كثرة القتل والاسر واستلاب الاموال
 حتى يقال انه أحقل الخوارج الذين كانوا في نواحي القدس مع الاسرى وكان
 يلقي كل يوم منهم للسباع فرائس الى أن أقتاهم فلما صد على سرير الملك سلك
 سبيل العدل والرشد وحسن حاله وحدث خصاه وحكم بالعدل والاحسان
 واجتمع بأهل الفضل وصلحاء الناس وكان متفتناً في العلوم عارفاً باللسان
 اليوناني واللاتيني وكان ملازماً للخير مخالطاً للناس غير محتجب عن أصحاب
 الخواص وقد طرد من ديوانه بطانة السوء وأهل السخرية ونزه الاعن معاشره
 أرباب الفضائل ولذلك لقبوه نعيم الدنيا ويحكى انه مضى عليه يوم لم يعمل فيه
 عملاً صالحاً رعاياه فصاح في الليل يندى التأسف والتحزن قائلاً مضى هذا
 اليوم سداً وهو كقول بعضهم

أليس من الخسران أن ليا ليا * تتربلا تفع وتحبس من عري
وقال آخر

إذا كان هذا الذم مع يجري صباية * على غير سعدى فهو دمع مضيع
ووقعت في أيام هذا القيصر حادثة من الحوادث الهائلة تميزت بها أيام دولته
وهي ثورة بركان إبطاليا المسمى ويرزوف ولفظ بركام معناه جبل النار حيث
ارتفع هذا الجبل عقب رعدة عظيمة وانفجرت منه فرجة وهي فوهته وصارت
تقذف المواد المعدنية الملتببة والرماد الغزير فقير شكل الخلاء الجميل الذي
انتشرت عليه هذه المواد النارية وكان على مقربة منه مدينتان عظيمتان
أحدهما تسمى هرقلانوم والآخرى تسمى بومبايس فوصل اليهما ما قدفه
هذا البركان من المواد الحجرية والرمادية فتراكت عليهما هذه المواد
فأغرقتهما وغطتهما وكان في هذا العهد بلبناس الأكبر الحكيم الطبايعي
فاجتهد في أن يحصن هذه الحوادث الكونية وكيفية وقوعها ليقف على أسبابها
ومسبباتها وعللها ومعلولاتها فدان من البركان في حال ثورته فهلك هذا الحكيم
لوقته فبات قبيل جسامته وشهيد مجازفته ولا زال هذا البركان إلى الآن
يخرج ويقتذف المواد النارية وبعد ذلك بنحو ستين مرض طيطوس بالحمى
فدخل الحمام فبات به فجأة وذلك في سنة ٥٤١ بعد أن حكم ستين
وشهرين فكانما ظهر في الدولة الرومانية نحراب بيت المقدس الذي أئذ
به عيسى وليكون قدوة للملوك الرومانيين في التعجب إلى الرعية فان في أيامه
ذهب القدر والحسد والبغضاء والشهنا من مدينة رومة ولم يكن بغية هذا
القيصر الامواساة أحبابه وأحبابه هم جميع رعاياه ورعاياه هم الرومانيون
والرومانيون هم الناس كل الناس فقد واسى الجميع بحسن الصنيع ومن
مناقبه أنه كان يذهب بنفسه بدون حاشية إلى مجلس رومة ليستشيره كما
يذهب وحده إلى الميدان العموى في وسط الاهالى ليسمع المواعظ والمقالات
بنفسه فكان يحب جميع الرومانيين وجميع الرومانيين يحبونه ولا يتفكر
الافى اسعادهم فلما مات في سنة ٥٤١ خلفه أخوه دومطيانوس

(الفصل الثاني عشر)

• (في الملك دوميتيانوس قيصر) •

تولى امبراطورا في سنة ٥٤١ • قبل الهجرة عقب موت أجيح طوطوس
وبقيت مدته حكمه الى سنة ٥٢٦ • قبل الهجرة
وقد دلت القرائن على ان هذا القيصر قتل أخاه طوطوس بالسهم وليس هذا
يبعد فان هذا الملك كثير الاستقام والخطايا وكان يتظاهر قبل توليته بما لا مزيد
عليه من طيب الاخلاق وحسن السرية والرفق واللين ولا يمكن الظلم
في النفس يكن حتى انه بعد تقلده بالقيصرية لم يرقط أعظم منه على وجه الدنيا
فكان أشبه ببيرون الطاغية في الميل الى اللهو واللعب والمصارعة والتولع
بشفك الدماء والجرائم على قتل النفوس البريئة وكان اذا لم يجد من يقتلهم
الناس سلى نفسه بخص الذباب حتى لا يخلو طرفه عين من اذاقة خلق الله
العذاب فكان شديد الجبروت يحترق العقوبات طرائق للشر متنوعة
لا تخطر على قلب بشر فاذا أراد ان يقتل انسانا في غدا حضره عنده ليتناول
معه الطعام وأكرمه غاية الاكرام وهذا التكرم على سبيل التهنئة وكلمه
أمثال في العقوبات من باب الهذيان وكان له قائد ماهر في الحروب يسمى
أغريقول لا يظهر اجتهاده وفضله في القنون الحربية واتصاه على الامة
البريطانية يعني الاتكليز وتضخيمهم للرومانيين فغار القيصر من قائده
وحسده على هذا الانتصار وبجازه كاجوزى سمار فأورده حوض المنون
مسموما وأغضب الالهات والأمراء خصوصا وعموما ولما صدت عساكر
الرومانيين لحرب بلاد الافلاق والبغدان وماجاورهما من المدن والبلدان
أهمل هذا القيصر امداد الجنود الرومانية بالميرة ولم يسعهم بالزاد والذخيرة
فكان ذلك سببا لانهم هزمهم وتكيس أعلاهم واتصروا ملك الافلاق
والبغدان على اقطار الرومان حتى التجأت رومة الى طرية أن تدفع خراجا
للك تلك البلاد التي هي بالنسبة للرومان حقيرة وكان هذا مما يخص بقدر
الرومانيين فدخل في قفوسهم من هذا الملك الداء الدفين فأغروا على قتله أميرا
يدعى اصطفانوس فحضر عنده بوسيلة كتاب حضره لديه وناول الكتاب
ليطلع عليه فبينما كان الامبراطور مشغولا بقراءة الكتاب اذ قام عليه وقلعه
بخر واجتهاد وافق الصواب وكان ذلك في سنة ٥٢٦ • قبل الهجرة فكانت

مدة حكمه نحو ثلاث عشرة سنة ويحتمل انقرضت العائلة الغلاوية وتولى
 المملكة بعده نير واقيصر وهو رأس العائلة الانطونية
 وفي أيام القيصر دومطيانوس والقيصرين السابقين عليه لم يذكر المؤرخون
 من وقائع مصر شيئا ولا ذكروا أعمال القياصرة فيها فلم يظهر منهم في شأنها
 منافع تعود عليها بالاسعاد أو بالشقاء وانما يستبطن قرائن الاحوال
 ويغلب على الظن باستنطاق لسان الحال أن مصر لم تخل من السعادة
 والراحة في عهد طوطوس فإنه كان عادلا وشأن العادل اسعاد الرعية
 فلا شك أن مصر كانت بعنايته مرعية الا أنه لم تطل مدته وأعقبها أيام
 دومطيانوس وفي زمنه تمكن دين النصرانية ولكن مر قس حواري
 استشهد بالاسكندرية بسبب نشر هذا الدين وذاق العذاب المين ولهذا
 كان خلفاؤه بطارقة الاسكندرية التي استشهد بها وهم بطارقة طائفة القبط
 وبقيت كنيسة الاسكندرية كرسى البطارقة الذين هم على قدم مر قس
 حواري وعدهم الى وقتنا هذا نيف وسبعون بطريقا وكان عدد الاقباط في
 صدر الاسلام وما بعده كثيرا في القطر المصري فلما تناقص عددهم بالاحوال
 المقتضية انتقال كرسى البطرق الى قلاية المحروسة وكيفية انتخاب بطرق طائفة
 القبط أن العادة الجارية أنه لا ينتخبه المطارنة ولا الاساقفة ولا القمامسة
 ولا القسوس وانما حق الانتخاب موكول الى وجوه الملل المسيحية وأعيانهم
 فيتخبون أول ثلاثة أنفار من الرهبان المشهورين بالاستقامة في دينهم
 والعدالة في شئتهم ليتخب منهم في المرة الثانية خيرهم في الفضل والاستقامة
 وقد جرت العادة أن من سمع من هؤلاء الاحبار الزاهدين بأنه سيصير بطريقا
 يهرب في الخلاء اظهار التعتف عن المنصب البطريقى وزهدا في الرياسة
 والغالب أن جميع الثلاثة يقررون من ذلك لنفورهم منه ثم تحضرهم القلاية
 قهرا عنهم بواسطة الحكومة فيساقون بالسلاسل والاعلال ويحضرون على
 هذه الهيئة ولا يشكون من أغلاهم الا بعد انتخاب واحد منهم بالقرعة وهذا
 هو الانتخاب الثاني فن خرجت عليه القرعة فهو البطريق وله الرياسة على
 جميع الطائفة يعقوبية وهذه رسومهم السابقة وأما الآن فقد اقتضت
 الاحوال اجراء نظام الانتخاب على أسلوب آخر غير السابق يعنى أن تمام

الانتخاب انما يكون بمعرفة الوجود والاعيان والطائفة القيسية من
مطارين وأساقفة وقامصة مع تصديق الحكومة المحلية وأيضا كان المنصب
البطريقي في السابق يجمع الاضداد يعني أن صاحبه متصف بالرفعة والضعفة
بمعنى أنه عالي المقام رفيع الخناب في وقت تأدية وظائفه كمثل التقشف
والزهد نافذ الحكم في طائفته محروم من اللذات والشهوات في نفسه عظيم في
أعين أهل ملته حقير في حد ذاته حيث يرى نفسه بعين الحقارة غنيا لكونه
مستحوذا على أموال أو قاف جاعته يصرفها بمعرفة وفقره بحيث لا يملك
شيئا خاصته ولا له مال يرثه عنه غيره وأما الآن فقد أخذت البطارقة في سلك
طريق التمدن وتلبسوا براياهم المطم والملبس والمؤانسة والمحادثة والتودد
للناس والتردد عليهم وساروا بسير الوقت والحال ولكن المتسلك منهم
بالعوائد القديمة والسنة المسيحية يخشون في اللبس الذي يمس البدن
وفي المطم اذا اختل ونفسه ووافق العموم عند الداعي الى الاجتماع بالناس
لقد تهنىب أهل ملته وتحسين أحوالهم كما قيل

وللناس عادات وقد ألفوا بها * لها سنن يرعونها وفسروا

فن لم يوافقهم على العرف بينهم * فذات ثقيل عندهم وبغض

ويقال ان دومطيانوس قيصر هو ابن أخت نيرون قيصر فلهذا كان غشوما
كافر امثله وقد أمر بقتل النصارى كما فعل خاله نيرون وحبس يوحنا الخوارى
وأمر بقتل اليهود من نسل داود حذر أن يملكوا وكان شديد على اليهود
وقتل أبناء ملوكهم وسبب قتل النصارى ما قيل له انهم يزعمون أن المسيح يأتي
ويعلك ويبحث عن أولادهم وذا بن يوسف من الخواريين وحملهم الى رومة
مقيدين وسألهم عن شأن المسيح فقالوا انما يأتي عند انقضاء العالم فغلى سبيله
وفي السنة الثالثة من دولته طرد بطريرك الاسكندرية من كرسيه ونصب غيره
ونفى من رومة جميع الفلاسفة والتجيين وأمر أن لا يفرس بها كرم وبالجمل
فتد كان فيه من الجبروت بقدر ما فيه من الجبن وقد اقتضت الحكمة الالهية ان
الجبناء غالب الجبابرة فيستعينون على تحفظهم على أنفسهم بالجبروت لفقدهم
نخوة الشجاعة واحساسهم بالضعف الذي يلازمه الخوف والفرع وقد
أسلفنا أنه مات قبل احيث حقق عليه الرومانيون وقيل انه قتل في حروبه مع

الافرنج وتولى بعده نيرواقصر

(الفصل الثالث عشر)

(في الملك نيرواقصر)

تولى هذا القيصرا مبراطورا على الرومانيين بعد مقتل دومطيانوس في سنة ٥٢٦ قبل الهجرة وبني حكمه الى سنة ٥٢٤ فكانت مدة حكمه

سنتين

لما تعزب جوع الرومان على قتل سلفه انضم المجلس الروماني الى المتعزبين بعد هلاكه ليولوا غيره فانتخبوا نيرواقصر وكان شيخا ايطالياني المولد كريدي الاصل والجنس في سن سبعين سنة وكان في السياسة جليل المذهب جيد الرأي يميز الغث من الثمين وانما كان ضعيف القلب فآثر الهمة لا يقوى على تعجيز الأشغال ولا تنفيذ الافعال ولما كان هوراس العائلة الانطونية لا تقراض العائلة الغليانية قام عليه الاهالي عقب توليته حتى كادوا يخلعونونه من المملكة لانه ليس من بيت الملك لولا انه يادربا الاتحاد مع اوليوس طريانوس حكمه اربع مائتا السفل قتلناه وأشركه في الملك معه وفي القيصرية فاجتهد الامير طريانوس في تشييد شمل المقدسين وقتل رؤساء الفتنة عن آخرهم وتمكين شوكة نيرواقصرا حسن السيرة وأمر برقة من كان منفيًا من النصراري وأباح لهم التسكيد بينهم ورجع يوحنا الانجيلي الى أفسوس بعد بعده عنها ست سنين وقيل كان مسجونًا فأطلقه نيرواقصرا من السجن وكان في مدة حكمه مهتمًا بمحو الظلم والجور وروبولوس سليل العدل والساداد يصفح عن الجاني حسب الامكان وقد عفا عن قتل الأشخاص المتهمين بخيانة الحكومة بسعي عتقهم وعبيدهم بهم فاقصر على قضيتهم واجلائهم من البلاد لحسم الريسة ثم قتل العبيد والعقبي الواشين بساداتهم الساعين في اضرارهم جزاء لارتكابهم النجاسة في حق موالهم حيث ان سعيهم من باب الخيانة وكفران النعم ولما تمكن من الملك وهذه البلاد بواسطة طريانوس لم يعيش بعد صفاء الوقت الا ثلاثة شهور وكان موته سنة ٥٢٤ قبل الهجرة بعد أن حكم سنتين وتولى بعده شريكه طريانوس

(الفصل الرابع عشر)

* (في الملك أوبليسوس طريفانوس قيصر) *

تولى أمبراطور على الرومان سنة ٥٢٤ قبل الهجرة وامتد حكمه الى سنة ٥٠٥ فكانت مدته حكمه تسع عشرة سنة ولما كان هذا الامير شريكاً لرواقيسير في تدبير المملكة الرومانية لم ينتطع عزازان في استخلافه على الرومانين عقب موت سلفه وقد كان عند خلوسير القيصريّة ثاباني الاقاليم الافريقية التي على نهر الرين ولم يادر بالحضور الى رومسة للقبض على زمام المملكة ولكن لكونه له في قلوب الجميع كمال الهيبة والوقار شهيراً بعظم الصولة وعز الدولة لم تقم قسنة في غيبتة ولا حصل اختلاف في توليته لاسيما وانه قد حصل على يديه قمع القسنة الاخيرة في أيام سلفه وأصل مولده بمدينة مالقة ببلاد الاندلس وقد اشتهر بأنه أعظم أمراء الدولة الرومانية معرفة وشجاعة وكان يشهد بعلو درجته في الفضائل العسكرية كافة الاحالي فلما حضر الى رومسة عقدوا له الموكب الطيفاً بمجتردا عن الابهة والطنطنة ودخل المدينة غير محيال ولا ممجّب بمسند السلطنة بل ماشياً على الاقدام بشوشامع الخاص والعام مقبلاً على من أقبل للتهنية باسطا يده لمن أراد تقبيلها منشكراً لارباب الادعية والاثنية ثم توجه الى الحاضرين وقال أحب أن أصنع مع جميع الناس ما كنت أحب أن يصنعه معي قيصر رومسة لو بقيت في أيامه معدوداً من الآخذاً أحب لنفسي أحبه لاهل وطني وأبناء جنسي

وقد اجتهد هذا القيصر ذو القلب السليم بأن يعيد للدولة الرومانية فخارها القديم ويخصها بالازاياء والحقوق كما كانت تتمتع بذلك في عهد الجمهورية الاولى على وجه موفوق وقد رخص لمجلس الاحكام برومسة التصرف بما تقتضيه المصلحة على أصول معلومة وكذلك أباح للقضاة والحكام قوة نفوذهم في اجراء الاحكام وقسنى عن أن يحكم القضاة على الغائب في مواد الجنابات لان التضا على الغائب الذي لا يدافع عن نفسه فصل نزاع بدون اثبات وتعليقه من باب درء الحدود بالشبهات فقد قال هذا القيصر ان اصول الاحتيال طرح جانب البرامة على جانب الجناية فلا تحكم بالعقاب في غياب

المتهم لأن الأصل عدم الجناية يعني أن الغائب المتهم الذي يراد الحكم عليه
بالجزاء يحتمل كونه مذنباً كما يحتمل كونه بريئاً فينبغي أن يغلب جانب البراءة على
جانب الجناية لأنه إذا حكم عليه بالعقاب وكان بريئاً فالحكم جناية من
الحاكم بأثمه وإذا سكت الحاكم عن الحكم بعقابه وكان في الحقيقة مذنباً
فلا لوم على الحاكم في السكوت لأنه ليس مكلفاً بإطاع الأمر وكان هذا القيصر
يحسن التدبير والادارة وتبصر في عواقب الأمور فلهذا خفف الحكموس
والعوائد وتثبت بحجب ما يقتضي من الفوائد فأشأ القناطر والطرق
العمومية وجدد المباني البحرية فمن ذلك ميناء أنكونة على جون البنادقة
بإيطاليات كثير التجارات والمعاملات وقد اجتهد في تحسين بناء هذه المباني
سنة واحدة فاعترف له مجلس أعيان الرومانيين ومجلس الاهالي بأنه يستحق
التعظيم والتجليل فبنوا له هيكلاً بهذه المدينة لتخليد ذكره وبقاء اسمه وبني
برومة ملعب السباق الخيل وجدد كنيسته عظيمة وأقام في رومة العمود
المشهور المسما طريانوس المتخمن الرخام الأبيض ورسم عليه الحروب
التي وقعت من الرومانيين مع الافلاق والبغدان وجميع ما جرى من نصره
الرومانية عليهم في ذلك الزمان وكان لا يحضر مجلس هذا القيصر الا مشاهير
الرجال وكبار أهل الفضل والامتياز من الابطال ويحبهم من صميم قلبه وكان
لاهل الحكمة عنده منزلة عظيمة ومودة صميمه فكان يعتمدون أكبر آحابه
الحكيم بلياس الاصغر وكان من مشاهير المؤلفين فقد جمع مناقب هذا
القيصر لتبصير ذكره للمتأخرين وكان قد غزا طريانوس بلاد الافلاق
والبغدان وضم هذه البلاد لاقليم الرومانية فحصل لمن ذلك كمال الشهرة
وبعد صيته في سائر ممالك الدنيا حتى ان ملوك الهند بعثوا السفراء لينفوه على
على اتصاره ثم جعل بلياس المذكور حاكماً على هذه الاقاليم ثم ظهر
لهذا القيصران عرب الجحاز يريدون شن الغارة على الاقاليم الرومانية
المشرقية لقصد السلب والنهب وسبي النساء وأنهم قد تحزقوا لهذه الجهاد
المشرقية المملوكة للرومانيين فسار الى آسيا لقتال العرب وادخلهم تحت
الطاعة وكان ذلك في نحو سنة ٥١٢ قبل الهجرة فاجتهد العرب في بذل
ما عندهم من الشجاعة والبسالة لحماية أوطانهم فانهم زموا وادخلهم طريانوس

تحت الطاعة الرومانية فصارت بلاد الحجاز ايلة من ايلات القياصرة وسار
بعد ذلك بسنة الى بلاد فارس وغالبهم على ملكهم وأخذ منهم أرمينية
والجزيرة وبلاد الاكراد والعراق واليمن وبالجملة فقد اجبت القلوب على حب
هذا القيصر حتى سمته رعيته أفطينوس بمعنى القيصر الكامل ولم يقدح فيه
المؤرخون الا بكونه لم يحل من مثالب خصوصية ويصون خصوصية كبله
للشراب وجبه للطعان والضراب وبأنه أضر بالنصارى واذاهم وخذلهم
وأخزاهم وقتل شمعان بن كلا وبأستقف بيت المقدس واغناطيوس بطريرك
انطاكياء ولقي النصارى في أيامه شدة وتبع أخبارهم بالقتل واستبدعاهم
وفي عهده كتب يوحنا النخيلة في بعض الجزائر في السنة السادسة من ملكه
وكان قد رجع اليهود الى بيت المقدس وكثروا بها وعزموا على الانتقاض عليه
فبعث عساكره لحربهم حتى طالت الحرب بينه وبينهم فغربوا كثير من
المدن ووصلوا الى مصر والاسكندرية ولا زالوا يقاتلون الحكومة
المصرية ويحاربون من فيها من الجنود الرومانية ويغالبونهم حتى توصلوا
ان يخرجوا من الاسكندرية لوبوس نائب مصر فاضطر طرطريانوس قيصر
الى أن يبعث اليهم بدهم طيوس مع جنود عظيمة واشتد الحرب بين الفريقين
لاستقرار القنق والاختلالات الداخلية المترتبة على المنازعات الواقعة في
الاسكندرية بين اليونان واليهود لما بين الطائفتين من العداوة التي لم تكن
تقطع أبدا فلم تنته حرب مرطيوس نائب مصر الا في أيام أدريانوس قيصر
وكان لطرطريانوس قيصر آثا وعظيمة في الديار المصرية وقد جال هذا القيصر في
الفتوحات يسلا الشرق حتى دنا من البحر المحيط الهندى وفي عوده من
الشرق مات في أثناء طريقه في سنة ١٠٥ بعد ان حكم تسع عشرة سنة وخلفه
ابن عمه أدريانوس وقد أسف عليه جميع الرومانيين وغيرهم من الاهالى الذين
مضى بلادهم كما حزنوا على طيوس قبله لما من المآثر والمكارم

(الفصل الخامس عشر)

• (في الملك أدريانوس قيصر) •

تولى هذا القيصر امبراطور على الرومانيين سنة ١٠٥ قبل الهجرة وحكم

الى سنة ٤٨٤ فكانت مدة حكمه احدى وعشرين سنة
 وذلك أن طرياقوس الملم يعقب ولدا ذكر استخلف الجند ابن عمه أدريانوس
 قيصر على الرومانيين وكان رئيس جيش الشام فلما بايعه الجنود على
 الامبراطورية صدق على ذلك أرباب المجلس الزوماني وكان أدريانوس
 متناقض الاحوال متباين الخصال متضاد الافعال فتارة يكون حليما
 وأخوياً غضوباً رطوباً يعامل الى الفضائل وطوراً آخر الى الرذائل فكان كالي
 قلون يتلون بكل لون ولم يجعل مطمح نظره كسفه في المقاض الحربية ولا في
 الفضائل العسكرية ولا في الفتوحات الرومانية بل كان يؤثر السلم والدعة
 ويقتصر على محافظة الحدود والمدافعة وفي غالب أيام ولايته كان جوالاً في
 بلاد ميساحا في ممالكه وكان يزني العوائد المكوس ويضرب على الاشياء
 مغارم مؤقتة خارجة عن العوائد الاصلية ولم يساوه أحد من سلفه في الميل
 الى تشييد العمارات العمومية والمباني الملوكية وكان يحب المعارف
 والآداب وله فيها مشاركة عظيمة وكان يعيش في قصره عيشة هنية ويتشبث
 بأفعال شهوانية حتى يقال انه اعتراه بعض خسة وطيش وتناقض عقله من
 التمتع بذلك العيش ويدل على هذا أنه أشركه معه في ادارة المملكة شخصاً دني
 الهمة يسمى قومودوس ويروس ولم يستحسن أحد منه عقد هذه الشركة حتى
 شاع عند جميع أهالي رومة أن سيب تشريكه اياه في المملكة انه اخترع صنفاً
 من الفطير انبذ الطعم يستطيه القوم وصنفاً من القراض يعتدل بساط الوردي
 وسط الروائح العطرة فبلغ عند مبلغ الاقبال لاختراعه هذين الشيئين لاعلى
 مثال وكان ويروس المذكور خنث الشانل غيل طباعه الى تكسر النساء
 في المحادثة والمسامرة وقد اخترعته المنية قبيل أدريانوس قيصر بقليل من
 الزمان فأشركه بعد في ادارة المملكة طيطوس أنطونين الذي صار فيما بعد
 قيصراً ولولا موت قومودوس ويروس في حياة القيصر لكانت مصيبة
 الرومانيين سوليتة عليهم بعده عظيمة

وقد كانت ولاية أدريانوس قيصر على الرومانيين طيبة بالنسبة الى الديار
 المصرية فان في مدته كان يونان الاسكندرية خلقوا اليهود بطبعهم
 يطباعهم في قتلهم وقلباتهم وعصيانهم على نوابهم وحرابهم معهم وصرت

الفنعة منهم الى كثير من المدن المصرية وكان قيامهم على التواب قد ترتبت
 عليه محنة عظيمة وقتة جسيمة بعد تسكين قسنة اليهود فلم يحمدها الا هذا
 القيصرو سبب ذلك أنه ظهر بالديار المصرية عمل جديد على شكل الجبل أيسر
 معبود المصريين وكان المصريون اذا ماتت عملهم المخصوص الشكل ينتظرون
 ظهور مثاله انتقارا للدور الجاهل كما امر الله معتقدين أنه ظهر بعد الغيبة وأنه
 أب يظهره القديم أعظم أوبة وأنه مستوف للعلامات والدلائل الايسية وأنه
 موصوف بالصفات الوثنية القدسية فبمجرد أن ظهر عمل بهذه الصورة اتفقوا
 على التحقق من هويته وماهيته وأرادوا أن يعجوا بتخصيص المحل المستعد
 لرضاعه وترتيبه وكرجدها لهم واختلافهم في التخصيص ولم يقع اتفاق على
 محل معهود من معاهد التخصيص فقامت الحرب لذلك على ساق وقدم وظهر
 ضرام الفنعة ولا ظهور نار على علم واشتد الحال في هذا الامر لكونه عندهم
 من ذوات البال فلما طرقت مسامع أدريانوس هذه الفنعة العظيمة والمحنة
 الجسيمة وكان في المروءة بالقيم فرانساجعل بالذهاب بنفسه الى الديار المصرية
 لاقتضاء الاهمية أن يحمده بحضوره نيران هذه البلية البهيمية فحضر واطفاها
 وأزال الجفوة من مصريين اليونان والمصريين وصفها وعند دخوله مدينة
 فرماتواها وأصلح مباني تربة تومبيوس وزينها فكان لسان حاله يقول عند
 هذه التربة للمقيم في هذه الغربة

تقيم الى أن يبعث الله خلقه * لتناول لا يرحى وأنت قريب

تزيد لي في كل يوم وليلة * وتبقى كما تبلى وأنت حبيب

ثم ساح في أرجاء مصر للتنزه والفرجة وابتهج الاهالي بعبوره ومروره أعظم
 بهجة فأرادوا تخليد تلك السباحة القيصرية وتذكاريها في سائر الاعصر
 للاهالي المصرية وغير المصرية ففرضوا سكة من الحديد مرسوما عليها تاريخ
 سفره المتيف حيث عاد على مصر بالسكريم والتشريف فصوروا على هذه
 النقود الشخصية النيشانية شخص مدينة الاسكندرية كأنها انسان
 يستقبل هذا القيصرو هو قادم في سفينة وصوروا القيصرو يتلقى تشریفات
 هذه المدينة كأنه يمتدح للاسكندرية ويمتدحها اليه للمصافحة والتحية واليدان
 في بعضهما مشبكان ويد القيصرو يد المدينة مماسكان كما يتصافح الخللان

ويتصادق الاخذان ومثروا على التقودموكب القيصرو تقرسه للقربان
وكذلك ربحوا على التقودم من الجهة الاخرى سيرا القيصرو على النيل المبارك
وهو في سفينة مقدمها على شكل قرن الحصب واليمن وضربوا أيضا لهذا
الامبراطور سكة أخرى عليها صورته وصورة زوجته ساينيه وعليها تاريخ
ابتداء ولايته القيصرية ويحكى أنه في أثناء سفره على النيل السعيد الى جهة
الصعيد فقد ولده أنطونيوس وناح عليه نواح الخنساء على صخر والشكلي على
ولدها الرولا عجب في الاسف والحزن على الاولاد فانهم قازات الابداد كما
قبل وهو جيل في المعنى

على صفحتي خدى أجريت حقتي * بحيث ترى الانهار من تحتها تجري
وخدى لسقم عاد صخر اوجندلا * فخلق الخنساء تبكي على صخر
(وعال آخر)

لئن أخليت منك اليوم أنسى * فأأنا فيك من أسف خلتي
عصاني الصبر بعدك وهو طوعي * وطاوع بعدك الجمع العصي
وهل أبتلى الايام دمعها * فيسعدني به الجن الشقي

وقد أعان هذا القيصرو ديار مصر الكثيرة اللطائف على توسيع دائرة العلوم
والمعارف وأنشأ فيها بعضا من العماثر لتكون على زيارته من أجل الامائر
وقد كتب في أثناء سياحته رسالة لبعض أجبائه المعجى سريوانوس
من كبار الرومانيين تدل على فضل القيصرو وعلى حالة مصر في ذلك الوقت
ومضمون هذه الرسالة بالمعنى

قد استقصيت أحوال الديار المصرية واستقرت عوائد هذه البلاد واطلعت
عليها بالمطالعة الجلية وكنت في الامر أخصها بالمدح وأشرحها بالتسبيحا
يقراى بأجل شرح وأتحاشى سلوك منهج اللوم والقدح فاستبان لي بعد
التأمل والنظر أنها عبرة لمن اعتبر فهي بلد طائفة متلونة لاتدوم على حال
واحدة بنية كثيرة القيل والقال لا ينقطع منها الشغب والجدال لاسيما
في مادة الاديان وعبادة الاوثان أو الملك الديان فان من لم يعبد الشمس والعجل
أييس يعد نصرانيا مع أنه ليس له من الدين العيسوي أدنى ميسس بل الذين
يزعمون بمصر أنهم أساقفة على دين عيسى بن مريم هم كغيرهم يحترمون الشمس

والعجل العظيم وحاخام اليهود كغيره يحترم العجل والشمس وكل قسيس
أورهاب أو عاى له في الشمس والعجل احترام فكانهم جميعا يعبدون الاوثان
والاصنام ويغلب على الظن ان بطريرك النصارى الخارج عن الديار المصرية
لودخلها الواقع أهلها على التسليم بهذه الاحترامات الدينية بل ربما اعتقدوا
ان الشمس والعجل وعيسى أسماء مترادفة واللويزة في الثلاثة واحدة
موصوفة بأوصاف كاشفة وهذمن العالم المتعارفة وأهل مصر دون غيرهم
يميلون الى اختلاف الكلمة ويسرعون الى الملاعة والمشاغبة وأمام مدينة
الاسكندرية التي هي دار الحكومة المصرية فهي بلدة مثرية غنية كثيرة
البركات والخير بعيدة عن الضرر والضيق وليس أهلها أهل بطالة ولا كسل
وأغلبهم حاكمة السكان لا يخرج عن الميل الى الصناعة منهم انسان ولا يستغنى
منهم في ذلك العرج والعميان ولا المصابين بداء النقرس وغيره من علل
الابدان فلا يملكون الصناعة طرفة عين ولا يضيع زمنهم سدى لا كتاب
الورق والعين كلهم يقرءون بوحداية المصنوع وسواء في ذلك اليونان
والنصارى واليهود حتى عامة الناس وروعاهم تميل الى وحدانية المصنوع
أنفسهم وطباعهم فلو كانت مدينة الاسكندرية رفعة الدرجة في التربية
والتقديرة زيادة مما عليه الآن لكانت سيدة الامصار والبلدان ومع ذلك
فهي بكثرة أهلها واتساع أراضيها ومبانيها تستحق عنوانها وصيتها وشانها
بأنها تحت الديار المصرية ومركز العمارية فلهذا الخصوص لم أضعها شيأ من
حقوقها بل منحتها ما راها القديعة وزيادة عليها الحسن تنظيمها ونسبها
لقصد أن ترضى عن هذه الحالة الراهنة وتسكون على عوائد ها ورسومها
آمنة ولكن بمجرد ما خرجت منها وتباعدت عنها صار أهلها يستهزئون بابني
ويروس ولا يخفون ما عسى يقولونه في موت ابني انطيوخس فأنا لا أنمى لهم
الاتهممة بما عندهم من البجائ ليكسبهم كثرة البلاء الموجب لقوة التوليد
وهو داء قبيح علاج والافصاح عن ذلك أزيد مما قلته يخل بالادب والحيا
والتصريح به مما يخل منه ويستحي والواصل لكم بعض كؤس وأكواب
مختلقة الالوان معدة للشراب فقد أهداها الى كهان الهياكل فوهبها لك
ولاختي ليطوف فيها السقا في المواسم والمخاض تحلوها المدامة بين الندمان

في مجلس الانس الجامع للاخوان والخلان وانما ينبغي أن يحترس صاحبنا
افريقانوس من أن يكثر من الشراب بها فيعربد فلا يدعو هو ي نفسه ليستولى
عليه ويستعيد اتهمى
وعلى ما تقدم من ذكره التهمة بالدجاج يحسن قول بعضهم وقد أهدى
اليه فطائر

لا أبالي ان لم أفز بدجاج * منكوميل أتت الى الفطائر
كيفوالنفس تشبههاوعندى * هي أكل معادل الفطائر
وعلى ذكر العريضة يحسن قول ابن سهل الاسرائيلي الاشيلي
فياطيب عيش العشق لولا جنونه * محادثة التشوان سكر المعربد
وقد أثنى هذا القيصرفى اليهودي في مدينة القدس وسماها ايلياء وكان
شديدا على النصارى وقتل منهم خلقا وأمر الناس بعبادة الاوثان ويقال
انه أزم أهل مصر فخر خليف من مجرى النيل الى مجرى القانم أجرى فيه
الخلو ثم ارتدم بعد ذلك وجاء الفتح والدولة الاسلامية فأزهمهم عمرو بن
العاص بحفره حتى جرى فيه الماء ثم انسده ولما بنى هذا القيصر مدينة القدس
رجع اليها اليهود فبلغه أنهم يريدون الانتفاض وأنهم ملكوا عليهم وكرى من
أبناء الملوكة فبعث اليهم العساكر وتبعهم بالقتل وخرّب المدينة حتى عادت
صحراء وأمر أن لا يسكنها يهودى وأسكن اليونان بيت المقدس وكان هذا
الخراب ثلاث وخمسين سنة من خراب طيطس وهو الجسولة الكبرى
وامتلا القدس من اليونان وكانت النصارى يترددون الى موضع القبر
والصليب يصلون فيه وكان اليهود يرمون عليه الزبل والكاسات فنعهم
اليونان من الصلاة فيه وبنوا هناك هيكل على اسم الزهرة وفي السنة
الخامسة من ملك هذا القيصر قدم نسطس بطر كاعلى الاسكندرية وكان
حكيمافاضلا فلبث احدى عشرة سنة ثم مات وقدم مكانه أمانيق فى السنة
السادسة عشرة من ملك هذا القيصر وهو سابع البطارقة فلبث احدى
عشرة سنة

وقد أسلفنا أن أدريانوس كان أشرك معه قبل موته بتقليد فى ادارة المملكة
طيطوس أنطيينوس فلما مات هذا القيصرفى سنة ٤٨٤ قبل الهجرة

بعد أن حكم إحدى وعشرين سنة تولى بدله شريكه الملك كورس الألى الله تصير
الامور

(الفصل السادس عشر)

(في الملك طيطوس أنطونيوس قيصر)

تولى هذا القيصر الامبراطورية في سنة ٤٨٤ قبل الهجرة وبقى حكمه الى
سنة ٤٦١ فكانت مدة حكمه ثلاثا وعشرين سنة ويلقب بالرحوم وأصل
العائلة الانطونية من أمة الغالية أسلاف القرنسايين من أهالي مدينة نيم
وكانت هذه العائلة مصاهرة لايغان ايطاليا واشتهر طيطوس انطونيوس
بكرم النفس وحسن التربية وكان مستتيرا لعقل مطبوعا على مكارم
الاخلاق محافظا على جلب الراحة للبلاد والعباد وتأمين الرعايا والسعي في
تقديم التجارة والصناعة تاجح المشروعات وكان يدقق النظر في حسن
الادارة والاقتصاد في مصارف المملكة فلا يكاد يفتقر فرصة عين على أن
يتطرق بغاية الدقة لكليات المصالح وجزئياتها وكانت في أيامه الاموال مدبرة
موفرة على وجه لم يسبق مثله في خزينة الرومانيين فقد كان هذا الملك يملك
في معيشة المملكة طريقة بسيطة بدون زخرفة ولا زينة مع غاية الاقتصاد
بدون اسراف ولا بذير فكانت خزينة المملكة في أيامه دائماً مضمورة
بالاموال فلماذا قال من أراد التلجيم توسط معيشة هذا القيصر ما معناه حسب
من الاقتصاد أنه لو أراد أن يتكفل بالانفاق على جميع الرعية وأن يقوم
بمصارفيهم على وجه السعة وبدون تقدير لا يمكنه ذلك ولو حدثت له حوادث
مهمة ووقائع مفلهمة على حين غفلة لكان كفواً لأن يزخر بها عنه بالمال
ولهذا تمكن بجمع الاموال من انشاء العمارات العميمة ذات المنافع الجسيمة
وبالجملة فكانت أفعاله مؤسسة على حسن التدبير والحكمة ولا يفعل الا
ما يوجب احترام ناموسه عند جميع الملوك والاهالي المجاورين لبلاده فقد
كان قيصر او حكيما لم يكن في وقته من ملوك الدنيا احدث شهرته في حسن
التدبير والسياسة وبينما كان يحكم في اوربا وافريقية وآسيا اذ ظهر في بلاد
الصين ملك شهير بالسياسة والحكمة يسمى هيا كنغ في فهذا الملك اشتغل أيضا

بتقنين رعاياه وتهذيب أخلاقهم وتلطيف أحوالهم وقن لهم قوانين منبئة
 على التوسط في الحدود والعقوبات وأبطل التعذيب للمذنبين وحكمهم بحكم
 الأب على أولاده بمراعاة مصلحة أحوالهم وتقدمت من عهده بلاد الصين
 وسارت في سيرة العدل والحرية وهذه البلاد الصينية واسعة الاقطار معقدة
 الاقاليم طيبة الهواء كثيرة الخير والبركة لعظم أثمارها وأشجارها وجبالها
 المدينة المقربة بالمعادن المتطورة وغيرها كالأحجار الكريمة وجبالها غلباء المسك
 وباشجارها صمغ الطلائع التي لا توجد في غيرها وبها شجر الكافور ويرتفع
 جذا ويحصل منه محمولات عظيمة وكذلك عود الصبر وهو يحتف عن الصبر
 الهندي فثمره على شكل الزيتون وداخله ثلاثة أصناف من الحبوب الصنف
 الأول يسمى حب العقاب وهو مرغوب جدا والصنف الثاني يسمى حب
 القنبوق وهو خفيف الرنة والصنف الثالث يسمى القلبيا وهو يوجد في وسط
 الثمر ويأكل بزره الذهب ولها رائحة عظيمة وهو نافع جدا للمهزولين والمفلوجين
 وتكثر عندهم الحشائش ذوات الروائح الذكية وعندهم علم الفلاحة متقدم
 جدا فيصير الملك بنفسه كل سنة أخذودا من الأرض لتسريف الزراعة
 ويرفع درجات المزارعين الى مرتبة الامارة وعند الصينيين تقدم قديم كاختراع
 صناعة الورق والطبع والرقوم وغير ذلك ومع أن حكومتهم مطلقة التصرف
 الا أن التسوية والعدالة موجودة عندهم ثم انه كما ظهر ملك الصين الحكيم
 السابق المذكور في أيام انطينفوس كذلك ظهر في أيامه بمصر بطليموس المتجسم
 صاحب الفلك وبعضهم يجعل ظهوره في أيام البطالسة كما سبقت الاشارة الى
 ذلك عند ذكرهم وكانت أيام حكمه هينة لينت مؤسسة على العدل والانصاف
 مجترة عن الجور والاعتساف لاسيما في دار مصر فانه قد نالها عدله واحدا
 وفضله وامتنانه فقد كثر فيها في أيام حكمه العمارات الالهية والمباني الدينية
 وانما كان يونان الاسكندرية يتجاوزون الحدود في اثاره الفتن والعصيان على
 الدولة والكلام فيما لا يعني فلم تمتعوا بالسعادة العمومية ولا اغتنوا مذاق
 لذاتها الهنية فلهذا تواتر بهذه المدينة الاختلالات الدائمة حتى قتل يونانها
 نائب القيصر على مصر فغضر هذا القيصر بنفسه الى الديار المصرية في جيش
 جرار ودخل الاسكندرية منصورا مؤيدا فقمع العصاة وأعاد الهدوء والسكون

وفي السنة الخامسة من حكم هذا القيصر تولى مريتياو بطركا بالاسكندرية
وهو ثامن البطارقة فلبث تسع سنين ومات وكان فاضل السيرة وولي بعده
كلوتياو فلبث أربع عشرة سنة ومات في أثناء حكم مرقوريوس الآتي ذكره
وقد كان موت طيطوس أنطينيوس سنة ٤٦١ قبل الهجرة بعد أن
حكم ثلاثا وعشرين سنة وتأسف على موته جميع الايالات والافاليم الرومانية
لملكه من الماء والنجيلة والآثار الجليله لاسيما مدينة نيجه بفرانس التي هي
مستطرا أسه فقد تزلجها آثارا جليله من مصنوعات وتولى بعده ممره
مرقوريوس

(الفصل السابع عشر)

• (في الملك مرقوريوس قيصر) •

تولى هذا القيصر امبراطورية الرومانيين سنة ٤٦١ قبل الهجرة وبني حكمه
الى سنة ٤٤١ فكانت مدة حكمه نحو تسع عشرة سنة وكان هذا القيصر
صهر طيطوس أنطينيوس فلهذا سمي أيضا أنطينيوس الاصغر وكان متمسكا
بذهب زينون الحكيم أحد الفلاسفة المتقشفين فكان من شيعته زاهدا في
الدنيا ورعاً متقشفاً ينام على القروش اليابسة ويعود بدنه على حركة الرياضة
الشاقة كما يروض عقله على النظر في التأمل والنظر في دقائق الامور والتفكير
في المصنوعات وأحوال الكائنات فقد استقل بالآداب والعلوم الحكمية
واقبعت دائرة علمه فيها واشتهر بالمعارف شهرة عظيمة فعند تمام دراسته وتمكنه
من العلوم دعى لولاية الامبراطورية الرومانية وبني على ما أسسه من كان قبله
من القياصرة الثلاثة من حسن السياسة والتدبير فقم ما كانوا شرعوا فيه من
المقاصد الخيرية واجتهد زيادة عنهم في اتباع القوانين والتمسك بالاصول
وعدم تعدي الحدود ودشد في اجرائها وأكد على العمل بموجبها حرفاً مجتهد
ثم ان هذا القيصر من فرط حرصه وبدون فكرة أشركه معه في ادارة المملكة
الرومانية لوقيوس وروس بن وروس السابق شريك أدريانوس وسبأني
ذكر ما تبديع عن هذا الاشتراك
وكانت أيام مرقوريوس وأحكامه حسنة في الجملة ولولا ما حصل في المملكة

الرومانية في أيامه من المصائب والمصاعب التي بمحض القضاء والقدر لعدت أيامه سعيدة بحسن إدارته الجيدة إلا أنه قد تصادف في عهده وقوع وباء عظيم هلك به ما لا يحصى من الأهل والأهالي وقاض أيضا نهر رومة فازعج الأقاليم الوسطى بإيطاليا وخط الناس متبين وامتنق لهم النصارى فأمطروا وارتفع الوباء والقحط بعد أن كان أشد على النصارى وقتل منهم خلقا وهي السنة الرابعة من بعد نيرون كما سيأتي ذلك في أثناء هذا الفصل مع ما يضاف إلى هذه الوقائع من حصول زلزلة عظيمة في أيامه أزعجت كافة العالم ولا مانع من أن تكون السقيا حلت ببركة دعاء أجبار عيسى عليه السلام لأن هذا وقع في أيام أن كانت شريعته مطهرة بقافية الحكم غير منسوخة ومنه يفهم أن الاستسقاء قديم ومن غريب ما وقع في الاستسقاء ما يحكى عن محمد بن مسلم بتشديد اللام المقنوعة المغربى التونسي الحسبى نسبة إلى بنى حسين طائفة من عرب المغرب أنه اتدب إلى صلاة الاستسقاء والخطبة في بعض السنين فصلى وخطب يومين فحصر عن القراءة فيها إلا أنه استسقى في خطبة ثلثي يوم بأشاديت أبي طالب في مدح النبي صلى الله عليه وسلم

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * سمال يتأوى عصمة للأرامل

وبالبيت وصى الله عنهم فما كان آخر النهار الاوسى المسلمون بمنه تعالى فظم بعض الحاضرين هذه الواقعة وأنشدها

خطيب لنا استسقى بذكر جماعة * همو آل بيت المصطفى العظماء

وأبى لم المصطفى يتنه الذى * قد استسقت من مسكة الشعراء

فصحت علينا السحب من فيض ربنا * وتوبع في أثناء ذلك الشاء

فيا لك من بيت كرم مشرفى * به طفقت تسقطر الضعفاء

وكان وقوع هذا في حلب الشهباء الذى كان هذا الشيخ التونسي مقبلا به واه الكلمة النافذة على المغاربة القاطنين فيها وفي هذا الزمن بعينه يعنى زمن مرقد بلس أغار الهجوم على البلاد الرومانية المشرقية كما أغار الجرمانيون أيضا الذين هم بسواحل طونه على البلاد الرومانية المغربية فكل من الهجوم والجرمانين أزعج الرومانين بهجومه فكان يحشى على المملكة من التزيق والتفريق وكانت مدينة رومة في أثناء هذه الاخطار محكومة بما كين محتلتي

الامر والنهي في سائر المدن والامصار وذلك ان القيصر من قور يلس كان من
فرط حرصه وقلة حرصه اشرك معه في القيصرية لوقيوس ويروس بن ويروس
السابق الذي كان مشاركاً في أول الامر لادريانوس قيصر

• ومن يشابه أبة فاعظم • فكان في هذا الولاية أيسه ودناءته قضى عمره
في الحانات ومحال اللهو واللعب لا يكاد يخلو من السكر والعريضة ومجالسة
أمثاله فلما هجم الهجم على اقاليم الرومانية قوض اليه الامبراطور أمر ابعادهم
وطردهم وأناط به مدافعتهم فأخذ قائداً تحت يده من الرومانيسفد سمي
أويديوس قسيوس وكان هذا القائد شجاعاً عجزياً فاعتمد عليه وهو الذي حارب
الاعداء وطردهم وحازت الفار النصر في هذه الغزوة دون لوقيوس ويروس
المقلد برياسة عموم الجيش فلم يسر مع وكيل الجيش ولم يقمهم الحرب والقتال
بل أقام وقت الممعة مع أرباب الهزؤ والسخرية فلم يحصر مضمار الحرب
ولم يشاهد في الواقعة الطعن والصرع

وقد كان أويديوس قسيوس أميراً ماهراً مستعداً على جنوده تشييداً لاهل
عليه متمكناً بأصول الضبط والربط والتربية العسكرية وكان جنود المشرق
المقيمين من طرف الرومانين في أقاليمهم قد ألقوا العوائد المشرقية من قنور
الهمة والتكاسل والتساهل فكان توجيه هذا القائد اليهم قد صادف محلاً
حيث ضبطهم بأصول التربية العسكرية وشدد عليهم في اتباع مطوق
القوانين الحربية وكان يعاقب من خلفها حالاً بأشد العقاب ولا يغادر صغيرة
ولا كبيرة إلا أحصاها في سجل كتاب ويجازي جانبها بحد درجته الارتكاب
ومن وقائع هذا الامير أنه لما علم أن فرقة من الجيش هجمت من تلقاء نفسها
على جيش العدو على حين غفلة فهرمت ثلاثة آلاف نفس وبذبت شملهم وكان
ذلك بدون إذن أمراء الجيش العظيم أمر هذا القائد بقتل ضباط تلك الفرقة
حيث خالفت الأصول وسلكت بعدم الاذن سبيل الاقتيات والفضول ولم
يلتفت الى اتصاها على الاعداء والاختصاص لجواز عدم النصر واختلال
النظام وعدا النصر من قبيل رمية من غير رام فقام عليه الهياج في المعسكر
من كل قبيل وشاخ الجميع في عرضه ووقع في حقه القال والقليل فلما بلغه
ذلك حضر بين الجنود رعب ولا انزعاج وكشف عن صدره بدون خفقتان

قلب ولا ارتجاج فقال لهم اطعنوا هذا القلب الايض وارتركبوا أعظم
خطية وأضيفوا ذلك الى جنية عدم الاطاعة العسكرية التي هي أعظم
جنية فأجمعوا من قلبه بعد الاقدام والتصميم وبهذا سكنت الفتنة ورضوا
عن هذا الهام المقدام واعترفوا بنفهم النعيم وعادوا لاشغالهم الحربية
وعلموا أن فعلته التي فعلها انما هي لجزء الدرية فلهذا اتصبر بهم الامر على
العجم أعظم نصرة فلم يكن لاعدائه على مقاومتهم من القدرة مثقال ذره
وانتهى بهم الامر أن طلبوا منه الصلح والامان وكان ذلك في سنة ٤٥٨
قبل هجرة سيد ولد عدنان

وكما كان القيصر لقيوس وروس منوطا بحماية البلاد الشرقية كان شريكه
مرقوريلس قيصر منوطا أيضا بالسفر لحماية البلاد المغربية والذب عنها
من اغارة القبائل الشمالية فوصل اليهم في وقت الحاجة الى وصوله ليتمكن
من بلوغ مقصده وسوله وذلك أن قبيلة المرقومان التي هي احدى القبائل
التبريزية كانت اجتازت جبال ألبه كأنها حرم مستفزة وكان يجتثى على
ايها اليامن هجومها فسار اليها هذا القيصر وطردها قبل تحقق قدمها وبعد
ذلك بثلاث سنين انقضت أمة الجرمان الى قبائل متوحشة أشبه بقبائل
البدوان وهم قبائل الاندلسيين والسريريه واللان وقصدت ايطاليا لتدمير
الجيوش الرومانية والتغلب على البلاد الايطالية فجمع الامبراطور
مرقوريلس جميع الارقاء والمصارعين واللاعيق وأمنالهم من صنعتهم
الدوارة والبطالة وتطمهم في سلك العسكرية خيرا لهم من الدعة والكسالة
ولاجل الاتفاق على هؤلاء الجنود المجنسة باع الامتعة المملوكية النفيسة
المتعددة وسار الى الاعداء بمجيئ جرار لا يلحقه في مضمار الفخار غبار وهو
لا يشك في النصرة على هؤلاء القبائل الفخار ولكن قد تجاسر هؤلاء القبائل
الاجاب وحاصروا جيش القيصر وأخذوا به من كل جانب وقطعوا عنه
الامداد والميرة والعدة والذخيرة فظمى الجيش ظمأ عظيما وكادت الجنود أن
تهلك عطشا وحرا وأشر فواعلى أن يهلكهم العدو ويبدد شملهم وأيسوا من
العود الى دومة وفقدوا قوتهم وحولهم ولولا أن آغا نهم المولى سبحانه وتعالى
بنزول الامطار وانهمال الغيث وارثوا من الصدى كانوا ذهابا يجمعتهم الى

حيث فبان طال المطر المدرار ترعرعت أبااتهم وفجوا من الضرر والضرار
 واتصروا غاية الاتصار وكان النصارى قد استقوا لهم بصفانية واختلاص
 فاعتقدوا أن صدور السقيامين القسوس هي سبب الخلاص حتى ان القيصر
 صدق على ذلك واعتقده وأدع أن هذا من كرامات الديانة المسيحية المعتقدة
 وكانت قبل ذلك عنده منتهدة فكتب إلى مجلس رومة بوصى على الملكة
 العيسوية وأن لا يصير لهم من الآن فصاعدا شيء من التعدي كالمدة الأولى
 بل ندم القيصر على ما سلف منه من التطاول عليهم في مبادئ أمره واعترف
 أنه من محض ظلمه وغدره وأباح دخول الدين العيسوي في جنوده فكثر
 العيسويون في معسكره فكف الجحاش عن النصارى كف التعدي برهة من
 الزمان ثم تعرض للحكام لهم في الايلات الرومانية في غيبة القيصر وامتدت
 اليهم يد العدوان لاسيما في إقليم الغلبة التي هي الآن دار القرائسوبة وكان
 النصارى قد كثروا فيها كثرة بليغة فأضعفوا قوته وظهورهم ومنعوا إتيان
 زهورهم

وقد يوجد على المباني المصرية مرسوما اسم كل من القيصرين وهما
 مرقوريلس قيصر ولوقيوس ويروس شريك في القيصرية وفي مدة قيصرينهما
 طهر في مصر عدة من الاحزاب أشهره السلاح تحت راية رئيس خارجي
 جسور يسمى أزيديو وأغراه على الخروج قسيس مصري مثيرة متن والشروع
 فقاتل أزيديو وعسكر الرومانيين في جميع الجهات المصرية وهجم على مدينة
 الاسكندرية التي فيها ديوان الحكومة الرومانية فاجتهد الامير أوديبوس
 قيسوس نائب ويروس قيصر على مصر وغلب هؤلاء الاحزاب وبدد شملهم
 وأذاقهم كأس العذاب فاغتربهم هذه النصرة واستضعف الامبراطور
 مرقوريلس وظن أنه لكبر سنه قصير العمر فسمي في طلب الامبراطورية
 لنفسه فبايعه عليها الجنود المصرية ويقال ان الامبراطورة زوجة مرقوريلس
 هي التي أعاتته على خلع زوجها القرض من الاغراض وكان لهذا النائب والد
 يسمى مطيانوس وكان نائبا على الاسكندرية قبيل المبايعه لايه تعصب عليه
 الجنود وقتلوه مع ولده ولم تنفع ولايته بشيء بل بقي منصب القيصرية لأخيه
 الاصيل ودخل المتعدي في خبر كان ولم يظفر بقطير ولا قيل

وكان مرقوريوس حكريم النفس رفيع المهمة كامل المعاني يعفوعن
الذنب ويصفح عن الجاني ومع ذلك فلم يعف عن خصمه بعد أن صار في قبضة
يديه وانما عفا عن احوالهما وصفح عن أحبابهما ولما حضرت اليه السندات
الداخلة على صورة الفسنة المتضمنة للمراسلات والمخاطبات الواقعة بينهما وبين
رؤساء الفسنة في النواحي والجهات لم يرض بقراءتها والاطلاع على مضمونها
حققتها بل حرق الاوراق واكتفى بالعفو وتني رؤساء الفسنة الى الآفاق
ثم لم يصل هذا القيصر الى الاسكندرية استجلب قلوب الاهالي واستمال
نفوس الرعية وعامل الجميع بحلمه وكرمه فارتكز في قلوبهم أمر مجده وعظمه
وكنت أيامه كأيام بقية الاطوفونية أزمان صلح وسعادة على الامة المصرية
وانما لم يحسن المصريون اعتناءهم فرصة الهنا ولا التمتع بالاسعاد والغنى فقد
حرمتم مصر بسبب عصيانهم من نيل المنى ولو سلكت ملك الطاعة والانقياد
لحصلت في أيام هذه الدولة الرومانية من المعاملة على طبق المراد وقد سبق أن
مرقوريوس قيصركن منوطا بفراخ الامة انشعالية وقد غزاهم غزوتين انتصر
في كليهما ومات في الغزوة الثالثة بالوفاة وكان ذلك في سنة ٤٤٢ قبل
الهجرة وخلفه ابنه قومودس

(الفصل الثامن عشر)

(في الملك قومودس قيصر)

تولى هذا القيصر الامبراطورية في سنة ٤٤٢ وحكم الى سنة ٤٤٩
فكانت مدة حكمه نحو ثلاث عشرة سنة وكان لا يؤمل من ظاهر حال هذا
القيصر فعل شيء من الحسنات ولا يرجى خير مما ظهر منه في أيام صباه من
السيئات فكيف وقد كان له حماي معتاد على تنظيف يده وازالة ما على
جسمه من أوساخه ودرنه بفضله الحمام حسب العادة فوجد هذا الامير
الماء الغافق الحرارة حدة الزيادة فأمر بقذف الحمى في المستوقد وشواء على
جمر لظاء وقد توقد فهل يوجد من الجبروت أعظم من التعذيب بالنار والقدر
يخضع لهم متقرب ليس له ناصر سوى الملك القهار فبهذه الفعلة الرديئة لم يتوسم
فيه أحد عدلا ولا حلابل مما يضم الى ذلك ويوقع في الازهان البأس من

صلاحه وفلاحه ان أيام الامامات في ويانة مدينة النيسابور هو معه ظن الناس أنه
 قتله بالسهم فأوقع في نفوس الجميع أنه منطبع على العقوق مضيع الحقوق
 فخله قل أن يحسن السياسة بالعدل والاحسان فخاب فيه ظن انسان
 فنجرت ما يبيع له بالقيصرية في تلك البلاد التي كانت جنود الرومان تحارب فيها
 القبائل المتبررة الخشنة وكان الحال مقتضيا للمكث لتقيم هزيمتهم ودفع
 خصومتهم وكان أبو قديس تلك الجهات قلاعاً واستحكامات وأعدتها
 للمحافظة من المهاجمات فترك قومودس قيصرية تلك القلاع وانسل من تلك
 البقاع وعاد الى رومة محجبا نفسه التقيصة بحتال بالتيه والخفر ويسده
 حراً يتطرقها الى حمسه وبجالة وقوام قدوة واعتداله فدخل المدينة على
 هذه الحالة بموكب عسكري عليه صورة الجلالة والجلالة والقيصر في
 وسطه كانه المؤيد المنصور وكل مشاهد شاهد عليه بالقصور وضياح تلك
 الابراج والقصور

ولم تتمع مدينة رومة بأفراحه ومسراته الامنة قصيرة وكانت أغلب أعرامه
 مغمة وشرار نيرانهم مستطيرة وذلك لان هذا القيصر كان عظيم القامة
 جليل الهامة فيه قوة بهلوانية وخفة المصارعين البدنية فبان منه
 الاستعداد الى هذه الصنائع الدنية والميل الى مغالبة القوى الجبوانية
 والى منازلة الرجال الغلاظ الشداد ومبارزة الاقران والانساد فلا يميل
 غصن بدنه الرطيب الا في ميدان الموابية في التحطيط فقد حارب قبلا
 شديد العنفوان في حالة الاقتراس وضربه ضربة واحدة فألقاه على الارض
 عديم الحواس كما يحكي نظير ذلك في أسد عليه الخطيفة المعتصم من بني العباس
 وقتل ذلك القيصر في يوم واحد خمس حيوانات من الاقتراس البحرية هجم
 عليها دفعة واحدة فأعدمها الحسية وفي هذا اليوم بعينه طعن مائة أسد
 بمائة سهم فوقها فقتل تلك الاسود وبالسهم مزقها فبوصوله الى هذه
 الغالبات الوحشية ازداد كبرا واعتوا واستظم في سلك الجبابرة والعمالقة
 وقوم عادوسى نفسه هرقل الرومانيون تشبها بهرقل اليونان الذي يحكي
 عنه العجائب والغرائب في قتل الثيران وتنظيف البقاع من الآساد ولذلك
 يوجد معنونا في بعض التواريخ بنصوان هرقليانوس وشتان بين هذا القيصر

وبين ملك شاه السلجوقي سلطان خراسان فانه كان مولعا بالصدايق قال انه ضبط
 ما اصطاده يصدف فكان عشرة آلاف قصدق بعشرة آلاف دينار وقال اني
 خائف من الله تعالى من اذهاق الارواح وكان بعد ذلك كلما قتل صيد اصدق
 بدينار وماد مرة وحشا كثيرا فبني منارة من قرون الأطباء وحوافر الحمر
 الوحشية قال ابن خلكان والمنارة باقية الى الآن تعرف بمنارة القرون فانظر
 الى مكارم الاخلاق الاسلامية الصادرة من السلطان والى عظام الاسام
 الرومانية الصادرة عن القيصروبالجملة والتفصيل فكان لا يهتم هذا القيصرو
 بمصالح الدولة الاقل من القليل بل جميع اوقاته تضي في مجامع المصارعة
 والمخاطبة والمسابقة والمغالبة وكان لا يأنس الا بمجالسة هؤلاء المحترفين بهذه
 الحرفة ويظهر معهم بظهرهم في المحافل العمومية بدون احتشام ولا كلفة
 ويشاركهم في التزال والبراز ويترب في حومة الميدان شهادة الا الهالي له
 بالوقوف والامتيار فكان يجب السبق على هؤلاء الاخوان حتى كان
 يتطلب هذه الشهادة من الحاضرين بالالاح وفي الحقيقة كان له مزيد
 الفوقان والتجاح فقد اتصرف في ميدان المصارعة على ألف مصارع واقتصر
 بهذه النصرية حيث ظهر أنه أول مصارع بارع ويدل على ذلك أنه كان
 برومة تمثال الشمس على صورة مجسمة ترفع هذا القيصرو رأس هذا التمثال
 ووضع صورة شخصه على رأس صنم الشمس الرفيعة التمثال وكتب في أسفل
 التمثال ما نصه قد اتصرف قومودس على ألف مصارع ليخلد كرمهارة في
 المصارعة لتبقى من أعظم الحوادث والوقائع ولم يعبه كنف أحد على هذه
 المثالب اعتكافه ولا ساو ام بشر في سلوكه سبيل هذه المعرفة والكتابة فانه كان
 دائما حليفا للاعيين رفيق المسابقين فاذا خلا بنفسه في قصره سفك دماء
 الناس وأجرى فيه مجرور الدماء بلا مقياس وكان مغري بسلب الاموال
 والارواح مغرما بطماع نفسه واتباعه في المباح وغير المباح وأين
 منه السفاح وتطائر السفاح وبنون بعيدينه وبين السلطان اسمعيل الساماني
 أحملوا السامانية بما ودا النهر وخراسان على ما يحكي عنه أنه كان يأمر
 مناديا ينادي في كل وقت ليصل من كانت له ظلامه ويرفع الحجاب ويعد البواب
 ويتفمع المظالم في جانب السباط ويقضي بين الخصوم ويسمع الدعاوى

ك بعض الحكام ثم يعود الى موضعه ويقبض على لحيته ويرفع وجهه نحو
 السماء ويقول اللهم ان هذا جهدي وقد بذلته وانت عالم الاسرار تعلم نيتي
 ولا أعلم على أي عبد من عبيدك خفت فأعقر لي ذنوبي فلما كان صادق النية
 جليل الطوية لأجرم قوي أمره وارفع قدره وبقيت المملكة السامانية
 مدة طويلة هكذا تكون الملوك أرباب العدل والانصاف المنزهين عن الجور
 والاعتساف لا كمثل هذا القصر الطاغية الملازم في جميع أطواره
 وأحواله للحكام الباغية اذ كان يأمر بالقتل بأدنى سبب حتى فقدت
 الامنية في زمانه في رومة وفي الطرق السلطانية وكان يسلي نفسه
 ويرزحها ويمسها ويرأوها بتعذيب من يريد قتله فيضترع كل يوم عذبا
 جديد وهكذا من أعجى الله بصيرته وأضلّه والبغى مرتعه وخيم بهله ولا يهمله
 العزيز الحكيم واذا أراد الله بكم خيرا ألهمه بالوعظ استدر السما وقع فيه
 لطفه منه سبحانه وتعالى وأطلعته على باطنه وخافيه كما يحكي عن أبي جعفر
 المنصور أنه كان جالسا بقصره اذ جاء سهم فوقه بين يديه فذعر منه ثم أخذه
 فاذا عليه مكتوب

أحسنْتَ ظنك بالايام اذ حسنت * ولم تخف سوء ما يجري به القدر
 وسألتك الميالي فأعتررت بها * وعند صفوا الميالي يحدث الكدر
 وعلى جانبه الآخر مكتوب همدان وكان الاعشى حاضرا عند المنصور فسأله
 عن ذلك فقال لعل في السجن رجلا من همدان فأمر أن يبحث عن ذلك
 فوصلوا الى السجن فوجدوا رجلا يتلو القرآن ويردد قوله تعالى وسيعلم الذين
 ظلموا أي منقلب يتقلبون فقالوا له من أين أنت قال من همدان ففكوا عنه
 القيد وجاوه الى المنصور فلما دخل عليه قال ما قصتك قال وصل والملك الى
 بلدنا ولى ضيعة تغل ألف درهم فأراد أخذها مني فامتنعت عليه فكلمني
 بالحديد وكتب بأني عاص فطرح في السجن فقال المنصور منذ كم فقال منذ
 ستين فأمرا بالطلاق والاحسان اليه وخلع عليه ضيعة كاملة وقال له يا شيخ
 قد ردنا عليك ضيعتك ووضعنا عنك خراجها ما عشت وعشنا ووليتك البلدك
 وحكمنا لك في الوالي تفعل به ما شئت فقال أما الضيعة فقد قبلتها وأما الولاية
 فلا أصليها وأما الوالي فقد عفوت عنه فأمر له المنصور بماله وانصرف

الى بلد مكرما وأما قومودس فيصر فلم يلهم ولم يستدرك الوقوع في المأثم بل
استدرج من حيث لا يعلم فان تكن قضية وقوع السهم بين يدي المنصور كما هو
الظاهر وضعية قضية العلم بحبس الهمداني هي قضية طبيعية كما ان قضايا
قومودس كلها واقعية فلماذا قام عليه الرومانيون وعصام من الجنود الجميع
وسقوه السم النقيع بواسطة معشوقه مرقيا ولكن قوته الطبيعية وبفته
الحيوانية غلبت على السم القاتل فلم يتقع فيه وحده بل مع ما يضاف اليه من
طعنه في المقاتل أو موته بجثث وشقق فقام عليه أحد المصارعين وهو اسمي
نرجس من أهل الصقوة وكان أشد منه عزيمة وقوة فطرح نفسه عليه وضمه
بين ذراعيه وقمعيه وتصارع الجسمان بجميع أعضاء الابدان فغلب
المصارع قيصره وصرعه وخنقه وتم مصرعه وأسكنه دارا غير هذه
الدار ومأواه جهنم وبئس القرار فجمونه انقطعت عائلة الانطونية وكان
ذلك في سنة ٤٢٩ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى
التسليم وخلفه برطيناش قيصر كاسياقي

ولم تكن مصر في أيام الانطونية الرومانية في حالة صلح ولا سعادة ولا كانوا
يستقبلون الحكم بالعدل والاحسان والشفقة واللين ولا عرفوا كيف تذاق
لذة عدل الانطونية بالنيار المصرية فان مصر حمت ذلك بما كسبت يداها
من اثمارة الفن فأقام قومودس لم تقدها أدنى راحة ولا سعادة لتشبهها بالخروج
والعصيان على دولة الرومان وكان في مدة حكم الانطونية يأخذ دين
النصرانية في الانتشار والاتساع في سائر الاقطار والبقاع وكان يبيع
قيصرهم التمسك به بدون تهديد ولا تشديد ويباح اجرا عباداته بدون
تخويف ولا تنكيد وانما كل دين المصريين القديم لم يزل متمسكا به في
الحكومة المصرية وهو الكثير والغالب فكانت عبادة الشمس والقمر جارية
في مصر يتبعها اليونان والروم والغرباء المتوطنون ومن أراد الدخول في
النصرانية في تلك الاوقات أبيع لذلك وان كان الدخول فيه بعد عند عامة
الناس من الموبقات

(الفصل التاسع عشر)

* (في الملك برطيناش قيصر) *

تولى هذا القيصر الامبراطور بيسنة ٤٢٩ قبل الهجرة وحكم ثلاثة
شهور وذلك أنه لما مات قومودس اجتمع الاحزاب وبايعوا بالقيصرية
لبرطيناش وكان عمره ستين سنة وكان أبوه شجارار ومايان من الموالي ولكن
رباه أبوه فأحسن تربيته فكان أول أمر برطيناش ان صار معلم للسان
اللاطين وكانت همته عالية فلم يقتنع بالتعليم بل صمم على أن يدخل في الخدمة
العسكرية فانتظم في جنود انطينينوس قيصر واستخدم في جنود الشام ثم
خدم ويروس قيصر ففاز الاقران واشتهر في حرب العجم ولما تولى
مرقوريلس كان يحقد عليه في أول أمره ثم غمره بالانعام وجعله من أعضاء
مجلس رومة ثم أعطاه فرقة عسكرية جعله رئيسا عليها وهذا أقوى دليل على
فضل برطيناش لأن مرقوريلس كان صيرف رجالا ونشلا أبنال فلما صار
برطيناش رئيس الفرقة العسكرية وقائدا مستقلا هابه أعداء الرومانيين كال
الاهابة وطارصيته في الاقاف ونظروا أنه يحسن السيادة الملكية والعسكرية
فهذا استحق أن يجعله مرقوريلس حاكما كبيرا بوصف القنصلية الرومانية
حيث استبان صداقه للقيصر المذكور ولما تولى المملكة استبان منه الحلم
والعصب للناس والميل للعدل والانصاف وانما أراد أن يصنع في الدولة
الرومانية محسنات ادارية بدعية فأظهر بعد السماح المحاسة وقصد
الاقتصاد في الاموال وتثبت بتأسيس تدبير المصارف على أقوى أساس بما
تقتضيه السياسة واليكاسة فعمما قريب غضب عليه أمراء الرومانيين
وأصبحوا على قتله مصممين حيث منعهم من الحرية في الصرف والاتفاق
ولم يجدوا لهم في سوق قيصرته تنافا فاجتمع من الاحزاب المختالين ثلاثمائة
تحت رياسة أمير يسمى لوطوس واصطفوا صفوا منتظمة وأحاطوا بقصره
من جميع المسالك حتى أيس من الحياة وأيقن أنه لاشد هالك فقبضوا عليه
وذبحوه ومن نصب المنصب القيصري أراحوه فلم يظهر منه ما يؤذن بانقراض
أو التقيج ولا بالتعديل أو التجريح ولم تكن مدة ولايته الا ثلاثة شهور وكان
يرجى بزه للرومانيين لولا صروف الدهور وتولى بعده ديدوس بوليانوس في عين
هذه السنة باشرته المملكة على صورة غير مستحسنة وكان خطه كخط سلفه كما

(الفصل المكمل للعشرين)

* (في الملك ديد يوس يوليوس قيصر)

تولى هذا الملك الامبراطورية سنة ٤٢٩ وحكم شهرين للخلاسرير
الامبراطورية الرومانية عن قيصر وعن ولي عهد استبدأ امره رومنة
وقوادجنودها وكانوا اذذاك ارباب النفوذ وأولوا الحل والعقد بتولية
قيصر عليهم على موجب اصول جديدة وان كانت غير مجيدة ولا سعيدة
حيث لم يكن عندهم روابط مشروطة ولا قوانين مضبوطة عند خلو
السري من القيصر بطأ اليها ويعقد عليها فاستصوبوا أن يضعوا المنصب
القيصري في المزاد وأن يلتزم به من يشتره بأعلى ثمن فيكون نوعا من
المقاطعات الالتزامية يستقيده من يكثر الثمن ويلا خزينة المالية فلما استقر
الرأي على ذلك صعد على أسوار الرباطات العسكرية في المشارع والمسالك
عدة أشخاص وصاحوا على العامة بالنداء بصيحة جمهورية وأذن مؤذنونهم
قائلين ان المملكة الرومانية في المزاد لمن يسوم فمن تغالى في الاموال صار
قيصرا على جميع بلاد الروم فحضر اثنان من السوام في محفل المزادة العام
أحدهما سولبيقيانوس صهر القيصر الهالك والثاني ديد يوس يوليوس
وهو خير من ذلك لانه كان عارفا بحسن القوانين والاحكام وكان الاول
بالنسبة اليه منظوما في سلك العوام فسام الاول المنصب القيصري بخمسة
آلاف من الدراهم على كل رأس رومانية وجعل العملة في ذلك على القرز
والعدية وأبلغه الثاني على كل رأس ستة آلاف ومائتين وخمسين بالنظر
لعدي رؤس الرومانيين وكلاهما معتمدا على التعديل والميزانية وتحصيل
هذه المقادير من الرومانية وغير الرومانية فاستقر البيع للثاني فبايعوه على
القيصرية بالترام هذا الثمن حيث وعدهم بالوفاء بدون مطل ولا وافي فأخذ
عنوان الامبراطور والقيصر ونال بالملك الخط الاوفر وصدق على ولايته
مجلس أعيان رومة وسلمه زمام الحكومة ومع أن مجلس رومة كان له مزيد
الفخار والاعتبار ولا يحتما ما في هذه البدعة الذميمة من السبة والعار الآن

شوكة قواد الجنود كانت اذذاك قوية فلم يكن للمجلس أدنى معارضة ولا
تصح منه في تلك الحالة الراهنة مناقشة ولا مناقضة لاسبابها ولم يكن
للرومان قوانين أكيدة صريحة في وراثة المملكة على طريقة صحيحة فلو
كانت عندهم الوراثة القيصرية من الحقوق الشرعية والاصول المريعة
لساغ لمجلس رومة أن يصونها ويحامي عنها ويحفظها من التغيير والتبديل حتى
تكون بالرسوخ متوارثة بالتسلسل لا تزول عن منصفها في كل جيل والظاهر
أنها لو كانت على هذا المتوال لبقيت الى هذا الوقت الحال فانظر الى الدول
المتجدة فانهم لم يزلوا على مدى العصور باقية في بيوت الملوك مخلدة
ومن المعلوم أن الذي حل محل الدولة القارسية والرومانية في العصر الاخيرة
انما هو الدولة العثمانية فقد خضعت لهم صناديد الاكسرة وأعناق القياصرة
وعظماء الجبابرة وتلك مزينة ظاهرة ومرتبعة فآخرة وقد وقعت مهاجمة سلاطينهم
في قلوب الخلق وجملة خواقيهم في صدور الناس خصوصاً كرههم
وأجنادهم فلا يجسر أحد يسطو عليهم ولأن يتطربعين الازدراء اليهم بل
هم على عمر الاعصار معظمون وعلى والى الدهور مهايون مع اتساع مملكتهم
العظيمة وأقاليمهم الجسيمة واستيلائهم على غالب الاقطار وأعظم البلدان
والامصار ولا ريب ان أعظم البلاد المعمورة وأشرف الاقاليم المنصورة
اقليم الشام والعراق والحجاز واليمن ومصر والمغرب وقد استولت هذه الدولة
العثمانية على جميع هذه الاقاليم السنية فلا يعلم من المنول من ملك
كلهم ولا من اندرج في مثل نظمهم وسلكهم وما ذاك الا أن مملكتهم موروثه
بحسب قوانين منتظمة ومن الغريب انه قد ولي السلطنة منهم خمسة عشر
سلطاناً كل واحد منهم ابن السلطان الذي قبله على نسق واحد ولا يعلم في
الجاهلية ولا في الاسلام ملوك بهذه المثابة وهو أمر عجيب لم يقع لغيرهم
مثله ولا ما يقاربه الا ما وقع لخلق مصر الفاطميين كما سيأتى في محله ان شاء
الله تعالى وهذا من حسن تنظيم الوراثة التي بها قوام الملك وعليها مداره
وأما الرومانون فكانوا محرومين من ذلك فلما تولى ديدوس يوليانيوس المنصب
بتلك المثابة الغريبة عقدوا له موكباً وساروا به الى القصر الملوكي ولكن في
أثناء الطريق أصابه ما أصابه فان جميع الاهالي شنوا عليه الغارة وصاروا

بسببونه ويرجونه بالسب واللعن مما هو أقوى من الرحم بالحجارة ولا فرق في ذلك بين الوجوه والزعاع فأنظر كيف يكون حال الراعي مع الرعية إذا ظهر منهم العصيان والامتناع فإنه يخشى عليه الضياع وفي الواقع لم يلبث هذا الامبراطور في منصب القيصرية طويلا وقد ذاق في مدة حكمه التي هي عبارة عن شهرين عذابا وبولا فقد زعن على هامته الزينة بالتاج غراب البين ولم ينبج بالتزام نصاب العين من مصاب العين فاجتمع العساكر المحافظون من سائر الحدود والثغور وانقضوا على أمره رومة وقوادها ولا انقضاء البازات والصقور وباع جنود كل إقليم قيصرا اختاروه من القواد وكادت أن تنزق السلطنة الرومانية الى عتة قياصر قياصر في كل واد فعساكر الشام مثلا اختارت قائداه قيصرا على الجميع وجنودا بريطانيا بايعوا الاميرهم كذلك وجنود سواحل ايطاليا اختاروا أميرهم سبطيمس سويرس قيصرا على سائر الرومان وهو الذي هتت قيصريته وعتت جميع البلدان فهذا القيصر هو الذي ساعدته على اقباله المقادير لانه قريب من رومة ومشهور بحسن التدبير فسار سويرس قيصر صوب رومة وكان وديوس يوليوس قيصر لم يرل فيها مجتمع بالنصب القيصري ويتولى أمر الحكومة فاتهمه المجلس الروماني بأنه خائن الاوطان وأن ولايته مجزأة طغيان وعدوان وحكمه يقتله بصورة قرار فقتلوه وأسكنوه دار البوار فكان موته في أثناء السنة ولم يحكم الا شهرين فكانه كان في غفوة من النوم أوسنة وصفا الوقت لسبطيمس سويرس قيصر فتباعه للقبض على زمام الحكومة وما قصر

(الفصل الحادي والعشرون)

* (في الملك سبطيمس سويرس قيصر) *

تولى هذا القيصر الامبراطورية سنة ٤٢٩ قبل الهجرة وبني حكمه الى نحو سنة ٤١١ فكانت مدة حكمه ثمان عشرة سنة وكان هذا القيصر من بلاد المغرب من مدينة لبودة احدى مدن افريقية وكان قد تزق حبر ووجه شامية اشهر بها فلهذا قيل انه أول سلسلة القياصرة الشامية وكان طاعنة

من طوائف قياصرة الروم الجبارين وكان في حال صباه بهوى اللعب بما كادت
 سركت القضاة والحكام وقلدهم في ألعابه وهزلاته فكان يجمع أئداده
 من الصبيان وأقرانه من الغلمان ويجعل نفسه رئيسا عليهم ويوزع عليهم
 مصالح المحكمة ووظائفها ويجعلهم على صورة مجلس قضائي ويصعد على
 منبر القضاء ويصفهم حوله ويشذا كرمهم في قضية يحقرها ومشاجرة
 يندعها ثم يقول حكمت بذلك فكانه من وقت شبوبته كان مستعدا للقضية
 والاحكام فلما تولى القصرية وكان خارج رومة بإدبار الذهاب الى رومة مع
 جيش جزار يبلغ مئتين ألف مقاتل فلما أشرف على المدينة ارتعب منه المجلس
 الروماني وأرسلوا اليه من أعضائه رسلا لينذروه على منصب القصرية فلما
 وصل اليه الرسل وهم منهم وخشى أن يصكروا جازوا المكيدة وارتاب فيهم
 بسبب اعتصامه للملك من باب كذا المريب أن يقول خذوني فأمر بتقيشهم
 فلم يجد شيئا مما اتهمهم به فأمر بتلهم بين يديه ولاجل تطيب خاطرهم
 ونسيان ما حصل لهم من التقصير أجرل انعامهم وبالغ في اكرامهم فقبلوا
 انعامه واكرامه ولم يقدروا على رده خوفا منه على أنفسهم فأول ما وصل الى
 رومة لم يسأل في الدخول على المجلس بعساكره ثم وعد أرباب المجلس أنه يحكم
 الدولة الرومانية بالعدل والانصاف فأظهر المجلس الروماني أنه صدق وعده
 بذلك مع علم المجلس المذكور أن الملك المقتصب للقصرية لا يوثق بمواعيده
 العرقية وقل أن يحكم رعيته بالاحكام العدلية ثم أحسبوه بؤك وبدخل
 القصر الموكي بالرفعة والشأن ثم تولى الاحكام بنفسه فكان أول حكم أصدره
 من ديوانه هو ابطال الخفراء المحافظين القاتلين ابريطناش سلقه ووضعوا
 المملكة الرومية في المزاد كاسلف وعاقب رؤساء القسنة جزاء لهم على
 أفعالهم الشنيعة ثم اشتغل بتنظيم المملكة وحسن ترتيبها فنجح وأثبت وغير
 وبدل ولاجل أن يأمن على نفسه طردا المحافظين الذين عزلهم من رومة وأهدر
 دم من يعود اليها منهم وحدث خمسين ألف عسكري للمحافظة واهتم بترتيب
 أصول الضبط والربط في العسكرية على الطريقة الحسنة التي كان يجرى بها
 في المملكة الغلبة حين كان رئيسا على الجيوش الرومانية المحافظين فيها ثم
 في أثناء ذلك اقتضت المصلحة سفره خارج ايطاليا وذلك لأن الحال اقتضى أن

يحارب القائد المتطمين للقيصرية الرومانية المختارين في الجهات الخارجية أحدهما بسقيوس نيجر قائد عساكر الشام ومصر والبلاد الشرقية وثانيهما قلوديوس أليينوس قائد عساكر بريطانيا فلاحظ أن يتفرغ لقتال بسقيوس نيجر أشركه في القيصرية قلوديوس أليينوس ليأمن على مملكته فكل من القائدين في الحقيقة عدو مبعين الآن الأول أضرت من الثاني على القيصر فقد كان ظلو ما غشوما وكان جده وكيل على الديوان القيصري برومة وكان قدرتي هو في مدة حكومة مرقوريلس في العسكرية فكان الجندي بالقونه مع شدة وحدته وعدم تطفه بهم وكانت مصر متخربة معه ومعروفة له بأنه ملكها وملك المشرق حتى أن ديوان الاسكندرية كتب على باب المدينة نيجر سيد هذه المدينة وصاحبها فصار لقائه بسطيوس سويس سيرا حثيثا ليأخذه غيلة فلما قدم سويس على مصر تمثل بين يديه أهل الاسكندرية وأزدهم على بابه عامة الناس ورعا عنهم وأطهروا الفرح بأقباله عليهم وصاحوا قائلين نيجر سيد هذه المدينة وأنت سيد نيجر وقصدوا بذلك اصلاح ما رسموه على باب المدينة ومدادوا جراح ما فعلوه من اعتراهم بملوكية نيجر حيث لم يمكنهم انكاره فأقام هذا القيصر نابعا على مصر من أحد أرباب مجلس رومة وأقام على الاسكندرية من أعضاء مجلس رومة أيضا وخالف في ذلك قانون أغسطس قيصر حيث لا يذب أرباب المجلس في الولايات وكان نيجر لما أحس بسويس سويس اليها تهاربا فصار سويس يقتني أثره ويجمع عليه في المدن المباعدة له وهو يمتنع عن نفسه وعن بلاده ويصادم خصمه حتى أظهر ما لا مزيد عليه من الشجاعة والمهارة في جميع المصادمات والمطاردات برية وبحرية ولكن لم تساعده المقادير في النصر على سويس قيصر حيث حدثت تلاقيح شديدة ورياح عواصف عنيفة تسبب عنها انهزامه عند رأس البحر فأخذ في القرار إلى بلاد العجم فضبط في أثناء طريقه وقتل وكان ذلك في سنة ٤١٧ قبل الهجرة وصف السويرس قيصر ملك الجهات الشرقية

فلم يبق لهذا القيصر الا خصم واحد بالجهات الغربية وهو قلوديوس أليينوس الذي كان أشركه في القيصرية وكان مجلس رومة يميل باطنا إلى تقليد قلوديوس بالامبراطورية وإلى نصرته على بسطيوس سويس مع كون جنوده مشهورة

بالقوة والشجاعة وكونه معدودا من فحول الرجال وكان قد لقب نفسه
 أغسطس فسار اليه سويسر فلما اتلاقي الجمعان بقرب مدينة ليون بقرا نسا
 ونصادا مضمة عظيمة كانت الهزيمة على جند الينوس فانكسر هو وجنوده
 فقتل نفسه خوفا من أن يقع بين يدي عدوه فقطع سويسر رأسه وبعث بها
 الى المجلس الروماني بخطاب لاربابه يلومهم على ميلهم وتعصبهم سر هذا
 الخارج ويخبرهم غضبه عليهم ويغظه منهم ثم عاد هذا القيصر الى رومة فقتل
 وقتل وأجرى فيها الدماء كالسيول والانهار وبقى منها من تبقى من أكابرها
 واعيانها وضرب أعناق مشاهير رومة وصناديد هاوما مشاهير مدن المملكة
 وصناديدهم ولم يبق على أعضاء مجلس رومة بل انتقم منهم كل الانتقام فقد وعد
 بما وعد من الإصلاح فأخلف وأتلف وهكذا عاد الجبارين الذين لا دين
 عندهم ولا يقين فانهم يظهرون في مبادئ أمرهم خلاف ما يظنون
 لاحساسهم بضعفهم فاذا تمككوا أعلنوا ما كن في الخواطر وتظاهروا
 بمسترات الضمائر وقد تفرغ بعد تصميم المملكة للحرب ايلة الهجوم والانكيز
 وضبطهما وادخالهما تحت الانقياد والطاعة لمحارب الجهات الشرقية حتى
 حاصروا مدينة بوزنطيا التي هي الآن قسطنطينية وجعل على حصارها قواده
 ليقتصوها فداقت عن نفسها نحو ثلاث سنوات فتي أنشأ غزوه في الشرق
 والغرب استولت جنوده على القسطنطينية ونهبوا هذه المدينة المتربة
 ودمروها كل مدتر فبعد أن غلب الهجوم والبلاد الشرقية بلغه أن الانكليز
 غالبون لحنده فقدم عليهم من حيث لا يشعرون وغزاهم غزوتين خسرفهما
 خسين ألف مقاتل وكان قد أشرك ولديه في القيصر يثمه وأكبرهما يسمى
 بيسافوس حضر وقعة الانكليز واخزاهم جنودا يه فوقعت القصة في المعسكر
 بين الجنود وحصل الفشل بين الرضا فقام بيسافوس بن سويسر على أبيه
 وسل عليه السيف يريد قتله فلم يتمكن من ذلك ومن لم يمت بالسيف مات بغيره
 فخنق أبوهم جسارة ولده فمات بغيظه ولكنه

وفي مدة حكمه كان أصدا أمر يقتل النصارى في ممالكه فوقعت عليهم
 مذبحة عظيمة وكانت هي الشدة الحامسة وقد ابتدأت أولا في مملكة مصر
 ثم سرت منها الى البلاد الغلية والى افرقية فقتل في تلك البلاد من النصارى

مالا يحصى عددا الاسما في مدينة ليون بفرانسا وفي قرطاجه بالمغرب قلا
هك هذا القيصر سنة ٤١١ قبل الهجرة ظن الالهائي انهم اكتفوا
شره وان ابنه بسيانوس اذا تولى بعده يرجون خيره فاختلعت الحية حورية
صارت اقوى وصارت بالدغ والسع الى جميع الناس بالاذى تسمى

(الفصل الثاني والعشرون)

(في الملك بسيانوس قراقلة قيصر)

تولى هذا القيصر الامبراطورية سنة ٤١١ قبل الهجرة وبقي حكمه الى
سنة ٤٠٥ فكانت مدة حكمه ست سنين وبيان ذلك ان سبطيمس سويس
قيصر مات عن ولدين أحدهما يسمى بسيانوس قراقلة والثاني يسمى
سبطيمسوس جيطا وكان أبوهما قد عهد لهم بالامبراطورية في حال حياته
قبوع لهما معا بها فاشتركا فيها بعده وكان يتوهم في بسيانوس قراقلة الشفقة
والرفق بالعباد والبلاد فانه كان يعهده في حال صباه أيام والده انه لا يقاتل
دمع عينيه متى عاقب أبوه أحد من الناس بقذفه الحيوانات المقترسة لتفترسه
فكان الولد يستبشع وقوع ذلك الامر في ديوان أبيه على رؤس الاشهاد
فكان الناس يؤتمنون فيه الخير فيجبرون لبيته قيصر استحال هذه الشفقة
والرافقة الى جبروت وقساوة وظهر الخبا وألبس هذا الملك ردا سريره الرديّة
وقد هم أن يقتل أخاه بالسّم فاحتمل على ذلك بكل الحيل فلم يتمكن من قتله
مسموما فاعرى عليه أعوانه فقتلوه بين ذراعي أمه فأظهر بسيانوس قراقلة أنه
لم يعلم ذلك ويحسن السبيل قديتي الزغل فهرب من سرايته وأظهر انه
يخاف من هؤلاء الاعوان وأنه أراد بذلك أن ينجو بنفسه من الخطر والفتنة
وأعلن جميع الناس أن قتل أخيه كان على غير مرامه وذهب بنفسه الى
معسكر الخمر والمخمطين وأعلمهم بقتل أخيه فأكرّ الجنود عليه ذلك
وأظهروا الاسف والحزن على الطفل الهالك فوعدهم بالانعام الجزيل وأفجز
لهم ما وعدهم به وكان لم يزل حرب أخيه حاقدا عليه مثيرا للفتنة فأشار عليه
المحافظون الذين أجزل لهم العطاء أن يصنع لأخيه تمثالا ويطلبه في سلك
الاصنام المعبودة على عادة ملوك الرومانيين ليضع الفتنة بذلك ويقنع حرب

أخيه بما هنالك فأجاب بأنه لا مانع من صنع التمثال لتقليد ذكر أخيه حيث
 فارق الدنيا وانتقل من دقتر الاحياء على أسوار حال ثم القى هذا القيصر من
 وزير آييه المدعو باسم بابنياس أن ينشئ له مقالة رسمية لتبلي على الالهات في
 المحافل العمومية اعتذارا عما جرى لأخيه من البلية فأجابه بابنياس
 بقوله كان ترك القتل أسهل من الاعتذار عنه فغضب من قوله وجزاه
 على قلته لسانه بقتله ولا غرابة في ذلك وأمناه فقد قيل

لا تطرنك خلعة ألبسها * ما خلع قلبك عندها يعيد

والبدن ليس بمنكر تريتها * للتعوليلة جعة أو عيد

فقد جرت عادة الملوك أن يستعظموا ولوفى اثواب ودا الجواب ويستقلوا في
 العقاب ضرب الرقاب فذلك قيل كن من الملوك مكانك من الشمس انها
 لتؤذيك والسماء لها مدار والارض دار فكيف لو نزلت قليلا وكأضروا
 الشمس للملوك مثلا كذلك جعلوا البحر منهم بدلا فقالوا جاور ملكا أو جعرا
 وأحرى براكب البحر أن لا يسلم وقبل مثل صاحب السلطان كراكب الاسد
 بهابه الناس وهو لمركبه أهيب

ومن خدم السلطان أكرم نفسه * ولكنه عما قليل أهانها

ومن عبد التيران لم تنفع بها * ولم يلق الا حرها ودخانها

فلما ان خلاص هذا القيصر من وزير آييه بصره تصدى لاتباع هوى نفسه
 الامارة في حاله وأمره فتأتمروا تكبر وتأسد وتغر وتشت بالاعتبال بالظفر
 والساب وأكثر من سفك الدماء وضرب الرقاب وقتل بالكبر والاعيان
 ووجوه الناس ولكل زمان هجاء ثقي يشبه المرء والمراس فكان عدد
 ما قتلهم من الاعيان والكبار ينصف عن عشرين ألف نفس مختلفين في
 الدرجات والاعمار ثم توسوس وتخوف وتهوس وتحترق وتنكر وتعرف
 وحكت في نفسه الخبيثة آثامه وخطايا ولازمه الوهم القاسد وما تخطأ
 فكان يخيل له دائما الانزعاج بأصغاث الاحلام حتى يرى أقباؤه وأخاه
 يريدان قتله في المنام فلم يستقم له بعد ذلك حال ولا تنم له بال ولا اعتدل
 مزاجه أدنى اعتدال ولا حسنت منه أقول ولا أفعال وانتزعت من قلبه
 الشفقة على العباد والرافة وتمكن منه الطيش والخفة فكان يسلي نفسه

بمحضور الولائم والالعب والعب بالمبادين العاتية حتى صار عبدة لاولى
الالباب يلعب مع اللاعبين ويرتكب ما يحل بملوس الملوك ومرأة
السلطين ويلبس في الميدان ملابس العربية وفي عنقه باقة زرقاء
كالنار مخصوصة بذلك الكار وفي يده كراباج العربية كأنه سيجال افتخار
واذا أقبل في ميدان البرجاس سلم على رئيس الالعب تسليم اقتناس
وأظهر بالتمنى لطفه وظرفه وحياء قصبة أفتار الحرفة ودخل في ميدان
السباق مع الاخوان وسابقهم مسابقة الاقران واذا اتصرو عليهم التمس
قصب السبق ليمتاز وطفن ان من حاز هذه الجائزة بالنصرة وزجر عن الهزيمة
فقد فاز وهي عبارة عن قلزمن الذهب يقيز بها من غلب

وقد كان هذا القيصير كثير الغش والزغل والتدليس فكان غشه مستوعبا
لجميع أحواله وأطواره حتى كانت نفوده القيصرية المضروبة بانه من
دراهم وذناير مغشوشة حتى قال بعض أهل عصره كان القيصير يعطينا
النقود المتخذة من الرصاص مطلاة بالفضة على أنها فضة خالصة والنقود
المتخذة من النحاس المطلاة بالذهب على أنها ذهب خالص وكان يحسب النقود
من الذهب الخالص والفضة الخالصة ويكثرها عنده ولا يخرج منها شيأ
الاما كان يدفع للقبائل الاجنبية المتبررة في نظيره عقد الصلح معهم حتى
يتجنبوا حربه أو يساعده على الرومانيين وكانت دائما أفعاله سخيفة فقد تولى
على حين غفلة تقليد الاسكندر الاكبر المقدواني والتشبه به في جميع شؤنه
وأحواله ولو أن التشبه بالرجال فلاح كما يقال لكن لم يكن لهذا القيصير
في ذلك صلاح ولا صلاح لانه لم يكن معدودا من الابطال فكان يقاده في
أحواله وأطواره ويتزاي به في الملبس والمطعم وكان يتكلف التخلق باخلاقه
في جميع ما يمكن له عنه بدون مصادفة محل وشان بين التسكسل والكسل فقد
كان القيصير من الجنود المحافظين فهو ستة آلاف مقاتل كلهم مقدوانية
تقليد العساكر الاسكندر وقد علق أيضا تمثال الاسكندر على جميع المبادين
العاتية والهياكل والمعابد وسمى نفسه الاسكندر لتكون هذه التماثيل
رموزا له معنوية بعنوانه ومنطقه عليه ليتحد الاسم والمسمى وكان يعتقد أن
اطلاق هذا الاسم الجليل عليه يكفيه في المجد والتبجيل وانتهاء الغرابة

وان اتحاد ذاته بذات ذلك الجنب المهاب تدفع عنه اللوم والعقاب
وقد قصد أن يستوفي أصناف هذه التقليدات الهزلية والتضليلات المجازية
ويجعلها منطبقه عليه بالكلمة والجويزة وان تكون موجبة لاسلبية فشرع
بحسب اقتضاء الحال أن يقع الفتوحات على منوال الاسكندر الاكبر
فأخذ في الغزوات حتى جعلته أضحوكة عند جميع العالم حيث أجزاها على
أسلوب غير معهود ونحزها على وجه ليس بمحمود فتصدى الى غزوة حرية
في بلاد فرانس المسماة اذذاك بالغلية أهل فيها الحرث والنسل وأقنى
فيها الجنود حيث ارتفع وحل وجال في البراري والقفار حتى نزل على
بلاد جرمانيا كسيل العرم ولم يستطع أن يغلب اهل صار فيها بحالة المهزوم لأن
أهل جرمانيا تأهبوا لمصادمته فعبروا نهر الراين ليزموا مشر هزيمة ويحاصروه
من منصب الامبراطورية القسمية ولولاه أن أرسلاهم بالدرهم الوافرة
لكسروه وقطعوا دابرهم لكنهم لما حصلوا منه على مراهم الدرهم عادوا الى
بلادهم بما كسبوه من المغنم بوصف مسلم ثم دخل في بلاد البحار والافلاق
والبغدان وبلاد الارذل المجاورة لبلاد الجرمان فوجد هذه الممالك في قبضة
القوطية وكانوا أصحاب بطش وشوكة قوية فكانوا قد أشرفوا أن يصادموه
ويخرجوه من الحدود فلم ينج من حربهم الا كونه أدخل تحت طاعته
ملكيتين صغيرتين لا يقيان بما أهلكنه من الجيود ومع هذا كله فكان
انقيادهم له بالمكر والحيلة لا بالوقعات الجليلة وكذلك نشبت بدميراقليم
فارس فاطفر ولا ظهر بل اصطحب به ان انهم واز ما فعله الاسكندر
الاكبر وقد وثب أيضا الى البيار المصرية وأدق دارا عظيما من أهالي
الاسكندرية وسبب ذلك ما بلغه من أن أهل الاسكندرية يحضرون في
عرضه وينتونه غاية المذمة ولا يرفعون له الا ولادته فحضر اليها قصدا وأوقع
بأهلها واقعة عظيمة وأغرى عليهم جنوده حال قدومه فذبجوا أكثر أهلها
في مذبحه عظيمة مكثت يوما وليله فكانت عليهم مشؤمه وانتهى حاله
في غزواته بالعجز عن القتال وعدم منعة ما صنعته مع العجم من الحرب
والنزاع حيث عاد العجم للانتقام منه فلما رأى جنده أن يقصرهم صار
أضحوكة لاهل الممالك ومهان في جميع الطرق والممالك وأن هذا يخل

بناموسهم ويوزى برفع بأسهم ويضفى الي بوسهم صموا على قتله في أبناء الطريق فاراحوا بسفك دمه الرقيق والفریق وكان قتله في سنة ٤٠٥ قبل الهجرة فكانت مدة حكمه ست سنوات ليس فيها للدولة الرومانية غير المذلة والمعزة

وفي جميع غزواه كان يلبس على رأسه مفقرا على زى بلاد فرانس من الصنف المسعى قراقله فكانه يقول

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا * متى أضع العمامة تعرفوني

فاشهر هذا الاسم في كتب التاريخ ووفى الامبراطورية بعده مقرينوس رئيس القصر القيصري

وقد كان بسبب انوس قراقله حين اشتراكه مع أخيه جيطار رسم العلامات الملوكية والطغرى القيصرية في جميع البلاد الغربية والشرقية باسمه واسم أخيه معا ومن جعلها ما كان قد رسم على المباني والهياكل فلأمانت أخوه قتيلا أمر بمحو اسمه في سائر الجهات فانمحي اسم أخيه من جميع الرسومات ولا فرق بين المباني وغيرها ولم يبق لأخيه عين ولا أثر وانما بقي في مصر دون غيرها من البلاد آثار محو على بعض الاحجار لكن يمكن قراءة الاسم لمن أمعن الانتظار ومما ينبغي التنبيه عليه ان هذا القيصر هو آخر قيصرين القياصرة بقيت آثاره على مباني الديار المصرية ولم يكن أقيصر بعده من اسمه رسوم أثرية

(الفصل الثالث والعشرون)

• (في الملك أو بليوس مقرينوس قيصر) •

وفى هذا القيصر الامبراطورية سنة ٤٠٥ قبل الهجرة وبقى الى سنة ٤٠٤ فكانت مدة حكمه سنة واحدة وقبل توليته المنصب الملوكي كان كما قيل رئيس القصر القيصري كما سبق ويقال انه هو الذي أغرى الجنود سرا على قتل قراقله وأنه جعل للجنود في نظره ذلك جلا جسيما وأن سبب ذلك كون بعض الكهنة من أهل العرافة أخبر هذا الرئيس أن سيصير ذات يوم امبراطورا رومانياين وقيصرا عليهم فبعد قتل قيصره أعلنت له الجنود في

المعسكر بالامبراطورية وكان مولده في مدينة الجزائر بالغرب وكانت تسمى
 قبصره وكان هذا القيصر منقوب الاذن فسمى مقرنوس وبسعى ايضا مقرين
 ومعنى مقرين بلسان بربر المغاربة منقوب الاذن وكان مسعود الطالع ميمون
 الطلعة فارثي المناصب العالية في اقرب وقت ومع أنه كان من عشيرة
 خاملة الذكر كان صاحب علوم ومعارف متنوعة فتارة يتوكل بوظيفة
 خطيب مصقع في المجالس وتارة بوظيفة عدل في المحاكم وطورا بوظيفة قاض
 رئيس محكمة فلما كان منظوما في سلك القضاة والحكام وله اليد الطولى في
 معرفة القوانين والاحكام رفعه قراقله قيصرا الى منصب امارة الجنود ورئاسة
 الجيوش واستخدمه بجميته ثم رفاه الى أعلى المناصب الرومانية وجعله أميرا
 لمحافظة القيصرية وكان هذا المنصب يعادل منصب الاتابك عند السلاطين
 في العصر الحديث فانتهى به الحال ان خان ومان وتطبع بطبيعة ذلك
 الزمان بل وكل زمان وغد بولي نعمته لحيازة رتبة وهذا هو الغاية القصوى
 في كفران النعم المذموم شرعا وعقلا عند سائر الملل والامم وجور صاحب
 المملكة لا يسوغ قذفه سيدا مدقاه في المهلكة وأحسن ما قيل في ذم
 عمل السلطان وخدتمته ما كتبه أبو الفضل الهمداني الى بعضهم من
 الحكماء أدام الله عز الشيخ عن محبة الملوكة فقالوا اذا خدمتهم ملكوك واذا
 لم تحبهم أذلوك وانهم يستعظمون في الثواب رذالجواب ويستقلون في
 العقاب ضرب الرقاب وانهم ليراوحون بحمد الخدمة ويعادون بطيف
 التحفة فلا يقيمون لها وزنا ولا يعرفون لها قدرا وقالوا كن من الملوكة مكانك
 من الشمس انما التؤذيك والسحاب لها مدار والارض دار فكيف لو نزلت
 قديلا وان العاقل يطلب منها مزيد بعد فيتحذ في الارض سريبا لو اذامنها
 وهربا ويتقي في الارض نفقا فرار امنها وفرقا وكما ضربوا الشمس للملوكة
 مثلا كذلك جعلوا البحر منهم بدلا فقالوا اجاور ملكا أو يجرا وأخرى
 برا كب البحر ان لا يسلم كراكب الاسديم اياه الناس وهو لمركبه أهيب وقد
 سبق ذكر بعض ذلك في الفصل الثاني والعشرين وتكرر هنا والمكرر أحلى
 وانما اذا كان التكرار لفائدة فلا بأس به وهنا انضم الى ذلك فائدة زائدة
 والشئ بالشئ يذكر ويحسن ذكره مع غيره ولو تكرر فسردهنا ما ذكره

أبو النصر العتيبي في وصف السلطان وذم خدمته قال السلطان بمنزلة السيف
القاضب والنبل الزاعب والنار ذات اللهب والنخل ذات الشوك والرطب
ان قرشته خذ الطاعة سلت من حذيه وقطعته سالما من طرفيه وتمتعت
بجدوى صلاته وضيائه ونعمت بين أقبائه وأجنائه وان صحبت ذيل
الرداء لغدوت على قضا مذبذب ودفاع غلوب ونار يلمح وهبها ولفظها
ومثال تدمي الاصابع يشبها وما في لذة الانتفاع بهم وفاء بما جل الخفاة
وأجل الآفة مع ما بينهما من نصب الابدان بامساء وتبكير وادلاج وتهجير
وقعب النفوس بتعديل الاطراف وتقويم الاعطاف وتهذيب العبارة
وانباع آداب الامارة والمناسقة مع الخلق في الخدمة والشركاء في النعمة
ثم احتجاب الاوزار التي مصيرها الى النار وبش عبي الدار فمن نشط للذة
بمجدورها وغرة بزبورها فليشد للذل نطاقة وليبذل في الطاعة ما أطاقه
والا فليعبد سلطان السموات والارض ومالك البسط والقبض يرض منه
بدون هذه المناصب والمتاع وشطر هذه المخاوف والمراهب مع
ما استحق من كريم الرغائب وعظيم المشاوب ورفع الدرجات والمراتب
ثم عقباء جنة تتم فيها الابرار وتجري من تحتها الانهار خلود يجعل الوجه
منيرا والعيش نصيرا واذا رأيت ثم رأيت نعيمًا وملكا كبيرا انتهى فقد بين
في هذا أوصاف المنافع والمضار وأصناف العقوق والمبار وحذروا أئذ
وألف وقهر فنه يفهم أن من خالف المولى يندم وان استطاع أن يستغنى
عن الخدمة فلا يقدم وسواء في ذلك الحقير والظهير والوزير وغير الوزير
فما فعله مقرينوس هو محض جنابة وان حصلت له بتولية القيصرية
العناية وقد كان حزب من الجنود المحافظين انفرادا بالتوقف زمنا طويلا
عن مبايعته فلما تولى وشرع في أداء الوظيفة القيصرية اشتكى منه جميع
الناس وتمكنت منهم الوحشة وتجردوا عن حلية الايثار وكان يجرّد
توليته استمر على الحرب مع الفرس لان أردوان ملك الفرس الاردوانية كان
هجم على حدود الرومانيين فانهمز القيصر هزمتين متواليتين واضطر الى أن
يشترى صلح أردوان معه بثمانين مليونًا من دراهم الفضة العين فحق عليه
الحزب الذي نكص عن مبايعته ثم لما تكرّرت منه ارتكاب جنابة الفتور

والكل وانظار الجبن والعجز والممل استشاطوا عليه غيظا ثم محاورا ثبت في
القوانين الملكية والاصول المتداولة في العسكرية وتشبث بالتشديد في
انتخاب شبان العساكر المسجدة وأهمل تسريح العساكر المتعلمة التي
طالت عليها المدة فحده عليه الجنود وصمموا على انتهاز القرصه في الانتقام
منه فعمدوا قريبا لاحتلهم القرصه في ذلك وان يلقوه بأيديهم الى أشد
المهاالك

وذلك أنه كان قد نزل بقرب مدينة حص فرقة عسكرية وكان أهل هذه المدينة
صائبين يبعدون الشمس وكان لهم كهان لخدمة هيكلكم ومن هؤلاء الكهان
شماس عمره ثلاث عشرة سنة يسمى بسيانوس جميل الشكل حسن الوجه
وردي الخلد ودرشق القوام

متوردا الخدين من فجخل * متضاد الاعضاء من كل

ماراعى الاتدافعه * كالقنص بين الصدر والكفل

اذا لبس الملابس الفاخرة المعدة للكهنة المكللة بالؤلؤ والمرجان شخصت
اليه الابصار ومالت اليه القلوب فكانوا يشبهونه بالقرص المتبر ويصفون به
وقت تقرب القربان ولا احتقال الجنود بالامير ويرقصون حوله ويقفون
بالانتقام على صوت الاطمان ويتشون من خمر عفيه ولا تشوة مدامة الحان
ولا تمل أعينهم من التملى بذاته الجميلة وشمايله الجليلة قال بعضهم

يا لله يا صاحب الوجه الذي اجتمعت * فيه المحاسن فاستولى على المهج

خلقني خديما وان لم ترض بي صلفا * فادفع في العين عن ذا المنظر البهيج

وكان لهذا القلام جنة تسمى بولي موزة أخت يوايه دومنا زوجة سويرس
قراقله قبصر ومن المعلوم مكابد المجانز وان عندهم كل مفعول جائز فكادت
جنته تزعم أنه ابن قراقله قبصر تحبه العساكر وتقبل نفوسهم اليه وكان
مجهول الاب فكان يسمى في بعض الاحيان بسيانوس حليو غبالة يعني
الشمس لنورانيته وضيائه المعجب للعين والنفس

وهو مشهور في كتب التواريخ بضم هذا الاسم فلما عهدت جنته تمكن حبه
من قلوب الجنود وأن ميلهم اليه بقلوبهم وقالهم مشهود

وكنتم حتى أرسلت طرفك رائدا * لقلبك يوما أتعبتك المناظر

رأيت الذي لا كلة أنت قادر * عليه ولا عن بعضه أنت صابر
 لاسيما : * ان خبروا سنة ذات يوم من الايام وذهبت به الى المعسكر
 ليتولى منصب الميصر فبايعه الجنود ولقبوه أغسطس فصار بنقاسة
 الامبراطورية لنقاسة جاله ونسبته الى قيصر فقيس وهو سورس قراقله قيصر
 لولا نقاسته ونسبته لمن * يدعى نقيسالم يفر بنقيس
 فلما سمع بذلك مقرنوس جمع احرابه في اقرب مئة وجاء يقاتل خصمه بقرب
 انطا كما فكان الحرب بينهما جالا ولم يظهر الغالب من المفلوب وانتهى
 الحال أن جبن مقرنوس عن القتال وبغز عن التزال فهرب في الحال
 ولم يقف الا عند مدينة قاضي كوى في ايلة بروسه فاقتنى الجنود اثره
 وقتلوا حربه وقتلوا به وأسكنوه قبره وكان ذلك في سنة ٤٠٤ قبل
 الهجرة وبقيت الامبراطورية الرومانية في قبضة بسانوس هليوغباله فباء
 سلمه بصفقة الخسران وقد قيل كما بدى القتي يدان

(الفصل الرابع والعشرون)

* (في الملك بسانوس هليوغباله قيصر) *

تولى هذا القيصر الامبراطورية الرومانية سنة ٤٠٤ قبل الهجرة وتبقى
 الى سنة ٤٠٠ فخلت حكمه أربع سنوات وبجرت قصد يقى مجلس رومة
 على اتقائه وصفاه الوقت له قتل افا رب مقرنوس وأحرابه وكثيرا من
 الاعيان والامراء ولم تزل باقية معه رياسته هيكل الشمس كالخلافة فكان
 جامعا بين القيصرية والكهنوتية وقد صنع لولايته القيصرية مواسم
 وأعياد البتست مشهور وقد رتب أن يكون أكبر الاصنام في رومة
 ومصر صنم الشمس الذي نقله من المشرق وكان متمكنا لعبادته فكان لا يعلو
 عليه وزن من الاوثان وهو عبارة عن حجر أسود لاصورة به ولا شكل فأمر
 أن يبنى له في رومة هيكل عظيم فشيده وله معبدا رجعوا له سيد الاصنام
 وكبيرهم وجميع الاصنام المعبودة في رومة عبيده وخدمه ثم زوجه لصنمة
 الزهرة التي هي رئيسة أصنام افريقية ورتب لهم هرجا نا عظيما ومواسم
 وأعياد اسنوية وجعل مصرف ذلك على جميع الاهالي يتوزع عليهم وكان

هذا الصم في بلاد الشام التي كانت اذذاك كثيرة البدع والاولهام مخلفة
 بالاخلاق المذمومة والطباع الملوثة فنقله هذا القيصر الكهنوتي الى
 رومة ليستلطن في أقطارها المغربية وكان هذا القيصر حين دخوله رومة
 وسنه أربع عشرة سنة لابس حلة كهنوتية من الحرر المقصب وهو أول
 قيصر لبس الحرر في رومة وكان في يده أساور من ذهب وفي رقبته أطواق
 من الذهب أيضا وكان مزيج الحواجب مكحول العينين يتبارى العذارى
 تارة وبزى المردان أخرى وليس فيه من صفات الرجولية الرومانية أدنى
 شيء وكان يترقى قصره دائما أنواع الزهور والرياحين وينشر تحت رجليه
 الذهب والقضبة فكان في التكسر أشبه بالنساء ولم توجد أخلاقه الذميمة
 من حيث الهيئة الاجتماعية في أحد من القياصرة غيره فكان اذا أراد
 التسلية والتزاهة وترويح النفس والفكاهة ذهب في ذلك مذهبا عجيبا
 فكان يدعو الى مائدة غنائية أنهار من العود ومثلهم من العرج ومثلهم من
 الصم ويسخر بالاربعة والعشرين نفرا كمال السخرية حيث كل نصاب
 الحظ أربعة وعشرين قيراطا

وكان في بعض الاحيان في وقت انتظام الديوان واحتفال المجلس والنديمان
 يطلق على حين غفلة الاسود والنور حتى يصير ديوانه بهذه الوحوش كالشرى
 المعمور ومع ان هذه الوحوش الكاسرة مقلة الاطراف مخلوعة الاياد لكن
 القصد منها ايهام الحاضرين أنها شاكية السلاح بقصد الرفعة والاضطراب
 فكثيرا ما كان يزعج الحاضرين بمنظرها الهائل ولا يكتفي بازعاجهم
 بذلك بل يديه بل كان يزعج خواصه بهدايا واتحافات ملوثة من الهوام حتى
 اذا فرحوا بها وقصوها أربعتهم وأورثتهم المضار والآلام واذا اجتمع
 الاهالي في ميادين الالعاب العمومية للتفرج والتبسط أمر أعوانه باطلاق
 الثعابين في هذه الميادين لازعاج جميع المتفرجين فكان الناس في أول
 الامر يتكفون الصبر على حكومته القاسية وقد قلنا فيما سبق أنه ابن دعي
 منسوب الى سوريس قراقله نسبة ادعائية وأن ذلك القيصر كان زوج
 خالته وكان لخالته بنت لها ولد يسمى الاسكندر سوريس فالتبس منه
 الرومانيون أن يشركه معه في القيصرة فقرضى بذلك وأشركه معه ولكن

الاسكندر لم يطاوعه على أغراضه فدير لقتله تدبيراً عظيماً فان كشفت حقيقة الحال وأنبأت عن وبال المال واستقيم جميع الناس هذه التوبة فقام عليه الاهالي وهم وابقله فاخفى في مكان خفي من المعسكر فبحثوا عنه وأمسكوه وذبحوه وقذفوا جثته بعد تثقيبها بحجر في نهر رومة وذلك في سنة ٤٠٠ قبل الهجرة وولوا بعده الاسكندر سويرس الثاني ابن خالته

(الفصل الخامس والعشرون)

• (في الملك الاسكندر سويرس قيصر الثاني) •

تولى هذا القيصر الامبراطورية سنة ٤٠٠ قبل الهجرة وبقى الى سنة ٣٨٧ فكانت مدة حكمه نحو ثلاث عشرة سنة وكان تقليده بهامس طرف مجلس رومة لامن طرف الجند كاسلافه ولوفرض أن قيصر امن القياصرة يستطيع تدبيره وحده أن تدارك الدولة الرومانية وينعها من الانحطاط ويكسوها حلة العظم السابق لما كان الا هذا القيصر هو الذي يستطيع ذلك ويقدر عليه بحسن سياسته وبكال حزمه فقد كان نصراني الامة وكانت أمته تسمى مامه فكان يستشيرها في جميع أطواره وأحواله ويستنصمها في جميع مشروعاته وأفعاله ويعمل رأيها في جميع حركاته وسكانه فكان ملتزماً لها بكل الطاعة بقدر الاستطاعة فلهذا أبطل جميع الامور المخالفة الصادرة من سلفه فأعاد صنم الشمس الى حص وأخرج الاصنام الاجنبية من رومة ومنع اباحة التعبد بها في غير محالها الخاصة بها ولم يرض أن تتمسك رومة من الاديان الاجنبية عن الرومانيين بغير دين النصرانية يعني أن الرومانيين يباح لهم أن يتسكروا بدين جاهليتهم القديم ولا يباح لهم غيره من الاديان الا الدين العيسوي بأن يصيروا الدين العيسوي مقبولاً في هياكل الرومانيين ومعابدهم حتى لو قصدوا أن يدخلوا صورة سيدنا عيسى عليه السلام بين ما للرومانيين مما تامل الاصنام لأحد يمنعهم من ذلك فأصدر أمره بهذه الرخصة لممكن ختام عن ذلك كهنة الاوثان الرومانية وقالوا له اذا تم هذا الامر عاد على الاصنام الرومانية بالحق وتمكنت الملة العيسوية من الاهالي على الاطلاق وانقرضت عبادة الاوثان ولم يبق الا دين عيسى

الناسخ لهذه الاديان ثم رتب هذا القيصر التراتيب النافعة للإخلاق
 والعوائد وتظم ادارة المالية وسياسة الملكية على أحسن الاساسات
 والقواعد ومكن أصول ضبط والربط أحسن تمكن وذلك بنفسه في حركاته
 وسكاته أحسن السلوك متمسكا بالاحكام الثبينة والتوانين وسن مكارم
 الاخلاق الحسان فاقدى به رعاياه في سلوك طريق العدل والاحسان ولم
 يقبل في ديوانه أحدا من أرباب الضربة والمحكيين ولا أبواب الآلات
 من المغنين فأما مثل هؤلاء كالأغنياء من المطرودين ولم يجالس الأرباب
 الصداقة والنصائح وإذا أبطلوا عليه سلى نفسه يكاب من الكتب
 المتعلقة بالنساع والمصالح فكانت لفته أمام مطالعة الكتب النافعة أوفى
 الرياضة العسكرية واستطلاع حركات المهابة والممانعة وكان لأحد
 يتكلم في مجلسه بقى إعادة شئ من العوائد القديمة ولا أحداث شئ من البدع
 الذميمة وطالما كان يجمع الأهل في المحافل العامة ويعظهم بالخطابات
 والمقالات الرسمية التي تفسد القوائد السليمة وذلك كما كان يفعل عظماء
 الجمهورية الرومانية في أيام استظام دولتهم الأولى وكان يستشير مجلس
 رومة في كافة المصالح ويسترشدهم فيما يديهم من تجديد العمل الصالح
 وقد خفف عن الأهل العوائد والمكروس والحيات وكان يجي قلوب أهل
 الفنون والصنائع بالجوائز الجزيلة والمكافآت وذلك لتصد التشويق
 والترغيب وتغويم أودبلاد في زمن قريب وكان يتدارك بحسن
 ملاحظته وبكال تفتيشه ما عساه أن يقع من الخلل من قوابل الجهات
 والأقاليم وينتبههم من السرقة والاختلاس ويهديهم إلى الصراط
 المستقيم وكان مع ذلك كله كمال العناية بالجنود والعساكر لا يقتصر عن تحسين
 شؤونهم طريقة عين قيوالب على دفع جوامعهم وعلافتهم في أوقاتهم وكان
 يفتش بنفسه على المرضى في خيامهم ويسأل عن أسباب أمراضهم وآلامهم
 فإذا رأى أحدا منهم اشتد به المرض أمر بقله في المارستانات المدينة وأمر
 بدفع مصاريف العلاج من طرف الحكومة والأدوية وكان يقول يجب
 على الجندي كمال الطاعة بقدر الاستطاعة ويجب له أيضا من طرف الدولة أن
 يكون حسن اللباس جيد السلاح مستورا القصد متحصلا على قوته على

الوجه الاتم وأن يكون في جيبه جانب من الدراهم لحاجة نفسه فكان
 العساكر في أيامه مستحوزين على تلك المنافع ولكن إذا صدر من أحدهم
 أدنى جنحة شتد في الجزاء فكان كل من تجرد من علامات العسكرية أوحاد
 عن سنن التريسة الحربية أو ساق أو نهب أو اختلاس أو ارتكب عوقب
 بما يقتضيه جرمه وعذب بما يوجب به إثم من جلد أو قتل فكان جيل اجراء
 الاصول بمقادير الجنايات والعقوبات غير منقوض بل هو دائم موصول
 وفي أثناء هذه التنظيمات حدث في البلاد الشرقية انقلاب عظيم وذلك أن
 أمّة البرث التي هي أمّة قديمة تنسب إليها فارس وأهل القرس الأولى ذهبت
 دولتها ونزل عليها أردشير بن بابك رأس الدولة الساسانية ولفظ أردشير مركب
 من كلمتين فارسيتين أحدهما أرد بمعنى الغضب وثانيتهما شير اسم للأسد
 فسمي الملك بهذا المركب ومعناه قاتل الغلبة أسد الغضب وهو ابن ساسان
 الأصغر ابن بابك بن هرم بن ساسان الأكبر بن كئيه من المشهور وكان
 ساسان الأكبر قد تردهما أنخرجه أبوه من الملك وجعله داراب قبل ولادته
 فأردشير من بيت الملك لا من رعايا الناس كما قال بعضهم وأبو ساسان بن بابك
 وفي البخاري الشريف عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله
 عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي مأخذ القرون قبلها شبرا بشبر
 وذراعا بذراع فقال بعضهم يا رسول الله كفارس والروم قال ومن الناس
 الأولئك انتهى وكان أسلاف القرس يحجون البيت ويطوفونه ويعظمونه
 لأجل جدتهم ابراهيم عليه السلام لأنهم من ولد اسحق عليه السلام والعرب
 من ولد اسمعيل فالعرب والقرس يجمعهم سيدنا ابراهيم عليه السلام فلذلك
 قال بعضهم يغتفر على قحطان

أبونا أبو اسحق يجمع بيننا * أب كان مهديا وملكنا معمر
 وقد اقتصر بعض القرس على العرب من يعرب بن قحطان سنة ٢٠٠ من
 الهجرة

ألم تكن في القديم أمتكم * لا متناسرة الجمال أمه
 والملك فينا والاياء لنا * ان تنكروا ذلك توحدا وظله
 أمابنو يعرب فليس كن * قد أسكن الله أمتنا جرمه

ولا كائنا فارس وهو • في الارض مثل الاسود في أجه

وأهل قاتل هذا من عرب فارس بالشام وغيره الذين كان أصلهم فرسا واستعربوا
وقد قلنا أن أسلاف الفرس كانوا يحجون البيت ويطوفون به ويعظمونه
لأجل جدتهم ابراهيم عليه السلام وكان آخر من حج منهم ساسان بن بابك جد
أردشير أول الساسانيين وكانوا يزعمون عند بئر اسمعيل والزمزم قراءة
البحر حتى قيل انها سميت زمزم لذلك قال شاعرهم

وزمزمتم الفرس في زمزم • وذلك في عصرها الاقدم

وقال شاعرهم المستعرب

وما زنا نخرج البيت قدما • ونظي بالباطح آمينا •

وساسان بن بابك سارحتي • أفي البيت العتيق لنصردينا

فطاف به وزمزم عند بئر • لاسمعيل تروى الشارينا

وقوله انصردينا أصله انصردينا لخذف المضاف وقدره ثابنا وأعمل المصدر
ونصب دينا على ذلك • وفي بعض التواريخ أن ابن الزبير لما هدم الكعبة التي
هي من بناء ابراهيم عليه السلام قال اطلبوا من العرب من ينسب إليه فلم يوجد من
يقوم بذلك فقال استعينوا بفارس فانهم من ولد ابراهيم ولين يرفعه الاولاد
وكان أردشير قبل وفاته عاملا على اقليم من أقاليم اصطخر وكان قد أخبره أحد
النجمين بأن ملك الفرس سيصير اليه قوثب على ملوك الطوائف وأخذ منهم
البلاذ فلما اصطخر وهذان والجل واذر يمان وادريئة والموصل والسواد
وبني مدينة على شاطئ دجلة تشرق المداثر ثم رجع الى اصطخر ففتح سجستان
ثم جرجان ثم مرو وبلخ وخوازم ثم تخوم خراسان ثم رجع الى فارس ونزل
صول وأطا مملكت كويستان ومكران ثم ملك مدينة البحرين بعد ان حاصرها
مقتة وألقى ملكها بنفسه في البحر ولم يزل مظفرا وقهرا الملوك حوله ومقتن المدن
واستكثر من العمارة وقتل أردوان الاشغاني وغيره من الاردوانيين وكان
سبب قيام أردشير وحرابه انه أراد الاستيلاء على ملك الفرس الذي كان لأبائه
وأن يجمعه ويستولي عليه وحده فظفر بجراده وسلب الملائم من خصمه أردوان
الذي كان ملكا على الاردوانيين وهم أباط السواد يعني السريانيين وكان على
الارمن ملك يسمى بابا والارمن هم أباط من نبط الشام وكان بين اردوان وبابا

حروب مستمرة وقعن مستقرة فاجتمعوا على قتال أردشير فخار بامناوية ثم بعث
أردشير الى بابا في طلب الصلح على أن يدعه في الملك ويحلى بابا بينه وبين أردوان
يعني يفصل عنه فلم يلبث أن قتل أردشير أردوان ثم استولى على السواد
فاعطاه بابا الطاعة بالشام واتخذه بعد أن كان تحت طاعة الرومانيين ودانت له
سائر الملوك وقهرهم واستولى على عمالكهم كما أسلفناه ثم رجع الى أمراء
العرب وكانت يوتهم على ريف العراق ينزلون الحيرة وكانوا ثلاث فرق
متمايزة الفرقة الاولى قبيلة تنوخ ومنهم قضاة وكانوا يسكنون بيوت الشعر
والوبر ويضعونها غربي الفرات بين الانبار والحيرة وما فوقها وكانوا على
حريتهم فلما ملك أردشير هذه البلاد أنعموا من الافاء في مملكته تحت قبضته
وخرجوا من البرية ليستروا على الحرية الفرقة الثانية قبيلة العباد وكانوا
يسكنون الحيرة متوطنين فيها الفرقة الثالثة قبيلة الاحلاف الذين نزلوا بهم
من غير نسبهم ولم يكونوا من تنوخ الناكثين عن طاعة القرس ولان العباد
الذين دأبوا لهم فقبيلة الاحلاف غلكت الحيرة والانبار وكان منهم عمرو بن
عدى وقومه فعمدوا الى الحيرة والانبار ونزلوا بها وخرّبوها وكانت من شاه
العرب من منذ عهد مجتصر ثم عمرها بنو عمرو بن عدى لما صبروها دارا
للمكهم الى أن سبهم الاسلام واخط الخلفاء مدينة الكوفة فذرت
الحيرة كما هي

ولما خضع أردشير على الممالك التابعة للرومانيين كملكه الارمن السالفة
الذكر وأقام دولة القرس الساسانية الجديدة وتلقب بالملك الاكبر وساعدته
الاقدار على اتساع ملكه وقوة دولته وعظم صولته في البلاد المشرقية التي
كان أكثرها تحت قبضة الرومانيين خشي اسكندر سورس بأسه وأن
يتسلط على ملكه فسار هذا القيصرسيرا حثيثا الى البلاد المشرقية ليمنع
كسرى أردشير من امتداد سلطونه اليه فأرسل اليه أردشير سفرا يطلبون
منه اعادة جميع ممالك فارس التي كانت ملحقه بها في زمن كورش الممتدة الى
جزائر الروم فتعجب هذا القيصر من كلام كسرى ووجد السير واستمر في طريقه
وقد نصادف أن بعض العاصم من جنده خالفوا أصول الضبط والربط
ف عقد مجلسا عسكريا بالحكم عليهم بأصول العسكرية وأحضرهم أمام المجلس

في السلاسل والاغلال وقررو في المجلس العام الحافل بحضور الخواص والعوام
 أن السكوت على افعال العساكر في أصول الضبط والربط يترتب عليه هدم
 التاموس الروماني وينتج عنه فقد شرف المملكة الرومانية ومحو صيتها من
 دفاتر الدنيا فلما سمع أرباب المجلس هذه العبارة القيصرية ارتفعت الاصوات
 الالهية على الذات الملوكية كأنهم لم يصدقوا على قوله فقال المجلس للغفراء
 اضبطوا هؤلاء الصالحين ووجهوهم صوب الاعداء لقتالهم عوضا عن أن
 يعارضوا الملك ويقاوموه فاشتد غضب الالهة وتعدوا على غيهم واستطالوا
 على القيصروا قاموا في وجهه السلاح فقال لهم اغمدوا سلاحكم فان مثلي
 لا يزعم هذا التهديد فسمعوا ذلك منه سكنت الفتنة وحصل الهدوء والراحة
 وسار هذا القيصرو على العجم بنفسه قتلا في معهم فأتصر عليهم نصرة مؤثرة
 صار بها صاحب البلاد ومالك رقاب العباد فهرب أردشير ونكس على
 أعقابهم ومكث مدة طويلة لا يشن الغارة ولا يطلب ثاره ورجع القيصرو
 اسكندرو سوريس الى رومة يؤيد امنصورا لقتل اهلها بالافراح والمسرات
 وأكثر وامن التهانى على هذه الفتوحات وصورة ذلك ان القيصرو بعد حضوره
 من السقرية دخل المجلس العالي على حين غفلة وتكلم بمقالة رسمية مضمونها
 يا أعضاء مجلس رومة قد هزمت الفرس شر هزيمة ولا حاجة لبط الكلام
 في هذا المعنى بل أقصر على ذكر قوة العدو ويحذره وبما ظفروا به عند هزمه
 وطرده فقد كان للفرس في هذه الواقعة سبع مائة فيل يقتلنا منهم
 مائتي فيل وسلبنا ثلثمائة أخصرنا منهم الى رومة ثمانية عشر وكان عندهم ألف
 عربية مسلحة بالنساجل مطقمة بالعساكر المقاتلين بهذه الآلات فهزمتنا هم
 وأخذنا منهم مائتين ولم أخصرهم ما هنا لانه لا طائل الى ذلك حيث لا حاجة بعد
 الاثر في هذه الاشياء الى العين وقد هزمتنا فرسان القرس وهكنا فوا مائة
 وعشرين ألفا فبستنا جوعهم وقتلنا منهم عشرة آلاف مدد وعين وسلبنا
 دروعهم وجعلناهم عتة لعساكرنا وأسرا من عساكرهم عددا كثيرا صار
 مبيعهم وقد أعدنا الى دولتنا الرومانية بلاد الجزيرة القروانية التي لم يحصها
 القيصرو سلفنا وقد بددنا شمل أردشير مع أنه في المشرق مشهور باسم الملك
 الكبير وفي الحقيقة هو عظيم الدولة فخيم الصولة فقد ولي الادبار والتجأ الى

محال كما يوصف الذل والانتكسار وقد نصبتنا أعلامنا في جميع الاماكن التي
 كانت تحت أحكامنا حتى ان اعلام اردشير دبحيت بعد قراره تحت أيدينا
 فهذه بضاعتنا ردت الينا فقد بسطنا للجلس هذه الغزوة بغاية من الدقة في
 العبارة والبيان دليل صدق بل تكفي في مثل ذلك الاشارة فاعتننا العساكر
 دليل ظاهر وقد أنساهم هذا الانتصار ما كابدوه من الاخطار فعلى المجلس أن
 يأمر في المعابد والمشهد بنشر أنواع الشكر والمحمد في مقابلة هذه النعمة
 التي لا ينكرها الا جاحد معاند فأجاب أرباب المجلس عن هذه المقالة أيها
 القيصر قد استحققت الامتياز بلقب الفارسى الاول والاختصاص بهذه
 المزية حيث انتصرت على القرم نصرة حقيقية والفضل في تلك النصرة
 انما هو لحسن تدبير تلك العسكرية ثم خرج من المجلس وذهب الى الميدان
 العام وركب على منبر الخطابة فاحتفل به الخواص والعوام فقال يا أيها
 الرومان قد هزمنا جنود فارس ورجعنا بجنودنا سالمين غانمين فنعدكم بالانعام
 والاكرام وفي يوم غد نخضعكم بالالعاب الميدانية لاشهار افراح هذه النصرة
 السنية فصاح جميع الناس يلهمون ما أسعد رومة بطول عمر الملك المنصور
 مجد مجد الحكومة ثم جرد هذا القيصر عساكره على جرمانا وسيرهم اليها
 جند ابي جند وكانت قد أقامت عليه راية العصيان وكان يحشى من
 دخولها على بلاد الرومان فكانت هذه الغزوة مخصوصة عليه وعلى جنوده
 حيث أخذت بناموس أعلامه وبنوده فانه لما وصل الى معسكر مبانته
 بفرانس احدث القنصة بين جنوده في المعسكر وقام بعضهم على بعض ولم
 يلتفتوا للعدو الاكبر وهاجوا وماجوا وعصوا أمر هذا القيصر بل تجاسروا
 عليه ودخلوا في خيمته وذبحوه وكفوه شر قتال الاعداء ومن تكذب الخيلة
 أراحوه ولم يلتفتوا لوجوب ابقائه مصلحة أوطانهم ولا نظروا أن في حياته
 احياء عزهم وطمانتهم وقل أن تجتمع السفهاء والاولاد من يسلك في جادة
 الرشد والساداد وكان مقتله في سنة ٣٨٧ قبل الهجرة وبجوته انقطعت
 القياصرة الشامية الذين هم في الحقيقة من بلاد افريقية بالاقطار المغربية
 وتولى بعده مقسيمينوس وكانت مصر في عهد الامبراطور الاسكندر وپرس
 الثاني قد تجدد فيها نوع من العمارية وتقدمت فيها العلوم والمعارف من

أديان وفلسفة وغيرها واكتسبت مصر في أيامه من التقدم والتقدم نظير ما اكتسبه رومة وغيرها من المدن الرومانية وحصل في جميع البلاد الداخلة في حكم الرومانيين كثير من الإصلاحات والتنظيمات والتدابير الحسنة ولو كان في أجله فتحة لحصل الإلهال الرومانية كمال المنفعة

(الفصل السادس والعشرون)

• (في الملك مقسيمينوس قيصر الاول ويسمى مخشيان قيصر) •

تولى هذا القيصر الامبراطورية الرومانية سنة ٢٨٧ قبل الهجرة وحكم الى سنة ٢٨٤ فكانت مدة حكمه أربع سنين وكان هذا القيصر عايبا جدا فظا غليظا حاسا ومعنى خارجا في ضخامة الجسم عن حد العادة جاف الطبع والعقل والجسم فهو أقرب غلظة الى الحيوانية غير الناطقة بل ما أقصاه من محاسن السلاطين وأدنا من منال الشياطين كما قيل

نقص خيث لو طلبت اسمه • من أحد يوصف بالفض

لبادر الحال الى كشفه • وقال عفرين من الجح

فكان اذا تختم في اصبعه تختم بأساور زوجته فتكون على قياس اصبعه واذا ضرب الفرس قبضة يده كسر أسنانها وكان يصفق يده الامجار وكان فيه قوة شديدة بحيث يفلق الشجر فلقين يديه وكان يصب العرب الكثرة الاجال وحده ولا يحتاج الى مساعدة ولا اعانة وكان يأكل في اليوم أربعين رطلا من اللحم ويشرب جرعة من النبيذ زنة خمس وعشرين أقة وهذه الاوصاف وان كان يشتم منها رائحة المبالغة والاطراء الآن أصلها لا يتخلو من أن يكون صحيحا بعد تلطيفها بما يزيد التحري ودليل الاستقراء والا فلا يعد على المؤرخ من أي قبيل أن يلقب القملة بالقيل وكان أبوه من جنس الغوطية وأمه من جنس اللان وكان عملي الجسم يعني من الرجال الطوال الشداد أشبه بما يؤثر عن قوم عاد وقد رقى الى المنصب القيصري بصدفة عجيبه وذلك لان القيصر سوريم كان قد صنع عبدا مشهودا على ساحل نهر طونه بمناسبة مولد ابنه جبطا وكان مقسيمينوس يرعى الماشية بهذا الساحل فحضر في المعسكر واتمس قبوله من ضمن اللاعبين في هذا الفرح فحبب القيصر من ضخامة بنية ومن منظره الهائل ورأى أن مثله يلقى للمنازلات والحروب فأذن له أن يتصارع

منع أقوياء العساكر ليمتد به فطرح من المبارزين معه على الارض ستة عشر
صنديدا واحدا بعد واحد وظلمهم في أقرب وقت من غير تخلل زمن للاستراحة
فأمر القيصر بقبضه في جريدة الجنود واستطاعه في حكمهم ولازال في أفراد
العسكرية إلى أيام الاسكندر سوير من قيصر فأعطاه الاسكندر المذكور
رياسة جيش ليحمله ويظهره ويربيه التربية العسكرية فرتبه أحسن ترتيب وأتم
نظام وضبطه ضبطا كاملا وعلم شبان هذا الجيش الحركات العسكرية
وتدبيرات الحيل الحربية وكان يناضلهم ويصارعهم بنفسه فلما مات القيصر
الاسكندر سوير من بايع مقسمين ومن الأول جنوده عند شطوط نهر الرين
وجعلوا امبراطورا رومانيين فأقام البرهان بأفعاله وحركاته على عدم أهليته
واستحقاقه للمنصب الملوكي لانه جسم بدون عقل وذلك انه لما عبر نهر الرين
أحرق مقدارا عظيما من القرى والبلدان التي على طريقه ثم تقدم في السير إلى
إيطاليا وجعل معسكره في مملكة النيسا وأصدر أوامره بقتل أغنياء مدن
إيطاليا وأعيانها وأمر أن يرسلوا إليه في معسكره لتجبر قتلهم فبعثوا بهم إليه
على عجل فصار يقتلهم بالصلب أو يقدفهم في أقواء الوحوش المفترسة ثم اقتنى
أثر النصراري بالقتل والتعذيب لاسيما القسيسين والاساقفة وكان كل من قبض
عليه منهم صلبه أو أغرى الوحوش على اقتراه وكان يحترق النوع البشري
أشد الاحتقار فكان الانسان عنده كالأشئ وبالجملة فهو أشد القياصر قلوما
وخسة وأقلهم مرواة وإنسانية حتى أنه صرح لأعيان دولته بذلك فقال أنا
لا أريد أن أحكم الأعلى رعية مستعبدة ذليلة فلو قيل في حقه

ان هو مستوليا على أحد * الأعلى أضعف المجانين

لكان حينئذ مناه ~~ولكن~~ لم يتركه الامراء والجنود يستمر على فعل مرأته ولا
بلغوه مقصده من كل الوجوه بل حكموا بعزله ولولا بدله قيصر بن مشتركين
في الامبراطورية وهما قيصر غوردانوس الاب وقيصر غريديانوس الابن
فكان عزل من ذكر وتوليتهم في سنة ٢٨٤ قبل الهجرة

(الفصل السابع والعشرون)

* (في الملك غريديانوس قيصر الاب وابنه الملك غريديانوس قيصر الاصغر) *

تسمى هذه المدة مدة الغرديانوسين بصيغة التثنية ويبان ذلك أن في سنة
٢٨٤ قبل الهجرة كان في افريقية مملكة قرطاجه من طرف الرومانيين
شيخ هرم يسمى غورديانوس من وجوه العائلات وأعيانها وكان له ابن
يسمى غورديانوس الاصغر وكان استقر الامر في مجلس رومة عقب عزل
مقسيمينوس الاول على توليتهما معا وتشريكهما في الامبراطورية فوليها
معا وكان على مملكة قرطاجه نائب للرومانيين يسمى قابليانوس فقاتلها
وهزمهما وأوقع الافتتان بينهما حتى اقتتلا فقتل كل منهما صاحبه فعين
مجلس رومة عوضا عنهما قيصرين آخرين يسمى أحدهما بوليانوس ويسمى
الثاني قلودس بليينوس فلما سمع مقسيمينوس وكان قد أغرى على قتل
خصميهما بتوليتهما وكان قصده بالاغراء العود لئلا يصحبه استسقاط غبطة وتغيير
مزاجه واختيل عقله فهاج وملاح ومزق ثيابه وتخرج على الارض
وخرج من طور البشر وثأيرة الوحوش ومارين أرو ولازقير الاسد الكاسر
ثم أفاق بعد برهة فجده السير لقتال خصميه فاقتن بجيشه وعظمت القتلة بين
العساكر فقتلوا ذلك القيصر المعزول سنة ٢٨٤ قبل الهجرة فكان كالساعي
لحقه بظلمة ونفذت تولية بوليانوس وبليينوس قيصرين رنخا عن أنفه
فقد حصل أيضا في هذه الدفعة ولاية قيصرين في آن واحد يحكمان الرومانيين
بالاشتراك وكلاهما من عائلته خاله ذيفنة الاصل فقد كان والد بوليانوس
أفضلى كما كان والد بليينوس من أولاد الموالى ولما كانت ولايتهم بادون
انتخاب الجنود الرومانية ولا باقرارهم عليها بل كانت من قبل مجلس رومة أبي
أمراء الجنود اقرارهم على القيصرية ولم يعتلوا هذا الانتصاب حيث لم يكن
لهم فيه مدخلية لاسيما وقد تكرر استبداد مجلس رومة بتعيين القياصرة عدة
مرات فكانت أمراء الجنود تعدها بالنسبة لحقوقهم الادعائية من قبيل
الانتخابات فتصادف ذات يوم دخول أميرين من أمراء الجنود في مجلس رومة
هذا انتصاب هذين القيصرين وكان دخولهما بلا اذن في المجلس فغضب أربابه
من هذا التهم وحكموا عليهما بالقتل فقامت القتلة في الخمر القيصرية
فقتلت الجنود القيصرين في أثناء هذه القتلة وكان ذلك في سنة ٢٨٤
المذكورة وولوا بدلهم غرديانوس الثالث ابن حفيد غرديانوس الأكبر

(الفصل الثامن والعشرون)

• (في الملك غورديانوس قيصر الثالث) •

تولى هذا القيصر الامبراطورية سنة ٣٨٤ قبل الهجرة وحكم الى سنة ٣٧٨ فكانت مدة حكمه ست سنوات قد بايع الجنود القاعدون على مجلس رومة بالقيصرية لمسي عمره دون الخمس عشر سنة يسمى غورديانوس من ذرية غورديانوس السابق الذي كان ولده مجلس الرومانيين مع ولده وكانت ولاية هذا القيصر بدل القيصرين وكان ايضا عوضا عن مقيمينوس الذي قتله بعد عزله ولما كان هذا الشاب قاصر المبلغ من الرشد ولا يعتمد على مثله لعدم تجاريسه مع عدم الامن من الاخطار ارفق معه المجلس الروماني وزيره حسن التدبير فصيح اللسان يسمى ميسوطس ليساعده على ادارة المملكة فكان وميسا على القيصر وعلى الدولة الرومانية فبكتفاة هذا الوزير انتظم حال الدولة الرومانية في ايام هذا القيصر وارتفع شأنها وقويت شوكتها وسارت بحسب سيرتها الركان وكان في عهده قد قامت امة الافرنجية يعنى الامم المتبصرة التي جاءت من البلاد البعيدة واتارت على فرانسوا قامت بها فمجموعا على اقليم برمانيا الروماني وقصدوا التغلب عليه فخلصه من غائلهم قائدا الجيش القيصري المسحي اورليانوس الذي ساقى انه تولى قيصر اقبيا بعد فقد هزم هذا القائد الافرنجي شر هزيمة وقد سار القيصر غورديانوس بنفسه بجيش جزايلغز وسابورين اردشير كسرى القرس فاتصر عليه نصرة عظيمة كما اتصر ايضا في هذه السفرة على اثم السرماطية والغوطية الذين اغاروا على بلاد روم ابلى مع امة اللان ثم سافر الى الشام فطرد ثواب القرس منها واقتنى اثمهم وطردهم من الجزيرة واخذ منهم عدة مدن واتصر نصرة عظيمة وكان ملك فارس اذذاك سابورين اردشير الذي فتح حصن الحضر وهو غورسا بور ذى الاكاف الذي هو تاسع الاكاسرة بعد اردشير ولا بأس بذلك كرتاريخه فنقول ان المذكور يسمى بالافارسية شابور بالسين والباء الفارسية وهذا الامم مركب من شاحتصر شاه بمعنى سلطان وبور بمعنى ولديعى ولد السلطان فعزته العرب بلفظ سابور بالسين المهمة وبسبب تسميته بذلك ان

أردشير لما حارب أودوان وقتله أراد أن يقطع نسله فقتل أولاده وأحفاده
وأمر أتباعه وجواريه فيوما من الأيام رأى أردشير في قصره جارية بديعة
الجمال فأقتضاها وكان يسرها ويتخذها خلية فسألها يوما عن جنسها
فأخبرته أنها بنت أردوان ملك الأروانيين فغضب الملك من هذا الكلام
وطلب الوزير وأمره بقتلها فأخذها الوزير لانتفاذ الأمر فلما رأى براعة
جمالها أخذته الشفقة فسألها عن أحوالها فأخبرته بأنها حامل من الملك فلما
تبين صدق كلامها قطع ذكره وخصى نفسه نفيًا للتممة ووضع ذكره في
زجاجة وختمها بنحاتم الملك وودعها عند خازن الملك ثم ولدت الجارية ولدا
فسماه الوزير شاپور يعني شاه زاده ورباه تربية ترشيح للملك وكان أردشير
لم يرزق بولد يرثه وكان مغموما من ذلك فيوما من الأيام تأوه وقال اني سحرت
العباد وقتلت البلاد ولكن ليس لي وارث يرث الملك فعند ذلك أخبره الوزير
بما فعله وحي ماله المقتطوعة نفيًا للرزية وأخبره أنه سمى شاپور من يوم
وضعه ففرح الملك بذلك فرحًا عظيمًا ثم لما مات أردشير ورثه شاپور وصار ملكا
كبيرًا إذا سطوة القاهرة وكان حسن التدبير فأفاض العطاء لاهل الدولة
وتخير العمال ثم شخص الى خراسان فهدأ أمورهم رجع فشخص الى نصيبين
فلما عاونوه فقتل وسبي واقتحم الشام مدنا وحاصرها طائفة وكان بها
قصر الرومانيين والريانوس فاقصمها عليه وأسرهم وحملهم الى جنديسابور
فحبسه بها الى أن فاداه على أموال عظيمة ويقال بل فاداه على بناء شادروان
نستراجه همدان ويقال جدد أنفه وأطلقه ويقال انه قتله وكان قد سبق
اغارة نيسابور على ايلات الرومانيين وصار الحرب بينه وبين غوردیانوس
فهزمه غوردیانوس وأبعده عن الايلات الرومانية بالبلاد المشرقية ورجع
ثانيًا في أيام والريانوس كما سيأتي في الفصل الثالث والثلاثين عند ذكر
والريانوس قبصر

وأما قصته مع صاحب الحضرة فجملة ما أنه كان يجمال تكريت بين دجلة
والفرات مدينة يقال لها الحضرة وبها ملك من الجرامقة يقال له الساطرون
من ملوك الطوائف وتسميه العرب الضيزن من قضاة وكان بأرض الجزيرة
ومعه من قبائل قضاة من لا يحصون عددا وكان ملكه قد بلغ الشام حيث

اعتم فرصة فزاسابور في أرض العراق فشنخص اليه سابور وعند انقضاء
غزواته حتى أناخ على حصنه الذي هو الحضر وحاصره سنتين وقال الاعشى
المز للحضر إذا هله * بنعمى وهل خالدا من نعم
أقام به جند سابور حولين يضرب فيه رؤس القمم
وكان للساطرون وهو الضيزن ابنة تسمى النصيرة خرجت الى ربض المدينة
وكانت من أجل النساء وكان سابور جليلا أيضا فأشرفت عليه فشغفت به
وشغف بها ودخلته في أمر الحصن ودلته على عورته فدخله عنوة بعد تمام
الحصار أربع سنين وقتل الضيزن وأباد قضاة الذين كانوا معه وخرب حصن
الحضر وقال علي بن زيد في رثائه

وأخو الحضر أذنباه وأذدجسلة تحيي اليه والخابور
شاده حر مرا وبطله كاسا نال طير من ذراه وكور
لم يهبه ربح المنون قباد السمك عنه فبابه مهجور

ثم أعرض بالنصيرة بعين النمر وبات ليلة تنصرف في فراشها وكان من الحرير
مخسوا بالقز فاذا ورقة آس بينها وبين الفراش تؤذيها فقال ويحك كم كان أبوك
يفعل بك قالت الزبد والمخ والشهد وصفوا النمر فقال وأبيك لانا أحدث عهدا
وأبعدو ذا من أبيك الذي غدا المبعثل هذا وأمر رجلا أن يركب فرسا جوحا
ويعصب غدا اثرها بذيبه ولم يرل يركضه حتى تقطعت أوصالها ومن أمعن
النظر في كيفية ولادة سابور المذكور في قطع مذاكير الوزير وفي ورقة الآس
التي تأثرت منها النصيرة وما مثل ذلك طرح غث هذا الكلام ظهريا واستصفي
الحوادث التاريخية مما يكون به أصل التاريخ حريا

وظهر في أيام سابور المذكور ماني بن مازن الزنديق وادعى النبوة وتبعه خلق
كثير وكان قد جمع له كتب فلسفة اليونانيين ونقلها الى اللغة الفارسية
فربح سابور عن مذهب المجوسية الى مذهب ماني والقول بالنور والبرامة من
الظلمة ثم عاد بعد ذلك الى دين المجوسية ولحق ماني بأرض الهند لأسباب
أوجبت ذلك والى ماني المذكور تنسب المانوية الذين يقولون بالاصلين وهما
النور والظلمة فالنور أصل الخير والظلمة أصل الشر وقد لهج الشعراء في
تغزلاتهم بذكر مذهبهم تصديقا وتكديسا في ذلك قول الشاعر

هدى بشناياه وصل بشعره * فكذلك قول المانوية تصدق
وقال من رده عليهم

وكم لظلام الليل عندكم من يد * تخبر أن المانوية تكذب
وقال سري الاعدا تترجمهم * وذا رلك قيعذ والبنان المفضب
ومدح الظلام أيضا البهاء زهير فقال

قلست الليل علينا وغفر * وما لنذ العيس الا ما استر
الليل عندي من اذا اعتكر * يطفئ جناحه عند الحذر
كم حاجة قضيت فيه ووطر * أو دعت سر الهوى فما ظهر
رق على قلبه كما كفر * أشكره وان مثلي من شكر
وللعلمة الامير في الرد على المجوس الثنوية والمانوية قوله

وكم ليله بات الحبيب مؤانسي * وقد سترت من دجاها ذوات
ولم ابد نور الصباح فراعني * تبين لي أن المجوس كواذب
وقال أيضا

وإني الحبيب بلبلة * وأزال عنا كل بوس
وبدا الصباح فراعنا * لاشك في كذب المجوس

وقال من حسن الظن بهم أنهم عنوان النور صفات الجمال وباطلة صفات
الجلال فان أنواع الخير من آثار الاولى وأنواع الشر من آثار الثانية فعلى
هذا يكون لا إشراك عندهم ولكن مفردات كلامهم تأتي ذلك التأويل
فالذي فتح حصن الحضرة هو سابور بن أردشير صاحب الحروب مع غوردانوس
قيصر مع بعض من خلقه من القياصرة كما سيأتي وأما سابور ذو الكاف
فهو بعد سابور بن أردشير بنحو أربعين سنة وهو في زمن قسطنطين قيصر
الروم وأما سمي ذا الكاف لانه لما حارب عريان المجاز وقهرهم كان كلما
أخذ أعرايا أسرا يثقب كفه ويجعل فيه حبلا ليقوده فسمته الاعراب
ذا الكاف

ثم بعد انتصار القيصر غوردانوس على كسرى حصل له مزيد الفخر عند
الرومانيين وكان قبل ذلك قد تزوج بنت ميسوطش كافل الدولة فلا زال
لهذا الوصي التفوذ باقيا على حاله في الدولة الرومانية وكان من أمراء الجيوش

الرومانية فاشتهر بسعى فليس أصله من العرب وكان يعتقد على كافل الدولة وعلى القيصر فدمس لكافل الدولة السهم قطاعاء فأت معهما بذلك ثم أوقع فليس القننة بين الجنود حتى اقتتوا قننة عظيمة قتل فيها غرياقوس الثالث باغرا فليس وذلك في سنة ٢٧٨ قبل الهجرة فحمل فليس الجنود على أن يبايعوا الهبالا براطورية فبايعوه وتم له الأمر

(الفصل التاسع والعشرون)

(في الملك فليس قيصر)*

فولي هذا القيصر الامبراطورية سنة ٢٧٨ قبل الهجرة وبني حكمه الى سنة ٢٧٢ فمدة حكمه خمس سنين وكان هذا القيصر عربى الاصل وابتداء ولايته عبارة عن استقرار الاختلال والاعتصاب للامبراطورية الرومانية بدون انتظام ولا اعتبار حقوق في التولية فمن عهد هذا القيصر لم يكن المنصب الامبراطورى الا غنمة يستلها رؤساء الجنود وقواد العساكر ويقتصبونها بدون حق ولا اهلية في الغالب فكان يستولى على المنصب من غلب

وقد فتح فليس المذكور باب التغلب على السري القيصري بقتل سلفه ومع ذلك فلم يحقق غرضه جانيته ولا اعتنم مزبنة فرصة خطيئته ولا فرح بالقيصرية مدة طويلة بل ظهر له خصمان منفصان لعيشته منكدان عليه طول مدته لينتزعاهما من يده أحدهما يسمى بطيبانوس ولم يعش هذا المعارض الا قليلا حيث قتله عساكره ودارت عليه من صروف الدهر دواثره وثانيهما من اعضاء مجلس رومة يسمى دوقبوس فاستظهر على فليس بجند الرومانيين المحافظين في بلاد البشناق والصرف والبلغار وكانوا يميلون اليه ويتعصبون له فأت فليس في واقعة بقرب مدينة وبيرونه من مملكة البنادقة وكان في مدته قد عقد الصلح مع سابور بن أردشير يلا دالجم بعد قتل سلفه وعاد الى رومة وسلك سبيل الحبب مع كبارها وأعيانها وكان من مبدأ أمره متشبها بقوة شوكته فأعطى المنصب لأقاربه وأحبائه لبعضدوه وبمخواعنه الاذى ولم يكن المولى سبحانه وتعالى مطلع على القلوب والضمائر لا يترك

الخطايا والذنوب بدون مجازاة فليفرز فليس بالملكة الرومانية بل يبيع
دوقوس قيصر على الامبراطورية الرومانية وحرم منها فليس وكان ذلك
في سنة ٢٧٢ قبل الهجرة

(الفصل المكمل للثلاثين)

(في الملك دوقوس قيصر)

تولى الامبراطورية سنة ٢٧٢ قبل الهجرة وبقي الى سنة ٢٧١
فكانت مدة حكمه نحو الستين لا غير وكان هذا القيصر من بلاد اسطوريا من
عمالك النيبا وكان من عائلة حاكمة الظهور وارتفع الى درجة القنصل يعني
الحاكم الكبير بمجر دمعارفه لا بحسب ولا نسب ومع ذلك فقد كان مغتصبا
للملكة سفا كاللدم غادرا ثانيا ليا لى بشئ فقد وقع في أيامه مفساد عظيمة
في الدولة الرومانية حتى كانت الدولة أن تكون على خطر عظيم فاقضى الحال
أن ساربيشه الى سواحل نهر طونة لتخلص الايلات الرومانية مما عساه
أن يحدث فيها من زحف الاعداء عليها وذلك لأن أم القوطية والهيرولية
والبرغولية خرجوا من أقاليمهم الشمالية واجتازوا نهر طونة مع رئيسهم
المسي اقليوه وأهلكوا الحرث والتسل في طريقهم بجهة روم ابل مما كان
تحت الرومانيين فتصادم معهم جند الرومانيين هناك وهزمهم وبعد أن ظهر
الرومانيون عليهم كمال الظهور وكانت هذه الام قد طلبت من الرومانيين الصلح
ولم يرض الرومانيون مصالحهم وأبوا الا قتالهم عادت الهزيمة على الرومانيين
وكانت شر هزيمة وهلك فيها قيصرهم دوقوس سنة ٢٧١ قبل الهجرة
وخلفه القيصر غالوس الا أن ذكره ويقال له والوس وأمر له معه في
الامبراطورية هو سطيانس وغدربه فيما بعد كما سيأتي في الفصل بعده

وكان القيصر الهالك وهو دوقوس قد أمر في أيامه بالتشديد على المتصرفين
بقتلهم وسلبهم وتعذيبهم لأنهم كانوا يحبسون سلفه فليس وكانوا متعصبين
له فكانت أيام دوقوس مصيبة عليهم ولم يذق النصر من النكبات شدة
أعظم مما ذاقوه في أيامه وكانت مدة حكمه كحكم عدة عن تقدمه ذات
أحكام محكمة وأصول معتلة متخللة عرضة للمعصاة والاثبات قليلة الرسوخ

والثبات كأنهم لم تكن الاموكتة وكان الظلم والفتن العسكرية كالهن
العمومية أقرب رسوخا ودواما من رسوخ القوانين الملكية وكانت
عناصر هذه الاختلالات تولد في بعض الاقاليم الرومانية ثم تسرى في باقيها
كالا مراض الوبائية المعدية وكان المصريون دائما مصريين على عسكهم
بعقائدهم القديمة وعوائدهم المستديرة لا يريدون أن يتزحزحوا عنها وكان
اذن المدعاة دين النصرانية مجتهدين في حمل المصريين على القسوس بدين المسيح
فصكناوا يحاولون ادخاله في ديار مصر للارشاد الى الدين القويم والصراط
المستقيم وكان لهم في مصر اسباب يدعوون الى الانجيل لا رشاد الخلق الى
الصواب وذلك لا يتخلو عن فائدة يبذل لهم المتزايدة ففي أثناء ذلك ظهر
من بين ظهراني المصريين داع لاجلاء الدين القديم متعصبا لانعاش عبادة
الاصنام واستمالة القلوب للاتباع لتعظيم الاوثان والاستسلام وأغرى
الجم الفقير على رفض دين ابن مريم ودعا النصارى الى الردة واستفعل أمره
واستحكم فنهبا بيوت النصارى بالديار المصرية وكثر التهب بمدينة
الاسكندرية حيث كانت ماوى المنصرين ومنهوى المتصرين وقد
اختل نظامها قبل عهد دقيوس وفي أيامه عظم الاختلال واشتدت الفتنة
على النصارى لاعلى سابقة مثال وصار تعذيبهم يعتن من أبرك المصالح
ويحسب من العمل الصالح فاقتنى أثرهم وكثر التفحص عنهم فنهروا في
صحارى الصعيد الاعلى وازروا في أقطارها وترهبوا واتخذوا للرهبانية
في كل جهة من تلك الجهات محلا وهذه الفرق الهاربة المصرية أول من
ترهب وسكن الديوروسن الرهبانية والنجا الى البرارى والقفار ولم تكن
الرهبانية اذئذ المعروفة لاحد حتى ان القسيسين على اختلاف مراتبهم لم
يكونوا يجوبون على ذلك

ويقال ان مشير الفتنة والتعصب على النصارى انما هو اليهود والمصريون عباد
الاصنام فكانت الحكومة الرومانية بالديار المصرية تساعد المتعصبين
أرباب الحمية لتوقع القتل والشقاق وتؤكد العداوة بين أهل الأديان
من رعاياها لتدوم شوكتها ويستمر حكمها فلذلك حصل في تلك الأزمان تغيير
وتبديل في صورة الحكومة المصرية بتدبير رئيس الحكومة في

الاسكندرية قترتب في الديار المصرية أمير كبير رئيس على الجيوش
الرومانية بديار مصر ثم أمير مصري الأصل يتقام ملك بأمر وينهى في الملكية
وهذان الاميران اللذان أحدهما عسكري والاخر ملكي زيادة على
الحكمدار العمومي الذي هو قائمقام القصر على مصر فقد بقي على ما كان
عليه وانما كان ضعيف التصرف مع وجود الاميرين السالفين فكانت
الحكومة المصرية في ذلك العصر كحكومة مصر في أيام حكم الماليك حيث
كان المتولي عليها في الحقيقة اثنين وهما شيخ البلد ورئيس العساكر وكان
الباشا المقيم في القلعة نائباً صورياً عن الدولة العلية والاحكام في يد غيره
فقد يتقارب الوصفان معنى * وموصوفاهما متباعدان
وكانت قوة عبادة الشمس والقمر في ذلك العصر لم تزل متينة متمسكاً بهادون أن
يعتبرها ضعف ولا وهن لاسيما في عهد غوردانوس الثالث وفليس ومن بعده
فقد كان القسطنطين يزل في هياكل مصر والنوبة ولم يتحول عن دين الصابئة
أحد من العائلات المصرية والنوبة فكان هذا كله مما يقوى عزم المصريين
على إثارة الفتن والشور ويغتهم على القيام على الرومانيين وعدم الاتقياد
لهم فكان المصريون يساعدون من تحزب على الحكومة المصرية وخرج
عن طاعتهم من أمراء الرعايا والاغراب ويعينون كل من أراد خلع
الامبراطور فظالم أعانوا من أراد اغتصاب المنصب القيصري ونصروه
والغالب ان أرباب الاقيان على الحكومة الرومانية انما هم من الاجاب
فكانت نتيجة ذلك كله حصول الفتن العظيمة والحروب الداخلية الجسيمة
وماترتب على ذلك من القحط والوباء مما أهلك أهالي مصر وقلل عددهم وكان
مما يقوى المصائب الرومانية انتخاب القياصرة من أرباب الخول والدناة
وهذا مما كان يعود بالخسارة على مصر بخصوصها وعلى المملكة الرومانية
بعمومها لان القياصرة الذين لا أصل لهم ولا فصل لا يألون بارتكاب القبائح
المضفة للدولة الرومانية كما سيظهر ذلك عند الكلام على زفوية ملكة تدمر
عند ذكر أولريانوس قيصر

(الفصل الحادي والثلاثون)

(في الملك غالوس قيصر ويسمى أيضا والوس)

تولى الامبراطورية سنة ٢٧١ قبل الهجرة وبقي حكمه الى سنة ٢٦٩ فكانت مدة حكمه ستين

لما هزم جند الرومانيين في روم ايلي باتصار اقليوه رئيس القبائل الشمالية عليهم نصرة مؤزره وقتل في هذه الواقعة دوق بوس حصيل الجند غاية الخجل من ذلك فلم يقلدوا الامبراطورية لوالوس ولا لوسطليانوس بن دوق بوس بل انتظر واقرار المجلس الروماني فين يتولى القيصرية منهما وكان غالوس معدودا من قواد ~~العسكر~~ كرية الرومانية وكان قد ارتقى بغيره واجتهاده الى درجة عالية في المملكة فحمل من معه من الجند على مبايعته وأشر له هو سطليانوس بن دوق بوس في الامبراطورية وكان لغالوس ولد يسمى وولسيانوس فأعطاه عنوان القيصرية وكل هذا حصل في معسكر بلاد النيماسم سار من بلاد النيماس واستعجب معه شريكه هو سطليانوس بقصد مدنية رومة لصدق عليه المجلس وكان اذا ذل في المملكة الرومانية وباء عظيم فاعظم الامبراطور في أثناء طريقه فرصة قتل شريكه ورفيقه ليستبد بالمنصب الملوكي وأشاع عند جميع الناس أنه مات بالوباء ثم دخل رومة فبايعه مجلس رومة على الامبراطورية بيعة صحيحة موثقة أنه لبسائه اذا تقلد القيصرية ينصر الرومانيين على أخصامهم فخاب فيه الأمل وسلك في ادارته سوء العمل فقد أشد أعقب توليته في رومة بقتل البابا مارقوريليوس رئيس النصارى ثم عقد مع القوطية صلحا ليس فيه شرف للرومانيين حيث شرط للقوطية أن يدفع لهم الرومانيون خراجا سنويا في نظير عدم اغارتهم على بلاد رومة فقد قرر الجزية على الرومانيين وعاد الى رومة مذموما مذورا فكان في هذا الصلح كمال الحفارة والصغار على الرومانيين وحصل لهم منه كمال الخزي والعار وقد قصد القيصر بتجليله الصلح مع القوطية على هذا الوجه أن يريح نفسه ويتفرغ لحظوظه وشهواته الخاصة به ولم يلتفت لصحة الوطن ومع ذلك فلم تملك القوطية بشروط هذا الصلح بل نقضوه وأغاروا على الاقاليم الرومانية التي يلاذ البشناق والصرف والبلغار وكان أمير الجيش تلك الجهة أمليانوس المغربي الأصل فاجتهد في محاصرة تلك الايلات الرومانية وهزم أمة القوطية فبايعه جنده على

القيصرية في ميدان الحرب الذي اتصر على أعدائه فلما سمع والوس بذلك سار إليه ليؤذبه على اقتيانه فلم يبلغ مقصوده بل قامت عسكر والوس عليه وعلى ولده فقتلوهما وكان ذلك في سنة ٢٦٨ قبل الهجرة وسلم امليانوس من هذه الواقعة

(الفصل الثاني والثلاثون)

• (في الملك امليانوس قيصر) •

تولى هذا القيصر الامبراطورية سنة ٢٦٨ وقتل في سنته بعد أن حكم أربعة شهور

وذلك أنه أول ما جلس هذا القيصر على سرير الرومانيين سار لقتاله قائد جيش الرومانيين ييلاد القلية المسعى والريانوس مستجيبا بجيشه المحافظ لتلك البلاد فالتقى جنده هذا القائل مع جيش القيصر فقتله هو وولده جنده هذا القائد في ميدان الحرب شر قتله ولم تدم مدة ملكه الا أربعة شهور فاسلم الاودع وتولى بعده والريانوس فانظر الى اختلال أجناد قيصرية الرومانيين في تلك الاوقات والى درجتهم في العصيان وعدم الانقياد ونسبهم يقتل الامبراطرة اعتباطا بدون علم فقل أن يكون وقع مثل ذلك في دولة من الدول فخاصهم من قائد الاوهو لقيصر مغير منقاد ولا عامل الاوحركة عملة اثاره القسنة لعدم راحة العباد والبلاد فكانت أيام الخلفاء في الازمان الحديثة تعد أيام هنا وكان فيها نور الاسلام ساطع البهاء والسنا قال أحد بن يوسف الكاتب دخلت على المأمون أمير المؤمنين ويده كتاب وهو يطيل النظر فيه فقبضت منه بيما من أمره فقال لي أرا لعمرك اني اترامني فقلت نعم وفي الله أمير المؤمنين المكاره قال انه لا مكره فيه ولكني رأيت كلاما ظهرا ما سمعت الرشيد يقول في البلاغة قال هي التباعد عن الاطالة والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى وما كتبت أظن أحدا يقدري على ذلك حتى قرأت هذا الكتاب ثم ربي به الى فاذا هو كتاب من عمرو بن مسعدة فاذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم كتابي الى أمير المؤمنين أعزه الله ومن قبلي من قواده وما ترا جنداه في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت عطياتهم

واختلف لذلك أحوالهم فلما قرأته قال إن استحقني الملبسني على أن
أبعث للجند الذي قبله عطاياهم لبعة أشهر وعلى مجازاة الكاتب بما
يستحقه في صناعته انتهى فأنظر الى حسن الاشارة اللطيفة في قول الكاتب
إن الاجناد في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخوت
عطياتهم واختلف لذلك أحوالهم فانه تلطيف في الكناية بادماج السؤال
وانظر أيضا الى ملاطقة الخليفة للجند والكاتب المذكور باجابة سؤالهم
المدج ويقال انه لما مات عمرو بن مسعدة عن ثروة وغنى رفعت الى المأمون
قصة فيها انه خلف كذا وكذا من الاموال يريد رافع القصة اضافة مختلفاته
لجسامتها الى بيت المال فوق الخليفة على ظهرها هذا قليل لمن اقبل بنا
وطالت خدمته لنا فبارك الله لولده فيما خلف وأحسن لهم النظر في ذلك
• الله أكبر كل الحسن في العرب •

(الفصل الثالث والثلاثون)

• (في الملك والريافوس قبصر) •

تولى هذا القبصر الامبراطورية في أوخر سنة ٣٦٨ قبل الهجرة
وبقى الى سنة ٣٦٢ فثمة حكمه خمس سنوات لما قتل الجند أمليانوس
ورأوا أن والريافوس فأنهزم شيخا معمران نحو ثلاث وستين سنة وقد قضى
حياته في مكابدة الحروب والفتن على الوقائع والخطوب وأنه من الشجاعة
والبسالة بمكان واعتقدوا فيه أهلية توطئ المملكة الرومانية وتغصين
شوكتها وتخليصها من الفتن والشروع قلده المنصب الامبراطوري فأشهر
الحرب على سابور ملك الفرس بن أردشير فكان حربه مع المعجم الساساني
مشو ما على الرومانين فغلب أهلهم في قبصرهم وانقطع رجالوهم منه وذلك
لأن سابور كان قد خلف أباه عن قريب فأنتهز فرصة اختلاف كلمة الدولة
الرومانية واختلال تقليدهم للقبصرة واحدا بعد واحد بدون حسن سياسة
ولا رياسة فسار الى أناطلي على مهل وأهلك في طريقه الحرث والقسل ودمر
انطاكيا وهما لأن يدمر حصن فينتدسار اليه والريافوس للمدافعة عنها فادبره
الفرس مكيدة عظيمة واستجلبوه الى موقع من مواقع الحرب ومبشرين من

مباين المطن والضرب لا يلائم مصافه فضايقوه فيه وهزموا جيشه ثم
 هزيمة وأخذوه أسيرة الانحراف شجاعته أو نجاته بجماعته فخره سابور
 بجميع أنواع التقدير وضرب الذلة والمسكنة على هذا الشيخ الكبير
 فكان يستعجبه معه أينما حل وأرقع ويلبسه من الحلل القصيرة أجمي
 الحلل ويقصد بذلك الاستهزاء والتهكم ويحكم فيه بجميع أنواع الحكم
 وإذا أراد كسرى أن يركب عربته أو جواده طرح هذا القصر الهرم على
 بطنه وجعله سلم ركوبه واتخذ هذه في طريقة الركوب عادة فكان يدوسه
 عند الركوب بقدمه ولا ينظر إلى شيوخه وهرمه وكان أسره ٣٦٢
 قبل الهجرة فاستقر والريانس على هذه الحالة الشنيعة عدة سنوات حثرا
 ذليلا وكان قد أمضى السنة الرابعة من حكمه بتعذيب النصارى والتشديد
 عليهم وقتلهم وقدمات بعد مقاساته في الاسر ثمان سنين وتجلد على ذلك غاية
 التجلد ويقال انه لما مات أمر سابور بسلطه وديع جلده وصبغه باللون الأحمر
 الأرجواني الذي هو لون ملابس الملوك وحشوه بالتبن ليكون دائما على صورة
 الآدمي راجع الفصل الثامن والعشرين السابق

ثم عقب أسره دخل الأفريج السالية في بلاد الغلبة واسبانيا وأفريقية وانقسموا
 إلى عدة طوائف لكل طائفة منهم ملك وكان كل ملك من ملوكهم يتنازع
 رعيته بهندازة في يده يقبض عليها دائما وكان وظيفة الملك أن يمتني بهذه
 الهندازة أمام جنده وأن يقضى بين الخصام على دكة ويديه هذه الهندازة
 وللملك والريانس في الاسر وكان له ولد يسمى غليانوس أحامه الرومانيون
 امبراطور عليهم في سنة ٣٦١ قبل الهجرة وكان حاكما على بلاد الغلبة
 فلما تقلد بالامبراطورية حضر إلى رومة لتعاطي الاحكام

(الفصل الرابع والثلاثون)

(في الملك غليانوس قيصر)

تولى هذا القيصر الامبراطورية سنة ٣٦١ قبل الهجرة وبقي فيها
 إلى سنة ٣٥٤ فكانت مدة حكمه سبع سنين
 بينما كان والريانس أبوهذا الامبراطور يكاد ما يكاد من ذل الاسر الذي

تسبب عنه ضعفه وهدم بيته تدريجاً حتى انتهى به الى موته ببلاد فارس كان
الابن منهم كاعلى الالعب العمومية ومولعاً بالولائم الاحتفالية يدعو اليها
جميع ندماً ورجلاً لاقسام اللذات والشهوات معه وكان يقضى أيامه
ولياليه في السكر والعريضة ويتسلى ببناء القصور من باقات الزهور
والرياحين ويزرع البطيخ في الساميت تشبه نفسه في ذلك الفصل وكان في
أثناء ضياع الاوقات في هذه المحقرات قد انصب على المملكة الرومانية
جميع المصائب والنكبات وفاض عليها سيل الدواهي من جميع الجهات
حتى كادت تلك المملكة ان تشرف على الخراب والتدمير وأيست كل اليأس
من حسن الادارة والتدبير فقد اجتمع فيها في آن واحد موجبات الهلاك
كالقطوف فيضان الانهار وحدث الفتن الداخلية والايام فكان يهلك
بالطاعون في رومة وحدها خمسة آلاف نفس كل يوم ومع هذه الصروف
والمصائب كان القيصر منكاعلى حظوظه ولذاته معاقراً لدمه وملازماً
لشهواته وكان لا يسالي باغارة الاعداء على بلاده ولا يكثر بتقريب محالكة
ويقول مادام اقليم ايطاليا باقياً تحت حكمي فلا أبالي بضياع ما عداه من
الاقاليم فكانت أيام حكمه عرضة لضياع ممالك الرومانيين الخارجة عن اقليم
ايطاليا قصير الرومانيون في أمرهم واشتد عليهم الخطب وداخلهم الفتن
والعار وضربت عليهم الذلة والمسكنة بكسر الناموس وهدم الاعتبار فقام
عليه الجنود وقتلوه شر قتلة لعل أن تحمي بقتله عنهم المسكنة والذلة وكان
ذلك في سنة ٢٥٤ قبل الهجرة واتصوا بده فلودس الثاني اذ كانوا
يرجون خيره وفي أيام غليانوس كان قد قام في مصر أمير الجنود الرومانية
يسمى امليانوس واعتزم فرصة حرب غليانوس قبصر مع افرنج الغلية فأرسل
اليه الرومانيون طيودوطس فهزمه وقبض عليه وأرسله الى رومة فسجن فيها
وصار قتله صبراً بأمر غليانوس وكان على مدينة تدمر ملك يسمى أدنياطوس
وكان محالفاً للرومانيين فهو الذي هزم الجهم المغيرين على اقاليم الرومانيين
وطاردهم الى أن وصلهم الى تحت بلاد الجهم حتى قيل انه لم يبق للرومانيين
مصادق الا ملك تدمر حيث كان حاضراً لبلاد الرومانيين من هجوم الجهم وقد
كافأه غليانوس قبصر على صداقه واعادته له فأعطاه لقب أغسطس وهذا

العنوان أيضا اتقل من هذا الملك الى زوجته زنوية وأولاده اذ كان متوارثا
فيهم بعد موت أودياطوس المذكور عقب اكتساب هذا العنوان وسبق
الكلام على زنوية في محله مفصلا ثم انه في سنة هذا الملك قام عليه كثير من
أمراء الجنود واعتصبوا الامبراطورية منه فن هؤلاء المقتصبين من قتله هذا
القيصر ومنهم من قتله جنوده ثم صار قتل هذا القيصر في سنة ٤٥٢
واتخاب قلودس الثاني امبراطورا على الرومانيين

(الفصل الخامس والثلاثون)

• (في الملك قلودس قيصر الثاني) •

تولى هذا القيصر الامبراطورية سنة ٣٥٤ قبل الهجرة وبقي حكمه الى
سنة ٢٥٢ فكانت مدة حكمه سنتين وكان هذا القيصر أول سلسلة
القيصرية البرية يعنى السواحلية بالنسبة لابطاليا فكان أصل هذا القيصر من
اقليم دلماشيا وكان معدودا من غول رؤساء الجيوش الرومانية لما استبان
منه من البسالة التامة في حرب الفوطية واتصار عليهم فهذا استحق المنصب
القيصري فقد اتخذه الجنود أولاً وأقره مجلس رومة واستصوب انتخابه وفرح
به واستبشروا وقد استبان فيما بعد بالتجارب الكثيرة انه في الحقيقة أهل لهذا
المنصب العالي وذلك لأن الفوطية جمعوا جيشا عظيما عند نهر آق كرمان
ونزلوا على سواحل البحر الاسود وأغاروا على المدن الرومانية القريبة منها
وكانوا يغيرون على البلاد اليونانية التابعة للحكومة الرومانية بهذه الجهة
فسار هذا القيصر لقتالهم واتصر عليهم نصرة بليغة تسمى نصرة نيسا اسم
لمدينة تيلاد الصريف كثير فيها اراقة الدم في ميدان الحرب حتى تولد عن هذه
الدماء وباء عظيم فسار الى قلودس فرض ومات به في مدينة سرمش جهة بلاد
الصقالبة وذلك في سنة ٢٥٢ قبل الهجرة وتولى بعده أورليانوس
قيصر

(الفصل السادس والثلاثون)

• (في الملك أورليانوس قيصر) •

توفي هذا القيصر الامبراطورية سنة ٢٥٢ وبقي الى سنة ٢٤٨
 قبل الهجرة فكان مدة حكمه أربع سنوات ولما مات قلودس انتخب الجنود
 هذا القيصر وكان أبوه نزيلا في بلاد الانقلاق وذلك لان القيصر
 أوليانوس المذكور كان مقاتلا مهيبا تخشى سطوته ويخاف بأسه فاشتهر
 في الشعاعة والبسالة حتى طارصيته في الاقطار وكان صعبا على الجنود وكان
 يتراعى منه في عبادى أيامه انه يفسر على الدولة الرومانية لان طوائف الالمان
 أعاروا في مبادى أيامه على ايطاليا وبدوا شمل جيش جرار من الجيوش
 الرومانية وقضوا زمنهم يهيجدون ايطاليا ولبها وضيعوا أوقاتهم في
 ذلك ولكن في أثناء مشغوليتهم بالسلب والنهب جمع أوليانوس ما تفرق من
 عساكره واتقض عليهم ولا اتقضا الباز الاشهب وبدد ثملهم حتى مالوا
 الى القرار وولوا الابدان وعدموا القرار وعادوا يجتازون نهر طونة وذلك
 في سنة ٢٥١ قبل الهجرة واكتفى شر هؤلاء الطوائف وسلمت البلاد
 والعباد من أذاهم

ولكن حدث أيضا من جهة أخرى حوادث أخر خطر على الرومانيين في مدة
 هذا القيصر وان كان موجهاة مقدما على زمانه وهي أنه قبل موت القيصر
 غلبانوس بسنة كان حصل منه مساعدة للملكة التدمير الممعة زنوية حيث
 كان زوجها محالقا للرومانيين ومظاهر الهم على القصر فقلبه الملك منصب
 الانطوسية هو وزوجته وذريته فظهرت زنوية بعد زوجها مظهرا
 عيبا في البلاد الشرقية وقويت شوكتها واستعمل أمرها وانتظم ملكها
 وصارت مدينتها الملوكية التي في صحارى الشام الرومية وهي مدينة
 تدمر عامرة أهله زاهرة مبهية حتى كأنها جنة من جنان الدنيا ومنتر من
 المنزهات الزهية واتعت دائرة ملكها من ساحل بلاد الصورو الشام الى
 نهر الفرات والعراق برا وبحرا واهتمت هذه الملكة بعامانة التجارات
 وتوسيع دائرة الاخذ والعطاء فأحرزت مدينتها ما لا مزيد عليه من الروق
 والبهجة كما يدل عليه ما بقى من الاطلال والرسوم والاسمار والردوم فالظاهر
 أن هذه المدينة اكتسبت من الحلى والزينة في أيام هذه الملكة ما لم تكتسبه
 في أيام سليمان عليه السلام بالنسبة للوقت التي هي فيه فكانت

هذه المملكة بطمس زمانها في بلاد الشام بتدمير سليمان عليه السلام
 وكانت متروكة بالملك ادنياطوس الذي هزم سلوور ملك فارس واستمر عليه
 بشجاعته وبسالته في عهد غليانوس قيصر كما سبقت الاشارة الى ذلك في الفصل
 الرابع والثلاثين فلما تأيتم بعونه تقوى عزيمتها واحتدمت شكيبتها واتصفت
 بصفات الرجولية وتقلدت بعون البطلة والقهولة حتى خلقت زوجها
 في الشجاعة والحماس والشوكة والباس فأحرزت ملكتها كمال الشهرة وبعد
 الصيت وتلقبها بالقصرة ثبتت ملكها اتم تثبيت وكانت ترغم أهل المملكة
 بالانضقاق لانها في نسبها صاحبة تاصيل واعراق ائيلة الحمد أصلية البلدة
 تدعى أن نسبها يمتد الى فراعنة مصر وملوكهم وأنها تستحق أن تتظم
 في سلوكهم فكانت في جنس النساء نادرة الزمان وفريدة العصر والوان
 تخطب العساكر بأبلغ خطابة وتحررهم على الحرب وتضمن لهم النصر
 والاصابة وتلبس في رأسها خودة الحرب كالابطال حاضرة عن ذراعها
 كالفتيان من الرجال وكانت قوية الجأش والحنان تقوى باقتحامها
 الخطوب قلب الجبان مع سلوليسيل الحزم والاحتراس ولها في السياسة
 اليد الطولى واستخدم جميع الحواس تقرب دائما أن يحكمهم الممالك
 الرومية وقول أن تصير على عمالك الدنيا ملكة عمومية ولا تكاد تنفك عنها
 هذه النية ولا تعزب عن ذهنها هذه الامنية وكانت انذاك الديار المصرية
 تحاول الخروج من قبضة الرومانيين وتزاول الاستقلال بنفسها كما في زمن
 الفراعنة الاولين فشرعت المملكة زنوية أن تستولى على مصر مستعينة
 ببذل ما عندها من الاموال فلم تستطع أخذ مصر بهذه الوسيلة لمساعدة
 المصريين لها بحسب اقتضاء الاجوال فاستعملت القوة الجبرية وغلبت
 الجنود المصرية واستولت على سرير الاسكندرية ولكن لم تلبث قليلا
 أن طردت منها وزوجت عنها ثم عانت اليها وعولت في التغلب عليها حيث
 أمدتها مملكة تدمر بالجنود العديدة والنخار الجيدة وكان ذلك في زمن
 أوريانوس وكان التغلب على مصر في عهده ودونه حرب البسوس فجده هذا
 القيصر السير من رومة الكبرى وحضر الى الشام ليزيل عن ممالكه ضيقا
 وحصرها فأتصر على زنوية نصره هجينة بقرب حصن الشام فهربت

داخل حصون تدمر عقيب هذا الالتزام فضيقت عليها الحصار ومنع عنها
الميرة فتغدى بما في المدينت من الزاد وأيست من الذخيرة والامداد فحاولت
الخروج والفرار وتسليم هذه الدار فقبض الجنود على هذه الملكة في أثناء
الطريق ووقعت في قبضة فرسانهم وغانم الرقيق والصديق فلما تمكنت بين
يدي القيصر المتصور وليث الرومانيين الهصور قالت له قد ساعدتك بالنصر
علينا الانذار فهما أمانا معترفة لك بالولاء اعتراف من تفرقت عنه الانصار
وأما سفلت فانهم ليسوا الى هذه المناجاة ولا سلكوا مسلك التجابة فانخرج
عليهم كان من عين الاصابة فاستدعى سائر الجنود سفك دمها وطلب جميع
العساكر اياها عندهما فأبى أورليانوس قتلها واستصوب الاستبقاء عليها
ولكن أسرها وأذلها فأدخلها رومة من ضمن الموكب المقنود في اليوم
المشهد لتكون غنمة وعلامة على النصر العظيمة وعرضها عن ملكتها
قصرا مشرقا في رومة وقد بقيت ذريتها هناك الى قرب قسوس الشام
بالاملام حتى تغيرت الاحوال وخرجت الشام عن حكم الروم وساغ
لهم الانتقال وكان أسرى زنوبية وزوال ملكها من البلاد الثمانية وغير
الثمانية في سنة ٢٥٠ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة
وأزكى التحية

وبعد هذا الزمن بمدة يسيرة ظهر أحد تجار مدينة الاسكندرية وقصد
الاستبداد بالملكة المصرية وكان صاحب ظهور وغروج وله في مراقب
الامارة عروج فأعلن لنفسه بالرياسة وتثبت بالانفراد في الاحكام
والسياسة وانتهى اليه في ديوان مصر الامر والنهي في جميع الامور
وخضع لمن أهلها السواد الاعظم والجمهور وتكفل بدفع جوامد جميع
الجنود واقامة شعائر الاعلام والبنود وزعم أنه يدفع مصرف ذلك من
مكسب صناعة ورق الكتابة الذي كان ائذ ذلك من شجر البردي المعروف فلي
دعونه بجاهلير الاقاليم المصرية وعقد المعاهدات مع أهل البحارة من
ملوك القبائل العربية وضرب السكة باسمه واستعان بأروام الاسكندرية
فدخلوا تحت حكمه واتصروا الهودنوا في حربه وقصدوا طلب الحرية
والفصل من الحكومة الرومانية فخارب ذلك التاجر الفاجر دولة الرومانيين

وتلاقى معهم في ثلاثة وقائع ولم يظهر عليهم في نصره بل انتهى به الحال أن
انهمزم وانكسر شر كسرة ووقع أسيراً وقتل شر قتلة ووقعت مصر تحت
قبضة الرومانيين كما كانت تحت هذه الدولة وقلدنيانها أمير من طرف
أورليانوس يسمى أورليوس بروبوس فاجتهد هذا النائب في إصلاح
مآقس هذه الحروب والوقائع فأصلح العمارة العمومية بالتجديد والترميم
والتحسين والتنظيم كما أصلح النيل السعيد بالعمليات الهندسية وشغل فيها
العساكر الجهادية فحسن هذه العمليات التطهيرية سهل سير السفن
في هذا النهر على صورة مرضية

فكانت سيرة أورليانوس أحسن سيرة وكان للممالك الرومانية في أيامه فجة
شهرة وكان يرجح أنه أن يتمكن أتم تمكن وأن يكون لوطنه أعظم حصن
حصين ولكن أضره الاغارة على الابات الشرقية حيث سار إليها بعد
الاتصار على عصاة الديار المصرية والشامية وكان سيره بصد قتال القرص
فقامت عليه فتنة من جنوده كان منبرها ورئيسها كاتب سره منطيس
فقتل هذا القيصر عقب هذه الفتنة في سنة ٣٤٨ قبل الهجرة وفي السنة
الآخيرة من حكمه كان تعذيب النصارى بالشدة السابعة وفيها قتل ساندنيس
رئيس أساقفة باريس وتولى بعده هذا القيصر أورليانوس طاقيطوس أحد
أرباب مجلس رومة بعد فترة ثمانية أشهر خالية من الحكومة وسيأتي أن
طاقيطوس هلك قبلاً كسلفه

ومع إصلاح مصر وتنظيم أورليوس بروبوس لها فكان سعيد مصر لم يرزل في
قن وشرو وفي عهد كل من أورليانوس وطاقيطوس

(الفصل السابع والثلاثون)

(في الملك طاقيطوس قيصر)

تولى هذا القيصر الامبراطورية في سنة ٣٤٧ قبل الهجرة ربي حكمه
الى اثنا عشر سنة ٣٤٦ فلم تبلغ مدة حكمه سنة كاملة بعد ما سبق من زمن
الفترة السابعة لما قتل أورليانوس في حرب العجم فتنته الجنود الرومانية لم
يستطع أحد أن يقبض قيصراً على الرومانيين فبقى سرير رومة خالياً عن

الامبراطورية وهذه أول مرة خلا فيها سرير رومة عن ذلك فكان زمن فراغ
سرير رومة من القيصريه ثمانية أشهر فكانت هذه المدة فترة فلما ظهر
الافرنج وعبروا نهر الرين لتغلب على ايطاليا بقصد اعتنام الفرصة في هذه
الفترة اتحد مجلس رومة مع أمراء الجنود واختاروا طاقيطوس أحد أعضاء
المجلس امبراطور عليهم وكان حكيمًا عاقلًا حسن المقاصد صافي النية
يفخر على غيرهم من جهة أنه من ذرية طاقيطوس المؤرخ وقد حكم دون السنة
وذلك لانه كان هرمًا بلغ من العمر خسا وسبعين سنة ولم يكن محجورًا بالحروب
ولما مارس الخطوب وانما كان له معرفة بالانشاء والمحاضرات وبالادبيات
والخطابات فكانت نفوس الجنود غير مأثله اليه ولا معولة على حصول الخير
لهم على يديه لما بين العلوم الادبية والمعارف العسكرية من المباشرة
العادية لاسيما وان دولة الرومانيين كانت مؤسسة اصلًا على الغزو والقتال
والفتوح للبلاد واسترعاء الخلائق على عثر القرون والاجيال فكان القيصر
يتخبط من الابطال وغول الرجال لامن أرباب اللسن والمقول الحسن
مع أن المنصوص عند أرباب السيادة والحزم واليكاسة أنه لو تعارض
في المملكة اثنان وانحصر الانتخاب منهما وكان أحدهما يحسن العسكرية
والآخر لا يحسن الا العلوم السياسية فانتخاب الثاني أولى وهو الجدير
بأن يكون السيد والمولى لانه لغزارة علمه وجودة فهمه يحسن أن ينتخب
أمراء جنوده وكبراء أعلامه وبنوده وسائر خدمه وحشمه لذلك
فطنه وتمكنه من حسن التدبير ورسوخ قدمه بخلاف العسكري البطل
المنازل اذا كان متصفًا بفضيلة الحرب ومجتردًا عن غيرها من الفضائل
فلا يقدّر أن يوس الرعية الابطريقة التخويف وسلك الطرق الجبرية
ففضيله العلم في الملوك مستحسنة بل وفي سائر حواشيهم تعد من اللوازم البينة
قال ابن الصلاح رويناعن الزهرى أنه قال دخلت على عبد الملك بن مروان
فقال من أين قدمت يا زهرى قلت من مكة قال فن خلقت يسود أهلها قلت
عطا من أبي رباح قال أمن العرب هو قلت بل هو من الموالي قال وبهم سادهم
فقلت بالعلم فقال ان أهل العلم ينبغي أن يسودوا فن يسود أهل مصر قلت
يزيد بن أبي حبيب قال فن العرب هو قلت بل من الموالي قال فن يسود أهل

الشأم قلت مكحول قال أفن العرب هو قلت بل من الموالي عبد فوبى أعتقته
أمر أقم من هذيل قال فن يسود أهل الجزيرة قلت الضحالة بن من أحم قال أمن
العرب هو قلت بل من الموالي قال فن يسود أهل الكوفة قلت إبراهيم النخعي
قال أفن العرب هو قلت نعم من العرب قال وبك يا زهري فترحت عنى قلت
يا أمير المؤمنين انما هو أمر الله فن حفظه ساد ومن ضيعه سقط

ومما يرفع قدر حرفة العلم والادب ما حكاه بعضهم عن زياد بن أبيه مع حارثة
ابن بدر الفزارى وذلك أنه لما ولي زياد بن أبيه العراق كان كثير الرعاية
لحارثة بن بدر الفزارى وكان حارثة مكبا على الشراب فوقع أهل البصرة فيه
عند زياد ولا موه على تقريره فقال لهم زياد يا قوم كيف لي باطراح رجل
يسايرنى منذ دخلت العراق فلم تصك ركابي ركابه قط ولا تقدمنى فنظرت
الى قضاه ولا تأخر عنى فلويت اليه عنى ولا أخذ على الروح فى الصيف
ولا الشمس فى الشتاء ولا سلمته شيئا من العلوم الا ظننته لا يحسن سواه

وحكى المبرد قال دخل الاصمعي يوما على الرشيد ومجلسه حافل فقال يا أصمعي
ما أغفلك عنا فقال والله يا أمير المؤمنين ما لا تقنى أرض قبسم الرشيد وقال
له اجلس قال جلست حتى خلا المجلس ولم يبق غيرى ومن بين يديه من الغلمان
فقال لى يا أصمعي ما معنى قولك ما لا تقنى أرض قلت ما أمسكتنى أرض
يا أمير المؤمنين وأنشد مفردا

كفالكف ما نلتق درهما * جودا وأخرى تقطر السف الدما

أى ما عسك فقال هذا حسن وهكذا فكن وقرنا فى الملا أى بأن لا نجمع منك
شأتسئلنا وعلمنا فى الخلا فانه يقع على السلطان أن لا يكون عالما أما أن
أسكت فيعلم الناس انى لم أفهم اذا لم أجب وأما أن أجيب بغير الصواب
فيعلم ذلك من حولى وقال الاصمعي قال لى الرشيد يوما فى خلوة يا أصمعي أنت
أعلم منا ونحن أعقل منك لا تعلمنا فى سلا ولا تسرع الى تذكيرنا فى خلا واتركنا
حتى يبتدئك بالسؤال فاذا بلغت فى الجواب حسب الاستحقاق فلا ترد الا أن
يستدعى منك ذلك قال فعلمنى أكثر مما علمته فكانت علوم خلفاء الاسلام
معادلة لشجاعتهم وتجاريهم فى الحروب فقد اجتمع فيهم الرأى والشجاعة
والسياقة والبراعة فلم يكن عندهم السيف اصدق انبا من الكتب بل

تساوى عندهم الصديق بين السيف والقلم والعلم والعلم فلم يقل لهم كما قيل
لغيرهم فصنع ما كنت حليت * به سيفك خلطالا
فما تصنع بالسيف * اذ الم نك قتالا

ولا قيل لهم

دع البراع لقوم يخشون به * وبالطوال الردينيات فافتخر
فهن أقلامك اللاتي اذا كتبت * يوما أنت بعدا من دم هدر
وكيف يقال هذا لمن يقضه بالادابين على حد سوى وانما يحسن أن يقال
عن الخليفة المعصالي

ان سار سار لواء النصر يقدمه * أو حل حل به الآمال والكرام
يلقى العدا بجيوش لا يقاومها * كثر العشار الا أنها هم
فقد وسعوا قوتحاتهم أكثر من الرومانيين ومدنوا البلاداً أكثر منهم أعظم
تدبير حتى صار من المعلوم أنه لا يتيسر لاحد من السلاطين أن يملك مثل الخلافة
الاموية في سعة ملكها ولا أن يدخل في مثل نظمها وملكها فقد كان خلفاء
بنى أمية يملكون الصين والهند والسند وخراسان وبلخ وبخارى وسمرقند
ونيسابور والحجم والروم والعراق ومصر والحجاز واليمن والمغرب بأسره
والاندلس وسائر أقطار الاسلام من مشرق الارض الى مغربها ومن أقصى
الجنوب الى أقصى الشمال وكان لا يتولى أحد في بلد الامارة في شيء الا بأمر
الخليفة وكذلك أوائل خلفاء بني العباس كل منصور والمهدي والرشيد
والمأمون كما أتى تفصيل ذلك في تاريخ الخلفاء وانما كانت دولة الرومانيين
أشبهت في الغلغلة على البلاد الكثيرة بالدولة العثمانية في الجبله لا من جميع
الوجوه ولا في الرسوخ والثبات ولا في الشهامة الاسلامية ولا في العدالة
بين الرعية وكيف يحصل الرسوخ وثبات الدولة مع التغيير والتبديل والنفي
والاثبات وكثرة التولية والعزل ببعض الاقيان وان كل قيصر يعصب الدنيا
بلا أمل وينادي عليه حين مصرعه سبق السيف العذل فأكثر القياصرة
ساقهم البغي الى صرعة اللعين لم تحط على بهم كم أملاوا المكروه في عزهم
فقالهم مكروه آمالهم

فان الجنود الرومانية لما علموا أن طاقيطس قيصر لم تحكه التجارب ولم يكن

لهم من فحولة الرجال حظ ولا نصيب حصل بينهم وبينه وحشة ونفور وكثر
منهم في حقه القيل والقال واشتد الخطب وعظمت الامور ولم يكن له
في قلوبهم الهيبة القيصرية لقصوره عن درجة سلطه غورليانوس الذي هو
بطل صنديد خبير بالقنون العسكرية فقامت الفتنة بين الجنود وأشهروا
العصيان فأراد قائدهم أن يسكن غضبهم بإرشادهم من الضلال الى الصواب
وقال لهم ان مجلس رومة أعطاكم طاقيطوس حيث القسم توليته عليكم
وها هو يعدكم بالاكرام والانعام ويلتكم القصد والمرام فلم يقد ذلك أدنى
فأئدة بل قتلوا هذا القيصر في سنة ٣٤٧ قبل الهجرة وبايعوا بعده
بروبوس قيصر لما رأوا من الغبطة على حسب الاصل والقاعدة

(الفصل الثامن والثلاثون)

(في الملك بروبوس قيصر)

تولى هذا القيصر الامبراطورية سنة ٣٤٧ قبل الهجرة وبقي حكمه
الى سنة ٣٤٠ وحكم نحو سبع سنوات
كان أبوه هذا الامبراطور بستانيا وكان الابن قد خدم في الجنود الرومانية
وارتقى الدرجات العسكرية وتسمى بروبوس بمعنى الصالح وكان مستقيم الحال
حسن الفعال جديرا بتحقيق ذلك العنوان أقام على صلاحه واستقامته
أعظم برهان فقد عرف الجنود شجاعته بحصاره المداش والثغور وحروبه
وفتوحاته فكان دائم المعاداة عند العسكرية من فحول الرجال ورؤساء
الابطال ولما حضر والاه الحلة الملوكية ليلبسها امتنع أول الامر من
قبولها فألحوا عليه في ذلك وانتهى الامر أن رضى بإسها وقال لهم لعلكم
قلدتموني القيصرية بداهة وبدون روية وستندمون على ذلك فاني فيما
يخص السواهي والاوامر والحدود والزواجر لا أرفع لاحد منكم أدنى
خاطر

فكان أول شروعه تمهين الحدود والثغور والعناية بمحافظتها ودفاع الاعداء
ومنهم من الاغارة عليها ثم شرع في حرب الغوطية والصقالبة والافرنجة
والالمان واتصر على الجميع وقد أرسل قبائل رومانية خلف نهالرين

التوطن بالبلاذ التي وراء ذلك وأرسل عدة قبائل جرمانية الى الاقاليم
 الشرقية الرومانية وأذل أهل فارس وأهانهم وأدخل تحت الطاعة والانتقاد
 أهل صعيد مصر وأمكن فتنتهم وعاقب بالعقاب الشديد أحزاب تلك
 المدن الصعيدية كأهل مدينة قنط وأخيم ومنشاة أخيم وبعد هذه الغزوات
 المنصورة حضر الى المدينة رومة ليستريح فيها من المتاعب والمشاق فدخلها
 بموكب عظيم ومشى أمام عربته أسراء الأمم والدول المهزومة ولما تم
 دخول أهل صعيد مصر تحت الطاعة والانتقاد وخرج هذا القيصر منها
 مؤيداً منصوراً بقصد رومة كان النائب على مصر آنذاك أميراً يسمى
 ساطرينوس فاعتق هذا النائب فرصة عود القيصر الى رومة واستعان
 بمن استماله الى نفسه من أروام الاسكندرية وأعلن لنفسه بالامبراطورية
 ثم هلك قبلاً وعادت حكومة القيصر بمصر على حالها ثم تولى نيابة مصر من
 طرف القيصر أمير يسمى اخليس فراودته نفسه كسلفه أن يتولى امبراطور
 نيباعوه على ذلك بمصر وقتل كالأول وفي عهد بروبوس غرس الرومانيون
 أرض الملاعب بالاشجار والغابات وأطلقوا فيها أنواع الباع والحوانات
 لاجل تمرين الاهالي على الصيد والقنص في هذه الميادين الواسعة ورتبوا
 في هذه الميادين المناوشة والمهارشة بين الاسود والنمور والذئب ومصارعة
 المصارعين

وقد تمكن الصلح التام والطمأنينة العامة في داخل المملكة الرومانية في
 أيام هذا القيصر اذ كان معيناً على التجارات والصناعة والفلاحة
 والزراعة لاسيما غرس الكروم في بلاد الغلبة والجرمانية والبلاد
 الاندلسية وتكثير العنب وكان مع ذلك كله لا بدع هذا القيصر الجند في
 البطالة بل يستعملهم في الخدم العمومية كتشيف البرك والمستقعات
 وعمارة القناطر والجسور وفتح الترع والخجان وتطهير الانهر وتحسين مجاريها
 لاصلاح حال المزارع والمنافع وكان لا يدعهم للاستراحة من الاشغال
 العمومية طرفة عين وكان قد أئذ بهم قبل ذلك كما سبقت الاشارة اليه
 بقوله لعلكم قلدتموني القيصرية بدون روية وستندمون على ذلك فاني لأرعى
 في الاوامر والنواهي لاحد منكم أدنى خاطر فكان الامر كما قال فسم الجند

من استدامة الخدمة على هذا المنوال وأغضبهم استقرارهم على هذه الحال كما هي عادة المترفين وأهل الكسل الذين لا يحبون الادعة والتراحم مع الخلق بالهرج والمرج فقتلوه عند بعض البعيرات وكان بالمرور للاخطة العمليات النافعة فكان قتله رزاً عظيماً على الحكومة الرومانية لانه كان مثبثاً بأحياء البلاد وتثبيط العباد كما قيل

لعمركمما الرزية فقد مال * ولا فرس يموت ولا يعبر

ولكن الرزية فقد شخص * يموت بموته خلق كثير

ومما حلهم على قتله أيضاً أنه قال لجنوده في الحفل العام سيأتي على يوم لا أحتاج فيه الى عسكر منكم ولا جنود يربذلك أنه بالعدل تقل حاجته اليهم كقولهم لو استقام الناس لارتاح القاضي فكان التقوى بهذا الكلام من قلة الحزم وعدم الاحتياط حيث أفادهم أنه سيستغنى عنهم ورب كلام في القلوب كلام فخر جانبه وجانبهم وقع الافراط وخير الامور الاوساط وكان مقتله في سنة ٢٤٠ قبل الهجرة ودلى بعده فاروس قيصر

(الفصل التاسع والثلاثون)

* (في الملك فاروس قيصر) *

فولى هذا القيصر الامبراطورية سنة ٢٤٠ وبنى حكمه الى اثنا سنة ٢٢٩ قبل الهجرة فكانت مدته حكمه سبعة عشر شهراً لما مات بروبوس لم يكن في أمراء الرومانيين من يساويه في شهامته وشجاعته وحسن تدبيره وسياسته لانه كان منفرداً بجزية جمعه لهذه الاوصاف الحميدة وأنه لا يختلف بشئله وانما رأوا أن فاروس رئيس الجند القيصرى هو شجاع في الجملته وصاحب بأس وقوة ومولاه في مدينة أروينة بملكة الغلبة وان لم يكن ذا بيت عريق في المجد والشرف الا أنه لم يخل من المجد الذاتي والشرف المكتسب فغضر بنفسه الى رومة بعد انتصاب العساكر وطالب مسند الامبراطورية حيث وجدت فيه الاهلية فأجابه مجلس رومة الى ذلك وولى امبراطور على هذه الممالك وكان له ولدان أحدهما يسمى قارينوس والثاني يسمى نوم يانوس فيجتردوا نيته قلداً له بمنصب الاغسطسية يعنى أن كلا

منها يقبأ أغسطس وفي سنة توليته عاد القرس والصقالبة للاغارة على
الاقاليم الرومانية فسار بنفسه الى بلاد آسيا فهزم الصقالبة والقرس وأخذ
بعض منهم ثم حصل انقلاب عظيم عليه فاخذ غيلة وقتله بجده بعد أن حكم
سبعة عشر شهرا وذلك في أثناسنة ٢٢٩ قبل الهجرة وأعقب ولديه
وهما قارينوس ونومريانوس فقتلدا الامبراطورية الرومانية في هذه السنة
وقتل في هذه السنة فكان حظهم امن الملك كخطأ يهمل من سوء البخت
ونحس الطالع كما سيأتى فيما بعد

(الفصل المكمل للاربعين)

(في الملك قارينوس قيصر ونومريانوس قيصر)

توليا الامبراطورية سنة ٢٢٩ وقتل في عين هذه السنة
وذلك أن نومريانوس كان معتدلا المزاج لين العريكة سهل الاخلاق فصيح
المنطق يبلغ المقال حتى ان المجلس الروماني شهد له بأنه خطيب عصره ومقوال
دهره وان خطابه عند اليونان والرومانيين أصل عظيم في الدولة يعين على
التحسين والتفكير وفي سائر الازمان والى الآن في الدول المتقدمة والمتأخرة
تعد الخطبة الحسنة والمقالة المستحسنة منقبة ومفخرة وللعرب العرباء من
الخطب جوامع الحكم فهم فصحاء كل زمان سباق حلبة البيان وأنعمهم
سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فله عليه الصلاة والسلام الخطب التي
حكمت فصاحتها بالحق والقسط وبالفهاهة لتجيبان وربعت خالصة عن
مجاراةها سوابق الأذهان فلهما قوله عليه الصلاة والسلام أيها الناس افي
لكم عالم فانتهوا الى معالمكم وإن لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم ان
المرء بين مخافتين بين أجل قدمضى لا يدري ما اقمه صانع فيه وبين أجل قد بقى
لا يدري ما اقمه فاض فيه فليأخذ العبد لنفسه من نفسه ومن دنياه لا آخره
ومن الشبهة قبل الهرم ومن الحياة قبل الموت فوالذي نفس محمد بيده
ما بعد الموت مستعقب وما بعد الدينار الا الجنة أو النار وكان داود عليه
السلام من أخطب الخطباء قال تعالى في حقه وأتينا الحكمة وفصل الخطاب
فقبل ان فصل الخطاب هو ذكر ما بعده في الخطبة وانه أول من قالها ولعله

أول من قالها في بني اسرائيل ليوافق قول العرب ان أول من قال أما بعد قدس
ابن ساعدة حيث يقول

لقد علم الحى اليانعون اننى * اذا قلت أما بعد انى خطيبها

وفي المثل أخطب من قس بن ساعدة وهو خطيب العرب فاطبة

وفي الحديث ان شعيبا عليه السلام اخطب الانبياء وهل الخطابة الا الاعراب
عما في النفس من المعاني الجليلة

لا يجهنك من خطيب خطبة * حتى يكون مع الكلام أصيلا

ان الكلام لى القواد وانما * جعل اللسان على القواد دليلا

ومن ايا حسن البيان ينفع في جميع الازمان فقد استولى به يوسف عليه
السلام على مصر وملك زمام الجمهور وأطلعهم ملكها على سائر الامور فان
العزير لما رأى فصاحته أعلى مكانه وأعظم منزلته وربما سوت الفصاحة
غير مسود فرفته من الحضيض الاوهد وفي كل عصر لم تزل الفصاحة تشيد
لاهلها ذكرا وترفع لهم قدرا

فقد خلد التاريخ منقبة فصاحة نومر يانوس قيصر وبيانه وجعل شهادة
المجلس الروماني له بذلك دليلا وبرهانه فلما تقلد هذا القيصصر المدوح السيرة
سار الى بلاد فارس اذ كانت دولة القرس على بلاده مغيرة وبهيمته أبروس
أبوزوجته فقتل أبروس في أثناء الطريق وكان دقليانوس رئيس غلمان
القيصر معه في هذا السفر فأخذ بنأره من قاتله أبروس بقتله وتولى أغسطس
يعنى قيصر ولم يكن ضربه عنق أبروس محض انتقام لسيده بل السبب الاصيل
في ذلك ان كاهنة من بلاد الغالية بشرته أنه يصير قيصر اذا قتل خنزيرا
والواقع ان لفظ أبروس باللسان اللاتيني معناه خنزير ونقل الى الغالية من
معناه الاصيل فكان قتله لابروس لتحقق ما بشرته به الكاهنة فقد تولى
القيصرية لكن على بلاد الغالية فقط ولم يقصد بذلك الاستيلاء على رومة
بوصف الامبراطورية العمومية وأما فارينوس أخو نومر يانوس المقتول
وابن فاروس فكانت أوصافه على خلاف أوصاف أخيه السالفة الذكر
اذ كان فاسدا الاخلاق منهمكا على الفواحش والقبائح مخالطا لاهل السخيرة
والالعب والاغاني لا يحسب الامن لاخلق له من أمثاله يتزاي برى النساء

فيلبس اللائي للتنفيسة والجواهر الكريمة ولايتام الاعلى بساط الزهور
والرياحين وكان يطيب خاطر الالهات والجنود بالولائم والضباقات ويدعوهم
الى الاعادي العمومية في الميادين والمنتزهات ويلهيمهم بجميع أنواع الافراح
والمسررات فلهذا كانوا يصفون عن معائبه ويفضون بالشاء على صلاته
ورغائبه ولكن لما علم دقلبيانوس أن قاريينوس قرينه ليس أهلا لامبراطورية
الرومانية وأنه مرتكب للمثالب الدينية سار بجنده اليه ودانمته وأضمر له
النوء فلما علم قاريينوس بذلك صعد من سكر الغفلة وألقع عما كان عليه من
الفعال الخجلة وأبرز ما لا مزيد عليه من الشجاعة وحارب خصمه ودافع
عن مسنده مع غاية البسالة والبراعة فكانت الحرب بين الفريقين مجالا
فانتهى الحال ان ظهر هذا القيصر على دقلبيانوس وهزمه وكمصر جيشه
وحطمه ولكن وقعت البغضة بينه وبين جنوده فقاموا عليه وقتلوه في أثناء
نصرته الموجبة لعوده وذلك في سنة ٣٢٩ قبل الهجرة وتولى بعده
دقلبيانوس الذي عم ظلمه مصر وكان حكمه عليها محض مضرة

(الفصل الحادى والاربعون)

في الملك دقلبيانوس قيصر ويسمى دقلبيانوس ودقله
أيضا وفي الملك مقسيميانوس هرقل أغسطس

تولى دقلبيانوس الامبراطورية الرومانية في سنة ٣٢٩ قبل الهجرة
وبقى حكمه الى سنة ٣٢١ فكانت مدة حكمه ثمانية عشرة سنة وكان
مولده بمدينة دقليا دالماجيا ببلاد النيماس من عائلة خاملة الذكرا طلة من
حلية الجهد والحسب فدخل من زمن صباه في الخدمة العسكرية واشتهر
بالبراعة في الفنون الحربية والادارة الملكية ولم يشتهر بالشجاعة والبسالة
في المشاهد والمواقع ولا عرف فضله بالقتل بالاعداء ولا باقصام الوقائع
فكانت قريحته في التدبير كقريحه أغسطس أقل قياصرة الروم يميل بالطبع
الى حسن التنظيم والترتيب واحكام التدبير والسياسة والتحسن بالحزم
والتبصر في عواقب الامور وكان يميل كل الميل الى السلم والصلح وتسبب
الافعال وتسبق الاحوال وبالجملة فكان معددا من أكبر مدبري الدولة

الرومانية ووجعالم تكن تسمح بمثل هذه الدولة من مدة قرون سابقة
وكان سنه حين تولى الامبراطورية أربعين سنة وهو السن المعهود فيه
استكمال الرشد وقد أحس باحتياجه الى عضد يقوى ساعده وظهر يقتسم
معه حمل أعباء المملكة الواسعة وكان مقسيميانوس هرقل من أبناء وطنه
ومن أشجع الجنود الروماني لكنه فقط غلب الطبع دنى الاصل كان أبوه
من رعاة الماشية وترى الابن في العسكرية حتى انتظم في سلك الشجعان
فأدله الامبراطور وقامحه العسكرية وساءوا بنفسه في نفوذ الكلمة وتنفيذ
الاحكام ولكن اقسام القيصران الامبراطورية الرومانية وبلادها قسمة
مهايا وتراض فأبقى دقلطيانوس لنفسه الاقطار الشرقية وخصص لشريكه
تدبير الاقطار الغربية وجعل مقترح كومة مقسيميانوس مدينة ميلان
بايطاليا وامتاز دقلطيانوس على شريكه بملاحظة عموم مصالح البلاد الرومانية
مشرقية أو مغربية وجعل دار اقامته في مدينة ازميز باقليم رسة فبهرت
مدينة رومة وانسلح عنها كونها دار السلطنة الرومانية من عهد هذه المقاسمة
التي وقعت في سنة ٣٣٣ قبل الهجرة فكان هذان القيصران
يشتركان في تدبير المملكة معام غاية الوفاق وتواطى الرأي فكان دقلطيانوس
رأس الدولة ومقسيميانوس عضدها

ولما ذهب مقسيميانوس الى الاقطار الغربية التي اختص بتدبيرها كان
الفلاحون يبلاد الغلبة وهي فرانسا وماجاورها عاصين على الدولة الرومانية
مثيرين للفتن والشرو فأسكن قنتهم وأدخلهم تحت الطاعة والاتصا د وكان
قد ظهر يسلاد الانكليز زيس خارج يدعى فارسيسوس اجتمع عليه عصب
الاشقياء من أهل الصيال وقطاع الطريق وقصدى معهم للابذاء وقصد أن
يتشبث بذلك ليكرز به ويستقل بمملكة الانكليز ويفصلها من حكم
الرومانين فاستعمل أمر هذا الخارج حتى ان مقسيميانوس حاربه بجنوده
بدون طائل فلما ظهر هزم مقسيميانوس عن ادخاله ومن معه من الافرنج تحت
الطاعة اضطر الى الاستعانة على هذا الشقي بشريكه آخرين يجهلها
قيصرين فانتخب لذلك قسطنطيوس خيوس من أهالي سواحل ايطاليا من
بيت مجدوشرف وانتخب قيصرًا ثانيًا يسمى والبس الراعى ويقال له غاليرس

أيضا فألبسهما حلة القيصرية فصارا قيصرين منصبا وعنوانا وقد صار
عاقبة أمرهما أن ورثا بلاد قسطنطينوس ودقلطيانوس كما يأتي بيان ذلك وكان
وقوع هذه القاسمة والتشريك في سنة ٣٢٠ قبل الهجرة فاجتمع على
حكومة الدولة الرومانية أربع ملوك ملكان كبيران يلقب كل منهما بأغسطس
وهما مقسيميانوس ودقلطيانوس وملكان دونهما في الرتبة يلقب كل منهما
قيصرا وهما قسطنطينوس وغاليرس وكانت تسمى هذه الحكومة الرومانية
اذن بالدولة الرابعة فكان هذا الترتيب المستعمل على قسمة المملأة تأييدا
لإفصال رومة وقسطنطينية وامتياز كل منهما فيما بعد بقيصر حيث اقتضى
هاتان المدينتان فيما بعد بهذا الترتيب وانما الفرق بين المشاركة السابقة
واللاحقة أن الدولة الرومانية في الأولى باقية على وحدتها حافظلة لكليتها
الجسمية لم يحصل فيها تمزيق لأن القيصري الحقيقة انما هو دقلطيانوس وحده
حيث يده زمام المملكة والرياسة العمومية وشركاؤه في الواقع ونفس الامر
انما هم أعوان تابعون له كالوزراء واما المشاركة اللاحقة فالقاسمة فيها
افرازية كل قيصر على بلاده كما سيأتي بيانه

وهذه الشركة الرابعة قد أفادت فوائد جدية ونعضدت بها الدولة حتى صارت
لا يخشى عليها أدنى شيء فان قسطنطينوس قهر أربعة الافريقية وهزمهم شر
هزيمة كما أن غاليرس دفع الفرس وغلبهم ومع هذا فانتجت هذه الشركة فيها
بعدها ما أدى الى اختلال الحال وظهور ما لا خير فيه من الجدال كما في الشركة
الثنائية السابقة اذ من المعلوم أنه لا يصلح اسدان في غاب ولا سيفان صارمان
في قراب وبسبب الحصر الصغير مائة فقير ولا يسع ملكين اقليم واسع الرحاب
وأدل دليل على ذلك وأقوى شاهد ما حصل في القرن السابق وما قبله بمصر
بين الاوجقلية وبين الكوليمان اذ لا زال الشقاق بينهم يحرك بالشركة من
ضغن القلوب عناد او عناء وحسبك لو كان فيهما آلهة الا الله لا فسدنا

وفي أثناء تصار هذين القيصرين كان دقلطيانوس مجتهدا في تحسين الادارة
الملكية وتهذيب الاحكام والقوانين السياسية وتسوية الخواص والعوام
في المحكومية وادخال الجنود تحت القوانين والاحكام العسكرية ونشر
لوائح الضبط والربط وقد اشتغل أيضا هذا القيصر بتحصين أحوال مدينة

ازمير وانطايا وجص وقرطاجنه وقد جدّد هذا الامبراطور في الديوان
الروماني الرسوم والآداب المشرقية وزينة السلطنة والطنطنة على عادة
سلاطين المشرق من الفرس وغيرهم ولم تكن هذه الآداب معهودة في
دواوينهم

ولما صارت المقاسمة الرباعية وتوزيع الاقاليم بين الملوك الاربعة وقعت مصر
من ضمن بلاد المشرق التي صارت لدقلاطيانوس وكان نائباعليها شخص يقال
له اخيلوس ويسمى آجله وكان قد تغلب عليها نفسه واستبد بحكمها فبادر
دقلاطيانوس أن يعيدها كما كانت ويدخلها في الحكومة الرومانية فحاصر
مدينة الاسكندرية وقطع خلبان النيل لتصرف مباحه التي تجري فيها
السفن لينزع عن هذه المدينة الميرة والذخيرة فضيق على خصمه واستولى على
الاسكندرية بعد حصار ثمانية أشهر وبعد أخذها عنوة استعمل هذا القيصر
أنواع القلم والجبر وتجاوز الحد وفي ذلك وارتكب ما لا يحظر على بال أحد من
المائتم والمظالم فحرق مدينة الاسكندرية وسبي أهلها وأغرى عليهم جنده
فعاثوا في الارض وأهلكوا الحرث والنسل حتى حكى بعض أجبارة نصارى
أن هذا القيصر ركب ظهر فرسه وأمر جنده أن لا يتركوا القتل ما لم تسل
الجماء على الارض وتعالوا حتى يصل الدم الى ركة فرسه قال بعض المؤرخين
فكان من اللطاف الالهية أن فرس هذا القيصر سقطت به على الارض
قتلوت ركبته اها بالدماء فنفذ كلامه في الجملة فأبطلوا القتل ولهذا صار حكم
دقلاطيانوس على الرومانيين تاريخا للمصريين تؤرخ به القبط الواقعة ويسمونه
تاريخ الشهداء ويوافق سنة ٣٣٩ قبل الهجرة وتسعة وثلاثين يوما
فكانت نصرة دقلاطيانوس على آجله كما أنها قوت لمصر جديدا من طرف
الرومانيين ومفتاح الخبير للمصريين وذلك لأن هذا القيصر بعدما صار منه
ما صار من الجور والقلم عاد الى ساوله الاستقامة والانصاف عقيب تمكنه
بالنصرة على العصاة فعمل لمصر قوانين خاصة وصالح أهل الصعيد وترك لهم
من جنوب أسوان جهة الشلالات يستبدون بحكمهم ويراطون في الثغور
والحدود ويحفظونهم من هجوم الاعداء ورتب لهم الجوامك والعوفات
اللازمة في تطهير المحافظة

وقد كان واليرس جبروتيا يظلم من الاجلاف جهوى الصوت مزجحا في
 حركاته وسكاته يحسد دقلطيانوس على لقب أغسطس ساعيا في حيازة هذا
 اللقب لنفسه مدمن التهديد والتخويف لدقلطيانوس وهو الذى أغرى على
 تعذيب النصارى في السنة العاشرة القى آخر الشدايد القطيعة فانه عندهم
 بسائر أنواع التعذيبات وأوقع فيهم القتل وكان يحملهم على الردة عن دين
 عيسى عليه السلام والرجوع لعبادة الاصنام وقد أحرق القصر المملوكى
 مرتين واتهم أهل الديوان الرومانى أنهم حرضوا الالهات على قتاله فهذا
 القصر يعنى والريوس هو الذى تسبب في سفل الدماء بسائر الاقاليم الرومانية
 ولأن السنة على النصارى بالديار المصرية في أيام دقلطيانوس كان ابتدؤها
 لتسكية خصوص النصارى الا أنه انتهى بهم الامر حيث عم الخطر أنهم
 اشتركوا في المغضوية والنكبات مع أرباب العقائد القديمة المصرية
 فعمت النعمة للمتسكين بالصراية أوبدين الصابئة بالديار المصرية فتسبب
 عن عموم النعمة للطرفين تقارب النصارى والصابئة من بعضهم وتودد بعضهم
 لبعض وعداوتهم للحكومة الرومانية واشتمزاز نفوسهم منها ولهذا الداعى
 طالت مدة المغضوية من الدولة على الطرفين ولبيل تحزب الطرفين على
 الحكومة الرومانية أن أصحاب العقائد المصرية القديمة أثقذوا النصارى
 الذين ركنوا اليهم واحتموا بجنبهم ولم يكرهوا بهم ومع ذلك فاختلاف العقائد
 جاهلية ونصرانية واختلاف مذاهب النصارى وتشعبهم الى فرق متباينة
 وكثرة المناجرات والمناقشات فى الاديان كل هذا نشأ عنه مقاسد عظيمة
 لاسيما الاختلاف فى المذاهب النصرانية وكثرة الجدل فيها ومع ذلك
 فالعقوبات الواقعة على النصارى وتعذيبهم بالامر القيصرى مع الشدة
 والقساوة لم تمنع انتشار دين النصرانية فى الاقطار الرومانية ولم يكن الدين
 العيسوى موجبا لضعفها وانحطاطها الا بعباوانما الذى أضعف بالاصالة
 هذه الدولة على التدرج انما هو تقسيم المملكة تقسيما جديدا باختيار
 دقلطيانوس لشركائه لانه ولو أفاد النصر على الاعداء من جهة فقد ترتب
 عنه من جهة أخرى طمع رؤساء الاقاليم فى جميع الجهات بالاستقلال
 والانفصال وقد حدث عنه أيضا ما لا يطاق من الحروب الداخلية والخارجية

ويضاف الى ذلك ما هو كامن في هذه المملكة من المصائب والثواب
الخصوصية فكان معود هؤلاء القياصرة على سرير الملك نوعا من أنواع
المصائب على الحكومة المركز يضافا الى مصائب أخرى خصوصية محلية
وبقي الامر على هذه الحالة من ايام دقلطيانوس الى ايام قسطنطين
ولما كان دقلطيانوس حين حقد غاليرس عليه قد كبر سنه ووهن عظمه
وكان لا يمكنه أن يقاوم ذلك القيصر وبصته عن مرامه ولأن يجيبه الى
التماساته الصعبة ولا يستطيع مخالفته خلع نفسه من المملكة طوعا واختيارا
في سنة ٢٢١ قبل الهجرة وازوى في أرضه واشتغل بالزراعة والفلاحة
واقضى به في ذلك مقسيمانوس الشريك الاخر فعزل نفسه ولم يبق من
القيصرية الرابعة الا غاليرس وقسطنقيوس خيوردس فصفا الوقت لغاليرس
وتصرف في الامبراطورية كما شاء

وتلخيص عبارة المقرري ان دقلطيانوس أحد ملوك الروم المعروفين
بالقيصرية كان من غير بيت الملك فلما ملك تجبر واستلم ملكه الى مدائن
الأكاسرة ومدينة بابل واتخذ تحت ملكه مدينة اقطاكية واستخلف على
مدينة رومة وجعل لنفسه بلاد الشام ومصر الى أقصى المغرب وخالف عليه
أهل مصر والاسكندرية فبعث اليهم وقتل منهم خلقا كثيرا ووقع بالنصارى
فاستباح دماءهم وغلق كنائسهم ومنع من دين النصارى وجل الناس على
عبادة الاصنام وأسرف في قتل النصارى وهو آخر من عبد الاصنام من ملوك
الروم ويقال ان رجلا يقال له آجله نار بمصر وخرج عن طاعة الروم فسار
اليه دقلطيانوس وحصر الاسكندرية ثمانية أشهر حتى أخذ آجله وقتله وعم
أرض مصر كلها بالسبي والقتل وكانت أيامه شنيعة قتل فيها من أصناف الامم
وهدم من بيوت العبادات ما لا يدخل تحت حصر وكانت واقعه بالنصارى
هي الشدة العاشرة وهي أشنع شدائدهم وأطولها الانهادات عليهم مدة
عشر سنين لا يفتريوما واحدا يحرق فيها كنائسهم ويعذب رجالهم ويطلب من
استمر منهم أو هرب ليقول يدينك قطع أثر النصارى وابطال دين النصرانية
من الارض فارتد خلائق كثيرة جدا وعن قتل في الاسكندرية شوقا بطرومس
بطرق الاسكندرية وقتل معه امرأته وابنتاه بالسيف لامتناعهم من المجدود

للاصنام وقتل دقلطيانوس لتصارى مصر فوترخ به قبط مصر الى يومنا هذا
 كما سبق في تاريخ دقلطيانوس يعنى أول يوم منه وبين يوم الخميس أول يوم
 من سنة الهجرة النبوية ثلثمائة وثمان وثلاثون سنة قرية وتسعة وثلاثون
 يوما انتهى كلام المقرئى وقد سبق أنه خلق نفسه عن الحكومة وانصرف
 عنها وأبقاها غاليرس في سنة ٣٢١ وحسبه من الغر أنه دعاه مجلس
 رومة الى العود للامبراطورية والحكومة فتصل من ذلك وتنزه وأظهر
 الانفة عنها والعزة وأبان أنه لم يكن تركها وعينه فيها وأنه هجرها حليا
 لاسيها

(الفصل الثانى والاربعون)

* (فى الملك غاليرس قيصر وقسطنطيوس خيوس قيصر) *

استقل هذان القيصران بالامبراطورية سنة ٣٢١ قبل الهجرة وبقى
 حكمهما الى سنة ٣١١ فكانت مدة حكمهما نحو عشرين
 لما تولى الامبراطورية العمومية غاليرس اضطر الى أن يشر له قسطنطيوس
 خيوس الذى كان قيصر اعلى حكومة القليسة شركة أغسطسه ثم انتخب
 أيضا قيصرين جديدين أحدهما يسمى شورس ويقال له أيضا سوريانوس
 وكان عسكريا ولكن مجتهدا عن الفضل والشجاعة والثانى مقسمينوس
 وكان جلقا من أجلاف الهج معدودا من رعاة الغنم وكان قد انفصل عن
 الغنم والمرعى عن قرب وانظم فى سلك العسكرية بدون فضل ولا مزية
 فهذا كانت أيضا القيصرية الرومانية رابعة الحكم رئيسها غاليرس قيصر
 فبعد ما وصل هذا الامبراطور الى أقصى آماله من الرئاسة الرومانية كتب
 تعداد الاهالى بالاسماء والصفات لضرب المغارم عليهم ومصادرتهم فى
 أموالهم وتكدير صفاء أحوالهم فكانت هذه البدعة على المملكة تعد من
 العجائب وتحسب من أكبر المصائب وقد سمع هذا القيصر جميع الاراضى
 والمزارع وضرب عليها مغارم جسيمة وفاس كروم العنب بالقدم وضرب عليها
 المقرم وعدة الاشجار والمواشى وغير ذلك وصار كل رئيس عائلة أو بيت مجبورا
 على كتابة عددا ولأده وعبيده وخدمه وحشمه وتقييده ما يملكه من العقار

والمشاع في سجلات كتاب المالبه حتى ان هذا القصر أمر بتقرير الاولاد
والخدم والعبيد على ما يملكه آبائهم وساداتهم عسى أن يخالف قولهم قولهم
ويظهر الخبايا بل ربما أغرهم المقرون على عدم المواقفة والاخبار بالزيادة لعلهم
يصيبون منهم أزيد مما قرروه أولا بالاملاء وقد عين لذلك كله تسجيل خانات
فكانوا يحضرون فيها المرضى والمطلوبين وأرباب الامراض المزمنة والعاهات
المعضلة والعواجز ليقيدهم في دفترا العوائد وتعملهم وكانت المقام مضروبة
على المولودين والاموات فلم يكن أحدف أيام هذا القصر مستثنى من المقام
والصادرات وكان اذا مات أناس من المسجلين في دفترا المقام أو تفق
حيوان بالموت من الحيوانات المضروب عليها العوائد وزع ما يخصه على
الاحياء بدون قنات شيء من المطوبات فلم يحل انسان ولا حيوان من ظلم هذا
القصر وعصفه حتى شمل جوره الشحاذين والسائلين والفقراء والمساكين
فكان اذا عجز أحد عن أداء المطالب وأظهر الفقر والمسكنة وسأل الناس
مافي أيديهم أمر يجمع من يتصف بذلك وشحنهم في السفن وتغريتهم في البحر
ليجتنب الناس المسئلة والتخلق بالمسكنة والفقير حتى لا يتخلص أحد من
المقام ودفع ماضرب عليه ولكن اقتضت الحكمة الالهية أنه لا بد من
الاقصااص من الظالم للظالم * وعند الله تجتمع الخصوم *

وذلك ان قسطنطينوس خيوس شريك غاليرس الجائر كان يحكم بلاد بالعدل
والاحسان ويرفق برعاياه ليعيشوا في جبر الامان والاطمئنان فمات في
مدينة يورق ببلاد الانكليز بعد ان عاش عيشة مرضية فأسف لموته جميع
الرعية وورث منصبه ابنه قسطنطين الملقب بالاكبر وقد تصادف في هذا
الزمن أنه نارت فتنة عظيمة في ايطاليا اقل فيها سويس أحد الشركاء وتولى
بده الامبراطورية مقسطنقوس بن مقسيمانيوس الذي كان شريكا
لقسطنطينوس فاستشاط واليرس من ذلك غيظا واستغاث بدقلطيانوس الذي
كان سبياني خلعه وكان دقلطيانوس أقام في مدينة سالونه وانزوى فيها واشتغل
بالحرث والغرس وعاش عيشة هنية فلما كتب اليه واليرس يعرض عليه
المشاركة في الامبراطورية أجابه بقوله أريد أن تحضر عندي لترى الناس
المورق المخضر الذي غرسته بمدينة سالونه فلعلك لو سرتحت النظر في هذا

الفرس النصير لا تخاطبني أبدا في شأن المملكة فلما رأى منه الامتناع في العود الى الامبراطورية انتخب شخصا غيره يسمى ليقينيوس ولقبه بعنوان أغسطس فكان هذا الانتخاب آخر أفعال غاليرس وغاية تدبيره فرض عقب ذلك مرضا شديدا حمل به على حين غفلة فأنزل جمعه وتقرح وقامى ما قامى من حدة الالم الذي اشتد به وبرح فمات حيث تناهى به الوجع وما أغنى عنه ماله وما جمع وتولى بعده مقسيمينوس الثانى شريكه فى الامبراطورية واستولى على الرئاسة العليا على الدولة الرومانية وذلك فى سنة ٢١١ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسمية

(الفصل الثالث والاربعون)

فى الملك مقسيمينوس قيصر الثانى وقسطنطين قيصر الاكبر
ومقسنقوس قيصر وليقينيوس قيصر

كانت مدة حكم هؤلاء الشركاء فى الحكومة الرباعية من سنة ٢١١ الى سنة ٢٩٩ نحو ثلاث عشرة سنة

فقد اجتمع على قبض زمام الدولة الرومانية فى هذا العهد أربعة من الامبراطرة ولا شك فى ترقب الشقاق بينهم وأنه يحصل ولا بد ومن عادة الشقاق أن يترتب عليه الحرب فقد اتحد قسطنطين مع ليقينيوس واتحد أيضا مقسنقوس مع مقسيمينوس فحدث من هذا الاتحاد حربان متخالفان متباينان بالكلية فكان مقسنقوس حاكما على الابطالية وقد سلك معهم مسلك الظلم والجور فاشتد عليهم الامر وفشاقهم العسف والجور فاستغاثوا بقسطنطين ليخلصهم من ظلم قيصرهم وكان قسطنطين المذكور مشهورا بكل الرأفة والشفقة وغاية الشجاعة وبالمعاماة عن الملة النصرانية ولكن لم يكن فى امكانه أن يجهز من الجنود الأربعةين ألف مقاتل وكان عساكر خصمه تنيف عن مائة وستين ألف نفس فلهدأتردد قسطنطين فى اغاثة الطليانية وصار يقدم رجلا ويؤخر أخرى ثم صمم أخيرا على الاغاثة لوجوده حين اقتضيا نصيبه على الحرب وذلك أنه تصور له ولجميع جنده أنهم رأوا فى السماء على دائرة كوكب الشمس شكل صليب مكتوب عليه بالرومية أنت تغلب عدالتهم

رأى في المنام حبراً من أحبار النصارى يأمره بأن يتخذ صورة الصليب شعار
القيصرية على سلاح جنوده وعلى أعلامه وشوذه فمن هذا الوقت اعتمد
قسطنطين على هاتين الحادثتين في حرب خصمه وحزم بالنصرة عليه وجعل
شعار الصليب على الأسلحة واليارق والرايات في القيصرة الرومانية وكانت
قبل ذلك شعار القياصرة عبارة عن صور صنيعة فأبدأ قسطنطين بأن اتخذ
لنفسه بزة مطرزاً بالصليب ومكلاً بالجواهر على شكل صليبي ورقم عليه اسم
عيسى بن مريم عليه السلام بالحروف الرومية وصورة المسيح متوجاً بتاج من
الذهب ثم أمر قسطنطين جنوده أن يرسم كل منهم صورة الصليب على كتفيه
وسلاحه فأجابوه جميعاً إلى ذلك وسار بهم حتى اجتازوا جبل ألبه بإيطاليا
فتقاتلوا مع جيشين عظيمين من جيوش خصمهم فهزموا البليشين ثم استقروا في
طريقهم حتى وصلوا جبلاً يسمى جبل مليوس تحت أسوار رومة وكان
مقنعقوس قد صف هناك جميع جنوده لينتقوى بهم على جنود خصمه
قسطنطين فانهزمت جيوشه في أقل مدعة فقتلوا هارين وكانت النصر
لقسطنطين وفي صبيحة اليوم الثاني وجد مقنعقوس غريقاً في نهر رومة
وكان ذلك في سنة ٣١٠ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة
وأزكى التحية

ثم بعد ذلك بسنة اتصل ليقنيوس رفيق قسطنطين على مقسيميوس قيصر
وقبض عليه وجبره على قتل نفسه فهذا ارتفع شأن قسطنطين من ذلك الوقت
واستعمل أمره وقويت شوكة وعظم قدره فخذ عليه رفيقه ليقنيوس
غيرة منه وحسد افتناوا وقصد أن يصده عن مشروعه وينعمه عن جولانه
وتقلعائه فوقع الحرب بينهما فانهزم ليقنيوس وقتل في المعركة فبقى
قسطنطين منفرداً بالملكة الرومانية بدون مشاركتها ولا منازع وكان ذلك
سنة ٢٩٩ قبل الهجرة ودخل رومة بموكب عظيم حسب العادة عقب
ما حصل لهم من الاقبال والسعادة فجعل الصليب زينة موكبه وعلامة طالع
موكبه حيث اتصرت به وصمم على أن يدخل في دينه ومذهبه فصور صورة
نفسه بشكل تمثال فأبضا يسده على صليب فعاد أهل رومة ذلك من أعجب
الاعاجيب لما أن عادة قياصرة رومة أن أحدهم إذا دخلها في موكب حربه

أوصله قبض يده على رقبته ولم تطل هذه العادة عندهم إلى أن أحدث
قسطنطين عادة الصليب مع كونه إلى ذلك العهد لم يكن قط قد نصر رسمها
فكان هذا من الغريب إذ بنى ذلك كله على تخيلات وأوهام وأضغاث أحلام
ولو قبض عيسى على شكل الأفعيل لكان الأصوب لأن عيسى عليه الصلاة
والسلام رفعه الله إليه ولم يقتل ولم يصلب ومما نسب للفخر الرازي أو العارف
الناقلي

عجبا للمسيح بين النصارى • وإلى الله والمدان سبوه
أسلموه إلى اليهود وقالوا • أنهم بعد قتله صلبوه
فاذا كان ما يقولون حقا • فلو هم قائلون كان أبوه
فاذا كان راضيا بقضائهم • فاشكروهم لاجل ما صنعوه
واذا كان سائخا لاذاهم • فاعبدوهم لأنهم غلبوه

ولا يخرجهم من الورطة أن الصلب وقع على الناسوت لأنهم قالوا الإله واحد
من كبر من ثلاث أقانيم والاقنوم كلمة يونانية معناه الأصل أقنوم الوجود
ويعبرون عنه بالأب وأقنوم العلم ويعبرون عنه بالابن وبالكلمة وأقنوم
الحياة ويعبرون عنه بروح القدس ولهم في ذلك تناقضات ومذاهب مختلفة
فمن قائل حل ذلك في عيسى فاقبلت ناسوته لاهوته ومن قائل عيسى هو الله
ومن قائل عيسى ابن الله ومن قائل عيسى رسول الله وكلته أمها إلى مريم
وروح منه وقد قيل لهم لم قلتم عيسى الله أو ابن الله فقالوا الدليل أنه كان يفعل
ما لا يفعله إلا الإله يحيي الموتى ويرى الأكف والأبرص فقبل لهم قديس
بهذه الصفات من ليس بالله إذ يجوز ذلك في حق الأتيسين والحيوانات
والجمادات ولو عدم الدليل لانه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول ثم قيل لهم
لم خصصتم تركيب الإله من الأقانيم الثلاثة وهي الوجود الذي عبرتم عنه
بالأب والعلم الذي عبرتم عنه بالابن والكلمة والحياة التي عبرتم عنها بروح
القدس فقالوا إن الإبداع والإيجاد لا يتأتى إلا بها فقبل لهم بل هو يتوقف
على صفات أخر كالقدرة والإرادة فلم يجيبوا بجواب مفيد وفي هذا القدر
كفاية فلا يحتاج إلى المزيد فيجب علينا الجزم بأنه رسول الله وأنه من أدنى
العزم ومن أنكر نبوته ورسالته يكفر

محمد ابراهيم موسى كليمه * فعبسى فنوح هم أولو العزم فاعلم
فعبسى عليه السلام من الخمسة والعشرين نبيا الذين يجب على المكلف
معرفة تفصيلا كما في قول بعضهم

حتم على كل ذى التكليف معرفة * بأنباء على التفصيل قد علموا
في تلك جنتنا منهم ثمانية * من بعد عشرين سبعة وهم
ادريس هو شعيب صالح وكذا * ذوالكفل آدم بالختار قد ختموا
وأشار بقوله في تلك جنتنا الى الآية الشريفة من سورة الانعام وهي قوله
تعالى وتلك جنتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك
حكيم عليم ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل
ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي
الحسنين وذكرنا يحيى وعيسى والياس كل من الصالحين واسماعيل
واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين فأولهم وأفضلهم نينا صلى
الله عليه وسلم

فاني وان كنت ابن آدم صورة * فلي في معنى شاهد بأبوقى

ولله در البوصري حيث قال

دع ما ادعته النصارى في نبيهم * واحكم بما شئت مدحافيه واحتكم
فان فضل رسول الله ليس له * حد فيعرب عنه فاطق بضم
(وقوله)

وكلهم من رسول الله ملئس * غر فامن الصرا ورش فامن الديم
وأتمه خير أمة أخرجت للناس وعلماؤها أكرم العلماء

(الفصل الرابع والاربعون)

* (في انفراد الملك قسطنطين الاكبر بالامبراطورية الرومانية)*

انفرد هذا القيصر بالامبراطورية الرومانية في سنة ٢٩٩ قبل الهجرة
ونبقى حكمه الى سنة ٢٨٥ فكانت مدة انفرادها بالحكم نحو أربع عشرة
سنة

لما استبد قسطنطين الاكبر بالقيصرية الرومانية دخل مدينة رومة بموكب

حافل مؤيد امنصور اقل بلق من أهل هذه المدينة بشاشة ولاطلاقة وجهه
 ولاحسن اقبال عليه اذ لم يفرحوا بتقدمه ولا بمنصبه بل صاروا يستخفرون به
 ويقدمون فيه نصر يحاوتوا ويحاطون في عرضه بدون أصل ولا فصل
 والحمل لهم على ذلك ميلة الى حماة دين النصرانية فغضب من وقوعهم فيه
 وادمانهم على عبادة الاوثان فرغبت نفسه عن مد يدهم وصمم على أن يفي
 مدينة عظيمة غير رومة ويجعلها دار ملكه ومقر حركته فطمح نظره الى
 مدينة بيزنطيا الحسن موقعها بين أوروبا وآسيا ولكونها في منزلة عظيم البقعة
 مظلة على ثلاثة أبحر فعماد قريب رسمها وبني أسوارها وهياكلها وقصورها
 وحماماتها وسقاياتها وقصباتها وأعمدة على أحسن حال فرغب الالهالى في سكناها
 لتعدد المنافع والفوائد وهرع اليها الناس من جميع الاقطار واشتهرت
 باسم القسطنطينية وكان انعامها سنة ٢٨٢ قبل الهجرة وتحول اليها
 تحت الدولة الرومانية

وفي أثناء ذلك أصح قسطنطين حكومة رومة والحكومات الرومانية التابعة
 لها واعتنى باصلاح حكومة الديار المصرية فهذبها واطفحها على التدرج
 ومن المعام انه يقول دار اقامته بالمشرق ساعده عوائد المشرق ومزاج
 قطره واعتدال طبيعته على تحسين الاخلاق الرومانية وتهذيبها والتغيير
 والتبديل فيها بالاصلاح لاسيما بدار مصر وكان قد تعين من طرف القيصر قائد
 لحكومة المشرق يعنى رئيسا عاما وكانت مصر داخله تحت قيادته وحكمه
 وأمره ونهيه بمقتضى الاصول الرسمية ولكن لم تكن عساكر مصر تحت
 امارته وتصرفه بل كانت تحت تصرف قائد مخصوص تابع مباشرة لرئيس
 عموم الدولة الرومانية لا بطبيع قائد الحكومة المشرقية وذلك لان مصر لما
 كانت مأخوذة من البطالسة عدها الرومانيون حدودا وتغوروا لملك رومة
 وكان الحدود والتغور والباطات أمير مخصوص للمحافظة من طرف رومة
 وكان منوطا بتحصيل العوائد الاموال من خصوص الحدود والتغور
 ليتوزع بعضها على الخزينة الرومانية العمومية يعنى مال المملكة وعلى
 الخزينة الخصوصية يعنى خزينة القيصر وكان لمصر أيضا نائب ملكي قائمقام
 القيصر كمالك على مصر رجل أشغالها اجراء العمليات الهندسية فيما فيه

اصلاح احوال النبل السقى والرعاية والاسفار ونقل الغلال من مصر الى
 القسطنطينية وكان رؤساء الاقاليم المصرية وحكامها وعملها لا يتقادون
 لاوامر هذا النائب غالباً بل كانوا يخالفونه اقرب منهم للمساعدة على اجراء
 احكامه وتنفيذ اوامره ونواحيه حتى صار حاكم الصعيد في احدى زمن في
 مقام النائب المذكور وكان هذا مما يحل باتظام الحكومة المصرية
 وباقادها الرومانيين فشرع الرومانيون على تداول الايام في عكس دولتهم
 بمصر بتغيير اسماء الاقاليم المصرية وتقسيمها اقساماً صغيرة وتكثر العمال
 لضعاف قوة الحكم وليحكموها بالسهولة فبكثره العمليات والعمال كثر
 الظلم فيما بعد على الرعايا وانضم الى ذلك كراهة المصريين جميعاً للحكومة
 الرومانية مع ما يضاف الى ذلك من اختلاف المذاهب العيسوية وتشعبها
 الى شعب كثير متعادية كما سافى ذكره في محله

وبالجملة فحقه استقلال قسطنطين بالحكم كانت اربع عشرة سنة وكان في
 الغالب يسعى في تميم مشروع دقلطيانوس بأن يجعل المملكة الرومانية دولة
 ملوكية واحدة الحكم والحاكم يستوى في قوانينها واحكامها جميع اهلها
 بدون امتيازات خصوصية بحيث لا يكون فيها حكومة اشرف ولا قسوة
 ولا ملتزمين وانما يكون حكامها امراء من طرف القيصرو ليسم ويعزلهم
 فلهم اقسام قسطنطين المملوكة اقساماً ادارية بين اولاده الثلاثة وهم
 قسطنطين وقسطنطوس وقسطنطوس وابن عمه دلقاوس وجعل القيصرو
 لنفسه الرئاسة العمومية على هؤلاء القياصرة الاربعة الذين هم عبارة عن
 قائمات كل منهم نائب في ولايته عن القيصرو فهذا الترتيب اصل حال
 الحكومة الملكية وقد اصلح ايضا حال الجيوش الرومانية بالترتيب اللازمة
 والتنظيمات المستحسنة فقسم الجيوش الى فرق كالابالات وجعل كل فرقة ألفاً
 وخمسمائة نفس وجعل على الفرقة اميراً فبهذا صار امير كل فرقة على حدة
 لا يخشى منه على القيصرو لا تخصاراته بخلاف الامارة السابقة في أيام
 غيره فان امير الجيش كان قوى الشوكة لكثرة جنده وايضا ترتيب الفرق
 العسكرية بهذه المثابة فيه مزية سهولة تعليم الفرق ولما كان اهل البلاد
 الرومانية قد تناقص عددهم بالحروب الداخلية والخارجية فكانت لاتفى

بكفاية هذه الفرق العديدة وتكميل ما ناقص منها من الاهالي اضطر القيصرون
أن يكمل الفرق المطلوبة من الاجانب والاغراب وأن يتظمهم في سلك
العسكرية للاحتياج الى ذلك فعاد هذا على المملكة الرومانية بالضرر والمفسدة
لوجود الدخيل في عساكرهم وفي آخر أيام حكومة قسطنطين اضطر هذا
القيصرون الى قتال فارس وطلب أن يتعمد ويتصرف قسطنطين في ماء المعمودية
عند مدينة أرميد على يد أسقف هذه المدينة ومات هناك

ومع حسن ترتيب قسطنطين ووفور عقله الى هذا الحد كان لا يتخلون ارتكاب
بعض الافعال الجبرية المذمومة كإخراجه اليهود من القدس وجبرهم على
التنصر وقتل من امتنع منهم فأبى أكثرهم وقتل بل من تنصر منهم لم يخل من
النسبة حيث جمع هذا القيصرون تنصر من اليهود وحشرهم في الكنيسة
يوم عيد الفصح وأمرهم بأكل لحم الخنزير المنوع في دين اليهودية فأبى
أكثرهم أن يذوقه فقتل فكان المقتول منهم ثلاثون كثيراً جداً في هذه
الحنة

وليس هذا بالجيب فقد تصعب هذا القيصرون وغيره لدين النصرانية وشهره
وذبح عنه ونصروا وأوى أهله وتجاوز الحد في الحمية الدينية حتى أنه قبل تنصره
كان أصدر أمره المشهور الصادر منه بمدينة ميلان سنة ٣٠٩ قبل الهجرة
برخصة التدين بالدين النصراني وإباحة التمسك به وبأن المتنصرين جميعاً
يكونون تحت حمايته ومن هذا الوقت اتشدد دين عيسى عليه السلام وصار
دين الحكومة والحكام ومعتقداً هل الحل والعقد وأرباب الاحكام
وكانوا جميعاً قبل ذلك عبدة أو ثان وأصنام ولا زال الحال على ذلك الى أن
جمع في سنة ٢٨٧ قبل الهجرة في مدينة نيقية بإيالة بروسه المجمع الاول
الذي تهذب فيه علامة الامانة النصرانية الباقية الى الآن التي هي مذهب
الكنيسة القاثوليكية ولم يكن من القياصرة أشد حمية منه على هذا الدين
لا سيما بعد الدخول فيه فقد كان يعظم الاساقفة ويعاملهم معاملة الاخوان
ويجمعهم على شؤانه وقد أمر في سائر أطراف وأكاف المملكة بصلاة يوم
الاحد وجعل هذا اليوم عيداً في الاسبوع وتعطيل جميع الاشغال فيه وصار
العمل على ذلك سنة متبعة عند سائر العيسوية في سائر الازمان وقد أبطل

المصارعة وعيد الزهرة وهلم هياكلها الما وجد فيها من وجود الاخلاق
القيحية فصار عباد الاوثان يدخلون بكثرة في دين النصرانية ورتب في جميع
المملكة من اباطين ومحافظين من الامراء وأقطعهم الاراضي في قطير
خداماتهم وجعلها وراثته من بعدهم في أعقابهم ومنع جميع ما فيه فساد
الاخلاق وخفف العوائد والاموال بالتعديل ولطف أمور المصادر
والامر والاسترقاق وأبطل الربا وكان له ميل قوى للعلوم والفنون فلذلك كان
يعين عليها وقد دعا في أهل العلوم والآداب من جميع العوائد والانتقال وأباح
لهم أن يكون لهم من اياها العسكرية للتشريف وأن يسكنوا في مساكن
العسكرية ومنازلهم وجعل هذا المزية لتسائهم وأولادهم وقدمات هذا
القيصر في سنة ٢٨٥ قبل الهجرة بعد أن حكم ثلاثين سنة اشتراكا
واقترادا وبموته تقاسم أولاده المملكة مساهمة

(الفصل الخامس والاربعون)

(في الملوك الثلاثة وهم قسطنطين الثاني وقسطنطوس الاول وقسطنطوس)

قد تقاسم في سنة ٢٨٥ أولاد قسطنطين الاكبر الممالك الرومانية بينهم
مساهمة ومحاصصة وصار كل منهم قيصر ا على حصته من قلاها فأصاب
قسطنطوس الاول الايالات المغربية وخص قسطنطوس الايالات المشرقية
وأقيم قسطنطين الثاني رئيسا على الاقطار المشرقية والمغربية فبهذا صار
امبراطور عجميا وحاكما كليا على أخويه وقتلوا بقية عائلة قسطنطين الاكبر
لقطع عرق المطامع في المملكة ولم يبق منهم على قيد الحياة الا اثنان من أقاربه
وهما والوس ويوليانوس الملقب بالمرتد فان مرتس أحدا الاساقفة تشفع
في ابقائهما وخلصهما من المقتلة العمومية فتلقب كل من القياصرة الثلاثة
بلقب أغسطس فعما قليل وقع بين الاخوة الثلاثة كمال الشقاق والتفاقم
حيث لم يرض قسطنطين بنصيبه من المملكة وهو الملاحظة العمومية وتدير
الايالات المشرقية والمغربية بوجه التقنين فصمم على قتال أخيه قسطنطوس
فجرد عليه وسار اليه بجياله ورجله وقاتله فهلك قسطنطين في أثناء المقاتلة وكان
ذلك في سنة ٢٨٢ وتم التحكن لقسطنطوس ولكنه لم يحصل على الراحة

ولا فرح بعد قتل أخيه قسطنطين الثاني به دة ولا استراحة بل ظهر له في
 ايلاتة المغربية خصم ألهمن أخيه يسمى مايقوس كان أصله من الاسارى
 من سبي جومانيا وترى عند الرومانيين وارثي في العسكرية وتقلب منها في
 الدرجات العلية فاعتصب المنصب الملوكي بالبلاد المغربية ودعا لنفسه
 بالقيصرية وتبعه خلق كثير فسار اليه قسطنطوس فهلك قسطنطوس المذكور
 سنة ٢٧٢ قبل الهجرة في المعركة فلما أحس أخوه قسطنطوس بذلك
 صم على أخذ ثار أخيه وبلاد بقتل مايقوس الغاصب للمملكة الرومانية
 فسار اليه وقتله وأخذ بثار أخيه وانفرد بالدولة الرومانية عقب هذه الواقعة
 العظيمة ولكن أشرك فيها قريسه والوس ولقبه قيصر أو حال عليه محاذلة
 المشرق وأبني الايلات المغربية وعموم السياسة والتدبير في الدولة الرومانية
 بتمامها لنفسه فلم يفلح والوس في تدبير الحكومة لانه كان حديث نعمة وكان
 فاسد الاخلاق شره النفس وقل أن يفلح من اجتمعت فيه هذه الخصال فقتله
 قسطنطوس في سنة ٢٦٨ قبل الهجرة

وبهذا صارت الدولة الرومانية على خطر عظيم يخشى عليها التلف والانحلال
 بتحويل هذه الاحوال وكانت أمة الافرنجية تهجم عليها من جهة المغرب
 وأكاسرة القرم تهتدها من جهة المشرق وكان الامبراطور قسطنطوس
 وحده لا يستطيع الذبح عنها فكان الامر مقتضيا لتصيب قيصر آخر مع هذا
 الامبراطور يشبهه أزوه ويصلح به أمره وكان قد بقي من أقارب قسطنطين
 الاول يوليانوس أخو والوس وكان في مدرسة مدينة أزميد للتربية والتعليم
 وكان شابا متدينا بدین النصرانية مشغلا بالفلسفة والحكمة وقد حصل في
 تلك المدرسة الازميدية ما يعتازه أبناء الأكابر من العلوم والمعارف والآداب
 والطلائع فخلبه الامبراطور قسطنطوس من مدرسته وجعله قائدا على جند
 المعين لقتال الافرنج وناطه بقتال الافرنج فقاتلهم أشد المقاتلة وظهر عليهم
 ظهورا عجبيا وظفر بهم كمال الطفر فحسده الامبراطور على ذلك وحقد عليه
 ونواه وأراد أن يأخذ منه بعض فرق عسكرية ليضعف بذلك شوكة وكان
 اذ ذاك سابور ذي الاكاف زحف على ممالك الرومانيين بآسيا وأخذ مدينة
 آمد بالجزيرة وكان قسطنطوس يمانع عن هذه البلاد ويحجمها من فارس

فأغتم هذه الفرصة بطلب العساكر من يوليافوس فأبى العساكر الانفصال عن رئيسهم وخالفوا على الامبراطور وأخذوا بهذا الرئيس واعتقوا به وأعلنوا له بالاغطوسية وبايعوه على ذلك ولكن يوليافوس لم يجهم الى ذلك وتجمع من قبول المنصب وبكى وناح وأظهر عدم الفرح والانسراح فانتهى الحال بأن جبروه على الرضا والقبول وحملوه على أن يسير بهم حالا الى المشرق لقتال خصمه ورافقه معه فسار اليه فلما التقى الصقان بالمشرق مات قسطنقوس في مدينة المصيصة سنة ٢٦١ قبل الهجرة فقتل الامبراطورية الرومانية ليوليافوس

وقد كان هذا القيصري حين غزوه الافرنجية في بلاد الغالية يعنى فرنسا وما جاورها جعل مقراًقامته وكبرى قيصريته في مدينة لوطيعة التي هي الآن مدينة باريس واشتغل مدة الغزو بتحصين هذه المدينة واصلاحها وادخال العمارة فيها والرفاهية فهي من آثاره الباقية وبعت قسطنقوس انفراد يوليافوس بالدولة الرومانية مشرفاً ومغرباً فكانت باريس أحب البلاد اليه وكانت مدة حكم أولاد قسطنطين بالملكة الى انفراد يوليافوس المرتد نحو أربعة وعشرين سنة

(الفصل السادس والاربعون)

(في الملك يوليافوس قيصراً المرتد)

تولى الامبراطورية الرومانية العمومية وانفرد بحكم جميع الرومان في سنة ٢٦١ قبل الهجرة وبقي حكمه الى سنة ٢٥٩ فكان مدة استبداده بالولاية العمومية سنتين

قد استحسن العقلاء واستصوب التبالا من عموم الرومانيين وتولية هذا القيصري لما كان يظهر لهم من رسوخه في الفضل وساو كهمسلك العدل اذا بعد من الديوان القيصري أرباب السخريه والهذيان والمثقلين من الاخفاء والنعمان واستعوضهم بأرباب الفصاحة والبلاغة والبيان وأهل الفلسفة والحكمة والعرفان فصار يأتي اليه أرباب المعارف والقضايا من كل فج عميق ويدعوهم الى حضور مآثنه ولا يختار لهم غيرهم جيم ولا صديق ولا حبيب ولا رفيق

وكان قبل تقليده بالملكة الرومانية مظهر التسلل بدين النصرانية فلما ملك
 الزمام واستبدت تدبير الاحكام ارتد على رؤس الاشهاد ورفض دين
 النصرانية ولم يسال بالارتداد بل عاد الى عبادة الاصنام والاثوان وصبا
 اليه وذب عنهم دون الاديان فاستبان ان اظهاره في باديه امره التسلل بدين
 عيسى كان محض شقاق واحبولة يصيدها قلوب المتسكين بهذا الدين ليصعد
 على كرسي الحكومة بدون شق العصا واظهار الشقاق اذ كان دين النصرانية
 اذذاك هو الايمان المطلوب والاسلام المرغوب وشتان بين اهل الكتاب وبين
 الصابئة الذين لا كتاب لهم فلا يميل الى الصابئة والجوس الا المشركون في
 جميع الازمان حتى في صدر الاسلام ودليل ذلك انه في عهده صلى الله عليه
 وسلم حين كانت الحروب واقعة بين الروم وفارس كان المسلمون يحبون ان
 تظهر الروم على فارس لانهم اهل كتاب وكان المشركون يميلون الى اهل فارس
 لانهم اهل اوثان فلما بشر الله تعالى المسلمين بان الروم سيقلبون في بضعة سنين
 سر المسلمون بذلك ثم ان ابا بكر رضى الله عنه يادرا الى مشركي قريش فاخبرهم
 بما نزل عليهم فيه فقال ابي بن خلف خاطرنى على ذلك فخطره على خمس قلائص
 وقد رة مدة الثلاث سنين ثم اتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله كم البضع فقال
 ما بين الثلاثة الى العشرة فاخبره بما خاطره ابي بن خلف فقال ما حلك على
 تقريب المدة فقال الثقة بالله ورسوله فقال النبي صلى الله عليه وسلم عد اليهم
 فزدهم في الخطر وازدد في الاجل فزادهم قلوبهم وازدادهم في الاجل ستين
 فأنظر الله تعالى الروم بفارس قبل انقضاء الاجل الثاني تصديقاً للتقدير ابي
 بكر رضى الله عنه وكان ابي قد مات من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم
 فأخذ أبو بكر الخطر من ورثة ابي فقال النبي صلى الله عليه وسلم تصدق به
 وكانت الخطرة بينهما قبل تحريم القمار وقد فرح المسلمون بظهور الروم على
 فارس كما ذكره المشركون ذلك وقد فرح عباد الاوثان برجوع يوليائوس
 قيصر الى عبادة الاوثان ورفضه دين عيسى عليه السلام وانحاز اليه من
 لا خلاق له من الصابئة وامتلأ ديوانه اذذاك من ارباب العيافة والمتجمعين
 وأرباب العيافة والعرافين ومن رؤساء دين الصابئين فكان لا يسمع في ديوانه
 الا مدح الاصنام والاثوان وزجر الطير وخوارق العادات من كل زور

وبهتان حتى تقلد بنفسه الكهانة وصار رئيس هذه الديانة وكان يقصر بهم هذه
الرياسة ويعداهم من باب الحزم واليكاسة فكان محارباً ومعادياً للدين النصرانية
لكن لا يعترض لابطال العقائد المسيحية وانما كان باحثاً على اعلاء الله
الوثنية ورفعها على دين عيسى عليه السلام قبذل المهمة في تقوية عبادة
الاصنام وجعل مدار الديانة واخلاص العبادة على الاتقياد لها والاستسلام
ويأبى الله الا ما أراد فلم يبلغ القصر مقصوده ولم يتمكن من الحصول على
المراد لان التوحيد لا يكون الا بالتسك بدين قويم يهدي الى صراط مستقيم
جاءه الوحي بكتاب الى نبي من الانبياء ورسول من الاصفياء وقد اراد هذا
القصر ان يعصف فاسد ايمانه ويمكن من القلوب حباً وثنائه فأمر أمراء
دين الصنم أن يشددوا في التسك بدينهم على وجه محكم وأن يجتمعوا
بكليتهم وجزئيتهم على مكارم الاخلاق ليجذبوا العامة ويكثر الرفاق فلم
تنفع أوامره ولا ساعدته زواجه وكان يعظمهم بقوله لهم أليس من العيب
والعار على مثلكم أن نصارى القدس يصدقون على فقرائكم يجوز
الصدقات فضلاً عن احسانهم لفقرائهم بالعطايا والانعيمات فأنتم أولى بهذه
المكارم لاسيما وان سبب فقر فقرائكم انما هو افعالكم السيئة ومع هذا الوعظ
فكان أمناء الصابئة لا يرضون أن يسلكوا مسلك الاخلاق الحميدة
ولا يستطيعون أن يتمسكوا بالفضائل وينتهوا عن الرذائل وكان النصارى
في ذلك العهد يختلفون ذلك سالكين أحسن المسالك

وللسارى يوليانوس للانتقام من الفرس في مقابلة اساءتهم للدولة الرومانية
مدة طويلة تلج في طريقه في مدينة قيصريه من اقليم قبادوقيا هيكل للعبادة
الاصنام خربا ووجد في انطاكية احتقاراً لها والعبادة الاصنام فاتهم
النصارى بأنهم هم المخربون للهياكل والمتسيبون في تحقير دين الصابئة فأمر
بإذاتهم واساءتهم ثم بعد ذلك بمن جازف بنفسه وتجاسر ودخل بلاد فارس
وجال فيها وأغل كل الايغال ولم يسأل من شئ ولا خطرته الهزيمة على بال
فانهزم وبقى مدبر الامام سابور ذي الاكاف مقاتلاً في ادياره لعدة قرون مظهراً
الشجاعة الخاصة والبسالة العسكرية بمحاربة عدو من غول الرجال وكبار
الابطال لانه منع عن نفسه وقوعه في يد الفرس المقتنين أثره فحاول ابعادهم

عنه في قتاله مع رجوعه القهقري فخرج في هذا الحرب في واقعة عظيمة قهرته
ومات قبله في قتاله على حية في سنة ٢٥٩ قبل الهجرة ومع ذلك
فكانت النصر له وانما من زرع الاحن لقي المحن وخلفه يويانوس كاسياني
وكانت مدة يوليانوس فيها رحمة على من لم يكن تنصر من المصريين ممن بقي على
دين آباءه وأجداده فاستمر المصريون الذين لم يتنصروا على عبادة الاصنام
بدون معارض ولا منازع

ولما كان قد بشر نائب مصر القيصري يوليانوس المرتد قبل غزوه للفرس بأن
المصريين قد يجنحوا بجناحين على عجل حديث على شكل العجل أيس المعبود
لهم النافق في السابق بالموت وأنه ظهر لهم أنه معبودهم بعينه نسبا وحمية
فرح بذلك فرحاشد يداو هس وبش واستبشر لأن المعهود في هذا القيصري
الروماني أنه كان يحترم العجل المصري المعبود للمصريين وكان يحلف بحياته
حتى أنه حين كتب لنائبه أوقديس في شأن البطرق أسانا سوس صاحب
كرسي بطرقة الاسكندرية الذي كان اتقى منها ورجع اليها مانصه وحق العجل
أيس ان لم يخرج هذا البطرق من المدينة حالا جعل على جند لما قتل
من الذهب غرامة عليهم وعقا بهم في تطير عدم اخراجه فكان هذا القيصري
متجاهرا بحماية دين المصريين القديم وعبادة العجل الذميم كان عليه في مصر
بذلك الدهر مذرا الدين القبطي القديم

والدهر كالدولاب ليس يدور الا بالبقر

وكان في عهده قد رجع دين النصرانية القهقري فلم يشم رائحة القوة الا في
زمن طيودوميس قيصر كاسياني وقد سبق ان موت يوليانوس قيصر كان في
سنة ٢٥٩ قبل الهجرة في قتال الفرس وتولى بعده يويانوس سنة ٢٥٩
قبل الهجرة

(الفصل السابع والاربعون)

* (في الملك يويانوس قيصر) *

لما مات يوليانوس قيصر حصل في الجنود الرومانية وغيرهم كرب شديد بموته
وكانت العساكر الرومانية المنصورة على الفرس في منقطع من الارض ليس
عندهم شيء من الميرة ولم يكن من العائلة الامبراطورية القسطنقوسية وارث

يتولى الامبراطورية ولا يمكن أن تلبث الحكومة الرومانية من غير قيصر
فاختاروا امبراطورا رومانياً يسمى سالستوس حاكم البلاد الشرقية
فامتنع من قبول هذا المنصب فاختاروا الجندريوس الحارث القيصري المسمى
الامير يوانوس ونصبوه قيصراً عليهم بالتواطئ التام والاتفاق العام ولم
يتنطع في توليته كيشان وكان تقلبته المملكة في سنة ٢٥٩ قبل الهجرة
وبقي الى سنة ٢٥٨ فلم يحكم الاسنة واحدة وتولته المملكة عقدا الصلح
مع سابور ذي الاكاف ملك فارس على شروط خلة بناموس الدولة الرومانية
ومزريه بقتلها ثم أبطل جميع أوامر يوليانوس سلفه في كل ما يتعلق بعبادة
الاصنام من حمايتها وفيما يتعلق بأرض الردين النصرانية ونهى اليهود عن أن
يشهروا شعائر دينهم على رؤس الاشهاد ومع كونه انتصر للدين العيسوي
وأبطل عبادة الاصنام لم يكن يستحق رئاسة الدولة الرومانية لقلة شهرته فانه
في أيامه قامت قبائل مغاربة في بلاد برقة ونمبوامدن طرابلس الغرب وكان
من عماله على هذه الجهات أمير يسمى أوريقومس نائب أقاليم طرابلس
الغرب فلم يمكن لهذا النائب أن يمنع اغارة هذه القبائل على بلاده ولا ظهرت
نتيجة من القيصر المذكور في رد عنهم فهذه الوسائل وبعبقده الصلح السالف
الذكر الذي هو على الرومانيين محض معرة صار هذا القيصر مبغضاً للجميع
فوجد ذات يوم من الايام قبلا على فراشه سنة ٢٥٨ قبل الهجرة المحمدية
على صاحبها أفضل الصلاة والتحية

قبل أن السب الحقيقي في قتله هو عقد الصلح المخل بناموس الرومانيين مع
سابور ذي الاكاف كسرى فارس وكان الرومانيون في ذلك الوقت لازالوا
يحافظون على حفظ ناموسهم ولو تضرعت أحوالهم ثم اتساقدا سلفنا
سابور ذي الاكاف هو غير سابور بن أردشير وان منهم عدة منوات في الحكم
وبين ذلك ان أردشير بن بابك بن ساسان أول الطبقة الساسانية التي هي
الطبقة الرابعة من ملوك القرم أعقب سابور بن أردشير وأن سابور حكم
احدى وثلاثين سنة ثم ملك بعده ابنه هرمز الاول ابن سابور سنة ٣٥١
قبل الهجرة وكانت مدة حكمه سنة واحدة وستة أشهر وكان عظيم الخلق
شديد القوة وكان يلقب هرمز البطل لشجاعته وهو الذي بنى مدينة هرمز من

كورالاهواز ثم ملك بعده ابنه بهرام الاول سنة ٢٥٠ قبل الهجرة
 وكانت مدة حكمه ثلاث سنين وثلاثة أشهر وكان له حروب مع ملوك الشرق
 وسار على سيرة آبائه في حسن السياسة والرفق بالرعية ثم ملك بعده ابنه بهرام
 الثاني سنة ٢٤٩ قبل الهجرة فخكم سبع عشرة سنة فأقبل في أول
 ملكه على اللهو واللعب والزاهة والصيد لا يفكر في ملكه ولا رعيته وأقطع
 الضياع لغواصه وخدمه وحشمه فخرت البلاد وقل ما في بيوت الاموال
 وكان تدبير الملك مفوضا الى وزرائه ثم استيقظ من غفلته حيث نصحه وبذات
 ملكه بقوله أيها الملك ان الملك لا يتم الا بالشرعية ولا اقوام للشرعية
 الا بالملك ولا عز للملك الا بالرجال ولا قيام للرجال الا بالمال ولا سبيل للمال
 الا بالعمارة ولا سبيل للعمارة الا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين البرية
 نصبه الرب وجعله قياما وهو الملك فلما سمع الملك ذلك أحضر الوزراء والكاتب
 وأرباب الدواوين وأمرهم بالاجراء على رسومهم السابقة فأنظم ملكه حتى
 كانت ايامه تدعى بالاعيان لما عم الناس من الخصب وشملهم من العدل ثم ملك
 بعده بهرام الثالث ابن بهرام الثاني ابن بهرام الاول سنة ٢٢٩ قبل الهجرة
 فخكم أربع سنين وأربعة أشهر وسلك سبيل آبائه من العدل والسياسة وهو
 الذي يقال له شهنشا ثم ملك بعده أخوه نرسی بن بهرام ويقال له نرسیس سنة
 ٢٢٥ قبل الهجرة فخكم تسع سنين ثم ملك بعده ابنه هرمز الثاني ابن نرسی
 سنة ٢١٢ قبل الهجرة وحكم تسع سنين أيضا ولما مات هرمز نحو سنة
 ٢١٢ في أول حكمه مقبضين منس الثاني قيصرو الرومانيين لم يكن له ولد
 وكانت بعض نسائه حاملات فبعد التاج في هذه السنة على ما في بطونها فولدت
 ولدا اسمه سابور الثاني فلما اشتد ظهورت منه فجا به عظيمة من صباه فكان أول
 ما ظهر منه أنه جمع ضجيج الناس بسبب الزحمة على الجسر الذي على دجلة
 بالمدائن فقال ما هذه الجلبة فقيل بسبب زحام المارين على الجسر فأمر أن
 يعمل الى جانب الجسر جسر آخر يكون أحد الجسرين للخارجين والاخر
 للداخلين فعملوه وزال الزحام وكان سنة اذ ذاك دون السن المعتاد لتمييز مثل
 هذه الامور المهمة فتعجب الناس من نجاة
 وفي أيام صباه طمعت العرب في بلاده وأخربوها فلما بلغ من العمر ست عشرة

سنة اقتب من فرسان عسكره عنة كثيرة وسار بهم الى العرب وهم من ولد
أباد بن زار وملكهم يومئذ الحارث الاعز الا يادى وكانوا يصيغون بالجزيرة
ويشتون بالعراق وقتل من وجد منهم ووصل الى الحساء والقطياف وشرع
يقتل ولا يقبل فداء ثم سار الى اليمامة وسفل بها الدماء ولا يمر بما للعرب
الا غوره ولا يتر الا طمها فعمهم القتل فاعقت منهم الاتفر لحقوا بأرض الروم
وصار هذا الملك ينزع أكاف العرب حتى نزع فيما قيل كف عند كثير جدا
فلذلك سمي سابور ذا الاكاف وصار لقباً عليه وقد أتى في مسيريه على بلاد
البحرين وفيها يومئذ بنو عجم فأمعن في قتلهم وشيخها يومئذ عمرو بن نعيم بن مرة
معمر اكثيرا وكان يعلق في عود البيت في قفة قد اتخذت له
فلما سمعوا بمسير سابور اليهم رحلوا وأرادوا حمله معهم فأقسم عليهم أن يتركوه
في ديارهم وقال أنا هالك اليوم أو غدا ولعل الله ينجيكم من صولة هذا الملك
فخلوا عنه وتركوه فأصبحت خيل سابور في الديار فلم يجدوا أحداً فلما سمع عمرو
صهيل الخيل وهممة الرجال أقبل يصيح بصوت ضعيف فظفروا الى قفصة
معلقة في شجرة هو فيها فأخذوه وجأوا به الى سابور فلما وضع بين يديه نظر الى
دلائل الهرم ومرورا الايام عليه ظاهرة فقال له سابور من أنت أيها الشيخ
الضاني قال أنا عمرو بن نعيم وقد بلغت من العمر ما ترى وقد هرب الناس منك
لا سراقتك في القتل وأنا سألك عن أمر ان أنت أذنت لي فيه فقال له سابور
قل تسبح فقال ما الذي حلك على قتل رعييتك من رجال العرب فقال أقتلهم
لما ارتكبوا في بلادى وأهل مملكتي فقال عمرو ففعلوا ذلك ولست عليهم بقيم
فلما ملكت رجعوا عما كانوا عليه من الفساد هيبه لك قال سابور وأقتلهم
أيضاً لا تأخذ في محزون علمنا ياخباراً وأثنتنا أن العرب يستدال علينا قال
عمرو وهذا أمر تظنه أم تصدقه قال بل أتصدقته ولا بد أن يكون ذلك قال عمرو
فان كنت تعلم ذلك فلم تسي الى العرب والله لئن بقي العرب وتحسن اليهم
لكانوا أقوم منك عند ادالة الدولة لهم بأحسن منك اليهم وان أنت طالت بك المدة
كقولك عند مصير الامر اليهم فيبقون عليك فقال سابور الرأى ما قلت ولقد
صدقت ونعمت فرفع السيف وانكف عن قتلهم وبشبه أن تكون هذه
الحكاية من كلام الحكويين والقصاص وليس عليها ماوات التواريخ

الواقعة أو أنها واقعة تاريخية داخلها أوضاع الحكوميين للتليج بالقرائب والتليج للجباب والافلامعنى لثلاثين رقوم في قفة عرضة للثكبة وبالجلة فسابور الذي دقخ العرب والروم فقد حارب الرومانيين من زمن مقيمينوس الثاني الى زمن طيودوسيس الاكبر ومما يدل على انتظام مملكة فارس في هذا العهد وقوتها وشوكتها وحسن تدبيرها أنها استقرت في قبضة سابور الثاني من ولادته الى وفاته في مدة اثنين وسبعين سنة التي هي مدة حكمه على الفرس ولم يحصل فيها قتل ولا شرود وكان موته في نحو سنة ٢٤٢ قبل الهجرة وتولى بعده أردشير بن هرم وفي هذه المدة بعينها حصل ما حصل من الحوادث والتغيرات في دولة الرومانيين وقتل من ملوكهم العدا الكثير مع استدامة الهرج في مباديها وأثنائها وأواخرها كما يشهد لذلك وصية طيودوسيس قيصر لابنه أرقاديوس حين عهد اليه بمملكة القسطنطينية حيث خاطبه بقوله لو كنت أيها الولد نشأت في بلاد فارس وعهد اليك بمملكتها لكان غرنا لك الكسروي كافيا في حفظ سرير الملك ولكن نشأت بين ظهري الروم وحالهم معلوم وسأبقى الكلام عليه في ذكر الملك أرقاديوس قيصر في المسألة الرابعة ان شاء الله تعالى فان هذا القيصر يشعر الى ان الامة الرومانية صعبة الاتقاد لقصاصتها وان مادة القتل لا تنقسم أبدا وأوان الرومانيين ولو كانوا في قوة كافية بحيث يستظفرون على فارس الا أنهم كانوا يضطرون الى الصلح معهم على شروط مخجلة بالنواميس الرومانية كما وقع ذلك في زمن الملك يونيانوس قيصر الذي كان عقد الصلح به هذه المثابة سببا في دجه على فراشه سنة ٢٥٨ كما سبق واستعواضه بولنطينيانوس قيصر المشترك مع أخيه ولنسوس

(الفصل الثامن والاربعون)

«(في الملك ولنطينيانوس قيصر الاول والملك ولنسوس قيصر أخيه)»

كانت مدة ملكهما من سنة ٢٥٨ الى سنة ٢٤٤ قبل الهجرة فهي نحو أربع عشرة سنة لما قتل يونيانوس قيصر اجتمع أعيان الرومان في مدينته وقلدوا منصب

الامبراطورية الاميرة ولنطنيا فوس الاول وقد كان مولده ميلاد الجحار وكان قطلا
 غليظا شديد الطويل القامة عجيب الخلقة وقد اشر له معه في المملكة اخاه
 ولتسوس نخه بقمصرية البلاد المشرقية وأبقى لنفسه الممالك المغربية
 واتخذ مقر حكومتهم مدينة لوطيقة التي هي الآن مدينة باريس وقد بعث
 من هذه المدينة امرام وقوادم لحا قطة حدود المملكة مخافة أن تغير عليها
 قبائل الافرنجية والأتكلير والمغاربية وكان من جملة أمرائه الامير طيموديسيس
 فاكتسب في قتاله مع هؤلاء الامم جيدا لوصاف وجيل الاعتبار ونهاية
 المجد والتمار فصدرت من ديوان باريس الاوامر القصيرية الاكيدة
 ان كل من اتهم بخيانة دولته ووالس مع الاعداء يعاقب أشد عقاب فصار
 التشديد في التفتيش على ذلك وكثر التفحص والتجسس وحث البلوى البرى
 والمتهم وقد تغير القيصرو لنطنيا فوس في عقاب من رمى بالخيانة بدون اثبات
 بما لا مزيد عليه من العقاب مما لا يحظر على بال بشر فمن ذلك انه حبس دين
 عظيم مقتربين في قصر وأجاعهما حتى اذا أراد قتل أحدهم المتهمين
 أطلقهما عليه لاقراسه واشباعهما من لحم المتهمين ويقال انهما اقترسا بهذه
 المثابة كثيرا من الناس فكان غذاؤهما ذلك فقد بلغ من لوم الطبيعة الغاية
 من التشنى والاسقام النهاية فلقد صدق عليه نظير ما كتبه الهمداني في ضمن
 رسالة يصف بهاملكامثل هذا القيصرو عظيم الشأن بحسبه المتأمل اناسا
 وهو شيطان ليس بين رضاء والسخط عرجة كماليس بين غضبه والسيف
 فرجة وليس من حقيقة سخطه مجاز كماليس بين الموت والحياة معه مجاز
 بغضبه الجرم الخفى ولا يرضيه العذر الخفى وتكفيه الجناية وهي ارجاف
 ثم لا تنفيه العقوبة وهي اجحاف حتى انه يرى الذنب وهو أضيع من ظل
 الرحم ويعنى عن العذر وهو أبين من عود الصبح وهو ذواذين يسمع بهذه
 القول وهو بهتان ويحجب بهذه العذرة برهان وذو يدين يسط
 احدهما الى السفك والسفح ويقبض الاخرى عن الحلم والمفح
 وذو عينين يفتح احدهما الى الجرم ويقبض الاخرى عن الحلم فخرجه بين
 القتل والقطع وجمه بين السيف والنطع ومراده بين الظهور والكمون
 وأمره بين الكاف والنون لا يعرف من العقاب الا ضرب الرقاب ولا من

التأديب غير اراقة السما ولا من التأيب الا ازالة النعما ولا يحلم عن الهفوة
 كوزن الهبة ولا يغضى عن السقطة يحرم النقطة ثم ان النقم بين لفظه
 وقلة والارض تحت يده وقدمه فلا يلقاه الولي الا يغمه ولا العدو الا يذمه
 فالارواح بين حبسه واطلاقه كما ان الاجسام بين حله ووثاقه
 وكان دأب هذا القيصر ولنطنيانوس في سائر الاوقات الغضب فأودى به
 الى الهلاك وقاده الى سبيل العطب وقد قيل في تفسير قوله تعالى ان الذين
 اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون ان الطائف من
 الشيطان هو الغضب وفي التوراة يا ابن آدم لا تغضب فأغضب عليك فالغضب
 يصدئ القلب حتى لا يرى صاحبه شيئا حسنا فيقطعه ولا يقيها فيجيبه فلهذا
 قيل ليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام قال عمر بن عبد العزيز
 ثلاثة من كن فيه فقد استكمل الايمان من اذا غضب لم يخرجه غضبه الى
 الباطل واذا رضى لم يخرجه رضاء عن الحق واذا قام جدال لا يأخذ ما ليس
 له واذا تمكن منه الغضب على أحد حبسه ثلاثة ايام حتى يسكن غضبه ثم
 يحضره فان وجب عليه العقوبة عاقبه والا أطلقه وقد اشادت بهذا القيصر
 حدة الغضب وقوته فقد هاج ذات يوم غضبه فأتى لوقته قبل غضبه وقال له
 لسان الحال

فاشرب بكأس كنت تسقي بها * أمر في الخلق من العلمم
 وخلفه بعدموته على حكومة الاقطار المغربية ابنه غرثيانوس وذلك في سنة
 ٢٤٧ قبل الهجرة وسيأتي الكلام عليه في الفصل الآتي
 وفي أشام ما كان ولنطنيانوس متخلقا بالاخلاق السبعة في أحكام بلاده كان
 أخوه ولنسوس متخلقا بجميع الاخلاق من العدل والانصاف وحسن
 الادارة في البلاد الشرقية المحالة على عهده حتى قيل انه في زمانه لم يكن نولي
 المشرق من القياصرة خير منه فانه خفف على رعاياه المكوس والعوائد
 والخراج وأقصه قدر الربح شفقة منه على عباد الله ثم حدث قبل موته حادثة
 عجيبه عرف منها الرومانيون أمة جديدة لم تكن معروفة لهم قبل ذلك فاشتهرت
 بينهم وتخلد ذكرها في صحائف التاريخ من عهد هذا القيصر وذلك ان في سنة
 موت ولنسوس ظهرت أمة تارية تسمى أمة الهونية جاءت من آسيا كالجراد

المتشر فطردت قبائل الغوطية من مواحل نهر طونه وجبرتهم على أن
يجتازوا هذا النهر ويأتوا إلى بلاد المشرق فزحفوا على بلاد الرومانيين
وأراضيهم والتسوا منهم أن يقطعوهم أراضي ليتعيشوا منها فلم يساعدهم
الرومانيون على ذلك فبهذا صار الغوطية أعداء الرومانيين يغيرون عليهم
ويقاتلونهم على بلادهم وكان رئيس الغوطية آنذا الملك أفر بطيرن وكان
شجاعا مقداما فقد أدهم إلى جهة أدرنه وأوقع بالقصر ولنسوس عند أسوار
هذه المدينة واتصر عليه نصرة مؤزره هلكت فيها الجنود الرومانية وجرح
قيصرهم فقتل الجنود قيصرهم إلى وكروضعوه فيه فأحرق الجنود الغوطية
ذلك الوكر فهلك القيصر حيقا في سنة ٢٤٤ قبل الهجرة ومن هذه
السنة صارت الدولة الرومانية شركذ رباعية بين الأربع قبصرة الآتى ذكرهم
في الفصل الآتى

(الفصل التاسع والأربعون)

في القياصرة الأربع

وهم الملك غريثانوس قيصر والملك ولطنيانوس الثاني والملك
مقسيموس والملك طيودوسيس الأكبر ويقال له تاودوسيوس

كانت مدة توليتهم من سنة ٢٤٤ إلى سنة ٢٢٧ قبل الهجرة فتسكون
مدة حكمهم في الجملة سبع عشرة سنة
لما تولى غريثانوس أمبرا طور كان عمره سبع عشرة سنة وكان أخوه
ولطنيانوس الثاني متطلبا لما شاركته في القيصرية فتنازل عن إيطاليا وبلاد
السواحل الإيطالية الممتدة وقد استقر غريثانوس على حرب الغوطية فكانوا
دائما ظاهرين عليه كما كانوا على سلفه فلما أحس بضعفه عن مقاومتهم وحده
اتخبط معه طيودوسيس ابن الأمير طيودوسيس ولقبه أغسطس المشرق
تقلدا للجهات المشرقية فكان انتخاب طيودوسيس سنة ٢٤٣ قبل الهجرة
من حسنات الدهر على الرومانيين بعمومهم وعلى النصارى خاصة فان هذا
الأغسطس كان كأيهم هاما باسلا وذلك أن أباه كان يسعي طيودوسيس وكان
أمهر أمير من أمراء عصره وله محافظات على بلاد أفريقية وحروب نجح فيها

حيث أدخل عصافاً فريقية تحت الطاعة فحسده أخصامه على ذلك وقتل غيلة
في مدينة قرطاجة وكان والده طيودوسيس قد ولد في بلاد الاندلس وتربى فيها
وخدم تحت راية والده وحارب معه وحضر المشاهد العظيمة في الحروب فلما
مات والده عاد هو إلى موطنه إلى أن طلبوه لتقليد القيصرية باشتراكهم
غريثانوس وما حازه من البسالة والشجاعة في الحروب واقصام الخطوب
وحبه لدين النصرانية وغيره عليه أوجب تلقيبه بالأكبر فقد كان له ثبات
عظيم في الحروب وفيه كرم نفس وبما حقه على وجه عجيب فهو الذي هزم
القوطية في هذا العهد واجلاهم من حدود المملكة وعكس آمالهم وأفسد
حالهم

إذا انعكس الزمان على لبيب * يحسن رأيه ما كان قبيهاً

يعاني كل أمر ليس يعنى * ويشهد ما يراه الناس صلماً

حتى يجبو من علوانه وجلالة برهانه فخذوا إليه يد الضراعة وتنازلوا عن
صفة الانارات ورغبوا في معاهدتهم الرومانيين وعقدوا عقداً المحبة والوصلة
لتكون يداهم مع الجماعة وكان في هذا الزمن مقسيوس قائد جنود
الرومانيين التي في بلاد الانكليز فولاه الجنود امبراطور بدلا عن غريثانوس
بعد قتل هذا الاخير في مدينة ليون بفرانسا في سنة ٢٢٩ قبل الهجرة
فصار مقسيوس شريكاً لطيودوسيس وبذلك بخمس سنين هزم طيودوسيس
شريكه مقسيوس وقتله في سنة ٢٣٤ قبل الهجرة

لأننا نرى كل من أبصرته * وبما استأمنت جهلا من يخون

ولكم غرلكم سميت ظاهر * تحته من قلة العقل فنون

فليرى من القياصرة الشركاء لطيودوسيس الاول ولطنتيانوس الثاني وحده
مالك البلاد المغرب الرومانية وأما طيودوسيس فكان مقلداً على البلاد
المشرقية فقام شخص يسمى اربوغاست الافرنجي على ولنتيانوس وقتله
بمقتبره وولى بدله أوجينوس كاتب سر الديوان القيصري امبراطور وذلك
في سنة ٢٣٤ قبل الهجرة فتولى طيودوسيس امبراطوراً المشرق الانتقام
من أوجينوس وقتله فجمع جيوشه لينظر بقرينه وسار إليه وتقابل معه ببلاد
النساق فأخذها أسيراً بعد انتصاره عليه نصرة مؤثرة ولسان حاله يقول

صيد الملوك أرايب و تعالاب * واذا ركبت فصيدى الابطال
فصار بهذه النصره الاخيره منفردا بحكومة الممالك الرومانية وذلك في سنة
٢٢٨ قبل الهجرة

واذا العربن نصرت آساده * عوث الثعالب فيه آمنه الردى
وهو آخر قيصر تملك على الدولة الرومانية شرقا وغربا شمالا وجنوبا بتمامها
كما قيل

سموت اليها بعد ما نام أهلها * سموت حباب الماعال على خال
وكان هذا القيصر يهوى العدل والانصاف ويتدين بدين النصرانية فهذا
احترمه جميع القسيسين وقد اتحد بالبابا ساقس سيريقوس لتقسيد ابطال
عبادة الاصنام بالكلية ومنع القساك بدين الصابئة في جميع الاقطار الرومانية
وتواطؤ هو والبابا على ذلك والتس من مجلس رومة أن يصدر أوامر بذلك فأبى
المجلس فسخ هذه الديانة فأبطل القيصر المجلس وألفاه وعزل أعضاء وأصدر
أمره بدم هياكل الصابئة ومعابدهم ونهى عن تقرب القربان للاصنام
في البيوت وعن أن تقام فيها شعائر وثنية وأن لا يعقد في البلاد الرومانية
الادين المسيح عيسى بن مريم الا فحلب ونهى أيضا عن التفرق في الدين وسلوله
مذهب الاعتزال والخروج ونصب مفتشين يفتشون عن ذلك ومن وجدوه
متصفا بالتشيع والهراطقة أخرجوه من رومة وقبضوا على أمواله وأملاكه ثم
نهى البابا السالف المذكور جميع القسيسين عن أن يقرقروا وجعل شعارهم
الرهباية وهذه الطريقة باقية الى الآن شعارا في سائر قيسى الملة
القائولية على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم بدون استثناء ولا تعليق وأصدر
أيضا سنة ٢٤١ قبل الهجرة أوامر قيصرية بمجوز قديم الديانة المصرية وأن
لا يساح فيها الا التمسك بدين النصرانية فأغلقت الهيكل المصرية والمعابد
الاهلية وبهذا انعدمت شعائر الجاهلية بالكلية وكان المصريين أربعون
الف صنم للعبادة فخل محلهما دين عيسى عليه السلام الامر بالتوحيد والتناهي
عن الزيادة ومع صدور أمر طيودوسيس بمحو دين الجاهلية فلم يترك المصريون
ديانتهن الاصلية مرة واحدة في سنة صدور هذا الامر بل صار العمل في مصر
على شعار دين النصرانية بالصيغة الرسمية ولم يزل يوجد من أهل مصر بعد

صدور هذا الامر من بقي على العقائد الجاهلية خصوصا في صعيد مصر ولم ينجح
دين الجاهلية الا بتداول الايام بعد التبا والتى فالاصل الاصيل أو امر هذا
الملك النبيل فيساولك جادة العدل والانصاف واجتناب الجور والاعتساف
وبالدخول في الديانة العيسوية كان هذا القيصر جديرا بحكم الرومانيين
وقيصريته عليهم لاسيما وأنه كان حائزا للصفات الفاضلة والخصال الكاملة
وقد حصل في أثناء مملكته تلطيفات لازالة الفتن المصرية حتى حصل بمصر
الراحة السليمة والطمأنينة لاهلها من نصارى وصابئين فان هذا القيصر بعد
انقراذه بالملك سنة واحدة في سنة ٢٢٧ قبل الهجرة وقد قلنا ان انتهاء
الدولة الرابعة والثلاثين الى امر هذا القيصر الصادر في سنة ٢٤١ قبل
الهجرة فمن هذه السنة الى موته الحاصل في سنة ٢٢٧ قبل الهجرة
تكون المدة نحو أربع عشرة سنة محسوبة من مدة الدولة الخامسة
والثلاثين وأعقب ولدين أحدهما يسمى أرقادوس والاخر يسمى ثوريوس
فأورثهما حكومة الدنيا اعني الحكومة الرومانية بتمامها ومن ذلك العهد لم
يتول عليها ملك واحد يعني لم تصرفها وحدة الحكومة بل صارت
أمبراطوريتين مستقلتين احدهما امبراطورية المشرق ومدينتها
القسطنطينية والثانية امبراطورية المغرب ومدينتها رومة كما كانت وذلك
في سنة ٢٢٧ قبل الهجرة ولا ينبغي على من مارس التاريخ وسبر الوقائع
كثرة التقلبات في الدول المختلفة والامم المتباينة بسبب انقسام الممالك وتزريق
الدول فان مملكة فارس بحفظ وحدتها كانت قوية الشوكة مصونة الناموس
فلما انقسمت الى ملوك الطوائف تضعفت أحوالها وسهل أخذ أربشير لها
وكذلك لما تفرقت مملكة الاسكندر العظيمة وتوزعت الى ممالك صغيرة
بعدد الطوائف اضلعت جميعها وانقرضت دولة اليونان بانقسامها وكذلك
مملكة الرومانيين كانت قوية عظيمة بوحدتها فلما انقسمت الى مشرقية
ومغربية كان هذا الانقسام سببا لانحطاطها وانقراضها وانما حصل
الانقسام في الممالك القديمة والحديثة بسبب مطامع أعيان المملوك
وأمرائها فكل أمير خطير في دولة عظيمة تطمع نفسه لاخذ حصة من الدولة
يملك عليها فتضعف الدولة بقدر ما تنقص عنها بدون أن يقوى الطامع بجسته

وقد فاست العلاء وحدة المملكة بوحدة الجسم الحيواني الذي هو قوة
متمركزة تحتاج في تحريره ككها الى حفظ الموازنة المركزية فان خرج الجسم
الحيواني عن مركز الموازنة اختل نظامه فالدولة أيضا تخرج عن مركز
وحدتها بالانقسام تلفت فلما فقدت في مجلس جمهورية رومة احترام ناموس
مجلسها الجمهوري وتجاورت الجنود على انصاب القياصرة نتج من هذا
خروج الجمهورية الرومانية عن مركز الوحدة فضعفت الدولة من عهد
القيصرية وانقسام المملكة الى مشرقية ومغربية آلت الى الانحطاط ثم الى
الانقراض وكل هذا الانقسام ختام دولة الرومانيين الحقيقية التي يطلق عليها
هذا الاسم حقيقة وبالأصالة فقد كان تقسيم طيودوسيس المملكة الرومانية
بين ولديه ضروريا لازما لمنع الاختلاف والتشاجر الا أنه تسبب عنه زوال ملك
الرومانيين بدون بطء ولبقاء الممالك وزوالها أسباب عادية فبجأت من
لايزول ملكه قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتزعج الملك ممن تشاء
وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير فلعن الحكمة
الالهية اقضت نعيم الخلافة الاسلامية وفي جميع المعاهد والمجاهد
مصائب قوم عند قوم فوائد ومن هذا العهد الى ماسأى بعد من تاريخ
القرون الوسطى فالدولة الرومانية التي هي مبدأ القرون الوسطى تسمى الدولة
الطيودوسيسية وأول قيصرتها في المغرب هو لوريوس بن طيودوسيس
ولا حاجة لتأنيده لانه ليس له يد على مملكة مصر وليست داخله في حكمه
وأما أول ملوكها في المشرق فهو أرقاديوس بن طيودوسيس ومعلوم ان مصر
بعد هذه المقاسمة صارت في قبضة قيصرية المشرق الذين يقال لهم قيصرية
الروم وتسمى الدولة الطيودوسيسية المشرقية وهي بالقسبة لمصر تكون عبارة
عن الدولة الخامسة والثلاثين وستأتي في المقالة الرابعة

(الفصل المكمل للخمسين)

في ذكر ملحوظات تتعلق بالدولة الرومانية التي هي

الرابعة والثلاثون عن حكم مصر من الدول

لمصارت الديار المصرية في قبضة الدولة الرومانية اجتهدت رومة في جميع

الوسائل التدبيرية التي في طاعتها أن تبقى مملكة مصر تحت يدها وفي قبضتها حيث هي من أعظم غنية اعتمدتها من الممالك فاستحدثت لفظها وصيانتها أن تبقى لها رخصة ديانتها وأن تتركها على عوائدها الأصلية وعلى فنونها وصناعاتها وطريقة كتابتها ولفظها وأن لا تسلك معها مثل ما سلكه العجم من الحظر والمنع بل أصلت الدولة الرومانية ما كان اندرس من معالم الديانات وهياكل العبادات وزادت هياكل ومعاب جديدة أهلية وتمت ما كان من مشروعات الدولة البطلموسية ولم تقتصر على العمارات المصرية بل جددت عمار أخرى في دار النوبة من البلاد السودانية التي هي من ملحقات الممالك المصرية فهذا كله قصدت تطيب خواطر المصريين وتأليف قلوبهم وتمكين حكومتهم على وجه متين واحتمالة نفوس أهل النوبة وضعهم اليهم وتوسيع دائرة الحكومة المصرية ثم لاجل حسم دواعي الفتن والعصيان واطهار حكم مصر بالعدل والاحسان لم تعرض لمادة الاديان بجور ولا عدوان فهذه السياسة رسخت دولة الرومانيين بمصر رسوخ الاطواد وتمكنوا بهذه التصيلات من كمال الاستيلاء على هذه البلاد وكانت عساكر مصر وكبرائها في مبدأ الامر محافظين لقلاعها ونفورها وزمام المملكة بين أيدي جمهورها فلما أمنت دولة رومة من أهالي المصريين غوائل العصيان بما يرضيهم على مذاهبهم القديمة وطرائقهم المستديرة ولم يبق للمصريين تعلل ولا احتجاج في انارة الفتن أمرت الدولة الرومانية بأن لا يوضع في المدن محافظون الا من جنودهم وأن لا يتولى أحكام مصر الا صاحب راياتهم وبنودهم وأن لا يكون في مصر رئيس الحكومة الا نائب روماني يعينه مجلس رومة وأن يكون هذا النائب القيصري منصرفا في حكم مصر تصرف القيصر فاعلا مختارا امر خاصا في الملكية والعسكرية ليكون مقامه عند المصريين كتمام ملوكهم الاقدمين صاحب وقار واعتبار ليس فوقه في الدرجة الا مجلس رومة أو قيصر الرومانيين وليس تابع الحكمدا رعموم المشرق فكان مجلس رومة أو متولى الدولة له على متولى مصر كمال المناظرة وتمام الصولة وكل من ارتكب من الولاة هفوة عومل من طرف رومة بالهفوة فلم تكن مدة ولاية النواب في تلك الايام طويلة وكان عزلهم وتقييمهم وقتلهم يحصل من طرف رومة

بأدنى وسيلة وكان من أصول الدولة الرومانية أن لا يتولى على مصر أحد من أعضاء مجلس رومة ولا من عائلات الجهد الاولى خشية أن يستبد بملك مصر لقروهر بمحاسنها ويطمع في الاستقلال بها وينزى رومة بالعصيان ويحاشنها

فكانت مصر في أيام حكومة رومة قليلة البهجة والعظم بالنسبة للسياسة الاجنبية غير مقتعة بالثمرات الوطنية من كمال الحرية بل كانت على حالة الاسترقاق والاستعباد ونسبت مفاسدها القديمة وصفان مجددا العجمة ولم تذكر أنها كانت سيدة البلاد ولم يبق لها من رموز الحياة الاهلية الا بعض لمحات روطانية فقد كان في مدة الرومانيين لمدارس الاسكندرية شهرة جليلة لاسيما في المذاهب الفلسفية فكان لها في ذلك العصر على رومة ومملكة اليونان سلطنة القوة العلمية وسطوة المملكة الحكيمة وأما حالها الجسمية فقد عجز اختلالها وتم اضمحلالها وقام الدمار مقام العمار فلا تجد في أيام الرومانيين من مدينة طيبة والعراة المدفونة ومنف وعين شمس الا آثارا خربة وأطلالا لمكتبة ولم يبق من العمارات الا الرسوم والامائر من جميع المدن حتى من مدينة الاسكندرية التي كانت دار المملكة المصرية اذ ذلك فانها انخفض قدرها عن ذلك فصارت كرسى ابالة رومانية وبندراقليم من الاقاليم المصرية كما صارت جميع الديار المصرية في ذلك العهد لا عنايتكم الا بمجادة الفلاحة والزراعة تجتهد في امداد مدينة رومة وتغيرها بالميرة وتعيها بالذخيرة حتى كانت مخزن غلال لرومة تقي بها حاجتها من الجبوب وتكفل لها من ذلك بالمطلوب ولم تغر مصر من حكومة الرومانيين بفائدة مهمة ولا عادت عليها منها عائدة من القوائد الجمة الارشادها في أزمانها الاخيرة الى دين عيسى بن مريم وانقادها من دين السابقين وهم معابد الوثن والصنم وهذه غربة كبرى وان كان أهالي مصر لم يتوصلوا الى ذلك المرام الا بعد مقاساة الشدائد والالام من وقت أن دعا هذا الدين بمصر القديس ماري مرقس تلميذا ماري بطرس حواري ومن تبعه فيها فانه بكثرة الحجة الدينية والاحزاب العصبية قامى المنتصرون مالا من يد عليه من النكال بمن يريد البقاء على دين السابقين ويرى فيه الهدى وفي

غيره الضلال وسيأتى بعض ما يتعلق بالديانة العيسوية فى آخر المقالة الرابعة
ان شاء الله تعالى

(الفصل الحادى والخمسون)

فى جدول القياصرة الرومانية الذين حكموا مصر
من أغسطس قيصر الى طيبودوس قيصر

وهو عبارة عن اجمال ما ذكره قاييمان اسمائهم وابتداء حكمهم وانتهائه
المفهوم من ذكر مدة الحكم ومن كون ابتداء كل قيصر نهاية سلفه وكل ذلك
على وجه التقريب حسب الامكان لا التحديد الحقيقى

ابتداء الحكم	مدة الحكم	
سنة	سنة	
قبل الهجرة	قبل الهجرة	
٦٥١	٤٣	الملك أغسطس قيصر
٦٠٨	٢٣	الملك طيبوريوس قيصر الاول ويسمى طباريوس
٥٨٦	٤	الملك فالينغولاق قيصر
٥٨١	١٣	الملك كلودس الاول قيصر
٥٦٨	١٣	الملك نيرون قيصر
٥٥٤	١	الملك اسبقيوس غلبا قيصر ويقال له غلبان
٥٥٣	ثلاثة أشهر	الملك مرقس أو طون قيصر
٥٥٣	ثمانية أشهر	الملك ويطليوس قيصر
٥٥٣	١٠	الملك وسباسيانوس قيصر ويسمى اسباسيانس
٥٤٣	٢ وشهران	الملك طيطوس قيصر ويقال له طيطس
٥٤١	١٣	الملك دومطيانوس قيصر
٥٤٦	٢	الملك نبروا قيصر
٥٢٤	١٩	الملك أوليوس طريانوس قيصر
٥٠٥	٢١	الملك أدريانوس قيصر
٤٨٤	٢٣	الملك طيطوس أنطينينوس قيصر

ابتداء الحكم	مدة الحكم	سنة	سنة
قبل الهجرة	قبل الهجرة		
٤٦١	١٩	الملك مر قوريلس قيصر	
٤٤٢	١٣	الملك قومودس قيصر	
٤٢٩	ثلاثة أشهر	الملك برطيناش قيصر	
٤٢٩	شهران	الملك ديدوس يوليانوس قيصر	
٤٢٩	١٨	الملك سبطيمس سورس قيصر	
٤١١	٦	الملك بسبانوس قراقله قيصر	
٤٠٥	١	الملك أويليوس مقرنوس قيصر	
٤٠٤	٤	الملك بسبانوس هليوغباله قيصر	
٤٠٠	١٣	الملك اسكندر سورس قيصر الثاني	
٣٨٧	٤	الملك مقسيمينوس قيصر { الاول ويسمى عشتيمان}	
٣٨٤	بعض أشهر	الملك غوردانوس قيصر الاب وابنه { الملك غوردانوس قيصر الاصغر}	
٣٨٤	٦	الملك غوردانوس قيصر الثالث	
٣٧٨	٥	الملك فليس قيصر	
٣٧٣	٢	الملك دقيوس قيصر	
٣٧١	٢	الملك غالوس قيصر ويسمى أيضا والوس	
٣٦٨	أربعة أشهر	الملك أمليانوس قيصر	
٣٦٨	٥	الملك والريانوس قيصر	
٣٦١	٧	الملك غليانوس قيصر	
٣٥٤	٢	الملك قلودس قيصر الثاني	
٣٥٢	٤	الملك اورليانوس قيصر	
٣٤٧	ثمانية أشهر	الملك طاقيطوس قيصر	
٣٤٧	٧	الملك بروبيوس قيصر	

ابتداء الحكم	مدة الحكم	سنة	سنة
قبل الهجرة	قبل الهجرة	سنة	سنة
٢٤٠	١ وخمسة أشهر	٢٢٩	عشرة أشهر
٢٢٩	١٨	٢٢٩	
٢٢١	١٠	٢٢١	
٢١١	١٣	٢١١	
٢٩٩	١٤	٢٩٩	
٢٨٥	٢٤	٢٨٥	
٢٦١	٢	٢٦١	
٢٥٩	١	٢٥٩	
٢٥٨	١٤	٢٥٨	
٢٤٤	١٧	٢٤٤	

فأذا جئت هذه المدد تجد هانحو أربع مائة واحد عشر سنة تقريبا وان يكن فرق بين عدم علم شعور اتولية في السنين ومقدار مدة الاربع مائة واحد عشر سنة هو حكم هذه الدولة على ديار مصر بوصف كون مصر ايلة رومانية تابعة لحكومة الرومانيين كسائر الايلات الرومانية الشرقية ليس لها علاقات خارجية وانما كانت في أيامهم تحظى من الثروات والمحصلات بما يتصل من حسن ادارة ولاية أمورها وتديرهم الداخلي فهي وان فقدت في هذه المدد الاستبداد بسلطنتها على نفسها سلطنة حسية وهي في قبضة

الرومانيين لم تزل اذذ الساقطة لسلطنتها المعنوية بالقوة العلمية والشوكة
الروحانية في تلك المدة كما سبقت الاشارة الى ذلك وكان لها علو الدرجة
والمرتبة المعنوية على رومة وعلى بلاد اليونان بقوة أنوار العلم الساطعة
وأضواء الفهم اللامعة في تلك الازمان فما كانت هذه الامزية للديار المصرية
وخاصية من خواصها الذاتية لانها على اختلاف الازمان ودوران
الحدثان متميزة بصفة القوة المعنوية واظهار المعنوي على أعظم مدينة
من مدن الدنيا ولو كان لتلك المدينة الحكم الحسي على مصرفي وان كانت
في الظاهر ليست في درجة العظمة السلطانية لا تنازل أبدا عن درجة
السلطنة العقلية بسر الهى وضعه الله سبحانه وتعالى فيها كما دلت على
ترجيحها اصحاب النصوص ومدحها الله سبحانه وتعالى بالخصوص وهي
التي تلبس من تملكها حال البهاء والفخار والمجد والاعتبار لاسيما من
يحسن صيانه ناموسها عن الانكسار

اذاما كنت مريض السجيا * وعاش الناس منك على أمان

فعر في الدهر ذا أمن وعين * ويومك الاله الى الاماني

فتضلع على مملكها الوجاهة وتعلي قدره وتقوى جابه وينال كمال مطلوبه
ويقتصر على تمام مرغوبه وتشرع لمجدها عليه حتى يصير علم الشرف
وشرف المضاف بقدر شرف المضاف اليه وشرف مصر معلوم والكفو
المزاحم على مواردها تقويم أودها غير معلوم والمورد العذب كثير الزحام قال
تعالى ابطوا مصر فان لكم ما سألتم فقد تراحم على مواردها العذب سائر الامم
وامتزج أهلها بغيرهم امتزاج المدام بماء الديم وتخلقت من بينهم أمة جامعة
لاخلاق العرب والعجم فمصر ولاية جامعة تعدل الخلافة بقي لها من سناء
أنوار الملك الساطعة مالم يبق للكفر والرافة وبالجملة فهي بلد العلم والحكمة
من قديم الدهر وحديثه ومنها خرج العلماء والحكام الذين عمروا الدنيا قديما
وحديثا بلعولهم وحكمهم وهي جاهلية واسلاما أقوى بلاد الدنيا دينيا

وذلك أنهما كانت في قبضة الدولة الرومانية الحسية وكانت السلطنة
الرومانية لمباينة اتساعها وكثرة اتباعها تمزق ربعها وتفرق جمعها وانقسمت
الى سلطنتين تحت تسلط دولتين من قياصرة الرومانيين احدهما بقي سريرها

بمدينة رومة حاكمة على الاقطار الغربية والثانية بمدينة القسطنطينية وكان ذلك في نحو سنة ٢٥٩ قبل الهجرة فكانت مصر داخله في دولة الروم الشرقية تابعة لقيصر الروم بالقسطنطينية وكان دين المسيح عليه السلام تمكن في القسطنطينية كل القسطنطينية ومصر منها الى مصر فباستقرار طيودويس قيصري على سرير المملكة الشرقية أصدر أمره في تاريخ سنة ٢٤١ قبل الهجرة بمحو الديانة المصرية القديمة بالكلية وازالة الدين الجاهلية وجعل دين عيسى عليه السلام هو الدين العالم يتمسك به الخواص والعوام وعلى مقتضى أمره القيصري أغلقت الهيكل والمعابد وما كان لادين الجاهلية من المعاهد والمشاهد وانعدمت شعائر الجاهلية المصرية وقضى الامر واتشرفت شعائر دين المسيح عليه السلام ومن ابتداء هذه المدة اشتهر أهل مصر باسم القبط فطائفة الاقباط هم المتصرون من ذرية الامة المصرية وبقي الدين العيسوي متسلطاً بمصر مدة سني المائتين والتسعة والخمسين الائمة في المقالة الرابعة

(المقالة الرابعة)

• (في ملوك الدولة الخامسة والثلاثين) •

وهي دولة الروم العيسوية بمدينة القسطنطينية ومبداً وهما من سنة ٢٤١ قبل الهجرة وانتهى بها بفتح مصر بالاسلام سنة ١٨ من الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية ومدة حكم هذه الدولة نحو مائتين وتسعة وخمسين سنة وهي تشمل على عدة أبواب

(الباب الاول)

• (في ملوك هذه الدولة وفيه فصول) •

(الفصل الاول)

• (في الملك ارقادايوس قيصر) •

قولى هذا القيصر الامبراطورية الشرقية في سنة ٢٢٧ وبني حكمه

الى سنة ٢١٤ قبل الهجرة فكانت مدة حكمه ثلاث عشرة سنة ويضاف الى هذه المدة أربع عشرة سنة من مدة حكم أبيه في القسطنطينية من اصدار أمره باتباع الملة العيسوية في حكمته لحسان هذه المدة من أيام هذه الدولة التي نحن بصدد ها في الحقيقة رأس هذه الدولة هو طيود وسياس الاكبر الذي هو مؤسسها لم يكن ارقاد يوس في العقل كما يه بل كان ضعيف الرأي عديم التدبر

ما بين اللبون بصول مولد يازل * فيه قصور عن طويل الباع
فلهذا كانت مملكة المشرق في عهده ضعيفة كائما ارقسم فيها مرآة طبعه
فان هذا القيصرفوض سياسة المملكة لاجبابه ولا مراة أجناده وقوايه
وكانوا من الاجانب فوقع بينهم العداوة وصار يملك بعضهم بعضا وكان زمام
المملكة في أيامه حلا وعقد في يد شخص يدعى روفين ويلقب رئيس الدولة
وفي يد آخر يسمى أطروبس حاجب الديوان القيصري وكان كمال النفوذ
في الدولة تزوجة القيصر المسماة أودقسيه الشهيرة التي عذبت القديس
خر وموصطوموس وسيأتي الكلام على ذلك وكان القيصر طيود وسياس قد
أوصى ابنه ارقاد يوس حين عهد اليه بوصية صورتها

لو كنت أبها الولد ويضئ البلد من أبناء ملوك فارس وعهد اليك مملكتها
وأنت اليك دوائها لكان عنوانك الكسروي كافيا في حفظ سرير الملك
وصيانة تاج الدولة ولكن مبتك بأرض الروم وحال أهلها معانوم فكان
حازما فالخزم يتفع أهلها وان كنت ممن يجهل الامر فاسأل فاذا أردت أن
تكون أهلا لان تحكمهم ونسوسهم فايد أنتفسك واحكمها وأحسن
سياستها قبل ذلك لتعلم كيف تغلبها فالعاقل من غلب عقله على هواه

والناس صنفان سوقة وملوك فالسوقة ليس همهم الاسعاده أنتفسهم وأما
الملوك مثلك فهمهم سعادة الرعايا وسعادة الرعايا سعادة الملك فاذا اتحكمت
عليك الذنوب وتغلبت عليك العيوس فأت عبد هوى ولو تعلمت بتاج
القباصرة فاحترس من تغلب الشهوات النفسانية وخلها الرعاع من الرعية
فان الشهوات الدنيوية تعترض للامر اءو الملوك وتكون نصب أعينهم
فتغلبهم فاذا أردت أن تتخلق باخلاق ملك الملوك وسلطان السلاطين فتخلق

برحمته وحلمه واتبع دائما طريق العدل والاحسان ولا تلتفت في فعل الخير
لمدح أو قدح من انسان فان العامة لا يتعاشون عاقدين مدح الملوك أو القدح
فيهم وحالهم قاتل

وان لسانى مبضع أى مبضع * وفي كل عضو منهم عرق أو كل
فكن باستكمال الفضائل ومكارم الاخلاق صورة للعدل والاحسان وتحقق
باخلاق الملك الاخلاق فهذا تسلطن على قلوب الرعية سلطنة أقوى من
سلطنة السيف والشوكة القوية فقد جرت عادة الرومانيين أنهم لا ينقادون
لامير متكبر ولا لملك متعبر بل لامير حليم عادل حكيم نخل الرفاهية والطمئنة
والزينة والسلطنة للولاء آسيا والبلاد المشرقية وتعمل بحيلة عظيمة القياسرة
الرومانية يعنى بالمعارف الصالحة ومكارم الاخلاق الرجعية وأوصيك
اذا احببت ملكا من الملوك فأحكم قيادة العساكر واحسن فى الامرة والسلوك
لتطاع منهم وينفذ امرك فيهم واقسم اقم الام الاخطار مع الجنود فانهم بك
يقعدون ويستسلمون المهالك وباقتحامها لا يبالون ويمتأ كذب الوصية
وتجب فيه النصيحة أن يواطى على قراءة تاريخ من سبقك من القياصرة
لتعرف ما أصابهم من النصرة والهزيمة والوفائع الفاسدة وغير الفاسدة
وتقف على سبب العزة والهوان وما تداول من العظم والافتخاط لدولة
الرومان لتفقه من ذلك ما ينبغي فعله وتتقن لما ينبغي اجتنابه انتهى
ملخص الوصية ومن المعلوم أن قياصرة الروم كانوا يشهدون للاكاسرة
بعلو درجة اتديروا انتظام الملك ويتسألون عن الاسباب وهذه الايات
الآتية تشير الى ذلك وهى

كانب فى السابق كسرى قيصر * بما استقام ملكهم والظفر
فقال قد دام لنا الولاء * بخمسة طاب لهم الهناء
ان اسسروا فذوى العقول * وان نولى فذوى الاصول
وليس فى وعد ولا وعيد * نخالف القول على التأييد
وان تعاقب فعلى قدر السبب * من الذنوب لا على قدر الغضب
ولا تهتم السباب مطلقا * على الشيوخ فى ولاه أطلقا
ومع ذلك فقد تراءى أفراد بوس لسخافة عقله العمل بهذه الوصية والانتقاد

لهذه النصيحة فكان مقته حياهه مبغوضا عند سائر الرعايا مذموما مضوحا
أقبح فضيحة

وعاجز الرأي مضيا على قهره * حتى اذا فات أمر عاتب القدرا
وقد سلف أن الذي كان قابضاً لزام الدولة هو الوزير روفين وكان الحل
والعقد بامتناع الملكة أو دقسه وكان يخشاها الوزير روفين أكثر من
القيصر وكان يخطر له سلب المنصب القيصري من زوجها حتى كاد لا يمنع من
ذلك الا وجودها حتى انه مهد التهميدات اللازمة بسلب ذلك المنصب وضرب
نياسين باسمه نقش صورته عليها كأنه لا يس التاج القيصري وأعد هذه النباشين
لوقت استقلاله بعد خلع القيصر فأراد أن يقابل النعمة بالسكران ويضع
١١١ في موضع الاحسان

الأرب من تخو عليه ولوزي * طويته ساء تلك الضمائر
فلا تأمنا خلا ولا تغتربه * اذا لم تطب منه لديك الخباير
وكان للقيصر طيودوسيس قائد عسكري يدعى أسطيليقون قد أقامه في حياته
كسيلا على واديه القيصرين بالشرق والمغرب فلما توليا القيصرية بعد أبيهما
كل بجهته كان ذلك الكفيل مشغولا بقسمة الاموال والجنود بينهما وكان
يحتقد على الوزير روفين تصادف أن طائفة الغوطه اجتازوا نهر طونة لحرب
أرفاديوس وقصدوا بلاد القسطنطينية وساروا نحو موقعة صددهم وظنوا أن
لا يصدهم أحد فأرأى الامير أسطيليقون أن يغتنم الفرصة للانتقام من روفين
ومن الغوطه فأظهر أنه يقود الجنود من ايطاليا ليوصلهم الى القسطنطينية
لسلامتها فإرحتي وصل الى مدينة سلاينك ثم هجم بحركة عجيبة على الغوطية
وحصرهم حصرا شديدا حتى هزمهم وقصد بذلك أيضا القتل بالوزير
روفين

فأحس بذلك الوزير روفين وكان يخشى من أسطيليقون أكثر من الغوطه
فأصدر أمر امن أرفاديوس بطلب وصول الجنود الى القسطنطينية بدون
حضور أسطيليقون معهم فامتلأ أسطيليقون أمر القيصر وانفصل عن
الجنود ورجع الى ايطاليا لعله بصدقة الجنود المبعوثين لقيصر المشرق
وأرسلهم مع قائدهم غيناس فكان أسطيليقون يعهد أيضا أن هذا الرئيس

وجنده يعضون الوزير روفين حتى ان أسطيليقون أخذ عليهم موثقا بقتل
الوزير روفين

فكتموا ما عاهدوا عليه مع غاية الحزم ولم يوحوا به لاحد مدة سفرهم من
سلاينك الى القسطنطينية ولم يتقوهوا بكلمة يشتم منها راثحة العداوة للوزير
روفين بل أظهروا له عند قدومهم اليه كمال الخلق والنفاق وعاملوه بغاية
ما يليق من التجميل والاحترام فاعتربطوا بهم وأغدق عليهم بالاموال كمال
الاغداق وأمل أنه باعائهم يقتل زوجة الملك ليتخبره قيصرا عليهم
ولما كان أرقاد يوس عديم الثبات والرسوخ وجب عليهم أن يكتموا عنه
حقيقة الحال وأن لا يطلعوه على ما في ضميرهم وأن لا يخبروه بأن وزيره روفين
مضمر له الخيانة وربما كانوا اذا بادروا بسلوك طريق الصداقة وأخبروه بذلك
حالا يترتب على اخبارهم غاية المضرة لهم فتمثل قائد الجند الامير غيناس بين
يدى القصر والنس منه أن يعرض الجند على قيصرهم وأن يسير العسكر
أمامه فحضر القيصر في الميدان مع صوبايوزيره روفين وسلم حسب العادة
على البرقدارية الرومانية بالعسكر القيصري فكان روفين يتأمل كل التأمل
ويوجه نظره الى العساكر والضباط مع اظهار التواضع والكبرياء كأنه معتمد
على تحقيق رجائه بمساعدتهم له ووائقيهم في حركاته وسكاته فلما وصل مع
القيصر الى كبد الصفا تقدم جناسا الجيش على وجه السرعة وأحاطا بالقصر
والوزير كمال الاحاطة فأعطى غيناس الاشارة اللازمة للجند بما أضمره فهجم
أحد العساكر بفتة على الوزير روفين وطعنه بالسلاح في صدره فصرخ الوزير
صرخة عظيمة وانكب طريقا على الارض وخرجت روحه تحت قدم القيصر
الانما الاحامشرب وبينهم * كؤوس المنايا لا تزال تدور

فمنهم سريع السكر في الحال يتشى * ومنهم على الشرب الكثير قد ير
فشاخ قلبه بين الاهالي فقاموا جميعا وهاجوا وماجوا وازدجوا والتفرج عليه
لكون قلبه كان جل همهم وقسكوا بأعوان هذا الوزير الذين كانوا أهانوا
جميع الرعايا فقتلوه عن آخرهم وقبضوا على جسم روفين فمزقوه كل ممزق
وطافوا به في الاسواق والشوارع وأقاموا رأسه على سنان الرمح وقطعوا
يده اليمنى ليمنوا به ويتفرج عليها الوارد والمتردد وجعلوا كفه مدودة مبسوطة

كانه يطلب من الاهالى أن يسلموه المغارم والمطالب كما كان يفعل في حال حياته فقد جوزى أشد الجزاء على عسفه وظلمه وجوره في حكمه وماذم أهل العلم نيا قصده * ولكنه من رحم اليم يفرق ولم تنج زوجته ولا ابنته من القتل الابهر يوم ما الى دير بيت المقدس وضبطت أموالها الى الخزنة القصيرية فيه هذه الحادثة التي صار فيها الاقيان من الجنود على هذا القيصر ضعف احترام الرعية للقيصرة وصار مقامهم وضععا وناموسهم قليل الاعتبار وصارت قوة الجنود مهينة يخشى على الدولة سطوتها ويترقب على عمر الايام صولتها

مولاي أن صروف الدهر قد حكمت * وأعوزت أن يذن الرأس للذنب كم من مقبل كف لو تمكن من * قطع لها كمن ممن فاز بالارب فولى أرقاد يوس بدل ذلك الوزير المقتول أطرويس الطواشي الحاجب وكان أسطيليقون زعيم الدولتين يرى أن له حق ككفالة قيصر المشرق ويدها مستندة على وصاية طبودويس قيصر ولكن كان يخشى أن يقع بتطلبيها العداوة بين الدولتين والبغضة بين الاخوين فترك أرقاد يوس وشأنه مع وزرائه وامر انه ولم يقع منه تدخل في السياسة والتدبير وكانت كل دولة من الدولتين ليس لها على الاخرى أمر ولا هي فلم يكن بينهما جامعة قوية في هذا الوقت فاغتنم الآريق ملك الغوطية هذه الفرصة واصطلح مع أرقاد يوس واتظم في سلك الجنود الرومانية وعد نفسه من الابعاع القصيرية المشرقية فجعله القيصر رئيس عموم جنوده الرومانية بسواحل ايطاليا المشرقية وكانت تابعة للقسطنطينية ومع انضمام ملك الغوطية للدولة المشرقية ظاهرا كان في الحقيقة عدوا للدولتين حاد عليهما ما كرا اتحادا كعادة اللثام من غي الايام الانما الايام أبناء واحد * وهذي الليالي كلها أخوات

فلا تطلب من عود يوم وليلة * خلاف النوى مرت به السنوات فانتهى به الحال الى أن استعمل أمره وقوى جيشه وجاشه وحارب قيصر رومة وهزمه شر هزيمة وكاد يأخذ ملكه لو ان صدقه عن ذلك الأمير أسطيليقون فقد دفعه عن المملكة المغربية في واقعة هزمه فيها وأخذ زوجته أسيرة وفر الملك الآريق هاربا واثيا بنفسه فن هذا يعلم ان مدة حكم أرقاد يوس

كانت سببا لانحطاط القصرية وانحطاضها عن مرتبتها العلية وان هذه
المدة كانت منشأ الفساد الاخلاق والعوائد ولتجدد الظلم والجور فقد كان
أكثر رجال الدولة أرباب ظلم وعسف وأرباب جبن ورواوة منهم ~~مكين~~ على
الذات والشهوات ودليل ذلك أن أطروبيس الطواشي وزير هذا القيصركان
رئيس المجالس والمحاكم وأمير أمراء الجيوش عموما فكان رئيس الدولة
يتمائمها وكان مبغضا للقوطية الذين هم أعداء الرومانيين طبعاً وقد فرحوا
بتقليد هذا الوزير منصب الرياسة الكبرى فيه آمنوا غائلة جنود أخصامهم
لما أن هؤلاء الجنود تحت رياسة رئيس ليس أهلا لتأدية وظيفة الرياسة
ولا كفوا المقاومة رؤسائهم ولا بقوى على منافستهم

وقد شفع خيار الناس وأهل الاستقامة جميعاً من الجنود والاهالي على انتخاب
القيصر له لاسيما وقد تحقق لدى الجميع أن هذا الوزير يأخذ الرشوة ويضيع
حقوق المملكة بل قد يضيع المملكة نفسها بأن يبيع لأعدائهم من البلاد
ما يتمكن من بيعهم وكان من خصاله أنه يصنع لوشى الوشاة ولاهل السعاية
بالنمعة في حق الاهالي ويكثر من أخذ المغارم غنية لنفسه وكان من دأبه
أنه كان يسعى في اتلاف من امتاز من أمراء العساكر في أيام طيود ويسيس
بالصدقة والاستقامة فكان يفتك بقدماء المستخدمين اذا كان يحشى من
شجاعته

ولما كان هذا الوزير متجاوزا للحد في الظلم والجور وكان لا يجهل الآراء العامة
ويحشى القبح في حقه من عموم الناس كما هو مذهب كثير من الحكام كان
يحاذر في غدره ويحترس كل الاحتراس خوفاً للملامة ففشر لائحة وأعلن فيها
أن كل من طعن في وزراء الملك أو في أهل ديوانه فجزاؤه القتل وان من سعى
بالشفاعة في مذهب والقس الصغ عن ذنبه فجزاؤه الجريمة بالفضيحة والعار
وقد ظن أن هذين الحكمين يكفان ألسنة الخلق من القيل والقال فكان
نشرهما في اللائحة القصرية سببا لاضرام نار الفتنة والشروع في الاتهام
الرومانية اذا ما أراد الله اهلال تلكه سميت بجناحيها الى الجوق بعد

فلما قامت الفتنة واشتدت وانضم رؤساؤها الى زوجة القيصرك طلب الجمهور
من القيصرك أن لاتسكن هذه الفتنة ولا يصطلحوا معه الا بضرب عنق هذا

الوزير فتوقف الملك في قتله فقبلت زوجته اقدامه وشكت أنه أساء الأدب في حقها وخاص في عرضها وأنه لا هائلة في ابقائه قصدر الامر القيصري يقتله فكان الحكم يقتله عاقبة سوء فعله

فيميزد الحكم عليه بالقتل أظهر له الشمانة كل من كان تعلق له من الاهالي ومن أهل الديوان ولأحد الاو يشيعه شقا وسبا وطعنا وضربا وأرادوا أنهم يمزقوه اربا كما قيل

ما الناس الا مع الدنيا وصاحبها * وكلما انقلب يومه انقلبوا
يعظمون آخا الدنيا فان وثبت * عليه يوما بما لا يشتهي وثبوا
(غيره) *

ايالك تخدعك في الايام بارقة * من ندى خداع يرى بشر او الطافا
قلو فقلت جميع الارض قاطبة * وسرت في الارض واسطا واطرافا
لم تعلق فيها صديقا صادقا أبدا * ولا أخا يذل الانصاف انصافا
ولكن لسعد برهة من الزمان وطول أجله الى محيى الاوان كانت نجاته من
القتل والتزريق على يد القديس خروص صطومس فقد جاء من الاهالي
وخطب فيهم خطبة بليغة بقول فيها ان الدنيا لا تدوم على حال واحد وان
الطبيعة البشرية ليست معصومة من النقائص الدنيوية وسوء المقاصد الى
آخر ما قال من المواعظ في هذا المعنى وسبب حاية هذا القديس له انه سبق
من الوزير المعروف في حقه حيث اوام اليه وجهه من أخصامه أيام وزارته
والمعروف لا يضيع عند الله والناس يشهد به قوله تعالى ولا تنسوا الفضل بينكم
وليس ذلك مقصودا على الشكر بل يشعل المكافأة قال لقمان لابنه يابني
المعروف فيسد لا يفكه الاشكر أو مكافأة وقيل المعروف رق والمكافأة عتق
قال الشاعر

كلما قلت أعتق الشكر وفي * صيرني لك المكارم عبدا
أبقى عمر الزمان حتى أؤدى * شكرا حسنك الذي لا يؤدى

واطلاق الشكر باللسان للثناء على أهل الفضل والاحسان انما يكون اذا
قصرت اليد عن المكافأة والاوجب المكافأة بالنعمة وكيف يكافئ من قلت
بسطه وعجزت قدرته فلما لاحت للاسقف السالف الذكر فرصة تخفيف ظهره

من جل منة الوزير المنقوب اعتمها وتثبت بالسعي في شجائه فجنطية هذا
القديس سكن غضب الالهالي واستقر الحال على نفي هذا الوزير في جزيرة قبرس
وحسن دمه ومع ذلك فلم يرض حاكم هذه الجزيرة دمه
وقد استوزر القيصر بعده الوزراء من الاجانب والاغراب وسلمهم قياد
المملكة كالسابق وقد أفضى الحال ان سلم زمام المملكة لزوجته وكانت تكره
الاسقف خروص صطومس وتعاديه وقد تسبب عن هذه العداوة من خط
مقامها الامر يد عليه

عليك يا اخوان الصفاء فانهم * عماد اذا استجبتهم وظهور
وان قليلا ألف خل وصاحب * وان عدوا واحدا الكثير
لحققت عليه ونقته وكان معظما عند الالهالي لكونه كان أسقفا وكانت الاساقفة
معظمه عندهم فقامت الفتنة على ساق وقدم واجتمعت الالهالي أحرابا واشهروا
السلاح وأحاطوا بقصر الملك فربح قلب الملكة من هذه الفتنة وتمت
بين يدي القيصر واشهدت على نفسها أنها اخطأت في نفي الاسقف وأمرت
بعوده الى القسطنطينية وجالوسه على كرسي الاسقفية فعاد الى كرسيه فكان
في عودته راية الاتصار على الملكة لعدم تفوذا وأمرها في حقه فزين الالهالي
لقدومه سواحل القسطنطينية شرفا وغربا بقصد استقباله بالفرح والسرور ثم
لما دخل المدينة صعد على منبره وخطب خطبة يعظ فيها بالصلح والسلم ولكن
تعاطفه الديني أنساه ذل حرقه الروحانية وأذهله عن حقوق غرقه الدينية
وواجبات رياسته ولم يعمل بمواعظ الانجيل حيث عرض بذم النساء على
العموم وذكر معانيهم وتعرض للغرض في عرض الملكة على الخصوص
وقد فها حيث جعلها محبوبه لبعض الناس الثام وان عشاقها عبدوها عبادة
الاصنام ومع أن ذكر هذا لا يليق من مثل هذا القديس فقد احتل الالهالي
سماعه منه وهو لا يليق أيضا

وسمعك من عن سماع القبيح * كصون اللسان عن النطق به
فانك عند سماع القبيح * شريك لقائله فاقبسه
لا سيما وأنه محل بناموس الدولة القيصرية فلهذا اجعوا مجمعا آخر وحكموا
عليه بالنفي ثانيا بسبب ذلك وساعده على نفيه طوائف الاربوسية التابعين

لمذهب أريوس فكانوا من غرض الملكة ولذلك لما ماتت الملكة بعد تقي
الاسقف حزن لموتها اتباع أريوس حزنًا شديدًا وفرح بذلك غيرهم من
النصارى اتباع ذلك القديس وبعد تقي هذا البطرق مضت سنوات كثير فيها
المصائب العاتية من حرق وزلازل وهدم وافساد الزرع بالجراد فاعتقدوا أنَّ
سببها هذه الواقعة

وقد سبق أنه حصل في أثناء ملكة طيودوسيس تلطيفات للمعنى والفقن
المصرية فلما تولى أرقاديوس أمر أن تطلق هياكل الاصنام المصرية ويتبع
في مصر دين النصرانية دون غيره فاستدعى أهل مصر أن يتولى على مصر من
طرف الرومانيين ملك يسوسهم بحال فيه المصلحة وحسم الفتنة فبعث اليها
الامبراطور قوانين مشددة على التشديد وعلى زجر الاهلك وجبرهم على
الاطاعة بواجباتهم تحت نواب دونه وأباح لهم مع ذلك ابحاث دينية اقتضتها
الحالة الراهنة ورضخ لهم أن يتخذوا كهنة للعبادة الكهنس والبقر وأقام على
النصارى بمصر ثيوفيلس بطريرقا عليهم بالاسكندرية فكان هذا البطرق
صاحب حجة دينية قليل المعرفة والفضل فأظهر العداوة لارباب الديانة
القديمة وتعزى لخصمهم في دينهم وتحصل على أمر من القيصر بـ~~كسر~~
الاصنام وهدم الهياكل المصرية فهدر أمر القيصر بذلك وعاد الامر كما
كان وجعل ثيوفيلس مأمورا بذلك وتحت أمر متولي مصر وأمرها فبلغ
الاسقف مقصوده على قدر تعصبه وحميته وبالغ في هدم الهياكل وتبعه
أساقفة مدن مصر وقرائهم فاضلوا بالهياكل كما فعل البطريق فحصل بين مصر
القديس من الشدة والمذلة ما لا من يد عليه وصار المجد والعظمة في مصر للبطريق
وللاساقفة وفوض الحكم لهم وكانوا قبل ذلك من أيام قسطنطين مقوضين
في التعليم والتربية وتهذيب الاخلاق وتحسين العوائد دون تنفيذ الاحكام
واجرائها وكان القضاة مأمورين أن يتخذوا ما تحكم به طائفة القيسيين
فتم لهم التفرد في الحكومة وكل لهم التداخل في المصالح

فباضلال عبادة الاصنام واقراضها على التدريج صار يلج الانسان
بطرف خفي قرب زوال القديس القديم شرعا وسياسة وهو تدين أزمان الجاهلية
وقد عم ذلك جميع البلاد الرومانية فالامة القديسة الرومانية لازالت على

التدريج آخذة في محاق عثمتها وتبدل ديانة آياتها وانما أضرت بها غاية
الضرر كثرة الدخيل في أهاليها من زمر الاجانب المتبررين وتقلدهم
المناصب والمراتب الملكية والوظائف العسكرية وامتزاج الاغراب بأهاليها
ثم استبان أن هناك أغراباً أخرى أقوى من الرومانيين وهو الافرنجية والغوطة
فقد اتشروا في بلادهم من نهر الرين بالمغرب الى حد نهر القرات بالشرق
وازدحموا بالمجوس على الرومانيين فبعد عشر سنوات من اغاراتهم اضطر
حالة رومة حتى عاقبت رومة ملوكها وقياصرها على تعديهم وظلمهم وطردتهم
واستدعت دخول الاغراب في بلادها لان الرومانيين اختاروا أن يكونوا
مستعبدين ومنقادين للافرنجية والغوطة ورضوا بذلك وآثروا على أن يكونوا
احراراً تحت ملوكهم الجائرين خصوصاً لما شق عليهم ظلم القياصرة بتعداد
النفوس لمقاصد سنة كضرب المغارم الجسيمة على الروم في سائر البلاد
والامصار وتكثير الجرائم والمكوس واخذ الاموال على سائر الاشياء
والتكليف بما لا يطاق من الآصار وتجبس الضرائب المنقولة للطباع المفضية
للسباع لاسيما تعرض القياصر قليلة لعبادة الاصنام وانحطاط قدر الاوثان
حتى صار عبادة الصنم عرضة للقتل والنكال فقد كسر في ذلك العهد جندى
صنم الشمس وكانوا يعتقدون أنه الله الدنيا وأخرج منه عتة من الفيران
مع ما رتب فيه من فضلاتها التي هي أشد خبثاً من بول الثعلبان ولم يحصل من
كسره على هذه الحال أدنى قسنة لضعف دين الصابئة في وقته ولو كان كسر
ذلك الصنم قبل ذلك الزمن لقامت الفتن العظيمة وقد اسود هيكل رومة العظيم
المطلي بالذهب واغبر بالتراب وصار مهجوراً لا يدخله عابد ولا يومي اليه
بالعبادة راهكع ولا ساجد وكذلك هجرت هياكل الاصنام الاجنبية ولم
تجد من يقترب اليها بالقرابان وبالجملة فقد نسج العنكبوت على جميع هياكل
الجاهلية برومة أهلية وأجنبية ودخلت في رومة ملة جديدة تتجترام هذه
الهياكل المشرفة على الخراب بقصد زيارة تربة النصارى الشهداء واتشروا
دين النصرانية واتصرت الملة المسيحية وانجبر كسر كنيسة النصارى وتأيد
دين عيسى بن مريم عليه السلام بقدر ما فاساه من الشدة والمذلة وصار الناس
يدخلون في دينه زمر اوصاروا مستوين في الحقوق الدينية حيث تمسكوا

بهذا الدين وتركوا عبادة الاصنام لاسيما في أيام أرفادايوس على ما فيها من
العسف ومات أرفادايوس بعد ثلاث عشرة سنة من ولايته وكانت ولايته في حق
كالاسرو والاستعباد لانه كان في هذه المدة اما طوع يذو جته أو وزرائه ويقال
ان هذا القيصر أوصى قبل موته أن يكون يزدجرد بن بهرام المعروف بالاثيم
كفيل على ولده طيودوسيس الثاني ولعله قصد بذلك مدخلية أهل فارس
في مصالح الروم والقسطنطينية وأنكر بعض المؤرخين هذه الوصاية
بالكلية وقال انها لم تصدر من أرفادايوس بدليل أن كسرى فارس المذكور لم
يتطلب الكفالة ولم يدخل نفسه في مصلحة القسطنطينية مع ما كان عليه من
الفتاظة والغلظة ولوم الاخلاق وكان موت أرفادايوس المذكور في سنة
٢١٤ قبل الهجرة الحمديدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية

(الفصل الثاني)

(في الملك طيودوسيس قيصر الثاني الملقب بالاصغر)

تولى هذا القيصر الامبراطورية سنة ٢١٤ قبل الهجرة وحكم الى سنة
١٧٢ قبل الهجرة فكانت مدة حكمه اثنتين وأربعين سنة
لما آلت القيصرية الى هذا الامير كان عمره تسع سنين ولما بلغ سن الرشد كان
حاله كآية أرفادايوس في عدم الثبات وضعف العقل وقلة الادراك والتمييز
فلهذا كان مدة حياته مطواعة الكفالة وغيرها لوزرائه أولاخته الكبيرة
المسملة بولشيرية وكان الحكم في الحقيقة للوزراء ولهذه الاميرة فكانت
أخته المذكورة تسمى دائما في تهذيب اخلاقه واصلاح شؤنه وتقوم أوده
لعلها يحسن تدبير المملكة بحذو طيودوسيس الاول ثم حكمته أيضا زوجته
المسملة أطنابيس ثم حكمه خروسان الطواشي المهر داربدوانه
وكان حق الكفالة بموجب القوانين الرومانية لعنه أو نورايوس قيصر
المغرب بمدينة رومة ولكن لم يرش أعين المملكة القسطنطينية بتقليد
هم بكفالاته وكان من الاغنياء المقتربين أصحاب الجاه والبأس شخص يسمى
أنطيمس وكان مشهورا بالمعارف والاستقامة وكان قد تقلد نيابة الايلات
المشرقية فكان قائما مقام القيصر بالشرق فولاه وجوه القسطنطينية كفالة

الملك مدة قصوره فقلدها ولم تطل مدة كفالته للقيصر حيث اختار الراحة
لنفسه والاشتغال بأشغاله الخصوصية وأثر ذلك على نيابة المملكة فتنازل
بطوعه واختياره عن النيابة لأخت القيصرة المذكورة حيث رغبت في ذلك
فانحمت عنه النيابة الشرقية والكفالة القيصرية واستولت بولشيرية على
سرير الملك ولم يكن عمرها اذ ذاك الا ست عشرة سنة فقلمت بأعباء الملك كما
يجب مع غاية الشجاعة والحماسة واستقامة الحال وقد لقبها المجلس بلقب
أغسطوسة فبالنيابة عن أخيها حكمت بالاتحاد مع وزرائها بمملكة المشرق
فحواربعين سنة مع غاية القصار فكانت تملأ هذه الاميرة فضائل جدها
طوبى وبنسب الاكبر ونالت من مكارم اخلاقه الحظ الا وفر كما ورثت عنه
الشجاعة والبسالة وبلغت في فضل التدبير كماله وهذا يؤيد أن قولهم في معرض
آل الجفسيه الرجل خير من المرأة معناه أن جنس الرجل خير من المرأة بقطع
النظر عن الافراد فانه قد يوجد من افراد النساء من هو أفضل من الرجال

كهنه القيصرية بالنسبة لأخيها وبعض أيضا قول من قال في مثلها
فلو كان الرجال كمثل هذى * لفضلت النساء على الرجال
(لا سيما وأنها كما يقال) *

لها حكم لقمان وصورة يوسف * ونعمة داود وعفة مريم
فكانت ذات عدل وانصاف بعيدة عن الجور والاعتساف أسكت الفتى
وأزالت الحزن وبها اطمانت نفوس الرعايا واتطمح حال الملك بين البرايا
ومالت اليها القلوب القاسية لحسن صنيعها ومعروفها ورسوخها وشجاعتها
الوافية لاسيما وقد حسنت الفتى والزور ففي أيامها انقطعت المنازعات
وتناسقت الامور ولم يربف هذه القيصرية من الحوادث الخارجة
الا اغارة طائفة الهوشية من قبائل القنار وهجومهم من بلاد الجمار على
ممالك القسطنطينية تحت رياسة ملكهم أطيلا الجبار فصالحتهم هذه الاميرة
بتقريب خراج من الدرهم والدينار فبهذا دفعتم عن الهجوم عن البلاد
وارتاح من اغارتهم جميع العباد

وقد سعت هذه المملكة في تقدم العلوم والفنون والامور الصناعية وكانت
تحسن اللغة اليونانية واللاتينية وقد اشغلت أيضا بتعليم أخيها العلوم

والمعارف والفنون واللطائف وأشغله بذلك لتحسن الحكم عليه زمنا طويلا فجلبت اليه كبار العلماء ومشاهير الحكماء ممن لهم شهرة في العلوم المتنوعة الاصيلة والمتفرعة

وكان هذا القيصير مع قلة فطنته مهيبا سالكا سبيل الجد لا المزاح حافظا لناموسه قابلا للتعليم وانما لم يكن مستجيبا لصفات الرجال الراغبين في صفات الكمال فلم يكن منطبقا على تمييز ما قاله ولا يثبت في كلامه وكان ممدوحا بالعفة والقناعة والرفق والراقة والحلم ولم تكن هذه الصفات غريبة له ولا طبيعية بل مكتسبة بدليل عدم ملازمة الثبات لها يعني أنه لم يكن متحكما من فضائلها فكان مدة حياته أشبه بالطفل في المهد يحيط به النساء والطواشيع من كل جانب وكان شغله النقش والرسم والميد والقنص ولما كان خطه في غاية الحسن والطلاقة لقب بالخطاط وكان فائزا للهمة في المصالح العمومية يعيل الى الكسل والدعة حتى كانوا اذا أحضروا له الاوراق ليطلع عليها ويشعلها يامضائه أهمل قراءتها وامضاهما ولم أر أن أخته هذا الاهمال الكلي وأرادت أن تشعره بدرجة تكاسله ومبالغته في الاهمال حورت له خطا باعن لسانه وأظهرت أن فيه مصلحة للحكومة مضمونة اني خلعت نفسي من المملكة ثم قدتمه اليه فامضاه بدون تلاوته ثم أيقظته أن يطلع عليه ومنزقته امامه ليقف على عيبه ويحاذر في أموره كما هو كان ابتداء مملكتيه دال على نصرة الروم ونجاحهم في مشروعههم فقد غلب في باديه أمره الهونية لما دخلوا في ايلة روم ايلي مع ملكهم المدعو هو لدين فحضر القيصير ملكهم وجنده وطلب منهم الخروج من هذه الايلة فأقسم ملك الهونية أن لا يدع الفتوحات وأن لا يزال يتغلب على الولايات ولا ينتهي عن ذلك الا اذا بلغت قوتها انه مغرب الشمس فاتصر عليه القيصير وخشعه في عيونه وطرده من روم ايلي وجبره على تعدية نهر طونة وعوده الى بلاده وأهلك القيصير جنود الهونية في هذه الواقعة

فلما رأت أخت هذا القيصير أن أخاها قد نجح في أموره واستحق أن يتزوج بحثت له عن زوجة مشهورة بالفضل لا بالتسب وبالعقل لا بالحسب وكان في مدينة آثينا فيلسوف يسمى ديونقوس وله بنت من أجل بنات اليونان تسمى

أطبايس ذات علم وفصاحة وربة طرافة وصباحه متقلسة كايها باطاقة عمتازة
بالخطابة والبرهان وكان أبوها من الذكور ولدان فتبرع لهما بجميع أمواله
ولم يورثها اعتمادا على أنهما في غنى بالجمال عن المال ولكن بعد وفاته تطلبت
حقوقها وتطلبت للملكة الرومانية وبنت شكواها للاميرة أخت القيصر
فحببت الاميرة من لطفها وحسنها ووفور عقلها ووجدتها أهلا لأن تكون
زوجة للقيصر أخيا فلما بلغ القيصر أمرها وعلم أنها أصبحت امرأة تولى برقيتها
واشاق الى ذلك فلبس تبديلا وأتى منكر اعند أخته فبوقوع بصرو عليها
وخطابها أخذت بمجامع قلبه ففقد عليها وأدخلوها المعمودية لتنصيرها
وسموها أودقسية فلما علم أخوها بأنها صارت زوجة للملك خشيا مصولتها
فاختفيا فبغشت عنهما وأرسلت من كشف عن حالهما فوجدوا تحتلايين يديها
فلاقتهم ما بالبناشة والطلاقة وأعطتهما المناصب العالية في المملكة ومع أنها
ارتفعت بالزوجة الى درجة القيصرية فلا زالت مواظبة على ما تعودت عليه
من أشغالها أيام فراغها مطالعة ودراسة فنظمت ما في التوراة وألفت
تأليف جديدة

ولما كانت قد دخلت في دين النصرانية وظهرت بهذا الدين الجديد أرادت أن
تظهر الشعائر فقصدت من أرييت المقدس وقدمت وذهبت الى أنطاكية
وخطبت بمجلس أنطاكية خطبة بليغة أثرت مواظبتها ونصائحها في القلوب
والنفوس حتى نافست كبار الاساقفة بمقالها وأصبحت معها من القدس الى
القسطنطينية ما يتبرك به من آثار صلحاء القديسين والعباد والزهاد
ومن المعالوم أن بندرا اجتماع أختين أوقريتين متحدتين متحابتين في بيت
واحد وعائلة واحدة فمن باب أولى وجود ذلك في القصر الملوكي والعائلة
القيصرية وذلك أن زوجة القيصر طمعت أن يكون لها النفوذ على زوجها
وعلى المملكة بنصاتها وأن يكون يدها الأمر والنهي والحل والعقد وقد كان
هذا النفوذ قبل الزواج في يد أخت القيصر فلم ترض التنازل عنه لزوجه بل
استمرت ماسكة زمام الحكومة ومن هذا حصل الفشل والاختلاف بين
الاميرتين وترتب على اختلافهما اختلاف الآراء والحزب فانقسم الديوان
الملوكي الى غرضين أحدهما متعصب لزوجة القيصر والاخر متعصب لاخته

فغلب حرب الاخت على حرب الزوجة فالتصرت على الزوجة وكان لها غم
النفوذ ثم وقع الشك في عفة زوج القيصرو اتهمت مع جماعة من أخصائها
المتعصبين معها من الديوان بالعشق والميل لها فصدر الامر بنفيهم فكان هذا
بمنزلة غضب الملك عليها وسوء ظنه فيها

فاستأذنت بان تخرج من القصر الملوكي وتعتكف في بيت المقدس فرضى
القيصر بذلك فذهبت الى القدس واعتكفت هنالك فلم يزل أخصامها يقتفون
أثرها بالتجسس ويتهمونهم كالسابق بما لا يليق مع اثنين من القيسيين
فعذبوهما بالقتل بخصوص هذا السبب

فغضبت من هذه التهمة ونسبت في قتل قاتل هذين الجبرين فتويت التهمة
بنك بل بلغت مبلغ التحقيق والتأكد

فكثت ست عشرة سنة معتكفة منزوية في زوايا الاهمال والتسيان وهي دائما
تبرئ نفسها من ذلك وتشتكي بأنهم اتهموا ظلما وعدوانا ثم صار اعلان الحرب
بين فارس والقسطنطينية بسبب قتل القرس بالنصارى فمكثت الحرب سنتين
سجالا ثم عقد الفريقان مهادة ومشاركة مدة مائة سنة واتسعت بلاد الارمن
بين الرومانيين وفارس وذلك في عهد كسرويه بهرام جور بن يزجرد الاثيم
وقد كان بهرام المذكور من أمراء ان أباه سلمه للنعمان بن امرئ القيس أحد
ملوك اليمن من العرب وهو صاحب الخورنق ليريه ويعلمه القروسية فلما مات
أبوه تولى الملك كسرى خسرويه من ولد أردشير فلما بلغ ذلك بهرام جور اتصرت
بالنعمان ووقع بين بهرام وخيمه مراسلات كثيرة وآخر الامر اصططاع على
أن يجعل التاج بين أسدين شيلين فمن تناوله منهم فهو الملك فوثب بهرام وقتل
الشيلين ولبس التاج واستقر على سزر الملك وصكان عاقلا عادلا صوا الا على
اعدائه وكان يقول الشعر بالعربية فمن شعره يوم ظفر بجفان الترك

أقول له لما فضضت جوعه * كأنك لم تسمع بصولات بهرام

واني حامي ملك فارس كلها * وما خير ملك لا يكون له حامي

وكان نفس خاتمه بالافعال تعظم الاخطار وينسب اليه المورخون أفعالا
عجيبة نظير ما ينسب لهرقلوس الرومي اليوناني مما لا يكاد يصدق العقل فمن
ذلك ما يقال انه دخل أرض الهند فبشكر افكث حينئذ لا يعرف حتى بلغه أن

فبلاها فجاوِض قد قطع الطريق وأهلك الناس فساء لهم أن يدلو عليه فرفع
 أمره إلى الملك فأرسل معه من يده فلما انتهى إليه صعد إلى شجرة لينظر
 ما يصنع بهرام مع القيل فلما رآه القيل أقبل إليه فجعل بهرام يرميه بالنبل
 ويثبت التشاب بين عينيه ثم دنا فأخذ بخرطوم القيل وجذبه جذبة خرمها
 ميتاً ثم احتز رأسه وأتى به إلى الملك فغياها الملك وأحسن إليه ثم أن ملكاً من
 أعداء ذلك الملك أقبل نحوه لاد الملك الذي بهرام عنده فجزع ذلك الملك منه
 من كثرة جنوده إلا تبة فحواه فقال بهرام له لا يهولتك أمره فركب بهرام
 وقال لاساورة الهندا حرسوا ظهري وانظروا إلى علي وكانوا أقوماً لا يعرفون
 الرمي وأكثرهم رجالة وحل عليهم حلة هزمتهم ثم جعل يضرب الرجل فيقطعه
 نصفين ويأتي للقيل فيضرب مشغره ويكبسه على أم رأسه ويتناول عليه فيقتله
 ويأخذ الفارس فيه ذنبه على قروس سرجه ويتناول الرجلين فيضرب
 أحدهما بالآخر فيموتان معا ويرعى فلا تقع له نشابة في الأرض فولوا منه زمين
 وحل أصحابه الذين كانوا معه يحرسون ظهره عليهم فأكثروا القتل فيهم
 فأنكحه ملك الهند ابنته وأقطعته من بلادها جانباً كبيراً ثم انصرف بهرام إلى
 ملكه ولم يزل يحمل إليه أموال تلك البلاد والظاهر أن مثل هذا من اختراع
 الحكويين كما قيل في ذلك

لصاحب في نقله ما حكى * الكذب عن آياته وارث

فكل ما ينقله مثل ما * قال الحرري حكي الحرث

وانما قاصمة بلاد الأرمن ينفه وبين الروم تدل على نخوته ولم يعلم من وقائع
 هذه الحروب الغريبة الاحداث واحدة وهي أن أفا سوس بطريق أحد مدنية
 ديار بكر فادى بجميع ما عنده من أواني الذهب والفضة الموجودة في كنائسه
 سبعة آلاف من الفرس كان أسرهم الروم فاستترأهم هذا البطريق بتلك
 الاموال من الرومانيين وأطلقهم وبعضهم من عنده إلى ملكهم كسرى فارس
 ليريه الفرق بين أصول دين المجوسية التي تميل إلى سفك الدماء وقوا عديدين
 لتصرانية المبني على مكارم الاخلاق وحماية من دخل الحى والعقوعن
 الحرم

وهيات أن ينفع الوعد في أمة فارس وقل أن يحملهم كلام مثل هذا البطريق

على رفض دين المجوسية والتخلي عن مكارم الاخلاق العيسوية لاسيما وان لهم
مكارم اخلاق خاصة بهم فان سفك دماء أسراء الرومانيين قد لا يرويه من
المثالب ولا يعتقدون أنه يخرجهم عن مكارم الاخلاق كما يحكي عن بهرام جور
أنه صرع في صيده جوارح وحش وقد انقرد عن أصحابه فنزل عن فرسه يريد
ذبحه ومزيراع فقال له أمسك لي فرسي وتشاغل بذبح الجوارح مات منه
التفاته فرأى الراعي يقطع جوهر عذار فرسه وكان العذار ياقوتا أحمر فقول
بهرام جور وجهه عنه وقال في نفسه تأمل العيب عيب وعقوبة من
لا يستطيع الدفاع عن نفسه سفه والعفو من أفعال الملوكة وصرعة العقوبة
من أفعال العاقبة فلما رجع الى العسكر قال له الوزير أيها الملك السعيد اني
أرى جوهر عذار فرسك مقلعا قبسم وقال أخذه من لا يردّه ويرآه من لا يثم
عليه فمن وجد منكم صاحبنا فلا يطالبه بهذه مكارم أخلاق عليه دلالتها على
محلس أخلاق ملوك الفرس جليلة

وقد سبق أنه كان من أعظم المصائب في دولة طيودوسيس الثاني اغارة الهونية
وملكهم أطلا وأن هذا الملك قد أربع أخت القيصر المذكور المقلدة
الولاية والواقع أنه أربع أهل الدنيا بأسرها باغاراته الجبروتية كما فعل
ذلك أبناء جنسه وهم هلاكو تيمورلنك ولهذا لقب أطلا بعذاب الله ولولا
أنه حصل قبل توليته ملكا على طائفته اضطراب عظيم بين فرق الهونية وجدال
شديد حصل فيه تمزيق بعضهم من بعض لعظمت قوة ملكهم جدا واستفحل
أمره ولم ينبج من تعذيه شيء من الممالك ولكن اختلفت كلمة طوائف الهونية
في مبادئ أمرهم وشرعهم في الاغارات على البلاد وقصد السوء للعباد
فأتى الشقاق بينهم الى أن بعضهم فارق الجماعة وانضم الى طائفة الغوطية
وصار من أحرابها وانحاز البعض الآخر الى الدولة الرومية وتعصب لها
ودخل في خدمتها حتى انه كان من ضمن جنود طيودوسيس الثاني ملك من
ملوك الهونية منتظما في سلك جيوشه وكان جمهوراً أمراء الهونية ولا على
بلاد الالمان يعني النمساوية حتى ان الالمان لما تصفحوا وقوع الفشل بين
أمراء الهونية اعتمدوا فرصة النزاع بصرف همهم في الخروج عن طاعة
هؤلاء السار التبريرين المقتضين لبلادهم وكان طيودوسيس الثاني قيصر

الرومانيين هو الذي حل الالمان سرا على القيام والخروج عن طاعتهم وكان قائد طائفة الهونية وماكها في البلاد الالمانية أميراً يسمى روجيلاس وكان له الرياسة العظمى أيضاً على جميع قبائل الهونية خارج ألمانيا وكان يهتد قبصر قسطنطينية ويتوعد بالآغارة عليه فلما ارتجف طيودوسيس منه وارتعدت مفاصله من سطوته وبأسه أرسل اليه سفراً من طرفه لتسكين غضبه عليه ومنع هجومه على بلاده فبوصول سفرائه اليه وجدوه قدماء وقد ورث رياسته المالوكية اثنان من بني عمه وهما أطيلا وأبليدا فاستقبل هذان الاميران سفراء القيصروهما على ظهر خيلهما كمادة ملوك هؤلاء القبائل التتارية الرحالة الثلاثة فان الرئيس عندهم لا يعقد مجلس المصالحات ولا يت أمر المهادنات الا وهو على ظهر جواده فاشتراط هذان الاميران على سفراء الرومانيين زيادة الجزية المقررة التي كانت تدفعها القسطنطينية قبل ذلك للهونية وأن يسلم لهما القيصرا حتى الميناءات الرومانية التي على نهر طونه لتكون خالصة حرة لا ولا للرومانيين عليها وأن لا تعقد دولة القسطنطينية معاهدة أبداً كانت مع أي عدو من أعداء الهونية فرضي القيصرون بهذه الشروط حين عرضت عليه من طرف السفراء مع أنها مؤذنة بالمذلة والعار ومجحلة بناموس دولة الرومانيين فكانت هذه أول مرة رأى فيها الرومانيون أطيلا

وذلك أن سفراء القسطنطينية لما اجتمعوا به تأملوا أوصافه فوجدوه على صورة أهالي القلق الذين يقال لهم الكيمائية عريض الرأس أصفر اللون أفتس الاتف قصير القامة مربع الهيكل يكاد يقدح الشرار من عينيه كالوحش الكاسر

زبانية النيران تكره وجهه * وحين تراه تستعبد جهنم وكان قد بلغهم قبل الاجتماع به أنه قط غليظ جبار عنيد متولع بالحروب يحسن سياسة العساكر ورياستهم ولكنه في ميدان الحرب دون ذلك لا توازي شجاعته تدبيره ومن المعلوم أن كل ملك من الملوك ولو تمرد وتجبى وكنز خصاله الذميمة فلا يخلو من محاسن مدوحة وفضائل ليس مثله عنها مدوحة فكان خير فضائل هذا الملك الهوني الوفاء بالهدى وصدق القول فحق نطق بشئ صدق

فيه وان وعدوني وكانت عليه سيماء الهيبة فكانه مخلوق ليحكم البلاد ويقهر
العباد وكان يشبث دائما بأن ينشر في قبيلته الجهالة ويستغفل قومه ويشيع
بينهم الاوهام الفاسدة والعقائد الكاسدة ليعتقدوا أنهم دونه في درجة
العقل وميزان المعرفة وفي الحقيقة كانت درجته في المعارف وفي الوقوف
على أحوال زمانه أعلى طبقة من رعيته حتى كادوا يعتقدون أنه ليس من
البشر

فما يحكى أن بعض الرعاة وجد في حافر بقرته جرحا مشقوقا ولم يعرف سببه
فبحث عن الاسباب الموجبة لذلك فوجد أنه داس برجله على طرف سيف
مغروزي في الارض ظاهر حده على وجهها فحفر الارض وأخرج السيف منها
وذهب الى الملك أطيلا ليريه له فأخذه الملك وأشاع في رعيته أنه قد عثر بسيف
المريخ القاهر وأن هذا السلاح الاقدس شعار المريخ القاهر الذي هو صنم
الحرب عند القدماء من الجاهلية وأنه منصف لهذا الملك من فضله اياذنا له بالنصرة
على بلاد الدنيا فلما سمع الهونية تلك الكرامة المدحجة المختلفة صار سيف
المريخ معظما عندهم بعدونه كل مريخ القاهر فكانوا يقرّبون له القرّبان وإذا
ذهبوا الى الحرب نذروا خطبته في كل مائة من الاسارى تقع في أيديهم أسيرا
واحدا فهذا مما يدل على دهاء هذا الملك

ومن المقرّر في تاريخ الرومانيين أن رومة في مبدأ أمرها تلك عليها ملكان
أخوان أحدهما يدعى رومولوس والاخر روموس وأن الاول منهما قتل
الاخر حداثا كواقعة هائل وقايل فكذلك أطيلا قتل أخاه ايليدا
حدا فقد أشبه رومولوس في مجزّد قتل أخيه ليستبد بالاحكام وبعد أن قتل
أخاه وانقادت له وحده جميع قبائل ملته الهونية وغيرها من بقية القبائل
التارية قلب بعد جله تمنع على سائر القبائل الجرمانية المعبر عنهم بالامان
كباسبق واستولى أيضا على كافة الامم الشمالية كالاسوج والتروج
والدانيماركة وخشيته أم الغلبة والبرغونية الساكنة في بلاد فرانسابل قد
دخل بلاد فرانسابل جيش جرار وتوغل فيها الى مدينة أوليان ولكن أخرجه
من هذه البلاد ثلاثة رؤساء وهم ايطيوس فانبعسا كرومة ومرويه ملك
فرانسابل ودوريق ملك القوطية فانهم دفعوه عن البلاد وأوقعوا به وقعة

عظيمة بقرب شالون في اقليم شماليا وقد خسرت هذه الواقعة وبيع جنوده
ورجع القهقري الى ايطاليا وبالجملة فقد استولى على جميع الامم التي يسميهم
الرومانيون بالامم المتبربرة يعني الاجسام الخشنة فانتسحت دائرة ولايته من جهة
نهرى الاتل وطلونه وبحر الشمال ونهر الرين وجبال ألبه بايطاليا فكان هذا
الملك مهيبا في سائر الممالك يعتقدون أنه صاحب خروج وان لمعرفة بالسحر
والشعبدة وأنه متى توجه الى مملكة لا يصدم من التغلب عليها شي وكان اذا قدم
على مملكة من الممالك شرقا وغربا وجدت ملوكها بين يديه حتى تصل تيجانهم
على الارض ويقضرون بحضورهم في مجلس مشوراته ويعتدون أنفسهم من
وزرائه وأمرائه وطالما كان تشاهد صفوف الامراء رؤساء القبائل حول
قصره يتباهون بمحافظته ذاته الملوكية ويستعدون لخدمته في أى مأمرورية
وكانت قبائلهم وطوائفهم منظومة في سلك جنوده داخله تحت أعلامه
وبنوده وكان جنده نحو ثمانمائة ألف مقاتل وقد بعث فرق من جنده للاغارة
على بلاد فارس وامتدت اغارته في المشرق حتى وصلت الى الشام وكانت مجزرة
اغارات لاقتوحات ومن المعلوم انه كان بينه وبين طيودوسيس قيصر عقد
مصالحة كما سبقت الاشارة اليه وانما دأب الملل التي جميع أهلها حرية بالطبع
كله الهونية لا تستطيع أن تبقى على الصلح أمد اطول فلا فهذا ادعى الهونية
بعد من أن عقد الصلح بينهم وبين القسطنطينية قد انتقض بعدم وفاء
القسطنطينية بشروطه وزعموا أن الروم قد سرقوا منهم في احدى مينات
طلونه الحرة خزينة أحد أمرائهم وطلبوا من القيصر أن يرجع لهم هذه
الاموال وأن يسلم لهم أحد ساقطة النصارى ليصنعوا فيه كيف شاؤا فامتنع
ديوان القسطنطينية من الاجابة الى شئ من ذلك فأشهروا الحرب وأغاروا على
بلاد الروم ودخلوا مدن بلاد القسطنطينية وفي طريقهم طلبوا ونهبوا وأسروا
وهدموا قلاعها وقصورها وسبوا نساءها وأولادها ودمروا المدن التي بين
البحر الاسود وخليج البنادقة

فجميع هذه النكبات لم تبعث همة طيودوسيس على التحرك من ديوانه لخوفه
وجبنه لانه كان يجهن عن أن يقود جنده بنفسه فأناطد افعة الهونية
لامرائه وقواده وكانوا اذا ذاك لا يستطيعون جمع العساكر ولا يحسنون تنظيم

الجند ولا ترتيب الصفوف للقتال فانهم زعم جند الرومانيين في واقعة بقرب نهر
 طونه وفي أخرى بسفح جبال البرقان جهمة أدربه وانهم زعموا هزيمة نالته
 بسواحل روم ايلي وكانت هزيمة عظيمة على جنودهم دمرتهم ولم يبق منهم باقية
 وعثا أطيلا في ارض مقدونيا وأفسد الحرث والتسل وأحرق نحو سبعين
 مدينة وجمال في أرض روم ايلي حتى وصل الى رساتيق القسطنطينية
 وضواحيها فلم يحجزه عن الدخول الأسوار هذه المدينة لانه كان لا يحسن
 الحرب الا في السهول والخلل وكان يجهل محاصرة المدن والقلاع ولما كان
 حرب أطيلا يعتمد على العجائب وكان دائما يعقبه التدمير العموي باهلاك
 البلاد والعباد ولم تكن مصائبه كمصائب الحرب المعتادة التي تشتمل منه
 النفوس ولا تصل الى هذه الدرجة أربح قلوب أمم أوروبا وآسيا غاية الرجفة
 وأزبجهم غاية الازعاج لان تاراهونية كانوا اذا انتصروا على قبيلة من
 القبائل أسروا ساير أهلها وأدخلوا من كان يصلح للخدمة العسكرية أيا ما كان
 في جنودهم وضربوا الرق على الشيوخ والنساء ورموا قتلهم بدون أن يرقوا
 لحالهم وكانوا اذا كثروا عددا لا يدرى كثرة بالغة وزاحوا الهونية على الزاد
 والراحلة ذبحوا القدر الزائد ومع ذلك فقد اتحد بجنود الهونية كثير من
 الرومانيين وامتزجوا ببعضهم فلم يطق الرومانيون التربة الهونية ولا التخلق
 باخلاق هؤلاء المتعبررين لانهم كانوا كالأسود الكاسرة والوحوش الثائرة
 حريين بالطبع فهذا كانوا يحتقرون القنون والمعارف ولا يميلون الى العمل
 بموجب أصول وقوانين ونهاية ما عندهم أنهم تعلموا بعض فروع ضرورية
 لحفظ أنفسهم كالطبخ فكانوا يحترمون هذا العلم دون غيره وكذلك اجتهد
 بعض دعاة النصراني في تنصير أفراد قلائل منهم فصار بعض منهم نصارى على
 مذهب أريوس فاقترع هذا المذهب فيما بعد تدريجا عند الامم الشمالية
 فبعد تلك الوقائع السابقة التي انهزم فيها طيودوسيس الملقب بالقيصر المنصور
 على عادة الرومانيين القديمة كسلافه وان لم يتحقق فيه هذا الوصف بل كان
 وصفه بذلك محض لقب لا معنى له لم يكن له جيش يستعده لقتال عدوه ويدافع
 به عن نفسه وكان هذا القيصر أضعف من أن يحصي قلوب رعاياه وينعش
 نفوسهم ويقوى عزيمتهم ويحرضهم على قتال الاعداء ويجهلهم جميعهم جندا

يحاى عن الوطن فلما لم يستطع أن يفعل ذلك اعتصم في قصره الملوكي
كلزاهب ولم يخرج منه الا للكنيسة فكان عاجزا عن حرب آطيلاد وقتله
فاضطر الى طلب الامان وعقد مع خصمه صلحا مؤسس الشروط على المذلة
والعار حيث ترك له دولة الهونية الارض التي في جنوب بنهر طونه من مدينة
بلغراد الى داخل رحالة ييلادروم ايلي والتزم هذا القيصر أن يدفع كل سنة
ألفين ومائة طل ذهب في كل سنة وستة آلاف مجله غير ذلك بوصفه صروف
الحرب وكان قد ذهب ما في أيدي اهالي الرومانية قبل ذلك وكان أيضا لجباة
الكمال والعوائد والمكوس أرباب خيانة واختلاس فهذا كله تأخرو دفع هذه
المغادر عن مواعيد ها وتعدر على القيصر دفعها

وكذلك كان ما بقي من عساكر الرومانيين قد داخله الجبن والفتور كما حل
الخوف والرعب في صدر أهل ديوان القيصر مما أعجبهم الذل والعار
فانعكست أحوالهم ولم يقيم لهم قائم من ذلك الجبن وانما اتصبت مدينة من
مدن روم ايلي تسمى أسوموس كانت ذات نخوة وفتوة فأظهرت الحاسة
الرومانية وتمسكت بالاصول القديمة المؤسسة على الهم العلية وأعلنت انها
لا ترضى لتقسما بالدخول تحت شروط هذا الصلح المشغل على المسبة والعزة
وأن الرضا به دونه خوط القتاد وأبت أن تقسم نفسها للهونية الا بالحرب
والجهاد فخرجت الاهالي خارج الاسوار وطلبت التزال مع الهونية اما
للنصرة أو الاتسار فاجتمع عليهم الجمل الغفير من العساكر القارين ومن
الاسرى الهاريين فعظم جيش هذه المدينة وضخم غاية الضخامة وأوقت
بالهونية في واقعة هائلة ولاهول القيامة فهزمتهم شر هزيمة وطردتهم عن
أرضها وأبت بأعظم نصرة وغنية

فشكا آطيلاد للقيصر من عدم وفاء هذه المدينة وغيرها بالشروط وطلب منه
اكرام أهلها على الاتقياد للهونية وتسليم المدينة على أصول ما هو في العقد
مربوط فأمرهم القيصر بالوقاف ففعلوا وهمهم وسعوا فيهم لم يتقادوا الامر
القيصر واظهروا الجفاء وعصوه كما عصوا الهونية وأجابوا أن الصلح المبني على
الذل والعار والتحقير والصغار لا يعتد من القوانين الواجبة الامتثال وأن
اتقيادهم مثل هذه الاوامر طوعا واختيارا من قبيل الهال فصرف النظر

عنهما كل من ملك الهونية وطبودوسيس قيصر الرومانية لما رأوا عندهم
من الشجاعة وشرف النفس الاية وكان من جملة شروط الصلح أن القيصر
الترم ملك الهونية أن يسلم له كل من فرغ من المان والغوطية والطوائف
التدارية وكل من هرب من جيش أطبلا ودخل في جيش القيصر فلم يستطع
الروم الرومانيون أن يخجروا هذا الشرط الصعب المرام لانه يترتب عليه هلاك
ضباط هونية عظام لاسيما أنهم اجتهدوا في حرب الروم وساعدوا كل المساعدة
وانتظروا في جندهم وامتازووا عندهم وحازوا في الميدان ما لا مزيد عليه من
القائدة وأما أطبلا فكان جبارا عنيدا وشيطانا مريدا فتمادى في طلب
تخجير هذا الشرط الصعب الاجرا فبعث اليه القيصر سفارة لعله يلين قلبه
ومع ذلك قدس عليه القيصر مرادسيه حيث أغرى بعض وزرائه ليقبضه
ورشاهم وأفسدهم بالبرطيل كما سيأتي بيان ذلك فقابل ملك الهونية أهل
السفارة بغاية الازدراء والتخسيرا لأنهم غاية الازلال ووضع مقامهم الخطير
كما كان الروم في أيام غيرهم يعاملون بمنثل ذلك سفراء الملوك الاجنبية فكما تدبر
تدان وكما تهين تهان وأبقى أطبلا السفراء عدة أيام خارجا عن مقر حكومته
قبل أن يمتثلوا بين يديه حتى أدركوا دلائل العكس والطرد وعدم القبول
لديه

فانظر كيف كان حال هؤلاء الامراء الابلية حيث جاؤا الى هذا الملك من
القسطنطينية التي هي مدينة عظيمة متحفة مزينة بالقصور العالية المزخرفة
ودخلوا في قرية أطبلا التبرر الخشوش مع أنهم وصل من طرف قيصر عظيم
الشان جليل البرهان يتضرعون الى جلف من الاجلاف ويعهدون من
الحقارة والاستخفاف فصاروا قبل اجتماعهم به يمزون على كثير من الصقوف
ما بين خفرو حراس لابس من الحلل البهية خير لباس مما سلب من الروم
واليونان في ميدان الحرب والرهان فلا زالوا يشقون الصقوف بيد الرماح
والسيوف حتى وصلوا ديوان الملك فوجدوه لا بلباس الملوك الا حادين التناثر
بدون زينة ولا طرازا اقتصار ولا شعرا واعتبار ولم يكن سريره الملوكي الا كرسي
العادة وانما هو صاحب السعادة فصبوا امامه وخضعوا له كما يقتضيه
مقام المملكة والزعامة وقتلهم في أثناء ذلك كله ممزقة وأفكارهم في بخر

الرواسوس مستفرقة

فعرضوا عليه قضايهم المشقة على مصلحة الارسالية وأعرضوا أسباب
السفارة والمأمورية وتكلموا في شأن ذلك بالفاظ دالة على الكبرياء والخصار
على العادة الرومية القديمة أيام العز والاعتبار مما لا يليق في الحالة الراهنة
لا يصلح الالفة غبنة حيث انهم موسومون بوسم الانهزام وموصوفون
بالضعف وانحطاط المقام وما علموا أن لسان حاله يشدهم

لم ألتم مستكبرا الا تحول الى * عند اللقاء الكبر الذي فيه

ولا حلال من الدنيا وزهرتها * الامقابلتي لتبسه بالتبسه

فلم يحجم أطبلا الجبار العنيد الا بالفاظ الضعيف والتهديد حيث قال لهم
مغضبا أظنون أني اذا أردت الشكاية هل تبقى مدينة من مدنتكم على وجه
الدنيا باقية وكيف تصادفها هذه العناية فاذا أردتم لمدنتكم التدمير فلا ينفع
التدبير فالأنواله القول وتلطفوا معه في الخطاب فانطبع ورق وراق فتعشمو
الخبر من انطباعه وطعموا في حسم مادة النزاع والشقاق ثم دعاهم الى وليمة
بهية حافلة جليلة الجمعية

ومن الصدقة والاتفاق أنه كان في ديوانه أيضا سفراء دولة رومة فأجلس سفراء
كل من الدولتين في المجلس بعد أمراء الهونية فحضر الرجال الجاتين وصاروا
مدة تعاطى الطعام يسقون الندماء على عادة ملوك البلاد الشمالية كثيرا من
الشراب بحضور أصناف اللاعين وأرباب الهزل والمزاح وسائر أصناف
الالعب وأحضروا أيضا أسراء البلاد المغربية أمام أهل المائدة للمصارعة
وجنود التناوض صنع صورة محاربة صناعية بارعة والاغانى تتغنى بحروب
طوائف الهونية واتصار ملكهم أطبلا وتغلبه على سائر بلاد البرية وكانت
نساء الهونية حاضرة في المائدة مع رجال الرومية يتكلمن مع أهل المشرق
بدون استقصاء ولا احتفال واختلطن معهم ولا اختلاط الرجال مع الرجال
ثم اقتضى نظرم ملك الهونية أن يعين سفراء من عنده ملك القسطنطينية كلهم
متميزون بعلو المناصب والمراتب ورؤسهم يسمى أيديقون وكانت أخت
القيصر وكفيلة بولشيرة قد انكسرت شوكتها وضعفت نفوذها في الديوان
القيصري وصار الجليل والعقديس الطواشي السمي خروسان فكان له النفوذ

الكامل عند القيصر بل كاد القيصر أن يكون في قبضة يمينه فالتفت هذا الوزير
مع بعض من أرباب الديوان عن يمينه عليهم ومنهم ويجلوس له اليد في المملكة
واتفقوا على أن يرشوا الأيديقون رئيس السفارة الهونية ليشيرقته على أطبلا
ويقتله وكان ذلك أيضا بمطوية القيصر ورضاه بدفع هذه الرشوة ومن العجيب
أنه كان مستقيم الحال يكره الباطل وأهله ولم اعلم أطبلا بذلك كان أكرم
نفسا من القيصر في ذلك الوقت حيث وقع في يده المذبذبون المتعصبون على قتله
ولم ينتقم منهم بل أعادهم الى القسطنطينية كما سأني يانه وصنع عن خيانة
الملك المشارك لهم في الجناية ليريه أنه أشرف نفسا وأن فيه شجاعة الملوك
ومكارم أخلاقهم وأن بداوة ملوك البدو أسلم من حضارة ملوك الحضرة فقد غدر
ملك الروم المقدن وصنع ملك التتار الخشوش

ان كنت ترغب في شأ الكرام فسر في الناس بالفضل والدين الذي شرعوا
حافظا اذا غدروا واشجع اذا جبنوا * واحلم اذا جهلوا واذل اذا امتنعوا
وذلك أنه لما كان ويجلوس ترجان السفارة في هذه القضية وكان رجع الى
القسطنطينية ثم عاد الى معسكر أطبلا ومعه ثلثائة رطل من الذهب فدية
قتل المتعصبين على قتل الملك قبض عليه أطبلا وسأله في شأن ذلك وقرره
فاعترف بذنبه فمعا عنه وبعت سفرا غير السفراء الاول الى القسطنطينية
منهم شخص يقال له أسلاو وشخص آخر يقال له أغسطه فلما تمثلا بين يدي
القيصر شرع الاول يتكلم بهذه المقالة الرسمية التي نصها اني مأمور من طرف
ملك الهونية أن أقول لكم ان القيصر طيودويس والملك أطبلا كلاهما
من سلالة ماجدة ذات نسب رفيع وحسب منيع ولكن أطبلا أظهر مقام
أجداده في غزواته وأبان عن مجدهم في حروبه وأغاراته وطيودويس أظهر
أبان أنه ليس أهلا لحياز مشرفة ونبله وانه لم يخلف آباء الكرام بل بجس بنفسه
وأخل بناموسه وناموس أهالي مملكته بين الأسماء حيث رضى أن يدفع
ملك الهونية جزية لتوجب الصفار والهوران فبدفع هذه الجزية كان بمنزلة من
أشهد على نفسه أنه صار عبد رقيق ملك الهونية الذي أسعده الزمان ورفع الدهر
عليه مقداره وأبد مجده ونفاره فكان من الواجب على القيصر حينئذ أن
يسلك في حق ملك الهونية مسلك الرعية في التسليم بالصادقة وحق العبودية

ويظهر لسيده كمال الطاعة والاحترام ولا يليق به أن يصحى ولحق نعمته وفضله
ويتعصب على قتله فإنه بذلك القتل النسيم انما سار سريعا عبد السوء الخليل
التيمن الذي يعتاد الاباق أو يظهر النفاق فقد عصى سيده ومولاه وقصده
بالقتل وناواه

وكان القيصصر عند سماع هذا الكلام المولم جالساً على سرير جده طيبودوسيس
الاكبر المصوغ من ذهب صامتا غير متكلم ولم يكن قبل ذلك طرق بأذنيه غير
المدح والملتق من وزرائه ولا سمع غير القلق والتعظيم من أمرائه فلما أسمع
أسلا وهذه المقالة ثبت نفسه وقوى جاشه عن أن يصغى لمعاتيها مع غاية انغل
والوجل بدون أن يظهر سامة ولا ملالة على ما فيها من التوبيخ كيف يدرك
المعنى ويفهم من يتسك من أذبال العجب والكبر بلزيم ما لا يلزم فكان لسان
حاله ينشده

انها غفلة لك الويل منها • ما رواها الرواة في تاريخ

وكما قيل هب بأفك أعشى • كيف تحق روائع البطيخ

ثم بعد استكفائه سماع العبارة سلم وزيره خروسان الطواشي لأرباب السفارة
ولاجل تسكين غضب أطبلا اتخبله أيضا عدة من أمراء ديوان القيصصر
منهم لونيوس خازن دار المملكة وأنطونيوس رئيس الجنود القيصصرية وكلأها
مستشار في الديوان ووظفهما بوظيفة السفارة وسيرهما إلى ملك الهونية

وكانت الدولة المشرقية الرومية لم يزل فيها رمق الفغار القديم وحفظ المقام
الغصيم فاتتخاب هؤلاء السفراء مشرح صدر ملك الهونية لما فيه من التجميل

والتعظيم فسمى الملك اليهم وسامح القيصصر وعفاه عنه بل عني أيضا عن كل من
الطواشي والترجلان ومن سعى في قتله من أهل العدوان وأنعم على القيصصر

بإعادته عدة مدن من المدن المغصوبة وفك عدة كثير من الأسرى المسلوقة
ونأى عما كان طلبه من الهاربين من جنده في العسكر القيصصري ووجدت

عقد الصلح وطلب جباة عظيمين من المال فدية عن قتل الطواشي السالف الذكر
ولكن المقدار الذي طلبه كان جسيما جدا بحيث دفعه يحجب بجزية الدولة

الرومية وربما كان يكفي في دفع جوامك مقدار من العساكر بهجم بهم
القيصصر على ملك الهونية ويكفيهم شر المصالحمة المعرة فبعد عقد هذه المصالحمة

بر من يسير ركب القيصر جواده للرياضة والتراحة فكباه الجواد فسقط على
 الارض فانكسرت فقار ظهره وفارق الدنيا وأراح العباد والبلاد ومات وعمره
 ثلاث وخسون سنة في أثناء السنة السادسة والاربعين من حكمه وكان ذلك
 في سنة ١٧٢ قبل الهجرة وتولت بعده أخته بولشيرة وفي السنة
 الخامسة عشرة من ملك هذا القيصر كان إيقافا أصحاب الكهف من
 رقدتهم التي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز في سورة الكهف وأطلب في
 حكايتها المفسرون بأقوال مختلفة وحكاها أهل السير بحكايات غير موثقة
 وتلخيص القول فيها ان بعض القياصرة حصل منهم في أيامهم غابة الطغيان
 وعبادة الاصنام والذبح للطواغيت وكان في الروم كثير من الناس على دين
 المسيح عيسى عليه السلام متمسكين بعبادة الله وتوحيده فكان ممن طغى وبغى
 وكفر بالله وعبد الطواغوت ملك من ملوكهم وهو دقيوس قيصر المسمى أيضا
 دقيانوس فقد اجتهد في عبادة الاصنام وتقرب القربان للطواغيت والامر
 بذلك وقتل من خالفه وكان ينزل بلاد الروم ليكره الناس على ذلك فنزل مدينة
 أفسوس التي هي الآن أباصولوق وأمدينة منيج ببلاد أطللي بقصد إكراه
 أهلها على ذلك فكبر ذلك على أهل الايمان فهربوا منه في كل وجه فجعل
 الكفار من أهل المدينة يفتشون عن المستخفين في أماكتهم ليخرجوهم
 منها الى دقيانوس فيضربهم بين القتل والذبح للطواغيت فن اختار عبادة الله
 قتله ومن أطاعه في ذلك تركه فلما رأى ذلك القتيبة الثمانية وكانوا من أبناء
 أشرف الروم وعظمائهم حزنوا حزنا شديدا واشتغلوا بالعبادة والتضرع
 الى الله تعالى وجعلوا يقولون ربنا رب السموات والارض لن ندعوك من دونه
 الهما لقد قلنا اذا سخطا فيمنحناهم على ذلك في مصلى لهم اذ دخل عليهم أعوان
 القيصر فوجدوهم سجدا يتضرعون الى الله تعالى أن ينجيهم من قسنة
 دقيانوس فرفعوا أمرهم الى دقيانوس فأمر باحضارهم وأعينهم تفيض من
 الدمع حزنا فقال لهم ما منعكم أن تجعلوا أنفسكم كغيركم من الذبح للالهة
 فاختاروا أما أن تذبحوا الالهتنا كما يذبح الناس وأما أن اقتلواكم فقال له
 كبيرهم مكسطينا أما الطواغيت فلا نعبد لها أبدا اصنع ما بدا لك وقال بقية
 القتيبة مثل ذلك فجزدهم من ملبوسهم ومن حليتهم التي كانت من الذهب

والفضة وقال اني اراكم شبابا فلا أحب أن تهلككم حتى أجعل لكم أجلا
 تراجعون فيه عقولكم وأمر بخروجهم من عندوا انطلق دقيانوس الى مدينة
 سوري مد يدهم قرية منها البعض أموره فلما علم القصة بضر وجه خافوا اذا قدم
 مد يدهم أن يذكرهم فاتهموا بينهم أن يأخذ كل رجل منهم ثقفة من بيت أبيه
 فيصدق منها ثم يتردد بالباقي ثم نطلقوا الى كهف قريب من المدينة يقال له
 مخلوس يعتكفون فيه لعبادة الله تعالى حتى اذا جاء دقيانوس أتوه ليمنع
 بهم ما شاء ففعلوا ذلك وانطلقوا بنفقتهم واتبعهم كلب كان لهم حتى أتوا ذلك
 الكهف الذي في الجبل فلبثوا فيه ليس لهم عمل الا العبادة وجعلوا نفقتهم
 الى فتي منهم يقال له غليظا كان من أجملهم وأجدهم فكان على طعامهم يتنازع
 لهم ارضا فاتهم من المدينة سرا ويذهب متكررا يتجسس لهم الخبر فلبثوا
 كذلك ما لبثوا

فقدم دقيانوس الجبار المدينة فامر العظما فذهبوا للطواغيت وكان قليلا
 بالمدينة فرجع الى أصحابه وهو يكي فأخبرهم بأنهم بعدود دقيانوس ذكروا
 مع عظماء المدينة ليدبجوا للطواغيت فحصل لهم الفرع من ذلك ووقعوا
 سجدا يتضرعون الى الله تعالى ويتعوذون به من الفتنة وكان غليظا قد جاءهم
 يسير من الطعام فقال لهم ارفعوا رؤسكم وكلوا من رزق الله وتوكلوا عليه
 ففعلوا وكان ذلك عند غروب الشمس ثم جلسوا يتحدثون فيمناهم على ذلك
 الحال اذ ضرب الله على آذانهم في الكهف وكلهم باسطوا يديه بالوصيد
 وهو باب الكهف فأصابه ما أصابهم وهم مؤمنون موقنون ونفقتهم عند
 رؤسهم وكلهم يغيظه بنو آدم وكان الشاعر الحوיר الملقب عبد على يلقب نفسه
 كلب على فقال مشير الكلب أهل الكهف

قبة الكهف غما كلهم * كيف لا ينجو غدا كلب على

فلما كان من الغد تقدم دقيانوس والتهمهم فلم يجدهم فقال لبعض أصحابه
 قد ساء في هؤلاء القصة الذين ذهبوا ولو جاؤا في الاجل المسمى تأبين وعبدوا
 الهى ما كنت لاجهل على أحد منهم ثم أرسل الى آبائهم وتوعدهم بالقتل
 فأخبروه بأنهم انطلقوا الى الكهف فغلب سيلهم فألقى الله تعالى في نفس هذا
 القيصر أن يأمر بسد الكهف عليهم ليعونوا جوعا وأراد الله أن يجعلهم آية

لمن بعدهم وأن يبين للناس أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور وقد توفي الله أرواحهم وفاة النوم

ثم أن رجلين مؤمنين كانا في بيت الملك دقيانوس يكتمان إيمانهم ما وكان اسم أحدهما مندروس والآخرو دماس فاتفرا أن يكتبا أسماء القبية وأنسابهم وخبرهم في لوح رصاص ويجعلاه في تابوت من نحاس ثم يجعلان التابوت في البنيان وقال لعل الله يظهر على هؤلاء القبية قوما مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من فتح عليهم خبرهم حين يقرأ هذا الكتاب ففعلوا ثم نبى عليهم مصلى

فنبى دقيانوس ما نبى ثم مات وقومه ومضت عدة أجيال وخلفه عدة من القياصرة إلى أن ملك على أهل تلك البلاد ملك صالح يقال له تاودوسيوس قيصروسي أيضا طيودوسيس الثاني وسكان مقسكايد بن عيسى بن مريم ولكن لم يزل في ملكه بعض ممن يكذب بالبعث ويقول لأحياة إلا الحياة الدنيا وينكري بعث الأجساد دون الأرواح فلما رأى ذلك هذا الملك الصالح دخل بيته وأغلقه عليه وصار يكي ويتضرع إلى الله تعالى عما يرى فيه الناس من إنكار البعث ويقول أي ربي قدر ترى اختلاف هؤلاء فابعث اليهم من يبين لهم حقيقة البعث فاستجاب الله دعاءه فالتقى الله عز وجل في نفس رجل من أهل ذلك الجبل الذي به أهل الكهف أن ينبى فيه خطيرة لغنمه فاستأجر عاملين فجعلوا ينزعان تلك الحجارة وينيان بها تلك الخطيرة حتى فرغوا على فم الكهف من السد وفتح عليهم باب الكهف وحجبتهم الله عن الناس بالرعب فلما نزلت الحجارة وفتح عليهم باب الكهف أذن الله ذو القدرة والعظمة ومحيي الموتي أن يستيقظوا من رقدتهم ويجلسوا بين ظهراني الكهف فجلسوا فرحين مستبشرة وجوههم طيبة أنفسهم فسلم بعضهم على بعض كما تمنا استيقظوا من ساعتهم التي يستيقظون فيها على عادتهم إذا أصبحوا من ليلتهم التي يبيتون فيها ثم صلوا وصلاتهم كما دت في وجوههم ولا في ألوانهم شيء يكرهونه انما هم كهينتهم حين رقدوا وهم يرون أن ملكهم دقيانوس الجبار في طلبهم

فلما فرغوا من صلاتهم قالوا التملينا صاحب نفقتهم انتسابا أخي بالنبي قال الناس في شأنا عسيرة أمس عند الجبار ظنا منهم أنهم رقدوا وكعادتهم وانما

خيل لهم أنه طالت مدة نومهم على العادة فقال بعضهم لبعض كم لبثتم قالوا
 لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم وكل ذلك في أنفسهم يسير ثم
 قال مكلميناه لتلميحنا انطلق الى المدينة لتسمع ما يقال في شأننا هذا اليوم
 وما الذي تذكر به عند دقيانوس وتلطف ولا تشعربنا أحد أو اتبع لنا طعاما
 واقتناه فإنه قد نالت الجوع وزدنا على الطعام الذي تجتنباه العادة فإنه كان
 قليلا وقد أصبحنا جوعا فأخذ تلميحنا ورعنا من نفقتهم التي كانت معهم مما ضرب
 بطابع دقيانوس فانطلق تلميحنا خارجا من باب الكهف فلم ير الباب رأى الحجارة
 منزوعة عنه فحبب منها ولم يال بها في مروره حتى أتى باب المدينة متذكرا
 مخافة أن يراه أحد من أهلها فيعرفه فيذهب به الى دقيانوس الجبار ولم يشعر
 بالعبء الصالح الذي هو نادر وسوس ولا علم أن دقيانوس وأهله هلكوا من منذ
 أجيال فلما رأى تلميحنا باب المدينة رفع رأسه فقرأى فوق ظهر الباب علامة
 تكون لاهل الايمان فجعل ينظر اليها متعجبا فظفر عيننا وشمالا فلم ير أحدا ممن
 يعرفه فترك ذلك الباب وتحول الى باب آخر من أبوابها فقرأى مثل ذلك ففضيل له
 أن المدينة ليست بالتي كان يعرفها ورأى ناسا كثيرين محدثين لم يكن يعرفهم
 قبل ذلك فجعل يمشي ويتعجب منهم ومن نفسه ويخيل اليه أنه حيران ثم رجع
 الى الباب الذي أتى منه فجعل يتعجب منه ومن نفسه ويقول يا ليت شعري
 أما هذه عشية أمس وقد كان المسلمون يحضون هذه العلامة ويستحضون بها
 فأما اليوم فأنا ظاهرة على عالم ثم يرى أنه ليس بنا ثم فأخذ كساه وجعله على
 رأسه ثم دخل المدينة فجعل يمشي بين ظهراني سوقها فيسمع ناسا كثيرين
 يحلفون بالله ثم يعيسى بن مريم فزاده ذلك عجبا ورأى كأنه حيران فقام مسندا
 ظهره الى جدار من جدران المدينة وقال في نفسه والله ما أدري من هذا أما
 عشية أمس فلم يكن على وجه الارض انسان يذكرك عيسى بن مريم الا قتل وأما
 القدا فأتسمع كل انسان يذكرك ولا يخاف ثم قال في نفسه لعل هذه المدينة
 ليست مدينتنا ولا أعلم مدينة أقرب منها حتى تشبه على بها ثم قام كالخيران
 الهائم لا يدرى أين يتوجه ثم أتى من أهل المدينة فقال يا فتى ما اسم هذه
 المدينة فقال أقسوس فقال في نفسه لعل بي مسأ أو امرأ أذهب عفتي
 والله يحق لي أن أسرع الخروج منها قبل أن أخرج منها ويصيني سوء

فأهلك

ثم انه أفاق فقال والله لو عملت الخروج من المدينة قبل أن يقطن بي أحد
لكان أكيس فذامن الذين يبيعون الطعام فأخرج الورق التي كانت معه
فأعطاهارجلانهم وقال لهما عباد الله يعني بهذه الورق طعاما فأخذها الرجل
ونظر الى نقش الورق وعجب منها ثم طرحها الى آخر فنظر اليها وهكذا فجعلوا
يتطارحونها بينهم من رجل الى رجل وهم يحبون منها ثم جعلوا يتسارون
ويقول بعضهم لبعض سرا ان هذا الرجل قد أصاب كنزا فلما رأه يتسارون
من أجله ظن أنهم فطنوا به وعرفوه وانهم يريدون أن يحملوه الى دقيانوس
الجبار فارتعدت مقاصله ثم قال لهم اقضوني حاجتي فقد أخذتم ورقي
والا فامسكوا اطعامكم فلا حاجة لي فيه فقالوا من أنت يا فتى وما شأنك والله
لقد وجدت كنزا من كنوز الاولين وزيدان تحضيه منا فانطلق معنا وشاركنا
فيه والا تأت بك الى السلطان فنسأله اليه فلا سمع قولهم عجب في نفسه وقال
قد وقعت في كل شيء أحذر منه فجعل تملخا لا يدري ما يقول ولا يجير جوابا فلما
رأوه لا يتكلم طوقوه بكسائه في عنقه وجعلوا يتودونه في سكك المدينة مكبلا
فاجتمع عليه أهل المدينة صغيرهم وكبيرهم فجعلوا يتطرون اليه ويقولون والله
ما هذا الفتى من أهل هذه المدينة وما رأينا هنا قط وهو لا يتكلم ولو قال انه
من أهلها لم يصدق مع علمه أن أهله من عظماء المدينة وأنهم سيأتونه اذا سمعوا
وقد يتقن أنه عشيبة أمسر كان يعرف كثيرا من أهلها وانه الاثنان لا يعرف من
أهلها أحدا فيبينهما هو كالخيران ينتظر من يأتيه من أهله فيخلصه من أيديهم
اذا اختطفوه وانطلقوا به الى رؤساء المدينة

وكان للمدينة رئيسان يدبران أمرها وكانا رجلين صالحين اسم أحدهما
أرموس واسم الآخر اصطفوس فلما انطلق به اليهما ظن تملخا أنه انما انطلقوا
به الى دقيانوس الجبار الذي هرب منه الفرية فجعل يلتفت يمينا وشمالا والناس
يسهرون به كما يسهرون من الجنون والخران وهو يكي ويتضرع الى مولاه
بالخلاص ثم تمسل بين يدي أرموس واصطفوس فلما رأى تملخا انه لم يذهب به
الى دقيانوس أفاق في نفسه فأخذ أرموس واصطفوس الورق فنظرا اليها
وعجبا منها ثم قال له أحدهما أين الصكر الذي وجدته يا فتى هذا الورق

يشهد عليك انك قد وجدت كزاً فقال تليخا ما وجدت كزاً ولكن هذا وورق
 آتاني من نقش هذه المدينة ووالله ما أدري ما شأني ولا ماذا أقول لكم فقال له
 أحد هما من أنت فقال له تليخا أنا من أهل هذه المدينة فقال له من أبوك ومن
 يعرفك بها فأجاباهم باسم أبيه فلم يجد أحدا يعرفه ولا أباه فقال له أحد هما أنت
 رجل مقتر لا تخبر بالحق فنكس تليخا رأسه إلى الأرض فنهس من يقول هو
 رجل مجنون ومنهم من يقول هو يعمق نفسه كي يتخلص منكم فنظر إليه أحد
 الرئيسين نظر شديد وقال له ألقن أنا رسلك ونصّدك في قولك ان هذا مال
 أليك ونقش هذا الورق قديم وأنت غلام شاب تلقن انك تسخر بنا ونحن ولاية
 المدينة ونزائمتها بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار فلا بد أن
 تعذب عذاباً شديداً ووقت حتى تقربا لكراً الذي وجدته فقال تليخا أتبتوني عن
 شيء أسألكم عنه فإن فعلتم صدقكم ما عندي فقالوا سل لانك تملك شيئاً قال
 ما تفصل الملك دقيانوس فقالوا لا نعرف اليوم على وجه الأرض ملكاً بهذا
 الاسم وإنما كان وهلك من دهر طويل فقال لهم تليخا فوالله ما يصدقني أحد
 من الناس بما أقول لقد كاذبة الملك دقيانوس وأكرهنا على عبادة الاوثان
 والذبح للطواغيت فهر بنا منه عشة أمس في الكهف ففخنا فلما اتهمنا
 خرجت لا تشري لأصحابي طعاماً وأن تجلس لهم الاخبار فاذا أنا كما ترون
 فأنطلقوا معي إلى الكهف أريكم أصحابي فلما سمع أرموس واصطفوس قوله
 قالوا يا قوم لعل هذه آية من آيات الله عز وجل جعلها الله لكم على يدي هذا
 الفتى فأنطلقوا بنا معه ليرينا أصحابه فأنطلق معه أرموس واصطفوس وأنطلق
 معهما أهل المدينة صغيرهم وكبيرهم ففجأ أصحاب الكهف ليستروا اليهم وكان
 لما رأى أصحاب الكهف تليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن الوقت
 الذي كان يأتينهم فيه فظنوا أنه قد أخذ وذهب به إلى ملكهم دقيانوس الذي
 هربوا منه فيمنعهم يظنون ذلك ويتخوفونه اذ سمعوا الاصوات وصهيل
 الخيل مصعدة ففزعوا منهم وظنوا أنهم رسل دقيانوس بعثهم اليهم ليأثمهم فقاموا
 حينئذ جميعاً وذكروا ما فعلوا فأنطقوا بالحق وأخبرنا تليخا فأنه الآن بين يدي الجبار
 دقيانوس ينتظر حتى تأتيه مع الرسل فيمنعهم يقولون ذلك وهم جالسون بين
 ظهراني الكهف اذ وفد عليهم أرموس وأصحابه ووقفوا على باب الكهف

وقد سبقهم فليخاطبوا فدخل عليهم وهو سكي فلما رأوه سكي بكوا معه ثم
سألوه عن شأنه فأخبرهم بحضره وقص عليهم المسئلة فعرفوا عند ذلك أنهم كانوا
يأبوا باذن الله تعالى ذلك الزمان كله وانما أوقطوا ليكونوا آية للناس وتصديقا
للبعث وليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ثم
دخل على اتر قليخا أرموس قرأى تابوتا من نحاس محتويا مجاثم من فضة فقام
ميا ب الكهف ودعا رجلا من عظماء أهل المدينة وفتح التابوت عندهم
فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوب فيهما أسماء القنية وانهم هربوا من
ملكهم دقيانوس الجبار مخافة أن يقتلهم عن دينهم فدخلوا في هذا الكهف
وان دقيانوس لما أخبر بملكهم أمر ببناء الكهف عليهم بالحجارة وانا كتبنا
شأنهم وخبرهم ليعلم من بعدهم ان عمر عليهم

فلما قرأوا عجبوا وحمدوا الله عز وجل الذي أراهم آية البعث فيهم ثم رفعوا
أصواتهم بحمد الله وتسبيحه ثم دخلوا على القنية الكهف فوجدوهم جالوسا
بين ظهرانيه ووجوههم مشرقة ولم تلب ثيابهم فخر أرموس وأصحابه بسجد الله
تعالى الذي أراهم آية من آياته ثم أنبأهم القنية عن الذي لقوا من ملكهم
دقيانوس الجبار فبعث أرموس وأصحابه يريد الى ملكهم تاودوسيوس أن
يجل بالحضور وعلك تنظر الى آية من آيات الله تعالى جعلها الله آية على ملكك
وجعلها آية للعالمين ليكون ذلك تنويرا للبصائر في التصديق بالبعث فجل للنظر
الى قنية بعثهم الله تعالى وكان قد توفاهم منذ هربوا

فلما أتى الملك الخبر قام من الشدة التي كان عليها ورجع اليه عقله وذهب عنه غمه
ورجع الى الله تعالى وحمده اذ تطول عليه ولم يطفئ النور الذي جعله لآياته
ولحمده العبد الصالح قسطنطين الذي نصر دين عيسى بن مريم عليه السلام
فلما علم به أهل المدينة ركبوا اليه وصاروا معه حتى سعدوا نحو الكهف
وأثرو فلما رأى القنية تاودوسيوس فرحوا به وخر واسجدوا على وجوههم
وقام تاودوسيوس قد امهم ثم اعشقهم وبكى وهم جالوس بين يديه على الارض
يسبحون الله تعالى ويحمدونه ثم قال القنية لتاودوسيوس نستودعك الله
ونقرتك السلام حفظك الله ومملكك ونعبدك بالله من شر الجن والانس
فبينما الملك قائم اذ رجعوا الى مضاجعهم فناموا وتوفي الله ارواحهم

فواجب كيف يعصى الاله أم كيف يجده الجاحد
وفي كل شيء له آية * تدل على أنه واحد

فقام الملك وجعل نبأه عليهم وأمر أن يجعل لكل إحدائهم من ذهب فلما
أمسى المساء ونام أتوه في المنام وقالوا إننا لم نخلق من ذهب ولا فضة ولكن
خلقنا من التراب زالي التراب نصير فارتكنا كما كافي الكهف على التراب حتى
يعتنا الله فأمر الملك حينئذ بتأبوت من ساج فجعلوا فيه وحيهم الله حين
خرجوا من عندهم بالرعب فلم يقدر أحد أن يطلع عليهم وأمر الملك أن يجعل
على باب الكهف مسجد يصلى فيه وجعل لهم عيداً عظيماً وأمر أن يؤتى كل
سنة وهذا حديث أصحاب الكهف من نومهم الأولى في أيام دقيانوس
وايقظهم في أيام تاود وسيوس التي هي مئة مائة وواحدة وسبعين سنة شمسية
ويضاف إليها زيادات هذه السنين على القمرية وهو مقدار خمس سنين وثلاثي
سنة تبلغ مائة وستاً وسبعين سنة الأنحوثلت سنة وهي عدة السنين المذكورة
في قوله تعالى فصرنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً فهذه المدة عند
المؤرخين محصورة في المسافة التي بين زمن حكم القيصرين المتقدمين وهما
دقيانوس وتاود وسيوس وأما قوله تعالى فلبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين
وازدادوا تسعاً هو والله أعلم كما ذهب إليه بعض المفسرين من قول أحد
الحزبين المشار إليهما في قوله تعالى ثم يعتناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما
لبثوا أمداً حيث اختلف الحزبان في عدد السنين رجاء الغيب ويؤيده قوله
تعالى قل الله أعلم بما لبثوا الغيب السموات والأرض فهذا يكون الجمع بين
نص الآية وكلام المؤرخين القائلين بأن هؤلاء القصة ناموا وقاموا بين حكومة
القيصرين المذكورين والالام يكن مطابقة بين الآية القرآنية والوقائع
التاريخية المتواترة عالم نذهب إلى قول بعض من قال إن حادثة أهل الكهف
كانت قبل عيسى عليه السلام فيصح أن تكون مدتهم ثلاثمائة سنين وتسع
سنين ويكون قوله تعالى وللبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ليس
حكاية عن قول أحد الحزبين كما ذهب إليه بعض آخر من المفسرين بل عن قوله
تعالى أو حكاية عن أحد الحزبين المصيب في قوله والقول الأول أرجح لموافقة
لما اعتقده التاريخ والمفسرون من كون واقعهم كانت بعد ظهور عيسى عليه

السلام وأنها بين القيصريين المذكورين
ثم انه يفهم من كلام المفسرين لهذه الآيات أن الرجل الصالح تاودسيوس
الذي هو طيودوسيس الثاني حكم ثمانين سنة وقبلاً جمع المؤرخون على أن
مدة حكمه لم تكن أكثر من اثنتين وأربعين سنة فالظاهر انه اشتبه على بعض
أهل السير الذين نقل عنهم المفسرون هذا القول أن تاودسيوس هو واحد
وهو الآخر وامتدت مدته الى المدة التي مات بها حفيده المسمى باسمه ودخل
في هذه المدة أيضاً مدة أرقاديوس ابن الاول وأبي الثاني فجعلوا المدد الثلاثة
مدة واحدة للاشتراك اللفظي في الاسم على أن المدد الثلاثة لم تبلغ الثمانين سنة
بل هي عبارة عن اثنتين وسبعين سنة كما يعلم من مراجعة مدة حكم كل واحد
منهم في فصله والافطيودوسيس الثاني تولى القيصرية في سنة ٢١٤
قبل الهجرة وحكم الى سنة ١٧٢ قبل الهجرة واشتهر صيته بقومة
أهل الكهف في زمانه فكان لسان الحال أنشد بعد أن قوى معتقد البعث
وشيده قول القائل

ففس ما دمت في الدنيا وأدرك * بما مارمت من صيت وصوت
نخط العيش موصول بقطع * وجبل العمر معقود بجوت
وتوات بعده القيصرة بولشيرة وزوجها مرقيانوس

(الفصل الثالث)

• (في الملكة بولشيرة القيصرة وزوجها مرقيانوس قيصري) •

تولت هذه الملكة القيصرية في سنة ١٧٢ قبل الهجرة ثم تزوجت بمرقيانوس
وأشركه معها في المملكة الى سنة ١٦٩ قبل الهجرة فكانت أحكام
هذه الملكة منفردة ومنفصلة مع مرقيانوس ثلاث سنين ثم انفرد مرقيانوس
بالمملكة سنة ١٦٩ وبقي حكمه الى سنة ١٦٥ قبل الهجرة فكانت
مدة حكمه وحكم زوجته نحو سبع سنين
من المعلوم ان دولة القسطنطينية كانت انحطت عن مقامها وتنازلت عن
قدرها في أيام طيودوسيس أخى هذه الملكة وكان الحال مقتضيا لرفع شأن
الدولة الرومانية وتقوية شوكتها بعد أيام هذه القيصرة وهذا يستدعي

النبات والشجاعة فاقضى نظرو جوء القسطنطينية والجنود الرومية ويجلس
 الاحكام وصكافة الرعية أن يضعوا على سرير الملك بولشيريه أخت القيص
 فبايعوها على القيصرية فكانت أول أختي جلست على سرير الرومين الذي
 كان لا يجلس عليه الا خول الرجال ولى في هذا المعنى مقتبسا

عجز ملوك الروم عن مطلبهم • نأى به عن العلى مسلكتهم

دولتهم تقاعست رجالها • انى رأيت امرأة تملكهم

فشرعت هذه القيصرة في مبدأ حكمها تنقم من أعداء الدولة أرباب الجسارة
 وكان هذا الانتقام هو من عين العدل والانصاف حيث أجرت عقابهم على
 موجب الاصول والقوانين فضربت عنق خروسان على باب الديوان
 القيصري بدون اقامة دعوى ولا تحقيق قضية فكانت جساتها الى هذا
 الحد وتبصرها بالامور سببا لانطباع هيبتها في قلوب الالهالى ولنقوذ كلمتها في
 الحكومة اذ توسم فيها جميع الناس أنها أهل لذلك ولكن لما كان حكم
 الانثى عند الروم على خلاف الاصول والعوائد وكانت تخشى هذه الملكة انه
 ربما يترتب على حكمها في الرجال اشمزاز النفوس وتشويش الخواطر
 واثارة الفتق والشرور لم ترض تعرض نفسها للاستقرار على ذلك فترجعت
 بأحد أكابر المجلس وأكثرهم احتراماً ووقاراً وهو مرقيانوس وكان عمره
 اذئذ الستين سنة وألبسته الحلة القيصرية وعاهدها على أن يحترم دائماً ناموس
 نفوذها وأن لا يضيع حقوقها الاشتراكية في الادارة والتدبير وأن يتجاوز
 لها عن حقوق المباسضة التي تقتضيها الزوجية لانها كانت تذر أن لا تمكن
 أحداً من أن يفتضها وأن ترهب مدة عمرها فعاهدتها على ذلك ووعدتها أن
 لا يمسها وفي بوعده فهي أشبه ملكة يلقب سببا وابن بولشيريه من بلقيس
 ولكن أين نسا ذلك الزمن المتوليات الملك من ملكات هذا الزمان المدبرات
 الممالك الواسعة كملكه الانكليز التي ملكت من أجل عمالك الدنيا سياسة
 ورياسة حتى ان بعض أهل السياسة من أهل هذا العصر يزعم أن الملكة
 الانثى لكونها متسلطة على قلوب الرجال حاسومعنى تكون ملكتها في الغالب
 أعمر من ممالك الرجال التي تسلطن على قلوبهم نساؤهم ولكن رهبانية
 بولشيريه لم تجعلها في القوة كملكات الدول الاخيرة وانما تجعلها أرق رتبة

من أمثال كلو بتر مملكة مصر

وكان لها أخنان وهما مريسة وارفادية فكانتا مثلها في الرهبانية السابقة
فهؤلاء الاخوات الثلاثة العذاري كبتن صورة هذا التذرع على لوح مصفح
بالجواهر وبعثن به الى كنيسة أيا صوفية كاتبة قربان للعذراء وكن لا يحضرن
بجملس الرجال أبدا ما عدا الحضور بجملس القسيسين وكان قصرهن أشبه بالدير
وديوانهن عبارة عن معبد المترهبات

ثم لما تولى مرقيا نوس أجرى الادارة كما تشتهي بولشيره من الثبات والعقل
وحسن السلوك وأصل هذا القصر أنه كان ولي في روم ايلي وكان من عائلة فقيرة
ثم مكث تسع عشرة سنة مستخدما ثم صار عسكريا تحت قواد الجيوش فامتاز
في حرب الرومان في مع القرس وفي حرب افريقية ففلق الاقران وحاز
الاعتبار وكان متواضعا خفا من الاعداء ولم يحقد عليه أحد فلما تولى
القيصرية وتب من القوانين ما يحسى به الظلم والطغيان والجور والعدوان
فتطول برفع التعدي الذي طالما أضمر الروم على طول الازمان وتواضع لرعاياه
كما تكبر على عدا

ولما طلب منه أطبلا مع الكبرياء والعظمة أن يرفع الخراج المقرر الذي كان
يدفعه طبودوبيس أجابه بمناصه

قد انحلي الزن الذي كانت تنهك فيه حرمة المملكة الرومانية وخلا الدهر الذي
كان يحل بنواميس الدولة القيصرية وأما في عهدي هذا فلا أعطى شيئا
الا بالطوع والاختيار بوصف الامداد والاعانة والمساعدة على المحافظة
والصيانة مما يلزم للملوك المتعاهدين معي الخادمين لحكومتي بالصادقة وليس
عندي لغيرهم عن يهدي من الاعداء جواب الا رسالي عليهم جنودا من
الصناديد قلوبهم كالجلايد وأجسامهم من حديد ثم بعث السفراء الى
أطبلا ليشا فهو يمثل هذا الكلام فاعتنا قبايل الهونية وأقسموا على هلاك
الدولة الرومانية ومحو اسمها ورسمها من صحيفة الدنيا حتى لا تبقى منهم باقية
فكتب أطبلا لكل من قيصرى القسطنطينية ورومة مانصه

قد أمرت أطبلا مولدوسيدك بتجهيز قصرك لتتلقاه فيه فهو حاضر عن قريب
ليأمر لك بما تقتضيه المصلحة ولا تكن لما يتقن أطبلا أن قيصر القسطنطينية

مستعد لقتاله ومتعين لجلاده وجداله خاف من بسالته وشجاعة رجاله بقي
الصلح معه على ما هو عليه

ويسهل وصل الجبل بعد انقطاعه * ولكنه يبقى به عقد الربط
وصمم أن لا يغير على دولة المشرق الا بعد الاستيلاء على مملكة المغرب فصار
صوب المغرب وتبعه كثير من ملوك الامم المتبريرة وأمرهم ورؤسائهم بقصد
حرب رومة وجرمانيا ووقف صفه وصف أخصامه المصاف بعد حروب مستمرة
في ميدان شالون بفرانسا وبعد الاستراحة بعض ساعات وكان أطبلا عليه
الهيئة الكاملة فلا تستطيع أن تنظر اليه أعين الملوك المتعاهدين معه فخرج
من محله لتفتيش جنوده وكان رؤسائهم مختلفي الجنس فطلبهم بقوله لا تخافوا
شيئا فاني رؤسكم وقائدكم وصنم الحرب حاميككم وناصركم وقد تعودت النصر
فيما مضى فلا أحرم النصر فيما بقي

شدوا أباديكم وانضوا سلاحكمو * وشمروا انهارا أيام من غلبا
وأبضا قد كفل لكم النصر والتأييد جبن الرومين وقورهم ثم فهم يعمتهم لدينا
محققة

ان اختفى ما في الزمان الآتي * فقس على الماضي من الاوقات
غن من الاعداء بصادمنا في حومة الميدان ويطاردنا في حلبة الرهان فان
كانت الخسبة من طائفة الاقربجة فينهم الشقاق والاختلاف واقع وكل
فريق منهم للفريق الآخر منازع

وقشت الاعداء في آرائهم * سبب لجمع خواطر الاحباب
فأكثرهم عما قريب ينتظم في سلك جنودنا ويدخل تحت ظل أعلامنا وبنودنا
وان خشيتم الغوطية والبرغونية فان شوكتهم ضعيفة لا قوية فطالما هربوا
خوفامن جيشنا عند الالتصام وكثيرا ما كرهوا في حروبنا الدخول معناني
الميدان والاقحام وقال لسان حال جمعهم عند تولى الادبار

لئن كانت يدي في الحرب شلا * فربحلي في الهزيمة غير عرجا
فان قلتم انهم نزلوا هانما صميمين على التزال فليس الامر كذلك بل نزلوهم لخص
الاستراحة من التعب وليس لهم في باطن الامر قصد في الحرب ولا أرب فقد
اضطربت فيهم نيران القتن وظهرت بينهم الاضلالات والهن ولم يادروا

باطفاق ذلك ولا عولوا على ما هنالك

والشر كالنار يمد وحين تقدحه * شراره فاذا بادرت به خددا
وان نواتيت عن اطفائه كلا * أوري قتيل تشوى القلب والكبد
فلو تجمع أهل الارض كلهم * لما أفادوه في اطفائه أبدا
فسبروا على أعدائكم ثقة بالنصر والظفر واعتمادا على التأيد ولا مفر فليس
فوق قوتكم قوة بشرية ولا يقدر على غلبتكم الا القدرة الالهية فلا
يستطيع خصمكم الخلاص مما قدره المولى وقضاء فهو الذى يهلك الجبان
الذى يتولى مدبرا أو يحب المدعة أو يكون فى الجيش متأخرا أو يختار الصلح
على القتال ويؤثر السلم على التزال فالرب ينجي الشجاع المقتصد لعقبات
الحرب من المهالك ويسلك به أحسن المسالك وقد أنطقى من أنطق كل شئ
بكلمة واحدة وهى أن أطقن العدو برحى قبلكم وأقتل الجبان شر قتله اذا
كان من قبلكم فعند فراغهم من المقالة التى هى من قبيل التشجيع للاحالة
* ان لم تحارب يا جبان فشجع * التعم الصفان واتقى الجمعان وهجم أخصام
الهونية على الهونية من كل جانب فاذا قوه عذاب الهون وصبروا عليهم
صيب المصائب ومن قوه كل عمزق فما تجمع منهم تفرق فصارا طيلا يرا
كالأسد الكاسر وبأمر جنوده بالجل على العدو والمتكاثر وتقول طاقته
كلما أظهر الزعامة أسد على وفى الحروب نعمة فلا يجيبوه عن زعيمه
الا بالعصيان ولم تكن خطابه الا كالواغى فى غلاة كأن لم تصغ لها الاذان
لقد أسمعت لو ناديت حيا * ولكن لاحيا لمن تنادى
أولس ومخطه لم يساعده الزمان على تاج ما غرسه فى غير أوان

وأعظم شئ فى الوجود تنعنا * تاج مرام من عقيم زمان
وهذه أول مرة حرم الطاعة من هؤلاء الجماعة حيث ولو امديرين والتجوا
الى الاحتمى خلف عرباتهم كما هى عادتهم خائفين فكان عددا من قتل فى هذه
الواقعة فى ميدان الحرب من الطرفين مائة وخمسين ألفا فأكثروا عاد الهونية
من حيث أنوا يقتلون ويأسرون ويقتلون الاسرى صفارا وبيكارا ذكورا
واناثا ويميلون فى السلب والقتل كل الميل حتى لقد قتلوا من النساء مائة صبية
تحت سنابل الخيل وهذا كله جهمة قرأنا وما جاورها من الافايم ولم تضعف

هذه الهزيمة عزم أطيلابل تصدحرب ابطاليا واجتاز الالب واستعمل آلات
الحرب كالمنجنيق وكانت هذه أول مرة أعارفيها الهونية على ابطاليا بقصد
هلاك الرومانيين وكان قيصر رومة اذذاك ضعيف الشوكة والبأس لقتور همة
الرومانيين وخولهم بعد العز وعقب لبسهم من البهجة أحسن لباس فصاروا
لا يستطيعون أن يقاتلوا الهونية بدون استعانة بجنود أجنبية فاستغاثوا
بجنود القوطية وبجكوها وكان عليها الملك الاريتي القوطي وغيره فبهذا الاتحاد
قويت الجنود الرومية فحصلت المهاجمة والمدافعة بغاية المهمة من الطرفين
ولا زال الحرب سجالا ثلاثة أشهر لم يحصل منها الهونية أدنى ثمرة حتى طلب
عسكرهم من ملكهم رفع الحصار وتخليه هذه الديار اذ لم يكن نصيدهم منها غير
الهزيمة ولم تنفعهم همة ولا عزيمة ولا اعتنوا أدنى غنمة فينتاهم معصمون
على هذه النية للبأس من بلوغ الامنية اذ منع نيبال ملكهم محبلة وهيبة
وسيلة لهيبة

خير نولهب فلانك ملغيا • مقالة لهبي اذا الطيرمرت
حيث لمح طائر أهلكيا يحوم على أبراج المدينة ويعد عنها ثم يعود كأن ذاته بها
رهينة فقال الجنوده ان طيران هذا الطير هو قال السعادة والخير يشترنا بقرب
النصرة والنجاح وبعد نابالين كلما خرج من بيته صفق بالجنح فكأنه قد ألهم
ان هذه البلاد قريبة الدمار ولا تمكث زمنا طويلا على العمار فصدق الجنود
مقاله واعتقدوا بين الطائر وقاله وقوى عزيمتهم وجمعوا على مدينة أكيله
وكان الملك محصورا بها فآخذوها عنوة ونهبوا وسلبوا وأمر وأهل المدينة
وحرقوها فسهل بذلك على أطيلالا امر فصار يتغلب على جميع مدن ابطاليا
بالقوة والقهر حتى وصل الى مدينة ميلان فألقت اليه مقاليدها فوجد فيها
لوحا منقوشا عليه صورة القيصر على سريره وامامه ملوك التتار يسجدون له
فحرق هذه الصورة ووضع بدلها صورته على كرسيه حين يستقبل تلقى ثشريات
القيصر بن حين دفعهم اليه الجزية المقررة التي أداها من العين فرض
عين

ولم تكف الهونية ومن صحبها من القبائل المتبررة بالسلب والنهب والقتل
بل أهلكوا الحرث والتسل وخربوا الغيار وقطعوا الاشجار وأحرقوا القرى

والامصار وكان ملكهم اطيلا بما فيه من العناد يفرهم على العتو والفساد
ويقول لا يفت الزرع في مكان وضع فيه جوادى قدمه فكان اهل ايطاليا
بهاجرون من بلادهم فقامن المتبربرس وخشية على انفسهم من الحنفين
حتى ان اهل البنادقة ما جروا من اقليمهم الى جزائر خليفهم وقد قال في حقهم
بعض الغوطية ان البندقين كدجاج الماء ينون او كانوا في لجنة البحر ولذلك
تأسست مدينة البندقية المسماة ونديق من مهاجرة اهلها من الارض
القارة الى جزائر بحر البنادقة ونوامسا كنهم على سدود وقناطر وعمروا
البحر بالدائن والعماث واجتمع عليهم من الجائاة الضرورة والحاجة الى الحماق
بينهم وتجددت في بلادهم الجديدة الصناعة والزراعة وتألفت حكومة بلادهم
من جمهورية مركبة من عشرين جزيرة متصلة وكل جزيرة محكومة بمحاكم ثم
قويت تلك الجمهورية وصارت غنية مغرية ثم بعد اتصاها الهونية هذه النصر
المؤثرة انتهى الحال ان بعث قيصر رومة الى اطيلا سفراء يلتمس منه الصلح
فأجابته الى ذلك فانه قد الصلح وكان من شروطه ان يتزوج اطيلا بنت من
بات قيصر رومة سمي الاميرة هونورية وكان قد سبق له خطبتها من اسيها ورده
فتزوجها في هذه الدفعة حيث أجيب بالقبول على الوجه الاتم وما علم ان السم
في الدسم فكانت سبب موته لانه أجرى لها امراسيم الفرح العظيم في يوم وليلة
وأكثر فيه من الشراب فلم يزل يشرب حتى سكر ثم ذهب معها الى محل فراشه
وكانت تبغضه وتفر منه في صباح ليلة البناء بها تعجب الجند لما وجدوا
ملكهم لم يخرج حسب العادة قد خلوا خيمته فوجدوه مضرجا بدمائه فقالت
عشيرونه انه مات بداء السكة وقال الروميون انه مات قتيلا وكان الظاهر من
دولته لو بقيت ان تكون في الرونق والعظم كدولة الاسكندر الاكبر وانما
كانت مثلها في الاقراض المترتب على مقاسمتها بين اولاده وامرأته فبالفضل
الذي وقع بين اولاد اطيلا وامرأته ضاع ملكه وبموته اطمانت دولة الروم
بالمشرق والمغرب بل كانت دولة المشرق قد امتدت من شره بمجرده ما صرف
همته على حرب المغرب ولم تحض صولته بعناية مرقيانوس القوي الجاش
الشديد الباس وبالجملة فقد كانت دولة القسطنطينية في أيام مرقيانوس في
غاية الامن والراحة كما كانت مله عيسى عليه السلام منصوره مقيدة في أيامه

وقد سبق أن موته كان في سنة ١٦٥ قبل الهجرة بعد موت زوجته
بولشيريه بثلاث سنوات وهو آخر قياصرة عائلة المشرق الاولى التي أولها
أرقادنيوس وقد تولى بعده مرقيانوس ليون الاول الروم ايلي

(الفصل الرابع)

• (في الملك ليون قيصر الاكبر ويسمى الاقدم) •

تولى هذا القيصر المملكة سنة ١٦٥ وبقي حكمه الى سنة ١٥١ فكلت
مدة حكمه أربع عشرة سنة

نشأ هذا القيصر بيلادوم ايلي وتولى القصرية بعد مرقيانوس بانتخاب
البطريق الامير أسبار الغوطي الذي كان في خدمة الروميين ومن قوادهم
وكان معدودا من أماجد الروم وأبطالهم وكان رئيس الاساقفة فاخذ الكلمة
فلما حكم هذا القيصر أعاد الصلح للروميين مع أمر الغوطة الشرقية المتبررة
اكراما بطرقهم في نظير معروفه

واستوثق على دوام الصلح معهم بأخذ طبودوريق بن طبودومير أحد ملوكهم
رهنا في القسطنطينية وأدخلهم تحت الطاعة وكان عمر طبودوريق آنذا
ثمان سنين ولم يفلح أمره الا في زمن القيصر زينون الا في ذكره قريبا وقد
حارب القيصر ليون أيضا طائفة الوندال أصول الاندلسيين وفي هذا الحرب
معهم ثبتت لديه خيانة الامير أسبار البطريق فقتله مع جميع عائلته ولم يراع
ما سبق لهم من الخدم الرومية ولم ينظر الى ما صنعه معه من الجليل حيث قلته
المملكة ونصره على أعدائه ومن أمثله العرب العذري صلح في كثير من
المواطن ولا عذر لغادر ولا خائن

أخلق بن رضى الخيانة شيعة • أن لا يرى الا صريح حوادث

ما زالت الآراء تلتقي بؤسها • أبدا بغادر ذمة أو ناكث

وقدمات ليون الاول في سنة ١٥١ قبل الهجرة وخلقه ليون الثاني بعد
ان حكم أربع عشرة سنة

(الفصل الخامس)

• (في)

• (في الملك ليون قيصر الثاني الملقب بالسوقي) •

تولى المملكة في سنة ١٥١ وحكم عشرة أشهر
هذا القيصر هو سبط ليون الأكبر السالف الذكر وابن زينون السوقي نسبته
الى السلوقية ييلا دأناطولى كان رئيس المحافظين بولاية من ولايات أناطولى
كان أشركه جده لأمه معه في القيصرية مدة حياته ثم خلف جده بعده وكان
عمره اذ ذاك أربع سنين فكفله أبوه زينون وكان يحكم بالنيابة عنه فلما مات
ليون الثاني في حياة أبيه انتقلت المملكة الى ابيه بالوراثه عن ابنه ضد
الاعتاد في الممالك فقد يسوع بطيب الفرع طيب الغنصر وبعضهم يسقط من
القيصرية ملك هذا الصغير اذ ليس في الأمير ولا في الصغير
قل لمن يدعى الفضيلة منهم * لست في العبر ولا في النغير
فيجعل جميع مدة التولية لايه زينون وصار قيصر أصيلاً

(الفصل السادس)

• (في الملك زينون قيصر والملك باسيلقوس قيصر) •

تولى القيصر زينون المملكة مرتين فكانت الاولى من أواخر سنة ١٥١
قبل الهجرة والمرة الثانية في سنة ١٤٥ وبقى الى سنة ١٣١ قبل
الهجرة وأيام الفترة كانت لباسيلقوس فكانت مدتهما عشرين سنة منها
سنتان لباسيلقوس وحده
وقد كان هذا القيصر في بادئ أمره رئيس المحافظين في إقليم ايسوريا في بلاد
أناطلى وقد تشرف بمصاهرة ليون الأكبر حيث تزوج بخته كما سبقت الاشارة
الى ذلك فلما مات ليون الأكبر وانتقلت القيصرية بالوراثه الى ليون ابنه وسبط
ليون الأكبر تولى المملكة بالكفالة عن ابنه ولما مات ابنه في حياته بعد عشرة
أشهر وكان لليون الأكبر زوجة نأيمت عنه طردت زينون من سرير الملك بعد
توليته عقب قتل عظيمة وقعت في سنة ١٤٧ وكانت هذه السنة آخر
الحكومة الاولى فنهز يمين القسطنطينية وعاد الى وطنه بأناطلى ثم عاد بعد
سنتين إلى القسطنطينية وتلقا القيصرية وهذه هي التولية الثانية في سنة
١٤٥ قبل الهجرة وكانت هذه الولاية بعناية محافظى إقليم ايسوريا وكان

في أثناء القتر بين الحكومة الاولى والثانية قد قلداً رباب الفتنة القيصرية
لباسلقوس الخارجى اذ كان زنون ليس أهلاً لحياة الدولة ولالتدبيرها وانما
كان ناصراً لدين النصرانية فان زنون قيصر هو الذى أثبت وحده الامانة
النصرانية لاصداره أمر يسمى جمع القانوليقية واتحادهم ومع ذلك فلم ينشأ
عن هذا الاختلاف في الدين وكثرة الفتن والمحن ثم ان هذا القيصر قد توصل
الى اسكانها وتصير على أعدائه المراتر العديدة نصراموثلا الا انه أعقب ذلك
بارتكاب الظلم والجور ومجاوزة الحدود في الطغيان وكان قد أعان القوطية
على الظفر وعلى رجوعه قيصر كما كان فلم يقابلهم في تطير صنع الجبل
الابجر بهم الحرب الويل كما قهر أصحاب الفتن من أمراته بالانصار عليهم فبعد
أن عتله الامور بالنصرة انهمك على اللذات والشهوات والفسق والعصيان
زيادة على العسف والجور فصار مبعوضاً عند كافة الاهالى وكان عاقبة أمره
انه دفن حياً حاله سكره بمواساة زوجته وذلك في سنة ١٣١ قبل الهجرة حتى
صار ينطبق عليه ما قيل في وصف بعض الظلمة المتعسفين من قول الواصف والله
ما الذئب في الغنم بالقياس اليه الامن المصلحين ولا السوس في الصوف زمن
الصيف الامن العادلين ولا يزدجرد الاثيم في أهل فارس بالاضافة اليه الامن
النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ولا فرعون في بني اسرائيل اذا قابله
به الامن الملائكة المقربين وبالجملة فهذا الشيطان المريد سلك على سرير
الروم نظير ما سلكه فيما بعد على سرير الخلافة الوليد بن يزيد فقد كان فيما يحكى
عنه مما جازىه يقامسته زنا مستخفاه مستهيناً بالخاصة والعامة مدمناً للخمر
متلاهما باللهو واللعب مصرعاً على ارتكاب القواحش مشتغلاً بجفلا عنه عن
النظر في أمور الخلافة والقيام بحقوقها وأحوال الرعية

مضى الخلق بالامر الجيد * وأصبحت المنعة للوليد

تشاغل عن رعيته بلهو * وخالف قول ذى الرأى السيد

ويبلغ من تهكم الوليد للشرعية أن قال في شعره

يا أيها السائل عن ديننا * نحن على دين أبي شاكر

نشرها صرفاً ومزوجة * بالسنن والبارد والغاز

وبالجملة نحن طال عدوانه زال سلطانه فبقتل هذا القيصر خلقه أنسطاش

(الفصل السابع)

* (في الملك أنسطاس قيصر الاول) *

تولى المملكة في سنة ١٢١ وبنى حكمه الى سنة ١٠٤ قبل الهجرة
فكانت مدة حكمه سبعا وعشرين سنة

نشأ هذا القيصر عديّة من مدن سواحل ايطاليا المسماة ايليريا وكان من
عائلة خاملة وقيل تقليده بالنصب القيصري وكان من جملة ضباط القصر
الماوكي المنوطين بمناظرة عدم رفع الصوت والغوغاه وتسكيت العامة والراهم
الصمت بالقصر الماوكي فلذلك كان يقب بالمسكت ثم تزوج بالقيصرة أريانه أيم
القيصر زينون فسعت في ترقية المسند القيصري وأمرت المجلس الروماني
باتقاضيّه وكان في مبداء ولايته محترما لآبائه وعده ثم سلك مسلك الجور والتظلم
والشح والجهل فصار مبغوضا وكان قبل التولية حاقدا على بطرقيّة انطاكية
وكان يريد الهجوم عليها فسد عن ذلك بالولاية فلما تمكن من القيصريّة وجار
اجتهد في الايقاع بالقانونيّة لمساعدة الهراطقة المخالفين فعرزل مقدنيوس
بطرق القانونيّة وكان اذذاك قد عصى على هذا القيصر أمير من الامراء
يسمى ويطاليانوس متعللا بالانتصار بالقانونيّة وجع الجوع وأوقع القتلى
وأثار الحن وحضر بعسكره امام القسطنطينيّة ونصب نفسه محاميا عن
المذهب القانوني الذي تعرض له أنسطاس بالتعذيب وفي الحقيقة كان
غرض ويطاليانوس من ذلك انما هو تطلب المملكة

مات هذا القيصر في سنة ١٠٤ قبل الهجرة وتولى بعده يوستينيوس
وقد أعقب هذه الفتى في أيامه نحو بعض مكوس وعوائد قبيحة وأنواع من
الظلم فظيعة كبيع المناصب والرتب لمشتريها ولكن من باب مكره أخاك
لا بطل

(الفصل الثامن)

* (في الملك يوستينيوس قيصر الاكبر ويسمى جوستينيوس الاول) *

تولى هذا القيصر في سنة ١٠٤ وبقى الى سنة ٩٠ قبل الهجرة فكانت
مدته حكمه تسع سنين

تقلد هذا القيصر حكومة المشرق بعد ان سطا في الاقل وهو اول الدولة
المشرقية المسماة الجوسطيانوسية وأصل مولده في بلاد روم ايلي وكان في
مبدأ أمره راعيا للماشية ثم انتظم في الجند وارتقى المناصب السامية في
خدا مقلوبن الاكبر ثم صعد على السرى القيصري بالتصلي والجداع بعدموت
أنسطاش وذلك في حكمه سبيل العدل والانصاف وأسكن القن الدينية
مؤقتا ثم وقعت في أيامه قسنة عظيمة بين فرقتين من النصارى احدهما تنسجى
الملة الخضرى والاخرى الملة الزرقاء فالتاس من قديم الزمان ما بين قيسى
وعيماني وهلالى وزغبى وسعدو حرام في جميع البلاد حتى ان مصر في القرن
الحادى عشر كانت الحكومة فيها منقسمة الى رايتين راية الفقارية كانت
بيضاء وراية القاسمية كانت حمراء ومثل هذا الانقسام أقوى دليل على
الشقاق والخلاف وعدم الالتئام منشأ الآلام

ولما كان هذا القيصر خسيس العشيرة وليس من أهل الحسب والتسب كان
مكثه على الملك يستدعى قتل أرباب التتق والشرو ولحمها وراحتنه من
أخصامه وكان رأس القسنة ويطالمانوس قتلته القيصر حسم للقسنة ثم ان
طوائف اللاط كانوا يدفعون الخراج لكسرى فارس وكان القيصر الروم حتى
الاستعراء عليهم فكانت تطلب الروم انقياد اللاط لهم فسعت الروم في ذلك
ودخلت طائفة اللاط في حكم القسطنطينية فكان هذا سبب الانقسام الصلح
بين فارس والروم وتصادف موت القيصر يوسطيانوس عقب ذلك ودخول
المملكة الرومية في قبضة ابن أخيه يوسطيانوس فغارب القرس كما سياتى
وكان موت يوسطيانوس في سنة ٩٥ قبل الهجرة وكان هذا القيصر
أشرك في المملكة معه ابن أخيه في حياته فتولاها بعده

(الفصل التاسع)

(في الملك يوسطيانوس قيصر الاقل)

تولى هذا القيصر المملكة في سنة ٩٥ وبقى الى سنة ٥٧ قبل الهجرة
فمدته حكمه كانت ثمانية وثلاثين سنة

ولهذا القيصري مدينة طرسيس واشتهرت مدة حكمه بعدة أشيا منها
المجالات الدينية التي ترتب عليها تميز الأحزاب الحضراء والزرقاء والغزوات
التي غزاها قائداه بليسيرس والطواشي نريسي مع قوطبة ايطاليا وندالية
أفريقية كما اشتهرت سلطونه بالانتماء الى كسرى فارس وكما اشتهرت سياسته
بترتيب الاحكام السياسية وتهذيب القوانين المالية وقد اشتغل أيضا
باصلاح الامور الدينية وتنقيح العقائد المسيحية وكان متعصباً في دينه صاحب
غيره وجمية فكانت حجة أقوى من معارفه

وقد تزوج بزوجة بدعية الجمال قليلة العفة والصيانة غير محرمة على صفات
الكمال تسمى طمودورده فكانت لها على قلبه كمال السلطنة والولاء لا يكاد
يحالفها استيلائها على قواده

واذا الحبيب أتى بذنب واحد • جاءت محاسنه بألف شفيع

فكانت سبباً لتوليت أيام حكمه ونديس عهد ولايته والقدح في وصفه وورعه
وقد تحارب مع كسرى قباد ملك الفرس وكان منشأ ذلك أن كسرى قباد أغار
على الرومانيين وهم ينون حصاراً في طريق مدينة داواقرياً منها فبادر
بليسيرس نائب المشرق من طرف هذا القيصري لصون هذا الحصن وبما منع عنه
ويخلصه من يد الفرس ويدفعهم عنه فدار الحرب بين الفريقين فاتصر أمير
الروم نصرته عظيمة على الفرس فكانت سبباً في رفعة شأنه وعلو صيته فمجرد
هزيمة أهل فارس وجه الفرس جندهم صوب ارمينية وكانت منقسمة بين
الروم والفرس وقرية من الشام فصار الروم يخشون على بلاد الشام من أهل
فارس يقول بليسيرس جنده صوب انطاكية لقتالهم هناك وقد حاصروا هذه
المدينة ولم يتصر أمير الروم في هذه الواقعة ولا ظهر على خصمه الا أنه اتقذ
بلاد الشام وقاعدتها التي هي انطاكية من تغلب الفرس عليها ولا يمكن
يزالوا محاصرين لها

ثم بعث القيصري قائده سيطاس بدلا عن بليسيرس فلم يستطع أن يرفع الحصار
عن تلك المدينة في أيام قباد المذكور مع أن قباد بن فيروز المذكور كان
ضعيفاً مهيناً عند الفرس لعدم استقامته ديناً ودنياً فانه لما مات أبوه فيروز
بعد أن حكم سبعاً وعشرين سنة وخلف ابنه قباد وبلاش تنازعا في الملك

فغلب بلاش على أخيه وكان حسن السيرة الى أن هلك بعد أربع سنين وكان
قبلاً قد سار الى خاقان الترك يستقدمه على أخيه فطله في ذلك هذه المدة ثم وجه
معه جيشاً فلما قدم المدائن بالجيش وجد أخاه قد هلك فمكث قبلاً على فارس
وفي أيامه ظهر مزدق الزنديق ومعنى مزدق جديده الملك واليه تنسب المزدقية
ادعى النبوة وأمر الناس بالتساوي في الاموال وأن يشتروا في النساء لانهم
اخوة لاب وآم آدم وحواء ومذهبه قريب من مذهب القرامطة في أيام الخلفاء
ومن مذهب سفيهمون الجديدي فرأنا القاتل يمثل ما قال مزدق الا أنه يزيد
عليه التعريض على تقديم المنافع العمومية من زراعة وصناعة وتجارة
للبراعة الوطنية فكل زمان عرضة لخروج أرباب الضلالات من شياطين
الانس على اختلاف الجففس ولم يبيع سفيهمون جهود كثير من القرناسوية ولم
ينل في هذه الخريجة الضخمة مد مزدق ولا نصيفه فان مزدق بمجرد ظهوره
في فارس دخل قبلاً في دينه فشق ذلك على الناس وعظم عليهم وأجمعوا على
خلع قبلاً وانضم الى مزدق جماعة وقالوا نحن نقسم الناس وزد على الفقراء
حقوقهم من الاغنياء فكانوا يدخلون على الرجل فيقتلونه على أمواله ونسائه
فوثب رجل من الاشراف يعرف بابن ساجور في جماعة من أصحابه على مزدق
فقتله ولم يتبق ناحية الا خرج منها خارج يدعو الناس الى مذهب مزدق فذهب
الى الحيرة دعا مزدق وكان عليها المنذرين ماء السم فلم يوافق على الدخول
في دين مزدق فطرده قبلاً وولى مكانه الحرث بن عمرو بن حجر الكندي حيث
وافقه على دين مزدق فعظم شأن الحرث بذلك فحلف ابنه حجر على بني أسد وبني
خزيمة وملك باقي بنيه على سائر العرب وامر القيس الشاعر المشهور هو ابن
حجر بن الحرث هذا ثم ان كسرى أنوشروان لما تولى ملك فارس أعاد المنذر
ابن ماء السماء وطرد الحرث وقتل بنو أسد وبيعة حجر أبا امرئ القيس
وزالت دولة الكنديين وبقي منهم امرئ القيس الشاعر يحاول أخذ نار أبيه
والملك فغلبوا قبلاً وولوا مكانه أخاه جاماسب بن قنبر وزولق قبلاً بالهياطلة
وهم أهل البلاد التي بين خراسان وبين الترك وهي بلاد طخارستان فأنجدوه
واتصروا على أخيه جاماسب وجبسه واستمر قبلاً في الملك وحارب الرومانيين
وحاصر افلاكية وبقيت في حصار حتى داه الى أن قتله العرب في مدينة الري

وقول بعدد ابنه كسرى أنوشروان العادل في نحو واحد سنة ٩٠ قبل
الهجرة قيتوليته على فارس تغيرت أحوال ديوان فارس بالمداين
وذلك أنه لما جلس على سرير الملك كان صغيرا فقال لأصحابه اني عاهدت الله ان
صار الملك الى أن أعيد آل المنذر الى الحيرة فاني وان أقسل طائفة المزدقية
الذين أفسدوا في أموال الناس ونفائهم وكان خليفة المزدقة فاعثما الى
جانب السري فقال هل تقتل الناس جميعا هذا فساد في الارض والله قد ولاك
لتصلح لا لتفسد فذكر أنوشروان خليفة المزدقة معاينه الفاضحة وأمر بقتله
فقتل بين يديه وأخرج وأحرق جثته وأمر بقتل نوابه فقتل منهم خلق كثير
وأثبت ملته الجوسية القديمة وكتب بذلك الى أصحاب الولايات وقوى جنده
بالاسلحة والكرار وعمر البلاد وقسم أموال الزنادقة على الفقراء ورد الأموال
التي لها أصحاب الى أصحابها وأجرى الارزاق للضعيفات اللاتي ماتت عنهن
أزواجهن وأمر أن يزوجهن من مال كسرى وكذلك فعل بالبنات اللاتي لم يوجد
لهن أب وأما البنون الذين لم يوجد لهم أب فأضافهم الى عماليكه ورد المنذر الى
الحيرة وطرده الحرث بن جريحدا امرئ القيس عنها وكان الحرث من ذرية قيس
عن ذلك قتل جحرزوال دولة الكنديين وما جرى لامرئ القيس بعد قتل
أبيه كان في عهد بوسطنيانوس الاول المذكور وبيان قصة امرئ القيس
أن أباه حجرا كان قد طرده لما هوى ابنة عمه فاطمة الملقبة بعنزة وكان له معها
يوم بدارة جليل فقال معلقته التي أولها * قفابك من ذكرى حبيب ومنزل
فلما بلغ ذلك حجرا أباه دعا مولى يقال له ربيعة فقال له اقتل امرأ القيس وأخ
بعينه فذبح جو ذرا وأتى بعينه الى أبيه فقدم حجرا على ذلك فقال ربيعة أيت
اللعن اني لم أقتله قال فأتني به فأنطلق فاذا هو في رأس جبل وهو يقول
فلاتتركني يارب لعنه * وكنت تراني قبلها بك واتقا
فردا الى أبيه ثم قال قصيدته المشهورة التي مطلعها
الاعم صباحا أيها الطلل البالي * وهل يعمن من كان في العصر الخالي
وهل يعمن الاسعد مخلد * قليل الهموم ما ييت بأوجال
وفيها يقول

ولو أن ما أسعى لادنى معيشة * كفا في ولم أطلب قليل من المال

ولكنما أسى لجد مؤثّل • وقد يدرك الجهد المؤثّل أمثالي

وكان أبوه قتلها عن قول الشعر والغزل بما يفضح قلبا بلغه ذلك طرد مويقي
مطرودا حتى قتلت بنو أسد أباه فبلغه قتل أبيه وهو يجيل دمونه في أرض
العين فتش ثيابه وحزن عليه وحلف لا يشرب خرا ولا يغسل رأسه حتى يدرك
بثأره ثم انه استعبد بكر وتغلب على بني أسد فأنجدوه ثم هربت بنو أسد وتبعهم
فلم ينظر بهم فوضع السلاح في كنانة وهم بنو عهم حيث لجأ اليهم بنو أسد
ونادى امرؤ القيس بالثارات الملك فقالت له عوز لسانك بثأرا فطلب ثأرك
فاستقر على وضع السلاح في كنانة فقاؤه وقيل أدركهم وقد تقطعت خيله
وكرثرت القتلى والجرحى وحجز الليل بينهم وهربت بنو أسد فأبى بكر وتغلب
أن يتبعوهم وقالوا قد أصبت ثأرك فقال ما أصبت من كاهل ولا أسد أحدا
وكاهل من كنانة وهذا معنى قوله في قصيدة نونية

ألا بالهف هند اترقوم • همو كانوا الشفا غم يصابوا

يعنى يحق هند أى أخته أن تسلف على عدم ادراك بني أسد وأخذ الثأر منهم
وقوله من قصيدة أخرى

وأنت لا يذهب شفي بطلا • حتى أيد مالكا وكاهلا

ومالك وكاهل حيان من بني أسد وبعده

خير مع حسابا وثلا • القاتلين الملك الحلالا

والحلال السيد الشريف وبعده

بالهف هند اذ خلتن كاهلا • نحن جلبنا القرح القوافلا

والقرح هى الخيل والقوافل الضامرة منها ومع تحاذل بكر وتغلب عنه فقد
طلبه المنذرين ماء السماء فتقرقت جوع امرؤ القيس خوفا من المنذر
ولما رأى ضعف أمره وطلب القوم له ذهب يستنصر قبائل العرب قبيلة قبيلة
فلم ينصروه وقصد السموأل بن عادي اليهودى فأكرمه وأقام عنده مدة ثم صار
الى يوسطانيوس قيصر الروم وأودع أذراعه عند السموأل وأنشد في مسيره
قصيدته المشهورة التى فيها

بكى صاحبي لما رأى الدبيب دونه • وأيقن أن لا احقان بقيصرا

فقلت له لا بك عينك انما • فحاول ملكا ونغوت فتعذرا

ومات امرؤ القيس في عود من عند قيسر في بلاد الروم عند جبل يقال له
عيب بقرية مدينة أقره بالروم وأنشد عندما أيقن بالموت بجانب قبر أخيه
بدفن امرأة غريبة فيه.

أجارتنا أن الخطوب تنوب * وإني مقيم ما أقام عيب
أجارتنا أنا غريبان ههنا * وكل غريب للغريب نيب
قبل أن قيسر سمع في حلة مسجومة الزيق وهو بعيد وأبعث منه أن السبب
اطلاع القيسر على عشقه لابقته وتطمه قصيدته التي مطلعها

* الأعم صباحاً أيها الطلل البالي * وقلم سبق أنه قالها بعد اجتماعه بأبيه ولعل
من قال أنه أنشدها عند قيسر في ذلك على قوله فيها ولو أنما أسعى البيتين
السائقين ولا دلائف فيها على ذلك لاحتمال أنه بعد زوال ملك أبيه عن الحيرة
كان يطلب الملك ويسعى في الحصول عليه ولا معنى لذهاب ابن ملك
من ملوك العرب إلى قيسر الروم لتطلب الملك والتثبت من القيسر عما يخذل
جاره

لجاء الحرث بن أبي شعر الغساني في بعض غاراته إلى الأبلق وهو حصن السموأل
ابن عاديلاً أخذ مال امرئ القيس المودع في هذا الحصن فقصص السموأل
منه وكان له ابن يافع خرج إلى قنس له فلما رجع أخذه الحرث ثم قال السموأل
أعرف هذا قال نعم هذا ابني فقال أقسم ما قبلك لا امرئ القيس أو أقتله قال
شأنك به فليست أخفزد حتى ولا أسلم مال جاري فضرب الحرث وسط الغلام
فقطعه قطعتين وانصرف عنه فقال السموأل في ذلك

وفيت بأدرع الكندي أتى * إذا ما ذم أقوام وفيت

وأوصى عاديلاً يوماً بأن لا * تهتم بامموأل ما بنيت

بني عاديلاً حصناً حصينا * وبئرا كلما شئت استقيت

وقد قلنا أن كسرى أوشروان أعاد المنذر بن ماء السماء إلى الحيرة ونقول
أنه ملك بعده ابنه عمر ومضرت الحجارة ومن ولد ولده المنذر بن النعمان بن
المنذر بن ماء السماء الذي أخذ الحيرة منه خالد بن الوليد وكانت المناذرة إلى
نصر بن دبيعة عمال لا كاسرة على عرب العراق مثل ما كانت ملوك غسان
عمالاً للقبصرة على عرب الشام

وأصل غسان من بني الازد من ولد كهلان بن سبا فترقوا من اليمن لسبل الحرم
ونزلوا على ماء بالشأم يقال لغسان فسموا به وأخرجوا عربا كانت قبلهم من
الشأم يقال لهم النضاعة وكان ابتدا ملك غسان قبل الاسلام بميزيد على
أربع مائة سنة في نحو أيام الملك الاسكندر سويرس قيصر الثاني

وأول من ملك منهم جفنة بن عمرو بن ثعلبة من ولد من يقبأ ودانته قضاة
وتنقل الملك في أبنائه وآخرهم جيلة بن الایهم الذي تنصرف في زمن عرب بن
الخطاب رضى الله عنه بعد اسلامه على يده ولحق بقيصر الروم ويقال هو جد
الارنؤود الجليل المعروف بالروم لانه لما ارتد وهرب لحق بقيصر قنشب
أولاده وهم الذين يسمونهم بالارنؤود يلاذ الروم وقيل بعض منهم ذهب الى
جبال قوقاسه وهي جبال الجركس حين فتح القسطنطينية بالاسلام

ثم سار أنوشروان الى الهياطلة مطالباً بدم فيروز فقتل ملكهم وخلقاً كثيراً من
أصحابه وتجاوز بلغ وما وراءها وأرسل جيشاً الى اليمن فطردوا الحبشة عنها
وفي عهد انوليسه التمس منه يوسطانياس الاول قيصر القسطنطينية رفع الحصار
عن انطاكية وعقد الصلح بين فارس والروم وكان كسرى مشغولاً بأمور
ملكه الداخلية فرضى بالصلح وعقد مع القيصر شروط المحبة الدائمة والسلام
المستمر وفي الحقيقة لم يكن هذا الصلح الا مجرد مهادنة ومتاركة وقد هاب
أنوشروان المذكور الملوك وهادوم بالهدايا السنية وكان فيمن ورد عليه رسول
ملك الروم قيصر يهدايا ويصفى فخطر الى ايوانه وحسن بئانه فرأى اعوجاجاً في
ميزانه فسئل عن سبب ذلك فقيل ان عجوزاً الهامزلة في جانب الاعوجاج وان
الملك وغها في الثمن فأبت ولم يكرهها وبقى الاعوجاج من ذلك على ما ترى
فقال الرومي هذا الاعوجاج أحسن من الاستواء

وتطير هذا وقع في الاسلام في جامع عمرو بن العاصم رضى الله عنه اذ كان لهجوز
يت بعلم المسجد فأبت بيعه فكتب الى عمرو رضى الله عنه فأمره بعدم
اكرامها على بيعه

ولاربع وعشرين سنة خلت من ملكه ولد عبد الله بن عبد المطلب أبو النبي
صلى الله عليه وسلم فكانت ولادته في عهد يوسطانيوس قيصر الروم وكذلك
ولد النبي صلى الله عليه وسلم في السنة الثانية والاربعين من ملكه وفي عهد

يوسطانيوس الثاني قيصر الروم وكفى بعدل كسرى أنوشروان شهادة النبي
صلى الله عليه وسلم في حقه حيث قال ولدت في زمن الملك العادل كسرى
أنوشروان فإنه كان ملكاً عادلاً عادلاً معاً لمهيباً محباً للرعية وله أفعال حسنة
وآثار جسيمة وكان يسمى كسرى الخير وكان وزيره بزرجمهر الحكيم وكانت
مدة ملكه ثمانياً وأربعين سنة وقيل دون ذلك

كيف ترجون الزمان بقاء • والمنيا تحول بين الاماني

لوتجمن يد الردى دون غار • خلد العدل صاحب الايوان

وقد أعاد أنوشروان ملك سيف بن ذي يزن عليه و قتل ملك الحبشة مسروق بن
أبرهة الأشرم صاحب القبيل وكان سيف بن ذي يزن الجعري سار إلى كسرى
المذكور فجهز معه أحد مقتدى الفرس فطرد الحبشة وملك سيف بن ذي يزن
ملك أجده ثم استقرت عمال كسرى على العين إلى أن كان آخرهم بإذان الفتي
أسلم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم

وأما يوسطانيوس فإنه لما كان مهتماً بحفظ حقوق دولة الروم وصيانة ولاياتها
والخوف عليها من التمزق وكان قد عقد الصلح مع فارس شرع في الحروب مع
الواندال في أفريقية يعني قبائل الاندلسية فكان ابتداء حروبه معهم في نحو
سنة ٨٩ قبل الهجرة ومكثت الحروب سنة واحدة حيث صمم القيصر أن
يعيد دولة الروم بالقسطنطينية الإقليم المسلوقة منها التي استولت عليها قبائل
الواندال المذكورون فوجه من أقوال الأمر جنده إلى أفريقية وكانت تلك
القبائل قد استعالت شجعانها إلى الجبن والقنور حيث داخلهم الميل إلى
الزينة المشرقية والتعلق بالترف والارتخاء لتعودهم على ذلك بالبلاد المشرقية
ثم جالوا في الأقطار المغربية بعد ذلك فكانوا قد فقدوا النخوة والشهامة فكان
يسهل على من اتصف بالشجاعة مثل الروم أن يتغلب على بلادهم في أقرب
وقت فرسك بليسير من السفن الرومية وسار إلى قرطاجة لمرب الواندال
فقتلهم واتصر عليهم واستولى على المدينة وأخذ ملك الواندال أسيراتهم طلبه
ديوان القسطنطينية ليحضر هناك فسار إليها ودخل المدينة بموكب النصر
الحافل فكان ملك الواندال في زفاف هذا الموكب تحفقه من الصف الموكبية
بقاديين الأسرى الواندالية في وسط الغنائم المكتسبة يتفرج عليه المتفرجون

ثم سار الامير بليسيوس الى جزيرة سرديا لئلا يزعمها من قبضة الواندال فظهر
عليهم هناك واستولى على الجزيرة وتوحيدها من ملحقات قرطاجنة ومضافاتها
وفصلها من ولاية الواندال ولكن لم يستل أهل هذه الجزيرة المتأصلون للدخول
في زمرة الرومانيين ولا رضوا أن يكونوا رعية الروم وأبوا أن يدخلوا في دين
النصرانية حيث هم قبائل متبررون وعشائر متوحشون فأصر واعي العيصان
ولم يمتزجوا مع الروم وبقوا على جاهليتهم مقدمين الزمان فلم يتحدوا مع الروم
صحیح الاتحاد ولا تمتص كوابدين عيسى عليه السلام الا في أيام القيصر
موريقيوس المتولى في سنة ٤٠ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل
الصلاة وأزكى التحية

ثم شرع القيصر بوسطانيوس عقب الظهور على الواندال والفرار من حريمهم
في حرب الغوطية سنة ٨٨ قبل الهجرة فأمره الامير بليسيوس بفتح
ايطاليا وأخذها من يد الغوطية فاهتم هذا القائد بالاجتهاد في هذا الحرب
المهم وبذل جهده في ذلك ولم يكن له ثمة الا القائد زيسيس فهو الذي ظفر
بهؤلاء الاعداء وظهر عليهم

وكانت شوكة الغوطية في الاصل الاصيل قوية في ايطاليا يخشى من سطوتهم
وبأسهم ولكن في أيام هذا الحرب كانت قد شرعت في الضعف والتناقص
وذلك لان قوتهم الجسمية ومركز سطوتهم العظيمة كانت بملكية اسبانيا وكان
لهم ملوك أرباب تدابير قوية واحتياطات سياسية فتولى عليهم باسبانيا
ملك يدعى أطاناجلدوس كان قليل الخزم عديم التبصر وكان للغوطيين ملك
آخر على ايطاليا يسمى آجيلا وكان خصمه الملك اسبانيا فأظهر ملك اسبانيا الملك
ايطاليا الخصومة سنة ٧٠ قبل الهجرة ولم يكن كفؤا للحرب فاستغاث
أطاناجلدوس على خصمه ملك ايطاليا بالروم في تلك السنة فوجه الروم بعد
اتصارهم على ايطاليا البطريق ليريوس لتصرة اسبانيا فأخذ هذا البطريق
من غوطية اسبانيا مدينة بلنسية وقرطبة وسائر مدن اقليم الاندلس الشرقية
وأضيفت لدولة القسطنطينية ولا زال جزء من الاندلس في يد القسطنطينية
الى سنة ٢ بعد الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية
وفي سنة ٧٢ قبل الهجرة كان قد انتفض كسرى أنوشروان صليحه مع الروم

بأغراء الارمن والغوطية فكان هذا اميد الحرب آخر غير السابق فهمم القرم
على الشام وكانت مع الروم فطردهم بيليسيرس عنها ولكن كانت بلاد اللات
ومحاولها من بلاد البحر الاسود تابعة لقيصرية القسطنطينية فسلوا أنفسهم
لكسرى وخرجوا من تبعية الروم فاعتنم هذه القرصة كسرى أنوشروان
في تجديد سفن حربية على نفور البحر الاسود بواسطة مملكة بلاد اللات التي هي
على هذا البحر لاسيما وأن طاقعة اللات كانت تحسن الملاحة فبواسطتهم
كان يمكن لا كسرة فارس أن يوسعوا دائرة سقنهم الحربية وأن يسيروا في
جهات البحر الايض ويجولوا فيه بواسطة العبور من خليج القسطنطينية
اليه

فلما استشعرت طاقعة اللات ومن جاورها من أهالي ساحل البحر الاسود أن
دولة فارس تريد استخدامهم في السفن البحرية وتبعنهم الى البلاد الاجنبية
وأنهم بهذا يكونون خارج أوطانهم ندموا على اتحاقهم بمملكة فارس
واجتهدوا في العود الى الاتحاق بالروم فالتصقوا بهم وصاروا من أتباعهم
ورعاياهم وأعادوا دولة القسطنطينية على طرد القرم من بلادهم في سنة ٦٧
قبل الهجرة ثم استقر الحرب بين فارس والروم وطال أمده حتى انتهى بصلح
سنة ستين قبل الهجرة الذي حصل الاتفاق فيه بين الطرفين على ترجيع
المملكتين الى حدودهما القديمة وإعادة ما حدث من الفتوحات الصادرة من
كل منهما الى أصله

وهو كان في سنة ٦٣ قبل الهجرة فدا تعهد البلغار بالعقابة الجنوبيين
واجتازوا نهر طونة في فصل الشتاء وكان منطلقا من عمدا وأغاروا على ولاية
روم ايلي التابعة للروم وكان قائدهم الجنود الصقلية المتبررة الامير زابرخان
وكان في ذلك العهد قد غضب قيصر الروم على قائده بيليسيرس وأخرجه من
الخدمة فكان معزولا منزويا في زوايا الاهمال وقد حصل للدولة الرومية غاية
الحيرة في دفع العقابة عن الاغارة فلما علم الامير بيليسيرس بأن المملكة في
خطب شديد استمال اليه الخفر الملوكي وكثيرا من الاهالي ممن جعلهم على حمل
السلح وحارب هؤلاء القبائل وغالبهم وطردهم صوب نهر طونة فبهذا ظهرت
دولة القسطنطينية عليهم بشهامة قائدها المعزول

وبالمجمله فأكثر فخر يوسطيانوس قيصرا عما عرف في عمليات التنظيم والترتيب
وتقنين القوانين وتنظيم اللوائح الادارية والاحكام السياسية فقد أحال على
بحينة من أهل المعارف استنباط القضايا المتنوعة والاحكام المتأصلة
والمتمفرعة باستقصائها واستقرائهم واستخراجها من الكتب الرومانية
وتنقيحها فصار الحصول على ذلك في أقرب وقت وزمان واستبان من هذه
المجاميع القانونية أن مداربها وقوام فروعها على أن قيصرا روم حاكم
مختار متصرف في تنفيذ أغراضه السياسية كما يشاء ويختار فهذا جل
منطوقها وغالب مصدوقها

وكان موت يوسطيانوس في سنة ٥٧ قبل الهجرة وأما الامير يليسيرس
الذي كان مدارق طبرحا الحروب عليه فانه كان قد اتهم قبل موت القيصرا
بتهمة باطلة فقد ادعى عليه أخضامه بأنه مشر الفتنه على القيصرا ومقوم
للالهالى عليه فنجته القيصرا وصادره بسلب أمواله ولم يعش بعدها النكبة
الاسنين قلائل وبعد موت هذا القائد بعض شهور مات القيصرا كما سبق بعد أن
قضى زمن حكمه بفاية الفخار الملوكي والاعتبار السياسي ولم يلم من المثالب
الخصوصية ولا خلص من المصائب الدهرية فقد وقع في أيامه فتن عظيمة
ومحن جسيمة في ميدان القسطنطينية المسمى آن ميديانى أى ميدان الخليل
كما وقع في مدته طاعون سنة ٧٥ قبل الهجرة هلك فيه كثير من أهالى
أوروبا ووقع في مدته الزلازل الهائلة منها زلزال سنة ٦٥ قبل الهجرة
هدمت فيها مدن عظيمة فهذه الحوادث بانضمامها الى مصائب الحروب
وفوائد الخطوب كانت مانعة من استقامة مملكة روم بالقسطنطينية ومع
هذا فقد استقامت في أيامه المملكة كمال البهجة والروفق بالنسبة للعواض
الذاتية وقد كان يبحث عن تحسين أحوال مصر حتى انه تعاهد مع الحبشة
بمصد جلب التجارة الى الاسكندرية وانما كلف نائبه أهل الاسكندرية فوق
طاقتهم في الجرائم والمغارم وشدد عليهم كمال التشديد وكان يتنى من لا يتنى بدفع
المغارم الثقيلة وكان نرسيس أمير جنده قد تعدى على الاسكندرية وحرقها
بسبب امتناع أهل الحرف والصنائع وأعيان الناس ورعا عنهم من أن يقبلوا
البطرق طيودويسيس رئيسا على كتبهم ومع ذلك فصار عزل هذا البطرق

واستبدل بغيره ثم لما مات يوسطيناوس الاول في سنة ٥٧ • قبل الهجرة
خلقه أخوه يوسطينوس الثاني

(الفصل العاشر)

• (في الملك يوسطينوس الثاني قيصر الروم) •

تولى المملكة في سنة ٥٧ قبل الهجرة وبقي حكمه الى سنة ٤٤ فكانت
مدة حكمه ثلاث عشرة سنة كان لهذا القيصر في مبداء أمره من الاشغال
الحسنة والعمليات الجيدة ما رتضيه أرباب العقول الذكية وكان مستقيم
الحال والاطوار عادلا منصفاً أنسى باستقامته اعوجاج أسلافه وفرح به
الجميع وعذوه منه من الله على عباد من خفي الظافه فعما قريب تبدلت
أحواله وتغيرت أطواره فاشتغل بالذات والشهوات وجارو ظلم وترك تدبير
الحكومة لزوجه صوفية فتسبب عن قبضها على زمام الحكومة من
المصائب ما أقسد حال المملكة الرومية حتى نادى لسان حال الرعية بعنذر
عن السلف لما شاهد من قبح سياسة الخلف

فلنتك أرواحي اذا ما • بلوتسوا لنعاد انم جدا

ولم أجد لمن خير ولكن • رأيت سوا الشرا منك جدا

كضطر تحمي أكل ميت • فلما اضطر عاد اليه شهدا

وذلك لانه كما تقدم كان ركن الدولة الرومية أميراً يقال له نرسيس كان طواشياً
نشأ يلا د فارس وارتقى المراتب العلية في أيام يوسطيناوس وكان مدبراً
للمملكة ساعياً في إدارة الصلح والحرب وكان ملاحظاً للحكومة الدولة
ومساعد على نصرتها فولى رئاسة جيش حرب ايطاليا فلما تولى يوسطينوس
الثاني قيصراً احتدت عليه القيصرة صوفية وسعت به عند القيصر حتى
غضب عليه وعزله فبعزله سهل على أعداء الحكومة الهجوم عليها بالقرب
من هذا الزمن قدمت رسل خان التتار الهبارة على القسطنطينية لعقد
معاهدة مع دولتها فرفض يوسطينوس عقد المعاهدة مع خان هؤلاء التتار
ولم يرض بالشروط المعروضة عليه وأظهر التعاضم والابهة عليهم وعقد مع خان
التركان معاهدة حيث فتحها معه على مناصرته على كسرى فارس وكانت

اذذلحخالفةالتركانتؤذن بفتح باب التجارة والمعاملة والمخالطة في وسط
بلادالمشرقيةمع الدولة الرومية فلما انتصب الحرب بين يوسطينوس قيصر
الروم وأنوشروان كسرى فارس لتنازعهما على بلادأرمنية الفارسية أعار
أهل فارس على بلاد الروم وتصادف موت كل من كسرى وقيصرفي هذه المدة
فانقطع الحرب مؤقتا وتأخر لوقت آخر

ولمات كسرى أنوشروان فولى بعده ابنه هرمز بن أنوشروان وسأني ذكره
في الفصل الآتي وانما نقول هنا انه يوم ملك نطق بالحكم في مقالة مطلعها الحلم
عماد الملك والعقل عماد الدين والرفق ملاك الامور والقطنة ملاك الفكرة
أيها الناس ان الله خصنا بالملك وعكم بالعبودية وكرم ملكتنا فاعتقكم بها
من عبوديتنا وأعزنا وأعزكم بعزنا وقلدنا الحكومة فحكمكم وقلدكم الانقياد
لامرنا وقد أصبحتم فرتين احداهما أهل قوة والآخرى أهل ضعة فلا
يستأكلن منكم قوى ضعيفا ولا يفش ضعيف قويا ولا تسوطن نفس أحدهم
الغلبة الى ضمير أحدهم أهل الضعة فان في ذلك وهنا الملكا ولا يرومن أحدهم
أهل الضعة الاخذ بماخذ الغلبة فان في ذلك اقتدار ما نصب نظامه وزوال
ما نحاول قوامه وفوت ما يمحاول دركه واعلموا أيها الناس أن حاجتكم البنا
في نفس حاجتنا اليكم وحاجتنا اليكم هي مسد لحاجتكم البنا وان الثقل
ما أنتم منزلوهمنا من أموركم خفيف والخفيف مما نحن مجشوكم ثقل ليجزكم
عما نحن مضطاعون واضطاعنا لما أنتم عنه عاجزون وانما نحمدون حسن
ملكتنا اناكم وفضل سیرتنا فيكم اذا حسمتم أنفسكم عما نهيناكم عنه ولزمت
ما أمرناكم به ملبوا بين الامور المتشابهات وأنزلوها منا زلها ولا تسعوا التسك
رياء ولا الرياء مراقبة ولا الشر شجاعة ولا الظلم حزم ولا الرحمة نفقة ولا
الصنع عفا ولا الاخذ بالفضل ذلا ولا العماية غفلة ولا العذر ضرورة ولا
الورع اجتهاد ولا الخيانة غش ولا القصد تغير ولا البخل اقتصاد ولا الزهو
مروءة ولا التواني تؤدة ولا الحياء مهانة ولا السفه صرامة ولا العجب كالا ولا
مالا يكون كائنا ولا كائنا مالا يكون ولا المعاربة مفاصلة أيها الناس اجتنبوا
المردولات من هذه الامور المتشابهات وثابروا على ما تحفظون به عندنا فان
وقوفكم عند أمرنا منجاة لكم من سخطنا وتسكيبكم معصيتنا سلامة لكم من

عقابنا فاما العدل الذي نحن عليه مقتصرون وبه نصلح وتصلحون فانتم فيه عندنا مستورون وستعرفون ذلك اذا رفعنا أهل القوة عن أهل الضعة مرتبة لا يستوجبها الا المستحق منهم الجباة والشرق الفجدة توجد عنده أوبلاء حسن يظهر منه واعلموا أيها الناس أننا نأمر بكون سوطنا وسبقنا ومستمعنا وما بتبت وحسن روية فمين نغمس نعمتنا وخالف أمرنا وحاول ما نهينا عنه فانا لا نكاد نصلح رعايانا ونضبط أمرنا والآن تشكل بين خالف أمرنا وتعدى سيرتنا وسعى في قساد سلطتنا فلا يعظم أحد في رخصة منا ولا ترجون هواده عندنا فانا غير مداهنين في حق الله الذي قلدنا فوطنوا أنفسكم على الطاعة أو المجازاة فانظر الى هذا الملك الذي قلبه على رعيته وأما يوسطينوس الثاني قيصر الروم الذي قسا قلبه على رعاياه فانه قد أصيب قبل موته بالخيل في عقله وكان قبل اختلاله بنى طيبروس قسطنطين رئيس الخفر القيصري فلما مات هذا القيصر في سنة ٤٤ قبل الهجرة خلقه طيبروس الذي كان يبناء حيث جعلته على ذلك زوجته صوفية وعلى الوصاية له بالقصرية

(الفصل الحادى عشر)

(في الملك طيبروس قسطنطين)

تولى قيصرا على القسطنطينية في سنة ٤٤ قبل الهجرة وبني حكمه الى سنة ٤٠ فكانت مدة حكمه أربع سنوات

لما دعت صوفية زوجها يوسطينوس لتبنى طيبروس والوصاية له بالقصرية بعده لبي دعوتها وتبناه وعهد اليه بالملكة وكان الحامل لصوفية على ذلك قصد التزويج به بعدموت القيصر فلما ولي طيبروس المملكة أعرض عن التزويج بها وتمادى على اعراضه فلما أيست من ذلك وأمارت عليه الفتى والشرور عرضت الجنود على خلعه ولم تقفر بمرامها وأما القيصر فقد عاملها بما يليق بذاته الملوكة من سلوة وسيل الحلم معها والصبر عن جانيها وكان هذا القيصرا هلا نصبه الذي عهد به اليه سلفه فقتل بدين النصرانية أشد التمسك ولما رأى أن مصر تميل الى مذهب اليعاقبة بذل جهده في تثبيت هذا المذهب فيها واجتهد في أن يجعل ذلك المذهب عند جميع نصارى مصر ومواليا

وأيد كنيسة البعاقبة وجعلها راحة القدم كما هي عليه في هذا العهد
وقد سبق أن سلف هذا القيص كان قد ناوى فارس على الحرب معهم وأن
الحرب تأخر بموته وموت أنوشروان فلما تولى طيبروس جدد حرب فارس مع
هرمز بن أنوشروان

وذلك أن هرمز بن أنوشروان كان عاددا عاقلا كآبيه وكان يأخذ للوضع من
الشريف وبالغ في ذلك حتى بغضه خواصه وكان اصطنع صندوقا ليلقى المتظلم
قصته فيه وكان يفتح الصندوق بجناحه لتلايصل اليه أيدي بطائنه ومرزبانته
ثم أمر باتخاذ سلسلة من الطريق نافذة الى مكانه وجعل فيها أجراسا وكان
المتظلم يجيء فيحرك السلسلة فيعلم به ويتقدم باحضاره وإزالة ظلامته ولعل
الظلم كان قليلا في أيامه أو أن نص هذه السلسلة من مبالغة المؤرخين والاولو
كانت هذه السلسلة في الدول الاسيرة لا تعلق الملوك وأحرمتهم الراحة وكان
هذا القيص مهيبا محسنا للسياسة جوادا مضى من ملكه عشرين سنين ولم يتحرك
أحد من ولاته ورعاياه بحركة افتتانية لأن أباه كان مهذا الملك وسخر الرعية وانما
خرج عليه عدة أعداء من الخارج منهم طيبروس وهو ملك الروم في ثمانين
ألف فارس فأتى جند طيبروس على جند فارس النصرات العديدة ولكن
لم يزل جند فارس يدمن الحرب والروم تسعى في عمل الصلح مع الفرس كال
السعي بدون أن تتمكن من ذلك ولا زال الحرب مستمرة الى تولية موريقيوس
قيصر كاسيا في فصله

وكذلك قد طرد طيبروس تار الهبارة الايفورية من بلاده وأبعدهم الى بلاد
البحار والافلاق والبغدان وكان يفتنى الروم أن تكون أيام دولة هذا القيص
ذات بهجة ورونق طويلة المدة لظهور سطوة الروم وتعظيم شوكتهم فاخترته
المنية في سنة ٤٠ قبل الهجرة وفاتهم به بلوغ الامنية فكان لسان حاله
ينشد

رجعت اليه بعد تجرب غيره * فكان كبره بعد طول من السقم
وسكان من قوادجوشه الذين نصره على الفرس أمير يحيى موريقيوس
كان قد كافأه الملك في نظير خدمته ومنفعته بأن زوجه بته وعهد اليه بالملك
بعده

(الفصل الثاني عشر)

(في الملك موريقيوس قيصر ويسمى موريقيس ويسمى موريقيوس طبريوس)

تولى ملكة الروم بالقسطنطينية سنة ٤٠ قبل الهجرة وبقي ملكة الى سنة ٢٠ فكانت مدة حكمه عشرين سنة

هذا القيصر هو الذي القنصار العظيم بكونه أعاد الى سلطنة فارس أبرويز خسرو بن هرمز بعد ان كان فر منها عقب قسنة عظيمة ومحنة جسيمة يحتاج الحال الى بيانها ويتوقف تاريخ بعض القياصرة المتأخرين على ذكرها

وذلك ان هرمز لما خرج عليه قيصر الروم وملك الخزر وملك الترك وكلهم أعداء له يخشى منهم على ملكة فارس أحضر اليه قائده بملكة الري يقال له بهرام جويين ومعنى جويين اليا بئس الصلب وكان بهرام جويين مبارزا شجاعا طويلا أعجف كانه العود اليا بئس وأعد له لقتال أعدائه فن جملته من تقابل مع بهرام التركمان وهزمهم ونهب أموالهم وطردهم واستولى على بلاد جة وأرسل بذلك الى هرمز ثم بعد ذلك خاف هرمز على ملكه من بهرام جويين وجري بينهم ما قاتل فصارا كثر الجند في جهة بهرام وكان أبرويز بن هرمز مطرودا عن أبيه مقبلا بأذربيجان فبلغه ضعف أمر أبيه وخشى من استيلاء بهرام على الملك فقصدا برويز أباه وأمسكه وحمل عينيه ولبس التاج وجلس على سرير الملك فكان من ابتداء ملك هرمز الى استقرار ابنه أبرويز في الملك نحو ثلاث عشرة سنة ونصف سنة فقد صار ملك فارس الى أبرويز بن هرمز في السنة التاسعة عشرة من مولده صلى الله عليه وسلم وطال ملكه الى أن خلعه ابنه شيرويه من الملك في السنة السادسة من الهجرة كما سبق وكان قد بعث اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب مع دحية الكلبي يدعو الى دين الاسلام فزقه أبرويز فدعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم أن يمزق الله ملكه كل ممزق فأرسل أبرويز يأمر عامله باذان ملك اليمن بقتل النبي صلى الله عليه وسلم فعين باذان الى المدينة الشريفة فأخذ ينتظر في قتل النبي صلى الله عليه وسلم حيلة فأوحى الله الى نبيه ما أخبر باذان وقاصده فأحضر القاصد وأخبره

النبى صلى الله عليه وسلم ان كسرى ابرو يرقطه أولاده اليوم فرد خائباً خاسراً
فلما صبح ذلك أسلم بأذان وحسن اسلامه كما سيأتى بيان ذلك فى عمله وخالفه
بهرام وأظهر أنه ينتقم من ابرو يرقطه بأبيه هرمز من عمل عينيه وجرت بينهما
حروب وآخر الحال تغلب بهرام على ملكة فاوس ولبس التاج وأما ابرو يرقط
خشى من بهرام أن يقيم والده الاعمى قيصر اصورقة ويتصرف فى الملك حقيقة
ويستصل أمره فاتفق مع خواصه على قتل أبيه هرمز فخنقه وخلق ابرو يرقط
الروم موريقس مستجداً به على بهرام جو بين فلما حضر ابرو يرقط الى موريقس
لامه على ما فعله بأبيه أولاداً من عمل عينيه وقتله ومن المعلوم ان ابرو يرقط
كان عدو الموريقس قيصر لكن همه هذا القيصر كانت عليه وعزيمته
قيصرية فأنف عن أن يرقطه خائباً وأن سياسة الوقت كانت تستدعى ذلك
الاعانة فأرسل القيصر لآعنه جيشاً جواراً وجعل قائده الامير قومند يولس
تحت أوامر خسرو ابرو يرقط فعاد ابرو يرقط من عند القيصر مستقوياً على بهرام
فكثت الحرب ثلاث سنين متتابعة حصل فيها ثلاث وقائع عظيمة غير الحروب
الجزئية وتم الامر بانتصار خسرو ابرو يرقط على بهرام وهرب بهرام الى خراسان
عند ملكها المسي شاويه شاه وكان جداً ابرو يرقط لاهه قدس على بهرام من يقتله
بالسم فهلك بهرام بجوارسان فعاد ملك القرس لابرو يرقط وفرق فى عسكر الروم
أموالاً جليلية ثم أعادهم الى ملكهم موريقس بعد اقامته أربع سنين وكان
القيصر قد اشترط على كسرى فى نظير مساعدته أن يعيد اليه ما كان استلبه
بهرام من البلاد الرومية وعاهده على ذلك فى تاريخ سنة ٢١ قبل
الهجرة

وفى القرب من هذا الزمن فى أيام كل من موريقوس وابرو يرقط هرمز كان
زواج السيدة خديجة الكبرى به صلى الله عليه وسلم وما كان من أمر تعبد
بغار حراء وأمر النبوة كما سيأتى ذلك فى محله ان شاء الله تعالى

وقد صرف هذا القيصر جهده فى اضعاف سائر الهبات وقتلت شملهم
وتدميرهم فغلهم قائداً القيصر على سواحل نهر طونة فى خمسة وقائع ولكن أسر
خان الهبارت من جنود الروم اثني عشر ألف نفس فطلب خان التار من القيصر
اقتداء الامرى المذكورين وجعل على كل رأس ديناراً وكان موريقوس

قبصر شديد الجمل فلم يررض بذلك فطلب منه نصف دينار فداء كل رأس فأبى أن يعطيه شيئا فغضب خان التار من شخ هذا القيصر وحرمه فذبح أسراء الروم جميعا فكثر الهرج في المشرق وصار يطلب الوالد له فلا يجده والولد أباه والزوجة زوجها والاخت أخاه فعلموا فقدهم عند التار وفهموا السبب فصار هذا القيصر مبعوضا عند جميع رعاياه والقصاص قريب فقامت عليه الفتن وكان من جملة رؤساء جنوده أمير قرماني خارج القسطنطينية فاعتتم فرصة فوحش النفوس من القيصر فاستجلب الجنود الصاعدة اليه حتى يابعوه على القيصرية فتملكها بعد بعض حروب ومدافعات وأعانه على ذلك كراهة الأهل إلى القيصر فلما دخل المدينة قبض على القيصر موريقس وضرب عنقه وعنق أولاده جميعا وجلس على سرير الملك وكان ذلك في نحو سنة ٢٠ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية

فقد أدى حرص هذا القيصر إلى زوال الملك عنه وإلى الاضرار ببلاده ورعاياه فقد تسبب عن حرصه ولؤمه وسوء حاله نفور الطباع منه وقيام الجنود عليه وقتله وتولية غيره فمن هذا يفهم أن الرعية الرومية في أيامه كانت في أسوأ الأحوال ليس لها قدرة على المدافعة عن قيصرها والذب عنه وليس فيها الشهامة اللازمة لذلك بل ولا تريد تسكين الفتن لغدر قيصرها بما ورثته جوره

إذا ما الظالم استحسن الظلم مذهباً * وبلغ عتوانه في قبح اكتسابه فكله إلى صرف الزمان فإنه * سيبدى له ما لم يكن في حسابه فكم قد رأينا ظالما مقتزدا * يرى التجمتها تحت ظل ركابه فعما قليل وهو في غفلاته * أناخت صروف الحادثات يبابه فأصبح لآمال ولا جاء يرتجى * ولا حسنات سطرت في كتابه وقابله الجبار منه بفعله * وصب عليه الله سوط عذابه فقد هدرت دم هذا القيصر رعيته ولم تحمه من جنوده الكثيرين للاختلال مع أن الاختلالات دائمة تعود على الرعية بالضرر وسوء العواقب وقد تحقق ذلك بالنسبة للروم حيث أن فوقاس قاتل سلفه لم يكن خيرا منه كما استعمله في الفصل الآتي

(الفصل الثالث عشر)

• (في الملك فوقاس قبصر) •

تولى المملكة في سنة ٢٠ قبل الهجرة وبني حكمه الى سنة ١٢ قبلها فكانت مدة حكمه ثمان سنوات

أول شيء ابتدأ به هذا القيصر سلوك مسلك العدوان والظلم بقتل سلقه موريقوس وقتله بأولاده معه وكانوا ستة كلهم ذكور والجزء من جنس العمل كما سيأتي وقد انهمك هذا القيصر على اللذات والشهوات وكان كثير الطمع والحرص جبا ناجبارا عنيدا وشيطانا مريدا اقتداً بأمير مصر يستثنى جنس المصريين من التقليد بالنسب الملكية والرتب والوظائف والخدمات الميرية فبسبب ذلك قامت فتنة عظيمة في الاسكندرية وكان أكثر أهل الفتنة يهود تلك المدينة المتأصلين بها فأطاعوا الفتنة الامبراطور بالقهر والغلبة وحكم على يهود الاسكندرية بأن ينصروا فنصروهم وأدخلهم العمودية ونماعن أنوفهم

وكان أبرويز خسرو بن هرمز قد رشح على سرير ملك العجم قطعي وبني واحتقر الاكابر وظلم الرعية وكان قد اصطلح مع موريقوس صلحا كافيا الا أنه لما علم يقتل فوقاس قيصر لصاحبه أظهر الاسف على صاحبه وأنه يريد الانتقام له من قاتله فخر د على فوقاس جنودا عظيمة وغلب من بلاد الفرس على أقاليم أرفقة والجزيرة وأرمينية والشام وقطعة من أناطلي فنال الفرس من الروم وغلبوهم أشد الغلبة على بلادهم فصار أبرويز أعدى عدو لقوقاس ومع ضعف فوقاس عن مقاومة ملك فارس فقد سير جيشا عظيما للحرب فارس وكان هذا الجيش يغضون قبصرهم لساومة نفوسهم منه فاعتراهم القنود قبل التحام الحرب فزقهم ملك فارس كل ممزق حتى ولو الادبار واعتمدوا على الفرار وتقدم أبرويز بجيشه حتى صار قريبا من القسطنطينية

وكان فوقاس من شدة انهماكه على الفسق قد فضع زوجة قوثيوس أحد معتبري الزوم فاعتنم هذا الأمير فرصة حصر فوقاس وقيام الروم عليه المرات العديدة بكتابه رسالة لهرقل حاكم بلاد افرقية من طرف الروم أن يحضر لتخليص القسطنطينية بمخلع القيصر ولبس تاج القيصرية فوحشه على ذلك

فجهز هرقل عمارتسفن قرطاجية وحضرها ابنه من افرقيصة الى القسطنطينية
ورساعلى بوغازها ولازال فوثيوس ومن تبعه يشيرون الفسنة على فوقاس
حتى استندت حكم جميع الالهالى بطلعه وتقليد هرقل وكان هرقل قد حضر
وتجبل على فتح البوغازودخوله القسطنطينية وكان فوثيوس عند ذلك قد
استولى على قصر القيصروحبسه وقبض عليه وأتى به الى هرقل في سقيته التى
كان قبل يبيع له فيها بالقيصرية فأطال فوقاس لسانه على هرقل فقام الالهالى
على فوقاس وفعلوا به كما فعل بسلقه وضربوا عنقه وعنق اخوته وأجاباه خوفاً
من النار فقتله أخرى من المتصيين له وأظهروا المباينة لهرقل وكان ذلك فى
سنة ١٢ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية
وهو الذى ظهر الاسلام على عهد ولايته كما استشف عليه ان شاء الله تعالى

(الفصل الرابع عشر)

• (فى الملك هرقل قيصر) •

تولى المملكة فى سنة ١٢ قبل الهجرة وبنى حكمه الى سنة ١٩ من
الهجرة فكانت مدة حكمه احدى وثلاثين سنة

قد حصل فى أيام هذا القيصر من العجائب والغرائب والحروب والخطوب
ما يدهش العقول ويحير الالباب فقد جعت أيامه بين الوقائع المتضادة
والحوادث المتباينة حسنا وقبعا فان دولة الروم اتصرت فى حروب عظيمة
نارية وانهمزمت فى أخرى نارية أخرى ففى مبدا تولية هذا القيصر وفى وسطها
وفى آخرها حصل الانهزام والخسبة والنصرة والظفر متواليمة مترادفة يتلو
بعضها بعضا

فان خسرو الثانى الذى هو أبرويز بن هرمز كان قد فتح الحرب مع قيصر
القسطنطينية سلف هرقل للانتقام منه فى قتل موريقوس صانع الجبل مع
خسرو المذكور فاستمر خسرو على الحروب مع هرقل ولم يرض بمقد الصلح بين
فارس والروم وصمم على استدامة القتال والانتقام وقد سبق أن خسرو
أبرويز كان قد تغلب على بلاد الموصل فهذا سهل علمه فى عهد هرقل الاغارة
على بلاد الشام ومصر فهجم على الشام وحرق انطاكية ودمشق ومدينة

القدس ووصلوا الى طريق الجواز قصد أن يحبس النصارى بهذه الولايات
وان يخلعوا الزنارو بعدوا التارثم أرسل قائده الى ديار مصر وبلاد المغرب
فقال من ذلك ما نال من النصره وصالح مصر على أن تدفع له مقدار ما معلوما كما
كانت تدفع للروم ثم رجع كارت اللغلب على بلادنا طلى واستولى على بلاد
بروسه الواقعة على بوزاخ القسطنطينية وكان ذلك قبل الهجرة بثمان سنوات
وكذلك استعان الفرس على الروم بقتال التتار الهبارة ويقال لهم الاواره
وتعاهدوا معهم أن يغيروا على اقليم روم ايلي فغاروا عليه حتى وصلوا الاسوار
القسطنطينية قبل الهجرة بثلث سنين فقتل الهزيمة على الروم في
بلادهم بآسيا وأوروبا وحوصروا برا وبحرا فلم يبق من مملكة هرقل اذذاك
الا مدينة القسطنطينية وبعض أقاليم على البحر وأيس هرقل من النصره
حتى أراد أن يهاجر الى تونس لبلاد المغرب لكونها كانت من أملاك الروم
ويقل سريره اليها ولولا أن صده عن هذه النية بطرق القسطنطينية لنجز
ذلك

وفي هذا الزمن نزل بحكمة ألم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم
سيغلبون الى آخر السورة وذلك ان الله سبحانه وتعالى قال في آخر سورة
العنكبوت ولا تتجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن وكان صلى الله عليه
وسلم يجادل المشركين بنسبتهم الى عدم العقل لانكارهم الاله وكان أهل
الكتاب يوافقون النبي في الاله كما قال تعالى والهنا والهكم واحد وكانوا
يؤمنون بكثير مما يقوله بل كثير منهم كانوا مؤمنين به كما قال تعالى والذين
آتيناهم الكتاب يؤمنون به فلماذا أبغض المشركون أهل الكتاب وتركوا
مراجمهم بعد أن كانوا يراجعونهم في الامور فلما وقعت الكثرة على النصارى
حين قتلهم الفرس المجوس فرح المشركون بذلك كما كرهه المسلمون فأزل
الله تعالى هذه الآيات وذكر في أولها ما هو معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم
وهو الاخبار عن الغيب فقوله تعالى غلبت الروم في أدنى الارض يعني أرض
العرب وقوله وهم من بعد غلبهم سيغلبون يعني أنه بعد أن وصل عدوهم الى
بلادهم وهم عاجزون عن المداقعة عنها الضعفهم سيغلبون عدوهم بأمر الله
تعالى وقدرته في بلاده المستقوى فيها فقد وصل الروم الى المداخن وغلبوا

الفرس وبنوا هذالك مدينة رومية فالغلبة العظيمة بعد الضعف العظيم
لا تكون الا باذن الله تعالى وقوله تعالى في بضع سنين اتيهم الوقت بالبضع الذي
هو ما بين الثلاثة والعشرة مع ان المجيزة انما تكون اتم بتعيين الوقت بالسنة
والشهر واليوم والساعة لانها معلومة عند الله تعالى وبينها النبي صلى الله
عليه وسلم ولم يأت له في اظهارها لان الكفار كانوا معاندين وما دامت هذه
الامور مستتقة في بلاد بعيدة تكون معلومة الوقوع لاحتمال بحيث لا يمكن
انكارها لكن وقتها يمكن الاختلاف فيه فالمعاد كان يمكن من أن يرجف
بوقوع الواقعة قبل الوقوع ليحصل الخلف في كلامه

ولما نزلت الآية ذكر أبو بكر رضي الله عنه أن الروم ستغلب وأنكره أبي بن
خلف وغيره وخاطروا بأب بكر على خمس قلائص الى ثلاث سنين وكان ذلك قبل
تحريم القمار فقال عليه السلام لا بي بكر البضع ما بين الثلاثة والعشرة فزاده
في القلائص وماده في الاجل فزاده في القلائص اثنين حتى صارت بمائة ومائة
في الاجل حتى صار خمسا وقل أكثر من ذلك راجع الفصل السادس
والاربعين من المقالة الثالثة وهذا يدل على علم النبي صلى الله عليه وسلم بوقت
الغلبة وكان يوم غلبة الروم لغاوس هو يوم غلبة المسلمين المشركين بدر فحينئذ
يحمل قوله تعالى ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء على فرح
المؤمنين بغلبتهم على المشركين في غزوة بدر اذا أريد باليوم معناه الحقيقي ويجوز
حمله على الوقت فيكون معناه أن المؤمنين يفرحون بغلبة الروم على الفرس كما
فرح المشركون بغلبة الفرس على الروم ويصح أن يحمل على القلبين وعلى نصر
الله للفرقيين المتحايين ولا يرد عليه ان في ذلك اليوم يعني لم يصل الى المؤمنين
خبر كسر الفرس فلا يكون فرحهم يومئذ بل الفرح يحصل بعده لا نأقول
المراد باليوم الحين أو اليوم الذي يبلغ فيه الخبر وأنه يحصل الفرح للمؤمنين
في اليوم وان لم يعلم سبب الفرح فقد فرح المؤمنون بنصر بدر وفي الحقيقة
فرحهم الله تعالى بنصر الروم أي جعلهم فرحين يومه وان لم يبلغهم لان النفس
كثيرا ما تبسط بشئ فيسبق تبشيرها بوقوعه والله أعلم بمراده

ولما عاق بطريق القسطنطينية هرقل عن الخروج من المملكة وعن الذهاب
الى افرقية جمع البطريق المذكور أموال الكنيسة وأمتعتها الثمينة وساعد

بها القيصر على حفظ ما بقي من دولة الروم من الزوال فبهذا دفع القرس
 ومعاهدهم عن المملكة الرومية وكان قد استيقظ هرقل من نومته وصحبا من
 سكرته فتقوى جيشه وجأته ونقل ميدان الحرب الى خلف جبل طورس
 وانتصر بجنده على فارس في الموضع الذي انتصر فيه الاسكندر على دارا
 فكانت هذه أول غزوة انتصر فيها الروم على فارس بعد الغلب في السنة الثانية
 من الهجرة وسار جنده بجمرا في السنة الثانية أيضا لفتحها حتى أرسى على
 طرابزان وتعاهد مع الخزر وأغار على خسر وأبرويز حتى كاد أن يغلب على
 حدود مملكة فارس وبذلك شمل التنازع المعاهد بين القرس وهزمهم بقرب
 القسطنطينية في السنة الثالثة من الهجرة وكان قد تقوى بأربعين ألفا من
 الخزر وغزا فارس وأعاد جميع المدن والولايات التي كانت استلبتها منه
 القرس فسار جنده الى المدائن بعد أن هزم افرس عند الموصل
 وكان بعض المجندين أندرك ملك القرس بأن بعض ولده يقتله فقبس أولاده وكان
 في سجنه ستة وثلاثون ألفا مقيدين مكبلين فغن عتوه واستغفاه بالناس أمر
 بقتلهم فنقم ذلك عليه أهل الدولة وأطلقوا ابنه شيرويه ولم يقتلوا المقيد
 وجمعهم الى شيرويه فخرى بين شيرويه وبين أبيه مراسلات وتقريع وآخر الامر
 قال شيرويه لا يسه لانجيب ان أنا قتلتك فاني أقتل بك فأرسل شيرويه بعض
 أولاد الاساورة الذين قتلهم أبرويز وأمرهم بقتله فقتلوه في السنة السادسة
 من الهجرة ومعنى أبرويز بالعريية المظفر وكان قد خلف أبرويز غلية عشر
 ولدا غير شيرويه فقتلهم شيرويه وجلس على سرير الملك فبعد معاذاة الحروب
 بين فارس والروم انتهى الحال عقب قتل أبرويز أن صار عقد الصلح مع شيرويه
 ابن خسر وفي السنة السادسة من الهجرة وكانت شروط الصلح مع القرس
 قد اقترحها عليهم قيصر الروم كما شاء وأراد بهذا انتهت المنازعة بين فارس
 والروم في هذا العهد وليست أم شيرويه بنت موريقس قيصر الروم كما زعمه
 كثير من مؤرخي القرس وغيرهم وقالوا ان اسمها مارية وأنه تزوجها لخسر و
 أبرويز حين استعبد به على أخصامه ولم يفتح شيرويه بقتل أبيه ولا لبث في ملك
 فارس الا ثمانية أشهر فانه لما قتل أباه راودشرين زوجة أبيه عن نفسها
 فاستنعت فضيق عليها ورماها بالزنا وأراد قتلها ان لم تفعل فقالت أفعل على

ثلاث شرائط قال وما هي قالت تسلم لي قتله زوجي أقتلهم وقصدا المتبرق بغيري
 بما قد تقي به وتفتح لي ناوس أليك فأن له وديعة عندي عاهدني ان تزوجت
 بعده ورددتها اليه فدفع لها قتله زوجها فقتلتهم وبزأها عما قال لها وفتح ناوس
 آيسه وبعث الخدم معها فجاءت الى أبرويز فعاقته ومصت فصامس وهو ما كان
 معها فأتت من وقتها وأبطأت على الخدم فصاحوا فلم تسكهم فدخلوا فوجدوها
 معاققة لأبرويز ميتة وصكان شيرويه ردى المزاج كثيرا لامراض صغير
 الخلق وكانت اخوته كانوا عوالى الرماح قد كملوا فى الخلق والخلق والادب
 ثم دهم على قتل اخوته وجرع عليهم جزع شديدا وكان أبوه أبرويز وضع فى
 الخزان برانى سم وكتب عليها نافع محرب لتقوية الباء فلما نكأ شيرويه وصفا
 له الامر دخل الخزانة فنظر الى البريق مكنو با عليها ما ذكر وكان مغرما بالنساء
 فلما ذاق عنهما مات فى الحال والفرس تسميه الغشوم وكانت مدة ملكه ثمانية
 أشهر وعمره اثنان وعشرون سنة وقبلى بعده ابنه أردشير

وهذا مصداق قول الاقدمين من استجبل بشي قتل أو انه عوقب بحرماته
 ويقال ان محمدا المتصر العباسى لما قتل أياه المتوكل ليتولى الخلافة فحدث
 الناس بأنه لا يطول عمره بعده وشبهوه بشيرويه بن أبرويز حين قتل أياه ولم يتبع
 بالملك بعده فقتل انه بعد أن جلس المتصر على سرير الملك فرس له بساط لم ير
 مثله وعليه كآبة عجبية بالفارسية فنظر اليها نظر استحسان فاستحضر من يعرف
 الفارسية وأمره بقراءتها فاجم عن ترجمتها فقال له المتصر قل وما عليك بأمر
 فقال مكنو على هذا البساط أنا شيرويه بن كسرى قتل أبي فلم أتمتع بالملك
 بعده فظنير المتصر من ذلك ونهر من مجلسه غضبا فلم تتم له مدة شيرويه
 حتى مات فان صح هذا كان من الاتفاق الغريب والا فلا يعد أن يكون محض
 اختراع للغة

فلما اطمان الروم من جهة اغارات الفرس وارتاح قيصروهم تفرغ بالكلية
 لتحقيق العقائد الدينية التي كانت فى زمنه محللا للنزاع كما سجد كذلك فى الفصل
 الآتى ولم يكن فى أيامه فى صدر الاسلام دولة حسية ظاهرة حتى يقع بينه
 وبينها مثل ما وقع بينه وبين العجم وانما كان مظهر الاسلام معنويا ومقصورا
 على أناس قلائل فى جزيرة العرب وصكان العرب منهم من هو فى حوزة

الروم كعرب الشام قائم عليه من طرفهم ملك أو من طرف الفرس كعرب
 البحرين ونحوهم قائم عليهم من طرف كسرى ملك أيضا وإن كان صلى الله
 عليه وسلم قد أرسل إلى كافة الخلق بشيرا ونذيرا في عهد هرقل إلا أنه عليه
 الصلاة والسلام كان يصدد الدين لا يصدد الملك والدولة فكان كما يدعو
 كسرى ويقصر إلى الاسلام يدعو ملوك العرب وغيرهم من أتباع الاكسرة
 والقيصرة ويرسل اليهم من أصحابه دون غييز التابع والمتبوع في الدعوة إلى
 الاسلام فانه بعث في سنة سبع شجاع بن وهب الاسدي إلى الحرث بن أبي
 شمر الغساني ملك البلقا بالشام ودحية الكلبي إلى هرقل قيصر الروم وعبد الله
 ابن حذافة السهمي إلى كسرى وعمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي وحاطب
 ابن أبي بلتعة إلى المقوقس وسليط بن عميرة إلى هوندة ملك الحبشة وكان
 نصرانيا والعلامن الحضري إلى ملك البحرين المنذر بن ساو وبعثا كرر الرسالة
 وأردف الكتاب بكتاب آخر مع رسول آخر فلما أرسل إلى كسرى أبرويز يدعو
 إلى الاسلام مرق الكتاب وأرسل إلى باذان عامله باليمن يأمره بقتل النبي صلى
 الله عليه وسلم فأرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين قد حلقا لحيتهما
 فقالا للنبي صلى الله عليه وسلم ان باذان يشير عليك بالمسير إلى كسرى
 والأهلكت فأخبر صلى الله عليه وسلم القول معهما إلى القدثم أصبح فدعاهما
 وقال ان ربي أخبرني أن كسرى أبرويز قتلناه بشيرويه وان ملكي سيعاودني
 ملك كسرى ويقصر فأرجعوا ورايا أن يسلم فرجعوا وأخبراه وجاءه كتاب
 شيرويه يقتل أبيه فأسلم باذان وخلق كثير من فارس وأما النجاشي فقبل كتاب
 رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم على يد جعفر رضي الله عنه وأما المقوقس
 عظيم القبط بمصر فلما دخل عليه حاطب بالاسكندرية وجده في مكان يشرف
 على البحر فأشار إليه بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصبعيه فلما رآه
 أشار لمن حوله بأخذ الكتاب منه فلما وصل إليه وجده محتوما بجنازة رسول الله
 صلى الله عليه وسلم فقبله ووضع على عينيه فلما قضى وقراءه فاذا فيه بسم الله
 الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط السلام على من
 اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم يؤتلك الله أجرا
 مرتين يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء يتناوينا وينكمم أن لا نعبد إلا الله

ولا تشرك به شيئاً ولا يقضد بعضنا بعضاً رباً من دون الله فان تولوا فقولوا
 اشهدوا باننا مسلمون فلما فهم ما في كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ
 ووضعه في صندوق وختم عليه بارصاص وتركه عنده ثم أرسل الى صاحب ذات
 ليلة وخلا به وليس عنده الا ترجمانه قال ما منع نبيكم أن يدعو على فأسلب عن
 ملكي فقال صاحب ما منع عيسى بن مريم عليه السلام أن يدعو على من أبي
 عليه فسكت عنه المقوقس ساعة ثم قال لصاحب ان كان قبلك رجل زعم أنه
 الرب الاعلى واتقم الله تعالى منه فاعتبر أنت بغيرك ولا يعتبر بك غيرك وبإشارة
 موسى بعيسى بن مريم عليهما السلام الا بكشارة عيسى بمحمد صلى الله عليه
 وسلم ثم قال المقوقس أفي عفيه عروق جروين كفي من أتم النبوة ويركب
 الجمار قال صاحب هو من هذه الصفة قال المقوقس قد كنت أعلم أن نبياً قد بقي
 وكنت أظن أن يخرج من الشام ومن هناك كانت تخرج الانبياء من قبله
 وأنا أعلم أن صاحبك سيظهر على البلاد وستزل أممها به بإحسانه هذه حتى
 يظهر وأعلى البلاد وأنا لا أظهر للقبض ذلك ثم دعا المقوقس كاتباً يكتب بالعربية
 فكتب الى محمد بن عبد الله عليه السلام أما بعد فاني قرأت كتابك وفهمت
 ما فيه وقد علمت انك نبي مرسل وانك خاتم الانبياء وقد أكرمت رسولك غاية
 الأكرام وقد بعثت اليك هذه الهدية وكانت من بخلهم جاريان احدهما
 مارية وبغلة اسمها دلدل وجاراسه يغفور وعسل ينها التي دعا لها رسول الله
 صلى الله عليه وسلم بالبركة

وأما هو ذمك اليمامة فقال السليط بن عبيدة عند قدمه اليه ان جعل محمد
 الى الامر من بعده سرت اليه وأسلمت ونصرته والاحارثه فلما عاد بالجواب
 الى النبي صلى الله عليه وسلم قال صلى الله عليه وسلم لا ولا كرامة اللهم اكفني
 فلت هونة وأما المنذر بن ساوامة البصري فقد أسلم هو وعرب البصريين
 وأما الحرث بن أبي شهر الغساني ملك البلقاء فانه لما أخذ الكتاب من شجاع بن
 وهب الاسدي وقرأه قال ها أنا سائر اليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 لما بلغه ذلك بان ملكه وفي كلام بعض أهل السير أن الحرث المذكور أسلم
 ولكن قال أخاف ان أظهر اسلامي فيقتلني قيسر وأما هرقل قيصر الروم فان
 دحية الكلبي وجدته اذ ذاك بالشام بيت المقدس فاكرمه هرقل ووضع كتاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم على نخذه وقصد أن يؤمن به فذبحه بطارقته فخلق
 على نفسه ورد دحية رداً بجيلاً فلم يكن منه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان
 من كسرى ولم يزل إلى الآن ما صنع من الجليل في رد كتاب رسول الله صلى
 الله عليه وسلم رداً بجيلاً ذنباً لا يغفر عند قس النصارى فانهم يقولون إن هرقل
 أما أن يكون لم يكثر برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ولا نطق أناس دولته فهو
 أحق حيث رأى ظهوراً أمره بعيسى رأسه وأغارته على بعض بلاد الشام وأما
 أن يكون أهمل ذلك عهداً فهو ملوم كل الملامة في ترك القتال مع نبي يهدم دين
 النصرانية مع أنه كان يسهل عليه أن يوقف قوتها وأن يقتني أثره ويقتله مع
 أصحابه المجاهدين معه فهذا ذنب من هرقل لا تصح عنه النصارى على تداول
 الأزمان فهذا ما رآه القس وسنعود به على هرقل ونسوا الحكمة الإلهية
 والارادة الربانية

سبحان من وضع الأمور بحكمة * بعضاهدى والبعض ضل عن السبيل
 والبعض واقته السرّة والصفاء * والبعض كذب بالسامة والحزن
 فارغب إلى مولاه فيما عنده * واترك جميع الناس يامن قد فطن
 وأسله خاتمة السعادة أنه الشبر الرحيم وفصله يؤتيهم من
 ولا زال هرقل على عدم اظهار العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم وأما ما وقع في
 زمنه صلى الله عليه وسلم من غزوة مؤتة وغزوة تبوك ودومة الجندل فكان
 موجه أمره انقبصر على الشام

وذلك أنه في جمادى الاولى سنة ثمان من الهجرة كان بعث صلى الله عليه وسلم
 الحرث بن عمار الاسدي بكتاب إلى هرقل فلما زل مؤتة تعرض له شرحبيل بن عمرو
 الغساني الذي هو من أمره انقبصر على الشام فقتله حين رجوعه من عند هرقل
 المذكور ولم يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره فاشتد الامر عليه
 صلى الله عليه وسلم لجهز جمعاً من أصحابه نحو ثلاثة آلاف وأمر عليهم زيد بن
 حارثة وقال ان قتل فالامير جعفر بن أبي طالب فان قتل فبعد الله بن رواحة
 فان قتل فليرض المسلمون برجل منهم وليجأوه عليهم وخرج رسول الله صلى
 الله عليه وسلم مشياً عليهم حتى بلغ ثمة الوداع وقال أوصيكم بتقوى الله وبمن
 معكم من المسلمين خيراً اغزوا باسم الله فقاتلوا أعداءه وعدوكم بالشام

وسجدون فيها رجالا في الصوامع معتزلين فلا تعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة
ولا صغيرا ولا بصيرا فاني اولا ثم سدوا ابوابهم فمضوا حتى نزلوا أرض الشام فبلغهم
ان هرقل ملك الروم في مائة ألف من الروم وانضم اليه من قبائل العرب
المتنصرة بكر ونظم وجذام مائة ألف ومعهم من الخيول والسلاح ما ليس مع
المسلمين وكان المسلمون ثلاثة آلاف كما سبق وشجعهم عبدالله بن رواحة قائلا
لهم انتم خرجتم تطلبون الشهادة فما قتال الناس بعدد ولا كثرة ولا قوة
ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذي اكرمنا الله به انما هي احدى الحسينين
انما ظهوروا ماشهادة فقال المسلمون صدق والله ابن رواحة

فمضوا للقتال فلقيتهم جوع هرقل من الروم والعرب فاجازوا المسلمون الى مؤنة
وهي قرية من قرى البلقاء فالتقى الجمعان عندها فاقبلوا فقاتل زيد بن حارثة
ومعه الواسع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل رضي الله عنه فأخذ اللواء
جعفر رضي الله عنه وقاتل على فرس أسقر ثم نزل عنه وعقره خوفا من ان
يأخذه الكفار فيقاتلوا عليه المسلمين ثم قاتل رضي الله تعالى عنه فقطعت عينه
فأخذ اللواء يساره فقطعت يساره فاحتضن اللواء وقاتل حتى قتل رضي الله
عنه فأخذه عبدالله بن رواحة وتقدم به وهو على فرسه ثم نزل وقاتل حتى قتل
فحينئذ اختلط المسلمون والمشركون وأراد به من المسلمين الانضمام فجعل عقبه
ابن عامر يقول يا قوم يقتل الانسان مقبلا أحسن من أن يقتل مدبرا فأخذ
الواء ثابت بن أرقم وقال يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم

وكان في هذه السنة التي هي سنة ثمان من الهجرة بمن قدم على النبي صلى الله
عليه وسلم خالد بن الوليد وعمر بن العاص وعثمان بن طلحة وكان عن أرسل
في هذه الغزوة خالد بن الوليد رضي الله عنه فاصطلح الناس على أن يكون أميرا
عليهم فأخذ اللواء وحمل على المشركين فهزمهم الله أسوأ الهزيمة حتى وضع
المسلمون أسيا فاهم حيث شاؤوا وأطهر الله المسلمين وكانت مدة القتال سبعة أيام
وأطلع الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على ذلك فأخبر أصحابه وفي الحقيقة
هذه الغزوة التي هي غزوة مؤتة ليست من الغزوات بل هي من السرايا لانه صلى
الله عليه وسلم لم يكن فيها كما في غزوة تبوك وغيره من الغزوات التي كان فيها
وغزوة تبوك أيضا لم تعرض فيها صلى الله عليه وسلم لقتال الروم كما تعرض لهم

في غزوة مؤتة التي هي أول الغزوات بين المسلمين والروم وتبوء أرض بين الشام
 والمدينة على البعد من المدينة بأربع عشرة مرحلة
 وسبب غزوة تبوء التي كانت في رجب سنة تسع أن هرقل ومن اجتمع اليه من
 نخم وجذام وعامله أظهر وأنهم يريدون غزو رسول الله صلى الله عليه وسلم
 وبلغه ذلك وكان الخزنديد والجذب كثيرا والناس في عسر فلذلك لم يورث عنها
 كعادته في سائر الغزوات فجهز صلى الله عليه وسلم له أجيشا يدعى جيش العسرة
 وبه سميت غزوة العسرة أيضا وأمر المسلمين بالنفقة فأنفق أبو بكر جميع ماله
 وأنفق عثمان نفقة عظيمة نحو ألف دينار ولثامته بغير وطع ما فقال صلى الله
 عليه وسلم ما على عثمان ما صنع بعد هذا اليوم وأنفق العباس رضي الله عنه
 سبعين ألف درهم وتحلف عن النفر عبد الله بن أبي بن سلول المنافق والثلاثة
 الذين تاب الله عليهم من الانصار وهم كعب بن مالك وحرارة بن الربيع وهلال
 ابن أمية وجاء البكاؤون يستعملونه فقال لا أجد ما أجلكم عليه واستخلف
 صلى الله عليه وسلم عليا رضي الله عنه على المدينة فقال المنافقون انما خلفه
 استنقالاته فخلق برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كذبوا انما خلفتنا لما
 ورأى فارجع أما ترضى أن تكون منزلتكم في بمنزلة هرون من موسى إلا أنه
 لا يبعدى وكان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثون ألفا في عشرة آلاف
 فارس واثنا عشر ألف بغير ووجدوا في الطريق شدة من العطش ونم هاهم رسول
 الله صلى الله عليه وسلم عن ورود ماء الجروهي دينار ثم دأروا هم أن يهريقوا
 ماءه وأن يطعموا عيئته الأبل وفي هذه الغزوة ضلت ناقته صلى الله عليه وسلم
 فتكلم المنافقون فنزل الوحى وأخبره أنها متعلقة بخطامها في شجرة فوجدت
 كذلك

ووصل صلى الله عليه وسلم إلى تبوء فوجد هرقل بمحصر وأن الروم هابوا
 محاربته صلى الله عليه وسلم وأتته رسل هرقل فكأهم وردتهم وأقام بها
 عشرين ليلة وقدم عليه يوحنا صاحب أيلة فصالحه على الجزية فبلغت ثلاثمائة
 دينار وصالح أهل أزرع على مائة دينار في كل سنة وأرسل سريته خالد بن الوليد
 إلى الأكهد بن عبد الملك صاحب دومة الجندل وكان نصرانيا من كندة
 فأخذه خالد وفتح دومة الجندل وقتل أخاه وأخذ قبادة يسليح كان عليه فمذسوجا

بذهب وقدم بالا كيدر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فحقن دمه وصالحه على
الجزية وكتبه ولاهل دومة الجندل كتابا وقال صلى الله عليه وسلم وقد رأى
نحجب أصحابه من قباء أخى أكيدر والله لنأذي سعد بن معاذ في الجنة أحسن
منه وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة في شعبان فغن هنا غنهم أيضا
أنه صلى الله عليه وسلم لم يقع منه مقاتله في تبوك ولا حصل فيها غنمة ولم يقاتل
فيها الروم ولا كان بينه وبين هرقل حرب وانما حرب الاسلام مع هرقل انما
كان ابتداءها في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وانما الحرب وقع
من خلف في دومة الجندل ويقال ان أصل الأكيدر من بلدة لقرب عين الترقى
العراق يقال لها دومة وكان يزور أخواله من بني كلب بأطراف الشام فبينما
هو في بعض الطريق ظهرت له مدينة متهدمة لم يبق الا بعض حيطانها وكانت
مبنية بكتبان يقال له الجندل فأعاد الأكيدر بناءها وغرس فيها الزيتون وغيره
وسماها دومة الجندل تفرقة بينها وبين دومة العراق فقصها خالد بن الوليد
سنة غزوت تبوك المذكورة وكان في الجاهلية لبني كلب صنم في دومة الجندل
اسمه ودو وكانوا يمشون في دومة الجندل وتبوك وأطراف الشام ومن
مشاهيرهم زهير بن حبيب الكلبى وهو القاتل في غزوتهم لبني بكر وتغلب على
ماء الحنق

أين أين الفرار من حذر الموت واذا تقنن بالاسـ
لاب اذا سرامهم لاسلا وأخاه • وابن عمرو في القيد وابن شهاب
وسينا من تغلب كل يضا • رقد الضحى برود الرضاب
وزهير بن شريك الكلبى وهو القاتل لزوجته أسماء

الما أصبحت أسماء في الحجر تعذل • وترغم اى بالسفاه موكل
فقلت لها كنى عتابك نصطيع • والافيني فالتعزب أمثل
فكم جرى عليها في الوفاع من أيام حتى وقعت بالفتوح في نصيب الاسلام
واذا نظرت الى البقاع وجدتها • تشقى كاتشى الرجال وقعد

(الفصل الخامس عشر)

في ملحوظات تتعلق بمصر في مدة الدولة الخامسة والثلاثين

التي هي دولة الروم العيسوية وجدول ملوكها

في أيام هذه الدولة خرجت مصر من دين الجاهلية الى الملة العيسوية واشتهر أهلها بالقبط وكانت العناية الرسمية بها اتباع دين النصراني فمن ابتداء صدور أمر الملك طيودوسيس الاول فبقيت بها الحكومة عيسوية الى السنة الثامنة عشرة من الهجرة وهي مدة ما تسين وتسعة وخسين سنة فكانت معدودة من ايلات الروم بالقسطنطينية

ومع ان مصر في ظرف هذه المدة السابقة على الفتح الاسلامي كانت متمسكة بدين النصرانية فكانت لم تزل محافظة على لغتها القديمة الاولية تكلموا وانما أهملت طريق الكتابة بالقلم المصري القديم البراني الجاهلي واعتاضت عنه بالكتابة اليونانية بالصفة المستعملة في مدينة الاسكندرية فكانت ألفاظ لغتها قبطية قديمة وطريق كتابتها بالحروف اليونانية ولا زالت الى الآن اللغة القبطية مرسومة بالحروف اليونانية وانما يستعمل منها المسائل الدينية عند الحاجة وانما اعتري بعض الالفاظ تغيير يسير وبقي الباقي من اللغة على ما كانت عليه

ومن المعلوم ان النصارى متفقون على أن المسيح قتلته اليهود وصلبته ثلاث ساعات أو ستة وعاش بعد ذلك وراء شعبون الصفا وأوحى اليه ثم رفعه الله اليه وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا فعم اليهود أنهم قتلوا عيسى بن مريم فأخبر الله سبحانه وتعالى أنهم ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وذلك أن اليهود لما علموا أنه حاضر في البيت الفلاني مع أصحابه أمر يهودا رأس اليهود رجلا من أصحابه يقال له طيطايوس أن يدخل على عيسى عليه السلام ويخرجه ليقتله فلما دخل عليه أخرج الله عيسى عليه السلام من سقف البيت ورفع الله اليه وألقي على ذلك الرجل شبه عيسى فظنوه هو فصلبوه فكان حين رفعه الله اليه ألقى شبهه على غيره بنص القرآن الشريف وهو قوله تعالى ولكن شبه لهم والاخبار أيضا واردة بذلك الآن الروايات اختلفت فتارة يروى ان

الله تعالى ألقى شبهه على بعض الاعداء الذين دلو اليهود على مكانه حتى قتلوه
 وصلبوه وتارة يروى انه عليه السلام وغب بعض خواص أصحابه في أن يلقي
 شبهه عليه حتى يقتل مكانه وبالجملة فكيفما كان ففي القاء شبهه على الغير
 اشكالأت يرجع حلها الى ان كل من أثبت القادر المختار سلم أنه تعالى قادر
 على أن يخلق إنسانا آخر على صورة زيد مثلا لاسيما اذا كان ذلك معجزة لنبي
 وقد نص القرآن على ذلك صراحة فإما أنزل على النبي بمسكة عليه الصلاة
 والسلام وأخبرنا به وقد ثبت بالمعجز القاطع صدقه عليه الصلاة والسلام في كل
 ما أخبر عنه فكل اشكال في شبه المصلوب لعيسى عليه السلام يتنفع كونه
 معارض للنص القاطع ومصادم له وكذلك الرفع اليه تعالى ثابت ومعنى رفعه
 اليه تعالى رفعه من الارض الى السماء التي هي محل العظمة فلا يقتضي
 المكان ولا التجسيم بالنسبة اليه تعالى فرفع عيسى عليه السلام كالمعراج
 برسول الله صلى الله عليه وسلم في القطة بشخصه الى السماء ثم الى ما شاء الله
 من العلافه ومن قبيل المكثات والله تعالى قادر على المكثات كلها وقد وجده
 صلى الله عليه وسلم في السماء الثانية في عروجه الى السماء في حديث صحيح
 أخرجه القاضي عياض في الشفاء والامام مسلم في صحيحه وغيرهما بالسند
 المتصل عن أنس بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثم عرج بنا الى
 السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل من قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد
 قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه فتفتح لنا فاذا أنا بنينا الخالة عيسى بن مريم
 ويحيى بن زكريا فعلم بما ذكر في النص من كتاب الله تعالى برفع سيدنا عيسى
 والنص من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم انه وجده في السماء الثانية
 وذكر بعضهم ان رفعه كان من جهة طور رزينا وعن أبي هريرة رضي الله عنه
 انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الانبياء اخوة وأمهاتهم شتى ودينهم
 واحد وانى أولى الناس بعيسى لانه لم يكن يبنى وبينه نبي وبوشك أن ينزل فيكم
 ويحكم حكمك عدلا وانه نازل على أمتي وهو خليفتي عليكم فاذا رأيتموه فاعرفوه
 فانه رجل مربوع القامة وهو الى الحرة واليباض سبط الشعر كل رأسه
 يقطر فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال ويسكن
 الرواحا حجابا ومقرقا يقاتل الناس على الاسلام حتى يهلك في زمانه أهل الاديان

كلها غير الاسلام ونسكون السبعة واحدة لله تعالى وبهلك الله في زمانه
المسيح الدجال ويقتل على يديه وعلى يداً أصحابه ويقع الامن في الارض حتى
يرجع الاسد مع الابل والتمرع البقر والذئب مع الغنم وتلعب الصبيان
بالحيات ولا تضرمهم ثم يلبث في الارض أربعين سنة ثم يتزوج امرأة من غسان
ويولد له أولاد ثم توفي في المدينة ويدفن الى جانب قبر عمر بن الخطاب رضي الله
عنه فطوبى لابي بكر وعمر ويحشران بين يميني وعن ابن عباس رضي الله عنهما
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تهلك أمة أنا في أولها وعيسى في
آخرها والشهداء من أهل بيتي في وسطها ومذهب النصارى يتجسد الكلمة
في المسيح وهم على ثلاث فرق أصلية

الفرقة الاولى المكنائية وهم طائفة الروم يصرحون بالتثليث وان المسيح
ناسوت كلي قديم من قديم وأن الكلمة أشرقت على الجسد اشراق النور على
الجسم الشفاف وأن القتل والصلب وقع على الناسوت واللاهوت مع الكن
وقوعهما على الناسوت المباشرة وعلى اللاهوت بالاحساس والشعور
لا بالمباشرة

والفرقة الثانية القسطورية أصحاب نسطور وهم من النصارى بمنزلة المعتزلة
وهم يقولون بالاشراق والامتزاج يعني انطبعت الكلمة في الجسد انطباع
التنقش في الشحمة وأن القتل والصلب وقع على مجرد الناسوت لامن جهة
اللاهوت

والفرقة الثالثة فرقة اليعاقبة وهم أصحاب يعقوب البرذعاني راهب
القسطنطينية وهم يقولون ان الكلمة انقلب لها ودماء يعني ما زجت جسد
المسيح مما زججه اللبن بالماء فصار المسيح الاله يعني جوهر امتوله من جوهرين
وأن القتل والصلب وقع على هذا الجوهر المتوحد لمتماها واختلاف هؤلاء الفرق
في التصديق هو المراد من قوله تعالى وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه
مالهم به من علم الاتباع الثقل وقيل ان الذين اختلفوا فيه هم اليهود لما نقل
انهم حبسوا عيسى عليه السلام مع عشرة من الخواريين في بيت فدخل عليه
رجل من اليهود ليخرجه ويقتله قال في الله شبه عيسى عليه ورفع الى السماء
فأخذوا ذلك الرجل وقتلوه على أنه عيسى عليه السلام ثم قالوا ان كان هذا

عيسى فأين صاحبنا وان كان صاحبنا فأين عيسى فهذا اختلافهم فالذين
اختلقوا فيه على هذا هم اليهود وعلى الاول هم النصارى والواقع ان النصارى
اقتربت الى فرق كثيرة حتى ان بعضهم يقول كالاسلام انه عبد الله ورسوله
فالجدال في العقائد العيسوية الواقع بين أساقفة القسطنطينية بعضهم مع
بعض وبينهم وبين أساقفة الاسكندرية كان شديدا جدا تروى عليه اقتراف
الفرق وخروج الخوارج واعتزال المعتزلة وصار يترتب عليه صرف الاموال
الجسيمة من شبيعة الاحزاب الدينية ومن الحكومة وكان للاساقفة كمال
النفوذ والاحترام في الدولة الرومية وكان القياصرة يساعدونهم كل المساعدة
على اغرائهم ويتنازلون كل التنازل في تعظيمهم ويخضعون لهم من حيث
كونهم أمناء الدين ويتعصبون مع من يجدونه أعظم اعتبارا فيميلون الى
عزبه ويسارعون في تأييده ونصره في سائر أطراف وأكثاف المملكة فكان
يترتب على هذا تعطيل قوة الحكم والامراء والجنود وانقطاع نفوذهم
بالنسبة لرؤساء الدين العيسوي فهذا حصلت الغيرة الدينية والحمية المذهبية
بين الفرق وكل مذهب من المذاهب اتصه له قيصرة من القياصرة فحدد عليه
باقي المذاهب هذا ما كان في القسطنطينية ومصر ذلك منها الى مصر حيث
اختلفت فيها المذاهب وتشتت المشايخ وتفرقت الفرق وكان كل حرب له
نفوذ على الحاكم السياسي فكان الدم يجري في الاسكندرية عقب المجادلات
بين النصارى المتفرقين بعضهم مع بعض أو مع اليهود لما بينهم من البغضاء حتى
انه بأذى سبب قد اتفق ان أسقف النصارى اقتات على نائب مصر وجمع
جوعا على رهبان دير البرية فكانهم جنود امدادية وطرد بهم يهود
الاسكندرية منها وأراد نائب القيصرة على مصر ان يمنع ذلك حتى فزها بامتهم
هو وأجوانه بعد أن جرح منهم من جرح فهرعت الالهالى بمساعدة أمير مصر
وقبض على رئيس القننة وعوقب حتى مات تحت الضرب فدخله البطريق
امام الحاخامين وتلا مقالة في رثائه ونظمه في سلك الشهداء لاعتقاده انه
مات ظلما

ومما يدل على درجة نفوذ القيسيين في تلك الازمان وقوة جاههم انه ظهرت
بنات جميلة تسمى هوباطية كان أبوها عالما بالرياضيات ومعلميا يسمى

طيفوسيونس وكانت تدرس كتب أغسطا ليس وافلاطون في مكتب
الاسكندرية وكانت عفيفة صاحبة معارف حكيمية فاجتمع عليها أرباب الحجة
الدينية والعصبة العيسوية وهي رابكة عربتها وأحرقوا جثمانها بالنار
بالاسكندرية وكان يقودهم لهذه البكارتقوس الاسكندرية وواعظ كنيسة
ومع قتلهم لهذه الحكيمية لم يمتقم منهم أحد ولا عولوا بموجب الاحكام
والقوانين ولا عاقبهم القيصري نظير هذه الفعل الذميمة وانما صدر الامر
القيصري بالترحيل على القيسيين بانهم لا يتدخلون في أمور المملكة وأن
لا يزيد عدد أتباع الدين عن نحو خمسمائة نفس من التلاميذ ويكون تعيينهم
باطلاع نائب مصر وانما فعل القيصري ذلك تسكيناً للفتنة وتطبيعاً لظلمة الرعية
وبعد ذلك أيضاً عتده رجع الحال كما كان ولكن بوجه آخر وذلك أنه كثرت
بالديار المصرية أتباع دين العقوبية على الوجه الموجود عليه الآن وصار
ليطارتقه نفوذ زيادة على نفوذ مذهب الملكانية فقد شوهد ان انساناً على
مذهب اليعاقبة سلب بنت أعيان رؤساء المجلس الرومي واحتجى بيطرته
الاسكندرية المسيحية طيودوسيس غمما على رؤس الاشهاد ولم تعاقبه
الحكومة فلما بلغت القضية مرقيانوس قيصرا اقتصر على عزل الاسقف
المذكور

وفي أثناء هذه الاختلافات الدينية المترتبة على الاختلافات المذهبية داس
العرب بلاد الشام وقصد المغاربة ديار مصر فدفعهم نائب القيصري يحنو ومصر
عنها ولكن صاروا يتوعدونها بالهجوم ويهددونهم بالتقدم
ولما كانت حكومة القياصرة مبنية على الخفة والطيش وكانت لا تدوم على
حالة واحدة وكانت المجادلات الدينية تتوالد دائماً في الاسكندرية وتجدد
بسبب ذلك بين أهل الروم واليعاقبة وكانت العداوة متمكنة بين الملكانية
واليعاقبة عظم الهول في مصر في القرن الذي قبل الهجرة وكان قياصرة
الروم يذلون جهدهم بلا طائل في جعل دين المملكة الرومية واحداً في البلاد
المشرقية وكثيراً ما صدرت الاوامر القيصرية بتوحيد العقيدة العيسوية
والسير على مذهب واحد لا تتخلل أوامر القيصرية في ذلك وربما كانت هذه
الاورام سبباً في تأكيدهم البغضاء والشحناء بين رؤساء الفرق مقوية لحياتهم

زائدة لعنادهم فكان لأحد من أهل البلاد الرومية يعترف للقيصر بصفة دخوله في مادة الدين وأنه ليس من خصائصه بوجه من الوجوه حتى ان فرقة اليعاقبة بكنيسة الاسكندرية تشعبت الى عشرة مذاهب مختلفة كان يسميهم الملاكينون قسوس الهرطقة كما أن اليعاقبة يسمون أيضا الملاكية هرطقة يعنى خوارج وكان هؤلاء القسس العشرة في كنيسة الاسكندرية في زمن حكم زينون قيصر حتى انه زاد في أيامه المال المقر على مصر حتى بلغ خمسمائة رطل ذهب وكان قبله خمسين رطلا فكان نحس مصر فيما يخص الفتن الدينية وزيادة العوائد في المالية فلما خلف أنسطاس زينون نظم دفتر العوائد لتنظيمها بحيث كثر الايراد المصري العائد على الديوان القيصري فكان ثقبلا على الاهالي فحصلت الحوادث البهيبة والمصائب الغريسة في آن واحد على مصر مع ما يضم الى ذلك من اغارة المغاربة على بعض أقاليم مصر ولا زال هذا الحال يتزايد ويشتد فكثر الفتن وظهر العصيان وتواترت قيامات الاهالي في الازقة والحارات وكثر اشعال النيران الحسية والمعنوية في كثير من الجهات وعدم الامن في القرى والارياف بقطع الطرقات ونتج عن ذلك ما يترتب على حصول الفتن الداخلية من البلايا وليس ذلك كله الا لاختلاف في مسئلة دينية أولتها كل فرقة على مقتضى اعتقادها وفهمها وكل هذا انما سرى لمصر من فتح دولة القسطنطينية حيث كثرت فيها الاختلالات والارتكاب وفشا فيها الانهمال على المعاصي من الاعيان والاكابر والعريضة من الجنود والاصاغر مما فاق الحد حتى ان المجادلة الدينية والمباحثات من العلوم الالهية بدون فائدة ولا ثمرة صارت من وظائف المتقلدين للقيصرة فأضاع القيصرة ما كان حقها أن يصرف في حسن التدبير وحصل منهم في سياسة ملكهم التقصير

فالديار المصرية اقتدت بهم في ذلك وسلكت مثلهم في مغاورة المسالك وليس لها باعث آخر لا يشار الفتن والمشاجرات غير ما أوجبه مصيبة الديانات ولم يكن أهلها اذذاك كاهل هذه الازمان والافاق وعسى أن يتسكن ذلك الانحطاط المترتب على الاختلاف سهل لدين الاسلام السبيل وكانت أسبقته علامة على احتياج مصر لتتوحها بالاسلام وتغير أحوال ذلك الجيل بجيل

جليل لتبلغ درجة من الترقى والتقدم على وجه صحيح وتخلص مما كانت عليه
من التمسك بما اتسمخ من دين المسيح فلما منحها الله سبحانه وتعالى من نعمه
طيب الهوا ورزقها بنصوبة الارض التي لا تجود في السوى كذلك أنعم
عليها بفتوحها بالاسلام الذي لا غلوف فيه ولا شطط وأتمته خير أمة أخرجت
للناس حيث هي الوسط فكما شقي قبط مصر بضياصرة الجدل في الدين فقد
سعدت مصر بخلافة خلفاء مصر الراشدين

يشقى رجال ويشقى آخرون بهم * ويسعد الله أقواما بأقوام
وآخر ملوك اليونان على مصر هرقل قيصر ونائبه على مصر هو الموقس الذي
حاربه عمرو بن العاصي وعليه اتصر

يا أيها السائل عما مضى * عن علم هذا الزمن الذاهب

ان كنت تبغى العلم وأهله * أو شاهدا يخبر عن غائب

فاختبر الارض بأسمائها * واعتبر الصاحب بالصاحب

ولنذكر جداول ملوك الدولة الخامسة والثلاثين التي رأس ملوكها
طيودوسيس الاكبر من تاريخ صدور أمره وآخرهم هرقل الذي بقي ملكه
على مصر لفتوح الاسلام

ابتداء الحكم مدة الحكم

(اسماء الملوك)

سنة سنة

قبل الهجرة قبل الهجرة

٢٤١	١٤	صدور أمر الملك طيودوسيس الاكبر
٢٢٧	١٣	بالتمسك بدين المسيح رسمًا وعمومًا
٢١٤	٢٢	الملك ارغاديوس
١٧٢	٧	الملك طيودس قيصر الثاني
١٦٥	١٤	الملكة بولشيرية القيصرية
١٥١	عشرة أشهر	وزوجها من قيانوس قيصر
١٥١	٢٠	الملك ليون قيصر
		الملك ليون قيصر الثاني الملقب بالسوقي
		الملك زينون قيصر والملك باسيلقوس قيصر

(أسماء الملوك) ابتداء الحكم مدة الحكم

سنة سنة

قبل الهجرة قبل الهجرة

٢٧ ١٢١

الملك أنسطاش قيصر الأول

٩ ١٠٤

الملك يوسطينيوس قيصر الأكبر
{ ويسمى جوسطينيوس الأول

٣٨ ٩٥

الملك يوسطينياوس قيصر الأول

١٣ ٥٧

الملك يوسطينيوس الثاني

٤ ٤٤

الملك طيبروس قسطنطين

٢٠ ٤٠

الملك موريقيوس ويسمى موريقيس {
ويسمى موريوس طيبروس

٨ ٢٠

الملك قوفاس قيصر

٢١ ١٢

الملك هرقل قيصر

بجملة حكمهم مائتان وتسعة وخمسون سنة كما سبق ذلك فاذا اجتمعنا تجدوها
كذلك وربما يختلف الحساب اختلافا يسيرا بالنظر للفروق اليسيرة التي تحصل
من عدم علم شهور التولية ثم انه ينبغي أن نذكر عقيب هذا الجدول جدول
عموم الدول التي حكمت مصر من ابتداء الملك ميناووس الذي هو مصرايم
الى آخر ملك من ملوك الروم جاء عليه الفتح الاسلامي وهو هرقل الذي كان
عامله على مصر الملك المقوقس وها هو الجدول

الدول المصرية على رأي ما يظنون كما في فهرسته التاريخية

وقت الدولة ونسبها العلي	قاعدة تلك الدولة	الأقليم الذي به قاعدة الدولة	مدة بناء الدولة	تاريخ الفتح مضافا لما قبل الفتح	*(ملاحظات تاريخية)*
طينيسية	طينيس	اقليم جرجا	٢٥٣ سنة	٥٦٢٦	محل طينيس الآن العراية المدفونة في عهد هاملو أسس ميناوس مدينة منف
شرحه	شرحه	شرحه	٢٠٢	٥٢٧٣	في عهد هاملو كية النساء كانت جازره
منفيه	منف	اقليم الجيزة	٢١٤	٥٠٧١	محل منف مبت وهيئة وفي عهد هاملو بنيت اهرام سقاره ودهشور
منفيه	شرحه	شرحه	٢٨٤	٤٨٥٧	في عهد هاملو بناء اهرام الجيزة الكبيرة
منفيه	شرحه	شرحه	٢٤٨	٤٥٧٣
فيليه	فيله	اقليم اسنا	٢٠٣	٤٢٢٥	فيله هي جزيرة اصوان
منفيه	منف	اقليم الجيزة	٠٧٠	٤١٢٢
منفيه	شرحه	شرحه	٢٤٢	٤١٢٢
اهناسيه	اهناس المدينة	بني سويف	١٠٩	٣٩٨٠
اهناسيه	شرحه	شرحه	١٨٥	٣٨٧١	هؤلاء الدول العشرة هي الطبقة العليا
طيوبه	مدينة طيوبه الآن قرية أبو	اقليم قنا	٢١٢	٣٦٨٦	أول الدولة رمسيس الثالث وفي هذا العهد كان بناء السرايب التي تحت الارض بالقيوم
طيوبه	شرحه	شرحه	٤٥٢	٣١٧٣
طيوبه	شرحه	شرحه	١٨٤	٣٠٢٠
سقاويه	سقا	اقليم المنوفية	١٨٤	٣٠٢٠

تابع الدول المصرية على رأى مانطون كما في فهرسته التاريخية

ان عدد الدول	قمت الدولة ونسبتها	قاعدة ملك الدولة	الاقليم الذي به	قاعدة الدولة	مدة بقا الدولة	تاريخ التملك من تاريخ الهجرة	(ملحوظات تاريخية)	
١٥	ملوك رعاه	مدينة منهم صان	اقليم الشرقية	}	٥١١	٢٨٢٥	يقال لدول الرعاة دولة العمالقة وهم عرب الحجاز والثام وفي أيامهم كان في طيبة بالصعيد ملوك مصر من منهم أوسو مندي ناس صاحب الكتفانة المشاة دواء الارواح والى الآن أشاهد في مدينة طيبة آثار قصوره واسمعه عند المصريين نفوس والدولة السابعة عشر آخر دول الطبقة الوسطى	
١٦	ملوك رعاه	مدينة منهم صان	اقليم الشرقية					
١٧	ملوك رعاه	مدينة منهم تيس شرقية						
١٨	طيوبه	طيوبه	اقليم قنا		٢٤١	٢٣٢٥	في عهد هذه الدولة أسس طوميسيس الاول مدينة أبو وخرج العمالقة من مصر وحفرن بحيرة قارون وهي ابتداء الطبقة الاخيرة رأس هذه الدولة رميسس الرابع	
١٩	طيوبه	شرح	شرح		١٧٤	٢٠٨٤	المقبهمون	
٢٠	طيوبه	شرح	شرح		١٧٨	١٩١٠	بهم هذه الدولة انتهاء الملوك الرميسية	
٢١	تنيسية	تيسر وهي صان	اقليم الشرقية		١٢٠	١٧٢٢	في عهد هذه الدولة ملك داود وسليمان عليهما السلام	
٢٢	بسطية	تل بسطه	اقليم الشرقية		١٧٠	١٦٠٢	رأس هذه الدولة الملك شيشاق	

تابع الدول المصرية على رأى مانيطون كافي فهرسته التاريخية

بيان عدد الدول	نعت الدولة ونسبها العلمية	قاعدة تلك الدولة	الاقليم الذي به قاعدة الدولة	مقدمة بقاها للدولة	تاريخ انقضاء مضافا للمجلد الهجري	*(ملحوظات تاريخية)*
٣١	فارسية	فارس	ابالة مصرية فارسية	٠٠٨	٩٦٢	فتوح العجم لمصر ثلث مرة ولم تعد دولة الملة المصرية للمتأصلين بها وهوانتها الطبقة الاخيرة وفهرسة مانيطون
٣٢	مقدونية	مقدونيا	ابالة مصرية يونانية	٠٢٧	٩٥٤	فتوح الاسكندرا لا كبر مصر وعمل بطليموس سوطير الخ وتأسيس الاسكندرية
٣٣	دولة البطالسة بطليموس		قاعدة المملكة الاسكندرية	٢٧٥	٩٢٧	هذه الدولة بطليموسية هي دولة اليونانية الا انها استقلالية بحكومة مصر ومضافاتها
٣٤	الدولة الرومانية رومة		ابالة مصرية رومانية قاعدة الاسكندرية	٤١١	٦٥٢	انتهت هذه الدولة من تاريخ امر طيودوسيس قيصر سنة ٢٤١
٣٥	رومية عيسوية روم قسطنطينية		حكومة مصر رومية	٢٥٩	٦٤١	انتهت هذه الدولة بفتوح مصر بالاسلام سنة ثمانية عشر من الهجرة المحمدية على صاحبها افضل الصلاة وأزكى النعمة

ثم انه من عهد التاريخ القديم الذي تكوت فيه الممالك القديمة والدول
العظيمة كدول مصر ودول اليونان ودول القرس الاولى كانت أمة العرب
عريقة القدم قائمة الملك على ساق وقدم وان لم تكن لهادولة تضبطها ولا
روابط سياسية تربطها الا أنها كانت على سنن قوم وطريق مستقيم
حريتها فطرية ونسائهم فطنتها عطرية دأبها حب الحاكمية لا الهكومية
والميل الى الغالبية لا المغلوبة فلهذا لم يكونوا في الاحقاب الخالية والاهصر
البالية تحت استعلاء دولة من الدول واذا غلبهم جنس قوى بالكثر لا يكاد
يتمكن من ادخالهم تحت الطاعة ولا أن يدخلهم في زمرة من في قبضته من
الجماعة ولا يستطيع أن يغير اخلاقهم ولا طباعهم ولا يمكنه تبديل صفاتهم
الميرة لهم عن معتادها فان كانت لهم طاعة اقتضتها صروف الحدثان فهي
طاعة صورية يتصلون منها حسب الامكان وكان لهم من الحرية والعزة اعلى
منية فلهذا بقيت اخلاقهم على تداول الدهور واحدة واسقرت عوائدهم
مستوية فصور أربعة آلاف سنة لا ناقصة ولا زائدة يميلون بالطبع لشن الغارة
على البلاد والاستيلاء على العباد واذا خرجوا الى التبعة قل أن يعزموا
على الرجعة فامة العرب دائما قوية على الاغارة على ما جاورها من الممالك
شديدة التغلب على ما جاورها من المسالك فقد غار ملوكها على مصر في قديم
الزمان وقوادح مصر بذلك أقوى دليل وبرهان وكافوا يدعون أيام دولتهم
بمصر بالمولد الرعاة وبالملوك العمالقة

ولما دخلها يوسف على نينوا وعليه أفضل الصلاة والسلام كان عزيزا عند
فرعون الذي كان من نسل هؤلاء العرب الرعاة وكانت أيام فرعون بغارته
أحسن الايام وقد تسلطن ملوك العرب أيضا على الشام والعراق كالغسانية
والكنديين وخلافهم وكان ذلك قبل الهجرة بأربعين وعشرين سنة وما تين
وألف فانتسعت بذلك دولتهم وتمكنت خارج حدود جزيرتهم وصولتهم
وربما أثبت التاريخ أن دولة حير ملك العالم بأسر من عرب وبهم وان
لهم آثارا يسيلاد السار في مدينة بلخ وهمذان وخلافها وان ذا القرنين كان
حيرا واستولى على جميع الامم وبالجملة فلا شك أن العرب بعد أن حكمت في
الزمان القديم خارج حدودها وأغارت على فراعنة مصر واتصرت عليهم

بأعلامها وبنودها كما حاربت بعد ذلك ملوك الموصل وهزمتهم غير مرة رجعت
الى حدودها الاصلية وبقيت فيها على اصول نخوة الحرية والشهامة
مستقرة

ولما تغلب كيروش ملك الفرس على مصر والشام وخلفه على تلك البلاد ابنه
قميماش الذي كان في الاغارات كالاسد الضرعام وطمع لقربه من بلاد
العرب في أن يستوعبهم كما استوعى من بجوارهم لم يستطع أن ينشأ العرب
بأظفاره وخاب أمه حيث استقر وأعلى الحرية ولم يذوقوا منه طعم ذل الرعية
وكذلك لما تغلب الاسكندر الاكبر على بلاد المشرق لم ترض العرب أن تقتطم
تحت لوائه ولادخلت تحت حكمه وولائه ولما حكم الرومانيون جميع بلاد
الدنيا وصارت دولتهم في أيامهم هي العليا ولم يسلم من حكمهم الا ما ندر من
البلاد ولا خلا من أسرهم الا قليل من العباد بقيت جزيرة العرب في
دولتهم مستقلة بأمورها مستقلة بنفسها يحكمها شيخها وأمرؤها
وملوكتها وكبرائها ولم تنقل للدولة الرومانية طرفه عين ولادخلت تحت
استعبادها والحر الزين لا يحمل القيد الشين نعم كان للرومانيين بعض ولاء
صوري على طرف من الحجاز ولم يكن في الحقيقة الا من باب الجواز حتى
ان عثمان بن حوثر لما تنصروا قصد أن يجعل الكعبة المشرفة ضمن هباكل
الروم واجتهد في ذلك خائب سعيه المولوم ومنعته كل المنع قريش وعرف
أن رأيه ليس من جيل الحلم بل من قبيل الطيش

فأصبحوا قد أعاد الله دولتهم * اذهبهم قريش واذما مثلهم بشر

ولن يزال امام منهم ملك * اليه يشخص فوق المنبر البصر

ان عاقبوا فالتما بين عقوبتهم * وان عفو اذوا الاسلام ان قدروا

وقد انتهى الحال بأن أتاح الله لهم خير دولة ومنهم عنه واحسانه أعلى
صولة قال الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه أمة العرب أولى الامم لانهم
الخاطبون أو الاولون الشريعة عربية والدين عربي وهو مأخوذ مما رواه ابن
عباس رضي الله عنهما أحبا العرب لثلاث لاني عربي والقرآن عربي وكلام
أهل الجنة في الجنة عربي وعنه أيضا أحبا قريشا فانه من أحبهم أحبه الله
تعالى فالعرب هم الذين قاموا في نصرة الدين وباعوا أنفسهم لله تعالى

وأظهر والاسلام وأزاحوا ظلمة الشرك ولنذكر في الباب الثاني مناقبهم
الحسنة التي لم تزل على صفحات الدهر حسنة

(الباب الثاني)

فما كانت عليه العرب قبل الاسلام الى أن ظهر بين ظهورهم بدر
النعام ومصباح الظلام عليه أفضل الصلاة والسلام وفيه فصول

(الفصل الاول)

* (في حفة العرب المميزة لهم عن غيرهم) *

اعلم أن العرب ترجع كلها الى قحطان وعدنان فيقال لسائر قحطان اليمن ويقال
لسائر بني عدنان المضاربة والتزارية وهي قيس ويقال قيسى ويعانى كما يقال
سعد وحرام وكل من قحطان وعدنان كما هم متحدون في التسب متحدون في
الطبايع والعوائد على اختلاف طبقاتهم الست التي هي الشعوب والقبائل
والعشائر والبطون والانحاذ والفصائل فالنعب أكبر من القبيلة كربيعة
ومضر والامس والخزرج والقبيلة ككثانة والعمارة كقريش والبطان
كقصي والفخذ كهاشم والقصيصة كبنى العباس وأقل صفة من صفات
العرب المحمدة وهي الشهامة في الحرم على ما يوجب الذكر الجليل من العظام
والثناء الجليل من المكارم وهذه الصفة كعلو الهمة والهمة والجملة والتجدة من
اركان الشهامة التي هي صفة جامعة لذلك فكانوا يحبون المحامد والفخر
وبعد الصيت بما يعدونه عندهم من الفعل الجليل كاتصارهم على الاعداء
وكسب الغنائم فكانت النصرة عندهم تقوم مقام الحقوق المدنية فيما
يترتب عليها من المزايا البلدية أو هي عين حقوق الحرب والصلح عند الامم
المتحدة وانما يتولاها صاحب الحق بنفسه أو بقبيلته لان افراد العرب
جميعهم كانوا يسوسون أنفسهم بنفسهم وكانوا يتقنون من العدو يأخذ
الثار فكانت المقاصة عندهم يستوى فيها سائر العشائر والقبائل فلا قبيلة
الاو أخذت اثارها من القبيلة الاخرى ولا عشيرة الاوتستوفى نأرها وتنتفي عارها
فكانت المحمدة على الخير والشر باعثة لهم على كسب المحامد وعلى كسب

المطالب المأذونة التي يعدونها من المحامد الحقيقية كما يحكى أن بعض العرب
وقف على قبر عمار بن الطفيل بن مالك بن جعفر العامري فقال يرثيه أنتم
ظلاماً أباع على فلقد كنت تشن الغارة وتحمل الجارة سريعا إلى المولى بوعديك
بطياً عنه بوعديك وكنت لا تفضل حتى يضل النجم ولا تهاب حتى يهاب السيف
ولا تلعش حتى يلعش البعير وكنت خير ما تكون حتى لا تظن نفس بنفس خيرا
انتهى فقدم مدحه بأحسن ما يوصف به عربي فكان بقاء ذكر الإنسان بعد
الموت بمنزلة الحياة قال بعضهم

فأتوا عيسى الأبا ليكم * بأفعالنا ان التناء هو الخلد

وقال آخر

فان يك أقتة الليالي فأوشكت * فان لم ذكر اسيفنى الليالي
ومن صفاتهم العبدة التي هي عدم الجزع عند المخاوف فكانوا امنها على مكاة
عالية فكانت أحلامهم نحمل أجسامهم ما لا يطاق وسواء في ذلك الشخص
والقبيلة كما قبل في الأول

أكر على الكنية لأبالي * أقفا كان حتى أمسواها
ولى نفس تنور الى المعالي * ستلف أو أبلغها مناسها

(غيره)

كنت المتقدم غير لابس جنة * بالسيف تضرب معلى أبطالها
وعلمت أن النفس تلقى حنقها * ما كان خالقها اليك قضى لها

(غيره)

فان يك قيسدى كان نذر اندرته * فابى من أحساب قومي من شغل
أنا الضامن الراعى عليهم وانما * يدافع عن أحسابهم أنا وأمنلى
(وقيل في الثاني)

وكفى نستقل بجمل سنى * وبى عن يعضنى امتناع
وحولى من بنى قطان شيب * وشبان الى الهيجا سراع
اذ افزعوا فأمرهم جميع * وان لا قوافل أيديهم شعاع

وقوله

لا يعدن قومي الذين هم * سم العداة وآفة الجزر

النازلي بكل معتزك * والطيبين معاقدا الازر

فكان اذا خطر قبيلة منهم ذات يوم فكرة اقتحام خطر من الاخطار لقضاء
وطر من الاوطار اتخذ أفراد القبيلة وصاروا على قلب رجل واحد وهموا
بتنجز ما أضره وقل أن يهوتهم شجازه كما قيل

كانوا على الاعداء نار محرق * ولقومهم حرمان الاحرام

وكان طريق وصولهم الى مقصودهم بشيئين متوفرين عندهم وهما التقبال
القبيلة في اللغة واتحادها في الدين اذ كان لكل قبيلة لغة خاصة بها وعبادة
كذلك فلو كانت القبائل العربية في تلك الازمان الاولى يجمعها لسان
واحد يحصل به التفاهم مع القبائل بدین واحد لسانا واحدا غيرهما من الامم في
السلطة والباس ولاخلص من الدخول في دولتهم أمم من الامم ولا أحد من
الناس وسياق الكلام على لسان العرب وأديانها

ومن صفات العرب الحمية على العرض وشرفه وحفظ ناموسه وهذه الصفة
بعضها هي التي بعنيتهم جميعا على اختلاف قبائلهم على علو الهمة وكمال
الشجاعة وكرم النفس وانما اتفاني بعضهم في شرف العرض حتى أذا هم الغلو
فيه الى صفات ذميمة كدفن البنات بالحياة الذي هو أقطع ما يكون في حد ذاته
الأن المعنى الباعث عليه عندهم كانوا يرونه جيد الدفع العار وهذا ما يسمى
بالوأد يقال وأد المؤودة بشدها دفنها حية وكانت العرب في الجاهلية تفعل هذا
بالبنات فقيل ان هذا التجنب العار وقيل لخشية الاملاق التي يترتب عليه
عدم وجود الكف لازواج فيخشى عليهن التفریط في العرض أو الميل لغير
الكف والعجز عن التكسب من البنات وقدرة البنين عليه

فكان الرجل اذا ولدت له بنت فأراد ابقاء حياتها ألبسها جبة من صوف
أو شعر لترعى له الابل والغنم في البادية وان أراد قتلها تر كها حتى اذا بلغت
قامتها ستة أشبار فيقول لامها طيبها وزينها حتى أذهب بها الى آفارها وقد
حضر لها بئر في الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها انطري فيها ثم يدفعها من
خلفها ويهيل عليها التراب حتى يستوى البئر بالارض وقيل كانت الحامل
اذا قربت حفرت حفرة فتمحضت على رأس الحفرة فاذا ولدت بتارمتها في
الحفرة واذا ولدت ابناً أمسكته ولا مانع من حصول الوأد بالطريقتين بل

وبطرائق أخرى والحال على ذلك أما خشيعة الاملاق أو خشيعة العار فقد كان
قيس بن عاصم المنقري يندبنا مع كثرة ماله
وكان صمصمة بن ناجية الجاشعي جد الفرزدق يشتري البسات ويخلصهن عن
القتل كما قال الفرزدق مقفرا

ومنا الذي منع الواديات • وأحيا الوئيد فلم تواد

يروى أن صمصمة لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا رسول الله اني
كنت أعمل عملا في الجاهلية أفينفعني ذلك اليوم قال وما عملك فأخبره بغير
طويل فيه أنه حضر ولادة امرأتين من العرب يتنافا وأدأبوهما أن يتدها قال
فقلت له أتبيعها قال وهل تبيع العرب أولادها قال قلت انما اشتري حياتها
ولا أشتري رقها فاشتريتها مائة بناقتين عشراوين وجل وقد صارت لي سنة في
العرب على أن أشتري ما يشدونه بذلك فعندي الى هذه الغاية ثمانون ومائتا
مروضة وقد اتخذتها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتبعك ذلك لانك لم
تبتغي بذلك وجه الله وان تعمل في اسلامك عملا صالحا تب عليه وفاخر
الفرزدق رجلا عند بعض خلفاء بني أمية فقال أنا بن يحيى الموتى فأنكر ذلك
عليه من قوله فقال ان الله عز وجل يقول ومن أحياها فكأنما أحيا الناس
جميعا وجدي منع وأد البنات واشترأهن بيماله فذلك الاحياء فقال الخليفة
انك مع شعرك لقصي مع أن الفرزدق وان أحسن في المعنى فقد أساء في العبارة
فلا ينبغي سماع مثل ذلك لانه تلاعب بالدين وتطير ذلك أن رجلا أراد التوصل
الى المأمون فقال أيها الناس اعلوا أن عندي ما ليس عند الله تعالى ولي
ما ليس لله تعالى ومعى ما لم يخلق الله تعالى واني أحب القسنة وأكره الحق وأقول
ان اليهود قالت حقوا والنصارى قالت حقوا ومعى زرع ينبت بغير بذر
وسراج يضي بغير نار وأنا أحمد النبي وأنا ربكم أرفعكم وأضعكم فقاموا اليه
وكادوا يقتلونه فأتين لا كفر فوق هذا فرفعوه الى المأمون فسأله فعرفه انما
قال ذلك ليتوصل اليه وأخذني أول فقال أما قولى لي ما ليس لله تعالى فان لي
صاحبة وولدا وليس لله صاحبة ولا ولدا وأما عندي ما ليس عند الله تعالى
فعندي الظلم والجور ومعى ما لم يخلق الله تعالى القرآن والقسنة المال والولاد
والحق الموت والزرع بغير بذر والشعر والسراج بغير نار العينان والحق الذي

قاله اليهود والنصارى ما حكاه الله تعالى عنهم قالت اليهود ليست النصارى على شيء الآية وأنا أجد النبي يهني أحدنيينا محمد صلى الله عليه وسلم وأشكوه وأنا ربكم صاحب لكم أرفع ذكركم وأضعه انتهى وهذا الاطلاق مستهجن قبيح لا يجوز ذكره فمدح القرزوق بالافقهية زيادة عن الشعر في التعبير عن فداء الموقودة بجميع الموقى استحسان قبيح لاسيما من مثل الخليفة الاموى

والظاهر أن الواء لم يكن مع ذلك كثيرا وان كان واقعا فإن العرب كغيرها من الامم تحرم على النسل حيث هو أمر طبيعي فالواء عرضي فقط ونادر لا حكم له فقد عهد عندهم زواج الفقيرة لابناء الملوك وزواج امرئ القيس في بحثه عند احياء العرب عن ذات عقل يؤيد ذلك وقصة زواجه انه كان آلى على نفسه أن لا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة واثنين فجعل يخطب النساء فاذا سألهن عن هذا قلن له أربعة عشر فيغفلها ويسير في جوف الليل اذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة كانت البدر ليلة تمه فأعجبته وقال لها يا جارية ما ثمانية وأربعة واثنان فقالت أما ثمانية فأطباء الكلبة وأما أربعة فأخلاف الناقة وأما اثنان فتديا المرأة فخطبها من أبيها فأجابها الى ما طلب وقصة بنات الحلق الكلابى مما يؤيد ما قلناه كما سيأتى في الكلام على سوق عكاظ قريبا

ومن صفات العرب أيضا كرم النفس ومكارم الاخلاق وكان يحملهم على الاتصا لمن استنصر بهم واجارة من استجار كما يحملهم على صدق العهد ووفاء الوعد يستوى في ذلك منهم الوثني والكأبي حتى بقى فيهم الى الاسلام بالاولى والآخرى وهذا كله يجمعه الانصاف بالمعاهد والمكارم فالمحمدة اسم جامع للصفات الحميدة ومن تأمل قصيدة الشنفرى التي مطلعها

أقيموا بنى أمتى صدور مطيكم * فاني الى قوم سواكم لا أميل
يقول منها

وكيل أبى بابل غير اتقى * اذا عرضت أولى الطرائد أبيل
عرف همه العرب ومن وزن معلة عمرو بن كلثوم المشهورة ولا مية السموأل
بميزان العقل عرف أيضا أحوالهم اذ كلهم على هذه المثابة وهي
اذا المرء لم يدنس من الزوم عرضه * فكل رد امر تدي به جميل

وان هو لم يحمل على النفس ضيها * فليس الى حسن التناهي
 تعبرنا انا قليل عدينا * فقلت لها ان الكرام قليل
 وما قل من كانت بقايا مثلنا * شباب تسامى للعلا وكهول
 وما ضرتنا انا قليل وجارنا * عزيز وجارا لا كثرين ذليل
 لنا جيل يحتله من نجيره * منيع يرد الطرف وهو كليل
 رسا أصله تحت الثرى ومجابه * الى التجم فرع لا ينال طويل
 وانا انا لا نرى القتل سبة * اذا مارأته عامر وسلول
 يقرب حب الموت آجالنا * وتكرهه آجالهم قتلول
 ومات مناسيد حنف أنفه * ولا طل مناحيت كان قتيل
 تسيل على حد الطبات نفوسنا * وليست على غير الطبات تسيل
 ونحن كاه المزن ما في نصابنا * كهام ولا فينا يعد بجيل
 وتكران شتتا على الناس قولهم * ولا يشكرون القول حين نقول
 اذا سيد منا خلا قام سيد * قول بما قال الكرام فعول
 وما أخذت نار لنا دون طارق * ولا ذمتنا في النازلين نزيل
 وأيامنا مشهودة في عدونا * لها غرر مشهورة وجول
 وأسياقنا في كل شرق ومغرب * بهامن قراع الدراعين فلول
 معودة أن لا تسلم نصالها * فتغمد حتى يستباح قبيل
 سلى ان جهلت الناس عنا وعنهم * فليس سواء عالم وجهول
 فانا في الريان قطب لقومهم * تدور رحاهم حولهم وتجول

وقال عباس بن عبد المطلب يذكر فخار قريش

ان القبائل من قريش كلها * ليرون أناهام أهل الابطح
 وترى لنا فضلا على ساداتها * فضل المنار على الطريق الاوضح

وسأني لذلك بقية عند ذكر الشعر والشعراء في الجاهلية
 وقد بقيت هذه الخطوة القصارية في العرب الى الاسلام بل والى الازمان
 الاخيرة عند نسل العرب المتزمنين فمن ذلك ما ينسب لبعض عظماء أولاد عائد
 بالدوير بصعيد مصر وهو قوله

اذا مار كبتنا ظهور الجياد * فمن ذا القرسا تايقهر

ومهما أمرنا لكل البلاد * فكل مطيع لما نأمر
 وفن المولود أهل السداد * وفن لاصداقهم جوهر
 ومن ينتخبنا نال المراد * ويرجع طلقا ويستبشر
 نخل سوانا وصف القواد * ترى من عطانا الذي يهر
 وفي الواقام عند عرب الصعيد مقام الشعر عند سلفهم فلهم فيه الملكة
 الجديدة مع لحنه الذي يحلوه ومع ذلك فأين هذا كله من ذلك
 أما الخيام فانها كخيامهم * وأرى نساء الحى غير نساها

(الفصل الثاني)

* (في لسان العرب وكون ملكة الشعر والخطابة فيهم بالجيلة والطبيعة) *

لما كانت العرب مطيعة لطبائعها التولية وغرائزها القطرية وكانت الملكة
 الاصلية الجيلية فيهم على حد سوى اتحدت أنفسهم وأفكارهم وحاسنهم
 وبلاغتهم مقالهم وانما اختلفت فيهم لغات الاحياء والقبائل ومخاطبات
 البطون والعشائر يعني اتحد اللسان الذي به الفهم والتفهم واختلف متعلقه
 واحوال التلفظ به في التأدية وأسماء السميات وكيفيات الحركات والسكان
 ومع ذلك فاللسان واحد وعلى قاعدة واحدة تكاد أن تكون عمومية
 لا يغيرها تغيير والالكان لحننا وغلطا ولا يجوز أن يتوهم في العربي البدوي
 أن يغلط في نطقه ويلحن فيه وان تعم ذلك لا يطاوعه لسانه فالعرب معصومون
 من لحن اللسان واطلاق الالفاظ على معانيها وانما يجوز أن يغلطوا في المعاني
 أي لا يطابق كلامهم الواقع فقدرته على من قال في مدح مسيلة الكذاب
 وأنت غيث الوري لازلت رجما * أنه لا يطلق الاعلى الله تعالى وانما قالوا
 ذلك لتعنتهم في كفرهم بأن التعنت في الكفر لا يخرج العربي عن طبعه لانه
 معصوم من اللحن وان المخصوص بالله تعالى الذي لا يطلق على غيره انما هو
 المعروف باللقب واللام

ولما كانت لغات العرب لا بد من تداولها في المحاورات والمخاطبات
 والمحاضرات وكان أهل نجد والحجاز مثلا لا يفهمون لغة اليمن وجبل ربحا
 كانت قبائل اقليم واحد لا تكلم بعضهم بلغة واحدة أي لا تستعمل كلمات

واحدة في تأدية المعنى وكأولاً جميعاً ما لعين قول الشعر ونشره بينهم بدون بأس
 عن أبطأ في قوله ثم نطق به كالنابغة الذي نبغ فيه مرة واحدة ولقب بذلك اجتمع
 الشعراء واجتمعوا رأياً عليهم على تحسين اللسان العام الذي يكون به التقاهم عند
 جمعهم وأنجزوا ذلك فكانوا في أواخر أمرهم إذا ظلموا أقصائهم حاولوا أن
 تكون أنفاظها مألوفة للجميع متعارفة بحيث تفهم معانيها المقصودة منها
 لجميع أحياء العرب وقبائلهم فكان شاعر العشيرة إذا أراد أن يتراً ويتسلم
 وتواردت على لسانه عبارات متعددة تؤدى معنى واحداً أو ألفاظ مترادفة
 على معنى واحد أثر تأدية ذلك باللفظ المألوف لجميع العشائر فتكون من ذلك
 لسان عربي مشترك بين لسان العرب على اختلاف أحيائهم ولا شك أنهم كانوا
 محتاجين إلى ذلك لأن العرب لم تكن أصحاب كتب يرجعون إليها وإنما كانوا
 يرجعون إلى حفظ بعضهم من بعض يتلقى كل طبقة عما فوقها ما توارث من
 الاخبار والآثار فيتناقلون توارثاً في أحسابهم ويحفظونها بحافظة على صفاء
 أنسابهم ولا يسهلون معرفة ما ترقدهماهم وأسلافهم ووقائعهم وحوادث
 حروبهم وخطوبهم وعلاقاتهم مع من جاوهم وكل هذا بطريق الروايات
 خلفاً عن سلف فلم تكن العرب لتتسنى سياستها المتزلية ولا فرطت في ذكر
 روابطها وعلاقاتها الخارجية والداخلية لاسمها ولا حروبها بعضهم مع بعض
 أومع الأكامرة والقباصرة والحبيش وغير ذلك فقد تضمن الخبر عن ذلك كله
 أشعارهم وقوافيهم وقصائدهم ومعلقاتهم فكان شعراؤهم يقصون تلك
 الحوادث والنوازل في قصائدهم فصيح الالفاظ وبلغ المعاني بما ينبغي عن
 غرات أفكارهم ونتائج قرائحهم وينقل من جيل إلى جيل لكثرة حفظهم
 حتى صار لا يشك في فصاحتهم الأعاجم ويدل على ذلك كلام أكنم بن صبيح
 بين يدي كسرى إذا قام بين يديه فقال إن أفضل الأشياء أعاليها وأعلى الرجال
 ملوكها وأفضل الملوك أعماها نفعاً وخيراً لازمة أخصها وأفضل الخطباء
 أصدقها والصدق منجاة والكذب مهواة والشر بلحاجة والحزم مركب
 صعب والعجز مركب وطىء وآفة الرأى الهوى والعجز مفتاح الفقر وخير
 الأمور منقبة الصبر وحسن الظن ورطة وسوء الظن عصمة وإصلاح
 فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى ومن فسدت بطائته كان كالغاص

بالماء وشر البلاد بلاداً لمير لها وشر الملوثة من خافه البرى وخير الاعوان
 من لم يراع العصبية وأحق الجنود من حسنت سيرته ويكفيك من الزاد ما بلغك
 الحمل وحسبك من شرباعه والصمت حلم وقليل فاعله البلاغة في الايجاز من
 شدته نغز ومن زاحى ألف فتجب كسرى من حكمكم أكرم وأمثاله ثم قال له ويحك
 يا أكرم ما أحكمك وأوتى كلامك لولا موضعك أخذ كلامك في غير موضعه
 فقال أكرم الصدق يني عنك لا الوعيد قال كسرى لولم يكن للعرب غيرك
 لكفاهها قال أكرم رب قول أئخذ من صول وقال كسرى لحاجب بن زرارة
 حين ذهب اليه ليرهن قومه عنده وقد تكلم بين يديه ما أشبهه بحجر التلال
 بألوان صخرها قال حاجب بل زئيرا لاسد بصولتها قال كسرى وذالك ولما تكلم
 خطباء العرب بين يدي كسرى يشكون ملكهم العامل من طرفه عليهم
 وأبلغوا في الكلام والخطابة مع الجرأة ويدون مبالاة كعادتهم قال قد فهمت
 ما نطق به خطباءكم وتغنن فيه متكلموكم ولولا اني أعلم أن الأدب لم يشفق
 أولادكم ولم يحكمكم أموركم وأنه ليس لكم ملك يجمعكم قنطقون عنده منطق
 الرعية الخاضعة الناحية فنطقتم بما استولى على ألسنتكم وغلب على
 طبائعكم لم أجركم كثيرا بما تكلمتم به وانى لا كره أن أجبه وفودى وأخشن
 صدورهم والذي أحبه إصلاح منذركم وتأنق سوادكم والاعتذار الى الله فيما
 بيني وبينكم وقد قبلت ما كان من منطقكم من صواب وصفت عفايه من
 خلل فأنصرفوا الى ملككم وأحسنوا موازنته والزموا طاعته وادعوا
 سفهاءكم وأقيموا أودهم وأحسنوا أديبهم فان في ذلك اصلاح العامة وأجدر
 بطول السلامة ثم أمر لكل واحد منهم بخمسين ديناراً وحلة وصرفهم فلم يلهم
 كسرى الا بعدم حسن الخطاب مع المولى ولذلك أمرهم بهذيب خطابهم
 وفي الحقيقة انتهاء أمر العرب أن لسانهم قد دل على تهذيب اخلاقهم
 وعوائدهم

وقد دلت أشعارهم على وقائعهم التاريخية وأيام حروبهم وعلى ما كان
 عندهم من الاخلاق والعوائد دلالة كافية في الوضوح وعمارة قرض
 الشعر على هذا الوجه المتسجم تنقحت اللغة العربية وتخلصت من شوائب الركة
 والكنة واستعمال الالتقاط المحوشية والغريبة وأتم قرض الشعر بهذا الوجه

المقبول فوائده منها أنه كان يدعو إلى المروءة وعلو الهمة ويحمل على
التجاعة والاقدام على عظام الامور من كل ما يجب على الانسان أن يتعرض
له يدفع ما يصل اليه من المكارة وبما يصل الى من احتجى به وصار محسوبا
عليه فان الخطابة تبعث همة السامع أو المتكلم على الاقدام الى ما يطلبه
النفس فلذلك كان لشعراء العرب في ذلك العهد نفوذ تام ورسوخ أقدام
واعتماد عليهم ووثوق بهم فكان كلامهم حجة يستشهد وعليه يعتمد
للسادة الشعراء فضل ثابت * ولهم مقام شاخ ومكان
وهم سلاطين الكلام أمارى * كل امرئ منهم له ديوان
فقد كانوا دون غيرهم هم المؤرخين والتساين والناقضين للعوادث في جزيرة
العرب بجمالها الاشتمال قصائدهم على الوقائع والمآثر والنوازل والمفاخر
وتحول الاحوال من مكان الى مكان وتنقل الحوادث من زمان الى زمان
فكانوا بدون شك ولا شبهة أمراء الكلام وأهل الحل والابرار
ولما كانوا هم المحسنين والمقبحين والمادحين والقادحين والمفرجين والمهزدين
كانوا يرفعون القبائل ويخفضونها ويعزونها ويذلونها ويشرفونها وبضعونها
كما يشاؤون مدحا وهجوا تلويحا وتصريحا تعريضا وكناية
وللشعراء السنة حداد * على العوراء ما برحت دليله
ولكن السعيد من اتقاها * وداراها مداراة جميله
ولذا كان يخشى بأسهم ويحترم جنابهم وكثيرا ما كانت تجتمع العرب تحت
خيامهم وقبابهم فيشادون الاشعار ويتغنون بها بالانغام والايقاعات
فتطرب المسامع وتخلو على لسان منشد ها وناظمها كما تلذ بها أذن السامع
فكانت البدوى من العرب مخلوق من أصل الفطرة لقرض الشعر وابتكار
المعاني البديعة والتفنن في أنشاء الكلام فتارة تكون قصيدته في فن واحد
وتارة تتضمن فنونا متعددة كالافتخار بعلو الهمة وشدة البأس وهذا ما يسمى
بالجاسة والتمتدح بال مناقب النفسه وهو المسمى بالفخر وكذا كراهي الحسن والجمال
وهو الفن المسمى بالنسيب وكذا كراهي استفادته الفوائد الحسنة ويتبع
ويقتل به وهو فن الحكم والآداب والاخلاق وكذا كراهي الأسف على فقد حبيب
وبث محاسنه وهو فن الرثاء وكذا كراهي الوقعة في الاعراض والانساب ورعى

الانسان بالمعائب والمثالب وهوفن الهجو واحتجاج المرء لنفسه وذفع اللوم عنها وهوفن الاعتذار وكذا التصوف والتبذ وهوفن الوعيد وغير ذلك من أنحاء الشعر كالغتاب والرمذ وكريهاتب الكائنات وتوصيفها وذكر الطلول والمنازل ووصف الطباع والغزلان وغير ذلك من الاساليب التي لانهاية للتفنن فيها فقد يجمع الشاعر بين عدة منها في قصيدته ولكن المقصود بالاصل هوفن واحد وقصيدة كعب بن زهير في مدحه صلى الله عليه وسلم التي مطلعها بانت سعاد قلبي اليوم متبول * جامعة للفنون الشعرية المذكورة وقد أنشأ العرب بصيغيات احتفالية في أسواق دورية ذات مبادي شعرية كسوق عكاظ وغيره وسوق مجنة وسوق ذي الجاز ولكن سوق عكاظ هو المميز بينها بالسباق في الشعر وغيره وهو موضوع الفصل الا في

(الفصل الثالث)

(في ذكر سوق عكاظ في الجاهلية)

عكاظ قرية بعمرارة بين نخلة والطائف على ثلاث مراحل من مكة المشرفة وكان فيها سوق أسبوعية يوم الاحد وسوق سنوية كانت تقوم هلال ذي القعدة ويستمر موسمه عشرين يوما تجتمع فيها قبائل العرب فيتعاكفون أي يتفخرون ويتناشدون وكان من فوائدها أن العرب يتعارفون فيها ويتحابون وكانت فرسان العرب اذا كان أيام عكاظ في الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضا يتقنعون حتى لا يعرفوا وان كانت هذه السوق تؤذن بالتعامل والاخذ والعطاء الا أنه كان في الحقيقة جبل الغرض منها اجتماع فحول الشعراء والقصاص والبلغام من أهل العربية لابتداء نتائج افكارهم واظهار محاسن فصاحتهم وبلاغتهم ومثل عكاظ في ذلك سوق ذي الجاز خلف جبل عرفات وأسواق أخرى وكانت هذه الاسواق ساذجة بسيطة مجردة عن الزينة والزخرفة لكنها هيبية محترمة يزدحم فيها الشعراء من جميع جهات بلاد العرب ويقوم الشاعر ويرزى حومة الميدان وأرباب المجلس ثابتون في مكانهم فينشد الاشعار من قريضة وهم يصغون الى سماعها منه ويحرصون على التقاطها من فم مجرد النطق بها ويحفظونها على ظهر قلب

وأول ما يبرز الشاعر في الميدان يظهر بظهور الشعاعة وبشقة الحماس
ويغاشي قبل أن يشد الشعر مشية اليه والاعجاب ليتحقق من حاس نبات
فكره مع تجزئه عن أبهة المنصب وزهو الزينة وليس عليه من الملابس ما يدل
على شعاع مرتبة عالية ولا دنار شرف ولا مجدين قومه ومع ذلك فما كانه
الاهلال الشك أو شمير الضمى انبعث منها الاشعة فلا تكاد تنقل تشخص
اليه أبصار الحاضرين وتحديق به الاعين وتأمل في مشيته حتى يصعد الى محل
مرتفع عزلة المنبر بعكاظ يعشى الناظرين اذا هم لمواشعاه
ففي شدي صوت جهوري قصيده بهما هادون أن يقطعها عليه أحد قارة
تكون مرتجلة بالبدية وتارة يكون قد قلبها بالروية قبل ذلك وهياها لنشدتها
في الجمع ولكن الغالب على قول شعراء العرب انهم كانوا يرتجلون الشعر بدون
روية فيأتون فيه بما لا يقتدر غيرهم على الاتيان به في حول كامل ومنهم من
كان بخلاف ذلك كما يروي عن زهير بن أبي سلمى أنه كان ينظم القصيدة في
أربعة أشهر ويهذبها بنفسه في أربعة أشهر أخرى ويعرضها على الشعراء
من أصحابه في أربعة أشهر ثالثة فلا يشهرها حتى يأتي عليها حول كامل ولذلك
تسمى قصائده بالحوليات وهذا لا يقدح في فضله حتى قبل أنه أشعر الجميع وكان
إذا فرغ الشاعر من الانشاد أمعن الحاضرون النظر في ينات أفكاره
ونقدوها بصرف عقولهم وظهرت في وجوههم سيما الاستقصان للماعنام في
شأن حاله وأمره وكيفية تجلده ومبصره أو تبين من حالهم أنهم لم يستحسنوا
نظامه ولا استصوبوا كلامه وكان الشاعر يجلس جلسة خطيب للاستراحة
ويعود الى غمام انشاده بحماس أقوى من المرة الاولى ونشاط كأنه قد أذكي
من عقله مصباحه فيقص عليهم بقية أشعاره بهمة عالية وجاسة شوقية
فيكسب في المحفل العام ما يستحسن من القصائد بحروف الذهب على منسوج
الحرير ويعلق على الكعبة المشرقة ليخلد اسمه ويبقى على مدى الأيام وجمعه
ولا يزال في الخلف بقايا ما تراث السلف ولهذا بقيت شهرة المعلقات السبع
محفوظة الى عهدنا هذا وقد اعتنى علماء الاسلام بشرحها لما اشتملت عليه من
القصاحة والبلاغة والصناعة الشعرية

وكان يجتمع بسوق عكاظ سادات العرب وملاوكمهم وقبائلهم ورؤساء القبائل

وعرفاؤها كما قال طريف العنبري من آيات يخاطب قبيلة بكر بن وائل
 أوكلنا ورددت عكاظ قبيلة * بعثوا الى عمر يفهم يتوسم
 قوسهموني اني انا ذلکم * شاكي سلاح في الحوادث معلم
 قحقي الاغرو فوق جلدي نثرة * زعق ترد السيف وهو مشم
 حولي أسبدوا الهجيم وما زن * واذا حلت فحول يتي خضم

وكان طريف من الشجعان وكان اذا أتى سوق عكاظ لا يتقنع كما يتقنع غيره
 من الفرسان وكان قبل ذلك قد قتل شراحيل الشيباني فقال حصيصة بن
 شراحيل أروني طريفا فأرواه ففعل كمل فتر به طريف في سوق عكاظ تأمله
 حتى فطن له طريف وكان ذلك في الشهر الحرام تأمن القبائل من بعضها فقال
 طريف لحصيصة بن شراحيل مالك تنظر الى مرة بعد أخرى فقال ألتو حن
 لا عرفك فقله علي تذران لقيتك في حرب لا قتلنك أولتقتني فأنشد طريف
 قصيدة منها تلك الآيات والمعنى ان لي على كل قبيلة جناية فني وردوا عكاظ
 طلبني القيم بأمرهم ليتعرفني فيها فأفليتوسموني فأني شاكي السلاح ولي في
 الوقائع شعاعا ظاهرا وتحتي فرسي الاغرو ولا بس درعي اللين الذي يرد السيف
 كليلًا وحولي عشرين واذا نزلت فحول يتي قبيلتي العنبرية المسماة خضم وقد
 كان لمذح فحول الشعراء وقد حهم تأثير في النفوس يترتب عليه ما يترتب في
 خارج العيان من الخفض والرفع والاعزاز والاذلال كما سبقت الاشادة اليه
 وكان الاعشى الاكبر يأتي عكاظ في كل سنة فخر على بني كلاب وكان المحلق
 الكلبي رجلا فقيرا الحال ذا كرويه بنات لم يخطبن أحد من الأزواج
 رغبته عن أيهن لفقره فقالت له امرأته ما يمنعك يا ابن كلاب من التعرض
 لهذا الشاعر والتعرف به واكرامه فآرايت أحدا آواه اليه وجذبه الا
 وأكسبه خيرا فقال ويحك ما عندي الا ناقتي فقالت الله يخلفها عليك فتلقاه
 قبل أن يسبق اليه أحسن الناس وكان الاعشى بصيرا وله ابن يقوده فأخذ
 المحلق بخطام ناقة الاعشى فقال الاعشى من هذا الذي غلبنا على خطامنا
 فقيل المحلق فقال شريف كريم ثم مله ابنه اليه فأنزله ونحو له المحلق ناقتة ثم
 أحاطت به بناته يخدمنه فقال ما هذه الجوارى حولي قال بنات أخيك وهن
 ثمان نصيبن قليل فقال الاعشى هل لك حاجة قال المحلق تشيبد كرى فلعلي

أشهر فخطب بناتى فنهض الاعمش من عنده ولم يقل فيه شيئا فلما وا فى سوق
عكاظ اذ هو هناك قد اجتمع الناس عليه فأنشد الاعمش قصيدته القافية التى
منها

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة * الى ضوء نار بالبقاع تحرق
تشب لمقرونين يسطلها بها * وبات على النار الندى والمحلقي
فاشهرت هذه الايات فى العرب وماأت على المحلق سنة حتى رزق
البنات

وكانت تضرب النابغة قبة حرام من آدم بسوق عكاظ وتأتيه الشعراء فتشده
أشعارها وأول من أنشده الاعمش ثم أنشدته الخنساء فكان للنابغة الذيانى
التقدم على جميع شعراء عصره وهو من فحول الطبقة الاولى المتقدمين على
سائر الشعراء قال ربيع بن خراش قال لسانى رضى الله عنه يا معشر غطفان
من الذى يقول

أبتك عاريا خلقا ثيابي * على خوف تظن بي الظنون
قلنا النابغة قال ذلك أشعر شعرائكم وقال عمر بن المتشر المردى وقد ناعلى
عبد الملك بن مروان قد خلنا عليه فقام وجل فاعتذر اليه من أمر وحلق
عليه فقال له عبد الملك أما كنت حريا أن تفعل ولا تعتذر ثم أقبل على أهل
الشام فقال أياكم يروى من اعتذار النابغة الى النعمان

حلفت فلم أترك لنفسك رية * وليس وراء الله للمرء مذهب
فلم يجد منهم من يرويه فأقبل على فقال أترويه قلت نعم فأنشدته القصيدة كلها
فقال هذا أشعر العرب وسأقذكره فى الكلام على المعلقات

وكانت العرب اذا أتت فى الموسم يضعون سلاحهم عند أهل السدانة من
قريش قبل الدخول فى السوق ومن لم يضع سلاحه عندهم عرض نفسه للقتل
وكما كانت هذه السوق مجمع الفصاحة والقروية كانت مجمع مكارم الاخلاق
أيضا حتى كان بعض أشراف الشعراء كعامر بن الطفيل العامرى النجدى
ينادى مناديه فى هذه السوق هل من راحل فتحمله أو جائع فنقطعه أو خائف
فتؤمنه ومن شعره

فانى وإن كنت ابن فارس عامر * وسيدها المشهور فى كل موكب

فما سوتني عامر عن وراثة * أبا الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحيى جماها وأنتي * أذاها وأرعى من رماها بنسك

وكانت أيضا هذه السوق في أيام هذا الموسم كديوان ملوك العرب فكان بعض
الملوك يأخذ ما من الاثارة والمرتبات على القبائل كل سنة بالموسم فكان زهير
ابن جذيمة العنسي مثلاً يأخذ الاثارة من هوازن في هذه السوق ويسومهم
الخسف ويهددهم ويخوفهم بالحرب وكانت العرب تقيم سوق عكاظ شهر
شوال بجميعه أو عشرين يوماً منه ثم تنقل من تلك السوق بعد انقضاءها الى
سوق مجنة وتقيم فيها عشرين يوماً من ذي القعدة ثم تنقل من سوق مجنة الى
سوق ذي المجاز فتقيم فيها الى أيام الحج

ويروي عن حليلة السعدية مرسعة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم انزلت
به سوق عكاظ فراه كاهن من الكهان فقال يا أهل سوق عكاظ اقلوا هذا
الغلام فإن له ملكاً فراغت به حليلة عن الطريق فأفجأه الله تعالى وروي أن
حليلة انطلقت برسول الله صلى الله عليه وسلم بسوق عكاظ الى عراف من هذيل
يريه الناس صبيانهم فلما نظر اليه صاح يا معشر هذيل يا معشر العرب فاجتمع
اليه الناس من أهل الموسم فقال اقلوا هذا الصبي فانسيت حليلة به فحعل
الناس يقولون أي صبي فيقول هذا الصبي فلا يرون شيئاً فقال له ما هو فيقول
رأيت غلاماً والالهة ليقتلن أهل دينكم وليكسرن ألهتكم وليظهرن
أمره عليكم فطلب فلم يوجد ولا تستغرب كهانة العرب ولا فراستهم وفهمهم
الحقائق من الخمايل فإن وصية أبي طالب لقريش لما حضرته الوفاة تدل على
شدة تفرسه فيه صلى الله عليه وسلم وصورتها كما قال بعضهم انه لما حضرت
الوفاة أبا طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم جمع اليه وجوه قريش فأوصاهم
وقال يا معشر قريش أنتم صغوة الله من خلقه وقلب العرب وفيكم السيد
المطاع وفيكم المقدم الشعاع والواسع البال واعلموا انكم لم تتركوا العرب
في المائر نصيباً الا حزنتموه ولا شرفاً الا أدركتموه فلكم بذلك على الناس
الفضيلة ولهم اليكم الوسيلة والناس لكم حرب وعلى حريمكم أدواني
أو صيكم بتعظيم هذه البنية فإن فيها امرؤ للرب وقواما للعاش ونبأ للوطاة
صلوا أرحمكم ولا تقطعوها فإن في حلة الرحم منسأة للاجل وزيادة للعلم

واثر كوا البغي والعقوق فيهما هلكت القرون قبلكم وأجيبوا السائل
وأعطوا الداعي فإن فيهما شرف الحياة والمات وعليكم بالصدق في الحديث
وأدوا الأمانة فإن فيهما محبة الخاص ومكرمة في العام وإني أوصيكم بمحمد
خير أئمة الأئمة في قريش والصديق في العرب وهو الجامع لكل ما أوصيتكم
به وقد جاء بأمر قبله الخائن وأنكره اللسان مخافة الشنآن وإيم الله كافي
أنظر إلى مصاليك العرب وأهل الوب في الأطراف والمستضعفين من الناس
قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا أمره ونخاض بهم غمرات الموت
فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنانا ودورها خرابا وضعفاؤها أربابا
وأعظمهم عليه أحوجهم إليه وأنفهم منه أعظاهم عنده قد محضته
العرب ودادها وأصفت له فوادها وأعظمت له قيادها دونكم يامعشر
قريش وكونوا له ولاية ولزبه حمة والله لا يسلك أحدكم سبيله إلا رشد
ولا يأخذ أحدهم يديه إلا سعد ولو كان لنفسه مدة أو لاجل تأخير لك ففقت
عنه الهزاهز ولنفقت عنه الدواهي ثم توفي انتهى فأنظر موافقة القراصة
الهاشمية للكهانة بجمع عكاظ

وكان سوق عكاظ الذي هو مجمع المفاخرة قد يتسبب عنه المقاتلة والحرب كما
وقع ذلك في القبار الأول والقبار الثاني فسيب حرب القبار الأول أن بدر بن
معشر الغفاري كان له مجلس يجلس فيه في سوق عكاظ ويقف على الناس فيسط
يومارجله وقال أنا أعز العرب فمن زعم أنه أعز مني فليضربها بالسيف فوثب
عليه رجل من أشرف العرب فضربه بالسيف على ركبته فأدماها فاقبلوا
وسيب القبار الثاني أن امرأ من بني عامر كانت جالسة بسوق عكاظ فأطاف
بها شاب من قريش من بني كنانة فسألها أن تكشف وجهها فأبت فجلس خلفها
وهي لا تشعر وعقد ذيلها بشوك فلما قامت وانحسر ذيلها من خلفها ضحك
الناس وقيل لها قد بخلت بكشف وجهك فبان غيره فنادت يا آل عامر فشاؤوا
بالسلاح ونادى الشاب يا بني كنانة فحصل الحرب بسبب ذلك ومن هذا يقم أن
النساء في الجاهلية كن يابن كشف وجوههن اللهم إلا أن يكون هذا الجلباب
خاصا بالجمعيات الخافلة لاسماني سوق عكاظ حيث القوارس كانوا يتقنعون
فيها ثم تجاوزوا ذلك وسببه أنه كان لرجل من بني عامر دين على رجل من بني

كأنه فطمه فخرت بينهما خاصة شديدة فتصعل عبد الله بن جدعان ذلك الدين من ماله وكان ذلك سبباً لانقضاء هذا الحرب

وقد كان عبد الله بن جدعان في ابتداء أمره صعلوكا وكان ع. بن شيراز قسا كالإزال يحيى الجنائيات فيعقل عنده أبوه وقومه حتى أبغضته شيرته وطرده أبوه وحلف لا يأويه أبداً فخرج هائماً في شعاب مكة يتنقح الموت فرأى شقاً في جبل فدخل فوجد على ما يقال نعباً عظيماً له عينان تتهان كالسراج فتأخر عنه أولاً ثم غلب على نفسه ومسكه يده فاذا هو من ذهب وعيناه ياقوتان ثم دخل المحل الذي كان هذا النعبان على يابه فوجد في ذلك المحل أموالاً كثيرة من الذهب والفضة وجواهر كثيرة من الياقوت واللؤلؤ والزبرجد فأخذ منه ما أخذ ثم علم ذلك الشق بعلامة وصار ينقل من ذلك شيئاً فشيئاً فكان هذا سبب غناه فبعث إلى أبيه بالمال الذي دفعه في جنائياته ووصل عشيرته كلهم فسادهم

يبدل وحلم ساد في قومه القتي * وكوثاً باه عليك يسير
وكان يطعم الناس ويأمر بالمعروف فكان يذبح في داره كل يوم جزوا
وينادي مناديه من أراد الشحم واللحم فعليه يا بن جدعان وكان يطبخ عنده
الفلودج فيطعمه قريشاً وهو عزيز في مكة

وتم بخار رابع وهو بخار البراض بتشديد الراء وهو الذي شهدنا النبي صلى الله عليه وسلم وسببه أن عروة الزحال بتشديد الحاء المهملة وكان من قيس هوازن أجازا العير من النعمان بن المنذر وكان يقال لمثل هذه القافلة اللطيمة وكانت تحمل الطيب والبر لهذا الملك لتباع في سوق عكاظ ويشتري له بمن ذلك آدم من آدم الطائف ويرسل تلك العير في جوار رجل من أشرف العرب فلما جهز النعمان العير كان عنده جماعة من العرب فيهم البراض وهو من بني كنانة وعروة الزحال وهو من هوازن فقال البراض أنا أجبرها على بني كنانة يعني قومه فقال لهم النعمان ما أريد إلا من يجبرها على أهل نجد وهامة فقال له عروة الزحال أنا أجبرها لك فقال له البراض أجبرها على كنانة فقال نعم وعلى أهل الشج والقيصوم ونال من البراض فخرج عروة الزحال مسافراً وخرج البراض خلفه يطلب غفلة ليئب عليه ويقتله فشرب عروة الزحال الخمر وغتته

القيبات وسكروناهم بخامه البراض وأيقظه فقال له الرجال ناشدتك الله لا تقتلني
فإنها كانت مني زلة وهفوة فلم يلتفت اليه وقتله فأتى أت كthane وهم بمكناط مع
هوازن فقال لكthane أن البراض قد قتل عروة الزحال وهو في الشهر الحرام
فانطلقوا وهوازن لا تشعر ثم بلغهم الخبر فاتبعوهم فأدركوهم قبيل دخولهم
الحرم وعما وقت قريش كthane وشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض تلك
الايام أخرجه أعمامهم وكان عمره أربع عشرة سنة وكان إذا حضر صلى
الله عليه وسلم غلبت كthane وإذا لم يحضر انهم زمت ويقال انه صلى الله عليه وسلم
طعن أبا براهم ملاعب الاسنة ولعله طعنه بالنبل لانه صلى الله عليه وسلم لم يقاتل
في حرب الفجار الا بالنبل فقد روى عن ابن سعد قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم حضر جمع عمو مني ورميت فيه بأسهم وما أحب أني لم أكن فعلت
وأبو راء المذكور كان رئيس بني قيس هوازن وحامل رايهم في هذا الحرب
وفي اليوم الثالث من تلك الايام وهو أشد هاقدا مية وحرب ابنا مية بن عبد
شمس وأبوسفيان بن حرب أنفسهم كي لا يفر وأقسموا الغياض أي الاسود ثم
تواعدوا اليوم للعام المقبل بمكناط فلما كان العام المقبل جاؤا للوعد وكان أمر
قريش وكthane الى عبد الله بن جدعان وقيل الى حرب بن أمية والد أبي سفيان
لانه كان رئيس قريش يومئذ وكان عتبة ابن أخيه ربيعة بن عبد شمس يتعاضد
بحربه فضن به حرب واشفق من خروجه معه فخرج عتبة فلم يشعر به الا وهو
على بعير بين الصفيين ينادي يامعشر مضر علام تفاون فقال له هوازن ما ندعو
اليه قال الصلح على أن ندفع لكم دية قتلاكم وتعفوا عن دمائنا وكان لقريش
وكthane الظفر على هوازن وغالبا يقتلونهم قتلا ذريعاوي يتصرون عليهم وفي غير
الغالب خلاف ذلك فقد أصيب أبو طالب بسهم في رجله في حرب الفجار
فخرج منه ولذلك يقول

قالت عرجت نعم عرجت فما الذي * أنكرت من حسي وحسن فعالي
فقالوا الماعرض عليهم الصلح وكيف ذلك قال ندفع لكم رهنانا الى أن نوفي
لكم ذلك قالوا ومن لنا بهذا قال أنا قالوا ومن أنت قال أنا عتبة بن ربيعة بن
عبد شمس فرضيت به هوازن وكthane وقريش ودفعوا الى هوازن أربعين رجلا
فيهم حكيم بن حزام وهو ابن أخي خديجة بنت خويلد وزوج النبي صلى الله عليه

ومسلم فلما رأته وازن الرهن في أيديهم غفوا عن الدماء وأطلقوهم وانقضت
حرب الفجار وكان للنبي صلى الله عليه وسلم حين شهد هذا الحرب من العمر
أربع عشرة سنة

فمن هذا كله يعلم أن سوق عكاظ كان مجمعا لفاخر العرب حروبا ومسلما حاسمة
وسماحة وأنه كان يحمل نفوس العرب الآية على كسب المجد والشرف
ومن أشهر ما خطب فيه قيس بن ساعدة القائل

لقد علم الحى العيانون أننى * إذا قلت أما بعدانى خطيبها

وسياقى في الفصل الثاني من الباب الثالث الكلام على خطبته في سوق عكاظ
وحنه على اتباع دين النبي صلى الله عليه وسلم وأنه ممن آمن به صلى الله عليه
وسلم قبل بعثته ولم يره وقال بعض أئاده مقصرا بالحدافة والقصاحة

وأنى فتى صبر على الإين والظما * إذا اعتصر واللوح ماء فظاظها

إذا ضرت جوهها ساعة يدمائها * وحل عن الكوما عقد شظاظها

فانى ضحالك إلى كل صاحب * وأطلق من قيس غداة عكاظها

واللوح بضم اللام المشددة الأبل السريعة العطش والفظاظ الكرشم يريد
أنه يصبر على التعب والظما إذا اعتصر وأما الكرشم للشرب والفظاظ
الجوابيق التي تحمل على الأبل يريد أنه عند ذبح الأبل ونزول أحبالها عنها
وفكها يكون متلفظا إلى الأصحاب وأخطب من قيس إذا خطب في سوق
عكاظ وقال آخر يمدح خطيبا من خطباء معدن مصر

* ياسيد العلماء والأدباء والنبياء والخطباء والمخفاظ

شفت أسمع الأمام بخطبة * كست المعاني رونق الألفاظ

أبكت عيون السامعين فصولها * فزكت عن الخطباء والوعاظ

وعجبت منها كيف حازت رقة * مع أنها في غاية الأغلاظ

ستقول مصر أذراك لغيرها * ما الدهر إلا قسمة واحاطى

ويقول قوم أذراؤك خطيبهم * أنسيتنا قسا بسوق عكاظ

فقد كان محفل عكاظ معدن الفاخر التليدة والطارفة ولم يكن وحده في جزيرة
العرب بل كانت أسواق اليمن أيضا مركزا للمفاخر الظاهرة والمنافع
العمومية والزينة والزخرفة فكانت بضاعتها هي النافعة والعلم يمان
والحكمة يمانية كافي الآثار الصادقة

تخاذل أرباب الفضائل أذوا • بضاعتهم موكوسة القدر في الثمن
فقالوا عرضنا هاتلم نلف طالبا • ولا نظروا من مثلها نظرا حسن
ولم يبق إلا رفضها واطراحها • فقلت لهم لا تعجلوا السوق باليمن
ولما كان عند منصرف قريش من حرب الفجار في شوال عقد حلف الفضول
نأسيذ كرم في الفصل الآتي

(الفصل الرابع)

(في حلف الفضول)

كان العرب عقود عهد ويحلفون فيها لحلفاء أو كد أعلى أن لا يتخاذلوا وكانت
هذه المحالفات بين القبائل لحفظ نوااميسهم وليعصده بعضهم بعضا والمصالحون
يسمون عند العرب بالاحلاف فمن ذلك أن بني عبد مناف لما أرادت أخذ
ما في أيدي بني عبد الدار من الحجابة والسقاية وأبى عبد الدار ذلك عقد كل
قوم على أمرهم حلفاء أو كد أعلى أن لا يتخاذلوا فأخرجت عبد مناف حفنة
ملوأة طيبا فوضعتها للاحلافهم وهم أسد وزهرة وتيم عند الكعبة فقمسوا
أيديهم فيها وتعاقدت بنو عبد الدار وحلفاءهم وحلفاء آخر مؤ كد
وكانت أحلافهم قبائل عبد الدار وكعب وجم وسهل ومخزوم وعدي وكان
مثل هذه المحالفات للناس من بينهم فقط لا للمصلحة العمومية
ففي منصرف قريش من حرب الفجار في شوال بعد انقضاء سوق عكاظ
تأسس حلف الفضول وهو أشرف حلف في العرب وأحق بالفجار معاءه
وكان هذا الحلف لشرف موضوعه ونيل الغرض المقصود منه يكاد ان يكون
أساس السياسة وطنية وتحميد اللماز التقدينية وأول من دعا إلى هذا الحلف
في ذي شهر القعدة بعد الفجار الرابع الزبير بن عبد المطلب عم رسول الله صلى
الله عليه وسلم شقيق أبيه فاجتمع إليه بنو هاشم وزهرة وبنو أسد بن عبد
المزى في دار عبد الله بن جدعان التيمي المتقدم ذكره في الفصل الثالث وكان
بنو تيم في حياته كاهل بيت واحد بقوتهم وكان عبد الله بن جدعان ذا شرف
وسنن وتحالفوا على أن يردوا الفضول إلى أهلها أي على أن يردوا الحقوق
التي أخذت ظلما إلى أربابها ولا يعز ظالم على مظلوم أي لا يغلب ظالم على مظلوم

وكان معهم في ذلك الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد شهد صلى الله عليه وسلم هذا الحلف وقال صلى الله عليه وسلم ما أحب أن لي بحلف حضرة في دار ابن جدعان جر النعم وأني أغدر به أي لأحب القدر به هذا الحلف وان أعطيت جر الابل في ذلك وفي رواية لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلقا ما أحب أن لي به جر النعم ولودعي به في الاسلام لا تجبت نقولهما أحب أن لي به جر النعم الباء فيه للبديهة أي بغواته وقوله ولودعي به في الاسلام لا تجبت أي لو قال قائل من المظالمين يا آل حلف الفضول لا تجبت لأن نصر المظلوم حق والاسلام انما جاء باقامة الحق والالجابة الى هذا الحلف مستثناة من رفع ما كان من دعوة الجاهلية يا آل فلان لحرب أو لغيره فالدعوة يا آل فلان كانت في الجاهلية ورفعت وكان يفخر بسرعة الاجابة اليها كما قال

فخير نحن عند الناس منكم * اذا الداعي المشوب قال يالا
وسيه أن قريشا كانت تتظالم في الحرم وكان قبل ذلك قد تحالف قوم من جرهم أن لا يروا ظلم يظن مكة الا غيرهه وكان قد بادأ أهل ذلك الحلف وتنويع أمره وصار يقع الظلم في الحرم بدون مدافع فانفق أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراه منه العاص بن وائل وكان من أهل الشرف والقدر بمكة فحبس عنه حقة فاستعدى عليه الزبيدي بالاحلاف عبد الدار ومخزوم وجميع وسهم وعدي بن كعب فأبوا أن يعينوا على العاص وانتهروا الزبيدي ولم رأى الزبيدي الشر رقى على جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس وقريش في أنديتهم حول الكعبة فقال بأعلى صوته

يا آل فها لمظالم ببضاعته * يظن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته * بالرجال وبين الجحر والجحر
إن الحرام لمن عنت كرامه * ولا حرام لو نب القاجر الغدر

والمراد بالحرام الاحترام فقام في ذلك الزبير بن عبيد المطلب وعبد الله بن جدعان واجتمع اليهما من الناس قبل هـ ان منهم العباس وأبو سفيان وتعاهدوا وتعاهدوا ليكونن يدا واحد مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى اليه حقه شريفا أو وضيعاتهم مشوا الى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها اليه وصاروا دائما يأخذون من الظالم لاه مظلوم حقه

على وفق حلف الفضول الذي كان أشرف حلف في الجاهلية كما سبق
 من ذلك أن رجلا من خشم قدم مكة معقرا أو حائضا ومعه بنت له من أوصاف
 نساء العالمين فاعتصبها منه نبيه بن العجاج فقيل للشمعي عليك بحلف الفضول
 فوقف عند الكعبة ونادى بالحلف الفضول فاذا هم يعنقون اليه من كل جانب
 وقد جردوا أسيا فهم يقولون جاء الغوث فمالك فقال إن فيها ظلمي فيبقى
 فانتزعها مني قسرا فاساروا اليه حتى وقفوا على باب داره فخرج اليهم فقالوا له
 أخرج الجارية ويحك فقد علمت من نحن وما تعاهدنا عليه فقال أفعل ولكن
 متعوفى بها الليلة فقالوا لا والله ولا نحب القعة فأخرجها اليهم وقد بقي أثر ذلك
 في الاسلام فرمى بها كان يطلب المظلوم أخذ حقه من ظالمه بطلب جمعية تتعصب
 للحق فقد ذكر بعض أهل السيرة أنه كان بين الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله
 عنهما وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان منازعة في مال متعلق بالحسين فقال
 الحسين للوليد أحلف بالله لنصفني من حق أو لا أخذت سبني ثم لا قومني في
 مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لا دعوت لحلف الفضول أي لحلف
 كحلف الفضول وهو نصرة المظلوم على ظالمه وواقعه على ذلك جماعة منهم
 عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لأنه كان آنذاك في المدينة فلما بلغ ذلك الوليد
 ابن عتبة أنصف الحسين من حقه حتى رضي فمن هذا اتفهم أن العرب بمكة كان
 لها اجتماع فضائل كسوق عكاظ ومسابي مكارم أخلاق وشمايل ككأسيس
 حلف الفضول الذي شهدا كرم رسول وشهدا بأنه وافق أخلاقه الكريمة
 وأنه أحب اليهم من النعم نفاسة وقيمة ومن تأمله حق التأمل وجده أساس
 ما يسمى عند الملل المتقدمة بالحقوق المدنية والحقوق الدولية كما يدل على أن
 العرب كانت فطرتهم سليمة وأن طباعهم تفر من الخصال الذميمة وقصائد هم
 بذلك ناطقه وهي عنوان نواقب أفكارهم الصادقة

(الفصل الخامس)

• (في ذكر المعلقات السبع وتواريخ أربابها والاماع بمطالعها) •

قد اشتهر أن المعلقات سبع احداها معلقة امرئ القيس بن جحر الكندي
 وكان موته قبل الهجرة بثماني اثنين وثمانين سنة ومطالعها

قنائبك من ذكرى حبيب ومنزل * يسقط اللوى بين الدخول فغومل
وقد اشتهرت هذه المعلقة حتى صار يضرب بها المثل في الامر الواضح فيقال
أشهر من قنائبك وقد تقدم ترجمة هذا الشاعر في الفصل التاسع من الباب
الاول من المقالة الرابعة مع غاية البيان
ثم معلقة طرفة بن العبد البكري وكانت وفاته قبل الهجرة بثمان وخمسين
سنة ومطلعها

لخولة أطلال يبرقة تهمد * تلوح كافي الوشم في ظاهر اليد
وقفا بها صهي على مطيهم * يقولون لاتهلك أسى وتجلد
ثم معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي وكانت وفاته في السنة الاولى من الهجرة
ومطلعها

ألا هبي بعينك فاصبحينا * ولا تنق خور الاندرينا
منعثة كان الحص فيها * اذا ما الماء خالطها تخينا
(ومنها)

ورثنا المجد قد علمت معه * نطاعن دونه حتى بينا
بشبان يرون القتل مجدا * وشيب في الحروب مجزينا
ورثنا مجد عقمة بن سيف * أباح لنا حصون المجدينا
على آثارنا يرض حسان * نخادر أن تقسم أو تهونا
كانا والسيف مسللات * ولدنا الناس طرا أجمعينا
اذا ما الملك سام الناس خفا * أينما أن نقر الخسف فينا
ملانا البر حتى ضاق عنا * وماء البصر غلوه سفينا
لنا الدنيا ومن أضفى عليها * ونبطش حين نبطش قادينا
اذا بلغ القطام لنا رضيع * تحزله الجبار ساجدينا
وهي بديعة الافتقار الحاسي وقد افتقر عبد المطلب حيث قال
لنا نفوس لنيل المجد عاشقة * ولوتست أسلناها على الاسل
لا ينزل المجد الا في منازلنا * كالنوم ليس له مأوى سوى المقل
وهكذا يكون افتقار الهاشمي

ثم معلقة الحرث بن حازم الشكري وكان مولده قبل الهجرة باثنتين وثلاثين

سنة ومطلعها

آذنتاينها أسحاء • ربنا ويل منه التواء

(ومنها)

لا يقيم العزير بالبلد السهل ولا يتقع الذليل النجاء

ليس نجى الذى بوائىل منا • رأس طود وجرّة رجلا

ثم معلقة لبدين ربيعة العامرى وكان مولده قبل الهجرة بأربعين سنة

ومطلعها

عفت الديار محلها فقامها • بجى تأبغولها فربما

ثم قال

أولم تكن تدرى نواربأتى • وصال عقد حباتل جذامها

ترالأمكنة اذالم أرضها • أو يعلق بعض النفوس جامها

ثم معلقة زهير بن أبى سلمى المزنى وكان موته قبل البعثة بسنة ويقال انه رأى

قبل موته بسنة فى نومه كأنه رفع الى السما حتى كذا ان يمسا يده ثم انقطعت

الحبال فدعا فيه فقال يا بنى رأيت كذا وكذا وانه سيكون بعدى أمر يعول من

اتبعه ويفلح فخذوا بخططكم منه ثم لم يعبس الا يسيرا حتى هلك فلم يحل الحول

حتى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أسلم بجير بن زهير وحسن اسلامه

فلامه أخوه كعب بن زهير على اسلامه بقوله

الابلاغ حتى بجير رسالة • فهل لك فيما قلت ويحك هل لك

سقاك بها المأمون كأ ساروية • فأنه لك المأمون منها وعلكا

الايات فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم هجوم كعب له هدر دمه فكتب اليه

أخوه بجير يعلمه أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قتل كعب بن الاشرف وكان

يشيب بأمر الفضل بن العباس وأم حكيم بنت عبد المطلب فلما بلغه كتاب أخيه

ضاق به الارض ولم يدرفيم النجاة فأتى أبا بكر فاستجاره فقال أكره أن أجبر

على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد هدر دمك فأتى عمر فقال مثل ذلك فأتى

عليارضى الله عنه فقال أدلك على أمر تنجويه قال وما هو قال تصلى مع رسول

الله صلى الله عليه وسلم فإذا انصرف فقم خلفه وقل مديك يا رسول الله أبايعك

فانه سينالني من خلفه فغضب عليه فاستجبره فأتى أرجوان رجلك ففعل فلما

فأول رسول الله صلى الله عليه وسلم يده استجاره وأنشد قصيدته التي مطلعها
 * بأت سعاد قلبي اليوم متبول * إلى آخرها فأجازه عليها ببدنه الشريفة
 (ويحكى) أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان جالساً في أصحابه
 يتذكرون الشعراء والشعر فيقول بعضهم فلان أشعر ويقول آخر بل فلان
 أشعر فقبيل ابن عباس بالباب فقال عمر رضى الله عنه قد أتى من يحدث من
 أشعر الناس فلما سلم وجلس قال له عمر يا ابن عباس من أشعر الناس قال زهير
 يا أمير المؤمنين قال عمر ولم ذلك قال ابن عباس لقوله يمدح هرما وقومه بنى
 مرة

لو كان يشعد فوق الشمس من كرم * قوم بأولهم أو يمجدهم قعدوا
 قوم أبوهم سنان حين تسبهم * طابوا وطاب من الأولاد من ولدوا
 جبن إذا فزعوا الناس إذا أمنوا * مرزؤن بها ليل إذا جهدوا
 محسدون على ما كان من أم * لا ينزع الله عنهم ما به حسدوا
 قال عمر صدق يا ابن عباس ومطلع قصيدة زهير
 أمن أم أوفى دمنة لم تكلم * بمحو مائة الدجاج فالتكلم
 ودار لها بالرقسين كأنها * مراجع وشم في نواشر معصم
 إلى أن قال في الحكم

ومن لم يصانع في أمور كثيرة * يضرس بأنياب ويوطأ بنفس
 ومن يجعل المعروف في غير أهله * يكن حده ذم ما عليه ويندم
 إلى أن قال

وكأن ترى من صامت لك مهجب * زيادته أو نقصه في التكلم
 لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
 ثم معلقة عنزة بن عمرو بن معاوية بن شداد العبسي وكان موته قبل الهجرة
 بسبع سنين ومطلعها

هل غادر الشعراء من متردم * أم هل عرفت الدار بعد توهم
 (ومنها)

فاذا ظلمت فإن ظلمي باسل * مرمذاته كطعم العلقم
 فاذا شربت فأننى مستهلك * مالى وعرضى وافر لم يكلم

واذا صحوت فأقصر عن ندى * وكأملت شعالي ونكرى

فهذه المعلقة السبع مختلفة المقاصد والاعراض فان معلقات امرئ القيس
وطرفة وعنزة وليد مختلفة الصيالات العقلية في حكايات الوقائع الخصوصية
والعمومية كما هي مختلفة التشبهات المتنوعة والكليات والتجوزات المتروعة
فلهذا انحافحوها شعراء العصر المتأخرة لاسيما شعرة عنزة العيسى فانه ناطق
بالاعراض المقصودة منه وأحسن تخيلا المعاني من شعر غيره من شعراء ما قبل
الاسلام وأما معلقة زهير فهي عبارة عن مصالحة عيس وذيان وأما معلقة عمرو
فهي عبارة عن افتخار قبيلته التغلبية بعمومها وسبب انشائها قصيدة عمرو وهذه
انه جاء أمام من بنى تغلب الى بكر بن وائل يستغيثون بهم في سنة أصابهم
فطردهم بكر لحقد كان بينه وبينهم فرجعوا الى القلعة فأت منهم سبعون رجلا
عطشا فاجتمعت بنو تغلب لحرب بكر وخافوا أن تعود الحرب بينهم كما كانت
قد عابعضهم بعضا الى الصلح فها كروا الى الملك عمرو بن هند فاصلى بينهم فأنشد
عمرو بن كلثوم سيد تغلب في مجملته قصيدته ارتجالا يذكر فيها أيام بنى تغلب
ويقصر لهم وأنشد الحرث بن حازم قصيدته أيضا فعلقنا بالكعبة دهرًا وكأنا
مشتكين على مفار العرب قيل ان الشعر كان جلابا زلا عظيما فنصر فجاء امرؤ
القيس فأخذ رأسه وعمرو بن كلثوم سنامه وزهير كاهله والاعشى والنابغة
نخذه وطرفة وليد ذكرته أي رقبته فلم يبق الا الذراعان والبطن فتوزعت على
غيرهم من الشعراء وقد علق على الكعبة غير تلك المعلقة السبع معلقات
أخرى كمعلقة الاعشى التي أولها

ودع هريرة ان الركب مرتحل * وهل تطيق وداعا أبها الرجل

(ومنها)

قالت هريرة لباحث زائرها * ويلي عليك وويلي منك يا رجل

قالوا الطراد فقلنا لك عادتنا * أو تنزلون فاما عشر نزل

ومن قصائد العرب قصيدة الشنفرى وهي التي تسمى بلامية العرب ومطلعها

أقيموا بنى أمى حدود مطيكم * فاني الى قوم سواكم لا ميل

(ومنها)

وكل أبى بأسل غير أبى * اذا عرضت أولى الطراد أبسل

وان مدت الايدي الى الزايل كن * باعجلهم اذا جئع القوم أجعل
وجاسها غريب ومفاده عدم حل الضيم حيث العرب لاتطبقه كما قال الشاعر
وما نظري لباعى الضيم * بالظهر الذلول
وقد نظم بعض الادباء اسماؤه أصحاب المعلقات السبع
لقد علقوا بالبيت شرف قدره * قصائد سباعا بالبلاغة تشهر
فطرفة عمرو وحارث بن حازمة * لبيد زهير وامرؤ القيس عترة
وكانت القصائد الملقاة تكتب بحروف الذهب زركشة على المسوجات
الحريرية وتعلق على الكعبة المشرفة وهذا يبيد أن الكتابة في الجاهلية
كانت عالوفة للعرب ومعاملة عندهم كما يأتي بيان ذلك في الفصل الآتي

(الفصل السادس)

• (في زمن ظهور الكتابة عند العرب) •

صناعة الكتابة عظيمة النفع عند جميع الامم وهي روح العبادات والمعاملات
وتذكار الماضي ونظام المستقبل الآت ورسول المعنى القائم بالحنان وأحد
الوجودات الاربع وهي وجود البنان ووجود العيان ووجود الجنان ووجود
الاذهان وهي نقوش حروف المعجم المتفقة غالباً في سائر اللغات وأولها عند
جميع الامم الالف الا عند الحبشة فان حرف الالف عندهم هو الحرف الثالث
عشر من حروف الهجاء وهل الكتابة من حيث كونها رسوماً وأشكالاً
حرفية تدل على الكلمات المسموعة ومن حيث أوليتها بهذا الاعتبار هي من
الاولى الالهية أو من الالوان البشرية خلاف وعلى الثاني من أوضاع
أى ملة هي فقال بعضهم هي من أوضاع السريانيين وقال آخرون هي من
أوضاع قدماء المصريين واستظهر بعضهم الاول وانها انتقلت من السريانيين
الى غيرهم بقلمهم الخاص بهم كال يونان ومن اليونان أخذ الرومانيون حروفهم
وهذا بالنسبة لغير العرب وأما هم فكانوا يعرفون الكتابة من عهد اسحق عليه
السلام ثم ان اللغة العبرية والسريانية والعبرانية متقاربة في الالفاظ اسماء
ومسميات وفي مخارج الحروف وكاتباتها فكانت هذه الامم الثلاث ترسم من
اليمن الى اليسار بخلاف اليونان والروم فانهم يعكس ذلك يكتبون من

اليسار الى اليمين ويكتب أهل الصين من أعلى الى أسفل
وفي الاوائل للسيوطي انه يروى أن آدم أول من كتب الكتاب العربي
والسرياني وأن الكتابات كلها من وضعه وانه دفنها قبل موته بثلاثمائة سنة
وانه بعد الطوفان وجد كل قوم كتابا تعلموه بالهلم الهى ونقلوا صورته
واخذوه أصل كتابهم انتهى وقد ورد أن أول من خط بالقلم وعلم أسرار
الحروف ادريس عليه السلام وأما الكتابة العربية المرسومة بالحروف
الهجائية التي أولها الالف وآخرها الياء فلا شك في أنها أيضا قديمة فقد كان
العرب يعرفون الكتابة العربية من عهد اسمعيل عليه السلام وأما قول
بعضهم أول من كتب بالعربي من ولد اسمعيل زار بن معد بن عدنان فلعلمه أول
من أجاد الخط أو تعلم خطا عربيا على قاعدة أحسن مما قبلها تلقى من جهة
بلغت في الحضارة أكثر من بلاد قومه فقد كان الخط العربي بالغما بلغامن
الجلودة في دولة التبايعه وهو المسمى بالخط الحيري فكانت جلودته بقدر
ما عندهم من الحضارة وانتقل الخط الحيري من اليمن الى الانبار والحيرة لما
كان به من دولة آل المنذر المجتدين ملك العرب بأرض العراق ومن الحيرة
انتقل الخط الى أهل الطائف وقريش والذي تعلمه من أهل الانبار هو حرب بن
أمية ابن أخت أبي سفيان فتعلمه جماعة من أهل مكة فلذلك كثرت يكتب من
قريش خطا جيدا على وجه آخر أرق مما كان عندهم اذ يعد جهل قريش
بالخط جملة فكيف وقد قيل ان من العرب العاربة وهي البائدة قبيلة عبد
ضمن بن ادم كانوا يسكنون الطائف وهاكوا فبين هلك وهم أول من كتب بالخط
العربي فاذا كان أول اختراع الخط العربي بالطائف من قوم بادوا وجاءت
بعدهم عرب مستعربة يعد أن يكون الخط مجهولاً عندهم الى زمن زار بن
القول بأن الكتابة العربية كانت معروفة للعرب من عهد اسمعيل عليه
السلام وأبعد منه قول بعضهم ان أول من تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن
أمية أو حرب بن أمية والقول بأن اباد بالعراق كانت أيضا تجهل الكتابة
بالعربية وتأويل قول شاعرهم

قوم لهم ساحة العراق اذا • ساروا جعوا والخط والقلم
قبولهم لذلك فيه اخراج المدح عن موضوعه وقد كان لخير كتابة تسمى المسند

حروفها منفصلة وكذا ما يمنعون من تعلمها الا باتهم ومن حيرت علمت مضر الكتابة العربية الجبرية الجديدة فكانت الكتابة العربية مع ما كانت عليه في الجهات المختلفة من جزيرة العرب بدوية غير مستحكمة الجودة فكان الخط الغربي لاول الاسلام غير بالغ الى الغاية من الاجادة فكان حسنه بقدر بدوة البلاد وحضارتها وقربها من الصنائع وبعدها عنها

وقدر رسم العصابة رضى الله تعالى عنهم المصحف بخطوطهم واقتنى التابعون من السلف رسمهم تبركهم وليس الخط كما لا في حقهم حتى يقال ان خطوط المصاحف العثمانية لم تكن على هيئة جودة الخط في الازمان الاخيرة على أنهم أيضا كانت خطوطهم لها جودة في ذاتها بالنسبة لازمانها ومستحسنة عندهم بموافقة ذوق تلك الازمان والمألوف للإبصار كما ان قصائد العرب كالمعلقات وغيرها بالنسبة لوجودها في ذلك الزمن وملاءمتها لمألوف طباع هؤلاء العرب ولا معاصهم بل وفي حد ذاتها تعد طبقة عالية في الفصاحة وبالنسبة لذوق المولدين ولما ألغوا من الاشعار المشتعلة على الرقة والانجسام تعد شكلا آخر غير مشغف للاسماع وهذا سببه تعود الاسماع في هذه الازمنة على أقوال فضيحة بليغة مما ألوفه لذوق الوقت فلو فرض أن شعرا ~~عصا~~ كاط خرجوا من قبورهم كبقطة أهل الكهف من رقدتهم وعرض عليهم قصائد المولدين لجهتها اسماعهم وكرهتها ونوسهم وكذلك أهل الخط في الازمان القديمة فالعادة هي المحسنة والمقيدة والدليل على كمال الخط في المصحف العثماني وأنه على قاعدة مستوفية وفانون أصولي ان مصاحف القرآن الشريف وقت بأداء لفظ القرآن كما أنزل وأنه قديم قدم الحماض المحافظة على بعض رسومها

وانما بدأ الازمان دعت الحاجة الى التسهيل وكال الضبط للامة الطباع التي لا تكتفي بالخط القديم بدون قطع مثلا كما كان فكان أول من قطع المصاحف يحيى بن يعمر فاحتاج الحال استحكام الخط الذي بدأ في الدول العربية بحيث انه لم يلجأ الملك للعرب وقصروا الامصار وملكو الممالك ونزلوا البصرة والكوفة وقد تدونت الدواوين والاموال والرسائل فاحتاجت الدول الى الكتابة استعمالوا الخط فيه وتداولوه فترقت الاجادة الذوقية فيه وبلغ في الكوفة والبصرة رتبة من الاتقان والخط الكوفي معلوم الرسم بهذا

العهد ومع ذلك فكان الخط انذاك الذوق الغاية بالنسبة للذوق المتجدد بعد ذلك العهد ثم انتشر العرب في الاقطار والممالك واقتنعوا افريقية والاندلس واختط بنو العباس بغداد وترقت الخطوط فيها الى الغاية يعني ان ذوق ذلك الوقت رأى ان ما قبله من الكتابة أدنى درجة من وقته لتقدمه في العمران ووجوده بدار الاسلام ومركز الدولة العربية وكان الخط البغدادى معروف الرسم وتبعه الافريقى الذى يقرب من أوضاع الخط المشرقى وتخصيص ملك الاندلس بالامويين فتميز صنف خطهم الاندلسى المعالوم ثم تقدمت الحضارة والتقدم في الدول الاسلامية في كل قطر وعظم الملك واتسعت دوائر العالم واتسعت الكتب وتنافس الكتاب في كتابتها وملئت بها القصور والسلطانية واخذوا الملوكة وتنافس الاقطار في ذلك ولا زالت الخطوط آخذة في التحسين على أساليب جديدة وكان ابن مقلة هو أول من نقل الخط الكوفى الى العربى وخطه يضرب مثلاً في الحسن لانه أحسن خطوط الدنيا كما قبل خط ابن مقلة من أروام مقلته * وذن جوارحه لوحولت مقله فالبدري مقل لا ستمانه حسدا * والنوري يحسن من توارى بخلا وقيل انه كتب كتاب هدية بين المسلمين والروم فوضعوه في كنيسة قسطنطينية وكافوا بيزونية في الاعياد ويجهلون من جملة تزيينهم في أخص بيوت العبادات ويجب الناس من حسنه ثم جاء بعد ابن مقلة ابن هلال وهو أبوعلى الحسن ابن هلال المعروف بابن البواب فزاد في تعريب الخط ثم جاء قوت المستعصم وختم فن الخط وأكله وأدرج في بيت جميع قوائمه فقال أصول وتركيب كراس ونسبة * صعود وتسمير نزول وارمال فحسن الخط كان عظيم الجوده على أكمل نهاياتها في عهد الدولة العباسية ثم لما تضعفت خلافة بغداد وانتقلت الخلافة الى مصر والقاهرة قاتل الخط والكتابة والعلم اليها وسرى منها الى مضافاتها من البلاد التابعة لدولتها الى ما جاور هذه البلاد فلا زال الخط في جميع هذه الاماكن آخذاً في الجوده الى هذا العهد وصار المعروف قوائن في وضعها وأشكالها متعارفة بين الخطاطين وفي الحقيقة لا يقال فيه ان جودة الخط الآن أحكم من السابق الا بالنسبة لذوق الوقت فالخط المستعمل الآن في المحاضرات والانشآت بقدر درجة

الانسانات والحوارات ومألف الدواوين في ذلك وبالجملة فليسان العرب الاول
قد تغير واحتاج الى الاملاح بالنحو وكذلك الخط العربي قد تغير واحتاج
الى الاملاح فهو اثنان جديدين بخلاف اللغة العربية فانها باقية على حالها
وفي موضوعاتها لم تتغير الى هذا العهد فلم تزل محفوظة دائرة على السنة العالوم
ومعرفتها ضرورية لاسيما لاهل الشريعة انما اخذ الاحكام الشرعية كلها من
الكتاب والسنة وهي لغة العرب والناقلون للشريعة هم الصحابة والتابعون
وهم عرب وشرح مشكلات الشريعة من لغاتهم فالمحافظة على اللغة العربية
من اوجب الواجبات وطريق المحافظة عليها هي الكتابة وهي فضيلة من
الفضائل ومعيدل على فضلها قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم اقرأ وربك
الاکرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم أي علمه الكتابة التي تعرف بها الامور
الغائبة فجعل القلم كناية عنها والمراد علم الانسان الخط بالقلم وعلى كل حال فقد
نبيه سبحانه وتعالى بذلك على فضيلة الكتابة فان الخط فضلا وشرفا ومنفعة
لا تجهل به تقيد العلوم وثبت وتزرع في الصدور ثبت فقد أقسم الله به في
كاتبه المكنون قال تعالى والقلم وما يسطرون وقال عليه الصلاة والسلام
قيدوا العلم بالكتابة وحسب صاحب الخط مدحاما قال عمر بن الخطاب رضي
الله عنه من خط وخطا وفرس وعام فذا كم الغلام قال الشاعر يمدح كاتباً
حسن الخط

ان هز أقلامه يوم اليعملها * أنساك كل كى هز عامله
وان أقر على رق أنامله * أقر بالرق كتاب الانامله

فالقلم لا ينطق ولكن يسمع الشرق والغرب ولذلك قيل هو أحد اللسانين بل
القلم ينوب عن اللسان واللسان لا ينوب عن القلم وفضيلة أميته صلى الله عليه
وسلم خصوصية له فلا تقدر في فضيلة الكتابة في حد ذاتها ووجودها في اتباعه
قال تعالى الذين يتبعون الرسول النبي الامي ومعنى الامي كما قاله المفسرون
الذي هو على صفة أمة العرب قال عليه الصلاة والسلام انا أمة أمية لانكتب
ولا نحسب

خطوا فأقلامهم خطية خطيت * فهم على الخليل أميون كتاب
ان أحسنوا كتباً وان وفوا ذمما * وقد صفوا شيما فالقوم أعراب

فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرؤون والنبي عليه الصلاة والسلام
كان كذلك فلهذا السبب وصفه بكونه أمياً قال أهل التحقيق وكونه أمياً بهذا
التفسير كان من جملة معجزاته وبيانه من وجوه الأول أنه عليه الصلاة
والسلام كان يقرأ عليهم كتاب الله تعالى منطوياً مرة بعد أخرى من غير تبديل
الفاظه ولا تغيير كلماته والخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها فانه
لا بد وان يبدفها وان ينقص عنها بالقليل والكثير ثم انه عليه الصلاة والسلام
مع أنه ما كان يكتب وما كان يقرأ يتلو كتاب الله تعالى من غير زيادة ولا نقصان
ولا تغيير فكان ذلك من المعجزات واليه الإشارة بقوله تعالى سنقرئك فلا تنسى
والثاني انه لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متهماً في أنه ربما طالع كتب
الأولين فحصل هذه العلوم من تلك المطالعة فلما أتى به هذا القرآن العظيم المشتمل
على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة كان ذلك من المعجزات وهذا هو
المراد من قوله وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لا رتاب
المبطلون الثالث ان تعلم الخط شيء سهل فان أقل الناس ذكاء وفطنة يتعلمون
الخط بأدنى سعى فعدم تعلمه يدل على نقصان عظيم في الفهم والله سبحانه وتعالى
أعطى نبيه علوم الأولين والآخرين وأعطاه من العلوم والحقائق ما لم يصل
اليه احد من البشر ومع تلك القوة العظيمة في العقل والفهم جعله بحيث لم
يتعلم الخط الذي يسهل تعلمه على أقل الخلق عقلاً وفهماً فكان الجمع بين هاتين
الحالتين المتضادتين جاريماً مجرى الجمع بين الضدين وذلك من الامور المخارقة
للعادة وجاريماً مجرى المعجزات مع ما يضاف الى ذلك بالنسبة الى مقامه الشريف
وتنزهه عن الكتابة التي هي وان كانت فضيلة في حذاتها كانت تقدم الا أنها
معدودة من الصنائع العملية وهو صلى الله عليه وسلم منقطع الى ربه غير
محتاج الى هذه الصناعة

ثم ان اللغة العربية ذات نصرف في الكلام وقد جاء القرآن موافقاً لها في
نصرفها وهي تنقسم قسمين أحدهما الظاهر الذي لا يخفى على سامعيه ولا
يحتمل غير ظاهره والثاني المشتمل على الكليات والاشارات والتجوزات وكان
هذا القسم الثاني هو المستعمل عند العرب وقد نزل القرآن بالقسمين ليتحقق
عجز العرب عن الاتيان بمثله فكانت تعال قال لهم عارضوه بأى القسمين شئتم

ولو نزل كله واضحا قالوا هلا نزل بالقسم المستحلي عندنا متى وقع في الكلام
إشارة أو كناية أو تعريض أو تشبيه كان أحلى وأحسن قال امرؤ القيس
وما ذرفت عيناه إلا لتضربي * بهميلي في أعشار قلبه مقتل

فشبهه ناظر العين بالسهم فلا عند السامع قفز القرآن على عادة العرب في
كلامهم قال تعالى فاربحت تجارتهم ومن عادتهم الكناية وفي القرآن ولكن
لا تواعدوهن سرأى نكاحا وقد يكونون عن الشيء ويسترون ضميره بدون أن
يجرى له ذكر يعود عليه الضمير نحو حتى نواترت بالجباب أى الشمس ونحو فاولا
إذا بلغت الحلقوم أى الروح ومن عادتهم الاستعارة نحو الم ترأنهم في كل واد
يمهون ونحو فابكت عليهم السماء والأرض ومن عادتهم الحذف نحو واستل
القرية ومن عادتهم الزيادة نحو فاضربوا فوق الأعناق وهكذا من التصرفات
فالتسان العربي يحتاج إليه في فهم الكتاب والسنة وكتب الشريعة المطهرة
وفهم مداركها واستنباطاتها على موجب قواعد ذلك اللسان وأركانه أربعة
اللغة والنحو والبيان والأدب ومعرفة ما من أوجب الواجبات

ولاشك أن وحدة اللسان ووحدة الشريعة يقضيان بوجوب التفاهم
بين أهلها ما في سائر الممالك الإسلامية فاللسان العربي هو الجامع لجميع
الممالك المتفرقة والدول المتباعدة المتحدة في الدين والشريعة المتباينة في
اللغات العامية فعلى كل دولة من الدول الإسلامية أن يعرف متميزها واللغة
العربية وأركانها الأربعة لاسيما آدابها ودواوينها وأشعارها ووزانها
كل المزاوله لأحياء هذه اللغة التي طمست معالمها ودرست رسومها وقل
راغبوها ونذر خاطبوها الأمن أمم أوروبا في مدارسهم الباحثة عن المعارف
المشرقية القديمة كدبوان الحاسة وخلافه

يكنى عليه غريب ليس يعرفه * وذو قرابته في الحى تسرور
فقد اختصوا الآن باستخراج جوهر لسان العرب من معادنه واستنبطوا منها
الفرائد المهمة والقوائد الجلية واستكشفوا منها مجهول التواريخ والجغرافيا
والعلوم والقانون والأخلاق والآداب والأمثال والحكم مما اتقلم به ملكهم
فلا يلبق بها هجر هذه الوسائل الثرية ولا يكتفى بنشر كتبها بمجرد الطبع والتثمين
كالجارى الآن بمصر في هذا العصر كما لا يكتفى أيضا بالتوسع في دائرة العلوم

العريسة التي عشرو قرافة طولاتها والاقتصار على معرفة الشواهد كما هو
موجود في المدارس الاسلامية الصغيرة بدون تدريس دواوين العرب
ودواوين من حذا حذوهم من المولدين بل لابد من التشويق والترغيب
وأخذ كافة طلبة الجامع الازهر الا نور منها كغيرها من المعارف بأوفى خط
وأوفر نصيب والكامل يقبل الكمال ولا اكثرت بايها من لا يعرف قدرها
فيستعجب أمرها ويستصوب هجرها ويستعجب خفض شأنها وتقض
مرفوع أركانها ويرغم أن الاشتغال به اضياع زمان وان الجهد في تفصيلها
لا يدرك منها طول عمره ما يرجع الميزان وما يرى أنها لو تداوت وألفتها الطباع
وكشف عن جميل مجيهاها الفناع لتجاذبتها العقول الذكية وطمعت اليها
الاطماع وامتد اليها من أولى النهى الباع والذراع وصارت لغة عامة
للخاصة والعامة فقد دلت التواريخ العجيبة على أن أكثر المتقنين من
العلماء في سن العشرين كملت لهم فيها القريحة وانما من جهل شيئا عاذا
واقصر على المؤلف لعقله القاصر وماتعذاه نعم ان اللغة المتداولة في بلدة
من البلاد المسماة باللغة الدارجة التي يقع بها التفاهم في المعلمات
السائرة لا مانع أن يكون لها قواعد قريبة المأخذ تضبطها وأصول على
حسب الامكان تربطها ليتعارفها أهل الاقليم حيث تنفعها بالنسبة اليهم
عيم وتنصف فيها كتب المنافع العمومية والمصالح البلدية وأما الزينة
الحقيقية للدول الاسلامية التي تجرد جيدها من حلاها فهي معرفة لسان
العرب الصحيح والحصول على ملكة التكلم بكلامه الفصيح والبحث عن
أهماته ودواوينه القديمة وتقوم أودالسان برصد مرصده القويمة فان
القصاصد العكاسية وغيرها من كلام العرب قد بلغت بها الدول العريسة
غاية القصد ونهاية الارب فلا غرو ان عادت المياه الى مجاريها وأعطى
القوس باربها

ليالينا بذي الاثلاث عودي * ليورق في ربا الاثلاث عودي
فان نسيم ذاك الشيع أذكي * الى من اتشاق شعبي عود
وان حديتكم في القلب أحلى * وأطيب نعمة من صوت عود
فعسى أن يكون العود أحد * والساعي في الخير يشكر ويحمد فقد أفادت

هذه الآداب في الجاهلية فوائده جزيلة كانت سببا في تهديد الاسلام كما يعلم من
 الفصل الآتي ما ترتب عليها من القصد والمرام فلعلها يترتب على معرفتها
 الآن انقراض الاسلام ويزيد بسطة في العلم والجسم ويقوى بين أئمة الانام

(الفصل السابع)

* (فيما نتيج من شعر العرب وقصائدهم) *

لما علمت العرب سعة دائرة الكتابة في الجاهلية وكانت في الغالب أمة أمية
 جعل لها الشعر العوض فأدركت به الغرض حيث أقامته مقامها فدوت
 به كلامها وعرفت به أيامها ولذلك يروى الشعر ديوان العرب أي سجل
 أحوالها وقبداً فعلها فقد ظهر مما أسلفناه ان قصائد العرب هي التي دلت على
 أيامهم ووقائعهم ودرجة شرفهم ومجدهم وعلو شأنهم وأنهم لم تتغير أحوالهم
 ولا طاعتهم في الأزمان المختلفة ولم يتنازلوا عما كانوا عليه في دهر من الدهور
 من التجدد والاربعية والحماس وكسب الفخار بما فيه من العزة والنخوة
 والاثقة والقنوة فهم وان أحرصوا على أخذ الثار ونقي العار وسفل الدماء
 والاثار بالفخار فكثيرا ما تجددهم يشبثون مع ذلك بالكرم والجود ويميلون
 بالطبع الى كسب الاعتبار بالمجود ويتنافسون في المفاخرات والمنافرات وما
 هذا الا عن احساسهم من أنفسهم بأنهم أهل للمجد والشرف وأنهم يستحقون
 أن يرقوا في مراتب المفاخر الى أعلى الغرف كما يشهد لذلك المنافرة الواقعة
 بين بني عامر قبل الهجرة بعامرين والمنافرة المحاكاة يقال نافرت فلانا الى
 فلان فنفرني عليه أي نصرني وأصلها أن العرب كانوا يسلطون أيهم أعز نفرا
 وسيها أن قبيلة بني عامر انحصرت رياستها في اثنين من وجوه القبيلة وهما
 علقمة بن عبدة التميمي والتجدي وعامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر العامري
 التجدي وكل منهما أقصج همام وبطل مقدم وكلاهما تطلب الرياسة لما فيه
 من الاهلية والاستحقاق فتنافرا وتحاكما عند شيخ محب وقور من قبيلة أخرى
 وتراضيا على قبولهما ما يحكمهم به في فصل الخصام فاستخلفهما هذا الشيخ
 المتنافر اليه على أنه ان حكم بينهما ينقدان لحكمه بدون أن يكون لاحدهما
 بعد ذلك دعوى على الآخر فلقا على ذلك فحكم بأن هذه الخصومة لا يفصلها

بحكمه القطعي الابد حول كامل يحتر فيه سلو كهما يكون له زمن يعرف
فيه درجة فضيلة كل منهما ومنزته على الآخر في مدة هذا الحول تشبث
كل من هذين القرينين بذل ما في وسعهم من الشهامة والفضيلة ليميز عن
قرينه فبعد انقضاء السنة ظهر لهذا الشيخ المحكم ان كلام هذين الرئيسين
لا أرجحية على صاحبه في الحاصل التي يستحق بها رئاسة القبيلة فلما
وجد هما متساويين في صفات الجود والشهامة لا أرجحية لاحدهما على
الآخر حكم لهما بالرياسة اشترا كفيهما فاجتمعا على ذلك واتحدا كمال الاتحاد
قلبا وقابلا للقيام بشؤون القبيلة وحفظ حقوقها وكان صدور الحكم بذلك
في مجلس حافل جامع لكثير من القبائل فمجبوا من قضاء هذا الشيخ الذي أمهل
الخصمين في اقامة دعواهما حول كماله وأخذ العرب من تحكيمه بالموعة
الحسنة لاسيما وقد تسبب عن حكمه زوال البغضاء والمشاخنة وترتب عن
طريقة حكمه التوادد والتحاب واجتماع القلوب والتواطؤ على صلاح
القبيلة فثقل هذا المحكم أهل لان يبعث العرب بطريقة سلوكة على الانصاف
بصفات الحزم والاحتياط المتبعة للمجد والنسب والسعفاء والكرم وكل ما يبلغ
الانسان السيادة وقد كانت المنافرة متوازية بين بني هاشم وبني عبد شمس
ويقال ان هاشما وعبد شمس ولدا توأمين فخرج عبد شمس في الولادة قبل هاشم
وقد لصقت اصبع أحدهما بإصبع الآخر فلما نزع دمي مكانهما فقتل سيكون
بينهما أولاد ولديهما دم فكان كذلك ويقال انهما كانا يوم ولدا في بطن
واحد ملتصق الجباه ففرق بين جباههما بالسيف فقال بعض العرب انه لا يزال
السيف بينهما وبين أولادهما الى الابد

ورفعت منافرة بين هاشم بن عبد مناف بن قصي وبين ابن أخيه أمية بن عبد
شمس بن عبد مناف وسبها أن هاشما كانت اليه الرقادة التي سنها جده قصي بن
كلاب بن مرة مع السقاية لان أخاه عبد شمس كان يسافر وكانت افامته بمكة
قليلة وكان رجلا مقلدا وكان له ولد كبير وهو أمية بن عبد شمس فاصطلحت
قريش على ان ولي هاشم السقاية والرقادة لانه كان رجلا موسرا فكان اذا
حضر موسم الحج قام في قريش خطيبا فقال يا معشر قريش انكم جيران الله
وأهل بيته وانكم يأتاكم في هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته وهم

ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفه وقد خصكم الله بذلك وأكرمكم به وحفظه منكم أفضل ما حفظ جار من جاره فأكرموا ضيفه وزواره فانهم يأتون شعنا غرام من كل بلد على ضوا من كالفداح أى كالعيدان المقطوعة على مقدار النبل فاقروهم وأغنوهم وأعينوهم فكانت قريش ترافد على ذلك حتى كان أهل البيت يرسلون بالشئ اليسير على قدرهم فيضمه هاشم إلى ما أخرج من ماله وما جمع مما يأتيه به الناس فإن عجز كده وكان هاشم يخرج في كل سنة مالا كثيرا وكان قوم من قريش يترافدون لانهم كانوا أهل يسار فربما كان أرسل كل انسان منهم بمائة مثقال

وكان هاشم يأمر بجياض من ادم فتجعل في موضع زمزم قبل أن تحفر زمزم ثم يستقي فيها من الآبار التي بمكة فيشرب الحاج وكان يطعمهم وأول ما يطعمهم قبل التروية يوم ويطعمهم بغير وعرفة ويجمع فكان يثرد لهم الخبز والحم والخبز والسمن والسويق والتمر ويحمل لهم الماء حتى يتفرق الناس يلاذهم وكان يسمى عمرا وانما قيل له هاشم لهشمه التريد وهو أول من أطعم التريد بمكة

عمرو العلاء هشم التريد لقومه * ورجال بمكة مستنون بحاف

وكان أمية بن عبد شمس ذا مال فتكلف أن يفعل كما فعل هاشم من اطعام الطعام لقريش فحجز عن ذلك فشمت به ناس من قريش وعابوه لتقصيره فغضب وناقر هاشما على خمسين ناقة سودا الخدي تخر بمكة وعلى جلاء عشرين سنين وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي وكان منزله عسفان وخرج مع أمية أبوهممة حبيب ابن عامر بن عميرة بن وديعة بن الحرث بن فهر بن مالك القهري فقال الكاهن المناقر اليه والقمر الباهر والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجو من طائر وما اهتدى بعلمه المسافر من منجد وغائر لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر أول منه وآخر وأبوهممة بذلك خابر فأخذ هاشم الأبل فخرها وأطعم لهما من حضروا خرج أمية إلى الشام فأقام به عشرين سنة فمات بين حكم الحكم الأول في المناقرة الأولى حيث ترتبت عليه المودة وبين حكم الحكم الثاني حيث ترتب عليه ما ترتب من العداوة فكانت هذه أول عداوة وقعت في بني هاشم وبني أمية وتعمادت العداوة بين البيتين حتى أقام سيد بني هاشم محمد صلي

الله عليه وسلم بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بمكة يدعوا قريشا الى توحيد
 الله وترك ما كانت تعبد من دونه فاستدب جماعة بنى أمية لعداوته كما سبأني
 فاطلاع قريش على روايات مفارخهم وحسبهم ونسبهم وعزتهم جعلهم
 يحرمون على أن لا يتركوا شيئا من العزة والعظم لغيرهم
 ثم ان الشريعة المحمدية جاءت فيما بعد وحقت العزة العظيمة وحصرتها في
 المواهب الحميدة والفضائل المقدسة وكانت العرب قبل ذلك تزعم ان الرجل
 الشريف الماجد هو الذي يكون كثير المال عظيم الجاه فيعز بن قومه وينافر
 من دونه فبال تقدم في تحسين اللغة العربية والبعد عن الحالة الجاهلية وظهور
 الشريعة المحمدية علما علم اليقين أن العز الحقيقي انما هو في صلاح الدين
 ليس مقصورا على عز الدنيا بل الاولى به عز الدين ولله العزة ولسوله وللمؤمنين
 ولذلك لما نزل القرآن على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهموا في بادية الامر
 واعترضوا نزوله عليه بحسبهم في قوله تعالى وقالوا لولا نزل هذا القرآن
 على رجل من القريتين عظيم فكلامهم يتضمن قياسا منطوقا وهو أن منصب
 رسالة الله تعالى منصب شريف والمنصب الشريف لا يليق الا برجل شريف
 والشريف من كان كثير المال والجاه ومجديس كذلك فلا تليق رسالة الله به
 فالقياس في حذاته صادق الا انهم ضمو اليه مقدمة فاسدة بتفسير الشريف
 فكانت شبهة حيث اشتبه عليهم منصب الدين والنبوة بمنصب الدنيا والمراد
 باحدى القريتين مكة والطائف والذي بمكة هو الوليد بن المغيرة والذي
 بالطائف هو عروة بن مسعود الثقفي فأبطل الله سبحانه وتعالى شبهتهم من
 وجهين الوجه الاول قوله أنهم يقسمون رحمة ربك أي احسانه يعني كما أحسننا
 بمناصب الدنيا لا لسبب سابق فكذلك أحسننا بمناصب الدين والنبوة لا لسبب
 سابق أيضا وحيث قد أحسننا في الاول بمحض قدرتنا ولم يمكن أحدا أن يغيره
 فكذلك أحسننا بالدين والنبوة لا يستطيع أحد أن يغيره فقد فاقنا بين
 الاحسانين ولا يمكن المعارضين أن يقسموا احساننا الذي اقتضته حكمتنا
 الوجه الثاني ما يفهم من قوله تعالى ورحمة ربك خير مما يجمعون يعني أن الله
 تعالى اذا خص بعض عبده بنوع من أنواع فضله ورحمته في الدين فهذه الرحمة
 خير من الاموال التي يجمعها لان الدنيا على شرف الانقضاء والافتراس

وفضل الله ورجته يبقى أبداً فلا فضل للغنى على الفقير وليس الغنى شرفاً حقيقياً

وبالجملة فكانت عزة تقوم من العرب تبعثهم على التخلق بأخلاق المجد والشرف والسخاء والكرم مما به يبلغ الإنسان السيادة والسعادة فلا يحب مما يحكي من الخصال الحميدة ومحامد الأخلاق الصادرة من حاتم الطائي وزيد الخليل ومعن ابن زائدة وأضرابهم ممن كان يضرب بهم الأمثال في الجود والشجاعة قبل الإسلام بمن يسير مثل كعب بن مامة الأيادي وهرم بن سنان النخري قال بعضهم في مدح

لأدرك العصر من كعب ومن هرم * وحاتم جود كفيه لمذكروا
وأجواد العرب في الإسلام عبداً لله بن عباس وأخوه عبيد الله الذي لقرط جوده يسمى معلم الجود وهو أول من وضع الموائع على الطرق ولا غربة في ذلك فمكارم العباس أنجحت في ذلك العهد كثيراً من الناس

لوقيل للعباس عم محمد * قل لا وأنت مخلد ما قالها
إن المكارم لم تزل معقولة * حتى فككت براحتك عقالها
وإذا الكرام تسابروا في بلدة * كانوا كواكبها وكنز هلالها
ما أن أعتمد من المكارم خصلة * إلا وجدت عمها وأخالها
ومن الأجواد أيضاً في الإسلام عمر بن الخطاب والحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ومن أجود العصابة العشرة رضي الله عنهم

وقد ترتب على انشاد الشعر وإنشائه قبل البعثة تصوير الأفكار والاستعداد لقبول محاسن الأمور وتقلب الأحوال إلى أحسن حال بحيث تقدمت العرب عمداً ما خاص بهم بمجامع الفصاحة والبلاغة ومجالس الآداب والمفاخرات وصاروا جميعاً مستعدين لقبول التمدن الحقيقي ومهينين للتخلق بالأخلاق الحميدة والرضا بالتغيرات الجديدة وقبول التصفينات المفيدة والرجوع عن دين الجاهلية واتباع الشريعة المحمدية فكان هذا عبارة عن مقدمات استعجت لمقاصد رسالة تتحدث

(الباب الثالث)

• (في مقدمات حكمية لدولة العرب الاسلامية وفيه فصول) •

(الفصل الاول)

• (في تقدم قريش نوع تقدم في تلك الازمان) •

قد أسلفنا أن لسان العرب قد بلغ درجة كمال وكان مظهر استخلاصه واستصفائه في مكة ونواحيها حتى صار اللسان العذب الفصيح البليغ هو لسان قريش وصارت لهم الرتبة المعنوية لكونهم آل الله وجبراته وسكان بيت الله وفي ذلك يقول عبد المطلب بن هاشم

نحن آل الله في ذمته * لم نزل فيها على عهد قدم

ان لليت لربا مانعا * من يرد فيه باثم يحترم

لم نزل لله فينا حرمة * يدفع الله بهاعنا النقم

فهم مفسوبون دعا الله قال بعضهم عدح أولى الامانة وهي مفتاح الكعبة

اذا الشعب الناس البيوت فأنتم * أولو الله والبيت العتيق المحرم

فن حين كونهم سكان الحرم لازالوا آمنين في امياوهم وتنقلاتهم شتاء

وصيفا في رحلتى الشتاء والصيف والناس يتخفقون من حولهم فاذا عرض

لهم عارض قالوا نحن أهل حرم الله فلا يتعرض لهم أحد وكان هاشم يؤولف الى

الشام وبعد شمس الى الحبشة والمطلب الى اليمن وفوفل الى فارس وكانت تجار

قريش يحتفلون الى هذه الامصار يجال هؤلاء الاربعة الاخوة ولا يتعرض

لهم أحد وكان كل أخ منهم أخذ جبلا من ملك فاحية سفروا اماناله كالا جازة

فكان هذا أشبه شئ بالروابط والعلاقات بين أمر امكة المشرفة وبين كبار

ملوك الدنيا فهذا امارقة دولة قرشية مع ما يضاف الى ذلك مما حصل من قصى

ابن كلاب في زمانه حيث جمع قبائل قريش وكانت متفرقة في البوادي

فأسكنها الحرم وكانت تدعى قبل التجميع النضرين كثانة فكانت قبائل

قريش متفرقة في بني كثانة فجمعهم قصى بن كلاب الى البيت فسجوا قريشا

من التقريش وهو التجميع قال الشاعر يري أحد الامراء القرشين

عدوا في نواحي نعشه وكانما * قريش قريش يوم مات مجمع

وقال بعضهم انما سميت قريش قريشا لدابة في البحر هي أعظم دواب البحر

خطر الا تظفر بشئ من دواب البحر الا أكلته فسميت قريش قريش لانها
أعظم العرب فعلا قال الشاعر

وقريش هي التي تسكن البحر بها سميت قريش قريشا
تأكل الفث والسجين ولا تشرب منه لدى الخنادس ريشا
هكذا في البلاد حتى قريش • يأكلون البلاد أكلأ كشيشا
ولهم آخر الزمان نجي • يكثر القتل فيهم والجوشا
تغلا الأرض خيله ورجال • يحشرون المطى حشرا اكيشا

وأول دار بنيت بمكة دار الندوة وتسمى دار المتدى بناها قصي لتكون مجلس
التقوم ثم ارا يجتمعون فيها للمشاورة في الامور المهمة فلم يكن اهم أمر مهم
الا اجتماعها وهو الذي بنى المسجد الحرام يجبل المزدلفة وكان يسرج عليه
أيام الحج فسجد الله مشعرا وأمر بالوقوف عنده وتنتهى قبائل قريش الى فهر
ابن مالك قال الشاعر

أبوكم قصي كان يدعى مجمعا • به جمع الله القبائل من فهر

وكان قصي يعشر من دخل مكة من غير أهلها وكان أول سبب حرب قصي مع
خزاعة أن مفتاح الكعبة كان بيد أبي غبشان الخزاعي وكان يلى أمر البيت
وسدانة الكعبة قبل قريش واسمه سليم بن عمرو فاجتمع مع قصي في شرب
بالطائف فأسكره قصي ثم اشترى المفاتيح منه بربق خرو وقعود وجابه قومه
فقال هذا مفتاح بيت أيكم اسمعيل قدرته الله عليكم من غير غدر ولا ظلم
ودفع المفاتيح لابنه عبد الدار وصيره بها الى مكة وأقبلت خزاعة على أبي
غبشان تذمه فأنكر البيع وقال انما رهنه اياه وندم ندامة الكسبي فقال
الناس أخسر من صفقة أبي غبشان فذهبت مثلا في الحق والندم وخسارة
الصفقة ووقعت الحرب بين قصي وبين أبي غبشان الخزاعي على ذلك فظهر
عليه قصي وفي ذلك يقول الشاعر

أبو غبشان أظلم من قصي • وأظلم من بني فهر خزاعه

فلانظروا قريشا في شراء • ولوموا شيخكم اذ كان باعه

فاجتمع لقريش في ذلك الوقت الرئاسة على قومهم واطاعتهم العرب واجتمع
لهم مالم يجتمع لغيرهم من مناصب الشرف في ذلك الوقت وهي الحجابة والسقاية

والرفادة والندوة واللواء والقيادة فالجاية هي سدانة البيت الشريف أي
تولية مفتاح بيته والسقاية اسقاء الحجج كلهم الماء العذب وكان نادرا
بمسكة يحمل اليها من الخارج لسقاية الحاج بل ويتبذلهم التروا والزيب
للشرب أي بنا وأما الرفادة فهو اطعام الطعام لسائر الحجج فكانت عندلهم
الاسمطة في أيام الحج وأما الندوة فهي المشورة فكان يجتمع فيها من قريش ومن
غيرهم من العرب من أهل الرياسة من بلغ في العمر أربعين سنة ولا يعقد عقد
نكاح الرجل من قريش الا فيها

وأما اللواء فراية معقودة على رمح منصوبة علامة على اجتماع الجيش لحرب
الاعداء فيجتمعون تحت هذه الراية ويقفون عندها والقيادة امارة الجيش
ورياسة الحرب فكانت هذه هي من سب الشرف في الجاهلية وانتهت الى
عشرة ابطن من قريش وبقيت لهم في الاسلام كذلك

والعشرة الابطن هم هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسود تيم ومخزوم وعدى
وجح وسهم فكان من هاشم العباس بن عبد المطلب يسقى الحجج وبقي له ذلك
في الاسلام ومن بني أمية أبو سفيان بن حرب كانت عنده العقاب راية قريش
وكانت اذا كانت عند رجل أخرجهما اذا جبت الحرب فان اجتمعت قريش
على أحد أعطوه العقاب وان لم يجتمعوا على أحد رؤسوا صاحبها فقدموه ومن
بني نوفل الحرث بن عامر وكانت اليه الرفادة وهي ما كانت تخرجه من
أمواله وترفده بمنقطع الحاج ومن بني عبد الدار عثمان بن طلحة كان اليه
للواء والسدانة أي خدمة الكعبة مع الجاية ويقال والندوة أيضا في بني
عبد الدار ومن بني أسد يزيد بن زمعة بن الأسود وكانت اليه المشورة وذلك
ان رؤساء قريش لم يكونوا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه عليه فان وافقه
ولا هم عليه والاختيروا وكانوا له أعوانا واستشهد مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم بالطائف ومن بني تيم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكانت اليه
في الجاهلية الاشناق وهي الديان والمغرم وكان اذا احتفل شيأ فأسأل فيه
قريشاً صدقوه وأمضوا جملة من نهض معه وان احتملها غيره خذلوه ومن بني
مخزوم خالد بن الوليد كانت اليه القبة والاعنة فأما القبة فانهم كانوا يضر بونها
ثم يجتمعون اليها ما يجهزون به الجيش وأما الاعنة فانه كان على خيل قريش

في الحرب ومن بنى عدى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكانت اليه السفارة
في الجاهلية وذلك أنهم كانوا اذا وقعت بينهم حرب بعنوه صغيرا وان نافرهم
حتى لمفاخرة جعلوه منافرا ورضوا به ومن بنى جهم صفوان بن أمية وكانت
اليه الايسار وهي الازلام فكان لا يسبق بأمر عام حتى يكون هو الذى
تسيره على يديه ومن بنى سهم الحرث بن قيس وكانت اليه الحكومة
والاموال المحجرة التى سموها لا لهم فهذه الوظائف عند العرب فى دولتهم
المعنوية تشبه وظائف الدولة الملكية الحقيقية وكان لهم آداب منها العمارة
وهى أن لا يتكلم أحد فى المسجد الحرام بهجر ولا رفث ولا يرفع فيه صوته
وكان العباس ينهاهم عن ذلك وكان لبنى هاشم سقاية الحاج وعمارة المسجد
الحرام وحلوان النفر فأما حلوان النفر فلكون العرب لم تكن ترضى
فى الجاهلية أن يتكلم عليها ملك فاذا حدث لها حرب مع أحد أقرعوا بين أهل
الرياسة فمن خرجت عليه القرعة أحضره صغيرا كان أو كبيرا وأمره
بالنفر للحرب فلما كان يوم القبيار أقرعوا بين بنى هاشم فخرج سهم العباس
وهو صغيرا فجلسوه على الجن فصار رئيس الحرب ويروى أن المأمون قال
لابى الطاهر القرشى الذى كان على البحرين من أى قريش أنت قال من بنى
سامة بن لؤى فقال المأمون

ما سمعنا سامة بن لؤى * نسبنا فى بطوننا العشرة

لوعلمنا به على بعده مناديا راكنا به برره

أراد بذلك أنه ليس من البطون الذين تقلدوا الشرف والمكارم قديما
وهذا بالنسبة لقريش ظاهر وأما باقى العرب كعرب اليمن فكانت فيهم الدولة
الملوكية وكانت العلاقة بينهم وبين قريش قد ظهرت أماراتها فكان لقريش
عليهم قوة معنوية اذ كل لهم درج ترلق عنها اقدام الرجال وأفعال تخضع
لها رقاب الاموال وغايات تقصر عنها الجياد المسومة والسن تكل عنها
الشعار الماضية ولو اختلفت العرب ما تزيفت الابهيم ولو كانت الدنيا لهم
لضاق بسعة أخلاقهم وهذه الفضائل الخاصة بهم غير الفضائل العمومية
الداخله فى عموم فضائل العرب الشاملة لقريش ولغيرهم التى أشار اليها صلى
الله عليه وسلم بقوله اذ اسألتهم الحوائج فاسألو العرب فانهم اتعطى لثلاث

خصال كرم أحسابها واستحياء بعضها من بعض والمواساة لله ثم قال من أنقض
العرب أبغضه الله

واختصت قريش أيضاً أنهم نزل على نطاوول الأيام تعزى الى أنساب مضبوطة
وتتميز بأحساب عن الخلل محوطة قد قام بتصحيح اتصالاتها في كل زمان
علامون من الأمة ونهض بتنقيح حالاتها في كل أوان فهمامون من الأئمة
ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الأئمة من قريش فمن كانت أوصافهم بهذه المثابة
فقد آن لهم أوان المظهر في التجابة لاسيما وأنه سبقت لجميع العرب العادة
في الازل بنزول القرآن بلغتها واشتقاق العربية من ألفاظها والاستشهاد
على فهم الكتاب والسنة من أشعارها واسناد الحكمة والآداب إليها وأنه
لم يكن من الشعراء بعد شعراء أحد الا كان مضطراً الى الاقتباس من محاسن
ألفاظها والعرب مكثفون عن سؤالهم معرفة قريش وكثيراً من ألفاظهم ما وافق
القرآن الشريف وجاء القرآن على نصرفات اللغة العربية التي بلغت دوحه
كمال في الفصاحة فلم يبق لها في الحصول على مقصودها وهو كمال عذتها وانقاذ
مهمتها بما يورث السقامه والوخامة الا وحده الدين الصحيح وهجر دين
الجاهلية ورفض عبادة الاصنام المختلفة بين القبائل والتصديق بنسخ دين
أهل الكتاب والتسليم بدين الاسلام ودعوة جميع الخلق الى عبادة الله الواحد
حق والركون الى شريعة واحدة صحيحة بها يتمكنون مما جالوا عليه من
الميل الى تلك البلاد وتسخير العباد حسا ومعنى ليصح لهم اصلاح المعاد
والمعاش وليس فروعاً عجزية السبق الى الاسلام وفتح سائر بلاد الدنيا بالدين
المجدي والجهاد في الله حق جهاده فكان تقدمها ووجود الاهلية فيها انك
يعتمد من الارهاصات للبعثة المحمدية

(الفصل الثاني)

في كون العرب أولى بهذه المزية من غيرهم من سائر الامم وكون قومه
المخصوصين الذين هم قريش هم أحق الامم بدولته الاسلامية حيث
أرسل صلى الله عليه وسلم بلسانهم مع عموم رسالته للجميع

قال تعالى وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه المراد بقومه أهل بلده أى

حبه الذي هو قريش فهم قومه وهم غير أهل دعوة اذ دعوه عامة لجميع
 الناس ففرق بين قومه وأمتهم سواء كانوا أمة دعوة أو أجابة فلا يقال ان
 القرآن لما كان نازلاً بلغة العرب لم يعرف كونه معجزة بسبب ما فيه من
 الفصاحة الا العرب ولا يكون حجة الا عليهم كما لا يصح أن يقال ان المراد بذلك
 اللسان لسان العرب وأنه ليس له قوم سوى العرب وأنه مبعوث اليهم خاصة
 كما تستدل به بعض من لم يجعل نبوته عامة مع أن دلائل عموم الدعوة قائمة في
 الرد عليهم كقوله تعالى قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً رداً على
 طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية وهم أتباع عيسى الاصفهاني حيث قالوا
 ان محمداً رسول صادق مبعوث الى العرب وغير مبعوث الى بني اسرائيل لان
 قوله يا أيها الناس خطاب يتناول كل الناس وقوله اني رسول الله اليكم جميعاً
 يقتضي كونه مبعوثاً الى جميع الناس ولنا دليل عقلي على عموم رسالته صلى
 الله عليه وسلم بعض الأدلة وهو أن ما يعلم بالتواتر من دينه أنه كان يقول انه
 مبعوث الى كل العالمين فأمّا أن يقال انه كان رسلاً لاحقاً وما كان كذلك فان
 كان رسلاً لاحقاً امتنع الكذب عليه ووجب الجزم بكونه صادقاً في كل ما يدعيه
 فلما ثبت بالتواتر وبظاهر الآية أنه كان يقول انه مبعوث الى جميع الخلق
 وجب كونه صادقاً في هذا القول وذلك يطل قول من يقول انه كان مبعوثاً
 الى العرب فقط وأما قول القائل انه ما كان رسلاً لاحقاً فهذا يقتضي التصحیح
 في كونه رسلاً الى العرب والى غيرهم فثبت أن القول بأنه رسول الى بعض
 الخلق دون بعض كلام باطل متناقض اذا ثبت هذا فنقول قوله يا أيها الناس
 اني رسول الله اليكم جميعاً على عمومهم فهو مرسل الى كل من وصل اليه خبر
 وجوده وخبر معجزاته وشرائعه حتى يمكنه عند ذلك متابعتها بل هو عام الرسالة
 الى الثقلين الانس والجن بل والى الملائكة تشريعاً لا تكليفاً وهذا من
 خصائصه صلى الله عليه وسلم وقد قال صلى الله عليه وسلم أعطيت خمساً
 يعطهن أحد قبلي أرسلت الى الاجر والاسود وجعلت لي الارض مسجداً
 وطهوراً ونصرت على عدوي بالرعب يرعبني مسيرة شهر وأطعمت الغنمة
 دون من قبلي وقيل لي سل تعطه فاخيتاً بها شفاععة لا متي وأما رسالة آدم لنيه
 ورسالة نوح لمن خرج معه من السفينة فعموميتهم ما خصوصية يعني لفرقة

محصورة ففرق بينها وبين الرسالة العامة كرسالته صلى الله عليه وسلم فليس
 المقهور واحد فلم يرسل من غير العرب ولا من العرب نبي عام الرسالة هو ما
 حقيقيا غيره صلى الله عليه وسلم فن أرسل من العرب للعرب كهود ووصالح
 واسماعيل وشعيب فقد أرسل الى قومه فان هودا أرسل الى عاد الاولي فكذبوه
 ولم يؤمن منهم الا القليل ومن مجزاته ان قومه سألوه أن يجعل الله تعالى
 أصواف شيأهم وأبارا بلهم ابريسما فدعا الله تعالى فصارت ابريسما وكان
 كان مري قومه حجارة لم ينبت فيه شئ فدعا الله تعالى فأجابته فصارت الاحجار
 ترابا وكانت مساكنهم بين عمان وحضرموت والاحقاف من أرض اليمن
 وكانوا ثلاث عشرة قبيلة وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها وكانوا كالخصي عدا
 فلما بعث الله اليهم هودا أمرهم أن يوحدوا الله تعالى وان يكفوا عن ظلم
 الناس فأبوا وكذبوه وعنادوا في النفي والضلال وقالوا من أشتمنا قوة فلما
 فعلوا ذلك ولم يقبلوا نصيحة هود عليه السلام أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين
 حتى هلكوا شيئا وأصابهم الضر الشديد والقعط الجھيد وكان الناس اذا
 أصابهم كرب بعثوا فودهم الى البيت الحرام فيدعون الله تعالى فيستجاب
 لهم فاجتمع رأي ملكهم وأصحابه على أن يتوجه سبعة نفر من أصحابه الى الحرم
 فيستسقون لقومهم فلما قدموا مكة وبالقروا في الدعاء بدت لهم ثلاث صحابيات
 بيضاء وسوداء وجرأ وودوا أن يختاروا أبتن شتم فقالوا اخترنا السوداء
 فانها أكثر غينا فتودوا اخترتم رمادا أرعدا لا يبقى منكم والذوالاولاد
 لا ترككم همدا فتفرقت الصحابيات البيضاء والجرأ ومضت الصحابة
 السوداء نحو اليمن فوافقت من ساعتهن فباشروا وكان أول من نظر الى ما في تلك
 الصحابة من العذاب امرأة منهم تسعى مهدا فرائ وسط الصحابة كلهم
 النار فصفت يديها وهي أول من ابتدعت التصفيق عند المصائب وتلدت
 بأعلى صوتها ويلكم عليكم هود عليه السلام لقد أتاكم العذاب الأتروني الى
 ما في هذه الصحابة قالوا ما ترى شيأ خيرا قالت

اني أرى وسط الصحاب نارا * تنثر من ضرامها الشرارا
 بسوقها قوم على خيول * تهتف بالاصوات والاصهيل
 وهي عذاب بالعاد فاعملوا * فوحدوا الله لكيما تسلموا

ثم استجبروا بالنبي هود * نبي رب واحد معبود
فقد أناكم عن قريب داهيه * فليس بقي منكم من باقيه
فلما أراد الله اهلاكم أرسل عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أثمت عليه
الا جعلته كالميم

وأما صالح عليه السلام فقد أرسل إلى قبيله ثمود على رأس الأربعين سنة
وكانت منازل ثمود بالجربين الجاروا الشام بينها وبين وادي القرى ثمانية عشر
ميلا وكانوا يتخذون من الجبال يوتا فتصنوا فيها وجوفوها وكانوا في سعة من
معاشهم ويوتهم إلى وقتنا هذا منخوة في الجبال ودمهم باقية وآثارهم
بادية ومساكنهم على قدر مساكن أهل عصرنا وهذا يدل على أن أجسامهم
كانت كأجسامنا خافوا أمر الله تعالى وعبدوا غيره وعثوا في الأرض
وتجبروا فبعث الله اليهم صالحا نبيا وهو من أفضلهم حسبا ونسبا فدعاهم إلى
الله عز وجل فكذبوه ولم يقبلوا ما دعاهم اليه فقال العظما منهم يا صالح ان
أحببت أن نصدقك ونؤمن بالله فكأنك بالهالك فأخرج لنا من هذه العنزة ناقة أخصم
ما يكون من النوق ومعها سقيا أي فصيلها فدعا صالح ربه فاستجاب الله
دعاه فقال لهم من أين تريدونها فأشاروا إلى عنزة وقالوا من هذه العنزة
فأشار إليها صالح وقال اخرجي باذن الله تعالى فينباها ثم اذتظروا إلى العنزة وهي
تخرج كاتريزي الناقة وتجنح كما تنحصر المرأة في نقاسها وتركت فانصدعت
عن ناقة كما سألوها ثم نهضت فجعلت تمشي نحوهم حتى اذا دنت بركت فوضعت
سقباميلها في العظم والجسم ثم نهضت نحو المري وابتعها سقيا فلما رأوا ذلك
بهتوا متحجبين وآمنوا بالله تعالى يومهم وليلتهم فلما أصبحوا رجعوا إلى أسوأ
ما كانوا عليه من الكفر والطغيان فقال لهم صالح عليه السلام اما ان تكسرت
على أعقابكم فاياكم أن تمسوا هذه الناقة بسوء أو تمنعوها حظها من المري
والشرب فيحل بكم العذاب هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله
من الكلا ولها من الماء يوم تشربه كله ولكم يوم آخر لان مياههم كانت قليلة
فكانت تشرب ماء الوادي في يوم ويحلبونها في يوم فيشربون لبنا عوض
ما شرب فاجابوه إلى ذلك فكسرت الناقة ترد الماء فتستوعبه جميعا العظمها
حتى لاتدع منه شيئا قصد روضها يشبان لبنا فيستقبلونها بالمحاب

فيحلبون منها بقدر ما كانت تشرب من الماء في الكثرة ثم تصد من غير النجس
الذي وردت فيه لانهم لم تقدر على ان تصد من حيث وردت الضيق فلما طال
عليهم ذلك ملوها فقرروها فانطلق الفصيل موليا وصعد جبلا شامخا جدا يقال
له ضوفذهوا اليه لياخذوه من الجبل فجاءه صالح عليه السلام فلما رآه
الفصيل بكى ثم رغا ثلاثا فانفجرت الصخرة فدخلها فوعدهم الله تعالى بالعذاب
فقال اغتموا في داركم ثلاثة ايام لكل رغبة يوم فأصابهم في اليوم الاول وكان
نهار نجيس صفرة فأصبحوا مصفرين وفي اليوم الثاني أصبحوا ووجوههم
محجرة كأنها خضبت بالدماء وأصبحوا في اليوم الثالث ووجوههم مسوطة
فكانها طليت بالقار وصحبهم العذاب يوم الاحد فأتتهم صيحة من السماء
ارتجت لها الدنيا فقطعت قلوبهم في صدورهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير
الا هلك ولحق صالح ومن آمن به من قومه بمكة وكان آمن بصالح من قوم ثمود
أربعة آلاف نفس وأقام صالح في قومه عشرين سنة وتوفي بمكة ودفن بالبحر
وقيل انه لما خرج مع من آمن به نزل بموضع بمدينة الرملة من بلاد فلسطين
فدفن بها

وأما شعيب عليه السلام الذي يقال له خطيب الانبياء لم يسن مر اجتمعه
قومه فقدمه الله تعالى الى أهل مدين وأصحاب الايكة والايكة هي الشجرة
الملتفة وكان ابراهيم عليه السلام جذه الاعلى لايه ولوط عليه السلام جذه
لامه وكان لسانه عريسا ومن معجزاته انه كان في أرض مدين رمل عظيم
يقاسونه منه عناء شديدا أشار اليه فانتقل منه الرمل الى مكان آخر وكان في
أرضه حجارة فانتقلت بدعائه فحاسبوا قومه أغنياء بذلك النحاس وكان قومه
عليه السلام كفارا وكانت أرضهم مدين وهي ما بين أرض مصر وأرض الشام
وكان غالب أهلها يتجار عليهم يمر الناس من مصر الى الشام فقال لهم شعيب
يا قوم اعبدوا الله ما لكم من الغيرة ولا تنقصوا المكيال والميزان وذلك أنهم
كانوا يجلسون على الطريق ويبيعون بالكيل أو الميزان الناقص وكانوا
عشارين يقطعون الطريق فلما طال عما دهم في النفي والكفر وأيس شعيب
من صلاحهم دعا عليهم فقال ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين
فأجاب الله تعالى دعاءهم فأهلكهم بالرغبة وهي الزلزلة وكانوا قد اجتمعوا تحت

مخاية بعثها الله تعالى اليهم فأظلمت ووجدوا لها بردا وريحاً طيبة فألهمها الله تعالى عليهم ناراً ورجفت بهم الأرض فاحترقوا وصاروا رماداً وذلك قوله تعالى فأخذهم عذاب يوم الظالة وقال أبو عبد الله الجبلي أجمد وهو زو حطى وكلن وسعفص وقرشت أسماء ملو كههم وكان ملكهم يوم الظالة في زمان شعيب كلن فقالت أخته وهي نكي

كلن قد هدركني * هلكه وسط المحله

سيد القوم آناه السحتف نار وسط ظله

جعات ناراعليم * دارهم كالضجعه

وقدرناهم المتصرين المنذر بقوله

ملوك بني حطى وسعفص ذي الندى * وهو زار باب المقام مع الحجر
هم وملكو أرض الججاز بأوجه * كمثل شعاع الشمس أو صورة البدر
وهم قطنوا البيت الحرام وزينوا * قصورا وشادوا للمكارم والفخر
ويذكر لهم حروب عجمية وأخبار وسير غريبة ويفهم من كون غالبهم تجارا
ولهم مكاييل ووزين وانهم كانوا عشارين يقطعون الطريق وأنهم كافي
قصة يوسف كانوا يسافرون الى مصر للتجارة وإن لهم أو كاتسمى بالكلمات
الابجدية انهم كانوا ممتدنين وإن الكتابة كانت موجودة عندهم والانعام معني
جمع حروف الهجاء وجعلها أسماء لمن ليس يعرفها وحيث انه يفهم من رثائهم
السابق انهم ملكوا أرض الججاز فهذا يؤيد ما سبق في الفصل السادس من
الباب الثاني من أن الخط قديم عند العرب

وأما اسمعيل عليه السلام فهو أكبر أولاد ابراهيم عليه السلام وأبو العرب
وأبو نينا محمد صلى الله عليه وسلم وهو أول من تكلم بالعربية المستعربة
وأول من ركب الحيل وكانت وحوش الأتركب وقد أعطاه الله القوس العربي
فكان لا يرى شيأ إلا أصابه والعرب كلها من ولد اسمعيل وقطان وبعض
اليمن وقد بعثه الله تعالى نبيا الى العماليق والى قبائل اليمن وروى أن ابراهيم
عليه السلام استمر دهر أطويلا لا يولد له ولد فوهبت له سارة هاجر وقالت اني
سرمت من الولد فقلع الله أن يرزق منها ولدا فقربه عنينك فأحبها ابراهيم عليه
السلام لحالها وعقلها ردينها فلما حلت باسمعيل وولده تحوّل نور نبوة محمد

صلى الله عليه وسلم من جبين ابراهيم الى جبين اسمعيل عليه السلام يالوح
 كالشمس المشرقة فأخذت سارة الغيرة وقالت لابراهيم عليه السلام ان الله
 تبارك وتعالى جعل صدقي عليك رضاي وطاعتي وأنا أمر لك أن تصمل هذه
 الجارية وابنها الى بلد لا ماء فيه ولا زرع فتسكنهما فيه قال أفعل ذلك فأمر
 الله تعالى ابراهيم بالمسير الى مكة فصاروا وأرزلهما هناك والبيت يومئذ بؤرة
 جراء مشرفة على ماسواها فلم ينزل ابراهيم عن طيته فتأذته هاجر يابني الله الى
 من تكلنا قال الى الله تعالى واستودعكم اياه فقالت له الله أمر ليهذا قال نعم
 قالت اذا لا يصيبه منا فرجع ابراهيم عليه السلام الى الشام فعمدت هاجر
 ففعلت عريشا وكان معها شنة فيها ماء فنفذ الماء وعطشا عطشا شديدا
 فقتضرت الى الله تعالى فنزل جبريل في صورة آدمي فركض برجله موضع بئر
 زمزم فنصب الماء من موضع رجله فشرب اسمعيل وأخبرها جبريل انها عين
 يشرب منها اضيقان الله تعالى وان هذا الغلام وأباه سيقيان بيتا هذا موضعه
 فلبثا خمسة أيام يشربان من ذلك الماء فيميز بهما عن الطعام والشراب وفي
 اليوم السادس أقبل غلامان من العماليق فأبصر الماء وأخيرا قوما هما
 بذلك فأقبل عظماءوهم الى اسمعيل وأمه هاجر فساءلوهما فأخبرتهم بخبرها فثقلوا
 لولا ان هذا الغلام كرم على الله تعالى ما نبع له الماء من هذا المكان واستأذنوا
 منها أن يتقلوا بأهاليهم فيقيموا معهم وان هذا الغلام متى أرادوا خراجهم
 من هذا المحل خرجوا منه واشتروا له عليهم المواساة في أموالهم ورياسته
 عليهم عند ادراكه فأتقلوا جميعا وابتوا المنازل والبيوت ونشأ اسمعيل عليه
 السلام مع أولادهم وكانت لغتهم العربية العنصرية وهي لغة أولاد بني معد
 التي نزل بها القرآن ثم لما بلغ الأربعين بعث الى العماليق وجرحهم وقبائل اليمن
 وكانوا يعبدون الاوثان فأمن بعضهم وذهب كثير من العلماء الى ان اسمعيل
 صلى الله عليه وسلم هو الذبيح وان ذلك كان في شعب مكة وأنه فدى بكبش
 من الجنة قدر عى فيها أربعين خريفا وان الاسلام جاء ورأس الكبش معلق
 بترينه في ميزاب الكعبة الى ان حرقها الحجاج وعلى ذلك قال بعضهم
 ان الذبيح هديت اسمعيل * نطق الكتاب بذلك والتزويل
 شرف به خص الاله نبينا * وأبانه التفسير والتأويل

وولد لاسماعيل من دعلة بنت حضا من اثنا عشر ذكرا وبنو وعاش اسمعيل مائة
وسبعا وثلاثين سنة ومات بمكة ودفن ما بين الميزاب والحجر الى جنب قبر أمته هاجر
ولما حضر ابن الزبير أساس الكعبة وجد سقطاس من مرأ خضر فسأل العلماء
بالاخبار فقالوا هذا قبر اسمعيل وأمه وأما بناؤه البيت مع أمه فأمره معلوم
وتأذين إبراهيم بالحج اليه مفهوم وان حلوله بالبيت الحرام أول عهد الجمعية
العرب

وأما حنظلة بن صفوان فإنه كان من ولد اسمعيل وكان نبيا في الفترة وأرسل الى
أصحاب الرس وكانوا قبيلتين من ولد اسمعيل فقتلوه
وأما خالد بن سنان العنسي فهو نبي عربي من ولد اسمعيل عليه السلام
وكان في زمن الفترة بين المسيح وبين نبينا عليه الصلاة والسلام قال ابن عباس
رضي الله تعالى عنهما ظهرت نار في مكة والمدينة في الفترة فقسمتها العرب
فكانت طائفة منهم تعبد هامضاهاة للعبوس فقام خالد هذا فخذ عصاه واقسم
النار يضرب بها نضرها بعصاه حتى أطفأها الله عز وجل فقال لا اله الا ميت
فاذمت وجاء الحول فارصد واقبري فاذا رأيت غزا عند قبرى فارموها
فاقتلوها وانشوا قبرى واستخرجوني فاني أحدثكم بما هو كائن فمات
فرصدوه الحول ورأوا العز فقتلوها وأرادوا ينش قبره فنعهم بنوه وقالوا لا
يسمى بالنبي القبوس ويروى ان ابنة خالد هذا أمت النبي صلى الله عليه وسلم
بعد ما هاجر فسلمت عليه وقالت أنا ابنة خالد بن سنان فقرح بها ثم قال لاصحابه
رضي الله عنهم أتعلمون ما سبيل أبي هذه قالوا الله ورسوله أعلم قال ان أباه كان
نبيا هلك بين مكة والمدينة ضيعة قومه فقصر النبي صلى الله عليه وسلم قصته
وقال لو نبشوه لا خبرهم بشأني وشأن هذه الامة وما يكون فيم او يقال انه نبي
البرزخ بعث لمن مات طفلا ومما ينقل عنه حين اطفأه النار قوله بذا ابد اكل
هدى لله مؤدى لا دخلنا وهي تتلظى ولا نخرج منها وثيابي تندي
فارسل هؤلاء الرسل للعرب قبله صلى الله عليه وسلم فمهملد الله ومن
التمهيدات أيضا ان امن به في الفترة عدة أشخاص من أرباب الاعتبار وان لم
يحصل الاتفاق على ايمانهم ختمهم أسعد أبو كرب الجبري كان آمن بالنبي صلى
الله عليه وسلم قبل أن يعث بسنين وأنشأ يقول

شهدت على أحمد أنه * رسول الله وبأرى التسم

فلو مد عمرى الى عمره * لكنت وزيره وابن عم

وهو أول من كسا الكعبة الانطاع والبرود وأول من حلاها فى الجاهلية عبد
المطلب بن هاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم وفى الاسلام الوليد بن عبد
الملك وقيل أبوه وقيل ابن الزبير وحلاها من العباسيين الامين والمتوكل
والمعتز وحملها أم المقتدر العباسي والملك المجاهد صاحب الدين وعين حلاها
من بني عثمان السلطان أحمد ابن السلطان محمد ابن السلطان مراد خان وكان
أراد أن يجعل حجارة الكعبة الشريفة ملبسة واحدا بالذهب وواحدا بالقضة
فمنعه المولى محمد بن سعيد الدين المقتي وقال هذا من بل حومة البيت ولو أراد
الله سبحانه ونعالى بلعله قطعة من الباقوت فكيف عن ذلك وجعل ثلاث
مناطق من القضة المحلاة بالذهب أيضا داخل الكعبة الشريفة صونا لها
من الهدم

وعن آمن به صلى الله عليه وسلم فى الفترة قس بن ساعدة الايادى وكان حكيم
العرب صحيح النسب مقر بالبعث والحساب فصيحاً اذا خطب عمره اطويلا
وكان مقر الله تعالى بالوحداية فضرب بـ ~~بصكته~~ الامثال ونكشف به
الاهوال كان يسبح على منهاج المسيح يتفقر القفار ولا تكنه دار ولما
قدم الحارود بن عبد الله على النبي صلى الله عليه وسلم سأل عنه فقال هلك فقال
برحه الله فهل فيكم يامعشر المهاجرين والانصار من يحفظ لنا منه شيأ فوثب
أبو بكر رضى الله عنه قائما فقال أنا يا رسول الله كأنى أنظر اليه بسوق عكاظ
على جبل له أحمر وهو يقول أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا واذا وعيتم شيأ
فاتقوا الله من عاث مات ومن مات فأت وكل ما هوات أت مطروبات
وأرزاق وأقوات جمع واشتات وآيات بعد آيات ان فى السماء نظيرا وان
فى الارض لعبرا نجوم عمور وبهار تقور وسقف مر فوع ومهاد موضوع
أقسم بالله قسما لا حاشا لآئما ان لله ديناً أحب من دينكم الذى أنتم عليه
ونبياً قد أظلمكم وأنه وادرككم اياته فلو بلى ن أدركه فأمن به وهداه
وويل لمن خالقه وعصاه ثم قال مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون أرضوا
بالمقام فأقاموا أم تركوا ههنا فقاموا يامعشر بنى آدم أين الآباء والاجداد

وأين المرضى والعواد طعنهم الثرى بكله ومن قههم يتناولوه كلابل هو
الله الواحد المعبود ليس بوالد ولا مولود

في الذاهبين الاولي* من القرون لنابصائر
لما رأيت موارد * للقوم ليس لها مصادرو
ورأيت قوى نحوها * تمضي الاصغر والاكابر
لا يرجع الماضي الى ولا من الباقيين غابر
أيقنت اني لا محا * لث حيث صار القوم صائر

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله قسا اني لا رجوا ان يعثه الله أمة
وحده ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل وهو ابن عم عمر بن الخطاب رضي الله عنه
وكان يرغب في دين الاسلام ويعرض عن عبادة الاصنام وعابها فأولع به
عمر بن الخطاب وسلط عليه سفهاء مكة فاذوه فسكن كهفا في جبل حرا وكان
يدخل مكة سرا وسارا الى الشام يبحث عن الدين فسمعه بعض ملوك غسان
بدمشق فأتوا

ومنهم أمية بن أبي الصلت الثقفي وكان شاعرا عاقلا وكان يجبر الى الشام فتلقيه
بعض أناس من أهل الكتاب فقرأ عليهم وعلم أن نبياسية من العرب وكان
يقول أشعارا يصف فيها السموات والارض وذكر الانبياء والبعث والجنة
والنار ويعظم الله تعالى ويوحده ويعجده وهو أول من كتب باسمك اللهم

ومنهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي وهو ابن عم خديجة الكبرى
زوج النبي صلى الله عليه وسلم وكان قد قرأ الكتب المنزلة ورغب عن عبادة
الاصنام وبشر خديجة بالنبي عليه السلام وأنه نبي هذه الامة وأنه سيؤذي
ويكذب واجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم فقال يا ابن أخي أثبت علي ما أنت
عليه فوالذي نفس ورقة بيده انك لنبي هذه الامة ولتؤذين ولتـكـذبـن
ولتخرجن ولتقاتلن ولئن أدركت يومك لانصرنك نصر اموزرا

ومنهم بحير الراهب وكان على دين المسيح عيسى بن مريم ولم يخرج رسول
الله صلى الله عليه وسلم مع عمه أبي طالب الى الشام في تجارة وهو ابن اثني
عشرة سنة وعهما أبو بكر وبلال رضي الله عنهما فخر وابصيرا الراهب وهو
في صومعته فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته ودلائله وكان الغمام

يظله حيثما جلس فأنزلهم بحيرا وأكرمهم واصطنع لهم طعاما ونزل من
 صومعته حتى نظر الى خاتم النبوة بين كفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع
 يده على موضعه وأمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وأعلم أبا بكر وبلا لا يقضيه
 وما يكون من أمره وحذرهما عليه من أهل الكتاب وسألهمما أن يرجعاه
 فرجعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة وأعلننا قريشا بما أظهر الله
 تعالى من دلائل نبوته وعلامات رسالته صلى الله عليه وسلم ومن هذا كله يعلم
 أن قومه الذين أرسل بلسانهم لكافة الناس بشيرا ونذرا هم حبه يعني قريشا
 حتى إن الحكمة الالهية اقتضت أن منهم من آمن به قبل بعثته أو أن الدلائل
 كانت فيهم فائمة ولو أدركوا البعثة لكانوا أول من صدق به لاسيما وأنهم علماء
 قريش وفصحاء وحاف كانوا أقرب الى إدراك أعظم معجزاته وهو القرآن البالغ
 حد الإعجاز الذي أعجز فصحاء العرب عن الاتيان بأقصر سورة منه فهو أكبر
 معجزاته صلى الله عليه وسلم فقد دعاه بلغاء قريش وهم ماهم وما أدراك ماهم
 فالة البلاغة ولسن الفصاحة لهم من آفاق ذلك قراها والنجوم الطوالع ودعا
 غيرهم مذبحته الله قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل الى يومنا هذا والى يوم البعث
 والنشور على أن يأتيوا بعشرو من مثله مقتريات وتنازل معهم الى الاتيان
 بسورة من مثله وفي السور ما هو ثلاث آيات وتحدي به الانس والجن فلم يأتيوا
 بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ونكصوا على أعقابهم خاسين وذبح كل
 نبي بمعجزاته ولم يبق لها أثر ظاهر خلا الروايات عنها والاحبار وأبني لنا صلى
 الله عليه وسلم معجزات خالدين ظهرا فإنا الى يوم القيامة بعد ذهابه لا تنكسف
 شمسوه ولا تزوي زهراته فوجه الإعجاز في سورة الكوثر التي هي أقصر سورة
 منه انها مشتملة على ثلاث آيات الآية الاولى وهي قوله تعالى انا أعطيناك
 الكوثر فيها ثمان فوائد الفائدة الاولى انه يدل على عطية كبيرة مستندة الى
 معط كبير ومتى كان كذلك كانت النعمة عظيمة وأراد بالكوثر أولاده الى
 يوم القيامة من أمتهم جاء في قراءة عبد الله النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو
 أبوه وأزواجه أمهاتهم وأيضا ما أعطاه الله في الدارين من من أيا الأثرة
 والتقديم والثواب لم يعرف كنهه الا الله تعالى ومن بجله الكوثر ما اختصه به
 من النهر الذي طينته المسك ورضاضه الدرر وعلى حافاته من أواني الذهب

والفضة ما لا تعده النجوم النائية انه بنى الفعل على المبتدأ فدل على
الخصوصية لان تقديم المحدث عنه أكد لاثبات الخبر الثالثة انه جمع ضمير
المتكلم وهو يشعر بعظم الربوبية الرابعة انه صدر بالجملة بحرف التوكيد
الجارى مجرى القسم الخامسة انه أورد الفعل بلفظ المضى دلالة على أن
الكون لم يتناول عطاء العاجلة دون عطاء الآجلة دلالة على أن المتوقع من
سبب الكرم فى حكم الواقع السادسة جاء لكر ترحيظ الموصوف لان
المثبت ليس فيه ما فى المحدث من قرط الابهام والشياع والتناول على طريق
الاتساع السابعة اختار الصيغة المؤنثة بالكثرة ثم جاء بها مصروفة عن صيغتها
الثامنة أتى بهذه الصيغة مصدرة باللام المعروفة لتكون لما يكون بها شاملة وفى
اعطاء معنى الكثرة كاملة ولم يكر للمعهود وجب أن يكون الحقيقة وليس
بعض افرادها أولى من بعض فتكون كاملة وقد دخل فيه الجواب عن كونه
غير معقب ابنا لان بقاء الابن بعده لا يتخلو عن أمرين أما أن يجعل نبيا كما يوحى
لذلك لوعاش ابراهيم لكان نبيا وذلك محال لكونه خاتم الانبياء وألا يجعل نبيا
وذلك يوهم بأنه خلف سوء فسين عن تلك الوصمة بما أعطى من الخبر الكثير
وهو حصول الغرض المتعلق بهم مع انتفاء الوصمة اللازمة لو كانوا لم يكونوا
أنبياء ومع ذلك فات أولاد فاطمة وذريتهم يسمون بأنهم ويتسبون اليه
نسبة حقيقية نافعة فى الدنيا والآخرة كما ذكر ذلك بعض الصوفية عند
بيان معنى أول البيت الذين أنشد هما سيد الكونين صلى الله عليه وسلم
للسيد الشريف الطباطبائي فاما حين سلط عليه الامير القرقيش الشعباني
وأخرجهم من خلوته وهما

يا بنى الزهراء والنور الذى * ظن موسى انه نار قبس

لأولى الدهر من عاداكم * انه آخر سطر فى عبس

وذلك ان بعضهم سأل بعض الصوفية عن وجه نسبته الى الزهراء والى النور
الذى هو عبارة عنه صلى الله عليه وسلم وعن وجه ترك نسبته فى ذلك البيت
الى أبيهم على بن أبي طالب رضى الله عنه كما هو قاعدة الشرع الاظهر وما هذا
النور الذى هو عين النار التى ظنهم موسى عليه السلام كذلك فودى منها
انى أنا ربك فأجاب بان ما قاله صلى الله عليه وسلم فى هذا البيت المناسى هو عين

الشرع اذ قد صرح العلماء بأن بني الزهراء وذريتهم يسمون أبناءهم وينسبون
 اليه نسبة حقيقة نافعة في الدنيا والآخرة كما تقدم وان من خصائصه صلى
 الله عليه وسلم ان كل بني أبي ينسبون اليه الا اولاد علي وأثبت الحنفية الشرف
 لا اولاد البنت لان أصل الشرف كان كذلك من فاطمة رضي الله تعالى عنها
 وفي الحديث ان الله تعالى جعل ذرية كل نبي في صلبه وان الله تعالى جعل
 ذريتي في صلب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وروى نحوه من طرق وفي غيره
 لكل بني أبي عصبية ينقون اليها الا اولاد فاطمة فأما ولدهم وعصبية فهم عترتي
 خلقوا من طينتي وبل للمكذبين رضح عن عمر رضي الله عنه سمعت رسول الله
 صلى الله عليه وسلم يقول كل سبب ونسب يتقطع يوم القيامة ما خلا سبي
 ونسبي وفي رواية زيادة الصهر والحسب وكل بني آتي فعصبية لا يسمهم ما عدا
 ولاد فاطمة فاني أنا أبوهم وعصبية الي غير ذلك من الاحاديث فهذا وجه نسبته
 اليه والى الزهراء ورتب نسبته الي علي رضي الله عنهم أجمعين ولا شك في الشرع
 ان كل شيء ينسب الى أصله الحقيقي وهو صلى الله عليه وسلم الشارع المشرع
 ومنه كان كفاية الناس لا ينسبونهم الا اليه صلى الله عليه وسلم لا الى علي
 فيقولون اولاد الرسول ولا يقولون اولاد علي الا نادرا حتى كأنه لم يكن لهم في
 أبوتهم أصلا (فان قلت) لاشك ان النسب بالجزئية الابوية فلماذا كانت هذه
 الخصوصية على خلاف الحكمة العقلية (قلت) يل ذلك الموافق لانه لا مانع
 في قدرة الله أن يأخذ ببعض جزئية النبوي بطريق التكاح المعنوي فيضعه
 في علي ويضعه علي في فاطمة ويخلق منه ما أراد كامة لسيد العباد صلى الله
 عليه وسلم ولقد وضع كثير من الاولياء أسرار في البعض يحملها الي غيره حيا
 وميتا واذا ولدت مريم عليها السلام بلا أب أصلا فلان تلد بلا أب المعنوي
 بواسطة علي فاطمة رضي الله عنهم ما أوى وقد كان بعض المحبين اذا فصل حبيبه
 خرج منه الدم واذا كان بعض أفراد الاولياء يربى بالنظر فالاجدر أن يولد
 بهذا المعنى لسيد البشر فشأنه صلى الله عليه وسلم من وراء أطوار القطر
 وأما النور فهو النور الخاص الذي هو أول باد من تجلي خمس ذات الاختصاص
 المشار اليه بقوله سبحانه الله نور السموات والارض والمصريح به حديث أنا
 من نور الله والمؤمنون من نوري وما في حديث جابر ان الله تعالى خلق قبل

الاشياء نور نبيك من نوره فهذا هو النور الذاتي ومنه انوار الصفاتي ولا شك ان النور اثر النار فلما روى نطق أنه هي لانها السبب الطاهرة وودي من جانب السبب الحقيقي الباطن اني أنا ربك فلا يقف بك عزمك عند ما يشهد حزمك فيقع بك حزمك وكذلك ماداه الحبيب الاكرم صلى الله عليه وسلم بطريق الاشارة للقائ على العبارة بأن ذلك النور يا موسى لانه مجلي ذات المتجلي فكيف تجعلني نارا وهي مجلي صفة المتجلي وكيف تقف مع الاسباب على ماظهر من الابواب ولم تخرق الحجاب حتى تشهد ما تحت النقاب فأنم الا هو ثم صبه بل هو حبه ومحبه فأين النار من هذه الانوار وأين المزار من ذلك المزار فخط الاوزار وثمر الازار كي ما تفرق الورد من النار وتميز سر الاسرار وتشهد المولى الستار في جميع الاغيار وسائر الاطوار فكأن جامعاً في فرقك وفارغاً في جمعك ليكمل جمعك في فرقك وجمعك وقد صدر وعجز بعضهم هذين البيتين فقال

يا بني الزهراء والنور الذي * كل نجم في العلامة اقبس
نورك في الطور لما ان بدا * ظن موسى انه نار قبس
لا والى الدهر من عاداكم * أو عليه فيكم الامر التبس
لست أخشى الله فيه ان أقل * انه آخر سطر في عبس

وبما تقدم مع آية انغاريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا يقطع بأنه لا يقاس به صلى الله عليه وسلم غيره من الانبياء ولا اولادهم على اولاده لان هذا امر خصه الله به وبذريته بسببه فلا أحد يلحق به وفي الحديث نحن أهل بيت لا يقاس بنا أحد

وأما ما ورد من أحاديث مقتضية لوقوع نقص كحديث ان أهل بيتي هؤلاء يرون أنهم أولى الناس بي وليسوا كذلك ان أوليائي عنكم المتقون من كانوا حيث كانوا ونحو ذلك مما ورد في هذا المعنى فقد ورد أيضاً كثر منها وأعظم في اضداد ذلك وأزيد من ذلك وانما ورد ذلك لاصل الانذار والارشاد وعدم الاعتزاز كيف والقطع بالاتصال محال في الانقصال انتهى والآية الثانية وهي قوله جل وعز فصل لربك وانحر فيها ثمان فوائد الاولى فاء التعقيب ههنا مستفادة من معنى التسجييب لمعنيين أحدهما جعل الانعام الكثير سبباً

للقيام بشكر المنعم وعبادته وثانيهما جعله سببا لتكثير المبالاة بقول العدو فان
 سببه نزول هذه السورة أن العاص بن وائل قال ان محمدا منبورا رأى كالسيف
 الثابت في ساق النخلة الذي لا يثمر شيئا فنشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه
 وسلم فانزل الله هذه السورة الثانية قصده بالامين التعريض بدين العاص
 وأشباهه من كانت عبادته ونحوه لغير الله وتثبيت قدم رسول الله صلى الله
 عليه وسلم على الصراط المستقيم واخلاصه العبادة لوجهه الكريم الثالثة
 أشار بها بين العبادتين الى نوعي العبادات أعنى بها الاعمال البدنية التي
 الصلاة امامها والمالية التي نحر البدن منامها الرابعة التقيص على ما لرسول
 الله صلى الله عليه وسلم من الاختصاص بالصلاة حيث جعلت لعينه قرة وينحصر
 البدن التي كانت همته فيه قوية روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه أهدى مائة
 بدنة فيما جل لا يبي جهل في أنفه برقم ذهب الخامسة حذف اللام الاخرى
 لثلاثه عليها بالاولى السادسة مراعاة حق التسبيح الذي هو من جملة
 صنعه البديع اذا ساقه قائله مساقا مطبوعا ولم يكن متكلفا ولا مصنوعا
 السابعة أنه قال ربك وفيه حسنان وروى على طريق الالتفات التي هي أتم من
 الاتهامات وصرف الكلام عن لفظ المضمر الى لفظ المظهر وفيه اظهار الكبرياء
 شأنه واثابة له رزة سلطانه ومنه أخذ الخلفاء قولهم بأمرنا أمير المؤمنين بكذا
 وعن عمر رضي الله عنه أنه حين خطب الازدية الى أهلها فقال خطب اليكم
 سيد شباب قريش مروان بن الحكم وسيد أهل المشرق جوير بجيلة ويخطب
 اليكم أمير المؤمنين عني نفسه الثامنة علم بهذا ان من حق العبادة أن يخص
 العباد بها ربه ومالكهم وعرض بخطا من عبد مروا بوتر لعبادة ربه الآية
 الثالثة وهي قوله ان شأنك هو الا بقرعها خمس فوائد الاولى علل الامر
 بالاقبل على شأنه وزك الاحتفال بشأنه على سبيل الاستئناف الذي هو
 جفم حسن الموقع وقد كثرت في التزليل مواقفه الثانية ونتجه أن تجعلها
 جملة للاعتراض مرسله ارسال الحكمة تلحظة الاغراض كقوله تعالى ان خير
 من استأجرت القوى الامين وعني بالشاني العاص بن وائل الثالثة أنه ذكره
 بصفته لا باسمه ليتناول كل من كان في مثل حاله في كيدته لدين الحق الرابعة
 صدور الجملة بحرف التوكيد وفيه أنه لم توجه بقله الى الصدق ولم يقصده

الافصاح عن الحق ولم ينطق الا من الشناّن الذي هو قرين البغي والحسد وعن البغضاء التي هي نتيجة الغبط والخرج ولذلك ومنه بما نبئ عن المقت الاشد الخامسة جعل الخبر معرفة ليمّ البئر للعدو الشائئ حتى كأنه الجمهور الذي يقال له الصنوبر ثم هذه السورة مع علو مطلعها وتعام قطعها واتصافها بما هو طراز الامن كله من بجمتها مشحونة بالنكت الجلائل مكتنى بالمحسن غير القلائل فهي خالية من فصنع من يتناول التنكيت وتعمل من يتعاطى التنكيت

ومن وجوه اعجاز القرآن اشتغاله على المحكم والمتشابه وهذا لا يتخلو عن حكمة وقد حصر بعضهم المحكم في ذلك في خمس فوائد الاولى أن المتشابه مع المحكم ادعى لسائر أهل المذاهب الى النظر في القرآن لانهم اذا نظروا وجوه ما ينصرون به أقاويلهم كان نظرهم فيه أقوى فيكون ذلك داعية للمحقق الى انشراح الصدور والمبطل الى أن يتأمل كثيرا فيزول عن باطله وان كان جميعه محكالم يكن يحصل هذا الوجه الثانية وهي أن كون القرآن مشقلا على المحكم والمتشابه يقتضي أن الناظر فيه والمتدبر له اذا غفر بما ظاهره التشبيه وبما يدل على التوحيد أن يتطرق في أدلة العقول ليميز بين المحكم والمتشابه الثالثة أن عند النظر في ذلك وبما ذكر العلماء وتعرف منهم ما أشكل عليه ومادعا الى ذلك أولى مما يقتضي العدول عنه لأن مذاكرتهم تكشف عن الحق الرابعة أن كونه كذلك أبعد عن طريقة التقليد الى طريقة النظر لانه اذا وجد القرآن مختلفا لم يكن بأن يقلد المحكم أولى من المتشابه فيخرج الى الرجوع الى الدلالة ولو كان الجميع محكالم كان أقرب الى الاشكال على ظاهره الخامسة انه سبحانه علم أن صلاح أن يزداد نظرهم وتأمله ويتعوا في معرفة الحق خواطرهم

وربما ظهر لارباب العقول القاصرة في الآيات القرآنية ان بعضها يناقض بعضها لا خدما لظواهرها والتناقض الحقيقي بين الكلامين انما يكون اذا تضمن أحدهما نفي ما أثبت الآخر وبالعكس وليس في كتاب الله تعالى ما هذه حاله ولم ادعى مدع ذلك في القرآن وبين العلماء قوله كقول بعضهم ان في قوله تعالى ليس كنهه شي متناقض لان دخول الكاف عليه يقتضي اثبات المثل والنفي

يقتضى ضده وبقذلك التناقض بأن العرب اذا ارادت أن تؤكد المثل في
الاثبات والنفي أدخلوا فيه الكاف فيقولون ليس كمثل زيد جواد ولا نجح
فيكون أبلغ من حذف الكاف والقرآن جار على أسلوبهم ومن ذلك ما أورده
بعضهم في معرض التناقض بين قوله تعالى ومن يضل الله فإله من ولي من بعده
وقوله تعالى وزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم فقال إن إحدى
الآيتين تقتضي أن لا ولي للكفار والساينة تقتضي أن لهم وليا وأجيب عن
ذلك بأن قوله فإله من ولي المراد به في الآخرة عند اضلال الله لهم بالعقوبة
وأراد بقوله فهو وليهم اليوم في الدنيا وتقييده بذكر اليوم يدل على ذلك وأيضا
إن كان المراد في وقت واحد فلا تناقض لأن المراد فإلههم من ولي ينفع ويضر
وكون الشيطان لهم وليا لا يقتضي أن ينفع ويضر ومن ذلك ما ذكرناه عند
ذكر طيود وبيس قصير الثاني في الكلام على أهل الكهف من التناقض بين
قوله تعالى ولبشوا في كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا وبين التاريخ حيث
أن من دقيانوس الى طيود وبيس ليس الا مائة واحد وسبعين سنة وأجيب
عنه بأنه من قول أحد الخريين ثم رأيت في كتاب ألف باب لابن جحاج انه نقل عن
ابن عباس ما يدل على ذلك حيث قدر قالوا ولبشوا اشارة الى انه حكاية عن أحد
الخريين يعني بدلالة سيقولون ثلاثة رابعهم كلهم ويؤيده كما سبق قل الله أعلم
بالبشوا كما تقدم مبسوطا في محله ويقاس على هذا ما أشبهه فلا مطعن
في القرآن بالتناقض بوجه ما كما يعتقده من ينظر الى ظواهر الآيات كما
لا مطعن فيه أيضا من جهة التكرار والتلويل وذلك لأن عادة القصاص
جارية بأنهم يكررون القصة الواحدة في مواضع مختلفة لا غرض مختلفة
تجديد في المواضع وذلك من القضايل لامن المعاييب وانما يعاب التكرار اذا
ذكر في الموضع الواحد

ومن المعلوم أن الله تعالى أنزل القرآن على رسوله في ثلاث وعشرين سنة حالا
بعد حال وقد علم من حاله أنه كان يضيق صدره لما يناله من الكفار فكان تعالى
يسليه بما ينزله عليه من قصص من تقدم من الأبياء ويعيد ذكره بحسب
ما يعلمه من الصلاح ولهذا قال سبحانه وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما مَثَّبَ
به فؤادك

ومن المعلوم أيضا أن ظهور الفصاحة ومزيتها في القصة الواحدة إذا أعيدت
أبلغ منها في القصص المتغيرة فهذا هو الفائدة فيما تكرر في كتاب الله من
قصة موسى وفرعون وسائر الأنبياء

وأما ما تكرر في سورة الرحمن من قوله فأبى آلا و بكما تكذبان فليس يتكرر
لأنه سبحانه ذكر نعمة بعد نعمة وعقب كل نعمة بهذا القول وانما عني بالثبته
الانس والجن ومعلوم أن الغرض من ذكره عقيب نعمة غير الغرض من ذكره
عقيب نعمة أخرى وإن كان اللفظ واحدا ولا يرد أنه قد ذكر تعالى في سورة
الرحمن ما ليس من النعم وعقبه بهذا القول حيث قال هذه جهنم التي يكذب بها
الجرمون يطوفون فيها وبين جيم أن ثم قال يرسل عليكم شياطين من نار ويوحس
فلا تنتصرون لأنه انما ذكره على طريق الزجر عن المعاصي والترغيب في
الطاعات وهذا من الآلاء والنعم

وأما ما ذكره تعالى في إعادة قوله ويل يومئذ للمكذبين فإنه ذكر ذلك عند قصص
مختلفة فلم يعد تكرر لأنه أراد بجملة ذكره آلا و ويل يومئذ للمكذبين بهذه
القصة ثم لما أعاد قصة أخرى ذكر مثله على هذا الحد ولما اختلفت الفائدة
خرج عن أن يكون تكرر

وأما سورة الكافرين فليس فيها تكرار لأن المراد به لا أعبد في الحال ما تعبدون
من الأصنام ولا أنتم عابدون في الحال ما أعبد وهو الله وحده ولا أنا عابد في
الاستقبال ما عبدتم ولا أنتم عابدون في الاستقبال ما أعبد وهو الله وحده
حيث علم الله أنهم لا يؤمنون لكم دينكم الشرك ولي ديني الاسلام وهذا قبل
أن يؤمر بالحرب وانما أنزل تعالى ذلك لأن قوم لمن الكفار قالوا رسول الله
صلى الله عليه وسلم أعبد ما نعبد نحن اليوم سنة حتى نعبد ما تعبد أنت اليوم
سنة وهكذا في كل سنة حتى نشترك في العبادة على هذا السبيل فأرسل الله هذه
السورة جوابا لفتيسير بهذا المعنى يعلم أنه لا تكرار وليس المعبر مجرد
تكرار اللفظ لانعلم أن الحروف والكلمات متكررة في كل الكلام وربما
كان المشتبه في اللفظ غير مكرر في المعنى وربما كان التباين في اللفظ متكررا
في المعنى

وانما بسطنا الكلام في وجه الابعاض والمقاييس والمحكم وفيما ظاهره الساقض

أو التكرار لما وجدنا في كلام الاوروبايه عند ذكر القرآن تعداده هذه الاشياء وعددها من المعايير وشدة تغنيهم في ذلك كما يعتقد المحدثون أيضا لاسيما وان لا يدرك محاسن القرآن الاذوق العرب السليم والحصول على ملكة البلاغة الذوقية التي في قوة الجملة الثانية وهي هذه المثابة لا تكون الا لاجمعي الذي اكتسب في أجمعيته ملكة راسخة تدفع هذه الملكة العربية ولا تكاد تجامعها

وبين ذلك أن ملكة اللغة العربية هي حصول ملكة البلاغة وهي مطابقة للفظ لا معنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في افادة ذلك المعنى فالمستكلم البليغ لسان العرب يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وعن حال مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده فاذا تمكن من الاتزان بكلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على هذا الوجه وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد يفكر غير معنى البلاغة العربية ويمج ما عدا ذلك حيث وسخت ملكة في ذلك حتى ظهرت كأنها سليقة فهي بهذا المعنى ملكة لسانية في نظم الكلام عتكت ووسخت ولا تحصل هذه الملكة الا بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع واللفظ بتراكيبه التنظيمية فلا تكتسب بالقوانين الصناعية التي تفيد علما لا ملكة بالفعل فلورام صاحب هذه الملكة أن يجيد عن الأساليب العربية لما وافقه لسانه على ذلك واذا عرض عليه الكلام الخاطئ عن الأسلوب العربي وعن البلاغة مجبه سمعه لعله أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم وربما يجتز عن الاحتجاج لذلك حيث أنه بالنسبة اليه أمر وجداني

وتقريب ذلك لو فرضنا أن صيما من صيما العرب نشأ وترى في جيلهم فإنه يتعلم لغتهم ويحكم شأن الاعراب والبلاغة فيها حتى يستولى على غايتها وهذا ليس من العلم القانوني في شيء وانما هو محصول هذه الملكة في لسانه ونطقه وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجيل بحفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم والمدادومة على ذلك بحيث يحصل هذه الملكة ويصير كواحد من نشأ في جيلهم وربى بين أجيالهم والقوانين بعزل عن هذا الذوق فالذوق بهذا المعنى لا يكتسبه الا عاجم الدخول في لسان العربي الطارئون عليه المضطرون الى

النطق به لمخالطة أهله كالفرس والروم والبربر وغيرهم لقصور حظهم في هذه
 الملكة فان قصاراهم أن يعرفوها من القوانين المسطرة في الكتب فليست
 هي الملكة الذوقية المكتسبة بالممارسة والتكرار لكلام العرب وإنما كون
 سيبويه والفساري والزحشرى وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجماء
 مع حصول هذه الملكة لهم فانهم انما كانوا عجماء في نسبهم فقط وأما المربي
 والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم فاستولوا بذلك
 من الكلام على غاية لا وراهانهم وان كانوا عجماء في النسب فليسوا بأعجماء
 في اللغة والكلام لانهم أدركوا اللغة الإسلامية في عنقوانها والغة في شباها
 وأما غيرهم ممن لم يدرك ذلك فلا يتصل على هذه الملكة العربية التي انعم
 آثارها بالبعد عن الحالة العربية الأصلية التي بعد عهداوممارسة القوانين
 لا تقيده هذه الملكة فلا يكون فيه الاقتدار الذوقي لادرار الوجوه الابدعاز
 فباخذ بنظواهر الآيات فربما اشتبهت عليه نكات البلاغة بالمعاني كما يقع
 لكثير من الاغراب البعيدين عن مدارك العربية في الحيد عن الصواب
 سلوك مسلك الاحاد والافتظم الآيات القرآنية منزوعة عن كل وصحة وانما
 يعرف الفضل من الناس ذويه وبالجملة فاساليب القرآن عربية ولا يقدح
 في عربيتها وجود مفردات عربية أو موافقة لمفردات اللغات الأجنبية فقد ورد
 عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهم أنه قال لنا فخر بن الأزرق الحروري وقد
 سأله عن القرآن يا نافع القرآن كلام الله عز وجل خاطب به العرب على لسان
 أفصحها فمن زعم أن في القرآن غير العربية فقد افترى قال الله تعالى قرآنا عربيا
 وقال بلسان عربي انتهى ومن المعلوم أن في القرآن كلمات أجنبية فاما أن
 تحمل على كونها موافقة للعربية فتكون من توافق اللغات أو أنها عربيت
 وصارت عربية أو أن المقصود بكون القرآن عربيا أنه على أسلوب العربية
 فلا ينافي وجود ألفاظ أجنبية كموسى وعيسى فدخل المفردات الغير
 العربية في نظم القرآن لا يمنع من كونه عربيا اذا تصدى بالآيات فقد علمنا
 من ذلك أن لسان القرآن هو لسان محمد صلى الله عليه وسلم وأن قوله تعالى وما
 أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليسين لهم المراد من قومه في الآية هذا الحي
 من العرب وان العرب ليسوا من قومه وكذلك أنزل التوراة على موسى عليه

السلام على لسان قومه بنى اسرائيل وأنزل الانجيل على عيسى عليه السلام
لا يشاك لفظه لفظ التوراة قال تعالى وانه لتزِيل رب العالمين نزل به الروح
الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين وانه لفي زبر الاولين أولم
يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل ولونزلناه على بعض الاجيمين فقرأه
عليهم ما كانوا به مؤمنين فقولنا تعالى بلسان عربي مبين يحتمل أن الباء فيه
متعلقة بالمنذرين فيكون المعنى لتكون من الذين أنذرناهم هذا اللسان وهم
هود وصالح وشعيب واسماعيل وقد تقدم ذكرهم وأنهم مرسلون للعرب ويحتمل
أنها متعلقة بنزل فيكون المعنى نزل به على قلبك باللسان العربي لتذريه لانه
لنزل باللسان الاجمعي لقولوا له ما تصنع بما لانهم فيتعذروا لانه قتريله
بالعربية التي هي لسانه صلى الله عليه وسلم ولسان قومه تنزيله على قلبه
لانه يفهمه هو وقومه ولو كان أجمعي لكان نازلا على سمعه صلى الله عليه وسلم
دون قلبه لانه يسمع أجواس حروف لا يفهم معانيها
فالعرب جل فضيلتهم أنهم المخاطبون أولا لكون الشريعة بلسانهم ولهذا
وفق الله سبحانه وتعالى الصفاة رضى الله تعالى عنهم أنهم كانوا يخرجون من
ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله ويقفون صفوا في سبيل الله لاعلاء
كلمة الله فكانوا في السر والاجهار رهبا نبالليل وأسودا في النهار وهذا كان
ببلاد العرب سرا من أسرار التوطئة والتمهيد لقبول الاصلاح والتجديد
وهو من ارهاصات النبوة المتقدمة عليها والارهاصات المذكورة تنقسم الى
قسمين الارهاصات الداخلية والارهاصات الخارجية كما سيأتي بيانهما
في الفصلين الآتين

(الفصل الثالث)

* (في الارهاصات الداخلية) *

من المعلوم ان اختلاف البطون والعشائر وتناثر القبائل والشعوب في
المخاخرات أخذ في المحو والزوال واستعيص عنه التواطؤ واتفاق الكلمة
لما تبين للعرب الوقوع في الذل والخذلان من هجوم الاجانب بقصد التغلب
على العرب واذلال أعزتهم والسطوة على حريتهم وذلك لان جزيرة العرب

كان يسطو عليها من جهة الشمال دولة الروم ومن جهة الشرق أهل فارس
ومن جهة الجنوب الحبشة فاستشر العرب قبل الاسلام بأنهم لا ملجأ لهم
من هذه الاقوام الا اجتماعهم واتحادهم وانظلمهم في سلك الجنسية
الواحدة حيث أفادتهم اغارة الاجانب عليهم عزة وموعظة ورواوا أن حماية
وطنهم العموي مما ينبغي أن يهتم به جميعهم ويشتركون في الغلب عن حريته
واستقلال وحدته الوجودية فدبروا تدبيراً أضعفوا به أعداءهم باغراء بعض
الدول الاجنبية على بعض وايقاع الشقاق بينهم ولما غارت في أيام عبد المطلب
أبرهة الاشرم صاحب القيل ملك الحبشة على مكة المشرفة ترتب على ذلك
مزية وطنية لقرين عادت عليها بالمنفعة العمومية وذلك انه لما كان النبي
صلى الله عليه وسلم حلالاً في بطن أمه حضر ابرهة الاشرم ملك الحبشة يريد هدم
الكعبة وكان قد بنى كنيسة بصنعاء اليمن لما كان مستولياً عليها وأراد أن
يصرف اليها الحاج فخرج رجل من بني كنانة فقدم اليه لادقضى حاجته بها
فأغضبه ذلك وحلف ليهدم الكعبة فخرج ومعه جيش عظيم ومعه فيه محمود
وكان قواً عظيمين اثنا عشر فيلًا غيره فلما بلغ المغس كعظمت ومحدث وهو
موضع بطريق الطائف على ثلثي فرسخ من مكة مات دليله أبو رغال هناك
فرجعت العرب قبره والناس يرجونه الى الآن ثم ان ابرهة بعث خيلاً الى
مكة فأخذت مائتي بعير لعبد المطلب فهم أهل الحرم بقتاله ثم عرفوا أنهم لا طاقة
لهم به فتركوه وبعث ابرهة الى أهل مكة يقول لهم اني لم آت لخر بكم وانما جئت
لهدم هذا البيت فان لم تعترضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم فقال عبد
المطلب لسفيره والله لا تريد حربي وما تنابه من حاجة هذا بيت الله وبيت خليله
ابراهيم صلى الله عليه وسلم فهو يحمي به من يريد هدمه ثم خرج عبد المطلب الى
أبرهة وكان عبد المطلب جسيماً وسيماً ما رآه أحد الا حبه وكان يحجب الدعوة
فضيل لابرهة هذا سيد قريش الذي يطعم الناس في السهل ويظم الوحش
والطير في رؤس الجبال فلما رآه أجله وأجلسه معه على سريره ثم قال لترجانه قل
له سل حاجتك فقال حاجتي أن يرد المالك علي مائتي بعير أصابني فلما قال ذلك
قال له ابرهة قل له قد كنت أعجبني حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كنتني
أتكلمني في مائتي بعير وتركت بيتا عوديتك ودين آبائك قد جئت لهدمه فلم

تكلفي فيه فقال عبد المطلب اني انا رب الابل وان البيت وياحميه منك قال
أبرهة ما كان ليصمتي مني فقال عبد المطلب أنت وذاك فردأبرهة على عبد
المطلب اياه ثم انصرف الى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة
الى الجبال والشعاب ثم قام عبد المطلب فأخيد بحلقة باب الكعبة ودعا الله
تعالى ثم قال

لا هم ان المرء يمنع - له فامنع حلالك
وانصر على آل الصديق - وعاديه اليوم آلك
لا يغلبن صليهم * ومحالهم أبد المحال

ثم أرسل حلقة الباب وانطلق هو ومن معه من قريش الى الجبال ينظرون
ما أبرهة فاعل بمكة اذا دخلها

فخذت جانت قدرة الواحد الاحد القادر المقدر فأصبح أبرهة متنيا لدخول
مكة وهدم البيت وقدم فيه محمدا أمام جيشه فلما وجه القيل الى مكة كان
ما قصه الله تعالى في سورة القيل من ارسال الطير الابليل ترميهم بحجارة
من مصيل فتساقطوا بكل طريق وهلكوا على كل منهل وأصيب أبرهة حتى
تساقط أنمله أنمله حتى قد صوابه صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فمات حتى
انصدع قلبه عن صدره وانقلت وزيره وطائر يخلق فوقه حتى بلغ التجاشي
فقص عليه القصة فلما أتمها وقع عليه الحجر فخر ميتا بين يديه

ومن هذا الوقت صارت مكة المشرفة مستقلة بحكم نفسها وعز ملكها
وسلطانها واقتضرت لذلك لانها أم القرى وكان اذا دعى عبد المطلب جد النبي
صلى الله عليه وسلم رأس قريش وأكبر حكامها وهو أحد من حرم الخمر في
الجاهلية جعل مكة مركزا ما يجمع أشبات القبائل المتفصلة ويتطمهم
في سلك واحد لتقوى شوكة العرب بالوحدة الجنسية وتجهز أهل جزيرة
العرب لادراك فضيلة الوطنية العمومية

ولما كان سيف بن ذي يزن قد غفر بالحشة وظهر عليهم باليمن وأجلاهم عنها
وذلك بعد موادة النبي صلى الله عليه وسلم بسنين أتاه وفود العرب وشعراؤها
للهنشة ويذكرون ما كان من بلائه وطلبه بتأرقومه فسار عبد المطلب الى
صنعاء اليمن ومعه وفد قريش فكان من أشرفهم أمية بن عبد شمس وعبد الله

ابن جعدان وخو يلد بن أسد بن عبد العزى ووهب بن عبد مناف بن زهرة
 وغيرهم من وجوه قريش وزيئهم عبد المطلب وكان المقصد الظاهري لو قد
 قريش هو التهنئة للملك اليمن على نصرته على عدوه والاخذ بأرقومه بالنيابة عن
 قريش والمقصد الاعظم من هذه الزيارة والغرض الحقيقي الحامل عليها هو
 عند التوادد والتصاب وربط العلاقات بين الحجاز واليمن فقدموا عليه وهو
 في رأس قصر عمدة ان يصنعاء فاستأذنوا عليه فأذن لهم فدخلوا عليه فاذا هو
 عليه بردان مؤزر بأحداهما من ثياب الياخرو سيفه بين يديه وهو متضح
 بالمسك والعنبر وعن عيونه ويساره الملوكة وأبناه الملوكة والمقاول فدنا عبد
 المطلب منه فاستأذنه في الكلام فقال ان كنت ممن يسلمك بين يدي الملوكة فقد
 أذنالك فقال أيها الملك ان الله عز وجل قد أحلك محلا رفيعا صعبا منيعا شامخا
 باذنا وأبتك منبتا طابت أرومته وعزت جروتمه قد ثبت أصله وبسقى فرعاه
 في أكرم معدن وأطيب موطن فأنت أيت اللعن ملك العرب الذي تأوى
 اليه وعمودها الذي عليه العماد ومقلها الذي يلجأ اليه العباد سلفك
 لنا خير سلف وأنت لنا منهم خير خلف فلن يجعل من أنت خلفه ولن يحمل
 من أنت سقته

ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدة بيته أشخصنا اليك ابتهاجا بـ كشف
 الكرب الذي قد حنا فخص وقد التهنئة لا وقد الرزينة قال ابن ذريزن وأبيهم
 أنت أيها التسلم قال انا عبد المطلب بن هاشم قال ابن أخننا قال نعم فأذناه
 وقرب مجلسه ثم أقبل عليه وعلى القوم وقال مرحبا وأهلا وناقة ورحلا
 ومستنأ خاسهلا وملكك اسهلا يعطى عطاء عزلا قد سمع الملك مقال تسلمكم
 وعرف قرا تسلمكم وقبل وسيلكم وأنتم أهل الليل وأهل النهار لكم الكرامة
 ما أتمم والحباء اذ ارحلتم ثم استنضوا الى دار الضيافة والوفود فأقاموا شهرا
 لا يصلون اليه ولا يؤذن لهم في الانصراف ثم اتبعه لهم اتباعه فأرسل الى عبد
 المطلب ليلا فأذناه وقرب مجلسه وبشره برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وخلافة
 بنى العباس وأوصاه بالمحافظة عليه صلى الله عليه وسلم من أعدائه وان يطوى
 ما ذكره له وما بشره به في حق محمد عن معه من الوفود قال لست امن من انه
 تدخلهم التفاسه من أن تكون له الرئاسة فيبعون به القوائل وينصبون

له الحبائل وأبناؤهم فاعلمون ثم قال فلولا اني أعلم ان الموت محتاج قبل مبعثه
لسرت بجحلي وربلي حتى أصير يثرب دار ملكي فاني لاجد في الكتاب الناطق
والعلم السابق ان في يثرب استصكام أمره وأهل نصره وموضع قبره ولولا
اني أقيه الآفات واحذر عليه العاهات لاعلنت على حدائه سنة أمره
وأوطأت اسنان العرب كعبه ولكني صارف ذلك اليك بغير تقصير عن معك
ثم انه أمر لكل رجل من القوم بمائة من الابل وعشرة أعبد وعشر اماء
وعشرة ارطال ذهب وعشرة ارطال فضة وكرش مملوءة عنبرا وحلتين من حبل
الين وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك وقال اذا جاء الحول فأني بأمره
وما يكون من خبره فمات ابن ديزل قبل أن يحول عليه الحول فكان عبد
المطلب كثيرا ما يقول يا معشر قريش لا يغبطني عما يقي لي ولعقبتي من بعدى ذكره ونخوه
وان ذكر فانه الى تضاد ولكن لا يغبطني عما يقي لي ولعقبتي من بعدى ذكره ونخوه
وشرفه فاذا قيل وماذا ليا عبد المطلب قال ستعلمون نبأه ولو بعد حين فهذه
كلها ارهاصات داخلية وتأسيسات لدولة عربية

(الفضل الرابع)

في الاوهاصات الخارجية والتأسيسات الاجنبية المعينة
في العادة على تمييز ما جرت به الارادة الالهية

ولو ان الدولة الاسلامية كان جميع مبادئها خوارق عادات ومواد تأسيسها
حقائق معجزات وكرامات الا أنه جرت عادة الله في خلقه اذا أراد شيئا سهل
أسبابه والأسباب المذكورة قد تكون عادية وانما لمباتها خوارق العادة
فالدولة الاسلامية ظهرت عقب حوادث عجيبة سهلت تنفيذها فن التمهيدات
للمبعث النبوية والارهاصات التجهيزية ضعف الدول المجاورة للعرب فانه في
أثناء خطور الاجتماع من العرب وان يكونوا على قلب رجل واحد ونصورهم
الانظام في سلك الوحدة الوطنية ظهرت امارات قوية يتوسم منها استقلال
جمعية القبائل العربية وانظام أحياء العرب في سلك هيئة اجتماعية متدنية
يتكون منها دولة قوية وهذه الدلائل هي الحروب العظيمة التي وقعت اذ ذلك
بين الروم وفارس كما سلف ذكره عند ذكر قباصرة القسطنطينية فان المنازعات

الدولتين طالت ولم تنته الا بعد البعثة النبوية على صاحبها افضل الصلاة
وأزكى التحية

وذلك أن كسرى تغلب على بلاد الموصل والشام وفلسطين ومصر وسلب هذه
الاقاليم من أيدي الروم ولم تحك في أيدي الفرس حيث بادروا بقتل قيصر
الروم بنزعها من أيديهم وساعدته المقادير على ذلك ومع هذا فكادت الحروب
المستمرة قد اتعبت كلتا الدولتين وأضعفت قواهما ومرتقت مدنها ما كل بمزق
لا سيما دولة الروم وكانت همة الاهالي قد كفت من ضرب المكوس والعوائد
والجمار لبضرائب ثقلها لا تطاق كما شئت من كثرة جور كل من الدولتين على
الرعيا وعسفهم القاحش وتكاليفهم بالاموال العظيمة التي أنفقتها هذه
الحروب المتكررة بلا غرة ولا فائدة تعود على الاهالي فاشتد لكرب عليهم من
ذلك وضاقوا ذرعا وكذلك أفضت الحروب بكلتا الدولتين الى الوهن وفقد
الشوكة حتى لم تكن دولة منهما تقدر على مقاومة العرب مع ما يناف الى ذلك
من شدة وهن دولة الروم بالاختلاف في الدين وتشعب الملة العيسوية الى الفرق
المختلفة في العقيدة المتعادية أشد العداوة بحيث ان دين عيسى عليه السلام
قد اختلف عن أصله واتسع هذا الاختلاف في أطراف وأكاف الروم
المتنصرة وفي الجهات التابعة لهم في الدين لاسيما في مصر فكانت جميع البلاد
محتاجة للإصلاح وتقويم اعوجاجها وتعديل مزاجها فكان ظهور الدين
المحمدي اذ ذلك قد صادف محلا ووجد فرصة ينهزها فكان ظهور الدين
استعدادا لقبول شريعة خير الانام والدخول في دين الاسلام بالهداية
أو بالسيف وصار من أسلم من العرب هو جند الله الغالب في المشارق
والمغرب

ومن المعلوم أنه صلى الله عليه وسلم لما كان أصلا للكنائس أظهر الله منه
العرش والفرش وما بينهما فصار في مراتب العوالم الروحانية والجسمانية
الى أن ظهر وجود الشريف العنصري وبظهوره تم المطلوب فلذلك كان
آخر الانبياء وخاتم المرسلين وسيد الاولين والاخرين صلى الله عليه وعلى
آله وأصحابه ومن تبعهم الى يوم الدين وسيأتي في المقالة الخامسة بيان نشأته
الروحانية ونشأته العنصرية الجسمانية فهو صلى الله عليه وسلم مرسل رجة

للعالمين فعند مبعثه كذلك كان من الصدفة أن هرقل قيصر الروم وكسرى
 برون ملك الفرس قد حصل بينهما مشاركة صلحية تقتضي أن كلا منهما يحفظ
 حدود مملكته الأصلية ولم تكن هذه المشاركة في الحقيقة إلا عبارة عن
 متاركة ومهادنة بين الدولتين فبينما كسرى جالس في إيوانه يتلقى سفراء
 الدول الأجنبية وهو فرح مسرور بزيارته وزيارته وجلالة قدره وعظمة
 سلطانه يكاد أن تصده رعاياه لهيئته وكبريائه إذا خبر أنه وقد عليه قاصد من
 النبي العربي صلى الله عليه وسلم بكتاب فأمر بإحضار الرسول وكان الكتاب
 على يد عبد الله بن حذافة وقيل مع غيره وصورته بسم الله الرحمن الرحيم من
 محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله
 ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله
 أذعول بديع الله فاني أنا رسول الله إلى الناس كافة لا نذر من كان حيا ويحق
 القول على الكافرين أسلم تسلم فان أبيت فعليك أثم الجحوس فاخذ كسرى منه
 الكتاب ولم يقف إلا على قراءة صدره ومزقه قبل أن يعلم ما فيه وقد سبقت
 الإشارة إلى ذلك عند ذكر هرقل ملك الروم وأنه لما مزقه وأخبر بذلك صلى الله
 عليه وسلم قال مزق الله ملكه فكان كما قال صلى الله عليه وسلم على أن انصداع
 الإيوان وقت ولادته صلى الله عليه وسلم من دلائل انصداع ملك فارس
 ولا غراب في تنزيق كسرى الكتاب النبي صلى الله عليه وسلم لشدة كبريائه
 وعظمته مع مناهز ذلك لغلبة هرقل ملك الروم عليه لأنه كان يرى في نفسه أنه
 ملك الملوك وسلطان السلاطين فحجب من كون أحد أشرف العرب قد قدم في
 الكتاب اسمه على اسمه ففهم كسرى منه قصد العلو والشرف عليه فغضب
 لذلك ومزق الرسالة الشريفة فكان كالساعي لحنفه بظلفه
 فلما تقدم الإسلام بسرعة الفتوح واتسعت دائرته تعجبت دولة فارس من ذلك
 غاية العجب لأنه لم يخطر ببالهم أنه أن أوان وقوعهم في الأخطار والمهلكات
 ودوران رعي الشدائد عليهم وزوال دولة ملكهم التي هي أعظم الممالك
 ولا ظنوا أن الإسلام يفتح عندهم جميع الأبواب والمسالك ولا أن دولة العرب
 تصل إلى هنالك وأما هرقل ملك الروم الذي دفع الوافد عليه بالتى هي أحسن
 ولم يسلك السبيل الأخشن فلم يمزق ملكه إلا باستيلاء الإسلام وكان كل ذلك

ببركته صلى الله عليه وسلم وعلى أيدي صحابته الكرام فقد استبان من هذا أن
وفائع الاحوال السالفة على البعثة كانت لحكمة الهية ومعونة ارهاصية
لما تقتضيه رسالة النبي عليه الصلاة والسلام من الغزو والجهاد في سبيل الله
لاعلام كلمة الله وسيأتي في المقالة الخامسة ذكر ما يتعلق به صلى الله عليه وسلم
من ظهوره وبعثته وأحواله وشؤنه وسيرته الشريفة وما كان من أصحابه
رضي الله تعالى عنهم من جهادهم في سبيل الله وفهمهم الامصار التي من جلتها
مصر كناية الله في أرضه التي كان قصها في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب
رضي الله تعالى عنه على يد عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه وما يتعلق بالديار
المصرية الى عهدنا هذا

قد تم الجزء الاول من توفيق الجليل في أخبار مصر وتوفيق بن اسمعيل ويليهِ
الجزء الثاني وأوله المقالة الخامسة في ظهوره صلى الله عليه وسلم فبجنته تعالى
وعونه وحسن توقيفه وعناية ولي النعم الاكرم بصير انعام الجزء الثاني على
أكمل حال وأجل منوال ويعتد ايضا من المحاسن المصرية التي تجددت
في أيام خديو المملكة الجليلة المصرية أبقام مولا بجاء محمود من والاه صلى
الله عليه وعلى آله الطاهرين وصحبه أجمعين

وقد أرخ فجلنا الناجب على ملك فهمي هذا الجزء بهذه القصيدة فقال

أدركنا أيها السرى * راحبا للنفوس رى
واغنم بها فرصة التهانى * فوردها للظما روى
واستجلبها من يدى غرير * يرى به البسمال رى
فى اللفظ والتغرمعدرة * والعقد فى الجيد جوهرى
فى لحظة والسيوف نوع * جناسها فيه معنوى
بعينه للامام سكر * وانما الريق سكرى
قوامه الفصن مدتنى * وقته اللدن سمهرى
جذب راح الهنا انشراحا * فى روضة زهرا جنى
يزين أزهارها عهاد * ومعها جاد والولى
وعندليب السرور فيها * صب بها هائم شجى
ونفرا بأمانا بسيم * ووجه آمانا بهى

قد جاد في مصر بالاماني * عصر لنا بالمضي مضى
 كيف وفي مصرنا عزيز * عن مدح كل الوري غنى
 لكسب العلا التفات * وقدره في الملا على
 في السلم من راحته غيث * وفي الوغي لبها الضرى
 احيا بمصر لنا علوما * عبيدها للورى ذكى
 زهورها اثمرت لبحنى * والعلم ان صم ازهرى
 فيها تبنت محسنات * في نشرها بالعصور طي
 اجلها رتبة كتاب * توفيق توثيقه جلي
 تاريخ مصر لقد ساي * وهو يكسب التناحرى
 ولي عهد به نسي * يا حبذا العهد والولى
 اسم لقد وافق المسحى * ومن سما كفوه السمى
 ابدى العالى فارخوه * تاريخه مبدأ زهى

سنة ١٢٨٥

قد وافق علم طبعه وظهور نفعه اقتتاح صفرا لخبر من
 سنة ١٢٨٥ خمس وثمانين ومائتين وألف من هجرة
 من خلقه الله على كل وصف فالمد لله الذى
 بنعمته تم الصالحات والصلاة والسلام
 على صاحب المعجزات وعلى
 آله وأنصاره وعترته
 وأصحابه

تم

٢	١٢٨٥	١٢٨٥
١	١٢٨٥	١٢٨٥
١	١٢٨٥	١٢٨٥
١	١٢٨٥	١٢٨٥
١	١٢٨٥	١٢٨٥
١	١٢٨٥	١٢٨٥
١	١٢٨٥	١٢٨٥
١	١٢٨٥	١٢٨٥
١	١٢٨٥	١٢٨٥
١	١٢٨٥	١٢٨٥

۲۲,۲۲۲	دانشگاه
۱/۱	فصل
	نکته



STATE CENTRAL LIBRARY
Hyderabad.

This book should be returned
on or before the date marked
below. In case of delay an over-
due charge of six rs. per day per
book will be collected.

Please keep the book clean. Do
not tear up or stain the leaves
nor make pencil or other marks
upon them.

--	--	--